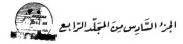


وسي فراله والمراقة المراقة الم

وِل وَايريل ديورَانت

	عصر ألائمان
الهبئة العامة لكتبة الأسكندرية	***
رقم التصنيف:	تَرجمَــة
(és limest: 12.17/9)	مجمّد بَبرَران



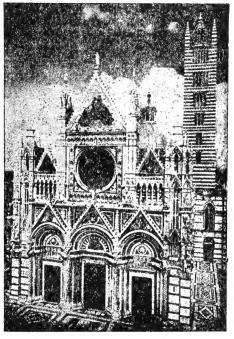
idria Library (GOAL







حقوق الطبع محفوظة



(الصورة رقم ۱) راجهة كتدراثية سينا

فهرس الصور

مداوطا دقم الصنعة		ر،	ق السو
ة كتدرالية سينا أول الكتاب	واجه	1	امورة
ة وردية – كخرائية أرثينو أمام ص . ؛	وأجها	۲	•
يزانو امام ص ٢٠٠٠ يوانو	-	٣	
الية استراسر - وو وو وو موه موه مدر وو وو أمام صرفة	كتدر	\$	
مة – من كتفرائية استراسبرج أمام ص ١٣٩	الكنيد		
– من كتدرائية استراسبرج آمام ص ١٣٩	المبد	٦	
- من كتدرائيية بامبري أمام ص ١٦٨	موج	٧	
ة إليصابات من كتدراثية بامبرج أمام ص ١٦٨	القديب	٨	
وزوجته أوقاً من كندرائية قومبرج أمام ص ٢١٣	إخارد	٩	
الحلق لكتدرائية سلمنة أمام ص ٢١٨	المنظر	١.	
كتدرائية ستياجره كيستيلا المام ص ٢٤٨	داخل	11	•

الفهدرس

سفعة	JI						ے	لعارف	ال ال	أنتة	: ა		للوضو _. م وال		الباب
,						•••							لأول	_	
				***			٠			کثب	عالم ال	:	ئائى	مبل ال	ألق
10										۵	المتر حم	:	عالث	مبل اا	آلة
**						•••					المدارم	:	رابع	عبل ال	الة
YA				***	***	***		•••	أروب	ے ایا	جامعاد	:	للاس	مبل ا	أؤن
77				•••				•••	إنسا	ې قر	جامعان	:	ـادس	ممل اا	الة
# #				***		•••			بطترا	1 0	جامعاد	:	سابع	عمل ا	äl
11			***		•••			***	ب	الطار	حياة	:	ئثامن	نصل ا	ill
									در	آباد	ۈن :	t t t	س وا	الخام	المياب
۰۸	***			***	***		•••	***	لمية	الة	لفلمفة	1 :	گو <u>ل</u>	مل ا	割
													لثاتي		
٧٧			•••	•••	***	***	•••	مقلية	عة الد	، النز	ماحب	:	فالث	نصل ا	الة
													رابع		
A.	•••		•••	•••	•••	***	•••	***	***	•••	الدين	:	أنامس	نصل ا:	ألة
							مّل	ت ال	نامواد	io :	ثون	lbC	س وا	الساد	الياب
													الأو ل		
1	***	***	***	•••		•••	***	•••	باريس	٠.	أرسطو	:	لثائى	نصل ا	U
													لثالث		
11.		•••		***		•••	•••	رسية	غة المد	القل	تطور	:	لرابع	نصل ا	SI.
													للامس		
													لبادس	نسل ا	Jt.
											(1)				
114															
											(٢)				
144															
141															
						•••									

منفية					الموضوع
128			***		ν) الدين
110	•••				(٨) كيف استقبلت فلسفة تومس
1 # *	•••		•••		الغصل السابع : خلفاء تومس
					الباب السابع والثلاثون : العلوم المسيحية
A o f	•••	•••		***	الفصل الأول ؛ البيئة السحرية
					الفصل انثانى : الثورة الرياضية
140					الفصل الثالث : الأرض وحياتها
141		•••	•••	•••	الفصل الرامع : المادة والطاقة
147		•••	•••		الفصل الخامس : إحياء علم العلب
7					النصل المادس : ألبرتس مجتس
7 . 0		***	***		الفصل السابع : روچر بیکن
778	•••	***			الفصل الثامن : أصحاب الموسوعات
					الباب الثامن والثلاثون : عصر الخيال
YYY					الفصل الأول ؛ إحياء اللعة اللاتينية
48 .			***	•••	الفصل الثاني ؛ الخمر والمرأة والأغاني
					الفصل الثالث : بعث التمنيل
107		•••			الفصل الرابع : الملاحم والقصص المنثورة
777			***		الفصل الخامس : شمراءُ الفروسية الغزلون
					الفصل المادس : المتصورة بالمنعر من الألمان
					الفصل السابع : الروايات الغرامية
3 . 7	•••		•••	***	الفصل التامن : الرجوع إلى الهجاء
					الباب التاسع والثلاثون : دانتي
					الفصل الأولى : شعراء الفررسية الغزلون العرنسيون
					الفصل الثانى : دانتي وبياتريس
					الفصل الثالث : دانتي في تحار السياسة
					الفصل الرابع ؛ الملهاة المقاسة
					٠٠٠ منه ٠٠٠ القصيلة (١)
777	•••	•••		***	٠٠٠ ١٠٠ ١٠٠ المعيم ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠
222	•••				(٣) المطهر
					(1) السموات
					الخاتمة : ترأث العصور الوسطى ه
T.V			•••		المراجع المراجع

البا*سالالع والب*لا ثون انتقال المعسادف

14... - 1...

الفضيل الأول

نشأة اللغات القومية

حافظت الكنيسة إلى حد ما على وحدة أوربا الغربية التي حققها الدولة الرمانية وحافظت كلك شمائرها وعظائها وممارسها على تراث روماني لم يبق له وجود في هذه الآيام — هو لغة دولية يفهمها جميع السكان المتعلمين في إيطاليا ، وأسهانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، واسكنديناوة ، والأراضي الوطيئة ، وألمانيا ، وبولندة ، وبلاد الجلقان الفربية . لقد كان المتعلمون من أهل تلك المبلاد الجماد اللبقان الفربية في مراسلاتهم ، وفي معبلات أعملهم المتجارية والمالية ، والديلوماسية ، وفي القانون والأحمال المكومية ، وفي العلم والقلسفة ، وفي آدامهم كلها تقريباً قبل القرن الثالث عشر . وكانوا يتكلمون اللغة اللاتينية على أنها لغة حية ، تشتق في كل يوم كلمة أو عبارة جديدة للدلالة على المقائق أو الأفكار الجلميدة أو المتغرة في حياتهم ، وكانوا يكتبون رسائل باللاتينية من أبسط خطابات الحب الموافقة الموائلة الرسائل القصحي الطويلة المتبادلة بين هلواز وأبلار (*) Héloise and . ولم يكن الكتاب يوافع أهمة بل لقارة ، ولم يكن بالكتاب يوافع أهمة بل لقارة ، ولم يكن الكتاب يوافع أهمة بل لقارة ، ولم يكن بالكتاب يوافع أسكان المتعابدة بن هواز وأبلار (*) Abélard

 ⁽ه) انظر هذه الرسائل وقسمًا في كتابنا و أشهر الرسائل العالمية ه.
 (المترجم)

إلى ترجمة بل كان ينتقل من قطر إلى قطر بسرعة وحرية غير معروفتين في هذه الأيام . كما كان الطلاب ينتقلون من جامعة إلى جامعة دون أن تصادفهم عقبات اللغة ، وكان في وسع العلماء أن يحاضروا باللغة نفسها في يولونيا ، وسلمنقة ، وباريس ، وأكسفورد ، وأبسالا Uppsals المولونية ، ولم يكونوا يترددون في استعارة كلمات جديدة وضمها إلى اللغة اللاتينية ، وإن كان دلك يزعج في بعض الأحيان الآذان التي اعتادت سماع لغة يتراك وشيشرون . وهكذا يستخدم الديد الأعظم الإنجليزية كايمسح أن و يقبض على رجل حر أو و يسجن » . وأمنال هاتين الكلمتين ثقيلة الوقع على آذاننا ، ولكنها قد أبقت اللغة اللاتينية حية ؛ وإن كثيراً من الألفاظ الإنجليزية الحيث – مثل essence و whathis و substantive و substantive و الوسطى .

غير أن انفصام الصلات الدولية الذي أدى إليه سقوط رومة ، وانتشار الفاقة في العصور المظلمة انتشاراً أدى إلى انطواء الناس على أنفسهم ، وفساد الطرق وكساد التجارة ، كل هذا أوجد في الكلام تلك الاختلافات التي ما ابنت أن انسعت بسبب عزلة المتحدثين با بعضهم عن بعض . بل إن اللغة اللاتينيه كانت تعانى في أوج عزها بعض التغيرات القومية الناشئة من اختلاف المناخ وأساليب المنطق المترتبة على تركيب أعضائه . وكانت قد تبدلت في موطنها الأصلى نفسه . وكان موت الأدب قد أفسح الميدان لمفردات الرجل العلى وتراكيب جمله ، وهي مفردات وتراكيب جمله ، وهي مفردات وتراكيب كانت تختلف دائماً عن أقوال الشعراء والخطياء . وجاء تدفق وتراكيب كانت تختلف دائماً عن أقوال الشعراء والخطياء . وجاء تدفق الألمان ، والمغالين ، والمونان ، والأسيويين على إبطاليا باختلافات كثيرة في النطق ، ومخلص اللسان والعقل الكسولان بقطرتهما عمل في الحديث القصيح النطق ، ومخلص اللسان والعقل الكسولان بقطرتهما عمل في الحديث القصيح

⁽ ه) ومعناها المبشل ، والاسم (في النحو) ، والجوهر ، والكيان . (المترجم)

الدقيق من علامات التصريف والإعراب فأضحى حرف H لا ينطق به في اللغة اللاتينية المتأخرة ، وبعد أن كان حرف ٧ ينطق به في اللغة الفصحي كما ينطق بحرف W في اللغة الإنجلىزية أصبح ينطق به كما ينطق بحرف V الإنجليزي . وامتنع النطق بحرف N قبل S فكلمة mensa (الماثلة) أصبح ينطق مها nesa ، وتغير النطق بالحرفين المتصلين Æ و كان ينطق سهما في اللغة الفصحي كما ينطق بحرف ١ ، ٥١ في اللغة الإنجلىزية فأصبح ينطق مهما كحرف A الإنجلنزي الطويل أو حرف E الفرنسي . ولما كانت الحروف الساكنة في آخر الكلمات قد مضغت أو نسيت cilo, ciel (Coelum, f rex, re,roi f portus, porto, porte) اقتضى ذلك أن تستبدل حروف الجر بعلامات الإعراب في الأسماء ، وبعلامات التعريف في أواخر الكليات أفعال مساعدة . وتبدل أسماء الإشارة القديمان ille ، إن illa ، أصبحا هما أدوات التعريف ila ، le ، lo ، el ، il واقتضب لفظ unus (واحد) اللاتيني ليكون أداة التنكير un . ولما انعدم تصريف الأسماء صار من الصعب أحيانا أن يعرف هل الأسم فاعل أومفعول قبل الفعل أو يعده . وإذا ما تدبر الإنسان هذه العملية - عملية التبدل المستمر الممتد طوال عشرين قرنا من الزمان جاز له أن يقول إن اللغـــة اللاتينية لا تزال هي اللغة الحية الأدبية في إيطاليا ، وقرنسا وأسبانيا ، لم تتغير عن لغة شيشرون إلا بقلىر ما تغيرت لغته هو لغة رميولوس أو الهتنا نحن(*) عن لغة تشوسر .

وكانت أسهانيا قد بدأت تتكلم اللاتينية منذ عام ٢٠٠ ق . م لا بعد ،
وما وافى عهد شيشرون حتى اتسعت الهوة بينها وبين لاتينية رومة اتساعا روع
شيشرون لما بدا له من رطانة قرطبة البربرية . وكان اتصال هذه اللغة اللاتينية
بلهجات أيبيريا سبباً فى ترقيق الحروف الساكنة الملاتينية فى أسهانيا : فرقت
بلهجات أيبيريا سبباً فى ترقيق الحروف الساكنة الملاتينية فى أسهانيا : فرقت
Totum ، و A إلى O و C الم

^(۽) لغة الأمريكيين والإنجليز . (المترجم)

أصبحت obra و cobra أصبحت iglesia . كذلك رققت اللغة الفرنسية الحروف الساكة اللاتينية ، وكثيراً ما أسقطها في النطق وإن ظلت عضفظة بها في الكتابة : est « église « ocuvre « tout » و نطق بالقسم عضفظة بها في الكتابة : Louis the German . و فرال الحسور بلختن اللي أقسمه لويس الألمائي Louis the German . وشارل الحسور بلختن معه الألمانية والهرنسية أحمي كانت لا تر ال لاتينية إلى حد سميت ما سمته فرنسا لختن : lingua romana وهي لغة فرنسا الواقعة في جنوب بهر الله الواقعة في جنوب بهر الله الواقعة في جنوب بهر الله والمنابق المنابق المنابق

وكونت إيطاليا لفتها القومية ببطء أكثر مما تكونت به لغنا أسبانيا وإيطاليا . ذلك أن إللاتينية كانت لغتها الوطنية ، وأن رجال الدين ، وهم الذبن كانوا يتكلمون اللغة اللاتينية ، كانوا كثيرى العدد في إيطاليا ، وأن استمرار

⁽ و كدك الثلاثة السطور الأولى من هذا القسم على البطء الذي نشأت به المتنان الفرنسية "Pro Deo amme et pro Christian poblo et notre Commun salvament. و الأثنائية dist di in avant, in quant Deus savir et podir me punt". "In Gedes min a led in these Christian folches unser bedhere gealnissi, fon thesemo dage frammordes, so frame so mir Oot gewizel indi madis forgibit"

وترجمها العربية هي : حبا في اقد ، و لمير الشعب المسيحي ، ولنجاتنا جميعا ، و من هذا هجوم إلى با يعده ، يقدر ما يهيني الله من الحكمة والقوة به .

⁽ه.) منى الفطين co و 00 كليمها ، فيم أو هذا ، وكل الفرق هو في طريقة النطق بالمفظ للذي يحمل هذا المعنى . (المترجم)

تقافها ومدارسها منع اللغة أن تتغير ينفس اليسر والتحرر اللذين تغيرت سما في بلاد ذات تقاليد متقطعة غير متصلة .

ولقد كان القديس أنطونيوس أحد رجال الدين في پدوا في ذلك العام المتأخر عام ١٢٣٠ يخطب العامة باللغة اللاتينية ؛ بيد أن عظة لاتينية ألقاها فى پدوا نفسها عام ١١٨٩ أسقف لاتيني زائر كان لا بد أن يترجمها إلى اللغة الدارجة أسقف من أساقفة تلك المدينة(٣). ولم يكد يكون للغة الإيطالية وجود في بداية القرن الثالث عشر ؛ وكل ماكان في إيطاليا في ذلك الوقت · نحو أربع عشرة لهجة ، كانت هي استمرارًا وتحريفاً متنوعاً للهجات السوقة لا تكاد إحداها يفهمها الباقون الذين لا ينطقون بها ، وتعتر كل منها عا بينها وبين غيرها من فروق اعتزازاً مبعثه العنصرية العارمة ؛ وكان لكل حي من الأحياء المختلفة في المدينة الواحدة ــ كمدينة بولونيا ــ في بعض الأحيان لهجة محتلفة . لهذا كان لزاماً على أسلاف دانهي أن يخلقوا لغة ، كما كان عليهم أن يخلقوا أدبًا . ولقد حسب الشاعر في أحد أخيلته الظريفة أن الشعراء الغزلىن التسكانين اختاروا أن يكتبوا شعرهم باللغة الإيطالية لأتهم كانوا يكتبون في الحب ، ولأن السيدات اللائي كن يخاطبونهن قد لا يفهمن اللغة اللاتينية ٢٦٪ . غير أنه مع هذا تردد في عام ١٣٠٠ بين اللغة لللاتينية واللهجة التسكانية أبهما يختار لكتابة ال**سمرة الابلهية** . وكان الفارق البسيط بِن اللغة التي اختارها والتي لم يحترها هو الذي أنجاه من النسيان ﴿

وبينا كانت اللغة اللاتينية تنقسم وتتولد منها اللغات الرومنسية ، كانت اللغة الأبلانية القديمة تتفتت هي الأخرى إلى اللغة الأبلانية الوسطى ، واللغة الفريزية ، والمولندية ، والفلمنكية ، والإنجلزية ، والمدخرقية ، والسويدية ، والمرويجية والأيسلندية . وليست عبارة والألمانية القدعة ، إلا تعبيراً سهلا يشمل اللهجات الكثيرة التي كانت تفرض سيادتها القبلية أو الإقليدية في ألمانيا قبل عام ١٩٠٠ :

وهي اللهجات الفلمنكية ، والهولندية ، والوستفالية (الغالية الغربية) والإيستقالية (الغالبة الشرقية) والألمانية Allemanic ، والباڤارية ، والفرنكونية ، والثورنجية ، والسكسونية ، والسيكنزية وتطورت اللغة الألمانية القديمة إلى الألمانية الوسطى (١٠٥٠ ـ ١٥٠٠) وكان من أسباب هذا النطور تدفق الكلمات الجديدة التي جاءت مع ألدين المسيحي. ذلك أنْ الرهبان القادمين من أيرلندة ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا جدوا في وضع المصطلحات التي كانوا في حاجة إلها لترجمة الألفاظ اللاتينية . فكانوا في بعض الأحيان ينخلون كلمات لاتبنية بنصها إلى اللغة الألمانية ــ مثل Kaiser (قيصر) و Prinz (أمير) و Legende (قصة)؛ وتلك لصوصية مشروعة ؛ لكن كان من المآسى تأثير النركيب اللاتيني للجمل كتأخير الفعل إلى آخر الجملة _ فقد أحل الوقفات الجامدة المقلوبة القاطعة للأنفاس التي نراها في الأساوب الألماني المتأخر محل التراكيب السهلة التي كانت من خصائص لغة الشعوب الألمانية (٤٠) . ولعل أجمل اللغات الألمانية كانت هي اللغة الألمانية العليا الوسطى التي كتب بها الشعراء العظام في القرن الثالث عشر ــ ولتر ثن در ثو جلويد Walter van der Vogelweide ، وهارتمـــان ثن أوى Hartman von Aue ، وجتفرايد الاسترسيرجي Coufried of Strassbourg ، وولفرام ڤن اسشنباخ Goufried of Strassbourg Eschenbach ؛ ولم تعد اللغة الألمانية إلى مثل هذه البساطة والمرونة ، والوضوح ، والقصد مباشرة إلى المعنى المطلوب إلا على يد هن Heine وجبتة الشاب

وانتقل اللسان التيوتونى إلى انجائرا فى القرن الخامس مع الإنجليز ، والسكسون والبجوت ، وكان هو أساس اللغة الإنجليزية الحاضرة . فهو الذى حباها بكل ما تنطوى عليه نقريباً من كلمات قصيرة طلية . ثم طفت اللغة القرنسية على البلاد حين أقبل عليها النورمان ، وسيطرت على البلاط ، والمحاكم ، والأشراف من عام ١٩٦٦ إلى ١٣٦٧ ، وإن ظلت اللاتينية اللغة السائدة فى

الدين والتعلم ، وبقيت (إلى عام ١٣٧١) واجبة الوثانق الرسمية ، وخاصة في الثياب ، ولحلت آلاف الكلبات القرنسية في اللغة الإنجليزية ، وخاصة في الثياب ، والطهو ، والقانون الإنجليزية ، وخاصة في المناقبة (٥٠) ، وظلت آداب فرنسا وإنجليرا مدى ثلاثة قرون آدابًا واحدة ، كا ظلت الرسائل الإنجليزية في روحها ولفتها حتى زمن تشوسر لا قبل عادت إلى الانطواء على نفسها ، وانتصرت العناصر الأنجليسكسونية في عادت إلى الانطواء على نفسها ، وانتصرت العناصر الأنجليسكسونية في اللغان الإنجليزي ، ولما زالت السيطرة الفرنسية من البلاد ، كانت اللغة الإنجليزية قلد اغتنت غناء لا حد له ؛ فقد استطاعت بما أضيف إلى أصلها الإنجليزية قلد اغتنت غناء لا حد له ؛ فقد استطاعت بما أضيف إلى أصلها الانحافة تبدائة تعيرات مختلفة (kingly, royal) بعمى ملكي ، المناف الانحافة بيومى) . وإلى هذا يرجع غناها بما فيها من متر اهات تميز مها يومى) . وإلى هذا يرجع غناها بما فيها من متر اهات تميز مها الدوقة في ألفاظ الحديث . ومن يومى تاريخ الألفاظ يعرف التاريخ كله .

الفصل ألماني عالم الكتب

وكيف كانت تكتب هذه اللغات المختلفة ؟ لقد استعمل البرابرة بعد أن سقطت رومة * أيدسهم عام ٤٧٦ الحروف الهجائية اللاتينية ، وكتبوها كتابة ﴿ جَارِيةٍ ﴾ ، ربطوا فها الحروف بعضها ببعض ، وخلعوا على معظمها شكلا دائريا بدل الحروف المعتدلة التي كانت سهلة الاستعال في الكتابة على السطوح الصلبة كالحجارة أو الحشب . وكانت الكنيسة في تلك القرون تفضل الكتابة ذات الحروف و الكبيرة ، لنسهل بذلك قراءة كتب القداس وكتب الصلوات . ولما عمل النساخون في عهد شارلمان على حفظ الآداب اللاتينية بنسخ عدة كتب من الآداب القديمة ، استخدموا في عملهم هذا كتابة ذات حروف « صغيرة » ، واتفقوا على صور معينة لهذه الحروف ، فأوجدوا بذلك ؛ الحروف الصغيرة المقررة ، التي ظلت أربعة قرون الطربقة العادية التي تكتب بها نسخ العصور الوسطى . وكأنما أريد أن تتمشى هذه الحروف مع الزخارف الخصيبة التي أخلت تنمو في العارة القوطية فأضيفت إلها شرط تزينها ، وخطوط شَعْرية رفيعة ، وزوائله معقوفة ، فأصبحت هي الحروف والقوطية ؛ التي ظلت منتشرة في أوربا إلى عهد النَّهضة ، وفى ألمانيا حتى يومنا هذا . ولم توضع علامات الترقيم إلا ` عدد قليل جداً من مخطوطات العصور الوسطى ؛ لأن هذه الوسيلة التي ترشد القارئ إلى حيث يلتقط نَمَسه قد ضاقت في أثناء الغوص التي صحبت غارات الرابرة ، ثم عادت إلى الظهور في القرن الثالث عشر و لكنها لم يعم استعالها حتى قررتها الطباعة فى القرن الحامس عشر . وكانت الطباعة قد أعدت عدتها إلى حد ما فى عام ١١٤٧ لا بعد وذلك باستعمال القطع الخشبية . وبدأ ذلك في أدبرة

بلاد الرين لطبع الحروف الأولى أو الرسوم على المسوجات ٢٠٠٠ . وكانت أشكال كثيرة من الاخترال تستخدم فى تلك الآيام ، وكلها أحط كثيراً من و العلامات التيرونية ، التى توصل إلها أرقاء شيشرون .

وكانوا يكتبون على الحلد السميك ، وأوراق البردى ، والجلد الرقيق أو الورق ، بريش الطبر ، أو بأقلام الغاب ، ويستخلمون لذلك مداداً أسود أو ملومًا . واختنى البردى من الاستمال العام في أوربا بعد فتح العرب مصر . وكان الرق المتخل من جلد الحراف الصغيرة غالى الثن ، وكان المداك يُدخو المصخطوطات المترفة ، أما الرق المتخذ من جلد الضأن السميك فكان هو المادة المعتادة الكتابة عليها في اله- مور الوسطى . وظل الورق مادة غالية الثمن تستورد من بلاد الإسلام ، ولكن مصانع أقيمت لصناعته في المانيا وفرنسا في عام ١١٩٠ ، وشرعت أوربا في القرن الثالث عشر تصنع ورقاً من الكتان .

وكانت كثير من الرقوق أيمجى ما عليها من مخطوطات قديمة ليكتب عليها كتاب جديد ، وكان يُطلق عليها ه الرقوق اسم خاص هو palimsest ومعناه الممحو مرة ثانية ع . وقد فقدت كثير من الكتب القديمة بهذا الحو ، وبالموضع الحاطئ الممخطوطات ، وبالحرب والنهب ، والحريق والتلف. فقد بهب الممن مكاتب الأديرة في بافاريا ، وجهب أهل الشهال مكاتبا في فرنسا ؛ وتلفت كثير من الكتب اليونانية حين مهبت القسطنطينية في عام ١٩٠٤ . وكانت الكتبسة في بادئ الأمر تعارض في قراءة الكتب الوثنية القديمة ؛ وقامت أصوات مرتاعة في كل قرن تقريباً تندد جند الكتب ، منها أصوات جريجورى الأولى ، وإزدور الأشييل ، وبطرس ديان . وحمر توفيلس كبير أسافقة الإسكندرية كل ما وجده من المخطوطات الوثنية ؛ كما أقنع المساوسة اليونان ، عنر أساك على حد قول دمتريوس كلكنديلاس المخطوطات الوثنية ؛ كما أقنع المساوسة اليونان ، عنر أبه المرحد القريم بإحراق جميع موافعات الشعراء المذل ومهم سايفو وأنكريون . غنز أنه

كان فى هذه القرون نفسها كثيرون من رجال الدين المولمين بالكتب الوثنية القديمة والحريصين على الاحتفاظ بهذه الكتب. وكانوا فى بعض الحلات يفلون سلاح النقد الموجه إليهم بتفسير معنى الشعر الوثنى تفسيراً يتضمن أعظم العواطف المسيحية ؛ واستطاعوا بطريق الاستمارات الظريفة أن يحولوا شيعر أوقد الغرامى إلى شعر يحض على مكارم الأخلاق. وكذلك احتفظ النساخون فى الأديرة بقدم كبير من الراث الأدبي القديم (٩)؛ وكان يقال الرهبان إذا تعبوا إن الله سيغفر لم ذنباً من ذنوبهم نظير كل سطر يفسخونه ، ويحدثنا أردركس فيتالس Ordericus Vitalis أن أحد الرهبان يمنا المحجم وكان على قيد شعرة منها بحرف واحد نسخه (١). ويلي الرهبان وحدهم فى نسخ المخطوطات القديمة الكتبة الحصوصيون أو المجرف زن اللين. يستخدمهم الأغنياء أو باثمو الكتب أو الأديرة نفسها . وكان عمل هولام النساخين مجهداً بملا جملهم يدونون على الصفحات الأخيرة من المخطوطات للنسوعة مطالب غرية كقول أحدهم:

بهذا يتم جميع الكتاب

فبحق المسيح هات لي جرعة

وظن كاتب آخر أنه خليق بأكثر من هذا فكتب فى آخر نخطوطه تلك الحاتمة : د فليجز الكاتب على (عمل قلمه) بفتاة جميلة ١٠٠٥ .

ولم تفرض كتيسة العصور الوسطى رقابة منظمة على نشر الكتب؛ فإذا تهن أن كتابً ما مناقض للدين ، وكان في الوقت نفسه ذا تأثير قوى ككتاب أيبلار عن التثليث استنكره مجلس من مجالس الكنيسة ولكن عدد الكتب كان وقتئد أقل من أن يكون شديد الحطر على الدين القوم ؛ وحتى الكتاب المقدس نفسه كان نادر الوجود في خارج الأديرة ، ققد كان نسخة يمتاج لمل عام كامل ، وشراؤه يمتاج لمل إيراد قس أبرشية ؛ ولحل قل من رجال الدين من

كان يمتلك نسخة كاملة منه (١٦) . غير أن كتاب العهد الجديد وأسفاراً خاصة من العهد القديم كانت أوسع منه انتشاراً . وأخرجت في القرن الثانى عشر نسخ من الكتاب المقدس ضخمة الحجم ، فخمة الزخرف ؛ لثانى عشر نسخ من الكتاب المقدس ضخمة الحجم ، وكان ذلك عادة في مكتب إلا على مكتب ، وكان ذلك عادة في مكتبة الدير ، وكانت في بعض الأحيان تشد إلى المكتب بسلمة المحافظة علمها . وقد روعت الكنيسة حين وجدت الولدنسين والألبجنسين ينشرون ويزوعون تراجمهم هم الكتب المقلسة ، ولهذا حرم مجلس من مجالس الكنيسة عقد في نربونه (١٣٧٧) على غير رجال الدين أن يكون لديهم أي مجزء من الكتب المقاسة ؛ ولقد تحدثنا عن هذا من قبل (١٦) . ولكن أكم جزء من الكتاب المقامسة ؛ ولقد تحدثنا عن هذا من قبل (١٦) . ولكن في أن يقرأ الكتاب المقدس غير رجال الدين ؛ وإن لم تكن تشجع هذه القراءة لأتها لم تكن تشجع هذه القراءة لأتها لم تكن تشجع المامة لأسرار الكتب الديلية .

وكان حجم الكتاب وعدد صفحاته يمددها ما يستطاع وجوده من الجلود، وكان كل جلد منها يطبق لتتكون منه و ملزمة ، ولم تكن الكتب بعد القرن الحامس تصدر في صورة ملفات كما كانت تصدر في العهود القديمة (٩٩٠) بل كانت الجلود تقطع فطماً مستطيلة لتكون ملازم من أربع أوراق ، أو نمان ، أو الماني عشرة ورقة أو ست عشرة . وكانت ملازم مكونة من ست عشرة ورقة تضم موالفات في كتب صغيرة الحجم توضع في الجيب لتكون مهلة الاستعال وكانت تغلف أحياناً بالرق السميك أو القياش ، أو الجلد الملدوغ ، أو المورق المقوى . وكان الفلاف المصنوع من الجلد يزخرف أحياناً بأن تطبع أو الورق المقوى . وكان الفلاف المصنوع من الجلد يزخرف أحياناً بأن تطبع

⁽ a) وظل كثير من السجلات الحكرية يكتب في ملفات ؟ حتى أن و أنابيب الملفات ؟ كانت تستميل في إنجلترا من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٣ . وكان الكلف بالمحافظة على هذه السجلات يسمى صاحب الملفات » .

عليه رسوم غير ملونة بقوالب من المعدن المحمى. وجاء الفنانون المسلمون اللبين استقروا في البندقية الى أوربا بفن ملء هذه الأجزاء المنخفضة من الفلاف بألوان ذهبية . أما الفلاف الخشبي فقد كان يزخرف أحياناً بالميناء أو العاج المفقور ، أو يطعم بالذهب أو الفضة أو الجواهر . وكان مما عابه القديس جيروم على الرومان قوله : « إن كتبكم مطعمة بالحجارة الثبنة ، مم أن المسيح مات عارباً ! ١٤٥٤ وقل أن يوجد من الكتب الحديثة ما يضارع التجليد الفخير الذي حليت به كتب العصور الوسطى .

وكانت الكتب البسيطة نفسها من مواد الترف . فقد كان الكتاب العادى غير المزخرف يكلف مقتنيه ما بنن ١٦٠ دولارًا وماثني دولار من نقود الولايات المتحدة الأمريكية حسب قيمتها في عام ١٩٤٩(١٠). وحسبنا شاهداً على هذا أن أحد زعماء حركة إحياء الآداب القديمة في القرن الثانى عشر وهو برنار من أهل شارتر قد خلف مكتبة لا تزيد مجلداتها على أربعة وعشرين مجلداً . وكانت إيطاليا أغنى بالكتب من فرنسا ، ولهذا جمع أكرسيوس Accursius الأكبر عالمها القانونى الشهير ثلاثة وستين كتاباً . ونسمع عن نسخة عظيمة من الكتاب المقلس بيعث بعشر وزنات ــ أى بما لا يقل عن ١٠,٠٠٠ دولار ، وعن كتاب الصلوات استبدلت به كرمة ؛ وعن مجلدين من مؤلفات برشيان Prescian أحد النحاة فى القرن الخامس بيعاً ببيت وأرض(١٦) . وعاق خلو الكتب قيام تجارة باتمها حتى القرن الثاني عشر ؛ حن استأجرت مدن الجامعات رجالا من الورَّاقن وأصحاب المكتبات لينظموا جماعات من النساخين ينسخون الكتب للمدرسين والطلاب، وكان هؤلاء الرجال يبيعون نسخاً منها لكل من يعنى بأداء أتمانها . ويبدو أنهم لم يدر قط يخلدهم أن يردوا شيئاً من المال لمؤلف حي. وإذا أصر رجل ما على أن يؤلف كتاباً جديداً ، كان عليه أن يؤدى نفقة كتابته ، أو ببحث عزملك ، أو نبيل، أو ثرى ينفحه مهبة من المال نظير إهداله

نالكتاب أو الثناء عليه فيه . ولم يكن فى وسعه أن يعلن عن كتابه إلا شفويا ، كما لم يكن فى وسعه أن ينشره - أى يذبهه على الجمهور - إلا بالعمل على أن يستخدم فى إحدى المدارس أو أن بتل أمام من يستطيع جمهم من المستمعين . وجهده الطريقة قرأ چرالد من أهل ويلز حين عاد من أيرلندة فى عام ١٢٠٠ كتابه فى تخطيط هذا القطر Topgraphy على جمية فى أكسفورد .

وأدى ارتفاع أثمان الكتب ، وقلة الأموال اللازمة لإنشاء المدارس إلى انتشار الأمية إلى حد لو أنه وجد فى بلاد اليونان أو الرومان الأقلمين بطلهم العار . فقد كانت معرفة القراءة والكتابة قبل عام ١١٠٠ فى البلاد الواقعة شمال جبال الألب تكاد تكون مقصورة على وخدم الدين ، والحسبة ، والكتبة ، وموظفو الحكومة ، وأصحاب المهن . وما من شك فى أن رجال الأهمال كانوا فى القرن الثانى عشر ممن يعرفون القراءة والكتابة ، لأجم كانوا يحفظون بحسابات دقيقة محكة . وكان الكتاب فى المنزل محفقة عمكة . وكان الكتاب فى المنزل محفة ثمينة ؛ وكان فى العادة يقرأ بصوت عال إلى عدد من المستمعن ؛ وقد وضع الكثير من قواعد الترقيم والأسلوب فيا بعد لتيسير القراءة الشفوية ؛ وكان يعنى كل العناية بتبادل الكتب بين الأسر بعضها وبعض ، وبين مختلف الأديرة ، والأقطار .

وكانت دور الكتب كثيرة العامد وإن قل حجمها . وكان القديس قد قرر أن يكون لكل دير بندكتي مكتبة ؛ وكانت بيوت الكارثوزين والسسرسين أن يكون لكل دير بندكتي مكتبة ؛ وكانت بيوت الكارثوزين والسسرسين أعجد في جمع الكتب رغم كراهية القديس برنار العلم ، كذلك كان لكثير من الكتبرا أيات ـ أمثال كتدر اليات كبيرة ؛ فكان في كنيسة كنير برى مثلا معلم محتبات كبيرة ؛ فكان في كنيسة كنير برى مثلا معلم المحتبات في هام ١٣٠٠، ولكن هذا مثل نادر لا يقاس طيه (١٧)، أما معظم المكتبات فكان في وكان في مكتبة كلوني وهي من أحسن المكتبات ٧٥٠ عجلة (١٨). وكان عند ما فرد ملك

صقلية جموعة قيمة انتقلت إلى البابوية وأضحت نواة مجموعة الفاتيكان اليونانية . وقد يدأت المكتبة البابوية في عهد البابا دمسوس Damasus اليونانية ومحفوظاتها القيمة في فوضى الترن الخالث عشر ، ولهذا يرجع ناريخ مكتبة الفاتيكان الحاضرة إلى القرن الخامس عشر . وشرعت الجامعات ... أو على الأصبح قاعات كلياتها ... نشق لما مكتبات في القرن الخاني عشر ، وأنشأ القديس لويس مكتبة سابل طابل في القرن الخاني عشر ، وأنشأ القديس لويس مكتبة بنسخها من مائة دير ؛ وكانت كثير من المكتبات ، ككتبات تردام ، وسان جرمان ده بريه Sainte Chapelle في باريس ، وأعناها بالكتب اتى أمر جرمان ده بريه Pris St. Germain des Prés والسربون مفتوحة للطابة الموثوقة جرمان ده بريه Dermain des Prés والسربون مفتوحة للطابة الموثوقة بهم ، وكان من المستطاع استعارة الكتب في الخارج بضيان واف : وإن طالب العلم اليوم ليصعب عليه أن يقدر قيمة الثروة الأدبية الى كانت الملينة والكلية تضمها بن يديه دون مقابل .

وكانت هناك مكتبات خاصة فى أماكن متفرقة ، وإنا لنجد فى ظالمت القرن الماشر نفسه جربرت Gerbert يجمع كتباً بحماسة بحبى الكتب الحقة ؛ وكان لغيره من رجال الدين أمثال چون السلز برى مجموعات خاصة بهم . كان لعدد قليل من النبلاء مكتبات صغيرة فى قصورهم ؛ وكان لقرديك بربوسا وفردريك الثانى بجموعات كبيرة ، وجمع همرى الأرغونى مكتبة عظيمة حرقت علنا لاجامه بالاتصال بالشيطان (١٩٠) . وجاء دانيل من أهل مورلى Morley لى إنجلرا من أسهانيا فى عام ١٢٠٠ و بطائفة كبيرة قيمة من الكتب عرب المحالماء إلى طلطلة ، وقرطية ، وأشييلة ، وعبرت جموح من الكتب فهرع العلماء إلى طلطلة ، وقرطية ، وأشييلة ، وعبرت جموح رجال العلم الحديد التي لا حصر لها جبال البراتس وأحدثت فى الحياة الذهنية فى بلاد الشال التي كانت وقتئذ فى دور المراهقة انقلابا عظم الأثر .

الف**صل ثمالِث** المترحون

كانت أوربا فى العصور الوسطى منقسمة نصفين أحدهما لاتيني والآخر يونانى وإن كانت تجمعها إلى حد ما لغة مشركة . وكان النصفان متعاديين ويجهل أحدهما الآخر . وقد نسى الشرق اليونانى الثراث اللاتينى ما عدا القانون ، كذلك نُسى الثراث اليونانى فى الغرب كله ما عدا الصقليتين ، لكن بعض هذا التراث اليونانى كان عنياً وراء أسوار المسيحية – فى بيت المقدس الإسلامية ، والإسكندرية ، والقاهرة ، وتونس ، وأسهانيا ، أما المالم الواسع الرقعة البعيد المشقة الذى يشمل الهند والصين واليابان ، واللدى كان من عهد بعيد غنيا بالأدب والفلسفة والفن ، فلم يكد العالم المسيحى قبل القرن الثالث عشر يعرف عنه شيئاً .

واضطلع البود بيعض العمل الذي يبدف إلى ربط التقافات المختلفة يعضها بيعضها بيعض، فقد كانوا ينتقلون بن هذه الثقافات تنقل مجارى الماء المخصبة عمت تربة الأرض. ولما كثر عدد البود المهاجرين من بلاد الإسلام إلى البلاد المسيحية ، ونسوا اللغة العربية ، رأى علماؤهم أنه يجلر بهم أن يترجوا الموافقات العربية (التي ألف البود كثيراً منها) إلى اللغة التي لا يعرف علماء هذا الشعب المشت غيرها وهي اللغة العيرية . ومن أجل هذا ترجم يوسف قمحي (١٩٠٥ ؟ – ١٩١٩ ؟) في تربونة كتساب ترجم يوسف قمحي (١٩٠٥ ؟ – ١٩١٩ ؟) في تربونة كتساب اللغة . وكان يوسف هذا والد أبناء من جلة العلماء ، ولكن أعلى منهم كمبا في شوون الترجمة أبناء بهوذا بن شاول بن طبون (١١٢٠ ؟ – كمبا في شوون الترجمة أبناء بهوذا بن شاول بن طبون (١١٢٠ ؟ – جنوبي فرنسا ؛ وهو وإن كان من أكثر أطباء عصره نجاحا في مهته كان له جنوبي فرنسا ؛ وهو وإن كان من أكثر أطباء عصره نجاحا في مهته كان له

من التشاط ما استطاع به ترجمة المرافات البودية العبرية لسعديه جاوان ، وبين جبه ول ، وجودا هليني إلى اللغة العبرية . وآثار ابنه صحويل (١١٥٠ ؟ - ١٢٣٧) العالم البودى إلى ترجمة كتاب ولبل الحبرائد لاين ميمون إلى اللغة العربية العبرية ، وترجم كتاب الفافول الصغامر لإقليدس من اللغة العربية أيضا ، وترجم كتاب الفافول الصغير لاين سينا ، وكتاب القرياق المرازى ، وثارة من موافات ابن ميمون ، وشروح ابن رشد القصيرة الأرسطو . ونزعم يعقوب بن طبون حفيد صحويل حركة الكفاح من أجل ابن ميمون في منهليه ، واشهر بنبوغه في علم الفلك ، ولكنه مع هذا ترجم عدداً من الرسائل العربية إلى اللغة العبرية ، كما ترجم بعضها إلى اللغة اليونانية . ولد يعقوب اناضولى . وقد ولد يعقوب هذا في مرسيلية حوالى عام ١٩٩٤ ودعاه فرديك الثاني وتروحت ابنة العبرية في جامعة نابل ، وفها ترجم إلى اللغة العبرية شروح ولد الكبرى . وكان لهذه الشروح أبلغ الأثر في الفلسقة البودية . وكانت ترجمة كتاب المصورى المرازى على يد الطبيب الفيلسوف شم طب وكانت ترجمة كتاب المصورى المرازى على يد الطبيب الفيلسوف شم طب وكانت ترجمة كتاب المصورى المرازى على يد الطبيب الفيلسوف شم طب (١٢٧٤) في مرسيلية حاؤاً قويا إلى البضة الطبية عند العبرائيين .

وترجمت للى اللغة اللابينية كثير من التراجم العبرية الكتب العربية من ذلك أن كتاب التيسير لابن زهر ترجم لمى اللغة اللابينية فى پلووا (١٢٨٠) ؛ وفى بداية القرن الثالث عشر ترجم أحد البود أسفار المهد القديم كلها ترجمة حرفية من اللغة العربية لمى اليونانية مباشرة . وتمثل لمنا ترجمة كتاب كليمة روصه لبيديا الطرق الملتوية الى كانت تسير فيها الهجرة التقافية : فقد ترجم هذا الكتاب لمى الإنجلزية من ترجمة أسبانية لترجمة المربقة الرجمة عربية ، لترجمة عربيسة لترجمة فهلوية لترجمة المنسخة المسخد المدكرية المزعمة (٢٧).

أما التيار الرئيسي الذي صب به تيار الثروة الفكرية الإسلامية في العالم الغربي فكان عن طريق ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية . فقد ترجم تسطنطن الأفريق حوالى عام ١٠٦٠ إلى اللغة اللاتينية كتاب الوقتيار الرازى وكتب إسحق يوديوس في الطب ، وترجمة حنين العربية يومثال أيقراط وشرح جالينوس . وجمع ريمند (١١٣٠ ؟) المستنبر المتسامح كبير أساقفة طليطلة بعد استردادها من المسلمين طائفة من المترجمين برياسة دمنيكو جنديسائي وعهد إلهم ترجمة الكتب العربية في العلوم الطبيعية والفلسفية . وكان معظم هوالاء المترجمن من البهود الذين يعرفون اللغات العربية ، والعبرية ، والأسهانية ، بالإضافة إلى اللاتينية في بعض الأحيان. وكان أكثر هذه الفئة نشاطاً أحد الهود المتنصرين يدعى حنا الأسياني (أو ، الأشبيلي ،) وقد حور الفلاسفة المدرسيون كنيته العربية وهي ابن داود فسموه أثنديث Avendeath . وقد ترجم حنا هذا مكتبة حقة من مؤلفات ابن سينا ، . والغزالي ، والفاراني ، . . . والحوارزي عن أصولها العربية أو عن تراجها اليهودية . وأدخل بترجمته لكتاب الخوارزى الأرقام الهندية ــ العربية في بلاد الغرب . ولا يقل هذا الكتاب أثراً عن ترجمته لكتاب مدسوس على أرسطو في الفلسفة والأسرار الخفية يدعى Secretum Secretorum وهو كتاب يدل على سعة انتشاره بقاء مائتي نسخة مخطوطة منه . وكانت بعض الكتب تترجم من العربية إلى اللاتينية مباشرة ، وبعضها يترجم إلى اللغة القشتالية ثم يترجمها غنديسلوى إلى اللاتينية . ومهذه الطريقة حول العالمان كتاب حكور حاتم فأصبح Fon Vitae أو يقبوع الحياة وبه أصبح ابن جبرول Avicebron 1 من أشهر الفلاسفة في يحيط الفلسفة الكلامية .

وكانت هناك روافد أخر ، تغلى هذا التيار اللاتيني العربي . من ذلك أن (٢ - ج ١ - جلد ؛) هالما من باث Bath يدعى أبلار تعلم العربية فى أنطاكية ، وطرسوس ، وطلطلة ثم تقل كتاب إقليدس من العربية إلى اللاتينية (١١٢٠) فكانت هذه الترجمة أول ترجمة لاتينية لماء الكتاب ؛ وهو الذى أدخل حساب المثلثات من بلاد المسلمان إلى الغرب بترجمته أزباج الخوازي (١٢٦١) (٢٣٠٠).

وفى عام ١٩٤١ قام بطرس الموقر رئيس دير كلونى هو والمائة من العلماء المسيحين يساعدهم أحد علماء العرب بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية . ودخل علم الكيمياء والكيمياء الكاذبة العلم اللاتيني يترجمة ربرت من أهل تشستر أحد الكتب العربية في عام ١٤٤٤ . وبعد عام من ذلك الوقت قام رجل إيطالى يدعى أفلاطون التيقولى بترجمة رسالة هبورها مشيحه العظيمة الشأل لمؤلفها أبراهام بارحيا .

وكان أعظم المترجمين على بكرة أبهم رجلا يدى حرار من أهل كريمونا . ذلك أنه لمنا قدم هذا الرجل إلى طليطلة حوال ١١٦٥ أصجب يُروة العرب فى العلوم والفلسفة فصم على أن يترجم خرما فى هذه الثروة إلى المنة اللاتينية ، وقضى فى هذا العمل التسع السنن الباقية من حياته ؛ فتعلم اللغة العربية واستعان كما يبسلو بمسيحى من أهل المدينة وبآخر مهودي(٢٤) .

وليس من المعقول أن يكون هو الذى ترجم الكتب الواحد والسيعين من غير أن يعاونه فيها أحد . ومهما يكن من شيء فإن الغرب مدين له بالتراجم اللاتينية التراجم العربيسة لكتب أرسطو فى التحليلات ، وفى السموات والمتيورولوچيا ؛ ويطانفة من الشروح لاسكند الأفروديسى ، والهناصر والفروض لإقليدس ، وقياس الدائرة الأرخييس ، والمخروطات لأيلونيوس الرجاوى ، وأحد عشر كتاباً معزوة إلى جاليتوس ، وعدة موالهات فى الفلك يونانية عشر كتاباً معزوة إلى جاليتوس ، وعدة موالهات فى الفلك يونانية في الطبيعة ، وأحد عشر كتاباً وليس عشر كتاباً العرب ، من يبها أكبر كتب الرازى وابن صينا والفاران

وثلاثة من كتب الكندى ، وكتابين لإسحاق إسرائيلى ، وأربعة عشر كتاباً في الرياضة والهيئة صند العرب ، وثلاث مجموعات من الأزياج الفلكية ، وسبعة موالفات عربية في الهندسة والفلك ؛ وقصارى القول أن ليس في التاريخ كله رجل أغنى بمفرده ثقافة بأخرى كما فعل چرار هذا . ولا يضارع چرار في عمله هذا إلا عمل حنن بن إسحق ، وعمل « بيت الحكمة ، الذي چرار في علمه هذا إلا عمل حنن بن إسحق ، وعمل « بيت الحكمة ، الذي أنشأه الميمون ، وهما اللهان صبا العلوم والفلسفة اليونانية في القالب العربي .

وبلي أسهانيا في مزج الثقافات على هذا النحو مملكة الصقليتين النورمانية . ذلك أن حكام النورمان لم يكادوا يفتحون الجزيرة (١٠٩١) حتى استخدموا مترجمن ليقوموا بترجمة المؤلفات العربية واليونانية فى الرياضة والهيئة المنتشرة في يالرم إلى اللغة اللاتينية . وواصل فردريك الثاني هذا العمل فى فوجيا Foggia واستقدم إلى بلاطه للقيام به وبغيره من الأعمال عقلا من أعجب العقول وأكثرها نشاطا فى أوائل القرن الثالث عشر ونعيى بصاحب هذا العقل ميخائيل اسكت . وقد اشتق اسم هذا الرجل من موطنه الأصلى في اسكتلندة ؛ وثراه في طليطلة عام ١٢١٧ وفي بواونيا عام ١٣٢٠ ، وقى رومة من ١٢٢٤ إلى ١٢٢٧ ، ثم تراه بعدثك في فوجيا أو نابلي . وكان أول ما ترجمه كتاب الأجسام الكرية البطروجي وهو نقد كتاب بطليموس ، وأعجب اسكت بما يمتاز به تفكير أرسطو من حربة واتساع في الأفتى. فترجم إلى اللغة اللاتينية الترجمة العربية لكتاب تاريخ الحيوان لأرسطو بما فيه و أجزاء الحيوان ، و ٥ توالد الحيوان ، ، وتعزو إليه رواية غير محققة تراجي كتب (ما وراء الطبيعة) ، و (الطبيعة ؛ و (النفس) ، و (والسموات) ، ولعله ترجم كذلك كتاب ۽ الأخلاق ۽ . ووصلت تراجم ميخائيل لكتب أرسطو إلى ألبرتس مجنس وروچر بيكن، وكان لها أثر كبير في الحركة العلمية فى القرن الثالث عشر . وواصل شارل صاحب أنهجو مناصرة الترجمة فى جنوبى إيطاليا ، وعمل له في هذا العالم الهودى موسى من أهل سلرنو ، وأكبر الظن أن شارل هو الذى قدم المال اللازم لترجمة الموسوعة الطبية الضخمة (1774) المرازى وهى المعروفة باسم ه كتاب الحاوى » إلى اللغة اللاتينية على يد العالم المهودى فرج بن سالم الجلوجتنى .

وكانت جميع الثراجم اللاتينية السائفة الذكر لعلوم اليونان وفلسفتهم منةولة عن النراجم العربية – وكان مها ما هو ترجمة عربية للترجمة السريانية للأصل الذي يكتنفه الغموض . ولم تكن هذه التراج خالبة من الدقة إلى لحد الذي اتهمها به روچر بيكن ؛ ولكن ما من شك في أن الحاجة كانت منذ ذلك الوقت ماسة إلى تراجم من الأصل مباشرة . وكان من بين أقدم هذه الراجم الأصلبة ترجمة كتب أرسطو على يد چيمس الذي لا نعرف عنه أكثر من أنه «كاتب من البندقية ، قبل عام ١١٢٨ . وفي عام ١١٥٤ ترجم يوچن و أمير » دالرم كتاب بطليموس في « البصريات » ، ثم اشترك ف عام ١١٦٠ في ترجمة لاتينية لكتاب المجسطي من اللغة اليونانية مباشرة . وكان أرسنيس من أهل قطانيا قد ترجم في الوقت عينه (١١٥٦ ؟) كتاب حياه الفلاسة لديوجنز ليرتبوس وكتاب مينور وفيرورد لأفلاطون. ولم يؤثر استيلاء الصلبيين على القسطنطينية في الترجمة بالقسدر الذي كان يحق لنا أن نتوقعه ؛ فتحن لم نسمع إلا عن ترجمة جزء من كتاب الجنائريقا (ما وراء الطبيعة) لأرسطو (١٢٠٩) ؛ وأعقبت ذلك فا ة مجدبة شرع بعدها في عام ١٢٦٠ وليم الموربيكي William of Moerbeke كبر أساقمة كورثث الفلمنكي يعاونه في أغلب الظن عدد من المترجمن بْرَجَهُ طَائِمَةً مِنَ الْكَتَبِ عَنِ اللَّهَ اليَّوْنَانِيَّةً مِبَاشْرَةً . وإنْ على هذه التراجم وأهميتها لتنزلانه ببن أبطال نقل الثقافة منزلة لا تعلو علمها إلا منزلة جراره الكربمونى . وكانت استجابته لطلب صديقه وزميله الراهب اللعنيكي تومس أكوناس من الأسباب التي حملته على ترجمة عدد كبير من موالفات أرسطو تاريخ الهيوانات، وتوالد الهيونات، والساح، والبيوغ، اوعلي إعام ترجمة بعض التراجم السابقة أو مراجعتها : المنافيزيفا والمبيورولوجية (الأرصاد الجوية) رفى النفس . وترجم للقديس تومس عدة شروح على كتب أرسطو وأفلاطون ؛ وأضاف إلى هذه الأعمال الكثيرة تراجم لكتاب الشّخيص في بقراط وكتاب جاليوس في الطعام وعدة مؤلفات في علم الطبيعة لمرون الإسكندري وأرخيدس . ولعلنا مدينون له أيضاً يترجمة لكتاب المفلوق للرسطو كانت تعزى من قبل إلى ربوت جروستسي ، وكانت هذه التراجم جراماً من المادة التي بني عليها تومس كتابه العظيم الأثر في اللاهوت . ولم يحسل هام ۱۲۸۰ حتى كانت كنب أرسطو كلها تقريباً في متناول العمل الغرق .

وقد أحدثت هذه التراج كلها في أوربا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر ،
ذلك أن تدفق النصوص العلمية من بلاد الإسلام واليونان كان له أعمق
الأثر في استثارة العلماء الذين بدءوا يستيقظون من سباتهم ، وكان لا بد
الأثر في استثارة العلماء الذين بدءوا يستيقظون من سباتهم ، وكان لا بد
المن تحدث تطورات جديدة في الحو وفقه اللغة ، ووسعت نطاق الماهيج
عشر والثالث عشر . وكان عجز المترجمين عن أن يجدوا مفردات لاتينية
تؤدى المعانى التي يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذي أدى إلى دخول كثير
من الألفاظ العربية في اللغات الأوربية ؛ ولم يكن هذا أكثر من حادث
عارض في أعمال الترجمة ، ولكن أهم من هذا أن الجر ، وعلامة الصفر،
هذه التراجم ، وأن الطب من ناحيته النظرية والعملة نقدم تقلما عظيا
هذه التراجم ، وأن الطب من ناحيته النظرية والعملة نقدم تقلما عظيا
بهضل ما قام به العلماء المترجون اليونان ، واللاتين ، والعرب ، والبود ،
وأن ما كان لعلم الهيئة اليوناني والعربي من شأن خطر قد أحدث ، وكان
لا بد أن يحدث ، توسعا في علوم الدين ، وفي تعديل أفكار العلماء عن

الإله ، وكان ذلك إرهاصا بتغير في هذه الناحية أوسع مدى جاء بعد عهد كوپرنيق . وإن في إشارات روج ربيكن المتكررة لابن وشد ، وابن سينا ، والفاراني لدليلا على ما كان فموالاء العاماء من تأثير وحافز جديد . وفي ذلك يقول روچر بيكن نفسه : و لقد جاءت إلينا الفلسفة من العرب ١٥٤٧ ، وسنرى أن الذي دعا تومس أكوناس لتأليف كتابه الحامع في اللاهوت هو أن يحول دون تسرب التفاسر العربية الأرسطو إلى علوم المدين المسيحية . وكذا رد الإسلام إلى أوربا ما أخذه عن اليونان بطريق بلاد الشام ؛ وكما أن هذه العلوم كانت بداية ذلك العصر العظم عصر العلوم والفلسفة المربية ، كذلك أثارت هذه التراجم عقل أوربا وحفزته إلى البحث والتفكير ، وأخمته على أن يشهد ذلك الصرح العقلى الحطر صرح الفلسفة الملاموسة ، وأن ينقض ذلك الصرح العقلى الحطر صرح الفلسفة المعمور وأن ينقض ذلك الصرح القدم حجر ، فيهار بدلك نظام العصور الوسطى الفلسفي في القرن الرابع عشر ، وتبدأ الفلسفة الحديثة في عمرة الوسطى العظم أثناء عصر النهضة .

*تفصل ال*ابع

المدارس

وكان الذي يقوم بنقل الحضارة من جيل إلى جبل الأسرة ، والكنيسة ، والمدرسة . وكان يعني عناية خاصة بالتربية الحلقية في العصور الوسطى ه على حساب الثقافة المقلية ، كما يعني اليوم بالتربية العقلية ، على حـــاب التأديب الخلق.. ولم يكن من غبر المألوف في إنجلترة بين الطبقات الوسطى والعليا أن يرسل الولد في سن السابعة أو نحوها ليربي وثناً ما في بيت غير بيته ؛ وكان الفرض المقصود من هذا تمكين الروابط بين الأسر من جهة ، وإبعاد الولد عن اللن المنبعث من حنان الأبوين من جهة أخرى(٢٦). وكان نظام المدارس الفخم الذى أنشأته الإمبراطورية الرومانية قد الهار في خلال الفوضي الناشئة من الغارات ومن نقص سكان المدن ، ولما أن هدأت موجة الهجرة في القرن السادس بقيت قلة من المدارس العلمانية فى إيطاليا ؛ وكان معظم الباقى مدارس لتعليم المعتنقين الجدد للدبن المسيحى وقساوسة المستقبل . وظلت الكنيسة فترة من الزمن (٥٠٠ – ٥٠٠) تحص بعنايتها الندريب الأخلاق ، ولم تكن ترى أن نقل العلوم الدنبوية من واجباتها ﴿ وَلَكُنَ الْكُتَادِرَائِياتَ ، وَالْأَدْبِرَةَ ، وَكَنَائْسَ الْأَبْرِشْيَاتُ وأديرة النساء ، قد حفزها شارلمان إلى فتح أبواسها لتعلم البنين والبنات تعليا عاما .

وحملت مدارس الأديرة وحدها في أول الأمر هذا العبء كله تقريباً . وكانت المدارس نوعين صدرة واغليم آبي التعليم للمستجدين ومن ينذهم آباؤهم قارهينة أو الكنيسة ، ومدرة خارجية تعلم الأولاد من غير أجر على

ما يظهر ٢٧٦) . ونجت مدارس الأديرة الألمانية من اضطرابات القرن التاسع ، وأسهمت بنصيب مثمر في النهضة الأنونية Ottonian ؛ وكانت ألمانياً في القرنين التاسع والعاشر تعلو على فرنسا في كل ما يزين الدقل ، ذلك أن انحلال البيت الكارولنجي في فرنسا ، وغارات أهل الشهال ، كانا ضربتـن قويتـن وجهتا إلى مدارس الأديرة ، ولهذا لم تبق مدرسة القصر التي أنشأها شارلمان في بلاط الفرنجة بعد أن مات شارل الأصلع (في عام ٨٧٧) . وزادت الأسقفيات الفرنسية قوة كلما زاد الملوك ضعفا ، ولما أن وقفت غارات أهل الشمال كان الأساقة ورجال الدين في خارج الأديرة أغنى من روساء الأديرة ومن الأديرة نفسها ، ولهذا قامت مدارس الكتدرائيات في القرن العاشر فی یاریس ، وشارتر ، وأورلیان ، وتور ، ولاؤن ، وریمس ، وليبِج ، وكولونى ؛ على حن أن مدارس الأدبرة ضعفت في ذلك القرن ؛ ولمَا توق فلمرت الصالح العظم في شارتر ، احتفظ الأسقف إيڤو Ivo بالمستوى الرفيع وبحسن السمعة اللذين نالتهما مدرسة كندراثيها في الدراسات اليونانية والرومانية القديمة ، وجري برنار أسقف شارتر الذي خلف إيڤو على تقاليد ملفه الطبية ؛ وقد وصف حنا السلزبرى برنار هذا في القرن الثانى عشر بقوله إنه و في الوقت الحاضر أغزر منبع للآداب في غالة وأعظم هذه المنابع روعة ع(٢٨). وفي إنجلترا ذاعت شهرة مدرسة يورك حتى قبل أن تعير ألكوين إلى شار لمان ؛ وكادت مدرسة كنتر برى تصبح جامعة ذات مكتبة كبيرة ، وكان أمينها هو الرجل العظم حتا السازبرى السالف الذكر ، وهو رجل من أعظم العلماء والفلاسفة عقلا ف العصور الوسطى . ويبدو أن الطلاب الذين بهيأون لأن يكونوا تساوسة كان ينفق عليهم من أموال الكتدرائية ، أما غرهم من الطلاب فكانوا يؤدون أَجُوراً قليلة . وقد أصدر مجلس لاترانُ الثالث (١١٧٩) قراراً يقول : ه لكي لا يحرم الأطفال الفقراء من فرصة القراءة والرقى . . . بجب أن يخصص مرتب كاف لمدرس يعلم بالمجان من يعدون لممارسة مهنة الكهانة والفقراء من التلامية (٢٧٠ وطالب مجلس لاتران الرابع (١٧١٥) بأن ينشأ محرمي النحو في كل كتدرائية من كتدرائيات العالم المسيحي ، وأمر كل كبر
أساقفة بأن يكون لديه كرسيان الفلسفة والقانون الكنسي (٢٠٠ . وحض البأبا
جريجورى التاسع (١٧٤٧ – ١٧٤١) في أوامره السامية كتائس الأبرشيات
على أن تفشئ مدرسة المتعلم الأولى ، وتدل البحوث الحديثة على أن مدارس
الأبرشيات هذه – المخصصة أو لا التعلم الديني – كانت منتشرة في جميع
أشماء العالم المسيحي (٢٠٠).

ترى ماذا كانت نسبة المراهقين من الأهلين الذين كانوا يومون هذه الله الله البنات فلم يكن يذهب إليها فيا يبدو إلا بنات الطبقة الموسرة ، وكانت معظم الأديرة تنشئ مدارس للبنات كالمدرسة الى في أرجنني Argenteuil ؛ وعلمت هلواز الآداب القديمة تعليها ممتازاً (حوالي عام ١١١٠) ، ولَكن أغلب الظن أن هذه المدارس لم تُدخلها إلا نسبة صغيرة هن البنات . ومن مدارس الكتدرائيات ما كانت تقبل البنات ، فها هو هَا أَبِلار يُحدثنا عن ﴿ النَّسَاء الشريفات المولد ﴾ اللائي كن يذهن إلى مدرسة فتردام في باريس عام ١١١٤ (٢٦) . أما الأولاد فكانوا أحسن حظا من البنات ، ولكن يبدو أن ابن رقيق الأرض كان يصعب عليه أن بنال تعليها ما(٢٢٠) . وإن كنا نسمع أن بعض الأرقاء استطاعوا أن يلحقوا أبناءهم هاكسفورد^(٢١). وكان كثير من المواد التي تعلم الآن في الملموسة يعلم وقتثلًا في المنزل أو بالتدرب في الحوانيت ؛ ولا ريب في أن انتشار الفنون في العصور الوسطى والدرجة الرفيعة التي بالهما يوحيان بأنه كان ثمة فرص واسعة التدرب على الفنون والحرف . وتقدر إحدى الإحصاءات عدد الأولاد الملتحقين بالمدارس الأولية بإنجلترا في عام ١٥٣٠ بستة وعشرين ألفاً من مِنْ سَكَانُهَا الَّذِينَ يَقَدَرُونَ فَى ذَلَكَ الوقت بُخْمَسَةً مَلَايِنَ ، أَى بَجْنِيَةٍ حَيْثِ ثلاثين جزء من سكانها في عام ١٩٣١^(٣٥) ؛ ولكن دراسة حديث<u>ة إ</u>لماً

الموضوع تقول إن و القرن الثالث عشر كان أقرب إلى النعليم الشعبي والاجهاعي من القرن السادس عشر ١٣٥٠.

وكان قس من قساوسة بيت الكتدرائية هو الذي يدير مدرسة الكتدرائية عادة ؛ وكان يسمى بأسماء عملة هي ارشكولا (كبر المدرسة) Archiseola أواسكلاريوس scolarius أواسكلاستكس Archiseola (الملدرس) . وكان التعليم كله باللغة اللاتينية ؛ وكان التأديب صارما ، فكان الضرب يعد من مستلزمات التعليم كما كانت الجحم من مستلزمات الدين ، ومن أجل هذا كانت مدرسة ونشستر تحيي طلابها ببيت من الشعر سداسي الأوتاد صريح في معناه وهو : Aut disce, an discede manet sors ertia caedi ومعناه وتعلم أو ارحل والثالثة التي تختارها هي أن تضرب ١ . وكان المهج يبسدأ بالمجموعة الثلاثية ــ النحو والبلاغة . والمنطق – ؛ ثم ينتقل الطالب بعدها إلى و المجموعة الرباعية ۽ – الحساب ، والهندسة ، والموسيق ، والغلك ؛ وكانت هذه هي « الفنون الحرة السبعة ، . على أن هذه المصطلحات لم تكن لها في ذلك الوقت نفس المعنى الذي لها في الوقت الحاضر . فأما المجموعة الثلاثية Trivium فكان معناها يطبيعة الحال أنها مكونة من ثلاث طرق ، وأما الفنون الحرة فهي التي عرفها أرسطو قبل ذلك الوقت بأنها المواد الخليقة بالأحرار الذين لا يجرون وراء المهارات العملية (وكانت هذه تترك لصبيان الصناعات) ، بل يسعون وراء التفوق العقلي والحلني (٢٨) . وكان ثارو (١١٦ – ١٢٧ ق . م) قد كتب سبع كتب في التأويب ذكر فها سبع دراسات وصفها بأنها تولف المهج اليوناني الروماني. وكتب مارتبانس كابلا Martianus Capella في القرن الخامس الميلادي كتاباً في مبادئ الربية نحا فيه منحى الاستعارة والتشبيه وكانت له شهرة واسعة وسماه « في زراج الفلسفة إلحارد The Marriage of Philosophy واسعة وسماه « t and Mercury ، وأُخَرج الطب والعارة من مناهج التعليم لأنهما دراستان هليتان أكثر مما يهب أن تكون الدراسات ، وبقيت بعد السبم الدراسات الشهيرة . ولم يكن و النحو ، هو الدراسة المملة التي تضيع فها روح اللغة بدراسة حظامها ، بل كان هو فن الكتابة (gramma, graphs) ؛ وقد حرفه كسيودورس بأنه هو دراسة العظيم من الشمر والخطابة دراسة تمكن الإنسان من أن يكتب كتابة صحيحة ظريفة . وكانت هذه الدراسة تبدأ في مدارس العصور الوسطى بالمزامير ، ثم الل الآداب اللاتينية القديمة — شيشرون ، وقرجيل ، وهوراس ، واستانيوس ، وأوفد . وظل معني البيان هو فن الحديث ، ولكته وروراس ، واستانيوس ، وأوفد . وظل معني البيان هو فن الحديث ، ولكته الراقية التي يتمل أيضاً دراسة واسعة في الأدب . ويبدو أن المنطق كان من الموضوعات الراقية التي يتعلموا اتباع قواعد المنطق حن يبدون بجون الجداد .

وأدخلت الثورة الاقتصادية شيئا من التغير في ميدان التعليم ، فقد أحست الملدن التي تعيش بالعمل في التجارة والصناعة بماجتها إلى موظفين فوى تدريب على ؛ وله فأنث من معارضة قوية من جانب الكنيسة ، مدارس زمنية يعام فيها مدرسون علمانيون نظير أجور يتفاضونها من آباء التلاميد . وكان الأجر السنوى في المدرسة العامة التي في مرتبة المدارس الثانوية بأكسفورد نحو أربعة بنسات أو خسة (بع دولار أمريكي) ؛ وقد أحصى ثلافي المانان في ما ١٩٠٨ تسعة آلاف ولد وبنت في مدارس الكنائس بفلورنس ، و ١٩٠٠ في مدارس و و ١٩٠٨ في مدارس الكنائس بفلورنس ، و ١٩٠٠ في مدارس المنافقية فالاندرز في القرن التاني عشر ، ولم يحل النصف الثاني من القرن الذالف عشر حتى كانت هذه واحدة من الحركة قد انتشرت في لويك عام ١٩٩٧ عن معلمة تدير ملوسة خاصة في باريس ، وسرعان ما أضحت هذه واحدة من عمد ما مدارسة مناه واحدة من عمد المدير المدارسة بخاصة في باريس ، وسرعان ما أضحت هذه واحدة من كثر ات مثاه (١٧٥ عن قد أخذ تحول التعليم إلى الناحية الدنيوية يجرى مجراه .

الفصلالخامس

جامعات الجنوب

وكانت المدارس غير الدبنية كثيرة في إيطاليا بنوع خاص ؛ وكان مدرسوها في المحادة من غير رجال الدين بخلاف ماكانت عليه الحال فيا وراء الألب ؛ كما كانت المروح والثقافة الإيطاليتان بوجه عام أتل في نزعتهما الدينية مماكانت عليه الحال في غير إيطاليا من البلاد . بل ذهب البعض إلى أكثر من هذا فحدث حوالي عام ٩٧٠ أن نظم رجل يدعي المجاردس اكثر من مدارس الكندرائيات ، وكانت مدارس كندرائيات بعليمة الحال كثير من مدارس الكندرائيات ، وكانت مدارس كندرائيات أن عربيمها لافرائك وأسلم ، ميلان ، وباقيا ، وأوستا Aosta ، وبارما ذات كثابة خاصة ، وفي وسعنا أن نحكم على مقدار هده الكفاية إذا عرفنا أن من خربيمها لافرائك وأنسلم ، وكانت مدرسة منتي كازينو في عهد دز دريوس تكون جامعة . و لقد تضافر بقاء الأنظمة البندية ، ونجاح المدن اللمباردية في مقاومة بربرسا (١٩٧٦) ، والطلب المتزايد على المعلومات القانونية والتجارية ، تضافرت هذه الموامل كلها على أن تنيل إيطاليا شرف السبق في مضيار إنشاء الجامعات في العصور الوسطى .

ولقد احتفلت جامعة پدوا فى هام ١٩٤٥ بالعيد المتم للمائة بعد الألف من إنشائها على يد لوثير الأول Lothair I وأكبر الظن أنها كانت مدرسة حقوق لاجامعة ، ولم تتلق المرسوم الذى يجعلها صررسة عامة إلاف عام ١٣٦١. وكان هذا هو الاسم الذى يطلق فى العصور الوسطى على الجامعة التي تضم عدداً . من الكليات المختلفة ، وكانت إحدى المدارس الكثيرة التي شرعت من القرن

الناسع عشر وما بعده تحيى دراسة القانون الرومانى : مدارس رومة ، ورافنا ، وأورليان فى القرن الناسع ، ومدارس ميلان ، وتربونة ، وليون لا Dongers فى القرن الماشر ، ومدارس قرونا ، ومتنوا ، وأنجرس Lyons فى القرن الحادى عشر . ويبدو أن بولونيا هى أولى مدائن غرى أوربا التى وسعت مدرستها فجملتها صدرسة عامم ، وفى ذلك يقول المؤرخ الإخبارى أودوفريدوس القانون على مسئوليته الخاصة . . . فى بولونيا ، وكان من أعظم الرجال شهرة ، (۱۱) . ثم انضم إليه غيره من المدرسن ، حتى غلت مدرس الحقوق فى بولونيا قبل أيام إر نربوس Irnerius بإجماع الآراء خير مدارس ، أوربا على الإطلاق ،

وبدأ ارتربوس يدرس القانون في بولونيا عام ١٠٨٨ ، وانحاز في تدريسه من جانب الجلف إلى جانب الجبلين ، وفسر فقه القانون الذي عاد وقتناد إلى الحياة تفسر أيتقق ومصلحة المطالب الإمراطورية . ولسنا تعلم أكان منشأ هلما العمل من جانبه أن دراسة القانون الروماني أفنعته يقوة الحجج التاريخية والعملية التي تويد تفوق السلطة الإمراطورية على السلطة الايمبراطورية قد أغرته بهذا الايجاز ؟ وسواء كان هنا أو ذاك فإن الأباطرة الذين قدروا له عمله أغدقوا الملك على المدرسة ، وهرع عدد كبير من الطلاب الألمان إلى بولونيا . وألف إرنربوس مجلداً في التأويلات أو الشروح على كتاب التوانين لچستذيان وطبق الطريقة العلمية على تنظيم القانون . وبعد كتاب قوانينه الذي جمه هو أو جمع من محاضراته آية من آيات العرض الجيسد والحجيم القوية .

وبدأ بإرنربوس العصر الذهبي في التشريع أثناء العصور الوسطى ، وأقبل الرجال على بولونيا منجميع بلاد أوربا اللانينية ليتلقوا فها علم القانون الذي عاد

وقتئذ إلى شبابه ، وطبق جراتبان تلميذ إرنريوس الأساليب الحديدة على التشريع الكنسي ، ونشر (١١٣٩) المجموعة الأولى من الفانون الكنسي . وجاء بعد إرنريوس والعلماء الأربعة ٤ ــ بلجارس Bulgarus ، ومرتينس Martinus ، وياقويس Jacobus ، و هو جو Hugo – بسلسلة من التأويلات الذائعة الصيت بتطبيق دستور جستنيان على المشاكل التشريعية في القرن الثاني عشر ، وأفلحوا في إدخال القانون الروماني إلى ميدان مطرد الاتساع . وجمع أكرسيوس Acoursius الأكبر (١١٨٥ ؟ – ١٢٦٠) ، أعظم « الشراح » فى بداية القرن الثالث عشر ، أعماله هو وأعمالم فى شروح عام: أصبحت هي المرجع المعتمد الذي استعان به الملوك والعامة على تحطيم سلطان القانون الإقطاعي ، ومحاربة سلطان البابوات . وبذلت البابوية كل ما تستطيع من الجد لتمطل حركة بعث القانون الذي يجعل الدين عملا من أعمال الدولة وخادما لها ، ولكن الدراسة الجديدة غلت النزغة العقلية وحركة التحول إلى الناحية الدنيوية اللتين قامتا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وكانت هي المعبرة عنهما ، وأوجدت طبقة من المحامين أخذت تتضاعف على مو الأيام وُتجد في تخفيض نصيب الكنيسة في الحكم وتوسيع سلطان الدولة : ووصل الأمر إلى حد شكا معه القديس برنار من أن عجاكم أوربا تلوى بشرائع جستنيان ، ولم تعد تسمع قوانين الله(٢٠) . وكان انتشار فقه القانون الجديد حافزاً إلى خلق روح الاحترام للقانون ، والشغف باتباع العقل لا يقل فى قوته عن تراجم الكتب العربية واليونانية ، وكان هذا الشفف هو الذى أوجد الفلسفة المدرسية الكلامية وقوض بعدتذ أركانها .

ولسنا تعلم منى قامت مدرسة الفنون ... أى الفنون السبعة الحرة ، فى بولونيا ، كما لا تعلم أيضاً منى أنشئت مدرسة الطب الشهيرة بهذه المدينة . ومبلغ علمنا أن الصلة الوحيدة التى قامت بين المدارس الثلاث كانت تتحصر فى أن يتسلم خريجو كل واحدة منها درجانها العلمية من وكيل الأسقف فى بولونيا . وقد نظم الأساتلة أنفسهم فى نقاية كنقابات الحرف ، وحوالى هام ١٢١٥ نظم طلبة كل كلية أنفسهم فى اتحاد طلاب جنوب الألب أو اتحاد طلاب ما وراء الألب. وضمت هذه و الحامعات ، من بداية القرن النالث عشر طالبات وطلاباً ، وكان فى كليات بولونيا فى القرن الرابع عشر أستاذات(٢٢).

وأنشئت نقايات الطلاب فى بداية الآمر لتقوم بواجب الحاية المتبادلة لهم وتمكينهم من حكم أنفسهم بأنفسهم ؛ ثم صار لها فى القرن النالث سلطة عظيمة على هيئة التدريس ؛ فقد كان في مقدور الطلبة أن يحولوا بن أي إنسان وبن الاستمرار في حياة التدريس في بولونيا بالمقاطعة المنظمة لمن لا يرضهم من المدرسين . هذا إلى أن مرتبات الأسائلة كانت في كثير من الأحيانُ تؤديها ﴿ جامُعات الطلابِ ﴾ ، وكان الأسائلة يرغمون على أن يقسموا أن يطيعوا و مديري الحاممات ، أي رؤساء نقابات الطلاب(١١) . وكان على المدرس الذي يرغب في إجازة التغيب عن العمل ، وإن لم تزد على يوم واحد ، أن يحصل على إذن بذلك من تلاميله عن طريق رؤساء القاياتهم . وكان يحرم عليه تحريماً صريحاً أن و يبتدع عطلات بمحضرر غبته و⁽⁴⁾. وكانت اللوائح التي تضعها نقابات الطلاب تحدد الدقيقة التي يبدأ فها المدرس محاضرته ، والتي ينتهي فها من هذه المحاضرة ، ونوع العقوبات الني تفرض **عليه إذا خالف هذه القواعد. وكانت قوانين النقابات تأمر الطلاب أن** يغادروا قاعة الدرس إذا أطال الأستاذ عاضرته عن الوقت المحدد لها . وكانت لوائح النقابات تفرض غرامة على المدرس إذا ترك فصلا أو مرسوماً ق شرحه القوانين ، كما كانت تحدد مقدار ما يخصص من المهج لكل جزء من أجزاء الكتب المقررة . وكان يطلب إلى الأستاذ في بداية كلُّ سنة جامعية أن يودع أمانة قدرها عشرة جنبات في أحد مصارف يولونيا ، تخصم منها الغرامات التي يفرضها عليه رواساء نقابات الطلاب ، ويرد إليه ما يبقى منها فى نهاية العام المدراسي بناء على أو امر أو لئك الرؤساء . وكان لجان من الطلاب

تعين لمراقبة ساوك كل مدرس وتبلغ روساء النقابات كل ما تراه من شلوند أو عيب في هذا السلوك(١٤) . وإذا ما يدت هذه القواعد لطالب هذه الأيام معقولة إلى درجة غير عادية . وجب عليه أن يذكر أن طلاب الحقوق في جامعة بولونيا كانوا رجالا بين السابعة عشرة والأربعين من عمرهم ، وأمهم كانوا فى سن يستطيعون وهم فيها أن يؤدبوا أنفسهم ؛ وأنهم جاموا للدرس لا للعب ، وأن الأستاذ لم يكن مُوظفًا عند أمناء الحامعة ، بل كان محاضرًا حورًا يوُجره الطلبة في واقع الأمر لكي يعلمهم . وكانِ مرتب المدرس في بولونيا يتكون من الأجور التي يؤديها طلابه ويحددها اتفاق يعقد معهم . ثم ضر نظام الأداء حوالي آخر القرن الثالث عشر حين عرضت المدن الإيطالية ، حرصاً منها على أن يكون لها جامعات خاصة بها ، مرتبات توديها البلديات إلى بعض أساتذة بولونيا ؛ فما كان من مدينة بولونيا نفسها وقتئذ (١٢٨٩) إلا أن وعدت بأداء مرتب سنوى لاثنن من الأساتلة ؛ ولكن اختيار الأسانةة ظل متروكا للطلاب ، وزاد عدد هذه للرتبات السنوية الآ توديها البلديات شيئاً فشيئاً ، حتى إذا كان القرن الرابع حشر انطل اختيار الأساتذة وانتقلت مرتباتهم إلى المدينة نفسها . ولما أصبحت بولونيا جزءاً من الولايات البابوية في عام ١٥٠٦ صار تمين الأساتلة من اختصاص السلطات الكنسة.

بيد أن جامعة بولونيا انطبعت فى القرن الثالث عشر بروح علمانية تكاد تكون معادية للكنيسة ، وقالم نجدها فى غيرها من المراكز التعليمية الأوربية . وجرى غيرها من جامعات إيطاليا على هذا النسق وإن لم يبلغ فيه ما بلغته جامعة ايولونيا . فيينا كانت كلية أصول الدين أهم الكليات فى هذه الجامعات الأخوى ، لم يكن فى بولونيا كلية دينية على الإطلاق قبل عام ١٣٦٤ ، يل حل القانون لم الكنسى فها على علم الملاهوت ؛ وحتى علم الميان نفسه قد انخذ صورة القانون، بل إن فن الكتابة نفسه أضحى ... فى جامعات بولونيا ، وباريس ، وأورليان ،

ومنهييه ، وتور ، ، ، ، فن كتابة الوثائق القاتونية ، أو التجارية والمالية ، أو الرحمية ؛ وكانت درجات جامعية خاصة تمنح فى هذا الفن (۱۹) و وكان من الأقوال الشائعة أن أقرب ما يمكن الحصول عليه من تعلم إلى الأحوال الواقعية هو المذى يتلقاه الطلاب فى بولونيا ؛ وتروى إحدى فى باريس ، ثم عاد إلى باريس فنقض فها ما علمه فى بولونيا (۱۹۸۱) ، وتزعمت بولونيا فى القرن الثانى عشر الحركة العقلية فى أوربا ، فلما كان القرن الثالث عشر تركت تعليمها يجمعه حتى أضحى فلسفة الفانون مدرسية كلامية آسنة ، وحتى أضحت الشروح الأكورسية نصاً مقدماً لايكاد يقبل التغيير ، ويعطل تكبيف القانون تكييفاً تقلمياً بوائم سير الحياة ؛ ومن أجل هذا انتقلت تكبيف القانون .

والتشرت الجامعات في جميع أنحاء إيطاليا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ونشأت بعضها من جامعة بولونيا جميع الأساتلة والطلاب من هلمه الجامعة ، ومن ذلك أن ليوس غادرها في عام ١١٨٧ لينشئ مدرسة في مودينا ، وأن يقوبس دى مندرا Jacobus de Mandra لخرجه إميليا المبياليل رجيو إميليا Reggio Emilia في عام ١١٨٨ وأخذ معه تلاميله ، ونشأ من هجرة أخرى حائث في أغلب الظن من بولونيا عام ١٢٠٤ مدرسة عامة أو انحاد مؤلف من عدة كليات في فيسترا ، وفي عام ١٢٠٠ منادر وفرياس Roffredus بولوبيا ليفتتح مدرسة للحقوق في أوزو غام ١٢٧٧ وسع عادد كبير من للمدرسين والعلاب اللين غادروا بولوبيا مدرسة الحقوق التي كانت في بلوا ، فأضيفت كليات للطب والآداب إلى مدرسة الحقوق التي كانت في هذه المدينة ، وبعثت إليها ملينة البندقية بطلابها ، وأسهمت فيا كانت تؤديد للدينة من مرتبات المؤسائلة ، وبلك أصبحت يلموا في القرن الرابع عشر من أشط مراكز ملاباته عشر من أشط مراكز

التفكير الأوربي . وفي عام ١٩٧٤ أسس فردريك الناني جامعة نابلي ليمنع طلاب إيطاليا الجنوبية من الهجرة جماعات إلى الشهال : ولمل هذا السبب عبنه مضافاً إلى الدبلوماسية الكنسية هو الذي حل إنوسنت الرابع على إنشاء جامعة بلاط رومة التي تبعت البلاط البابوي في هجراته ومنها هجرته إلى أثنيون نفسها . وفي عام ١٣٠٣ أسس بنيفاس الثامن جامعة رومة التي بلغت مجدها في أيام نقولاس الخامس وليو العاشر ، وأحرزت لقب سينوا في عام ١١٤٤ وقبل أن يختم القرن الثالث عشر وجدت مدارس القانون ، والآداب ، والطب أيضاً أحياناً ، في كل مدينة وجدت مدارس القانون ، والآداب ، والطب أيضاً أحياناً ، في كل مدينة كبرى بإيطاليا .

وكانت جامعات أسپانيا فلمة فى نوعها ، فقد أنشأها الملوك وبسطوا حمايتهم عليها ، فكانت تخلمهم وتخضيع لإشراف حكوماتهم . فأنشأت قشتالة جامعة ملكية فى بالنسية (Palencia) (١٢٠٨) ثم أنشأت جامعة أخرى فى بلد الوليد (١٣٠٤) ، وأنشأت ليون Leon جامعة فى سلمنقة (١٢٢٧) وأنشأت جزائر البليار جامعة فى لميدا (١٢٠٠) ، وأنشأت قطلونية جامعة فى لميدا (١٣٠٠) . وكانت الجامعات الأسپانية تقبل إشراف الكنيسة عليها والمعونة المالية منها ورخص صان فرندو وألفنسوا الحكيم جامعة سلمنقة يأموال كثيرة فى القرن وخص سان فرندو وألفنسوا الحكيم جامعة سلمنقة يأموال كثيرة فى القرن بولونيا وباديس . وكانت معظم هذه الجامعة في شهرتها ومركزها العلمي جامعي بولونيا وباديس . وكانت معظم هذه الجامعات تعلم اللغة الملاتينية ، والعلوم الرياضية ، وأقالون يعلم الطب ، واللغة المراسة للدراسات العربية ، أو اليوناية ، وطوم الدين ، واهاته ديكي فى عام ١٩٥٠ مدرسة للدراسات

الشرقية فى طليطلة لتلديس اللغتين العربية والعبرية . وما من شك فى أن هذه المدرسة قد أفادت خسم آكتيراً لأن أحد خربيها ربحند مارتن Raymend Martin (حوالى عام ١٣٦٠) أظهر علماً واسماً بجميع كبار الفلاسفة ورجال الدين المسلمين . وكذلك كان للدراسات العلمية مكان بارز فى جامعة أشبيلية التي أنشأها ألفنسو الحكيم فى عام ١٧٥٤. وأنشأ الملك الشاعر دنيز Diviz فى لشبونة جامعة المرتفال عام ١٧٩٠.

الفيول لتادم

جامعات فرنسا

كانت فرنسا بلا ريب الزعيمة العقلية لأوربا فى العصور الوسطى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ فقد أصبحت لملطرس كندرائياتها منذ بداية القرن الحادى عشر شهرة دولية عظيمة ؛ وإذا كانت هذه المدارس قد نحت وازدهرت حتى أضبحت جامعة عظيمة فى باريس لا فى شارتر ، أو ريمس ، فأكبر الظن أن سبب هذا هو أن تجارة السين والأعمال المالية التى توجد عادة فى العاصمة قد جاءت إلى تلك المدينة بالثراء اللذى يغرى العقول وأنها كانت تقدم المال الذى يعرى العقول وأنها كانت تقدم المال الذى يعرى العقول وأنها كانت تقدم المال الذى يحتاجه العلم والفلسفة والفن .

وأول من عرف من المعلمين في مدرسة كتدرائية نتردام هو وليم الشامپووى William of Champeaux (١٩٧٠ – ١٩٢١) ، وكانت عاصراته التي تلقي في أبياء نتردام مثار الحركة العقلية التي نشأت منها جامعة باريس ؛ ولما خرج أيلار من بريطاني (حوالي عام ١٩٠٣) ووجه إلى وليم القرنسي ، هرع الطلاب من كل صوب ليستمعوا إليه ، فازداد عدد التربية بباريس في تضاعف عدد المدرسين . وكان الأستاذ (magister) في عالم التربية بباريس في القرن الثاني عشر رجلا أجاز له رئيس كتدرائية نتردام أن يدرس . وكانت جامعة باريس في ذلك الوقت قد خطت خطوات سريعة لا ستطيع تتبعها ، فارتقت من مدرسة كتيسة المدينة ونالت وحدتها الأولى من هذا للصدر الوحيد مصدر الإجازة التعليمية . وكانت هذه الإجازة تعطى عادة بالجان لكل من قضي وتم كافياً تلميذاً لأستاذ مرخص بشرط أن بوافق هذا

الأستاذ على طلبه ؛ وكان من البهم التي وجهت إلى أبلار أنه اشتغل بمهنة التدريس دون أن يقضي فترة النامذة المعتمدة من أستاذ .

وكان إدراك فن التدريس على هذا النحو ، أى الأستاذ المعلم والصبي المتعلم ، من الأصول التي قامت عليها الجامعة . ولما أن تضاعف عدد الأساتلة أنشأوا لم يطبيعة الحال نقابة طائفية . وظل لفظ (مجامعة المتاب الطائفية . وفي عام ١٩٤٤ وصف ماثيو باريس و زمالة المعفوة المتابات الطائفية . وفي عام ١٩٢٤ وصف ماثيو باريس و زمالة المعفوة مترض ، وإن كنا لا نستطيع أن نبرهن ، أن والجامعة ، اتخلت حوالي عام ١٩٧٠ صورة نقابة طائفية للمدرسين لا اتحاداً لعدة كليات ، فلما كان عام ١٩٧٠ أصدر البابا إنوسنت الثالث – وكان هو نقسه من خريجي عام ١٢٧٠ أصدر البابا إنوسنت الثالث – وكان هو نقسه من خريجي جامعة باريس – مرسوما اعترف فيه بقوانين نقابة المدرسين الملونة واعتمدها ، ثم أصدر هذا البابا نفسه مرسوماً آخر خول فيه النقابة أن

وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر انقسم مدرسو (**) جامعة باريس إلى أربع و سلطات ؟ أو كليات كما تسمها الآن (faculties) (***) : اللاهوت ، والقانون الكنسى ، والطلب ، و و الفنون ، . ولم يكن للقانون الملبني بعد عام ١٢١٩ مكان في جامعة باريس بعكس ما كانت عليه الحال في جامعة بولونيا . وكان المنهج يبدأ بالفنون السبعة ، ثم يرقى إلى القلسفة وينتهي بعلوم الدين . وكان طلبة الفنون على Art (وكتاوا يسمون Artistae أي فنانين) هم المقابلين عزاد الطلاب ، المذين لا يزالون في الحامعة ؛ وإذ كانوا هم يوافون الحراء

 ⁽a) لا يقرق المؤلف في هذا البيصل وفي القصول السابقة بين مدرس و أستاذ .

⁽ المترجم) (٥٥) الكلمة ذات صلة بكلمة inclid الفرنسية رسناها تيسير أرتخويل أوسلمة للسل. (المترجم)

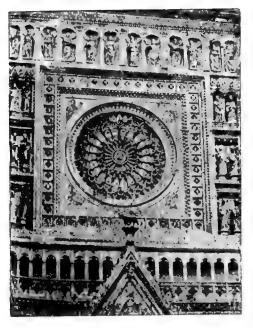
الأكبر من المتعلمين في باريس فقد انقسموا - لنبادل للعونة ولأغراض الألفة والاختلاط - إلى أربع أم Nations حسب بسقط رأمهم Dation أو أصلهم : و فرنسا » (أى المملكة الضيقة الخاضة خضوعاً مباشراً المسائك الفرنسي) وبكاردى Picardy ، ونورمنلية ، وإنجائرا ، وضم طلاب جنوبي فرنسا وإيطاليا وأسهانيا إلى الطلبة الفرنساويي المولد، وضم طلبة الأراضي الوطيئة إلى وبكاردى » وطلبة أوربا الوسطى الشرقية إلى وإيكاردى » وطلبة أوربا الوسطى الشرقية إلى وإيكاردى » وطلبة أوربا الوسطى الشرقية إلى على الملاب الذين جاموا من ألمانيا من الكرة بحيث تأخرت تلك الملاد من إنشاء جامعات بها حتى عام ١٣٤٧ . وكان يحكم كل جامعة وكيل المعرب ما أماله تدريحاً حتى أصبح قبل عام مدير برأمهم ، ثم انسمت دافرة أعماله تدريحاً حتى أصبح قبل عام ١٩٥٥ مدير الجامعة كلها .

ولسنا نسم عن وجود أبنية خاصة بالجامعات ، ويلوح أن الهاضرات كانت تلق أثناء القرن الثانى عشر في أروقة نردام ، وسان چنشيث ، وسان فكتور ، وغرها من الأبنية الدينية ، ولكتنا نجد في القرن الثالث عشر مدرسن يستأجرون حجرات خاصة لقصولم ، وكان المدرسون - الدين أصبحوا يسمون أيضاً أساتنة professores ومعنى هذا الله اللاتيني و الملنون » - رجال دين مرهبن يققدون مناصيم إذا تزوجوا . وكانت طريق التعلم هي الحاضرات ، وأكبر السبب في هذا أنه لم يكن في معمل أن يتناع الكتب التي تجب عليه دراسها ، أو يحصل في معدور كل تلميذ أن يتناع الكتب التي تجب عليه دراسها ، أو يحصل على نسخ مها من دور الكتب . وكان الطلاب يحلسون على الطوار أو على الأرض وبلوتون كثيراً من المذكرات . وكان العبء الملقي على ذاكرتهم شديداً أضطرهم إلى ابتكار عدة أساليب لمساعدة الذاكرة تتخذ في العادة شكل أبيات شعرية مثقلة بالمغني بغيضة الصورة : وكانت لوائح في العادة شكل أبيات شعرية مثقلة بالمغني بغيضة الصورة : وكانت لوائح

إليه أن يتكلم ارتجالا ، بل كان يحرم عليه أيضاً أن يقطع الكلام . وكان الطلاب يتعرعون بتحلير المستجدين من أن يؤدوا أجر أى مهج قبل أن يستمعوا إلى ثلاث محاضرات فيه . وقد شكا ولم الكنشيدى في القرن الثاني عشر من أن المدرسين يلقون على الطلاب مناهج سهلة لكى يكسبوا بلك الشهرة ، والطلبة ، والأجور ، وأن طريقة الاختيار التي تعلى الطالب عبالا واسعاً لاختيار الموضوعات والمدرسين أخدت تنزل بمستوى التعلم (٥٠٠).

وكان التعلم ينتعش ويكتسب بعض الحيوية من حن إلى حين بمناقشات عامة تجرى بن المدرسن ، والطلبة المتقدمين ، والزائرين الممتازين ، وكان النقاش يجرى في العادة على شكل مقرر محدد يسمى النقاسم الدرسي : فيوضع السؤال ، ويجاب عنه جواباً سلبياً ، ويؤيد هلما الجواب بعبارات مقتبسة من الكتب المقدسة أو كتب آياء الكنيسة ، وبالاستنباط الذي يتخلد شكل الاحتراضات ٥ ويتلو ذلك جواب إيجابي يؤيد بمقتبسات من الكتاب المقدس ، ومن كتب آباء الكنيسة ، وبأجوبة منطقية على الاعتراضات : والنقاش المدرسي هو الذي حدد الصورة الهائية للفلسفة المدرسية في عهد تومس أكوناس . وكانت تُعقد بالإضافة إلى هذه المناقشات المدرسية الرسمية . مناقشات غير رسميــة يسمونها ﴿ أَى شيء محب quodiberta ﴾ _ يستطبع المناقش بموجها أن يتقدم بأى سؤال بناقش في التو والساعة . وقد أوجدت هذه المناقشات غير المقيدة هي الأخرى صورة من الصور الأدبية نشاهد مثلاً , منها في كتابات القديس تومس الصغرى ، وشحذت المناقشات الرسمية منها وغمر الرسمية العقول في العصور الوسطى ، وأفسحت المجال لحرية التفكير والقول ؛ غير أنها اتجهت عند بعض الناس إلى خلق نوع من المهسارة يستطيعون به أن يثبتوا أى شيء يريدون إثباته ، أو الشعوذة اللفظية اآ تكدس جبالا من الحدل حول أنفه النقط. وكان معظم الطلاب يعيشون فى مضايف Hospicia تؤجرها جماعات منظمة من الطلاب. وكانت بعض المضايف تأوى فقراء الطلاب نظير أجر اسمى ؛ ومثال ذلك أن بيت الله Hôtel Dieu الملاصق لكتدرائية نتردام خصص حجرة 1 للطلبة الفقراء » . ثم اشترى چوسيوس اللند' Jucius of London هذا المسكن في عام ١١٨٠ واشترك من ذلك الوقت مع المستشهى فى تقدىم المسكن والمأكل لنمانية عشر طالباً يقيمون فيه ، ولم يحل عام ١٢٣١ حيى كانت هذه الطائفة من الطلاب قد انتقلت إلى مسكن أوسع من مسكنها القديم ، ولكنها مع ذلك ظلت تسمى نفسها جماعة التمانية عشر . ثم أنشأت طوائف الرهبان ، أو الكنائس ، أو أنشأ المحسنون الحبرون ، مضايف أو مساكن أخرى للطلاب ، وحبست علمها الحبوس ، أو خصت بأقساط سنوية خفضت بعض نفقات العيش على الطلاب . وفي عام ١٢٥٧ وهب ربرت ده سربون Robert de Sorbon قس القديس لويس و بيت السربون ، المال اللازم لإيواء ستة عشر طالباً من طلبة علوم الدين ، وأضيفت إلى ذلك هبات لغير هؤلاء من لويس وغيره من المحسنين حتى ارتفع عدد من تشملهم إلى ستة وثلاثين ؛ ومن هذا البيت نشأت كلية السربون (*) وأنشئت كليات ــ Collegia بمعناها القديم وهو الجحاعات ــ بعد عام ١٣٠٠ ، وجاء المدرسون إلىها ليسكنوا فها ، وعملوا مدرسين خصوصين للطلاب ، يستمعون إلى محفوظاتهم ، و و يقرأون ، معهم النصوص ؛ وأخذ المدرسون القرن الحامس عشر يدرسون يعض المناهج في أمهاء المساكن ، وازداد عدد المناهج الي تدرس بهذه الطريقة ، ونقص عدد ما يدرس منها في خارجها ، حتى أضحت و الكلية ، مكاناً للتعليمومسكناً للطلاب في وقت واحد .

 ⁽ه) وأصيحت السربون في القرن السادس عثر الكلية الدينية في الجاسة ، ثم أطلقها الثورة في عام ١٩٩٣ ، وأمادها بمثلة قابليون ، وهي الآن مركز لتدريس مناهج عامة في العلوم والآداب في جاسة باريس .



(العمورة رتم ۲) واجهة وردية – كلفرائية ارقيتو

وحدث مثل هذا التعلور فى الكلية من بيت العلبة فى أكسفورد ، ومنهليه ، وطولوز , وهكذا يدأت الجامعة من جمية للمدرسين حنى أضحت جمية من المعاهد أو الكليات .

وكان من بين مساكن الطلاب في باربس مسكنان نخصصان للطلاب المبتدئين الجمد في طائفتي الرهبان الدمنيك أو الفرنسيس ، وكان الرهبان الدمنيك من يداية أمرهم يهتمون بالتعليم ويتخذونه وسيلة لمقاومة الإلحاد . وقد أنشأوا لمم مداوس على نظام خاص بهم أشهرها كلها المدرسة العامة Studium generale فی کولونی ، وکانت لهم معاهد أخری من نوعها فی بولونيا ، وأكسفورد . وأصبح كثيرون من الإخوان أسانلة في هذه المدارس ، يعلُّمُون في الأروقة الخاصة بطائفتهم . وفي عام ١٢٣٢ . اتضم ألكسندو الهاليسي Alexander of Hales وهو من أقدر المدرسين في باريس إلى طائقة الرهبان القرنسيس ، وواصل تدريس مناهجه للجمهور ق دير الكردائر Cordeliers ، وأخذ عدد الإخوان الذين يدرسون في باريس يزداد عاما بعد عام ، كما أخذ عدد من يستمعون إلهم من غير الرهبان يتضاعف ، حتى شكا المدرسون من غير رجال الدين أنهم قد تركوا جالسين أمام مكاتبهم • كالطيور المنفردة في أعلى البيوت ، ، وأجاب الرهبان عن ذلك بأن المُلوسين غير الرهبان يسرفون في الطعام والشراب ، فأضجوا للـاك كسالى بلداء(١٠٠٠ . وحدث في عام ١٢٥٣ أن قتل طالب في شجار بأحد الشوارع ، فاعتقل ولاة الأمور في المدينة عدداً من الطلاب ، وأعرضوا عن احتجاجهم وطلبهم أن يحاكموا أمام أساتلة الحامعة أو الأسقف ، وأمر المدرسون يوقف المحاضرات احتجاجاً على هذا التصرف ؛ ولكن اثنين من رهبان اللمنيك ، وواحداً من الرهبان الفرنسيس ، وهم من جمعية للموسين ، لم يطيعوا أمر الامتتاع عن إلقاء المحاضرات ،فقررت الجمعية وقف عضويتهم فها، غير أنهم بحاوا إلى الإسكندر الرابع فأمر أساتلة الجامعة (١٢٥٥) بإعادتهم إلى

عضوية الجمعية . وأراد المدوسون أن يتجنبوا إطاعة الأمر فضرقوا ، وحرمهم البايا من الدين واعتدى الطلاب والفوغاء على الرهبان فى الشوارع ؛ ودام الجلك ست سنين تراضى الطرفان بعدها : فقبل الأساتلة يعد أن تظموا من جديد ، المدرسين الرهبان ، وأقسم هؤلاء أن يطبعوا من ذلك الوقت قوانين و الجامعة ه . ولكن كلية الفنون حرمت جميع الرهبان حرمانا دائماً من عضويتها . وناصبت جامعة باريس البابوية العداء بعد أن كانت محل عطفهم ، وناصرت الملوك فى نزاعهم مع البابوات ، وأضحت فى مستقبل الأيام مركز حركة وغالية » تسمى لفصل الكنيسة الفرنسية عن وومة .

ولم يكن لأى معهد علمي منذ أيام أوسطو من النفوذ ما كان لجامعة باريس ، فقد ظلت ثلاثة قرون لا يجتنب إليها أكبر عدد من الطلاب فحسب ، بل تجتلب فوق ذلك أعظم مجموعة من الرجال ذوى العقلية الممتازة . فأبلار ، وحنا السازبرى ، وألبرتس مجنس ، وسيجر للرابيقي ، وودنواسكوتس ، وولم الأكاى Beroventura ، وروجر بيكن ، يكونون هم تاريخ الفلسفة من ١١٠٠ إلى ١٤٠٠ . وما من شك في أنه كان في ياريس مدرسون أقلاة هم الذين أخرجوا أولئك الرجال المظام ، في ياريس مدرسون أقلاة هم الذين أخرجوا أولئك الرجال المظام ، يضاف لي يله هذا أن جامعة باريس كانت عملال هذه القرون ذات سلطان قوى في للدين والدولة ، فقد كانت لساناً قوياً يعمر عن الرأى العام ، وكانت في حصناً منيماً للدين القوم والحافظة على القديم . ولا يمكن القول بأنها حصناً منيماً للدين القوم والحافظة على القديم . ولا يمكن القول بأنها حاف المعرر حقير » في الحكيم على جان داوك .

وكان لغيرها من الجامعات نصيب في رفع فرنسا إلى منزلة الرعامة التخافية في أوربا . فقد كان في أورليان مدرسة للهانون منذ القرن التاسم لا بعد ، وكانت فى القرن الثانى عشر مركزاً للدراسات القديمة والأدبية الحديثة تنافس شارتر، ولم يكن يفوقها فى القرن الثالث عشر إلا بدلونيا فى تنعربس القانون المدتى والكنسى . ولا تكاد تقل عنها فى شهرتها مدرسة القانون فى أنجر Angers وهى المدرسة التى أضحت فى عام ١٩٣٧ من أكبر جامعات فرنسا . وكانت طولوز و طلوشة ٥ مدينة بجامعها إلى إلحادها فى الدين : ذلك أن جريجورى التاسع أرغم الكونت ريمند فى عام ١٩٧٩ على أن يتعهد بأداء مرتبات أربعة عشر أستاذاً _ فى علوم الدين ، والقانون الكنسى ، والفنون _ يرسلون من باريس إلى طولوز لمقاومة حركة الإلحاد الألبجنسية بفضل ما لهم من النشوذ على الشبان الأكتانين .

وكانت أشهر الجامعات الفرنسية القائمة في خارج باريس هي جامعة منهليه . لقد كانت هذه المدينة ، بفضل وقوعها على شاطئ البحر المتوسط في منتصف المسافة بين مرسيليا وأسبانيا ، تستمتع بجزيج وثاب من اللهم الفرنسي ، والبوناني ، والأسباني ، ومن ثقافة هذه الأجناس ؛ وكان من أهلها عدد من التجار الإيطالين وبقية من الجالية الإسلامية للفربية التي كانت في وقت ما محكم المدينة وكانت تجارتها وأنجة تاشطة . وأنشأت منبلييه في وقت عابر معروف مدرسة للطب ما لبثت أن فاقت مدرسة مسارنو ، ولسنانعلم علم البقين أكان إنشاؤها أثرا من آثار طب سلرنو ، وعلوم الدين ، و و الفنون ، و اكتسبت منبلييه بفضل تقارب هذه المكليات وتعاويها شهرة علمية واسعة ، وإن كانت كل واحدة مها كلية مستقلة . وأضمحل شأن الجامعة في القرن الرابع عشر ، ولكن مدرسة الطب انتعشت في عصر النهضة ، وقام فيها عام ١٩٥٧ أستاذ يدعى فرانسوا ربليه يلتي في مسلة من الحاضرات عن أقراط باللغة البونانية .

الفصلاليابع

جامعات إنجلترا

نشأت أكسفورد ، كما نشأت بسيورس المماثلة لها في اسمها ، لتكون. معمراً للماشية ؛ ذلك بأن نهر التامنز يضيق عند هذه النقطة ويقل غوره . وبني حصن عندها في عام ٩١٢ ، ونشأت سوق ، وعقد الملكان كنوت. Cnut وهو لك Harold جمعيات هناك قبل أن تنشأ الجامعة بزمن طويل . ويبدو أن مدارس نشأت في اكسفورد في أيام كنوت ، ولكننا لا نسمع بوجود مدرسة كتدراثية بها . ونسمع حوالي عام ١١٧ عن وجود ه أستاذ في أكسفورد ، ، Oxenford . وفي عام ١١٣٣ جاء من باريس ربرت پلن Robert Pullen ، وهو رجل من رجال الدين ، وأخذ يحاضر فى اللاهوت فى أكسفورد^{٥٢٥)} . وخطت المدرسة خطوات لايمرف التاريخ عنها شيئًا الآن ، أضحت بعدها مدرسة أكسفورد في القرن الثاني عشر مدرسة عامة أي جامعة ـ 1 ولا يعرف أحد مني تم ذلك ١٥٣٠ وفي عام ١٢٠٩ ، كما يقدر ذلك أحد كتاب ذلك العصر ، كان في أكسفورد ثلاثة آلاف طالب وملىرس(٥٠) . وكان فها كما كان في جامعة باريس أربع كليات : كلية الفنون ، وكلية اللاهوت ، وكلية الطب ، وكلية قاتون الكنيسية . أما تدريس القانون المدنى فقد أغفلته الجامعات في إنجلترا واستقر في دور المحاكم في لندن -- وكانت دار لنكولن ، وجراي ، والمعبد الداخلي laner Temple ، والمعبد الأوسط Middle Temple في القرن الرابع عشر وليدة البيوت أو الحجرات التي كان القضاة وأساتذة القانون القرن الثانى عشر يستقبلون فها الطلاب ليدربوهم .

وبدأت الكليات نى أكسفورد كما بدأت فى باريس وكمبردج أروقة محبوسة علمها الأموال لفقراء الطلاب، وأصبحت في زمن مبكر، بالإضافة إلى غرضها الأول قاعات للمحاضرات ؛ فكان المدرسون يسكنون فها مع الطلاب ، ولم ينقض القرن الثالث عشر حتى كانت القاعات هي الأقسام المادية والتعليمية التي تكونت منها الجامعة . وحوالي عام ١٢٦٠ أنشأ سىر چون ده باليول Sir John de Balliol الاسكتلندي (والد الملك الذي حكم اسكتلندة في عام ١٢٩٢) و بيت باليون ، في أكسفورد ؛ ليكفر به عن جرم غير معروف ، ليأوى بعض الطلاب الفقراء الذين سموا socii أي الزمهوء ، وخص كلا منهم بثمانية بنسات (أى ما يعادل ٨ دولارات أمريكية) في الأسبوع . وبعد ثلاث سنن من ذلك الوقت أنشأ ولترده حرتون Malden بيت طلاب مرتون ۽ في مولدن Walter de Merton أولا ثم فى أكسفور بعد قليل ، وحبس عليه بعض المال ، لبيعني بطلاب بقدر ما تمكنه من ذلك موارده . وتضاعفت هذه الإيرادات أكثر من مرة على أثر ارتفاع قيمة الأرض ، وبلغ هذا الارتفاع حداً شكا معه كبر الأساقفة بكهام Peckham في عام ١٢٨٤ من أن و الطلبة الفقراء » يتلقون منحاً إضافية « للمعيشة المترفة »(٥٠٠) . ويمكن القول بوجه عام إن الكليات الإنجلىزية لم تفتن بفضـــل المنح الدراسية وغيرها من الهبات فحسب ، بل اغتنت فوق ذلك بفضل ارتفاع قيمة الضباع التي حبست علمها . وفي عام ١٢٨٠ أنشئت قاعة الجامعة ... وهي الآن كلية الحامعة University College بهبة من وليم الدرهامى كبير أساقفة رون Rouen . ويتبن الإنسان كيف بدأت هـــذه الكليات الشهرة بداية متواضعة إذا اطلع على شروط تأسيسها ، فقد كانت تنص على وخبود أربعة أساتذة وعدد من الطلاب الذين سهمهم أن يسكنوا معهم . وَكَانَ الْأَسَاتِلُـةَ يَخْتَارُونَ وَاحِدًا مِنْ بَيْهُمُ لَيْكُونَ وَ الزَّمِيلُ ٱلْأَكْمُرُ ﴾

أو د الرئيس principal وهو الاسم الذي يعرف به عمداء الكليات الإنجلنزية في هذه الأيام . وكانت جامعة أكسقورد في القرن الثالث عشر هي هذه الكليات مجتمعة في ثقابة الأساتذة وUniversity ؛ وكان هوالاء يمكمهم وكلاء عهم ثم مدير يختارونه ويخضع إلى أسقف لنكولن وإلى الملك .

ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كانت أكسفورد مركز آلتشاط الذهبي والنفوذ. العام لا تفوقها في ذلك إلا باريس . وكان أشهر خريجها كلهم هو روجر يبكن . والتف حوله عدد آخر من الرهبان الفرنسيس من بينهم آدم مارش Adam Marsh ، وتوسس البوركي Thomas of York ، وجون بكهام والمهم ، وتوسس البوركي John Peckham ، وتألفت منه ومهم جاعة ممتازة من رجال العلم . وكان رجهم وملهمم ربرت جروستسي Robert Grosseleste ، فقد زعيمهم إطارت المارس أخريم في القرن الثالث عشر : فقد درس فها القانون والطب ، والعلوم للطبيعية ، وتخرج في عام ١١٧٩ . المارس أكسفورد ع ـ وتلك أودام مورة من لقب مدير الجامعة .

وأصبح في عام ١٢٣٥ ، وهو لا يزال مديراً لجامعة أكسفورد ، أسقف لنكولن ، وأشرف وهو في منصبه هذا على إنمام الكتدرائية العظيمة ، وأبلدى نشاطا عظيا في دراسة اللغة اليونانية وأرسطو ، وأسهم في الجهود العقلية الجبارة التي بدلت في القرن الثالث عشر التوفيق بين فلسفة أرسطو واللدين المسيحى ، وكتب شروحاً لكتاب الطبعة الأرسطو ، والتحليمرت ، ولخص على زمانه في موسوعة علمية ، وعمل على إصلاح التقويم . وكان يفهم المبادئ أنى يقوم علمها المجهو والمرقب ، وفتح أبواباً كثيرة لروجربيكن في الرياضيات والعملوم الطبيعة ؟ ، أكر الظن أنه هو الذي عرف بيكن بالخصائص المكرة

للعلسات(٥٦) . ويبلو أن كثيراً من الآراء التي نعزوها إلى بيكن – في فن المنظور ، وقوس قزح ، والمه والجزر ، والتقوم ، والاعباد على التجارب العلمية ــ قد أشار مها عليه جروستسنى ، ونخص منها بالذكر الفكرة القائلة إن العلوم كلها يجب أن تعتمد على الرياضيات ، لأن القوى كلها أثناء انتقالها فى الفضاء تتبع أشكالا وقواعد هندسية(٥٧) . وكتب شعراً فرنسياً ورسالة في الزراعة ، وكان رجل قانون وطبيباً ، كما كان عالما في الدين وفي العلوم الطبيعية . وقد شجع دراسة اللغة العبرية ، وكان سدف بذلك إلى هداية الهود إلى الدين المسيحي ، وكان في هذه الأثناء بعاملهم معاملة المسيحي الكثير التسامح ، ويحمهم قدر ما يستطيع من حقد الجاهد واعتدائهم . وكان فوق هذا كاه مصلحا اجتماعيا نشيطا ، يدين على الدوام بالولاء للكتيسة ، ولكنه جروَّ على أن يعرض على الباما إنوسنت الرابع (١٢٥٠) مذكره مكتوبة يعزو فها عيوب الكنيسة إلى محكمة الكرسي البابوى(٨٠) . وأنشأ في أكسفورد أولُّ ﴿ صندوق ﴾ يقرض الطلاب المال بغير فائدة(٥٩) ، وقصارى القول أنه هو أول واحد من ألف من ذوى العقول النهاسمة الذين أوجدوا بأعمالهم الجليلة هيبة أكسفورد العالية ومكانتها العظيمة في عالم العلم والعقل .

وأكسفورد الآن جامعة ومركز صناعي معاً ، تصنع السيارات كما تصنع المطأء ، أما كيمبر دج قلا تزال ملينة كليات جامعية ، وجوهرة من جواهر المصور الوسطى تزينها الثروة الحديثة وحسن اللوق الإنجليزى ، كل ما فيها ينتمي إلى كلياتها ، ولا يزال الهدوء العقل اللى هو من خصائص العصور الوسطى باقيا في هذه البلدة ، أجمل البلداف الحامعية على الإطلاق . ويبدو أن عظمها الذهنية يجب أن ترجم إلى حادث اغتيال وقع في أكسفورد فقد قتل أحد الطلاب في عام ١٦٠٩ امرأة في تلك البلدة الأخيرة ، فاعتدى أهلها على مسكن الطلاب وشنقوا ه لبر أو ثلاثة مهم . وأضربت نقابة المدرسين عن

الهمل احتجاجا على ما اقترفه أهل للعينة ؛ وغادر أكسفورد ١٠٠٠ طالب ومعهم ، بطبيعة الحال ، كثيرون من للدرسين - إذا صفقنا ماثيو باريس وهو رجل لا يوثق بأقواله عادة . ويقال إن عدداً كيواً مهم ذهبوا إلى كيمردج وأقاموا فها قاعات وكليات. ذلك أول ما ذكر عن وجود شيء أهل درجة من مدرسة أولية . وحلثت هجرة ثانية ... من الطلاب الباريسين في ١٢٢٨ - زاد بها عدد الطلاب زيادة كيرة . وقي عام ١٢٨٨ نظم أسقف إلى الكايات غير اللدينية في كيمردج وهي كلية القديس بطرس الى تسمى الآن بيترهوس و بيت بطرس أى وشهدت القرون الثلاثة بطرس الى تسمى الآن بيترهوس و بيت بطرس . وشهدت القرون الثلاثة منها ما هو آية من آيات العارة في المصور الوسطى . ومحتضها كلها نهر كام دوس المؤدن هي وماحقاتها طائفة من أروع ما قام به الإنسان من الأعمال .

الفصِلالثّامِن

حياة الطلاب

لم تكن سن طالب العصور الوسطى محددة ؛ فقد يكون في أي سن ؛ وقد يكون قساً أو راهباً ممتازاً ، أورئيس دير ، أو تاجراً ، وقد يكون منزوجاً أو غلاماً في الثالثة عشرة من عره ؛ يثقله عبء الكرامة المفاجئة الي ألقيت عليه في هذه السن . وكان هذا الطالب يذهب إلى بولونيا ؛ أو أورليان ؛ أو منهليه ليصبح محامياً ، أو طبيباً ، أو يذهب إلى غر هذه الحامعات في بعض الأحوال لكي يؤهل نفسه لحدمة الحكومة ؛ أويجد لنفسه في العادة مجالاً في الكنيسة . ولم يكن يوَّدي امتحاناً للدخول في الحامعة ، بل كل ماكان يطلب إليه أن يعرف اللغة اللاتينية ، وأن يكون قادراً على أداء أجر زهيد لكل مهرس يدوس مبيجه عليه . فإذا كان فقراً ، فإنه قد يستعن على ذلك عنحة هراسية أو بمعونة تسدمها إليه قريته أو كنيسته ، أو يسدمها إليه أصدقاوه أو أسقفه . وكانت هناك آلاف من هذه الحالات(٦٠) . فسامسون Samson رئيس الدير وبطل أخبار حوسلين Jocelyn's Chronicle والماضي والحاضر لكارليل Carlyle's Past and Present مدين بتعليمه إلى قس فقر كان يبيع الماء المقدس ليودي لسامسون أجر تعليمه (١١) . وكان الطالب الداهب إلى جامعة أو العائد منها ينتقل عادة بالمجان ، ويجد الطعام والمأوى فى الأديرة التي في طريقه (١٢)

فإذا قدم إلى أكسفورد ، أو پاريس أوبولونيا ألّى ففسه عضواً فى جماعة كبيرة من الطلاب السعداء ؛ الحيارى ، القبلين على العلم يجرفهم تبار دافق من الحاسة يجعل الفلسفة – المشوية بنزعة إلى الإلحاد – متيرة كالحرب ؛ كما (٤ - بـ ٢ - عبد ؛) يمعل الجدل ممتما قتانا كأنه ألعاب البرجاس. وإذا كان بعيش في عام ١٩٠٠ فإنه يميد في باريس ٧٠٠٠ عالب ، وفي بولونيا ١٩٠٠ ، وفي أكسفورد وبولونيا في المربحات وكان حدد طلاب جامعات باريس ، وأكسفورد وبولونيا في الترن الثالث حشر يزيد عادة على عددهم بعده ، وأكبر الظن أن سبب هذه الزيادة قلة الجامعات المنافسة لها ، وكان الطالب الحديث تستقبله وأسرته وقد ترشده إلى مسكن يعيش فيه - ربحاكان مع أسرة فقيرة . وإذا كان لها صلات قوية بالمسئولين فقيد يعطى صريراً ويترك مع فيره من الطلاب في حجرة في و بيت الطلبة ، ، فتقل بذلك نفقاته . وكان الطالب في أكسفورد عام 1974 يودي مائة شان وأربعة شلنات (ألف دولار وأربعين دولاراً) في العام نظير مسكنه وطعامه وحشرين شلناً (أن مائي دولار) أجراً لتعليمه و أربعن شلناً ثمناً لملابسه (۱۹)

ولم يكن تفرض عليه ملابس جامعية خاصة ، على أنه كان يطلب إليه أن يشد ثوبه الحارجي بالأزراروألا يمشى حافى القدمن إلا إذا كان جلبابه يصل للى مقبيه (٢٦٧) . وكان الأسائلة يمزون بلبس القية Cappa وهى و حرملة ، همراء أو أرجوانية ذات حاشية من جلد السنجاب ومُصَنَّمة ، وكانوا في بعض الأحيان يفطون رءوسهم بقلنسوة مربعة في أعلاها خصلة بدل و الشرابة ، وكان الطالب في جامعة باريس في منزلة رجل الدين ويتمنع بمصاناته . فكان

⁽a) هذه من تقديرات والشعر المتعاهد المتحفظ (٣٥). أما أو دو فر دوس (140 مام 190) المنافق المام 190 منافع المنافق المنا

يعيِّه من الحنمة العسكرية ، ومن الضرائب التي تفرضها الدولة على غيره ، ومن المحاكمة أمام المحاكم غير الدينية . وكان ينتظر منه أن يدخل في سلك رجال الدين ؛ على أنه لم يكن يرغم على ذلك فى كل الأحوال . وكان فى وسعه إذا تزوج أن يظل طالباً ، ولكنه في هذه الحال يفقد امتيازات رجال الدين ، ولا يستطيع الحصول على درجة علمية . أما الاختلاط الجنسي المتزن فلم يكن يجازى عليه بمثل هذه العقوبات . وقد وصف الراهب جاك ده قترى Jaque de Vitry طلبة جامعة باريس في عام ۱۲۳۰ بأنهم : « فاسقون أكثر من سائر أبناء الشعب ؛ فهم لا يرون الفسق إثماً ؛ وكانت العاهرات يسحمن الطلاب إلى المواخر سحبًا يكاد يكون قوة واقتدارًا ، ويفعلن ذلك علناً في شوارع المدينة ، فإذا امتنع الطلاب عن اللخول أتهمتهم باللواط . . . وكانت هذه الرذيلة البشعة (اللواط) تماز المدينة إلى حد كان يعد معه من علامات النبل أن يكون للشخص غلام أو أكثر . وكان يوجد في المنزل الواحد حجرات للمرس في الطابق العلوي وماخور في أسفل منه ؛ فكان الأساتذة يحاضرون في الطبقة العليا ، والعاهرات يمارسن حرفتهن الدنية: في الطبقة السفلي ؛ وكانت مناقشات الفلاسفة تسمم في البيت الواحد مختلطة بمشاحنات العاهرات والقوَّادين (٢٧).

هذا وصف يحمل فى طانه المغالاة الواجبة ؛ وكل ما يحق لنا أن نستنجه منه أن الفظى طانب العربي والقريس لم يكونا مترادفين فى باريس(*) . ويواصل جاك وصفه فيقول إن كل وأمة ، من الطلاب كانت لدمها صفات عببة لها تصف مها و الأمم ، الأخرى . فالإنجليز كانوا يوصفون بأنهم يكثرون من الشراب وأن لم ذيولا ؛ والفرنسيون كانوا مزهوين نحنين ؛ والألمان

 ⁽ و) و زكن قارن هذا نقون راشدول : و و إن الأدلة لكثيرة على ح الصورة الى يصور
 بها ده نقرى الحياة المدرسية نوست في أصاربا غير صادقة إن كان فيها سالفة (۱۸۷) ء

كانوا صخابين ؛ ﴿ يُدْيِئُنَ إِذَا شَرَبُوا ﴾ ﴾ والفلمنكيون كانوا بدناً مهمن « ليَّـنن كالزبد ، ؛ وكانوا كلهم « كثيراً ما ينتقلون مهذا الاغتياب من الألذاظ إلى اللكمات ١٩٦٠ . وكان طلاب جامعة باريس يحشرون أولا في الجزيرة التي تقوم علمها كتندائية أنتردام ؛ وكانت هذه الجزيرة هي الحي اللاتيني الأصلى ، وكان سبب تسميُّها بذلك الاسم أن الطلاب كان يراد مهم أن يتكلموا باللغة اللاتينية – حتى في حديثهم غير المدرسي – وهي قاعدة كثيراً ما كانت نحرق ، وحتى حين اتسعت رقعة الحي اللاتبيي حتى شملت الطرف الغربي من الضاحبة الممتدة في جنوب بهر السن ، كان عدد الطلاب فها من الكثرة بحيث لم يكن من المستطاع السيطرة علمهم ، فكانت المشاحنات كثيرة بين الطالب والطالب ، وبين الطالب والأُستاذ ، وبين الطالب والشخص من أهل البلدة ، وبين الراهب وغير الراهب . هذا في باريس ، وفي أكسفورد كان ناقوس سانت ماري يدعو الطلاب ، وناقوس سانت مارتن يدعو أهل البلدة ، إلى حرب متقطعة بن بلدة وبلدة . وقد حدث شغب في أكسفورد (١٩٢٨) وقعت فيه على الممتلكات أضرأر قيمتها ٣٠٠٠ جنيه (١٥٠ر١٥٠ دولار)^(٧٠) . وأصلىر موظف في باريس (١٣٦٩) إعلاناً ضد الطلاب الذين a يرتكبون بالمهار واللبل فظائع نوَّدى إلى إصابة الكثيرين بالحروح وإلى قتلهم ، ويخطفون النساء ، ويفسقون بالعذارى ، ويسطون على البيوت ، ، ويرتكبون و مراراً وتكراراً حوادث السرقة وغيرها من القظائع ١٧١٦. واربما كان طلاب أكسفورد أقل انهماكا في الشهوات الجنسية من طلبة باريس ، ولكن حوادث القتل كانت كثيرة فها ، وتنفيذ العقاب * في القائل كان نادراً ؟ فقلما كان القاتل يطارد إذا غادر البلدة ، وكان الرجل في أكسفورد يرى أن حسب القاتل عقابًا له على جرمه أن يضطر إلى الانتقال إلى كيدر دج(٧٢).

وإذ كان شربُ الماء غير مأمون العاقبة وقتثك ، لأن أوربا لم تكن قد

عرفت الشاى ، أو القهوة ، أو الدخان ، فإن الطلاب كانوا يوفقون بن حاجبهم من جهة ، وبن مطالب أرسطو والحجرات غير المدفأة من جهة أخرى ، بالحمر والجعة . وكان من الأسباب الداعية إلى إنشاء (نقابات ، الطلاب الاحتفال بالأعياد الدينية والجامعية بالشربالكثير جهرة . وكانت كل خطوة في السنة المدرسية و موسماً للطرب ، يحيا بالشراب. وكان الطلاب في كثير من الحالات يقدمون هذه المرطبات لممتحنهم . وكانت ه الأمم ، في العادة تنفق في الحانات كل ما بتي لديها من المال في آخر العام الدراسي . وكان لعب الكعوب تسلية أخرى للطلاب ، وقد فرضت عقوبة الحرمان الديني على بعض الطلاب للعبهم بالكعوب على مذابح نَّر دام(٧٢) . أما في الأوقات الأكثر نظاماً فقد كان الطلاب يسلون أنفسهم بالكلاب ، والصقور ، والموسيقي ، والرقص ، والشطرنج، ورواية القصص ، والسخرية من الطلبة الجدد . وكان هؤلاء الجدد يسمون ذوى المناقىر الصفر ، وكانوا يتخذون هدفاً للإساءة والسخرية ، ويرغمون على إقامة وليمة لسادتهم اللين سبقوهم إلى الجامعة بعام ؛ وكان الخروج على القوانين يعاقب بالغرامات أو بإرغام الخارج على تقديم عدة جالونات من الحمر يشربها الجماعة . ولم يرد ذكر للجلَّد في تأديب طلاب الجامعات حتى القرن الخامس عشر وإن كان كثيراً ما يلجأ إليه في المدارس العامة . وكان ولاة الأمور في الجامعة يفرضون على الطلاب زيادة على هذا أن يقسموا يميناً مغلظة بإطاعة جميع اللوائح ، وكان من الأيمان المفروضة في جامعة باريس يميناً يتعهد الطالب بمقتضاها ألا يتتق_م من الممتحنين الذين يسقطونه في الامتحان(^{٢٧١)} ، فكان النلاميذ يقسمون مسرعين وينقضون أيمانهم على مهل. لقد كان الحنث في الأبمان كثيراً لأن الجحم لم تكن ترهب رجال الدين المحدثين .

ومع هذا كله كان وقت الطلاب يتسع لسهاع المحاضرات . وكان مهم الكسالى ، ومنهم من كان الفراغ أحب إلهم من الشهرة ؛ فكانوا لدلك يفضلون مناهج القانون الكنسى الذى كانت دروسه تبدأ في الساعة الثالثة وعماب ذلك وعكم من أن يواصلوا نومهم (٢٠) . وإذ كانت الساعة الثالثة بحساب ذلك طوقت هي الساعة الثالثة بحساب ذلك كانت تبدأ الدراسة بعيد الفجر ، وأكبر الظن أن ذلك كان في الساعة المسابعة صباحاً . وكانت السنة المدراسية في بداية القرن الثالث عشر تدوم العرف شهراً ، وقبل أن ينصرم القرن الرابع عشر كانت و المطلة المطلق » ، التي نشأت من الحاجة إلى أيدى الشباب في زمن الحصاد ، تمتد من ٢٨ يونية إلى ٢٥ أغسطس أو ١٥ سيتمبر ، وفي جامعي أكسفورد وباريس لم تكن عطلة عيد الميلاد وعيد الفصح تزيد على بضعة أيام قليلة ، كانوا أيضاً أبعد موطناً ، فقد كانت عطلة عيد الميلاد عشر يوماً في كانوا أيضاً أبعد موطناً ، فقد كانت عطلة عيد الميلاد عشرة أيام وعطلة عبد الفصح أربعة عشر يوماً ، وكالوا يعطون واحداً وعشرين يوماً في الحفلات التي تسبق الصوم الكبر .

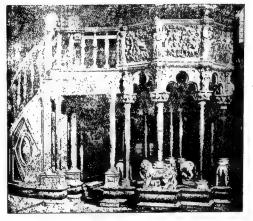
وببدو أنه لم تكن تعقد امتحازات فى أثناء دراسة المناهج ، ولكن كان هناك إلفاء وتقاش ، وكان يكن إقصاء العاجزين فى خلال الدراسة . ثم نشأت حوالى منتصف القرن الثالث عشر عادة إلزام الطالب ، بعد أن يمفى خسسين مقيا فى الحامعة للدراسة ، أن يودى امتحاناً أولياً أمام بحنة من وأمته ، وكان المنا يتضمن أولا اختياراً خاصاً منفرداً بيشمل إجابات عن أسئلة ، ويتضمن ثانيا مناقشة طنية يلمافع الطالب فيها عن موضوع أو موضوعين ، ويفند اعتراض المعرضين ، م يختم التقاش بتلخيص للنتائج . وكان الذين يحتازون هداه الاختيارات الأولية بنجاح يسمون الكلارى المحكمة أن الاحداد أساداً بوصفهم مدرسين مساعدين أو محاضرين و عاجلين » . وكان فى وسم النابع أن يواصل دراساته وهو مقم ثلاث سنن أخرى ، فإذا رأى أستاذه وهم الله المنا ا

وكان ينظر من الأساتدة ألا يقدموا طلاباً يتضع أنهم غير مستعدين للامتحان إلا إذا كان هوالاء الطلاب من ذوى النراء أو المكانة المعتازة ؛ وكان الامتحان في هذه الحالة يعد لكى يناسب مقدرة الطالب، أو كان يُستغنى عنه استغناء تاما(٢٧). وكانت الصفات الحلقية من الموضوعات الى يشملها الامتحان ؛ للنك فإن الجرائم الحلقية التي يرتكها الطالب خلال السنن الأربع أو السيع التي يقضها في الحلمة قد نحول بيته وبين الحصول على الدرجة التي يريدها ، لأن الدرجة كانت شهادة بالرق الأخلاق والاستعداد المقلى في وقت واحد . وحسينا شاهداً على ذلك أن السبعة عشر الذين رسبوا من ثلاثة وأربعن تقدموا لامتحان جامعة ثمينا في عام 1229 رسبوا كلهم لنقص في أخلاقهم ، ولم يرسب منهم واحد لعدم كفايته الدائية .

فإذا اجتاز الطالب هذا الامتحان العلني والأخير أصبح أستاذاً أو و دكتوراً و وحصل من تلقاء نفسه على إجازة مصلى طلما من السلطة الدينية ليدرَّس في أي مكان شاء في العللم المسيحي . وكان وهو و تابع ، يُدرَّس مكشوف الرأس ، أما الآن وقد نال إجازته فقد كان يتوج بقلفسوة ، ويقبله أستاذه ويباركه ، ثم يجلسونه في كرسي الأستاذية ، فيلتي عاضرة افتتاحية ، أو يعقد نقاشا افتتاحيا ؛ وكان هذا هو بداية علمه أستاذاً . وكان من مستلزمات هلما التخرج أن يدعو جميع أساتلة الجامعة أو كثرتهم إلى ويقد ويقدم لهم الهدايا ، وجهده الاحتفالات وغيرها ينضم إلى نقابة الأسائدة .

ونما يربح بالنا أن نقول إن التعليم فى العصور الوسطى كان فيه من العيوب المتعبة بقدر ما فى نظمنا التعليمية فى الوقت الحاضر . فلم يكن يواصل العواسة فى الخمس السنين التى يتطلبها نيل البكالوريوس إلا قلة صغيرة من المقيدين فى سيلات الحامة . وكان افتراض ذرى الشأن أن جميع عقائد الكنيسة المقررة يتزم بها المؤمنون باللبين مما يدعو عقول العلاب للدعة لا العمل . وكان البحث من الحجج التي تثبت هذه العقائد ، وإبراد الشواهد من الكتاب المحتص أو من أقوال آباء الكنيسة لتأييدها ، وتنسير أقوال أرسطو بحيث تمفق معها ، كان هذا كله يدرب العقول على التقسم الشعرى الدقيق أكثر مما يدرب الدهن على توضى الحقيقة والإذعان لما يمليه الضمير الحى . وفي أسايب الحياة ينمى مثل هذا التحسف فى الإيمان بالفروض التي يقوم عليه المسايب الحياة ينمى مثل هذا التحسف فى الإيمان بالفروض التي يقوم عليها هذا الأسلوب . وها نحن أولاء فى هذه الأيام نترك الناس أحراراً يشكون فى مقائدم السياسية ؛ هذا الأسلوب عليه بالحرمان الاجتماعي كما كان الإلحاد فى الدين يعاقب عليه بالحرمان الاجتماعي كما كان الإلحاد السياسي بعاقب عليه بالحرمان الاجتماعي كما كان الإلحاد الشرطة يعمل جاهداً لكى يحل على القد ، فقد أصبح الارتياب فى اللدولة الشرطة يعمل جاهداً لكى يحل على القد ، فقد أصبح الارتياب فى اللدولة الشرطة يعمل جاهداً لكى يحل على القد ، فقد أصبح الارتياب فى اللدولة أشد خطورة من الارتياب فى الكنيسة ، ذلك أنه ما من نظام يغفى النظر هن تحدى المؤدي الأساسية التي يقوم عليها .

وما من شك في أن انتقسال المعارف والتدرب على معرفة القيم أكثر انتشاراً وأحظم قدراً فيا يبدو لنا بما كانا في المصور الوسطى ، ولكننا لا يصح لنا أن نقول هذا القول نفسه عن التربية الحلقة . ولم تكن المقدرة العملية بما تعوز خريج الجامعة في العصور الوسطى ، فقد كانت تخرج في كل عام عدداً كبيراً من رجال الإدارة القادرين ، ورجال القانون الذين أوجدوا الملكية القرنسية ، والفلاسفة الذين قادوا صفينة المسيحية في مجار العقل الصاحبة ، والبابوات الذين أوتوا من الجرأة ما جعلهم يفكرون تفكير أوربا الموحدة . ولقد شحلت المسيحية ذكاء



(الصورة رقم ٣ منبر پيزاتو

الرجل الغربى ، وخلقت لغة الفلسفة ، ورفعت مكانة التعليم وهبيته ، وقفت على فترة المراهقة الذهنية عند البرابرة الظافرين .

لقد الهارت كثير من أعمال العصور الوسطى أمام هجلة الزمن التي تدمر كل شئ في سيلها ، أما الجامعات التي خلفها لنا عصر الإيمان بكل ما فيها من عناصر التنظيم ، فها هي ذي تكيف نفسها حسب التطورات التي لا مفر مها ، ونخلم عن نفسها إهابها القديم لتحيا حياة جديدة ، وتنظر منا أن تعقد لواهاها بلواء الحكومة .

البابكخامين الثلاثون أبسيلاد ۱۷۷۰ - ۲۵۷

الفضيل الأول الفلسفة القدسة

المسمح لنا القارئ بأن تفص أبلار بياب كامل ، وليس حديثنا عنه في هلما الباب مقصواً عليه بوصفه فيلسوفاً أو من أصحاب الفضل في إنشاء جامعة باريس أو شعلة ألمبت عقل أوروبا اللاتينية في القرن الثاني عشر ، بل سنتحدث عنه بوصفه هو وهلواز ممثان لأخلاق عصرهما وآدابه ، وأرقى وأعظم ما يحلب اللب ويسمد المقل في ذلك العصر ، كان مولد أبلا رفى قرية له باليه Pallet القريبة من المنت Nantes أحدى ملن بريطانيا . وكان أبوه المعروف لنا باسم ببرنجو المنتجوب فيهة متواضعة ، وكان في مقدوره أن يعير Pererz (ولسنا نعرف أن يور Pierrz (ولمان نعرف أن يور Pierrz (ولسنا نعرف أصل لقبه أبلار) أكر أولئك الأبناء وكان في مقدوره أن يطالب بحق الابن الأكر في مهر أن أبيه ؛ ولكنه كان مولماً باللموس والتفكر إلى حد جعله بعد الأكر في در أن لأخويه عن حقه ، وعن نصيبه في أملاك الأسرة ، وشرع يطلب الفلسفة ، ويلني ينسه في معركها أينا حي وطيسها ، أو أينا وجد معلماً ذاتع الفيست يُدرسها : وكان من أعلى الشيعية أن كان من أول المستقبلة أن كان من أعلى المسيت يُدرسها ؛ وكان من أعلى المسيت يُدرسها ؛ وكان من أعلى المسيت يُدرسها ؛ وكان من أعلى ما أشرفي حياته المستقبلة أن كان من أول

أساتلته چان روسلان Jean Roscelin (حوالی ۱۰۵۰ ــ حوالی ۱۱۲۰). وهو رجل متمرد انصب عليه كما انصب على أبلار من بعده سخط الكنيسة وحرمانه من الدين .

وكان منشأ الجدل الذي أثاره روسلان مسألة من مسائل المنطق الجاف الموغل في الحفاف ، والتي تبدو أبعد المسائل كلها عن الأذي، وهي الوجود الموضوعي و للكليات » . وكان و الكلي ؛ في الفلسفة اليونانية وفلسفة العصور الوسطى هو الفكرة العامة الني تدل على صنف من الأشياء (كالكتاب، والحجر، والكوكب، والرجل، والنوع الإنساني، والشعب الفرنسي ، والكنيسة الكاثرلبكية) ؛ أو الأعمال (كالقسوة ، والعدالة) ؛ أو الصفات (كالجال والصدق) . وكان أفلاطون ، وهو العلم بسرعة زوال الكائنات والأشياء الفردية ، قد قال بأن الكلى أكثر بقاءً ، وأنه لذلك أكثر حقيقة ، من أى فرد من الصنف الذى يصفه : فالحال أكثر حقيقة من فريني Phryne ، والعدالة أكثر حقيقة من أرستيدير ، والرجل أكثر حقيقة من سقراط ؛ وهذا هو الذي كانت العصور الوسطى تصر عنه و بالواقعية ، . وخالف أرسطو هذا الرأى وقال إن و الكلي ، ليس إلا فكرة يكونها العقل لتمثل صنفاً من الأشياء الماثلة ؛ فهو يرى أن الصنف نفسه لا بوجد إلا في صورة أعضائه التي يتركب هو منها . والناس فى وقتنا هذا يتجادلون : هل بوجد ، عقل جماعة ، منفصلا عن رغبات الأفراد الذين تتكون منهم هذه الجاعة وأفكارهم ومشاعرهم ؟ فأما هيوم فقد قال إن و العقل ، القردي نفسه ليس إلا اسماً عجرداً لسلسلة الأحاسيس والأنكار ، والإرادات التي في كائن حي ولمجموعها . ولم يكن اليونان ستمون اهمهاماً كبيراً مهذه المسألة ، واكتفى فيلسوف من آخر الفلاسفة الوثنيين... هن برفىرى Porphyry (حوالى ٢٣٢ ــ حوالى ٣٠٤) الذي أقام في الشام وفي رومة ـ بصياغتها دون أن يعرض حلا لها . لكن العصور الوسطى كانت تراها مسألة حووية . فقد كانت الكنيسة ترجم أنها موجود روحى بالإضافة إلى جموع الأفراد المنضمين إليها ؛ وكانت تشعر بأن « للكل ، صفات وقوى غير صفات أجزائه وقواها ، ولم يكن في مقدورها أن تعرف بأنها فكرة جمردة ، وأن الأفكار والعلاقات التي لانهاية لها والتي يُوحي بها افظ « الكنيسة ، ليست إلا أفكاراً ومشاعر في أعضائها المكونين لها ، بل إنها هي « عروس المسيح » الحية . وشر من هلما قولها : إذا كان الأشخاص ، والأشياء ، والأعمال ، والأفكار المفردة ، هي وحلمها الموجودة ، فماذا يكون مصير الثالوث ؟ هل تكون وحدة الأقانيم الثلاثة فكرة بجردة لا أكثر ، أو هل هي ثلاثة آلمة منفصلة بعضها عن بعض ؟ إن علينا أن نفسا أنفسنا في الجو اللاهوتي الهيط بروسلان إذا شئنا أن نفهم ما حل به .

ولمنا نعرف آراءه إلا من أقوال معارضيه ، فهم يقولون إنه يرى أن الكليات أو الأفكار العامة ليست إلا ألفاظا (voces) ، أى هواء الصوت (diatus vocis) ؛ فأما الأشياء المفردة فوجودة ، والأفراد المفرودون موجودون ، وأما كل ما عدا هذا فهو أسماء (noméina) . وليس للأنواع ، والصفات ، وجود مستقل ؛ فالإنسان لا وجود له ، بل اللذين يوجلون هم ألرجال ، ولا وجود لمون إلا في الأشياء الملوتة . وما من شك في أن الكنيسة كانت تترك روسلان وشأنه لو لم يطبق الملوتة . وما من شك في أن الكنيسة كانت تترك روسلان وشأنه لو لم يطبق على أقانيم الخالوث ، كما أطلق لفظ أطلق ولكن كل ما له وجود حق هو الأقانيم الخلائة ... أى ثلاثة آلمة في واقع ولكن كل ما له وجود حق هو الأقانيم الخلائة ... أى ثلاثة آلمة في واقع الأمر . وفي هذا اعتراف بالشرك الذي يتهم به الإسلام المسيحية اتهاماً ضمنيا خمس مرات في الميوم من فوق ألف مأذنة (ملك).

⁽ و) يقصه حين يقول المؤذن و لا إله إلا الله و ولكننا لا نرى فى هذا اتهاماً المسيحة يل تقريرا لركن من أركان الإسلام . (المترجم)

بهمدور هذه التعالم من شخص هو قس من قساوسة كنيسة كميسي .
Compiègne . ودعى روسلان للمثول بن يدى مجمع ديى مقدس في سواسون (١٠٩٢) وخييًر بين الرجوع عن أقواله والحرمان ، فاختار الرجوع ، وقر إلى إنجلترا وهاجم فيها عادة التسرى عند رجال الدين ، ثم عاد إلى خرنسا ودرس فى تور ولوش Loch . ويبدو أن هذه البلدة هى الى جلس فيها أبلار هند قلميه وهو نافد الصبر متململ ٢٠٠ . ورفض أبلار خكرة و الاحمية ، ولكنه حرم من الدين مرتبن لشكه فى الثالوث ، وخليق بالملاحظة أيضا أن القرن الثانى حشر كان يسمى الواقعية و العقيدة القديمة ، وأنه كان يسمى معارضها المحرشين moderni (٢٠)

ودافع أسلم (١٠٣٣ – ١١٠٩) عن الكنيسة دفاعاً مجيداً في هدة موالفات يبلو أنها حركت عواطف أبلار ، وكان لها فيه أثر عميق ، وإن لم يكن هذا الأثر إلا المعارضة . وكان أنسلم من أبناء أمرة من أشراف إيكان هذا الأثر إلا المعارضة . وكان أنسلم من أبناء أمرة من أشراف دير بك في أثناء حكم ، كما أضحى في أيام الافران . المعارسة دير بك في أثناء حكم ، كما أضحى في أيام الافران ، كما وصفه من أكر المدارس التعليمية في الغرب ، ولعل أنسلم كان ، كما وصفه زميله الراهب إيلمر تعليمية في الغرب ، ولعل أنسلم كان ، كما وصفه لا يرغب في شيء سوى التفكر والمسلاة ، خرج من صومعته كارها ليرخب في شيء سوى التفكر والمسلاة ، خرج من صومعته كارها ليحكم الدير ومدرسته . وكان الشك أنعد الأشياء عن رجل مثله ، بل يحكم الدير ومدرسته . وكان الشك أنعد الأشياء عن رجل مثله ، بل عقل محدود أن يأتي طيه يوم يفهم فيه الله ؟ ، وفي هذا يقول كما يقول وكن تلاميذه طلبوا إليه حجماً يجادلون بها الكفار ؛ وكان مونفسه يرى وكن تلاميذه طلبوا إليه حجماً يجادلون بها الكفار ؛ وكان مونفسه يرى أن ومن الإهمال ، وقد تثبتنا في ديننا ، ألا نعمل لفهم ما اعتقدنا عانه ؟ وكان هونفسه يرى أن ومن الإهمال ، وقد تثبتنا في ديننا ، ألا نعمل لفهم ما اعتقدنا عاليه ؟ وكان هونفسه يرى أن ومن الإهمال ، وقد تثبتنا في ديننا ، ألا نعمل لفهم ما اعتقدنا عاله ؟ وكان هونفسه يرى

شماره هو الامجاره يطلب الشمم ؛ وألف سلسلة من الكتب العظيمة الأثر بدأ بها الفلسفة المدرسية حين حاول أن يدافع عن الدين المسيحى دفاعاً قائماً على العقل .

ودافع في رسالة صغرة تدعى « مديث للنفس » عن الوجود الموضوعي للكليات فقال : 3 إن آر اءنا في الخير ، والعدالة والحق ، نسبية ، ولا معنى لها إلا إذا قورنت بخر مطلق أو عدالة مطلقة ، أو حق مطلق ؛ وإذا لم يوجد هذا الحق المطلق فلن يكون لنا مقياس أكيد للحكم ، وبذلك تصبخ علومنا وأخلاقنا على السواء جوفاء عديمة الأساس . والله ــ وهو الحر المطلق ، والعدل المطلق ، والحق للطلق ــ هو هذا المطلق المنقد ، وهو الغرض الذي لا بد منه في حياتنا . وكأنما أراد أنسلم أن يذهب بهذه الواقعية إلى أبعد مدى فانتقل فى كتابه Proslogion (حوالى ١٠٧٤) إلى برهانه الشهير المستمد من فن ماوراء المادة الذي أراد أن يثبت به وجود الله فقال : الله أكمل كائن يستطيع العقل أن يتصوره ؛ ولكنه إذا لم يكن إلا فكرة في رءوسنا ، فإن ذلك ينقصه عنصراً من عناصر الكمال ـــ وهو الوجود :. وإذن فالله ، وهو أكل الكاثنات ، موجود . وكتب راهب متواضع ، يدعى جونيلو Gaunilso ، ويرمز لاسمه بلفظ الأبرع Insiplo - إلى أتسلم. احتجاجاً يقول فيه إننا لا نستطيع أن ننتقل هذا الانتقال السحرى من الإدراك إلى الوجود ، وإن حجة لا تقل عن الحجة السابقة في قوتها يمكن أن تثبت وجود جزيرة تبلغ درجة الكمال ، وإن تومس أكوناس يتفق في الرأى مع جونيلوه . ثم حاول أنسلم في مقالة رائعة ولكنَّها غير مقنعة أسماها ﴿ ابنِ اللَّهُ الإنسان ، أن يجد أساساً معقولا للعقيدة المسيحية الأساسية القائلة بأن الله أصبح. إنساناً ، ويسأل لم كان هذا التجسد ضرورياً ؟ لقد كانت هناك فكرة يؤيدها أميروز، والبابا ليوالأول،وطائفة من آباء الكنيسة? ، تقول إن آدموجواححت. آكلا الفاكهة المحرمة قد باعا نفسهما وباعاكل نسلهما إلى الشيطان ، وأن لا شيء يستطيع افتداء البشرية من الشيطان والحجم إلا موبت الله اللهيء إنساناً . وعرض أنسلم حجة أدق من هذه وأبلغ نقال : إن عصبان أبوبنا الأولىن كان ذنباً غير محلود لأنه ذنب في حتى كائن غير محلود ، وإنه قلب النظام الحلقي للمالم كله ، ولا شيء عكن أن يوازن و محو ذلك المذب على المحلود وإلا التكفير عنه تكفيراً غير محلود ، ولا يستطيع تقديم هذه الكفارة المغير المحلودة إلا كائن غير محلود ، ومن أجل هذا صار الإله إنسانا لكي يعيد إلى العالم توازنه الأخلاق .

و ممت واقعية أنسلم وتطورت على يد تلميذ من تلاميذ روسلان يدعى وليم الشابوكسى William of Chapeaux (١١٧١) . فقد بهذا وليم في عام ١١٠٣ يعلم الجلال في مدرسة كتدرائية تردام بباريس وإذا جاز لنا أن نصدق أبلار – الذي كانت براعته الحربية نحول دون براعته التاريخية – قلنا إن وليم ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أفلاطون ، فكان أفلاطونيا أكثر من أفلاطون نفسه حن قال إن الكلبات ليست حقائق موضوعية فحسب ، بل إن الفرد نحوير عارضي الحقيقة الجنسية ، ولا وجود له إلا باشتراكه في الكلي ؛ وعلى هذا فالإنسانية هي الكائن أنه قال فضلا عن مدا إن الكلي بأجمه حاضر في كل فرد من صنفه ، أنه قال فضلا عن هذا إن الكلي بأجمه حاضر في كل فرد من صنفه ، فالإنسانية كلها حاضرة في سقراط وفي الإسكندر .

وألتى أبلار عصا التسيار في مدرسة وليم بعد كثير من النجوال العلمي (١٩٠٣) ، وكان وقتتك في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمره . وكان وسم الحلق حسنالقوام ، هي الطلعة (١٩٠٧ ، ذا جمة عريضة تبعث في النفس الرحة ؛ وكانت روحه المرحة تكسب طباعه وحديثه فتنة وحيوية . وكان يستطيع تأليف الأغاني وإنشادها ، وكانت فكاهته القوية تزارل الضعاف في هاحات الحدل . وكان شايا مرحاً طروباً، عرف في الوقت نفسه باريس والفلسفة .

وكانت عيوبه هى العيوب التي تستلزمها صفاته : فقد كان مغروراً ، مزهراً بنفسه ، وقحاً ، منطوياً على نفسه ، دفعه ابتهاجه بمواهبه التي كان يعرفها حق المعرفة إلى أن يطرح بتهور الشباب العقائد التعسفية والعواطف الرقيقة التي كانت صائدة في عصره وبين أسائلته . وقد أسكرته و بهجة ، الفلسفة و المهية ، إليه ؛ فهذا العاشق الذائع الصيت يحب الجدل أكثر نما يجب هلواز :

وقد سخر من واقعية أستاذه المسرفة ، وتحداه علناً أمام فرقته : يا عجباً الإنسانية كلها حاضرة في سقراط ؟ إذن فحن تكون الإنسانية كلها حاضرة في الإسكندر لا بد أن يكون سقراط (الذي تشمله الإنسانية كلها) حاضرًا تى الإسكندر . ويخيل إلينا أن ماكان يقصده ولم هو أن جميع العناصر الحوهرية التي في الإنسانية حاضرة في كل كاثن بشرى . على أننا لم تصل ' إلينا حجج وليم في هذا النقاش ؛ ومهما كانت هذه الحجج فإن أبلار لم يأخذ بشيء منها . فقد عارض واقعية وليم واسمية روسلان بالفلسفة التي مميت فيها بعد بالفلسفة الإدراكية ، وهي تقول إن الصنف (الإنسان والحجر ، ليس له وجود جسمي إلا في أفراده التي يتكون منها ﴿ الرجالُ ، والحجارة) ؛ وإن الصفات (كالبياض ، والطيبة ، والحقيقة) لا وجود لَمَا إِلاَ فِي الْأَجْسَامِ ، أَوِ الْأَفْعَالُ ، أَوِ الْأَفْكَارِ الَّتِي تَصِفْهِا . ولكن الصنف والصفة ليسا مجرد اسمين ، بل هما مدركان تكونهما عقولنا من العناصر أو المظاهر التي تلاحظ وجودها مشتركة بين طائفة من الأفراد ، أو الأجسام ، أو الآراء . وهذه العناصر المشتركة حقيقية ، وإن لم تظهر إلا في الصور الفردية .. وليست المدركات التي نفكر بها في هذه العناصر المشتركة ــ الأفكار الجنسية أو الكلية الى نفكر بها في الأصناف المكونة من أجسام ممَّائلة _ ليست هذه المدركات ورياح الصوت، ، بل هي أكثر أدوات التفكير نفعا وأكثرها ضرورة ، وبغيرها لا يمكن أن يكون للعلم ولا للفلسفة وجود .

ويقولون إن أبلار بني مع وليم ﴿ بعض الوقت ﴾ . ثم شرع هو تفسه يدرس في ميلون Melun أولا ثم في كورني Corbeil بعدالله ، وتبعد أولى البلدتين أربعين ميلا عن باريس أما الثانية فتبعد عنها خسة وعشرين . وقد أخذ عليه بعضهم أنه أنشأ وحانوته إبعد تدريب جدقصير ، ولكن عدداً كبيراً من الطلاب هرع إليه ، لإعجابهم بسرعة بدسهه وزلاقة لسانه . وكان ولم في هذه الأثناء قد أصبح راهباً في دير القديس فكتور حيث « طلب إليه » أن يستمر في إلقاء محاضراته ؛ وعاد إليه أبلار تلميذاً بعد و مرض شديد ۽ . ويبدو أنه كان على عظام فلسفة وليم لحم أكثر مما توحي به القراءة العاجلة لسيرة أبلار الموجزة التي كتنها ينفسه . ولكن سرعان ما تجددت مناقشاتهم القديمة ، وأرغم أبلار (كما يقول أبلار نفسه) وليم على أن يعدل فلسفته الواقعية ، وبدأت مكانة ولم في المبوط. وعرض الأستاذ الذي خلفه والذي عينه بنفسه في نتردام أن يخلي مكانه لأبلار (١١٠٩ ؟) ، ولكن وليم لم يوافق على هذا العرض . وواصل أبلاد محاضراته في مليون ، ثم فوق جبل سانت چنڤييڤ المجاور لپاريس . ونشبت بينه وبين وليم ، وبين طلامهما ، حرب كلامية دامت عدة سنين ، وأصبح أبلار زعم المحدثين أى الشبان المتمردين المتحمسين أصحاب المدرسة و الحديثة ، . وبينا هو يخوض غمار هذه الحرب ترهب والداه . ولعلهما فعلا ذلك اســـتعداداً للمنوت ، واضطر أبلار أن يعود إلى له باليه Le Pallet ليكون في وداعهما ، وربما كان من أسباب عودته تسوية بعض المشاكل الخاصة بأملاك الأسرة . ثم رجع أبلاد إلى باريس في عام ١١١٥ ، بعد أن قضى بعض الوقت يدرس علوم الدين في لامون ، وأقام مدرسته ، أو بدأ منهج محاضراته ، في قاعات نتردام التي كان يجلس فيها وهو طالب قبل ذلك الوقت باثنتي عشرة سنة أو نحوها . ويبدو أنه لم يلق في ذلك معارضة ما . وكان وقتئد من موظى الكندرائية وإن لم يصبح من قساوسها(٨) . وكان في مقدوره أن يطلع إلى

المناصب الكهنوتية الطيا إذا ازم الصمت ؛ ولكن هذا الشرط كان ثقيلا عليه ، لأنه درس الأدب كما درس الفلسفة ، وكان أستاذاً في عرض الآراء عرضاً واضحاً لطيفاً ؛ وكان كنبره من الفرئسيين يرى أن الوضوح في التعبير واجب محتمه المبادئ الحلقية ، ولم يكن يحشى أن يخفف من عبء حديثه بقليل من الفكاهة . وأقبل الطلاب من كثير من البلاد ليستمعوا إليه ، وكانت الفصول التي يدرس لها كبيرة كبراً أغناه بالمال وأذاع شهرته بين الأهم(٢) ، تشهد بلمك رسالة بعث بها إليه فولك Foulques رئيس أحد الأديرة يقول فها :

بعثت إليك رومة أبناءها تعلّمهم ٢: ولم تمنم المسافة الشاسعة ، أو الجبال أو الوربان أو الطرق الموبعة باللصوص ، الشبان من الإقبال عليك . واز دحمت فصولك بالشببان الإنجليز اللين صروا البحر المقمم بالأعطار ، وأقبل عليك التلاميل من جمع أنحاء أسهانيا وفلاندرز وألمانيا ، ولم علوا من الثناء على قوة حقلك . ولست أذكر شيئاً عن سكان باريس ، وأقامى فرنسا التي كانت هي الأخرى ظمأى لتعليمك ، كأنه لا يوجد علم من العلوم لا يستطاع أخله عنك ...

وما دام قد بلغ هذه اللمروة من المجبد والنجاح وبُعد الصيت ، فلم َ لا يرق إلى كوسى الأسقفية (كما ارتقى إليه ولم) ، ثم إلى كرسى رئيس الأسافقة ، ولم َ لا يرق إلى كرسى البابوية ؟

الفصل لثاني

هلسواز

ويؤكد أيلار أنه على حتى ذلك الوقت و مستعفقاً إلى أقصى حلود الاستعفاف ه. ، وآنه كان و حريصاً على الاستناع عن جميع ضروب الإفراط هرالاً . ولكن هلواز ابنة أخى فلير Fulbert قس الكتدرائية كان لما من حال الخلق والهيام بالعلم ما أثار كل ما كان كامنا في أبلار من حساسية مرهقة برجولته وإعجاب بعقليته . وفي خلال تلك السنين المحمومة التي كانت الحرب ناشية فها بين أبلار ووليم عن الكلى وغير الكلى شبت هلواز من الطفولة إلى الأنوثة المكتملة ، يتيمة لم بيق الأبومها أثر . وبعث بها عمها إلى دير في أرجني Argentui لتقفيى فيه عدداً كبراً من السنين . فلما ذهبت إليه هامت بما في مكتبئة الصغيرة من الكتب هياما أصبحت معه أنه دامية في الدير . و بلا عرف فلير أنها تستطيع التحدث باللاتينة بنفس المعلاقة التي تتكلم بها الفرنسية ، وأنها لم تكتف بهذا بل أخذت تعلم المعربية (۱۲) ، بما عرف هذا أعجب بها ، وجاء بها لتعيش معه في بيته المعرب من الكتبرائية .

وكانت فى سن السادسة عشرة حين اتصلت حياتها بحياة أبلار (١١١٧) ؟ وفى ظننا أنها سمعت به قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، وما من شك فى أنها كانت قد أبصرت مثات الطلاب تغص بهم الأمهاء وقاعات الحاضرات ، وقد جاءوا المستمعوا إليه ؟ ولعلها وهى ذات الحاسة الذهنية القوية قد ذهبت خفية أوعلناً لترى وتسمع معبود علماء باريس ومثلهم الأعلى . وفى وسعنا أن نتصور حيامها ورسيح معلمها

الحاص . وها هو ذا الفيلسوف نفسه يفسر لنا أصرح تفسر كيف حدث هذا :

و كانت هذه الفتاة الصغرة هي التي . . . اعتراث أن أرتبط بها برباط للب . و الحق أن هذا الممل من أسهل الأمور . فهاهو ذا اسمى على كل لسان ، ولى من مزايا الشباب والجال ما لا أخشى معه أن ترفضى امرأة ، أيا كان شأنها ، أتنطف علها يحي . . . و هكذا شرعت ، وقلي ملهب بحب هذه الفتاة ، أبحث عن الوسائل التي تمكنني من أن أنحدث إلها في يحب هذه الفتاة ، أبحث عن الوسائل التي تمكنني من أن أنحدث إلها في يمو حديث للودة الحالية من الكافة ، حتى يسهل على بلاك أن أحظى بوافقتها . ومن أجل هذا أفتحت م الفتاة . . . أن يأويي في بيته . . . نظم أوديه له . . . وكان هو رجلا بخيلا حريصا على المال و . . . المتحد أن ابنة أخيه سنفيد كثيراً من تعليمي . . . ولقد ذهلت من سلاجة الرجل ، ولو أنه عهد بحمل وديع إلى عناية ذئب مفترس لما كنت أشد من ذلك دهشة و ذهو لا . . .

وليم أطيل القول ؟ واجتمعنا أولا في المسكن الذي أظل حبنا ، ثم في القلين اللذين كانا يتحرقان بين جنيبنا . وقضينا الساهات الطوال نمم بسعادة الحب متسترين بستار الدرس . . وكانت تجلاتنا يزيد حديدها على كلماتنا المنطقية ، وكانت أيدينا أقل بحثاً عن الكتاب منها حن صدرينا ، وكان الحب يجلب عيني كل منا إلى الآخر(١١) ،

و هكذا أحالت وقة هلواز العاطفة التي بدأت رغبة جسمية بسبطة وحناناً أذكى من عرف الطبب ، وكانت هذه تجربة جديدة في حياته لهنثه عزالفلسفة ، خفد استمار من محاضراته وجداً وهياما لحبه ، فأضحت هذه المحاضرات مملة على خلاف عادتها . وأسف طلابه لما أصاب الجلمل المنطبق ، ولكنهم رحبوا بالعاشق ، وسرهم أن يعرفوا أن سقراط نفسه يمكن أن يأتم ، وعزوا أنفسهم عما فقلموه من الحجج الدامغة يترديد أهاني الحب التي بدأ يوافهها ؛ وكانت هلواز تسمع من نافلة بيتها أغانى افتتانه بها تتردد أصداؤها الصاخبة على ألسنة ثلاميله(١٤)

ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أبلغته أنها حامل فما كان منه إلا أن اختطفها سراً من بيت عمها وأرسلها إلى بيت أخته في بريطاني(١٥٠). ودفعه الخوف من جهة والرحة من جهة أخرى فعرض على عمها الغاضب الحانق أن يتزوجها بشرط أن يسمح له فلبعر بأن يظل أمر الزواج سراً . ووافق القس على هذا ، وسافر أبلار إلى بريطاني في أثناء العطلة ليحضر عروسه الرقيقة القلب غير الراضية بالزواج. وكان عمر ابنهما أسطرلاب Astorlabe ثلاثة أيام حنن أقبل هو على والدته . وظلت هلواز زمناً طويلا ترفض الزواج به . ذلك أن إصلاحات ليو التاسع وجريجورى السابع كانت منذ جيل من الزمان قد حرمت مناصب القسيسن على المتزوجين إلا إذا ترهبت الزوجة ، ولم تكن هلواز مستعدة لأن تفارق رفيقها وابنها على هذا النحو ، وعرضت عليه أن تبنى عشيقته بحجة أن هذه العلاقة ، إذا ظلت سراً يخنى عن الناس بمكمة ، لن تحول بينه وبن الرقى في مناصب الكنيسة كما يحول الزواج (١٦) . وقد أورد أبلار[ف كتابه ناريخ مصائعي (الفصل السابع ﴾ فقرة طويلة يعزو فها إلى هلواز في هذا الظرف ثبتاً طويلا من المراجم والأمثلة المعارضة لزواج الفلاسفة ، وحججاً فصيحة قوية في الاعتراض على و حرمان الكنيسة من ضوئه الراق ؛ : و تذكر أن سقراط قد تزوج ، وكيف طهرت الفلسفة من هذا العار الذي دنسها تطهيراً خسيسا حتى بكون الناس بعدثذ أكثر حكمة وأحكم تدبيراً ، ثم ينقل عنها قولها : ﴿ إِنَّهَا أَحْلِي لِهَا كَثِيرًا أَنْ تُسْمَى عَشْيَقْتَى مِنْ أَنْ يَعْرِفُ النَّاسُ أَنَّهَا زوجيني ، بل إن هذا يكون أبضا أشرف لي ١٧٧٠ . ولكنه أقنعها بأن وعدها ألا يعرف الزواج إلا عدد قليل من أوثق الناس صلة عهما . وتركا أسطرلاب مع أخت أبلار وعادا إلى باريس وتزوجا بحضور فلمبر . وأراد أبلار أن يحتفظ بسرية الزواج فعاد إلى حيث كان يسكن وهو أعزب، وعادت هلواز إلى السكني مع عمها ، ولم يكن كلا الحبيبين يرى الآخر إلا نادراً وخلسة . ولكن فلبىر ، في حرصه على أن يسترد مكانته ، أخلف الوعد الذي قطعة لأبلار وأذاع السر ؛ وأنكرته هلواز ، وأنزل بها فلبر العقاب بعد العقاب ، فما كان من أبلار إلا أن فر بها مرة أخرى ، وبعث بها هذه المرة ، على كره منها شديد ، إلى دير أرچنى ، وأمرها أن ترتدى ثياب الراهبات ، وألا تقسم اليمين أو تلبس التقاب . ويقول أبلار إنه لما سمع فلبعر وأقاربه سهذا ﴿ أَيْقَنُوا أَنْنِي قَدْ غَدْرَتْ مهم أشد الغدر ، وتخلصت إلى أبد الدهر من هلواز إذ أرنحتها على أن تَرهب. فاستشاطوا من هذا غضباً ودبروا مؤامرة غلى ؛ وبينا كنت نائمًا ذات ليلة . . . في حجرة سرية بمسكني ، إذ اقتحموها على بمعونة خادم من خدى قدموا له رشوة ، وانتقموا مني انتقاما شنيعا بجللهم العار . . . لأنهم بتروا أعضاء جسمي التي فعلت بها ما كان سببًا في حزبهم . ولاذوا بالفرار يعد أن فعلوا فعلتهم ، ولكن اثنين منهم قُبْض عليهما وفقدا أعينهما وأعضاء تناسلهما و(١٨) .

ولم يكن في وسع أعدائه أن يختاروا له حقاباً أدل على مكرهم من هذا العقاب. نعم إنه لم يحط من منزلته لساعته ، فإن باريس كلها بمن فيها من رجال الدين عطفت عليه (۱۹) ، وأقبل عليه طلابه يواسونه ، وانكمش فلير واختي وجرّ عليه النسيان ذبوله ، وصادر الأسقف أملاكه . ولكن أبلار أدرك أن قد قضى عليه ، وأن وقصة هذا الاعتداء الشنيع ستنشر حتى تبلغ أطراف الأرض ، ولم يعد يستطيع التفكير في الرق في مناصب الكنيسة ، وأحس أن سمعته الطبية قله عيت من الوجود عواً تاما » ، وأنه سيكون مضية في أقواه الأجيال المقبلة . وشعر بأن في سقوطه هذا قسطا من المدالة الطبيعية غير الشعرية. » نقد اجتث من لحمه ذلك الجزء الذي أذنب ، وغير به نفس الرجل الذي غير هو به من قبل . وأمر هلواز أن تليس النقاب وترهب ، وذهب هو إلى دير القديس دنيس وأقسم يمين الرهبنة (*) .

 ⁽a) اقرأ شمة هاراز وأبلار مفصلة في الجزاء الأول من كتابنا : وأهمر الرسائل
 العالمية ، (الترجم)

الغييل لثالث

صاحب النزعة العقلية

وعاد إلى محاضراته بعد عام من ذلك الوقت (١١٢٠) مستجيبا لإلحاح طلابه ورئيس ديره ، وأخذ يلقبها في و صومعة » قي شعبة دير منزنسل Maisoncelle . ونظن أننا نجد في كتبه أهم ماكان يحتويه منهج محاضراته . على أن هذه المحاضرات قد ألفها وهو قال مضطرب على دفعات متقطعة ، لا نستطيع أن تحدد تواريخها . وقد راجعها في سنيه الأخبرة حين تحطمت روحه ، ولسنا ندری مقدار ما تمطم من حرارة الشباب بفعل الزمن ـ ولأبلار أربعة كتب صغرى في المنطق تدوركلها حول مسألة الكليات . ولا حاجة بنا إلى أن نوقظها من رقادها ، لكن كتابه الجدل رسالة تقم في ٢٧٥ صفحة في المنطق بمعناه عند أرسطو : فهي تحليل عقل لأجزاء الكلام ، وأدوات التفكير (المادة ، والكم ، والمكان ، والوضع ، والزمن ، والعلاقة ، والصفة ، والملكية والعقل ، « والعاطفة » } وأشكال القصايا المنطقية ، وقواعد الاستدلال . وكان من واجب عقل أوربا الغربية بعد أن استيقظ من سباته أن يوضح لنفسه هذه الأفكار الأساسية كما يفعل الطفل حس يتعلم القراءة . وكان الجدل أهم ما تعنى به الفلسفة في أيام أبلار ، ويرجع بعض السبب في هذا إلى أن الفلسفة الجديدة قد تفرعت من أرسطو عن طريق بوئيثيوس Boethius وپرفيري . ولم يكن الجيل الأول من أصحاب الفلسفة المدرسية يعرف إلا رسائل أرسطو المنطقية (وحتى هذه الرسائل لم تكن كلها معروفة له ﴾ . ولهذا لم يكن كتاب أبلار في المجدل كتابًا ممتعًا خلابًا . ولكننذ نسمع في صفحاته التي تعني بالشكل قبل كل شيء إلى طلقة أو طلقتين من تلك المناوشات الأولى في الحرب التي قامت بين الدين والعقل ودامت ماثتي عام . وكيف نستطيع وتحن في عصر أخذ يشك في العقل نفسه ، أن ندرك لآلاء ذلك المهد الذي يدأ في التو يكشف ه سر المعرفة العظيم ؟ ١٠٠٧ ويقول أبلار إن الحق لا يمكن أن يناقض الحق ، وإن حقائق الكتاب المقدس يجب أن تتفق مع مكتشفات العقل ، وإلا لكان الله الذي وهبنا هذه وتلك يخدهنا بإحداها(٢٧)

ولعله قد كتب في عهده الباكر - قيل مأساته - كتابه مواربين فيلسوف ويهودى ومسيحى . وفيه يقول : 1 إن ثلاثة رجال أقبلوا عليه فى روى أثناء الليل ؛ وسألوه يوصفه أستاذاً ذائع الصيت ، أن يفصل فى نزاع قائم بينهم . وقالوا إنهم كلهم يؤمنون بالله ، وإن اثنين منهم يقبلان ما جاء بالكتب العبرية المقاسة ، أما الفيلسوف فبرفضها ، ويقترح أن يقم حياته ومبادئه الأخلاقية على أساس العقل والقانون الطبيعي . ويرد عليهم الفيلسوف بقوله إن من أسخف السخف أن نستمسك بعقائد الطفولة . وأن نشارك الغوغاء فى أباطيلهم ، وأن نزج فى الجمعيم من لا يقبلون هذه السخافات التي لا تفترق في شيء عن عبث الأطفالُ ! ؛ . ويختم قوله اختتاما غير فلسني فعرمى البهود بالبلاهة والمسيحيين بالجنون . ويرد عليه البهودى بقوله إن الناس لا يستطيعون الحياة بغير القوانين ؛ وإن الله قد فعل ما يفعله الملك الصالح فأنزل على الناس دستوراً للأخلاق الفاضلة ، وإن تعاليم التوراة هى التى أبقت على شجاعة البهود وأخلاقهم خلال ما أصامهم من التشتت والمآسى التي دامت قروناً طوالا . فيسأله الفيلسوف : وكيف إذن عاش T باوًكم هذه المعيشة النبيلة قبل أن يرسل موسى وشرائعه بزمن طويل ؟ -- وكيف تؤمنون بوحى يعدكم بالنعيم فىالدنيا ، ومع هذا فقد ترككم تقاسون آلام الفاقة والبوس ؟ ويقبل المسيحي كثيراً مما قاله الفيلسوف والبهودي ، ولكنه يقول إن المسيحية قد نمت وأكملت شريعة الفيلسوف الطبيعية وشريعة الهودى الموسوبة ؛ وإنها قد سمت يمثل الإنسانية العليا إلى درجة لم تسم إليها قط من قبل ؛ فلا

الفلسفة ولا المودية ، كما جاءت في الكتب المقدسة ، قد وهيت الإنسان سعادة سرمدية ؛ أما المسيحية فتهب الإنسان القلق المعدِّب ، هذا الأمل في السعادة ، وهي لهذا عظيمة القيمة إلى أبعد حد . الا إن هذا الحوار الذي لم ينته إلى غاية لهو ثمرة راثعة من نتاج قس في كتدراثية بباريس عام ١٩٢٠. وقد وَجَدَت حرية في النقاش شبهة جذه الحرية نفسها متقلًّا لها في كتاب آخر لأبلار يعد أشهر كتبه على الإطلاق ، وهو كتاب قم ولا aic et non (١١٢٠) . ونجد أول ذكر لهذا الكتاب في رسالة كتبها رجل من سانت تيري St. Tierry يدعى William إلى القديس برنار (١١٤٠) يصف هافيها ذلك الكتاب بأنه كتاب مريب يوزع سرآ بنن تلاميذ أبلار والمتشيمين له (۲۲) . ثم اختنى هذا الكتاب بعدئذ من التاريخ حتى عام ١٨٣٦ حمن كشف فكتور كوزن Victor Cousin المخطوط بمكتيسة في ألفرانش Avranche . وما من شك في أن شكل الكِتاب نفسه قد أسون هله [الأسقف ؛ ذلك أنه يبدأ بمقدمة تتم عن التتى والصلاح ، ثم ينقسم إلى ١٥٧ سؤالا تشمل أهم العقائد الأساسية للدين ؛ وقد وضعت في عمودين متقابلين تحت كل سؤال طائفتان من الأقوال إحداهما تويد الرد الإيجابي والأخرى تويد الرد السلبي ، وكلتاهما مقتبسة من الكتاب المقلس ، أو من كتب آباء الكنيسة ، أو من الآداب اليونائية الرومانية القديمة ، بل إن بعضها مقتبس من في الحب لأوڤد . وقد يكون القصد من تأليف هذا الكتاب هو أن يكون مراجع يُلجأ إلهـا في النقاش الملىرسي ، ولكن مقدمته تنتقص من قيمة الاعتماد على آباء الكنيسة - صواء لواد الكاتب ذلك أو لم يرده ــ لأنها تظهر ما بينهم من التناقض ، يل إنها لطهر تناقض كل مهم لنفسه . ولم يشك أبلار في قيمة الكتاب المتبس بوصفه مرجعاً دينياً ، ولكنه يقول إن لفته قد كتبت لغير المتعلمين ، وإنها يجب تفسيرها

بالرجوع إلى العقل والمنطق . غير أن النص المقدس قد فسد في بعض الأحيان لما أَضْيِفَ إليه زُوراً ، أو لعدم العناية بالنسخ ؛ ولهذا فإذا ناقضت نصوص الكتاب المقدس أو كتب آياء الكنيسة بعضها بعضاً ، وجب أن نحاول التوفيق بين النصوص المتناقضة بالاعبّاد على العقل . وكتب في نفس كلمة الافتتاح عبارة استبق ما شكوك ديكارت بأربعائة عام فقال ؛ (إن أول مفاتيح الحكمة هو المثابرة على الأسئلة وتكرارها . . . لأن الشك يؤدى بنا إلى البحث ، والبحث يوصلنا إلى النتيجة ١٧٤٦ . ويقول إن عيسي نفسه حين واجه العلماء في المعبد أمطرهم وابلا من الأمثلة . ويكاد الحوار الأول في الكتاب يكون إعلاناً لاستقلال الفلسفة : ﴿ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أُسَاسَ الإِيمَانَ في عقل الإنسان وفي القضايا المتناقضة » . وهو ينقل أقوالا عن أسروز ، وأوغسطين ، وجريجوري الأول ، تؤيد الإعان ، ويستشهد بأقرال من هيلاري Hilary ، وچبروم ، وأوغسطىن ، على أن من الحبر أن يستطبع الإنسان أن يثبت دينه بالاعتماد على العقل . ويكرر أبلار استمساكه بأصول الدين ، ولكنه يعرض للجدل مسائل مثل : الإرادة الإلهية ، والإرادة الحرة ، ووجود الحطيثة والشر في عالم خلقه إله خيِّر قادر علي كل شيء ، واحتمال أن يكون الله غير قادر على كل شيء . وما من شك في أن استدلاله الحر في هذه المسائل قد زلزل إمان الطلاب الشبان المولمين بالجدل . على أن هذه الطريقة _ طريقة التعلم بالبحث الحر إلى أقصى حدود الحرية _ أضحت هي الحطة المألوفة المتبعة في الجامعات الفرنسية وفي الكتابات الفلسفية والدينية ؛ وأكبر الظن أنها قد سلكت هذه السبيل بفضل المثل الذي ضربه لها أبلار (٢٥٠). وسنرى القديس تومس يتبعها دون أن يخشي شيئا ودون أن يوجه إليه لوم ؛ وهكذا وَجدت النزعة العقلية مكاناً لها في مسهل عهد القلسقة المدرسية .

وإذا كان كتابه قسم **ورد** لم يغضب إلا عدداً قليلاً من الناس لأنه لم يوزع منه إلا عدد قليل من النسخ ، فإن ما حاوله أبلار من تمكم العقل في

وهو يقول إن هذا الكتاب و انتشر انتشاراً واسعا جداً ، وإن الناس أعجبوا بما فيه من دقة . وقد أشار فيه إلى أن وحدة الله هي النقطة الوحيدة التي يتفق فيها أعظم الأديان وأعظم النلاسفة . في الله الواحد الأحد تشهد قدرته بوصفه الأقنوم الأول ، وحكمته بوصفه الأقنوم الثاني ، ونعمته ، والحديث ، وحبه بوصفها الأقنوم الثالث . وهذه كلها نواح أو أعراض من الحوهر القدسي ؛ ولكن جميع أهال الله تتضمن وتجمع في الوقت عينه قدرته ، وحكمته ، وحبه (٣٧) . وقد شعر كثيرون من رجال الدين بأن ما طلبه إليه روسلان – وكان قد أصبح وقنتذ شيخاً طاعناً في السن مستمسكا علما الله إليه روسلان – وكان قد أصبح وقنتذ شيخاً طاعناً في السن مستمسكا بالدين – أن يهم أبلار بالكفر ؛ ودافع چيفروى Ocoffroy اسقف شار تر عن أبلار طوال فهرة السخط المدى حل جلما الفيلسوف المستهر . ولكن أبريك Alberic ولوتلف ، وهما مدرسان في ريمس كانا قد تستهم . ولكن أبلار في لاءون عام ۱۹۱۳ ، حرضا كبير الإساقفة على أن يأمره يالهي، أبلار في لاءون عام ۱۹۱۳ ، حرضا كبير الإساقفة على أن يأمره يالهي، إلى سواسون ومعه كتابه عن التنايث ، وأن يدفع عن نفسه تهمة الإلحاد . فلما أبلار في لاءون عام ۱۹۱۳) وجد أن الفوغاء قد أثبروا عليه ، وأنهم أبلار فيل سواسون ومعه كتابه عن التنايث ، وثان يدفع عن نفسه تهمة الإلحاد . فلما قدم أبلار فيل سواسون ومعه كتابه عن التنايث ، وثان يدفع عن نفسه تهمة الإلحاد . فلما أبلار فيل سواسون ومعه كتابه عن التنايث ، وثان يدفع عن نفسه تهمة الإلحاد . فلم أبلار فيل سواسون ومعه كتابه عن التنايث ، وثان يدفع عن نفسه تهمة الإلحاد . فلم

الا يوشكون أن يرجمونى بالحجارة . . . لاعتقادهم أنى قلت بوجود آلمة ثلاثة به (۲۸) . وطاب أسقف شارتر أن يستمع المجلس إلى دفاع أبلار عن نفسه ، ولكن ألبريك وغيره رفضوا طلبه بحجة أن أحداً لا يستطيع أن يدحض حجج أبلار ولا يسعه إلا أن يقتنع بأقواله . وأدانه المجلس من غير أن يستمع إليه ، وأرخمه على أن يلتي كتابه فى الثار ، وأمر رئيس دير القديس ميدار Medard أن يحجزه فى الدير سنة كاملة ، ولكن مرسوماً بابوياً أفرج عنه بعد وقت قصير ، وأعاده إلى دير القديس دنيس .

وقضى أبلار فى الدير سنة فى شجار دائم مع رهبانه المشاكسين ، ثم حصل بعد ذلك من رئيس الدير الجديد سوجر Suger العظم على إذن بأن يبنى لنفسه صومعة فى بقعة منعزلة فى منتصف المسافة بين فوتتيليل يبنى لنفسه صومعة فى بقعة منعزلة فى منتصف المسافة بين فوتتيليل الدنيا من الرهبنة مصلى صغيرة من القش والغاب سماها و الثالوث المقدس . ولما سمع الطلاب أنه قد أجيز له مرة أخوى أن يكدّس أقبلوا عليه ، وجعلوا من أنفسهم مدرسة عاجلة ، وبنوا أكواخاً بجوار المصلى ، ونادوا على القش والبوص ، وطعموا و الحير الحين وأصاب الحقول ١٩٣٠ . وظهر فى هذا المكان تعطش للعلم ما لبث أن أوجد الجامعات وملاها بالطلاب . وطهر فى طيات النسيان . وأحد الطلاب ، فى نظير ما يلقيه من المحاضرات ، يعدرج فى طيات النسيان . وأحد الطلاب ، فى نظير ما يلقيه من المحاضرات ، يعرثون الأرض ، ويقيمون الأبنية ، وأنشأوا له مصلى جديدة من الحشب يزل عليه نزول الروح القدس فى اللحظة النى غر فها من المجتمع إلى المرزلة واليأس .

ولم تكن الثلاث السنىن التي قضاها في ذلك المكان أقل سعادة من أية سنين عرفها من قبل . وأكبر لظن أن المحاضرات التي ألقاها على هولاء الطلاب المشوقين قد احتُفظ مها وأعيدت صياغتها فى كتابين يسمى أحدهما الدين المسيحي Theologia Christiana ويسمى التساني الدبن لا غير ، وكانت العقائد الواردة في الكتابين مطابقة للدين القويم ، ولكن العصر الذي كان حتى ذلك الوقت غريباً عن معظم آراء الفلسفة اليونانية قد راعه بعض الشيء أن يجد في الكتابين إشارات إلى المفكرين الوثنيين مصحوبة بالثناء عليهم ، كما وجد فيها ما يشير إلى أن أفلاطون أيضاً قد استمتع إلى حد ما بالإلهام الإلهي(٣٠) . ولم يكنُّ في وسع أبلار أن يعتقد أن جميع ۖ هذه العقول العظيمة الفذة السابقة للمسيح قد فاتها أسباب النجاة(٣١) ، وأُصَّر على أن الله يفيض حبه على جميع الناس ، وفيهم المهود والكفار(٢٢) ؛ وعاد أبلار في غير ندم يدافع عن تحكم العقل في أمور الدين ، وقال إن الملحدين يجب أن يردوا عن إلحادهم بالعقل والمنطق لا بالعنف(٣٦) ، وإن الذين يوصون بالإيمان بلا فهم إيما يسعون في كثير من الأحيان لستر عجزهم عن أن يعلُّموا الدين تعليماً يدركه العقل(٣٠) ، وتلك شوكة نفذت من غبر شك فى جلود بعض الناس! فقد يبدو أن أبلار حين يحاول تفسير الدين المسيحي تفسيراً ينطبق على العقل والمنطق ، لم يجرو على أكثر مما حاوله الإسكندر الهاليسي Alexander of Hales ، وألمرتس مجنّس ، وتومس أكوناس من بعده ؛ ولكن أبلار حاول أن يدخل أكثر عقائد الكنيسة خفاء وأعمقها غوراً فى قبضة العقل ، على حين أن تومس رغم شجاعته وجرأته ترك مسألة التثليث ، وخلق العالم في رزمن محدد ، لإيمان بعيد عن متناول العقل، وفوق إدراكه .

وخلفت له جرأته على هذا التفكير وحدة ذهنه المتجددة أعداء جدداً. فقد كتب بشر فى أغلب النظن إلى برنار الكاير فوكسى Bernard of Clairvaux ونوربرت Norbert مؤسس طائفة البر بمنسر النسيين يقول :

بهرول بعض الرسل الجندد ، الذين يثق العالم فيهم أعظم الثقة ، هنا وهناك ...

ينهشون عرضى دون حياء . ولا يتركون لذلك سبيلا إلا سلكوها . حتى أفلحوا على مر الزمن فى أن يجعلونى هدفاً لسخرية الكثيرين من ذوى السلطان . . . ويشهد الله أننى كالم علمت بأن اجتماعاً جديداً لرجال الدين قد دعى إلى الانعقاد ، اعتقدت أنهم لم يدعوا إلا لغرض واحد صريح هو إدانتي (٣٥) .

ولعنه أراد أن يكسب أولئك انتاقدين . فترك التلديس وقبل دعوة وجهت إليه بأن يكون رئيس دير القديس جلداس فى بريطانى (١١٢٥) . ولكن أرجح من هذا أن سوجر هو الذى نظم بدهائه وحكته هذه النقلة ولكن أرجح من هذا أن سوجر هو الذى نظم بدهائه وحكته هذه النقلة فوقت واحد ، فقد أن القيلسوف نفسه وسط سكان من والمرابرة المنهن و لا يفهمون ، و بين رهبان و أدنياء لا يروضون ، يعيشون جهرة مع حضاتهم (٢٦) . ونفر أولئك انرهبان من إصلاحاته فلسوا له السم فى كأس التى كان يشرب منها وقت اعث، ارباق ، فلما خاب تدبيرهم هذا رشوا خادمه بأن يدس له السم فى أعمام ، ولكن راهباً غيره تناول المعام وخر صريعاً من فوره و (٢٦) ؛ غير أن مرجعنا الوحيد فى هذه الأقوال هو أبلار وحده ، واستبسل أبلار فى النضائه فى هذه المركة لأنه بتى فى هذا المكن المنعزل إحدى عشرة سنة تنخيها بعضى فترات كان فى أثنائها هذا المكن أن في أثنائها هدا عدى .

الفصلالابغ

رسائل هلواز

ومرت به فترة من السعادة الموتداة حين قرر صوجر أن يستخدم البيت المدى في إرچنى لأغراض أخرى غير الدير . وكانت هلواز مد افترقت عن أبلار قد عكفت في هذا البيت على أداء الواجبات التي تفرضها علمها حياة المرهبة حتى عينت رئيسة الدير و « علت مكانها عند الجديع . . . فأحها الأساقفة جب الآباء للأبناء ، وأحها رؤساء الأديرة حب الإخوة للأخوات ، وأحها غير رجال الدين كما يجب الأبناء الأمهات ه . ولما علم أبلار أن هلواز ومن معها من الراهبات يبحض عن مكان لهن جديد ، عرض علمن مصلى والروح القدس ، ومبانها ، و ذهب بنفسه ليساعدهن على تنظيم إقامهن في مقرا بالغير بالمديد . وكثيراً ما كان يزورهن ليعظهن و يعظ القروين الذين الحب الأبراء الأرافى ، وأنا الذي أطيق في الأيام الحالية أن أفارق من المتلا قلى يجها هراكم؟

وكانت هذه الفترة المضطربة التي قضاها رئيساً للديو القديس جلداس هي التي كتب فها سرته « تاريخ مصائحي » (١٩٣٢) . ولسنا نعرف الباعث له على كتابة هذه السرة ، فهي تتخذ شكل مقالة يواسي بها صديقاً يشكو بوسه ، ٩ حتى إذا وازنت أحزانك بأحزاني ، رأيت أن أولاهما ليست إلى جانب الثانية بالتي تستحق الذكر » ؛ ولكن يبدو أن هذه السرة كان يقصد بها أن يطلع طها العالم ، وأن تكون اعترافاً أخلاقياً ، ودفاعاً دينياً . وتقول روابة قديمة ، ولكنها مما لا يمكن تحقيقه ، إن تسخة من الكتاب وصلت إلى يد هلواز ، وإنها ردت عليه هله الدد العجيب :

الى سبدها، بل أبها، إلى زوجها، بل أخها: من خادمته، بل
 ابنته، من زوجته، بل أخته: إلى أبلار، من هلواز:

و لقد جيء إلى مصادفة منذ زمن قريب بخطابك الذي كتبته يا حيبي تعزية إلى صديق ... وقد حوى أشياء لايستطيع أحد أن يطلع علمها دون أن تفيض عيناه بالدمع لانها تجدد أحزانى كاملة...فباسم الله الذي لايزال يرعاك... باسم المسيح ، ونحن خادماته وخادماتك ، نستحلفك أن تتفضل فتخبرنا في رسائل منك متنابعة عن المصالب التي لازالت تتقاذفك حتى نشاركك على الاقل في أحزانك ومسراتك ، نحن الدين بقينا على الدوام أوفياء لك ...

د إنك لتمرف يا أعز الناس على " و إن الناس كلهم ليعرفون - ماذا خسرتُ يَفقدك ... لقد بدلت ثيان وقلي طوعاً الأمرك ، كي أظهر الك أنك مالك جسمي وحقلي ... ولم أكن أنطلع إلى عهد الزواج ، أو إلى مهر تمهرني يه ... وإذا كان امم الزوجة يبدو أكثر قداسة وأقوى رابطة ، فإن أحب إلى " ، اسم المهديقة منه وأعلب على الدوام ؛ أو ، إذا لم يكن في هذا ما تستحى منه ، اسم المشيقة أو العاهرة ... وإني لأشهد الله لو أن أغسطس ظلدى حكم العالم كله رأى أني خليقة بأن يكون لى شرف الزواج به ، وأن يملكني العالم بأسره أحكمه حكما يدوم أبد الدهر ، لكان قولهم إني المراطورته ...

و وهل بين الملوك أو الفلاسفة من يضارعك في شهرتك؟ وأية مملكة أو مدينة أو قرية لم تتحرق شوقاً لرؤيتك؟ ومن من الناس لم يستحث الحطى لينظر إليك، حين تبلو أمام الجماهير؟ ... وأية زوجة، وأية علااء، لم تتلهف عليك وأنت غائب، أو تتحرق شوقاً إليك وأنت حاضر؟ وأية ملكة أوسيدة ذات سلطان لم تحسدني على مباهجي وفراشي؟

بكلمة مثك أو نظرة إليك تبشج سا نفسى ، أو رسالة مثك عبيتك يرتاح لها قلى ؟ ألا فحدائي عن شيء واحد لا أكثر إن استطمت ، أو دعنى أفض إليك عا أحس به ، بل ما يظنه الناس جميعاً : إن الشهوة الجنسية لا الحب هي التي وثقت الصلة بيني وبيتك ... فلما أن نلت ما تيغيه ، زال من فوره كل ما كنت تتظاهر به :.. ليس هذا يا أحب الناس إلى " ، ما أظنه أنا وحدى ، بل ما يظنه الناس جميعاً ... وكم كنت أثمني أن يكون هذا ظنى دون غيرى ، وأن يجد حيك من يعرره غيرى ، وأن يجد

و أتوسل إليك أن تستمع لما أطلبه إليك ... في الوقدى الذي أخادع نفسي. فيه بوجودك معى في ألفاظك المكتوبة على الأقل – وهي ألفاظ لديك مها الشيء الكثير – أهد إلى "صورتك الحلوة ... فأنا أستحق منك أكثر مها ... بعد أن فعلت من أجلك كل ما يمكن فعله ... أنا التي غويت حياة الدير الحشنة في سن الشباب ... لاعن تتي وحب الدين بل إطاعة لأمرك لا لشيء سواه .. ولست أنتظر ثواباً من القه على هذا العمل ، لأنى لم أعمل شيئاً لوجه الله كم تعرف ذلك حتى المعرفة ... ولذلك أستحلفك باسم الذي وهبت له نفسك ، وأنوسل إليك أمام الله أن تعبد إلى" وجودك بأية سبيل في استطاعتك ، ولو بكلمة منك تفضف عنى آلامى ... وداعاً يا كل من أحب (٢٩٥).

لكن أيلار كان عاجزاً عجزاً جسمياً عن أن يستجيب إلى هذه العواطف الحياشة بعواطف من نوعها ، و لهذا كانت الرسالة التي تعزوها إليه الرواية المتواترة تذكراً لها بالنفر الديني الذي نفر له نفسه : و إلى هلواز أخته العزيزة في المسيح نفسه » ؛ وهو يوصيها بأن تقبل ما حل سهما من مصائب خاضعة لها ، راضية بها ، على أنها تطهير وعقاب النجاة من عند الله . ويظه إلها أن تدعو له ، ويأمرها أن تخفف من أحز ابها بأملها في أن يجتمعا معاً في السهاء ، ويرجوها أن تواديه الثرى حين يموت في أراضي و الروح

القدس ، و تعيد في رسالتها النائية عبارات الهيام وحدم المتنى فقول : و قعل حلى رضائك كنت على الدوام أخشى أن أغضبك ، لا أن أغضب الله ، وأعمل على رضائك أكثر مما أعمل على رضائه ... فانظر أية حياة تعمة لابد أن أحياها إذا كنت أقامى كل هذا عبئاً . لا أمل لى في أن أثاب عليه في المستجل لقد ظلت ، كا ظل الكثيرون غيرك زمناً طويلا مغروراً بخدامي وتموسي فحسبت النفاق ديناً علاماً . فيجيها بأن المسيح ، لا هو ، قد أحبا بحق : لقد كان هباى شهوق الدني لا حباً . و ولقد أشبت ... فافرق الدمم من أجل منقذك لا من أجل من أغواك ، من أجل منجبك لا من أجل مدنسك (12) . ثم يولف دعاء موثراً يطلب إلها أن تتلوه من أجل . و فبدو في رسالها الثالثة وقد استسلمت لموت حبه الدنيوى ، ولانطلب إليه وقتئذ إلا قاعدة جديدة تسطيع هي ومن معها من الراهبات أن يجين با حياة دينية حقة. قويت بها لما أمريت مواحظ يقوى بها لمحافزية على ويعث بهذه كالها إن هاواز موقعة بتوقيد دقيق : و وداماً يقوى بها لمحافرة ، ويعث بهذه كالها إن هاواز موقعة بتوقيد دقيق : و وداماً ولار أعز الناس في المسيح » . لقد كان فرقنانا قابه الخطم لا يزال بهم بجها .

وبعد . فهل هذه الرسائل الشهرة حقيقية ؟ إن هذه الشكاة لتواجهنا قوية مستمصية . يقال إن أولى رسائل هذو از قد كتبت على أثر ظهور كتابه تاريخ مصائبي وهو يذكر فيه عدة زيارات قام به أبلار لهلواز في الروح الفرسى ؟ ومع هذا فهى تشكوأنه أغفلها . ولكن لعل تاريخه قد ظهر أجزاء مقطعة ، وأن الأجزاء الأولى منه وحدها هي السابقة على الرسالة ثم إن المزعة الشهوانية الحريثة الضاهرة في بعضى فقرامها تبدو غير مقدلة لصدورها من امرأة أكسها تقاها وتفانها في أمور الدين مدى أرجة عشر عاما ذنك الإجلال انساى عند Peter the Venerable

كما يشهد به أبلار . يضاف إلى هلما ما في الرسائل من تنميق بلاغي ومقتبسات من كتب الآدب القديم ، ومن كتب الآباء ، دالة على التحذلق والتكلف لا يمكن وجودها في عقل يحس إحساسا صادقا بالحب أو التتي أو الندم . وفوق هذا كله فإن أقدم مخطوطات هذه الرسائل يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر. وببلو أن چان ده مونج قد ترجمها من اللغة اللاتيدة إلى الفرنسية في عام ١٩٨٥ من المن أن يحتم هذا الفصل بقولنا إنها من أبدح الوثائق المزورة في التاريخ ، وإن حوادثها غير موثوق بصحتها ، ولكنها لهم خالد لا يفي من أدب فرنسا الفراى (٢٠٠) .

الفصلالخامس

المسلين

لسنا نعرفه منى فر أبلار من منصبه العالى فى رياسة الدير ومما كان يعانيه من آلام أو كيف أتبح له هذا الفرار. فهاهو يوحنا السلزبرى يقول إنه استمع لى عاضرات أبلار على جبل سانت چنفييث فى عام ١٩٣٣ ، كذلك لا نعرف أى رخصة أجازت له أن يعود إلى التعليم ، ولعله لم يطلب ترخيصا ما، ولعله قد استهزأ فى وقت ما باداب الكنيسة فئار عليه رجالها وسلكوا ضده سبلا ملتوية أدت إلى سقوطه الأخير.

وإذا كان إخصاؤه قد أزال رجولته ، فإنا لانرى أثراً لملنا في الكتب التي نقلت إلينا أسس تعاليمه . وإن من الصعب علينا أن نجد فيها خروجا صربحا على الدين ، وإن كان من اليسير أن نجد فيها فقرات أثارث بلا ريب غضب رجال الدين . من ذلك أنه يقول في كتاب له عن فلسفة الأخلاق عنوانه اهرف نقمك الدين . من ذلك أنه يقول في كتاب له عن فلسفة الأخلاق عنوانه اهرف نقمك الممل أيا كان حتى القتل نفسه ليس خطيئة في ذاته . مثال ذلك أن أما ألم مها ، لقد قتلت هذه الأم طفلها الحبيب إليها فماقها القانون المقاب اللي علمها ، لقد قتلت هذه الأم طفلها الحبيب إليها فماقها القانون المقاب اللي من اللذب عند الله . وفي هذا فلكي تكون هناك خطيئه ، يجب أن يكون من اللذب عند الله . وفي هذا فلكي تكون هناك خطيئه ، يجب أن يكون مركباقد خالف ضميره الأيسمين لا يمد إنما الرتكبة الرومان الذين كانوا يشعرون بأن

اضطهاد هوالا السيحين واجب الإبقاء على دولتهم أو ديهم الذى خالوه صحيحاً. وآكثر من هذا و أن الذين اضطهدوا المسيح أنفسهم أو اضطهدوا أتباعه ، وهم يرون من واجهم أن يضطهدوهم ، قد ارتكبوا إثما من حيث عملهم ، ولكن لوأنهم امتنموا عن اضطهادهم عنالقين بذلك ما تمليه عليم ضهائرهم لارتكبوا بذلك إثما أكرم ولالله . قد يكون هذا كله منطقا سليا ومشراً مما ، ولكن إذا أخذ بهذه النظرية فإن عقيدة الخطيئة من أولها إلى آخرها من حيث عالفتها الأوامر الله معرضة الآن تتبخر في تيار الجدل القائم حول النيات فلا يبتى لها وجود قط ؛ فأى الناس ، إذا استثنينا القديس بولس وحدداً قليلا بمن هم على شاكلته ، يعترف بأنه عمل ما يخالف ضميره ؟ وكانت ست فقرات من الفقرات الست عشرة التي أدين أبلار من أجلها في عام وكانا ما غودة من هذا الكتاب .

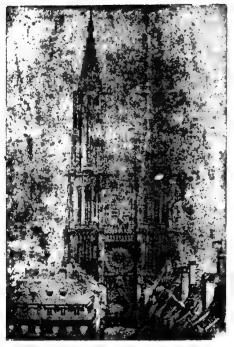
وكان الذي أزعج الكنيسة أكثر من أي إلحاد معين تبينته عند أبلار هو افتراضه أن لا أسرار الدين ، وأن العقائد كلها يجب أن تكون قابلة للتفسير القائم على العقل ، ولم يكن ثمة غرابة في صلمور هذا القول منه . ألم يكن ثملاً بنشوة المنطق الذي جروا على أن يربطه بكلمة تنه ويكاد يجعله من العلوم القلصية بالاناف. وركاد يجعله من العلوم بحرثومة ذلك التحليل المنطق قد ضلت طريقها بحججه الطلبة المؤددة والممارضة إذا سلمنا بأن هذا الاستاذ الذي افتتن به الناس وأغواهم قد وصل بأساليب غير مستقيمة إلى نتائج صحيحة سليمة ؟ ولو أنه لم يكن له أمثلة من نوحه لترك وشأنه دون أن يناله أذى ، رجاء ألا يطول أجله . لكنه كان له أتباع متحسون ، وجلرت وكان ثمة معلمون غيره – وليم الكنشسي Wilhiam of Couches ، وجلرت حدوث أن يناله أشارة و والمورية (Gibert de la Porrée) وحالور وكانوا كلهم يضعون الدين على مشرحة العقل . فإذا ظل هذا النيار يجرى في مجراه ، فإذا ظل هذا النيار يجرى في مجراه ، فإذا ظل هذا النيار يجرى ف

اللتين يقوم علمهما ــ فيها يبدو لها ــ نظام أوربا الأخلاق والاجتهامي ؟ ألم يشرع آرنلد البرشيائي Arnoid of Brescia أحد تلاميذ أبلار يشمل فعلا نار الثورة في إيطاليا ؟

وأكبر الظن أن هذه الاعتبارات أو تحوها هي التي أوقفت القديس برنار موقف العداء جهرة أمام أبلار . ذلك بأن حارث الدين الحريص ريحسلامت قد الشم رائحة الحطر الذي يتهدد معتنقيه ، فقاد المؤمنين إلى النضال . وكان من وقت بعيد ينظر بعن الارتياب إلى هجات العقل الجرىء المتربص بالدين ؛ ويبدو له أن طلب العلم إذا لم يقصد به خدمة الدين هو الوثنية بعيبها ؛ أما أن يحاول إنسان تفسير الأسرار المقدمية بقواعد العقل والمنطق فهو المعصية والحاقة ؛ والعقل الذي يبدأ بتفسير هذه الأسرار الحفية سينهبي آخر الأمر إلى تدنيسها . ولم يكن القديس بالرجل الشرس المتربص للشر ؛ ذلك أنه لما أن لفت ولم التيبريُّ أحد رهبان ريمس نظره في عام ١١٣٩ إلى ما في تعالم أبلار من خطر ، وطلب إليه أن يتهم الفيلسوف ، صرف الراهب من عنده ولم يفعل شيئاً . ولكن أبلار نفسه استعجل الأمور بأن كتب إلى كبير أساقفة سان Sens أن تتاح له أثناء انعقاد عجلس الكنيسة المقبل في تلك المدينة ، فرصة يدفع فها عن نفسه تهمة الإلحاد التي يذيعها بعضهم عنه 🥫 ووافق كبعر الأساقفة على هذا الطلب ، لأنه لم يكن يرى بأساً في أن يكون كرسيه قبلة العالم المسيحي ؛ وأراد أن يكون الكفاح قويا فدعا برنار إلى الحضور ، ولكنه أنى وقال إنه سيكون في حلبة الجدل و طفلا لا أكثر ، أمام أبلار الذي تدرب على المنطق أربعين عاما ، غير أنه كتب إلى عدد من الأساقفة بحثهم على الحضور الدفاع عن الدين :

ه يجاول بطرس أبلار أن يقوض فضائل الدين المسيحى حين يدعى لنفسه القدرة على فهم الله فهما كاملا بالاعباد على العقل البشرى . فهو يرقى إلى المسموات العلا ، وينزل إلى الأغوار السحيقة ؛ ولا يستطيع شيء أن يمننى وتغلب أتباع يرنار عليه ، وأظهروا له ضعفهم ، فاضطروه إلى الحضور ؛ فلما أقبل أبلار على سان (يونية سنة ١١٤٠) وجد الجاهر ، كما وجدها في سواسون قبل ذلك الوقت بتسعة عشر عاما ، ثاثرة عليه لمجرد وجوديرنار في المدينة ، ولعدائه الشديد له ، حتى لم يكن يجرو على الظهور في شوارعها . أما كبير الأساقفة فقد حقق حلمه ، لأن سان بدت أسبوها كاملا وكأنها مركز العالم كله . لقد جاء إليها ملك فرنسا تحف به حاشيته الفخمة ، وأقبل عليها عشرات من كبار رجال الكنيسة ، وكان برنار الذي أقعدته الرثية وعلت وجهه صرامة القداسة يبعث الرعب في قلوجم جميعًا ۽ وکان بعض أولئك الأحبار قد أحسوا قرادي أو مجتمعين بوخز. الطعنات التي وجهها أبلار لمعائب رجال الدين ، ولقساد أخلاق القساوسة والرهبان ، وبيع صكوك الغفران ، واختراع المعجزات الزائفة . وأيقن أبلار أن المجلس سيدينه ، فحضر جلسته الأولى وأعلن أنه لن يرضى بأن يحكم عليه غير البابا نفسه ؛ ثم غادر الاجتماع وخرج من المدينة . ولم يكن المجلس واثقاً ، بعد أن طلب إليه التنحى عن الحكم ، أن من حقه قانوناً أن يحاكم أبلار ؛ ولكن برنار أكد اه أن هذا من حقه ، فأخذ المجلس يطعن في ست عشرة مسألة منتزعة من كتب أبلار ، ومن بينها تعريفه للذنب ، ونظريته في التثليث التي يقول فها إنه هو القدرة ، والحكمة ، والحب من صفات الإله الواحد .

وسافر أبلار إلى رومة ليعرض قضيته على البابا وهولا يكاد يملك شروى نقمر ،



(الصورة رقم ؛) كندرائية اسراسرح

واعترضه فى السفر شبخوخته وضعفه فتأخر كثيراً فى الطريق . ولما وصل الله دير كلونى فى برغنلية استقبله بطرس المبجل بالشفقة والحنان ، فاستراح فى الدير بضمة أيام قلبلة . وفى هذه الأثناء أصدر إنوسنت الثانى قراراً بالتصديق على حكم المجلس ، وفرض الصحت الدائم على أبلار ، القرار أن يواصل حجه ، ولكن بطرس أقتمه بألا يفعل ، وقال له إن البابا لا يمكن أن يصدر قرراً يخالف ما يراه برنار ، وخضع أبلار لملنا الرأى لما عاناه من الإعياء الحسمى والروحي ، فصار راهبا فى دير كلونى الرأى لما عاناه من الإعياء الحسمى والروحي ، فصار راهبا فى دير كلونى واختنى فى ظلام أسواره وطقوسه ، وقوى روح زملائه الرهبان بتقواه ، وصلواته . وكتب إلى هلواز _ التى لم يرها قط بعد ذلك الوقت _ يعترف اعترافا موثراً بإيمانه بتعاليم المسيح ، وألف لما فى أغلب الظن به صورة رثاء من داود إلى يونائان ، ولكن فى وسع أى قاوئ أن يلمح صورة رثاء من داود إلى يونائان ، ولكن فى وسع أى قاوئ أن يلمح فها أنيناً رقيقاً :

لو قُد ربى أن أرقد معك فى قبر واحد لم أنت السعادة فى أن أموت ،

فلست أعرف من النعم التي يمكن أن ينهم الحب في هذه الدنيا ما هو

أعظم من هذه النعمة . ولو أننى عشت بعد أن تموتين ويبرد جسمك

لكان ذلك هو الموت الأبلى ، ولن يكون في شبحي نصف روح

يمسك على حياتي أو نصف نفسَس .

حاندا ، التي قيثارتى ، ألا ليتنى استطيع أن أمسك كذلك دموعى وأنينى ! لقد آثم المزف يدى وبح صوتى

من فرط الحزن ، وحل بروحي الإعياء .

وأصابه المرض بعد هذا الوقت بقليل ، وأرساه رئيس الدير الرحم إلى دبر القديس مارسل St. Marcel بالقرب من شالون ليبدل فيه الهواء ، وهناك وفي اليوم الحادى والعشرين من إبريل عام ١١٤٢ وافته المنية وهو في السادسة والثلاثين من عمره . ودفن في كنيسة الدير ، ولكن هلواز ذكرت بطرس المبجل بأن أبلار قد طلب في حياته أن يدفن في والروح القدس ٤ . وبعاء إليها الرئيس الرحم نفسه بالحثة ، وحاول أن يواسها بالتحدث عن حبيها الميت بأنه سقراط زمانه وأفلاطونه وأرسطوطاليسه ، وترك معها رسالة تفيض يالحنان المسيحي :

وهكذا يا أختى العزيزة المعظمة في الله ، إن الرجل الذي اجتمعت ولياه ، بعد رابطتكما الجسمية ، برابطة خير مها وأقوى هي رابطة الحب المفلس ، والذي خدمت . . . الله معه ، هذا الرجل يأخذه الله بدلا منك ، فهو صورة أخرى منك ، وينقت فيه دفء صدره ، ويحتفظ به حين يُدوى صوت الملاك الأكبر ، وينقمخ في الصور من السموات العلى ، لرده إليه نعمة منه ورحة (١٤) .

ولحقت بحبيبها فى عام ١١٦٤ بعد أن بلغت من السن ما بلغه هو ، وكادت تنال من الشهرة مثل ما ناله . ودفنت بجسواره فى حديقة دالروخ القدس » . وهمرت هذه الحديقة فى أثناء الثورة الفرنسية ، وعبثت الأيدى بالقبور، و لعلها المختلط بعضا بمض . ثم نقل ما يظن أنه رفات أبلار وهلواز إلى مقبرة الأبر موسير على المراد الموسير Père Lachaise بباريس عام ۱۸۱۷ . وهناك ترى الرجال والنساء إلى يومنا هذا يأتون فى أيام الأحد من فصل الصيف يحملون الأزهار ليزينوا بالقمر (*) .

 ⁽ه) لقد أوردنا قصة أيلار وهلوائز ورسائلهما في كتابنا و أشهر الرسائل العالمية ع ظليترأها من أواد الإطلاع على هذه السيرة السجيبة ه
 (أأشرجهم)

الباب لتادين الثلاثون

مغامرات العقل

14.4-114.

الفضيل الأول

مدرسة شارتر

ترى كيف تفسر تلامالسورة الفلسفية العجيبة التي بدأت بانسلم، وروسلان، وأبلار، وبلغت فروتها في ألمرتس مجنس والقديس تومس أكوناس؟ لقد كان لمذه السورة، كا هي العادة، كثير من الأسباب: منها أن الشرق اليونافي لم يكن قد تخلي قط عن تراثه الثقافي القديم، بل كانت كتب الفلاسفة الأقلمين تدرس في كل قرن في القبسطنطينية، وأنطاكية، والإسكندرية؛ وكان رجال أمثال مبخائيل بسلس Nicephorus ، وتقفورس بلميلس Ricephorus أمثال مبخائيل بسلس Bar Flebareus ، وجورج بشمورس على موافات أفلاطون (١٢٧٢ ؟ – ١٣٩٠) ، وبار همريوس Bar Flebareus السورى (١٢٧١ ؟ – ١٣٩٠) وبار همريوس على موافات أفلاطون الإمنان على موافات أفلاطون الرسطوني المنانية وأخذ المعلمون اليونان يوخلون بلاد الغرب كا أخطت المخطوطات اليونانية تدخلها تدريجاً . وحتى في تلك البلاد نفسها كان قليل من الخطوطات اليوناني قد يتى بعد العاصفة البربرية ؛ فقد يتى الجزء الأكرم من المون أم تكوي أم تكوي المون الإوناني قد يتى بعد العاصفة البربرية ؛ فقد يتى الجزء الأكرم من

الصدورة التي رسمها هذا الفيلسوف لإر Er هي التي لوثت خيال المسيحين عن الجحم . وقد جاءت الموجات المتنابعة من الكتب العربية والبونانية في التي نين الثاني عشر والثالث عشر بما تحتويه الفلسقتان اليونانية والإسلامية من أفكار جديدة تتحدى الأفكار المسيحية وتختلف عنها اختلاقاً مهدد باكتساح لاهوت العالم المسيحي كله إذا لم تنشئ المسيحية لها فلسفة مناهضة لها . على أن هذه المؤثرات لم تكن تستطيع أن تنشئ تلك الفلسفة المسيحية إذا كان لمنوب قد ظل فقيراً كما كان ؛ أما الذي جعل لهذه العوامل أثراً قعالاً فهو المروة حين أخلت الزراعة تعزو القارة الأوربية ، واتسع نطاق التجارة النهضة الاقتصادية مع تحرر المدن ذات الحكم الذاتى ، وقيام الحامعات ، واحياء الآذيبة ، واقتانون الرومانى ، وتفيين الشريعة الكنسية ، وجهد الفي القرطى ، وازدهار الأدب الحيالى ، و ه علم ، الشعراء الغزلن والمرح » ، واستيقاظ العلوم ، وبعث الفلسفة ، تعاونت هذه كلها على إيجاد « بهضة القرن الثاني عشر » .

وجاء في أهقاب الثروة الفراغ ، والدرس ، والمدارس ، وكانت كلمة Schola تميى في أول الأمر الفراغ . وكان الاسكلاستكوس Schola مو المدرس أو الأستاذ ، كما كانت عبارة و الفلسفة المسلم ا

أيضاً الفلسفة مفهومة مستساعة ، من الفلاسفة الهبيين هناك ؛ وفيها سُوَّى اللزاع القائم بين الواقعين والقائلين بأن الكليات إن هي إلا ألفاظ وليس لها وجود حقيق في العقل أو خارجه ، سوِّى هذا النزاع بقولم إن الكليات و الحقيقية ، هي بعيبا الأفكار الأفلاطونية ، أو الفاذج الأولى الحلاقة التي في عقل الله . وبلغت مدرسة شارتر ذروة نفوذها في مهد برنار أحد مواطنها (حوالي ١١١٧) وأخيه ثيو دريك (حوالي ١١٤٠) ؛ وكان ثلاثة من خريجها يسيطرون على ميدان الفلسفة بأوربا الغربية في النصف القرن التالي لحياة أبلار وهم : ولم الكرشي ، وجلمرت ده لابدرية ، ويوحنا السلزبرى

ويتبن الإنسان اتساع مجال الفلسفة المدرسية بوضوح عجيب في سعرة وليم الكوشي (١٠٨٠ ؟ – ١١٥٤) . فقد كان رجلا ملماً بكتب أبقراط ، ولكريشيوش ، وحنين بن إسحق ، وقسطنطين الأفريق ، بل وحتى دمقربطس نفسه(١) . وقد افتان بالنظرية اللرية ؛ واستنتج أن جميع أعمال الطبيعة ثبداً في الأصل باجتماع اللرات ، ويصدق هذا على أرقى عمليات الجسم البشرى وأعظمها خطراً^(٢٦) . والنفس عنده هي اتحاد العناصر الجوهرية. فى الفرد مع النفس الكونية أو العنصر الجوهري فى العالم^(٢٢) . ونهج وام نهج أبلار في إحدى المسائل الخفية الشديدة الحطورة فكتب يقول : و في الألوهية قدرة ، وحكمة ، وإرادة ، وهي التي يسمها القديسيون. أقانم ثلاثة(١) ﴾ . وهو يفهم القصة القائلة إن حواء خلقت من ضلع آدم فهماً بعتمد على الحجاز الواسع. وهو يرد بعثف على شخص ما يدعى كرنفيوس Cornifius وغيره من ۽ الكرنفيوسيين ۽ الذين يقاومون العلم والفلسفة بحجة أن في الإيمان الساذج ما يكفهم . و فهم لا يطيقون أن يبحث غرهم شيئاً ما ، ويريدون منا أن نوَّمن كما يوثمن السذج والهمج من غير أن نسأل عن السبب، كي يكون لهم رفاق في الجهالة . . . ولكنا نقول : إن من واجبنا أن نبحث لكل شيء عن علة ، فإذا عجزنا عن معرفة تلك العلة وكلنا الأمر إلى ... إلى الروح القلم وإلى الإيمان (... (ويقولون) : لسنا نعرف كيف يكون هذا ، ولكننا نعرف أن فى قلوة الله أن يفعله . ألاأمها البلهاء المساكن ! إن فى قلوة الله أن يخالى غراياً من شجرة ، ولكن هل فعل الله هذا فى يوم من الأيام ؟ فعليكم إذن أن تعلوا بعلة لوجود شىء ما بالمصورة التى هو علمها ، وإلا فاستعوا عن الاعتقاد بأنه على هذه الصورة...() إنا لا تسرنا الكشرة ، وإتحا تسرنا القية المخترة ، وتحيى شكد فى العث هيه المفقة وهرها .

لقد كان هذا القول أكثر مما يطبقه وليم التبيرى ، ولهذا بادر الراهب المتحمس ، الذى أغرى القديس برنار بمهاجمة أبلار ، بالطعن على هذا الثاثو الجديد صاحب النزعة العقلية والتنديد به عند رئيس ديبر كلبر ثمو اليقظ المترقب . ورجع وليم الكوشى عن إلحاده ، ووافق على أن حواء خلقت من ضلع آدم (٨) ، وهجر الفلسفة لأنها معامرة لايتناسب فيها الكسب مع من ضلع آدم (٨) ، وهجر الفلسفة لأنها معامرة لايتناسب فيها الكسب مع من تحرض له صاحبا من أخطار ، واشتمل مربياً لمترى بالانتجنب ما يتعرض له صاحبا الإنجليزى واختى اسمه من التاريخ .

وكان جلرت ده لا پر به Potiers طو المدل الفام بالأخطار . فقد تعلم ودرس في شار تر وفي باريس ، وصار أسفال لهنيم بالأخطار . فقد تعلم ودرس في شار تر وفي باريس ، وصار أسفال لهنيم Potiers ووضع كتابا ؤاسمة مبادئ المنص الذي يرجع إليه في علم المنطق ؛ ولكن التعليق على بؤشوس قد فهم منه أن طبيعة الله بعبدة عن إدراك العقل البشرى بعدا يتحم معه أن يؤخط كل قول عها على أنه تشييه أو بجاز لا أكثر ، ثم إنه أكد وحدة الله تأكيداً يجعل التابيث يبدو وكأنه عباز لا عمر عام ١١٤٨ اتهمه القديس برنار بالإلحاد ، وإن كان وقشك سن الثانية والمسعين ، وحوكم على هذه النهدة في أوكسير Asserre ، وحير سن الثانية والمسعين ، وحوكم على هذه النهدة في أوكسير Asserre ، وحير

معارضيه بما أورده من قروق دقيقة ، وعاد المموطنه غير مدين . وحوكم مرة أخرى بعد سنة من ذلك الوقت ، ورضى أن تحرق بعض فقرات انتزعت من ، كنيه ، ولكنه عاد حراً إلى أبر شيته ؛ ولما طلب إليه أن يناقش آراءه مع برنار رفض الاقتراح وقال : إن هذا القديس يعوزه التبحر في اللاهوت إلى حد لا يستطع معه فهم آرائه (۱) ، ويقول عنه يوحنا السازبرى : إن جلمرت انضج في الثقافة الحرة نضوجاً لا يفوقه فيه أحد من الناس (۱۱) ،

وكان في مقدور يوحنا أن يقول هذا القول عن نفسه ، لأنه كان من بين القلاسفة المدرسيين أوسعهم ثقافة وأكثرهم تهذيبًا ، وأبلغهم قلماً . وكان مولده فى سلز برى حوالى عام ١٩١٧ . وتتلمذ على أبلار فى جبل القديس چيفيث ، وعلى وليم الكوشي في شارتر ، وعلى جلبرت ده لاپريه في باريس ، ثم عاد لِلَى انجابْرًا في عام ١١٤٩ ، وعمل أمينًا لاثنين من رؤساء أساقفة كنتربري ها : ثيويولد وتومس أيكت ، وقام لها بعدة مهام دبلوماسية ، زار فيا إيطاليا ست مرات ، وأقام في البلاط البابوي ثماني سنين ، وشارك بكت في فرنسا ، وشاهد مقتله في كتدراثيته ، وعمن أسقفاً لشارتر في عام ١١٧٨ ، وثوفى في عام ١١٨٠ . وكانت حياته مليثة بالحد ، متعددة النواحي ، عمل فيها هذا الرجل على وضع المنطق تحت مخبار تجارب الحياة ودراسة الفلسفة بتواضع منقطع النظير . ولما تقدمت به السن ورجع إلى آراء المدارس الفلسفية المختلفة أدهشه أن يراها لا تزال تجادل في الفرق بن الاسمية والواقعية : و ليس في مقدور الإنسان أن يتجنب هذه المسألة ، ولقد هرم العالمَ وهو يبحثها ، واستغرق بحثها من الوقت أكثر مما استغرقه القياصرة فى فتح العالمَ وحكمه ... وأيا كانت النقطة التي يبدأ سُها النقاش ، فإنه يعود على الدوام ويرتبط بتلك المسألة ، فهي أشبه بجنون روفس Rofus بنيڤيا Naevia و إنه لا يفكر في شيء آخر ، ولا يتحدث عن شيء آخر ، ولوأن نيڤيا لم يوجد لظل رفس أبكم لا يبن ١٤٠٤ : وحسم يوحنا نفسه الأمر من أيسر السبل حين قال : إن الكلى مدوك عقلى ييسر ربط الصفات المشتركة للكائنات المقردة ، وكان چون لاأبلار هو اللدى اقترح النظرية القائلة إن الكليات توجد فى العقل مستقلة عن أفرادها المجسمة المادية .

وألف فى تاريخ الفلسفة اليوناتية والرومانية كتاباً بلغة لاتينية هى أحسن ماكتب منذ ظهرت رسائل ألكوين ــ ويعد منا الكتاب شاهداً عجيباً على اتساع الأفق العقل في العصور الوسطى اتساها مطرداً ؛ وظهر بعده كتاب المتالوجيكون Metalogicon الذى خفف فيه علم المنطق بما أضافه من ترجمة لنفسه ، ثم كتاب پوليكر اتكس Polycraticus (١١٥٩) الذي وضع له عنواناً ثانويا غريبا « في صماقات رمال الحاشية وآثار الفلوسفة » De nugis Curialium et vistigüe philosophorum . وكان هذا الكتاب أول مقال في أدب العالم المسيحي عن الفلسفة السياسية . وهو يكشف عن أخطاء الحكومات القائمة فى أيامه ورذائلها ، ويرسم صورة للدولة المثالبة ، ويذكر صفات الرجل المثالى ، ثم يواسينا بقوله : هكل شيء يشترى علناً ، إلا إذا كان تواضع البائع هو الذي يمنع هذا الشراء ، إن نار الحشم الدنسة تهدد مذابح الكنائس نفسها ... وإن أحبار الكرمي الرسولي نفسه لايضنون بأيديهم عن أن تدنسها العطايا ، بل إنهم في بعض الأوقات يجوسون خلال الأقالم في عربدة جنونية ١٣٦٥). وإذا جاز لنا أن نصدق روايته التي نقلنا مها فقرات من قبل فإنه أبلغ البابا هدريان الرابع أن الكنيسة نصيبا موفوراً فيها يسود تلك الأيام من فساد ، وأن البابا أجابه بما معناه أن الآدمين سيظلون آدمين مهما كانت أثوامهم ؛ ويضيف يوحنا إلى ذلك تلك العبارة الحكيمة : وفي منصب من مناصب بيت لقه (الكنيسة ، إذا كان بعض رجالها بتكاســــلون ، فإن غيرهم يضافون إليهم ليؤدوا (1 de - 7 g - 4)

علهم . ولقد شاهدت من بين الشيامسة ، وروساء الشيامسة ، والأساقفة ، والأساقفة ، والأساقفة ، والأساقف والأحيار من يقومون بما يوجيه عليهم الله بجد وإخلاص يستين الإنسان ممهما أنهم أوتوا من مزايا الإيمان وفضائله أن من مهدوا إليه بحرث أبينا لقد أحسنوا كل الإحسان (١٤٠) . وهو يرى أن الحكومة المدنية أكثر فساداً من رجال الدين ، وأن من الحبر لحياية الحلق أن يكون الكنيسة سلطان أخلاق على جميع العالم ودوله (١٠٥) .

وأوسع الفقرات شهرة فى كتاب پوليكراتكس هى التى تشير إلى قتل الطغاة .

المنافر في المراء شيئاً فشيئاً عن الطريق الحقى ، فليس من الحير فى شيء أن يطاح بهم كلية على الفور ، بل يكني لومهم على ظلمهم بتعذيرهم والمصبر عليهم ، حتى يتبين أحيراً أنهم معاندون مصرون على فعل الشر ... أما إذا تعارض سلطان الحاكم مع الأوامر الإلهية وأداد أن يحملنى على أن أشاركه فى حربه على الله ، فإنى لا أثر دد قط فى أن أرد عايه بقولى إن الله يجب أن يفضل على كل إنسان على ظهر الأرض أبا كان قدره ... وليس قتل المستبد مشروعا فحسب ، يلى هو حتى وعدل الألاد.

كانت هذه سورة من چون مهيجة مشرة ، أضاف إلها فقرة أخرى في موضع بعدها من الكتاب نفسه ه بشرط آلا يكون القاتل مرتبطا بالولاء للمستبد يالله وهي جلة فها نجاة للمستبدين لأن كل حاكم يلزم رعاياه بأن يقسموا يمن الولاء له . وفي القرن الحامس عشر دافع جان بتي (Jean Petie) عن اغتيال لويس صاحب أورليان بعبارات نقلها عن الهوليكراةكس ، ولكن مجلس كنستانس تغلب على يتى بحجة أن الملك نفسه لا يحق له أن يدين متهما دون أن يدعوه للمثول أمامه ويحاكه .

ونحن (المحدثين) لانستطيع أن نتفق على الدوام مع (المحدثين) في القرن الناني عشر الذين كان يوحنا واحداً منهم ؛ و هويقول من آن إلى آن كلاما يبدو لنا أنه هراه، ولكن هراه، نفسه مصوغ في أسلوب من التسامح والظرف لا نكاد نعثر على ما يماثله بعدتل قبل إرزمس Erasmus. وكان يوحنا أيضاً من الإنسانيين ، يحب الحياة أكثر ثما يحب الحلود ، ويعشى الحيال والرحة أكثر ثما يعشى المقائد التحكية في أى دين ، ويقيس من الآداب الونانية ب الرومانية القديمة وهو منشرح معتبط أكثر منه حين بقتبس من مصف الكتاب المقدس. وهو يضع ثبتاً وبالأشياء التي يصبح للرجل الحكيم أن شك فها القدامات و مواهل طبيعة النفس ومنشوها ، وخال العلم والملاقة بين علم الله السابق وحرية الإرادة . ولكنه كان أحصف من أن يندفع إلى الإلحاد ، بل كان يسير وسط الجدل القائم في أيامه بحصافة دبلوماسية وسحر خلاب . ولم يكن يرى أن الفلسفة صورة من صور الحرب ، بل كان يراها بلسيا السلام ، ويقول إن الفلسفة قوة ماطفة معدلة في الأشياء جميعها ، وإن من وصل بطريق الفلسفة إلى الإحسان والهمة فقد المؤم هدفها الحق ١٩٠٩٠ .

الف<u>صل</u> *لثانى* أرسطوف باديس

نشر بطرس لمبارد أحد تلاميذ أيلار في عام ١١٥٠ كتابا جم فيه آراء أبلار مطهرة من الإلحاد ، وكان في الوقت عينه بداية للفلسفة الملدسية وكان بطرس هذا ، كما كان أنسلم ، وآرنلدا الريشيائي . ويوفر فتتورا ، وتومس أكوناس ، إيطاليًّا جاء إلى فرنما ليواصل العمل الراق في اللاهوت والفلسفة . وكان يحب أبلار ويسمى كتابه فيم و لا كتاب صلواته ، ولكنه إلى هذا كان يريد أن يكون أسففاً ، وقد طبق في كتابه المسمى أربعة كنت في القراء الا Sententearum libr 17 طهرها : وذلك بأن وضع تحت كل سؤال من أسئلة اللاهوت طائفة من العبارات المقيسة من الكتاب المقدس ومن كتب آباء الكنيسة بعضها يزيده وبعضها بعارضه ؛ ولكن بطرس هذا جد مخلصا لكي يحيل كل الآراء الممارضة إلى نتائج تنفق مع الدين القويم . وقد عين أسقفاً لباريس وظل كتابه ملى أربعة قرون النص المحبب في برامج التعلم الديني إلى حد دعا ووج ببكن أن يأخذ عبه أنه حل على الكتاب المقدس نفسه ؛ ويقال ان أربعة من علماء اللاهوت ومهم ألبرت وتومس كتبوا شروحا على هذا الكتاب .

وإذا كان كتاب لمبارد قد أيد سلطان الكتب المقاسة والكنيسة على مطالب المقل الفردى ، فقد حال مدى نصف قرن دون تقدم النزعة العقلية ؛ ولكن حادثة عجيبة وقعت في تلك ألخمسين عاما بدلت علم اللاهوت ؛ ذلك أن حنول أفكار أرسطوفى ثوبها اللاتيبي إلى أوربا بعد على ١١٥٠ و ١٢٥٠ دفع علماء الدين الكاثوليك إلى أن يجاولوا التوفيق بين علم ما وراء الطبيعة اليونا

وعلم اللاهوت المسيحى، كما أن ترجمة مؤلفات أرسطو العلمية وفها و راه الطبيعة إلى اللغة العربية دفعت المفكرين المسلمين إلى أن يجاولوا التوفيق بين العقائد الإسلامية والفلسفة اليونانية . وكما أن اصطفاء آراء أرسطو بعقول العرائيم في أسبانيا قد أخذ يدفع ابن داود وابن ميمون في القرن الثاني عشر لأن يحاولا التوفيق بين الهودية والتفكير الهليبي ، وإنكان أرسطو قد بدا فوق متناول سلطان الكتب المقدسة ، فقد اضطر علماء الدين المسيحي إلى استخدام لغة المقل والمنطق وأسلحهما . ولو أن الفليسوف اليوناني كان حيا في هذه الأثناء لتبسم وهو يشهد كم من الأديان التي زازلت العائم تجل آراء .

ولكن ليس من حقنا أن نغالى فى تقدير أثر المفكرين اليونان فى ازدهار الفلسفة أثناء تلك الفترة من الزمن . ذلك أن انتشار التعليم ، وما كان العجدال والحياة اللدهنية من قوة حيوية فى المدارس والجامعات خلال القرن الثانى حشر ، والحافز القوى الذى كان لرجال من أمثال روسلان ، ووليم الشميوكسى ، وأبلار ، ووليم الشميوكسى ، وأبلار ، ووليم الكنديية ، وازدياد علم الأوربيين بالحياة الإسلامية والتفكير الإسلامي فى الشرق والغرب — كل هذا كان من شأنه أن يخانى رجالا على شاكلة أكوناس ولوظل أرسطو مجهولا ، والحق أن منشأ الجلد اللك اتصف به أكوناس لم يكن حبد أرسطو به خشية أبن رشد . ذلك أن الفلاسفة الحرب والمبود أخلوا منذ القرن الثانى حشر يوثرون فى التفكير المسيحى فى أسبانيا ، فقد دخل الكندى ، والقاراك ، والغزالى ، وابن سينا ، وابن رشك ، والمارك ، والمقراط ، وابن رشك ، وأرسطو ، وأقراط ، وجالينوس ،

وكان غزو التفكير الأجنبي على هذا النحو من أقوى الصلمات الذهنية للمقل الغرنىالذى لم ينضج بعد، فلاعجب والحالة هذه إذا قويل فىبادئ الأمر بالعمل على قمعه أوتأخيره ، بل إن علينا أن نعجب من قوة النكييف المدهشة التي مكنت الدين الجديد من امتصاص المعارف القديمة ــ الجديدة . وكان الأثر الأول لكتانى الطبيعة وما وراء الطبيعة لأرسطو ، ولشروح ابن رشد ، وهي الكتب التي وصلت إلى باريس في العشر السنين الأولى من القرن الثالث عشر ، أن زلزلت عقائد كثيرين من الطلاب ، وأن قام من العلماء أمثال أماريك البيني Amatric of Bene وداود الدينني David of Dinant مهجمون بعض العقائد المسيحية الجوهرية كعقيدة خلق العالم ، والإيمان بالمعجزات، والخلود الفردى. وظنت الكنيسة أن تسرب الأفكار العربية ـــ اليونانية إلى جنوبي فرنسا أدّى إلى تحلل الطبقات المتعلمة من الاستمساك بالدين القويم ، وأضعف من عزمها على مقاومة إلحاد الألبيجنسين . ولهذا اجتمع مجلس كنسي في باريس عام ١٢١٠ وأدان أملريك وداود وحرَّم قراءة كتب أرسطو فيما ٥ بعد الطبيعة والفلسفة الطبيعية ٤ كما حرم قراءة ٥ شروحها » . وإذ كان هذا التحريم قد كرره مندوب من قبــَل البابا في عام ١٢١٥ فإن لنا أن نفترض أن مرسوم عام ١٢١٠ قد أغرى الناس بقراءة هذه المؤلفات التى لولا هذا التحريم لكانت عندهم ممقوتة . وأجاز مجلس لاتران الرابع قراءة كتابي أرسطو في المنطق والأخلاق ولكنه حرم غيرهما من كتبه . وفي عام ١٣٣١ عفا جريجوري التاسع عن الأساتذة والعلماء الذين عصوا هذه المراسيم ، ولكنه جدَّد المراسم ، إلى أجل مؤقت حتى تبحث هذه الكتب وتطهر مما فيها ، . ويبدو أن التلاثة الأساتذة الباريسيين الذين عينوا للقيام بمهمة تطهيركتب أرسطوقد تركوا هذا العمل. ولم تنفذ مراسم التحريم زمناً طويلا، لأن كتابي الطبيعة وماوراءالطبيعة (الفنزيةا والمتافيزيقا) وغيرهما من كتب أرسطو كانا يقرآن في جامعة باريس عام ١٢٥٥ (١٩) . وأعاد إربان الرابع أمر التحريم في عام ١٢٦٣ ؛ ولكن يبلـو أن تومس أكوناس أكد له أن كتب أرسطو يمكن أن تطهر ، ولم يعمل إربان على تنفيذ كمريمه . وانتهى الأمر فى عام ١٢٦٦ إلى أن كان مبعوثو إربان الحامس فى باريس يطلبون إلى جميع الطلاب المتقدمين لنيل درجة فى الآداب دراسة جميع موالفات أرسطو دراسة وافية شاملة(٣٠).

وأحدث المشكلة التي واجهت العالم المسيحي اللاتنيي في الربع الأول من القرن الثالث عشر أزمة كبرى في تاريخ الدين المسيحي . ذلك أن التعطش إلى الفلسفة الجديدة كان وقتتك حي ذهنية لا يمكن السيطرة عليها ، ولها الم لم تواصل الكنيسة جهودها لفرض هذه السيطرة ، بل إنها بدلا من هذا وجهت قواها لحصار الغزاة وامتصاصهم فيها ، فأخد رهبانها الأوفياء يدرسون هذا اليونافي المدهش الذي قلب ثلاثة أديان رأساً على عقب ، حتى أن الرهبان الفرنسيس وهم الذين يفضلون أوضطين على أرسطو ، رحبوا بالإسكندر الهاليسي الذي بذلك أول الجهود التوفيق بين و الفيلسوف ، والمسيحية . وبذلك الرهبان الدمنيكيون كل تشجيع مستطاع لألر تس وتومس أكوناس في هذا المشروع عينه ، و طا أن أتم هؤلاء الرجال الثلاثة عملهم بادا أن أرسطو لم يعد خطراً على المسيحية .

الغيرالثايث

الزنادقية

إذا شئا ألا نفهم الفلسفة المدرسية على أنها تكديس لاطائل من وراثه المتجريدات المملة. • وجب علينا ألا ننظر إلى القرن الثالث على أنه الميدان الذي يصول فيه الفلاسفة المدرسيون ويجولون غير منازعين ، بل أن ننظر إليه على أنه ميدان اصطرع فيه مدى سبعين عاما المتشككة ، والماديون ، واللحديون القاناون بوحدة الوجود ، والجاحدون بالله ، اصطرع فيه هوالاحم علماء اللاهوت المسيحين للاستحواذ على العقل الأوربي .

ولقد لاحظنا من قبل وجود نزعة عدم الإيمان بين أقلية ضيلة من سكان أوربا ، وزادت هذه الأقلية في القرن الثالث عشر على أثر اتصال الأوربيين بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية وتراجم الكتب العربية . ولما تين الأوربيون وجود دين آخر عظم ، أخرج رجالا عظاما أمثال صلاح الدين والكندى ، وفلاسفة مثل ابن سينا وابن رشد ، كان ذلك في حد ذاته كشفا الصطربت له نفوسهم ، ذلك أن مقارنة الأديان لا تنفع الدين أى تفع . ومن الشراهد على هذا ما نقله ألفنسو الحكم ١٩٤٥ - ١٩٧٨ - ١٩٧١ عن انتشار عدم الاعتقاد بالخلود بين مسيحي أسبانيا(٢١) و وليس بعيد أن تكون آراء ابن رشد قد تسريت إلى الشعب نفسه . وكان في جنوبي فرنسا في القرن الثالث عشر جماعة من أصحاب النرعة العقلية المقائلين بأن الله بعد أن خلق العالم تركه تسير ه القوانين الطبيعية ، وكانوا يعتقدون أن المعجزات مستحيلة ، وأن الصلاة لاتستطيع تغير مسلك العناصر ، وأن الأنواع المطيارة لم غلق خلق خلق الحرا والما الفكر الحروانا والعادية لم غلق خلق خاصاً وإنما وجدت بالتطور الطبيعي (٢٢)

— وبعض القساوسة أنفسهم — يتكرون تحول العشاء الرباني إلى جمع المسيح (٢٠٠٠). وأخد أحد المدوسين في أكسفورد يشكو قائلا و إنه ليس ثمة ما هو أشبه بالوثنية من القربان عند الملفيح (٢٠٠٥). ويقول ألان الليل الما وقتنا هذا ينكرون البحث لأن الروح تفي مع الحسم ٤ ؟ وهم يوثيلون اعتقادهم بأقوال أبيقور ولكريشيوس . ويعتقون ملحب الحوهر الفرد ، ويغرجرن من هذا إلى أن خير ما يفعله الإنسان هو أن يستمتع بالحياة على ظهر الأرض (٢٠٠).

وشاهد ذلك أننا تحدد اود الدينتي في بداية القرن الثالث عشر وسيجر البر ابني وشاهد ذلك أننا نجد داود الدينتي في بداية القرن الثالث عشر وسيجر البر ابني قرب اختنامه يترحمان حركة تشكك قوية . وكان داود (حوالي ۱۹۰۰) بدرس الفلسفة في باريس ، ويمتع إنوست الثالث بجدله الدقيق (۲۷) ، ويعبث بضرب مادى من عقيدة الأحدية مضمونه أن الله ، والمقل ، والمادة الخالصة (المادة قبل أن تشكل) أصبحت كلها وحدة في ثالوث جديد(۲۷) وحرم كتابه الكواتر نولى المناف المائلس نفسه بأحدية قال الكواتر نولى المنفس الذي عقد في عام ۱۹۲۰ . ونده هذا الجلس نفسه بأحدية قال باريس المقدس الذي عقد في عام ۱۹۲۰ . ونده هذا الجيس نفسه بأحدية قال با أستاذ آخر من جامعة باريس هو أماريك البيني ، ومضمونها أن الله والحليقة شيء واحد . وأرغم أماريك على أن برجع عن قوله ومات ، كا يقول ، من حسرة الحيد (۱۲۰۷) (۲۲۸) . وأمر المجلس بأن تنبش عظامه وعمرة في ميدان باريس إدهاياً لأتباحه الكثيرين . غير أنهم ظلوا مستمسكين وعمرة في الرغم من هذا ، ووسعوا نطاق آرائه فأنكروا وجود الجنة والنار ، وقوة القربان المقدس . وحرق عشرة من أتباع أماريك هذا أحياء (۱۲۹۰) (۲۲) .

وازدهر التفكير الديني الحر في جنوبي إيطاليا الذي كان بمكمه فردريك الثاني ، حيث شب القديس تومس ، وحيث أعلن الكردنال أبلديني صديق فردريك جهرة اعتناقه المذهب المادي (٣٠) . أما في إيطاليا الشهالية فإن همال الصناعة ، ورجال التجارة والمال ، والمحامن ، وأسانذة الجامعات اللفعوا إلى حدما في تبار المتشككين. واشتهرت جامعة بولونيا بعدم مبالاتها يالدين ، فكانت المدارس الطبية فها وفي غيرها من المدن مراكز للشك ، وفها نشأ القول المأثور و حيث يجتمع ثلاثة أطباء يكون اثنان مهم كافرين ubi tres medici duo athei ، وكادت آواء ابن رشد حوالي عام ١٧٤٠ تصبح الطراز العصرى بين الطبقات المتعلمة من غير رجال الدين في إيظاليا . وكان آلاف منهم يقبلون عقائد ابن رشد القائلة بأن القانون الطبيعي يحكم العالم دون تلخل من قبل للله ؛ وإن العالم عملد كالله ؛ وإنه لايوجد إلا نفس واحدة خالدة هي « عقل » الكون « الفعال » ، وإن النفس الفردية ليست إلا مظهراً أو صورة عابرة زائلة من هذا العقل ، وإن الجنة والنار قصص اخرعت لتغرى العامة أو ترهيم فيحسن سلوكهم (٣٦). وأراد بعض المعتنقين لآراء ابن وشد أن يسترضوا محاكم التفتيش فتقدموا بعقيدة الحقيقة المزدوجة : فقالوا إن القضية قد تبدو صميحة من ناحية الفلسفة أوحسب التعليل الطبيعي ، ولكنها مع ذلك قد تكون خاطئة حسب الكتب المقلسة أو الدين المسيحي ؛ وأقروا في الوقت نفسه أنهم يؤمنون بمقتضى الدين بما يشكون فيه حسب قواعد العقل والمنطق . وهذه النظرية تنكر الفرض الأساسي من فروض الفلسفة المدرسية ــ وهو إمكان التوفيق بـن العقل والدين .

وكانت جامعة بدوا فى أواخو القر نالثالث عشر ، وطو الى القرنين الرابع عشر والحامس عشر مركزاً مضطرباً لفلسفة ابن رشد . ونذكر من الشواهد الدالة على هذا الاضطراب أن بطرس الأيانوى Peter of abano (حوالى ١٢٥٠ ما استاذ العلمية في جامعة بلويس ثم أستاذ الفلسفة فى جامعة بلوا ، ألث كتاباً يراد به التوفيل بين النظريات الطبية والمفلسفية . وقد اكتسب مكانة

ملحوظة فى تاريخ العلوم الطبيعية لأته قال فى دروسه إن المنح هو مصدر الأوصية العموية ، ولأنه قدّر طول السنة تقديراً مدهماً فى وقته و هو ٣٦٥ يوما ، وست ساعات وأربع دقائق (٣٠). وكاد لئقته بالفلسفة يُرجع العلل كلها تقريبا لقوة النجوم وحركاتها ، وكاد يعد الله عن حكم العالم (٣٠) . واتهم رجال محاكم المفتيش بالإلحاد ؛ غير أن مرضاه فبسطا حايتهما عليه . ثم أنهم مرة أخرى فى عام ١٩٦٥ ، ونجا هذه مرضاه فبسطا حايتهما عليه . ثم أنهم مرة أخرى فى عام ١٩٦٥ ، ونجا هذه المرة من الحاكمة بأن مات ميتة طبيعية . وحكم قضاة محكة التغيش بأن شحق حبثته فى ميدان الحريق ، ولكن أصلقامه أخورا رفاته إخفاء عكما الحسطرت المحكمة معه أن تنفل حكها بحرق صورة له (٣٠) .

ووجد تومس أكوناس بعد انتقاله من إيطائيا إلى باريس أن فلسفة بين رشد قد استحوذت من زمن بعيد على جزء كبير من الجماسة ، ويؤيد على جزء كبير من الجماسة ، ويؤيد ملما ما لاحظه ولم الأوقرف فى عام ۱۲۶۰ من أن فى الجماسة و كثيرين من الرجال يلتمون هله التتاقيج (من فلسفة ابن رشد) من ضر تمحيص ، ؛ ولن تومس نفسه وجد فلسفة ابن رشد منتشرة بين شباب الجماسة ٢٠٠٥ ولعل ما نقله تومس عن هولاء الطلاب قد روع البابا اسكندر الرابع الوسل ما نقله تومس عن هولاء الطلاب قد روع البابا اسكندر الرابع الوسل ما نقله تومس عن هولاء الطلاب قد روع البابا اسكندر الرابع الوس رشد . ولما جاء تومس ليدرس فى باريس (١٢٥٦ – ١٣٦١ ، ١٢٦٩ ، وقد درس زعيمها فى سيجر البرابتى Siger of Brabant فى هله الجامة من حامة درس زعيمها فى سيجر البرابتى Siger of Brabant من جامة باريس ميداناً لاقتتالها جيلا من الزمان .

وكانسيجر (« ٤٦٣ ؟ ١٣٨٠) وهو قسمن غير رجال الأديرة متجراً في العلم ؟ وحتى الأجزاء القليلة الباقية من موالغاته تنقل عن الكندى ، والفارابي، والغزالي، وابن سينا ، وابن باجة ، وابن سبرول ، وابن ميمون . ويقول سبجر في سلسلة من الشروح والتعليفات على أرسطو ، وفي مقالة جدلية ضمر رمجلي الفلسفة التراقعي الصيت ، ألرت وتومس ، يقول سيجر في هذه وتلك إن ألبرت وتومس يفسران الفلسفة تفسرا خاطئا وإن ابن رشد يفسرها نفسرا صيحاً (٢٩) . وهو يستخلص ما يستخلصه ابن رشد من أن العالم أزلى ، وأن القانون الطبيعي لايتبدل ، وأن نفس المنوع وحدها هي التي تبتي بعد موت الفرد . ويقول سيجر إنَّ الله هو العلة النَّهائية ، لا العلة الفعالة ، للأشباء ــ وهو هدف الحليقة لاعلمها . وقد افتتن بالمنطق فقاده هذا الافتتان كما قاد ڤيكو Vico ونقشة إلى الإيمان بعقيدة تسلسل الحادثات تسلسلا لانهائياً فقال : بما أن جميع الحادثات الأرضية تحددها في نهاية الأمر تجمعات النجوم ، وبما أن عدد التجمعات الممكن حدوثها محدود ، فإن كل تجمع لا بد أن يتكرر بصورته نفسها المرة بعد المرة في زمن لانهائي ، تكراراً تعقبه حمّا نفس النتائج الّي أعقبته من قبل ؛ وبذلك تعود ونفس الأنواع ، ونفس الآراء ، والقوانين ، والأديان ، (٤٠) . وقد حرص سيجر على أن يضيف إلى هذا « ونحن نقول هذا أخذاً برأى الفيلسوف ، دون أن نقطع بصحته ١٤٠٦ . وكان يضيف مثل هذا الاحتياط إلى كل رأى من آرائه الملحدة . ولم يكن يجهر بعقيدة الحقيقتن ؛ وكان يُعَلُّم تلاميذه أن بعض النتائج تستتبعها آراء أرسطر ويستتبعها العقل ؛ فإذا كانت هذه النتائج تناقض العقائد المسيحية ، فإنه يو كد إيمانه بعقائد الدين ، ويسمها هي وحدها ، دون الفلسفة ، بميسم الحق(٢٢) .

ويدل تقدم سيجر إلى المطالبة بأن يكون مديراً للجامعة على أنه كان له فيها أتباع كثيرون، وإن لم يوفق فى طلبه هذا (١٢٧١) . وليس أدل على تمكن فلسفة ابن رشد فى جامعة باريس من تنديد إتن تمهييه Étienne Tempier أسقف باريس جله الحركة المرة بعد المرة . فنى عام ١٣٦٩ حكم بأن ثلاث عشرة قضية من القضايا التي يعلمها فى الحامعة بعض الفلاسفة مبادئ إلحادية لاتتفق مع الدين ، وهذه القضايا هي :

أنه لا يوجد فى الناس كلهم إلا عقل واحد ... وأن العالم أزلى ... وأن العالم أزلى ... وأن لم يوجد قط رجل أول ... وأن النفس تفسد بفساد الجسم ... وأن لا يلم له بالحوادث الإنسان تريد وتحتار بحكم الضرورة ... وأن الله لا علم له بالحوادث الفردية ... وأن أعمال الإنسان لا تسيطر عليها العناية الالية (٢٣).

ويبدو أن مدرسة اين رشد الفلسفية ظلت تعلم كما كانت تعلم من قبل ، وشاهد ذلك أن الأسقف أصدر في عام ١٩٧٧ ثبتاً بتسع عشرة وماتي مسألة قرر رسميا أنها تسم القائلين بها بالإلحاد . وهذه المسائل ، على حد قول الأسقف ، كان يعلمها سيجر أو بويثوس الداشياوى Boethius of Dacia من أساتلة جامعة باريس ومهم القليس تومس نفسه . وكانت هذه المسائل التسع عشرة والمائين تشمل التي حكم طلها في عام ١٣٦٩ وغيرها من المسائل الشبية بالأقوال الآتية :

أن عملية الحاق مستحيلة . . . أن الجسم إذا فسد (بالموت) لا يمكن أن يقوم بعد ثل بوصف كرنه الجسم نفسه . . . أن من واجب الفيلسوف الايومن ببعث في المستقبل ، لأن هذا لا يمكن أن يمحصه العقل . . . أن أقوال علماء الدين قائمة على الخرافات . . . أن علوم الدين لا تضيف شيئاً ما إلى معلوماتنا . . . أن الدين المسيحى يقف في سبيل العلم . . . أن الإنسان يحصل على السعادة في هذه الحياة لا في غيرها . . . أن العقلاء في هذه الحياة لا في غيرها . . . أن العقلاء في هذه الأرض هم الفلاسفة وحدهم . . . أنه ليس ثمة حالة أفضل من أن يجد الإنسان فراغاً الدواسة الفلسنة (١٤) .

وأدانت محكمة التفتيش سيجر فى شهر أكتوبر من عام ١٢٧٧ ؛ وقفى سنيه الأخيرة فى إيطاليا سجيناً بأمر المحكمة الرومانية حتى اغتاله مغتال نصف مجنون فى أرقيتو Orvieto .

الفيلاأابع

تطور الفلسفة المدرسية

لم يكن الحكم على هذه القضايا الإلحادية يكفي لصد هذا الهجوم الشديد على الدين المسيحى. ذلك أن الشباب ثمل يخمر الفلسفة القوى. فهل كان كسب المعركة بالالتجاء إلى المقل ؟ لقد أقبل علماء الدين من الرهبان الفرنسيس واللمنيكيين ، والأحيار من غير الرهبان أمثال وليم الأوقر وهنرى الغني Henry of Ohent ، للدفاع عن المسيحية وعن الكنيسة ، كما كان المشكل مورد من قبلهم يدافعون عن الإسلام ضد الممترلة .

وقسم الدناع نفسه إلى معسكرين رئيسين: المسكر الصوفى – الأفلاطونى ومعظم رجاله من الرهبان الفرنسيس؛ و المعسكر العقل – الأرسطوطاليسي ومعظم رجاله من الرهبان اللمنيكين. أما البندكتيون أمثال هيو Hugh ورتشرد السانت فكتورى فقد كاتوا يحسون أن خر دفاع عن الدين هو إدراك الإنسان المباشر وجود حقيقة روحية أعمل من كل تعمل ذهبي. وكان و للنزمتون ع أمثال بطرس رجل بلوا Blois ، واستيفن رجل تورناى يقولون إن الفلسفة يجب ألا تبحث في مسائل اللاهوت، فإذا فعلت فعلها أن تتحدث وتسلك بوصفها خادمة للاهوت (٢٠٠). ومن واجبنا أن نذكر أن هذا الرأى لم يكن يقول به إلا قسم من الحية المدرسة (٢٠٠).

وعالج عدد قليل من الرهبان الفرنسيس أمثال اسكندر الهاليسي (١١٧ ؟ -١٧٤٥) المسألة عن طريق العقل ، وحاولوا أن يدافعوا عن المسيحية باستخدام المصطلحات الفلسفية والأرسطوطاليسية ، ولكن معظم الرهبان الفرنسيس. لم يكونوا يثقون بالفلسفة ؛ وكانوا عسون أن مفامرات العقل مهما تأت الكنيسة بالقوة والمجلد إلى حين ، قد تفلت من السيطرة علمها فيا بعد ، وتبعد الناس عن اللمين بعد أن تبرك المسيحية ضعيفة لا نصبر لها في عالم جاحد فاسد وأوضطين عن أكوناس . وكانوا يعرفون النفس كما عرفها أفلاطون بأنها روح مستقلة تسكن الجسم وتسجن فيه ، وهالهم أن يروا تومس يأخذ بتعريف أوسطو للنفس بأمها و الصورة المادية ، اللجسم . وقد وجلوا في أفلاطون نظرية للخلود غير الشخصي لا فائدة مها قط في قم غرائز الناس الحيوانية . واتبعوا رأى أوضطين فوضعوا الإرادة فوق العقل في الله وفي الإنسان على حد سواء ، وكان الهدف الذي يبتغونه هو الحر لا الحقيقة . وكانوا في ترتيجم للقيم بجعلون الصوفي أقرب من الفياسوف لجوهر الحياة الحين وصناها .

وسيطر القسم الأفلاطونى – الأوضطيني من جيش المدرسين على العلوم اللدينية التقليدية في النصف الأول من القرن الثانى عشر. وكان أعظم الناطقين بلسان هلما القسم هو بونا قنتورا التي – وهو رجل طيب القلب طارد الإلحاد، وصوفى يكتب في الفلسفة ، وعالم يستهجن العلم ، وصديق مدى الحية ومعارض لتومس أكوناس، ومدافع عن الفقر الذي يدعو إليه الإنجيل ومضرب المثل لهلا الفقر، جمعت طاقفة الرهبان الفر نسيس بإشرافه ورعايته قلراً كبراً من الثروة الحجاعية . وقد ولد جيوفي دى فدانز Oiovanni di Fidanza في تسكانيا عام ١٩٢١ ثم أصبح اسمه لسبب لا نعرفه يونافتتورا – الحظ الحسن . وكاد يموت و هو صغير من أحد أمراض الأطفال ، وأخلت أمه تصلّى إلى القديس فرانسس لين عالم المناء ؟ وأحس جيوفي بعدئذ بأنه مدين بحياته إلى هذا الفديس . وفذا انضم إلى أتباعه وأرسل إلى باريس ليدرس على الإسكندر الحاليسي ، ثم شرع في عام ١٧٤٨ بعلم الالاهوت في الحامة ، واختر في عام ١٩٥٧ الماليسي ، ثم شرع في عام ١٧٤٨ بعلم الالاهوت في الحامة ، واختر في عام ١٧٥٧ الماليسي ، ثم شرع في عام ١٧٤٨ يعلم اللاهوت في الجامعة ، واختر في عام ١٧٤٧ الماليسي ، ثم شرع في عام ١٧٤٨ يعلم اللاهوت في الجامعة ، واختر في عام ١٧٤٧ الماليوسي ، ثم شرع في عام ١٧٤٨ يعلم اللاهوت في الجامعة ، واختر في عام ١٧٤٧ الماليوسي الموروب المناور في عام ١٧٤٨ الماليوسي ، ثم شرع في عام ١٧٤٨ يعلم اللاهوت في المهمة ، واختر في عام ١٧٤٨ الماليوسي ، ثم شرع في عام ١٧٤٨ يعلم اللاهوت في المهمة ، واختر في عام ١٧٤٨ الماليوسي ، ثم شرع في عام ١٧٤٨ يعلم اللاهوت في المهمة ، واختر في عام ١٧٤٨ الماليوسي المهمة و المهمة و

وهو لايزال شابا فى السادسة والثلاثين من همره ، راعيا عاما لطائفة الرهبان
الفرنسيس ، فلم يدخر وصعا فى إصلاح ما دبّ فى الطائفة من تراخ ه
ولكن دمائة أخلاقه لم تمكنه من النجاح ، وإن كان هو نفسه بحيا حياة
الزاهد البسيطة ؛ ولما جاءه الرسل يبلغونه أنه اختبر كردنالا وجدوه يغسل
الصحاف ؛ ومات يعد عام واحد (١٣٧٤) من فرط الإجهاد.

وكانت كتبه جيدة الأسلوب ، واضحة موجزة . وكان يتظاهر بأنه جامع لها لا أكثر ، ولكنه بعث في كل موضوع مسه بقلمه روح النظام ، والحاسة ، والتواضع الذي يستل السخائم . وكان كتابه القول الحوجر خلاصة للاهوت المسيحي تثبر الإعجاب ، كما كان الحديث الفرد ، و رحمة العقل إلى الله درَّتين في تاج التتي الصوفي . ومن أهم مبادئه أن المعرفة الحقة لاتأتى عن طريق إدراك الحواس للعالم للادى بل تأتى بإدراك النفس للعالم الروحي عن طريق اللقانة . وكان بونا ڤنتورا يحب القديس تومس ، ولكنه كان يعارض في قراءة الفلسفة ، وينتقد في صراحة بعض ما استخلصه أكوناس من النتائج . وكان يذكر الرهبان اللمنيكيين بأن أرسطو كان كافراً ، وأنه يجب ألا توضع أقواله في منزلة أقوال آباء الكنيسة ، وتساءل هل في مقدور فلسفة أرسطوأن تفسر حركات تجم من النجوم لحظة واحدة ٩٤٨٤) . وهو يقول إن الله ليس نتيجة يصل إلىها العقل عن طريق الفلسفة بل هو وجود حي ، الإحساس به خير من تحديده ، وإن الحبر أسمى من الحقيقة، والفضائلالساذجة تعلو على كل العلوم. ويقواون إن الأخ إجيديو Egidio هاله في يوم من الأيام تبحر بو ناڤتتورا في العلم فقال له : 1 و احسر تاه ! ماذا نفعل نحن الجهلاء السذج كي نكون خليقين بحب الله ؟ ، فأجابه بونا ڤتتورا بقوله : ٥ أخي، إنك لتعلم حتى العلم أنه يكَفيك حبالله ، فرد عليه إجيديو بقوله : ؛ فهل تؤمن إذن بأن في مقدور أمرأة ساذجة أن تسُرَّه كما يسُرُّهُ أستاذُ في اللاهوت؟ ﴾ . فلما أجابه بنعتم اندفع إجيديو إلى الطربق وصاح فى امراة متسولة : ﴿ ابْهَجِي ، لأنك إذا أُحبِيت الله ، فقد يكون لك مكان فى ملكوت السموات أعلى من مكان الأخ بونا فنتورا ! ٩٤٠٤ .

وجلى أن من الحطأ أن نظن أن و الفلسقة ، المدرسية المعروفة بهانا الاسم إنما هي آراء وأساليب في البحث بجدية متفق عليها بالإجماع . لقد كانت الاسم إنما في واقع الأمر مائة من الفلسفات المدرسية ، فقد كانت الكلية الواحدة من كليات الجامعة تفهم أحد أشياع تومس الذي يمجد العقل ، وأحد أنصلو بونا فتتورا الذي يستهجته ويزدريه ، وأحد أتياع وليم الأوفرون (١٢٨٠ - ١٢٨٠) الذي يقول مع ابن جبرول بحرية الإراحة ، وأحد أتباع سبجر يعلم فلسفة ابن رشد . وكاد الاختلاف والنزاع بين أنصار الدين القرم يبلغان من الشدة ما بلغاه بن الدين والملادين . فكان يوحنا يكهام الأسقف القرنسيسي يندد بأكرناس تنديداً لا يقل صراحة عن تنديد تومس يسيجر وابن رشد ، يند بأكرناس تنديداً لا يقل صراحة عن تنديد تومس يسيجر وابن رشد ، جاهلون لا يتورعون عن محاربة استخدام الفلسفة بكل سلاح ، وأخص جاهلون لا يتورعون عن محاربة استخدام الفلسفة بكل سلاح ، وأخص بسبون ما لا يعرفون و ٢٠٠٥ .

وكان ألبرت يحب العلم ويعجب بأرسطو [لاحين بنظرق إلى الإلحاد في الدين ، وكان أول من درس من الفلاسفة المدرسين جميع مرافقات الفيلسوف الكمرى ، وأخذ على نفسه أن يفسرها تفسراً يوافق اللدين المسيحي . وكان مولله في لاننجن Laningen بسوابيا Swabia حولله عام ١٠٠١ ووالله هو الكونت بلستادت Bollstädt الثرى ، ثم درس في بدوا وانضم إلى الرهبان المنديكيين واشتغل بالتندريس في مدارس اللمنيك في هللمهام Freiburg ، وراتسبون Ratisbon، واسترسبورج ، وكولوني (٢٧٤٨ وفرايد ج عام عين يعلقله منادوباً إقليمها معني يعلقله منادوباً إقليمها منادوباً إقليمها عند عالم المناديا المناسبة عن يعلقله منادوباً إقليمها حسم عين يعلقله منادوباً إقليمها حسم عين يعلقله منادوباً إقليمها حسم عين يعلقله منادوباً إقليمها

التدريس . وتقول الرواية المأثورة إنه كان يمثى حلى الدغم من تفضيله حياة التدريس . وتقول الرواية المأثورة إنه كان يمثى حلى القدمين في جميع أسفاره (١٥٠) . وفي عام ١٩٦٦ سمح له أن يمترل العمل ويأوى إلى دير في كولونى، ثم ترك ماكان فيه من هدوء وهو في السادسة والسبعين من عمره (١٢٧٧) ليدافع عن عقيدة تلميله المتوفي تومس أكوناس وعن ذكراه في جامعة باريس . وأقلح فيا ندب إليه ، فعاد إلى ديره ، وتوفي في التاسعة والسبعين من عمره . وإن حياته المعامرة بالوفاء والإخلاص لدينه ، وتواضعه الحلق ، وتعدد نواحى نشاطه العقلي ، لتظهر فها حياة الأديرة في خبر مظاهرها .

وليس عمة ما يفسر لنا كيف يستطيع رجل قضى ما قضى من الوقت في التدريس والأعمال الإدارية أن يكتب مقالات فى كل فرع من فروع العلم تقريباً ، ورسائل قيمة فى كل فرع من فروع الفلسفة وعلوم الدين ، نقول ليس عمة شيء يفسر لنا هذا إلا هلوء حياة الأديرة الرتيبة والصبر الفائقالذى يمتاز به العلماء الألمان(*) . وقالم يوجد فى المتاريخ من كتب هذا القدر من الكتب والرسائل والمقالات ، أو أخذ من غيره مثل ما أخذ ، أو اعترف يمثل صراحته

^(*) وإلى القارئ كتب ألبرت الكبرى في الفلسفة واللاهوت بأعائها الأصلية :

tde praedicaabilibus ;Philosophia Rationalis Perihermenias أَنْ الدَّلَّتِي ())

de sex principus; de praedicamentis Analytica priora, (De interpretatione i.e.)

libri elaschorum; Tropica; Analytica posteriora,

De unitae intellictus contra Averroistas; metar by- قيما وراه الطبيعة (٢) sics (de fato

De anima; De sensu et semanto, De memoria et رن علم الناص (٣) reminiscentia, De intellectua et ietelligibili, De potentüs animae

⁽ t) وفي علم الأخلاق Ethica (ه) وفي السيامة Politica

Summa de creaturis (Summa theologiae Commentarium وق الادمون العدمة) in sententias Petri Lomhardi (commentarium de divinis naminibus وتتكون الرسائلي الحمس الواردة في هذا الثبت من واحد وعشرين مجلدا من مؤلفات ألبرت التي لم تنشر كلها بعد .

بدينه لمن أخذ عهم . ويتخذ ألعرت مؤلفات أرسطو أمساً لكتبه وتكاد عناويها كلها تكون هي بعيها عناوين مؤلفات الفيلسوف القدم ؛ وهو يستمين بشروح ابن رشد على تفسر مؤلفات ذلك الفيلسوف، ولكنه يفسر المؤلفات الأصيلة والشروح تفسيراً جريثاً إذا ما ناقضت الدين المسيحي. وهو يرجع إلى آراء المفكرين المسلمين بدرجة جعات مؤلفاته مصدراً هاماً لما نعرفه عن الفلسفة الإسلامية . ولاتخلو صفحتان من كتبه من أقوال يقتبسهامن ابن رشد، ويرجع أحباناً إلى كتاب دلالة الحائرين لابن ميمون ، ويعترف بأن أرسطو أعظم مرجع فى العلوم والفلسفة ، وأوغسطين أعظم مرجع فى علوم الدين ، والكتاب المقدس أعظم المراجع في كل شيء . ومقالاته المكلسة التي يخطُّها الحصر سيئة الترثيب ولا يمكن أن يستخلص منها نظام منسق للتفكر ، وهو يدافع عن عقيدة ما في موضع ، ثم يهاجمها في موضع آخر أو في الموضع نفسه أحياناً ؛ ولم يتسع وقته لتصفية متناقضاته . وكنان إفراطه في الطيبة والتهي يحول بينه وبين التفكير الموضوعي ؛ وكان في وسعه أن يتبع تعليقاً على أرسطو برسالة طويلة مؤلفة من اثني عشر « كتاباً » في الشاء على مريم العذراء المباركة يقول فيها إن مريم كانت ملمة إلماما كاملا بالنحو ، والبيان . والمنطق ، والحساب ، والهندسة ، والموسيق ، والفكك .

فما هي إذن أهم أعماله ؟ إن أهم هذه الأعمال هي أنه كان له نصيب موفور في البحث العلمي في ذلك الوقت وفي نظرياته ؛ وأنه في ميدان الفلسفة و قدم أرسطو للاتين ، ، وهو كل ما كان سهدف إليه ؛ وكان له الفضل في استخدام موافقات أرسطو في تعلم الفلسفة ، وجميع كنوز التفكير والجلال الوثنية والعربية والمهودية والمسيحية التي استخدمها تلميذه الذائم الصيت في فلسفته التركيبية التي تفوق فلسفة أستاذه وضوحا وتنظيا . ولسنا نجاق الحقيقة فلسفة أستاذه وضوحا وتنظيا . ولسنا نجاق الحقيقة إذا قلتا إنه لولا ألمرت لما وجد تومس .

الفصرالخامس

تومس أكوناس (أو تومس الأكويني)

كان تومس ، كما كان ألبرت ، من أسرة شريفة ، ولكنه تخلى هن الشراء للبنالجنة الحلب ، فقد كان والله المكونت لا تدلف الأكويني Count La لينالجنة الحلب ، الثبلاء الألمان ، وابن عم بربرسا ، ومن أبرز الشخصيات في الملاط الأكويني افر دريك الثانى الزنديق . كذلك كانت أمه من سلالة أمراء صقلية النورمان . ومع أن تومس إيطانى المولد فقد كان من ناحيي أبيه وأمه يتحمى إلى أصل شمالى أهم ما يجرى في عروقه هو اللهم التيوتونى ؛ ولم يكن فيه شيء من ظرف الطليان وخيتهم ، بل شب على ضخامة الجسم الألمانية ، فكان كبر الرأس ، عريض الوجه ، أشقر الشعر ، هادانا راضيا بجلمه الذهنى ،

وقد ولد في عام ١٧٢٥ بقصر أبيه في ركاسكا Roccosecca على بعُمد ثلاثة أميال من أكوينو وفي متصف الطريق بين نابلي ورومة . وكان دير جبل كسينو قريباً من مشقط رأسه ، وفيه تلتى تومس تعليمه المبكر ، ولما يأنم الربعة عشرة من عمره بدأ دراسته في جامعة نابلي و استمرت هذه اللدراسة خمس سنين ، وكان في هذه الجامعة ميخائيل اسكت يترجم مؤلفات ابن رشد إلى اللغة اللاتينية ؛ ويعقوب الأناضولي يترجم مؤلفات هذا الفيلسوف إلى اللغة العبرية ؛ وبطرس الأيرلندي أحد أساتذة تومس الشديد التحمس لأرسطو . وكانت هذه الجامعة نموج بالمؤثرات اليونانية ، والعربية ، والعبرية ، تصطدم فها بالأفكار Rainaldo بالمنجية . وانجم إخوة تومس نحو الشعر ؛ ودخل أحده رينلدو Rainaldo

ق بلاط فردريك وصار فيه من الصائدين بالزاة ، وطلب إلى تومس أن يتمم إليه ، وأيده في هذه الدعوة يبرو دل في Piero delle Vigne ينضم إليه ، وأيده في هذه الدعوة يبرو دل في النعوة ، انضم إلى وفردريك نفسه ، ولكن تومس ، بدلا من أن يقبل اللعوة ، انضم إلى باريس اللاهوت ؛ غير أن اثنين من إخوته اختطفاه في بداية رحلته ليدرس اللاهوت ؛ غير أن اثنين من إخوته اختطفاه في بداية رحلته بتحريض أمهما ؛ وجيء به إلى قصر ركاسكا حيث وضع تحت الرقابة ملة وتروى إحدى القصص ، وأكر الظن أنها موضوعه ، أن فتاة حسناه أدخلت إلى حجرته رجاء أن تغريه بالعودة إلى هذه الحياة الدنيا ، ولكنه اختطف من الملدأة شعلة ملهبة أخرجها بها من الحجرة ، وحرق علامة الصليب التي كانت بالباب (١٩٠٥) . وما لبثت شدة تقواه أن ضمت أمه إلى حابيه ، فساعدته على القرار ، ثم أصبحت أخته ماركتا Marcotta ، بعد أحاديث كثيرة معه ، راهية بندكتية .

وكان ألبرت الأكبر أحد معلميه في جامعة باديس (١٢٥٤) ، فلما نقط ألبرت إلى جامعة كولونى تبعه تومس إليها ، وظل يلدس معه فعها حتى عام ١٢٥٦ . وكان تومس يبدو غبياً في بعض الأحيان ، ولكن ألبرت كان يدافع عنه ويتنبأ بعظمته (٥٥) . ثم عاد بعدائد إلى باريس وأخذ يلرس فيها بعد أن نال درجة البكالوريوس في علوم الدين ، وحذا في عذا الوقت حدو أستاذه فبدأ سلسلة من المؤلفات يعرض فها فلسفة أرسطو في ثباب مسيحية . وغادر باريس في عام ١٢٥٩ ليدرس في المعهد الذي أقامه الديوان البابوى تارة في أناني وتارة في آرفيتو ، وطوراً في فيربو . والتي في الديوان البابوى بوليم موربيك William Moerbeke وطلب إليه أن يصلر ترجة لانينية ماشرة .

وكان سيجر برابانت وقنتك يتزعم فى جامعة باريس ثورة تدعو إلى فلسفة ابن رشد، فأرسل تومس ليقاوم هذه الدعوة، ولما وصل إلى باريس نقل مركز المعركة إلى معسكر العدو برسالته فى وحدة العقل ضد فلسفة ابن رشد (١٢٧٠) واختتمها سلم، الفقرة النارية التى لا عهد الناس مها :

انظروا كيف فندنا هذه الأخطاء ؛ إنا لم نبّن هذا التفنيد على أسس من وثائق مستندة إلى الإيمان بالدين ، بل بيناه على علل وأقوال منقولة عن الفلاسفة أنفسهم : فإذا وُجد إنسان يفخر مز هوا بحكته المزعومة ، ويرغب في نقض ما كتيناه ، فعليه ألا يفعل هذا في ركن من الأركان ، أو أمام أطفال لا قدرة لهم على البت في مثل هذه المسائل الشائكة . عليه أن يجيب علناً إذا كان له من الشجاعة ما يمكنه من هذا العمل ، وسيجدني مستعداً لمواجهته ، ولن يحد شخصى العاجز وحده ، بل سبجد كثير بن غيرى ممن جعلوا الحقيقة موضوع دراسهم ؛ سنحارب أخطاءه ونداوى جهاد (٥٠).

ولم تكن الحرب في ميدان واحد ، لأن تومس لم يكن مضطراً في هده الفترة الثانية من اشتغاله بالتدريس أن يقاوم فلسفة ابن رشد وحدها ، بل كان عليه فوق ذلك أن يصد هجات زملاته الرهبان ، اللين لم يكونوا يثقون بالمقل ، ويرفضون قول تومس إنه يمكن التوفيق بين أرسطو والمسيحية . ووجة جون بكهام الذي خلف بوتا فننورا في كرسي الرهبان الفرنسيس للفلسفة بجامعة باريس أشد اللوم إلى تومس لربطه اللاهوت المسيحي بفلسفة إنسان وثني . ويقول بكهام فيا بعد إن تومس لم يتحول عن موقفه ورد "عليه و يرفق وتواضع عظيمن "(٥٠٥) . وربما كانت هذه السنوات الثلاث التي احتدم فها الجدل هي التي أنهكت قواه .

ودعى فى عام ١٩٧٧ إلى العودة إلى إيطاليا بدعوة من شارل دوق أنيجو ليعبد تنظيم جامعة نابلي ، ثم امتنع عن الكتابة فى سنيه الأخيرة ؛ ولسنا نعرف أكان سبب هذا ما اعتراه من ملل أم أنه قد خاب ظنه فى قائدة النقاش والجدل . ولما أن ألح عليه صديقله بأن يتم كتابه الموجز فى عاوم العربي أجابه يقوله : « لا أستطيع ؛ لقد تكشفت لى أشياء بيدو لى معها أن ما كتبته ليس إلا هباء (CAD). ودعاه جريجورى العاشر فى عام ١٢٧٤ لحضور مجلس ليون ؛ فبدأ سفره الطويل على ظهر يغل يحترقا إيطاليا ، ولكنه اعتراه الضعف فى الطريق بين نابلى ورمة ، فآوى إلى الفراش فى ديرالسسرسيين فى فسأنوقا Fossanuova يتكيانيا ، وتوفى فيه عام ١٣٧٤ غير متجاوز التاسعة والأربعين من عمره .

ولما ضم بعد وفاته إلى مجمع القديسين شهد الشهود بأنه كان حلو اللسان ، سهل الحديث، بشوش الوجه وديعاً ... كرىم الأخلاق، صبوراً إلى أقصى حد ، يتلألأ وجهه بالبشاشة والتقوى الممزوجة بالرقة ، شديد العطف على الفقر اع^(٥٩) . وكان مهمكا في التني والدرس الهماكاً يشغل كل تفكيره وكل لحظة يقضيها في يومه . يحضر جميع الصلوات المقررة في مواعيدها ، يتلو قداسا أو يستمع لقداسين في كل صباح ، ويقرأ ويكتب ، ويعظ ويعلمُ ، ويصلى . وكان من عادته قبل أن يلني عظة أو محاضرة ، وقبل أن يجلس للدرس أو التأليف ، أن يصلي ؛ وكان زملاؤه الرهبان يظنون أنه ومدين بعلمه إلى صلواته أكثر مما هو مدين به إلى جهود عقله ه<٢٠٠ . وإنا لنجد من حين إلى حين على هامش مخطوطاته دعواتٍ صالحات مثل و السلام عليك يامر م ! Ave Maria . وقد انهمك في الحياة الدينية والعقلية انهماكاً قلَّما كان يلاحظ معه ما يحدث حوله ؛ فكانت صحفته ترفع وتغيّر في غرفة الطعام دون أن يدرى ما مها في بعض الأحيان ؛ ولكن ببدو أن شهيته للطعام كانت جيدة . دعى مرة للعشاء مع جماعة من رجال الدين على مائدة لويس التاسع ، فترك العنان للتفكير وهو جالس إلى المائدة حتى لسي نفسه ، ثم ضرب المائدة فجاءة بقبضته وصاح قائلا : وهذه هي الحجة الدامغة ضد المانونين ! ي . وأنبِّه رئيس ديره على عمله هذا وقال له : إنك جالس إلى مائدة ملك فرنسا ، ولكن لويس أظهر من الرقة والمجاملة ما هو خليق بملك مثله ، فأمر أحد أتباعه بأن يأتى للراهب المنتصر بأدوات

كابية ٣٦٦ . ومع هذا كله كان فى مقدور الراهب المهمك فى أمور الدين أن يكتب فى كثير من شئون الحياة العملية كتابة جيدة المعنى . وكان الناس يلاحظون كيف يستطيع أن يكيف مواعظه لنوائم عقول زملائه الرهبان المجدين فى الدرس ، أو عقول الهامة السذج . وكان بعيداً عن التكلف ، عدم مطالب الحياة ، لا يسمى إلى ألقاب المتعظم ، ويرفض الرقى إلى مناصب الكنيسة ، وقد انظيرت كتاباته فى جميع العالم ، ولكنها لا عجوى على كلمة واحدة نابية ، وهو يواجه بها كل حجة مقاومة لدينه ، ويقرعها بالحسنى وفى هدوء .

وجرى على عادة زمانه وزاد عليها ، فكان يعترف صراحة بما يأخده عن غيره ، فهو يقتبس من ابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، وإسحق السرائيلى ، وابن جبرول ، وابن ميمون ، وما من شك فى أن أى طالب لا يستطيع فهم فلسفة القرن الثالث عشر المدرسة من غير أن يدرس ما سبقها من فاسفات المسلمين واليهود . ولا يشارك تومس وليم الأوفرنى فى تقديره لا ين جبرول ، ولكنه عظيم الإجلال و للراني ميسز Rabbi Moyses كما يسمى موسى بن ميمون ، ويقول بما قال به هذا الفيلسوف من أنه يمكن التوفيق بين المقلل واللدين ، ولكنه يوافقه أيضاً على أن بعض أمرار الدين بعيدة عن متناول المعقل ؛ وينقل الحجيج للويدة لهذا البعد من كتاب بعيدة عن متناول المقل ؛ وينقل الحجيج للويدة لهذا البعد من كتاب البشرى أن يثبت وجود الله ، ولكنه ليس فى مقدوره أن يسمو لموفة البشرى أن يثبت وجود الله ، ولكنه ليس فى مقدوره أن يسمو لموفة سماته ، وهو يتقبع عطى ابن ميمون خطوة فى بحث أزلية المالم(*).

صفحة من كتبه ، ولكنه لا يتردد في أن يخالفه حيماً يحيد الفيلسوف عن العقائد للسيحية ، وبعد أن يعترف بأن التتايث ، والتجسد ، والافتداء ويوم الحساب لا يمكن إثباتها عن طريق العقل ، يتقبل حكم العقل في جميع المسائل الأخيرى قبولا كاملا لا تردد فيه ، ارتاع له أتباع أوغسطين . وكان ينزع لملى مبادئ الصوفية في اعترافه بأن بعض العقائد المسيحية فوق متناول العقل البهشري ، ويشاركهم في الشوق إلى الاتحاد مع الله ؛ ولكنه كان من جماعة و العقليين ، لأنه يفضل العقل على والقلب ، بوصفه أداة توصل إلى الحقيقة . وقد تنبأ بأن أوربا مقبلة على وعصر العقل » ، وكان يرى أن من واجب الفيلسوف المسيحي أن يستمد لملاقاة هذه النزعة الجديدة في مبداتها . وكان يبدأ حججه المنطقية بأقوال يقتبسها من الكتاب المقدس وآباء الكنيسة ، ولكنه يقول بصراحة محكمة قوبة : « إن الحجة التي تستند لمل أقوال الغير ولكنه يقول بصراحة محكمة قوبة : « إن الحجة التي تستند لمل أقوال الغير أومن الحجج بها الكنيسة ، وإن كتاباته لتضارع كتابات أرسطو فها يسرى فها كلها الأمور ، (٧٧) . وإن كتاباته لتضارع كتابات أرسطو فها يسرى فها كلها من منطق .

وقلما نجسد فى التاريخ كله حقلا واحداً أخضم مثله ميداناً من ميادين التنكير بمثل هذه السعة لحسن التنظيم وللوضوح. ولن نجد فى أسلوب تومس ما يجرنا أو يخلب لبنا ، فهوأسلوب مهل يصل إلى الهدف من أقرب السبل ، موجز ، دقيق ، خال من الحشو والزخرف ؛ ولكتنا لاتجد فيه مثل ما نجد في أسلوب أو خسطين من قوة ، وسعة الخيال ، وانفمال ونزعة شعرية . وكان تومس يرى أن لا محل فى الفلسفة للبلاغة ، وكان يستطيم إذا شاء أن ينازل الشهراء فى ميدانهم ؛ ذلك أن أقرب ما كتبه إلى الكال هو الرائيم والأوراد التى وضعها لعيد القربان المقدس، ومن بينها ترنيمة Lauda Sion salvatorem الى تقول بوجو دجسم المسيح و دمهو جوداً حقيقاً فى العشاء الربانى ، وصاغها فى شعر فخم بوجو دجسم المسيح و دمهو جوداً حقيقاً فى العشاء الربانى ، وصاغها فى شعر فخم

طنان رنان . وفى السابيج ترنيمة تبسلها بعبارة من أقوال أمروز :
Osalularis Bostia ، وتختم بمقطوعتين Verqum supernum prodiens
تنشدان أثناء المركة التي يمنحها الكاهن وقت العشاء الربابى . وفى صلاة
المساء ترنيمة هي أعظم ما وجد من التراتيم فى جميع العصور ، وهى مزيج من
المشعر واللاهوت :

تغنّ ، يا لسان ، پسر الجسم المجيد . وبالدم الذي لا يقدر بمال ، والذي أراقه ملك الحلائق جميعاً ، وثمرة أكرم الأرسام ، فداء للعالمين .

أهدته إلينا وولدته عذراء لم يمسسها بشر ،

و ضعته الشريعة ،

وأقام على هذا الكوكب ينشر بذور الكلمة التى استحالت لحما ، أقام ببننا فى تواضع ، ثم اختتم مقامه اختتاماً عجبياً .

وق ليلة العشاء الأعمر والرسل لا يز الون مضطجعين ، مراعين كل ما تقضى به الشريعة القديمة في شأن الطعام الذي

> الطعام الذي يطعمه الاثنا عشر مجتمعين يقدمه لنفسه بيديه ، إن الكلمة التي تجسدت تحيل الخيز يكاممة إلى لحمه ؛ والنبيذ يصبح دم للسبح ، وإذا عجزت الحواس أن ترى . فليقر الطهر في القلب بالإبمان وحده .

ومن أجل هذا نجل " هذا العشاء الوبانى العظيم وتحن سعبًد : ألا فلنخل الطقوس القديمة مكانها لهذه الشعيرة الجديدة : وليُستج إيماننا عجز حواسنا المظلمة .

سبَّحُوا بحمد الوالد والمولود وغنوا له أسهج الأغاتى :

سلام ؛ وتكريم ، وسلطان ، وبركات كثيرة وليرفع له تسييحنا غير متقص صادر عن حواسنا وقلوبنا (*) .

وتكاد كتابات تومس تساوى فى كرّما كتابات ألبرت، وإن كانت حياة أولها لا تزيد إلا قليلا على حياة الأخير . وقد كتب شروحاً على أهمام بطرس لمبارد ، وعلى أناجيل إشعبا ، وأبوب ، وبولس ؛ وعلى كتاب تهاوس بطرس لمبارد ، وعلى مؤلفات بو بشيوس والمؤلفات الملسوسة على ديونيسيوس ، وعلى كتب أرغنون ، وفى السياء والأرض ، والكون والفساد ، والأفلاك ، والطبيعة ، وفى العلمان ، وفى العقل ، وفى الفيلة ، وفائنيلة ، وفرها من كتب أرسطو ، وكتب يبحث نقطاً تثار هارضة فى جلسات الجامعة . وله رسائل فى قوانين الطبيعة ، والكائن ، والجوهر ، وحكم الأمراء ، وعمليات الطبيعة الحفية ، وكتاب فى أربعسة بجلدات يسمى : خملاصة المؤمليكي صد الوعنين فى أربعسة بالاكائن ، والموهر ، وحكم الأمراء ، وعمليات الطبيعة الحقيقة ، وكتاب العابيعة ، والكائن ، والموهر ، وحكم الأمراء ، وهمليات الطبيعة المؤمليكي صد الوعنين فى أربعسة بالموافقة من الموافقة من الموافقة من القطع 17٢٧) Summa de veritate catholica de contra Gentiles (17٧٣) Compendium theologiae من القطع الكبر ذى العدودين فى كل صفحة .

وكان إعداد خلاصة الدين الكاثوليكىضد الوثنين بطلب من ربمند الهنيافورقب Raymond of Penafort زعم طائقة الرهبان اللمنيكيين، ليستعين به على ضم المسلمن والهود في أسبانيا إلى الدين المسيحي. ولهذا فإن تومس يكاد

 ⁽ ه) و القطوعتان الأعبرتان تشدان أثناء البركة التي منحها الكاهن وقت العثاء الربان
 و تشل الدنيمة كلها في موكب يوم خيس الصعود .

يستند فى كل ما يورده من حجيج فى هذا الكتاب إلى العقل والمنطق ، وإن كان يقول فى أسف إن « هذا لا يكفى فى الأمور المتعلقة بالله ١٩٨٥). وهو يتخلى فيه عن الطريقة المدرسية فى النقاش ، ويعرض مادته أسلوب يكاد يكون هو الأسلوب الحديث بعينه ، ويعرضها أحياناً بمرارة لا تلبق بهذا العالم الوديع الشبيه بالملاك . وهو يقول إن المسيحية دين إلهى بلا ريب ؛ لأنها غلبت رومة وأوربا على الرغم من دعوتها ضد ملاذ الدنيا وملاذ الأساد ، وهى الدعوة التي لا يرحب بما الناس ٢٠٠١) وهو يعترف صراحة فى الحزء الرابع من الكتاب بأن العقائد الأماسية فى الدين المسيحى لا يمكن إثباتها بالاستناد إلى العقل والمنطق ، وإنها تتطلب الإيمان بالوحى الإلهى الإعان بالوحى الإلهى

ويوجه تومس أوسع كتبه كلها وهو فعوصة العرهوس إلى المسبحب أ أنفسهم ؛ وهو عاولة لشرح مجموعة المقائد الكانوليكية فى الفلسةة واللاهوت والدفاع عنها بالاستناد إلى الكتب المقلسة وكتب آباء الكنيسة وإلى المقل (**) . وبما جاء فى مقلمة الكتاب : « سنحاول أن نتتيم الأمور المتملقة بالمقائد المقلسة بإيجاز ووضوح بقلر ما تسمح به مادة هلما الموضوع ، . وقد يكون من حقنا أن نبتم لهذا الإيجاز الذى يحتويه واحد وعشرون بجلداً ، ولكن هذا ما يقوله المؤلف . والحق أن هذه المخموصة ضخمة الحجم ولكنها بعيدة عن الحشو واللغو ؛ وليست ضخامة حجمها إلا نتيجة سعة بجال بحيها ؛ ذلك أن فى هذه الرسالة عن اللاهوت رسائل كاملة فيا بعد الطبيعة ، وفي علم النفس ، والأخلاق ، والقانون ؛ وفيها ثمان وثلاثون رسالة ، و ٣٠١ سوالا أو موضوعا ، وعشرة آلاف اعتراض أو رد . وترتيب الحجج الحاصة بكل سوالا عما يلحو إلى الإحجاب .

 ^(*) هذا الكتاب من أوله إلى السؤال التسمين من الجزء الثالث بما تبه هذا من تأليف
 توسى ؟ أما بقية الكتاب فغه يكون من تأليف ريجنك اليبر نوى رفية، وغاشر كتبه .

أما تركيب الكتاب فقد نال من الثناء أكثر مما يستحق، فهو لا يضارع التنظيم المنطق لكتاب الأخلاق لاسينرزا أو التتابع المسلسل لكتاب الغلمة التركيبية لاسينسر. ورسالته في علم الفس (الجزء الأول المشتمل على الأبواب من ٧٥ إلى ٩٤) موضوعة بين بحثه في الستة الأيام التي تم فها الحلق من تركيبه ؟ وهو في جوهره يواصل طريقة أبلار من الحد اللدى يلفته على يد يطرس المبارد ويبلغ بها درجة الكال: يبدأ بالسؤال، تتلوه الحجج النافية، بهم المحجج الموجبة المناجوة الملكاب أكثر طرافة المقدس، ومن كتب الآباء ، والمستندة إلى المقل ، ثم الردود على الاعتراضات . وهذه المطريقة تضيع الو أحياناً لأنها تورد حجباً واهية تومس أنه يورد الرأى المقالف أرأيه بصراحة مدهشة وقوة عظيمة ؛ وجذه المطريقة كان الكتاب خلاصة للإلحاد كما هو حصن حصن للمقائد المسيحية ، المطريقة كان الكتاب خلاصة للإلحاد كما هو حصن حصن للمقائد المسيحية ، وبكن التقاف كرأيه بصراحة مدهشة وقوة عظيمة ؛ وجذه ويمكن اتفاذه كتاباً جامهاً للشكوك. وقد لا نقتع على الدوام بردوده ،

الفصل لشارس نلسفة تومس

١ - المنطــق

ما هي المعرفة ؟ هل هي نور إلمي بعثه الله في الإنسان ، وبغير هذا لايمكن أن تكون ؟ يخالف تومس منذ البداية أوغطسين، والمتصوفة، والقائلين بمذهب اللقانة (١) و فالمعرفة في رأيه نتاج طبيعي ، يحصل علمها الإنسان من حواس الجسم الخارجية ، ومن الحاسة الداخلية المعروفة بالشعور بالذات. وهيمعرفة محدودة غاية في القصور فما من عالم قد عرف حتى وقتنا هذا حقيقة الديابة(٧٠). ولكن المعرفة في داخل حدودها خليقة بأن يوثق بها ، ولا حاجة بنا لأن يتولانا الغضب من أن العالم الحارجي قد يكون كله خداعا في خداع . ويقبل تومس تعريف المعرسيان للحقيقة بأنها مطابقة الفكرة للشيء adequatio rei et intellectus (۲۲) . وإذ كان العقل يستمدكل معلوماته الطبيعية من الحواس (۲۲) فإن معرفته المباشرة للأشياء الخارجية عنه مقصورة على الأجسام ــ أي على عالم الحس أو المحسوس ، وليس في مقدوره أن يعرف من طربق مباشر العالم الذي فوق المحسوس ، عالم ما وراء الطبيعة ، العقول التي في داخل الأجسام أوالله في خلقه ؛ ولكن في وسعه عن طريق المقارنة والقياس أن يستمد من تجارب الحس معرفة غير مباشرة بالعقول الأخرى ، وأن يحصل بمثل هذه الطريقةعلى معرفة غيرمباشرة بالقه(٧٣) . أما العالم الثالث عالم ما فوق الطبيعة ــ حيث يوجد الله ــ فليس في مقدور عقل الإنسان أن يعرف عنه شبثًا إلا من طريق الوحي

Intuitiouists (,)

الإلهي . وفي وسمنا أن نعرف بطريق القهم الطبيعي أن الله موجود ، وأنه واحد ، لأن وجوده ووحدانيته تتلألآن في عجائب العلم وحسن تنظيمه ؛ ولكننا لا نستطيع بعقلنا وحده أن نعرف جوهره أو حقيقة التثليث ، وحتى علم الملائكة أنفسهم قاصر ومحلود وإلاكانوا آلمة .

وقصور علمنا في حد ذاته دليل على وجود عالم فوق الطبيعي. ويكشف الله لنا عن هذا العالم في كتبه القدسة ، وكما أن من الحمق أن يقول الفلاح إن نظريات الفلسفة كاذبة لأنه يعيجز عن فهمها ، كذلك يكون من الحمق أن يرفض الإنسان الإيمان بالوحى الإلهي بحجة أنه يبدو له في بعض النقط مناقضاً لمعلومات الإنسان الطبيعية . وعلينا أن نثق بأنه لوكانت معلوماتنا كاملة ، لما كان ثمة تناقض بـنالوحى والفلسفة ، ومن الخطأ أن نقول إنقضية ما يمكن أن تكون خاطئة في الفلسفة وصميحة في الدين ، ذلك بأن الحقائق كلها تأتى من عند الله وهي واحدة . غير أنه يحسن بنا أن نفرق بين ما نفهمه عن طريق العقل وما نعتقده عن طريق الإيمان(٧٤) ، لأن ميداني الفلسفة والتصور ميدانان منفصلان، ويجوز للعلماء أن يبحثوا فها بينهم مايعترض به على الدين ، ولكن 1 لا يحسن بالسذج من الناس أن يستمعوا إلى ما يقوله غير المؤمنين ضد الدين ، لأن المقول السادجة ليس لها من الاستعداد ما تستطيع أن ترد به على المعترضن(٧٥) . ويجب على العلماء والفلاسفة ، كما يجب على الفلاحين أن ينحنوا أمام قرارات الكنيسة ؛ ومن واجبنا أن نهتدى سهلسها في كل شيء(٢٦) ؛ لأنها هي المكان الذي أودع فيه الله الحكمة الإلهية ؛ وقد أعطى البابا والحق في أن يُصدر أحكاما نهاثية في شؤون الدين حتى بأخذها الناس جميعا بإيمان لايتزعزع(٧٧) ء. وبغير هذا لامفر من الفوضى العقلمة ، والأخلاقية ، والاجتماعية .

۲ - ما وراء الطبيعة (الميتافنزيةا)

ميتافيزيقية تومس تعريفات معقدة عويصة وفروق دقيقة يقوم عليها كلها لاهوته .

١ – الجوهر والوجود في الأشياء المخلوقة عتلفتان ، فالجوهر هو ما لا يد منه لإدراك الشيء ؟ والوجود هو عملية الكينونة . فجوهر المثلث – أى أنه ثلاثة خطوط مستقيمة تضم بينها فراغاً – واحد لا يتغير سواء وجد المثلث أو كان عبر د إدراك ذهني . أما في حالة الله فالجوهر والوجود شيء واحد؛ لأن جوهره هو أنه العلة الأولى ، والقوة التي تقوم علما كل الأشياء (أو التي تقف تحت الأشياء) كا يقول اسبتوزا . وتعريفه يحتم وجوده لكي يوجد كل ما عداه من الأشياء .

٢ ــ والله موجود بالحقيقة ، وهو الكائن المكون لجميع الكائنات ، وعلم التي تستند إليها . وكل الكائنات الآخرى موجودة بالتصور لا غير ، وبالاشتراك المحدد في حقيقة الله .

٣ – وكل الكاتنات الخلوقة فاعلة ومنفعاة مما – أى أنها تفعل وتنفعل . وهي أيضاً مزبيع من الكينونة والصيرورة : فلها صفات معينة قد ثفقد بعضها وتكسب غيرها – فالماء مثلا قد يدفأ . ويعمر تومس عن هذا التأثر بالعمل الحارجي أو التبدل الداخلي يلفظ الإمكانية potentia . والله وحده هو المنزه الإمكانية ، فهو لا ينفعل ولا يتبدل ، وهو نشاط خالص ، وحقيقة خالصة ؛ وهو من بادئ الأمر كل شيء يمكن أن يكونه . ويمكن ترتيب خالصة ؛ وهو من بادئ الأمر كل شيء يمكن أن يكونه . ويمكن ترتيب الموجودات الى دون اقد ترتيباً تنازلياً يقوم على عظم إمكانياً في التأثر بما هو

خارج عنها والتحدد به . وعلى هذا يكون الرجل أدق من المرآة لأن و الأب هو للبدأ الفعال ، على حين أن الأم هى للبدأ المفعل أو المادى ؛ فهى تقدم مادة الجسم التى لا صورة لها ، والتى تتلقى صورتها عن طريق القرة المكونة التى في منى الأب و(۲۵) :

٤ - كل الكائنات ذات الأجسام تتكون من مادة وصورة ، ولكن الصورة هذا (كما هي عند أرسطو) ليس معناها الشكل بل العنصر القطرى المنشط المديز . وحين تكون الصورة أو العنصر الحيوى جوهركان ما فهي تكون صورة أساسية جوهرية ، وسندا تكون النفس العاقلة - أى القوة التي شهب الحياة والقادرة على التفكير - هي صورة الحسم الأساسية ، والله هو صورة الكون الأساسية .

 هـ والحقائق كلها إما جوهر أوعرض: إما أن تكون موجودات منفصلة كالحجر والإنسان، أو أنها لا توجد إلا على هيئة صفات في شيء آخر كالبياض والكثافة. أما الله فهو جوهر محض ، لأنه هو الحقيقة الكاملة الموجودة بذائها.

 ٦ - والجواهر كلها فردية ، ولا شيء غير الأفراد ، وجود إلا في الفكر ، والفكرة القائلة بأن الفردية خداع هي نفسها خداع .

٧ - وفى الكائنات المكونة من مادة وصورة يكون العنصر الأساسى أو مبدأ الانفراد - أى نضاعف عدد الأفراد فى النوع أو الصنف - هو المادة . أما الصورة أو المبدأ الحيوى فى النوع بأكله فهى فى جوهرها واحدة . وهذا المبدأ يستخدم فى كل فرد ، مقداراً معيناً وشكلا من المادة . ويستحوذ عليه ، ويعطيه شكلا ؛ وهلمه المادة التى تعينت بكيتها هى مبلأ ويستحوذ عليه ، ويعطيه شكلا ؛ وهلمه المادة التى تعينت بكيتها هى مبلأ الانفرادية - وليست الانفرادية هى الفردية بل الفائية لمنفصلة .

٣ - اللاهوت

المحور الذي تدور حوله فلسفة تومس وموضوع بحبها هو الله لا الإنسان ، وقد كتب في ذلك يقول : و إن أرق ما نستطيع تحصيله من معرفة عنه في هلمه الحياة أن نعرف أنه فوق كل ما يمكن أن يدور بخلدنا عنه ٤ (٢٩٦) . وهو يرفض حجيح أنسلم الكونية ، ولكنه يقمرب مها حين يقول إن وجوده وجوهره شيء واحد ، فائة عنده هو الوجود نفسه : وأنا من أنا ي .

ويقول تومس إنه يمكن البرهنة على وجود الله بعلل طبيعية : (١) فلا ركات كلها تنشأ من أخرى قبلها ، وهذه إما أن تنتهى إلى محرك أول أو أن تستمر فى الرجوع إلى حركات أسبق مها رجوع الا نهاية له وهذا مستحيل ، (٢) كذلك يتطلب تسلسل العلل علة أولى ، (٣) والعرضى ، وهو ما قد يكون ولكن لا يتحم أن يكون ، يعتمد على الفهرورى الذى لا ينحم أن يكون ، يعتمد التسلسل يرجع بنا إلى كائن ضرورى هو الحقيقة الخالصة ، (٤) والأشياء طيبة ، وحقة ، وسامية ، يدرجات مختلفة ، ولا بد أن يكون هناك أصل أو مصدر لهذه الفضائل التاقصة يبلغ حد الكمال فى الطيبة والحقيقة والسمو ، أو مصدر لهذه الفضائل التاقصة يبلغ حد الكمال فى الطيبة والحقيقة والسمو ، في العالم آلاف من الشواهد الداللة على ما فيه من نظام ، وحتى الجادات نفسها تتحرك بطريقة منظمة ، وكيف يمكن وجود هذا إلا إذا كانت هناك فو عاظة هى الى خلقت هذه الأشياء ؟(*)(٨)

وإذا ما استثنينا مسألة وجود الله قلنا إن تومس يكاد يكون لا أدريا في اللاهوت الطبيعي الالاستطيع أن نعرف ما هو الله ، بل نعرف فقط ما لا يمكن أن يكونه (٣٦٠) – إنه لا يتحرك، ولا يتعدد، ولا يتعدد، ولا يتبحول، ولا يحيط به زمان. وليم تربد العقول المتناهية في الصغر أن تزيد علمها بمالانهاية اد؟ ويقول تومس

^(*) ٢١١ ، ٥ متقولة عن ألبرت عن أرسطو (٣) عن ابن ميمون (٤) عن أنسام

إن من الصعب علينا أن تنصور الروح غير المادية (وهو يسبق برجسون في قوله هذا) لأن العقل بعتمد على الحواس ، ولأن تجاربنا المعارجية كلها المقصورة على الأشياء الهادية ؛ وعلى هذا و فإنا لا نعرف الأشياء المجردة من الأجسام ، والتي لا صور علما ، إلا بمقارتها بالأجسام المحسوسة التي لها الأجسام عربة التي المعارض واليس في مقدورنا أن نعرف الله (كما يقول ابن ميمون) إلا عن طريق المجاز والتشبيه ، فنستدل عليه من أنفسنا ومن تجاربنا ؛ وعلى هذا فإذا كان في الناس خير ، وحب ، وحق ، وعقل ، وقدرة ، وحرية ، أو أية ميزة أخرى ، فلابلد أن تكون هذه أيضاً في خالق الإنسان ، وأن تكون فيه بدرجة أعلى تتفق مع النسبة الموجودة بين اللائهائية وبيننا نحن . وإذا ما استعملنا ضمائر المذكر حين تتحدث عن الله فليس فلك إلا من قبيل وإذا ما المختية فليس ثمة ذكر وأثني في الله ولا في الملالكة . والله واحد لائه حسب تعريفه هو الوجود ذاته ، وإن سير العالم الموحد لميكشف عن عقل واحد وقانون واحد . وإن القول بوجود ثلاثة أقانيم في هذه عن عقل واحد وقانون واحد . وإن القول بوجود ثلاثة أقانيم في هذه الوحدة الإلهية لهو سر غامض لا يدركه المقل ، ولابد أن تعتقده بإيمان

وليس في مقدورنا كلمك أن نعرف هل خلق العالم في وقت بعينه ، وبذلك يكون قد خلق من لا شيء ، أو هل هو أولى كما يظن أوسطو وابن رشد ؟ ومن رأيه أن الحجج التي يدلى بها رجال الدين ليثتوا بها خلق العالم في زمن بعينه حجج واهية يجب رفضها دحتى لا تبدو العقيدة السمحة بأنها قائمة على أسانيد منطقية جوفاه ، (AA) . ويستنج تومس من هذا أن علينا أن نعقد بالاستناد إلى إعاننا وحده بحلق العالم في وقت معن ؛ ولكنه يضيف إلى هسلنا أن ذلك أمر لا معنى له لأن الوقت معن ؛ ولكنه يضيف إلى هسلنا أن ذلك أمر لا معنى له لأن الوقت تمرك له وجود قبل الخلق ، إذ ليس ثمة وقت بلا تغير ، ولا مادة تتحرك . وهو محاول بأقصى جهده أن يشرح كيف ينقل ائله من لاخلق تن رأيه أولية ، ولكنها

والملائكة في رأيه هم أرقى طبقات الحلق ، وهم عقول بلا أجسام ، غير قابلان للفساد ، مخلدون . وهم رسل الله في حكم العالم ، مهم تتحرك الأجرام السهاوية وسهم تهتدى(٩٠) ، ولكل إنسان ملك يحرسه ، وكبار الملائكة يعنون يجهاهات كبيرة من الناس . وإذ كان الملائكة عقولا بلا مادة ، فإن في مقلورهم أن ينتقلوا من أحد أطراف العالم إلى الطرف الآخر من غير أن يجتازوا ما بينهما من فضاء . ويملأ تومس ثلاثاً وتسعين صفحة في طبقات الملائكة ، وحركاتهم ، وحبم ، وعلمهم ، ولراديم ، وكلامهم ، الملائكة ، وحركاتهم ، وحبم ، وعلمهم ، ولداديم ، وكلامهم ، على التفنيد .

وكما أن هناك ملائكة فكلنك يوجد عفاريت ، وهم أبالسة صغار يأتم ون بأمر الشيطان ؛ وليس هولاء مجرد خيالات تخاقها عقول العوام ، بل هم كالتات حقيقية يسببون ما لا حصر له من الأذى ؛ وفي وسعهم أن يجملوا الرجل عاجزاً عن القيام بالوظيفة الجنسية بأن يشروا فيه كره المرأة (٢٨٥٥) ويقومون بضروب مختلفة من السحر ؛ فقد يرقد الغفريت تحت الرجل ، وبتلق منبة ، ويحمله مسرعا في الفضاء ، ويجامع امرأة ، فتحمل من مني رجل غالب (٨٨) . وفي وسع العفاريت أن يمكنوا السحرة من أن ينغبثوا بالحوادث التي لا تعتمد على إرادة الإنسان الحرة . وفي وسمهم أن يبلغوا الناس معلومات بأن يطبعوها في خيالهم ، أو بأن يظهروا أمام عيونهم ، أو يتحدثوا لهم بصوت مسموع ؛ وقد يتعاونون مع الساحرات ، ويساعدونهن على إيذاء الأطفال ، عن طريق الحسد ١٨٨) .

وكان تومس يعتقد بصدق التنجيم فى كثير من الأمور ، شأنه فى ذلك شأن كثيرين من معاصريه ، وكثيرين من معاصرينا نحن :

يجبُّ أن نربط بين حركات الأجسام . . . على هذه الأرض وحركات

الأجرام الساوية وهي علمها . . . وثمة طريقتان يستطاع جما تفسير قلارة المنجمين في كثير من الأحيان على التنبؤ بالحقائق برصد النجوم : أولالها أن صدداً كبيراً من الناس يسيرون وراء انفعالاتهم الجسمية ، وبذلك تتجه أعملهم في معظم الأحيان حسب ميل الأجرام الساوية ، على حين أن هناك قلة منهم – وهم المقلاء وحدهم – بهدئون مبولهم بعقولهم . . . وثانيتهما ناشئة من تدخل العفاريت(٩٠) .

بيد أن ₃ أعمال البشر لا تخضع لفعل الأجرام السهاوية إلا خضوعاً عارضا وبطريق غير مباشر ؟^(٩١) ؛ وفيها مجال كبير لحرية الآممين .

٤ _ علم النفس

يعنى تومس ببحث المشاكل الفلسفية التى ينضمها علم النفس، والصفحات التى مخصصها لهذا الموضوع من أحسن ما في كتابه من تحليل. وهو يبدأ يفكرة أن الكائن الحي عضوى معارضا في ذلك فكرة أنه آلى: فالآلة تتكون من أجزاء تضم بعضها إلى بعض من الحارج ، أما الكائن الحي فيكون أجزاءه بنفسه وبحرك نفسه بما فيه من قوة داخلية (۱۷۷). وهذه القوة اللماخلية المكونة هي النفس ، ويعمر تومس عن هذه الفكرة بمصطلحات من كتب أرسطو : فالنفس عناه وصورة هيولية اللجسم – أى أنها هي المبدأ الحيوى والطاقة التي تعطي الكائن الحي وجوداً وشكلا : والنفس المبدأ الأول لمغذاتنا ، وإحساسنا ، وحركتنا ، وفهمنا (۱۹۷) . والنفس ثلاث درجات : النفس النابقة – أى القدرة على النماء ، والنفس الحاسة – أى القدرة على النمور ، والنفس العاملة – أى القدرة على التعقل والاستدال . والأولي موجودة في كل ما هو حي ، أما الثانية فلاتوجد إلا في بني الإنسان . غيرأن الكائنات الحية العلية الحليا تمر في نمائيا المسمى والقردى بالمراحل التي تبتى فها الكائنات الحية العلية العراح التي تبتى فها

الكائنات السفلى ؛ و و كلما علت الصورة فى سلم المخلوقات . . . زاد عدد الأشكال الوسطى التي تمر بها قبل أن تصل إلى صورتها الكاملة ه⁽¹¹⁾ ــ ويشه هذا القول نظرية « الإعادة » التي ظهرت فى القرن التاسع عشر والثي تقول إن جنن الإنسان يمر بالمراحل التي مر فيها النوع أثناء نموه .

وبينا كان أفلاطون ، وأوغسطن، والرهبان الفرنسيس يظنون أن النفس سجينة في الجسم ، ويقولون إن الإنسان هو النفس لا غير ، كان تومس جريئًا في قبول فكرة أرسطو ، وهو يعرف الإنسان ــ بل يعرف الشخصية نفسها ــ بأنه مزيج من الجسم والتغس ومن المادة والصورة(٩٥). فالنفس وهي الطاقة الداخلية التي تبعث الحياة ، وتخلق الصورة ، توجد في كل جزء من أجزاء الجسم كاملة غير قابلة للانقسام(٩٦) وهي ترتبط بالحسم بألف طريقة . فهي بوصفها نفساً ثباتية تعتمد على الطعام ، وبوصفها نفساً حاسة تعتمد على الإحساس ، وبوصفها نفساً عاقلة تحتاج إلى الصور التي تنتج أو تتركب من الإحساسات . وحتى المقدرة العقلية والمدركات الأخلاقية تعتمد على وجود جسم سلم إلى حد معقول . فالجلد السميك يدل على النفس العديمة الإحساس(٩٧) ؛ وللأحلام ، والانفعالات ، والأمراض العقلية ، والأمزجة أسس فى وظائف الأعضاء(٩٨) . ويتحدث تومس فى بعض الأحيان كما لو كان الجسم والنفس حقيقة واحدة موحدة ، أى الطاقة الداخلية والصورة الخارجية لكل لا يتجزأ . ومع هذا فقد كان يبدو له واضحاً كل الوضوح أن النفس العاقلة – المجردة ، المعممة ، والمستدلة ، المصورة للكون ، – . حقيقة غير جسمية ؛ وأننا مهما حاولنا ، وعلى الرغم من ميلنا إلى التفكير فى جميع الأشياء بمصطلحات مادية ، لانستطيع أن نجد شيئًا ماديًا فى الإدراك ؛ فهو حقيقة تختلف كل الاختلاف عن جميع الأشياء المادية أو المكانبة ۚ و بجب أن نصف هذه النفس العاقلة بأنها روحية، شيء يبعثه فينا الله وهو القوة النفسية القائمة وراء كل الظواهر المادية . والقوة غير المادية وحدها هي التي تستطيع أن تكون فكرة كلية ، أو تقفز إلى الأمام وإلى الخلف فى الزمان ، أو تدرك الكبير والصغير بدرجة واحدة من السهولة(٢٠٠) . وفى مقدور العقل أن يدرك نفسه ، ولكن من المستحيل أن بتصور كاثناً ماديا يدرك نفسه .

ولهذا فلا حرج علينا إذا اعتقدنا أن هذه القوة الروحية الموجودة فينا تبتى بعد موت الحسم ؛ ولكن النفس التى تفارق الجسم على هذا النحو ليست ذات شخصية ، فهى لا تقدر أن نحسن أو تريد ، أو تفكر ، بل هي طيف لا قوة له ولا يستطيع أن يقوم بعمل بغير الجسم (١٠٠٠)، ولا تكون مع المجلسم شخصية منفردة لا يجوز عليها الموت إلا إذا عادت إلى الانحاد مع الجسم ، أى مع الإطار الجسدى الذى كانت هي حياته اللماخلية . ولقد كان السبب الذى دفع ابن رشد وأتباعه إلى النظرية القائلة بأن و لا خلود إلا بيعث الجسم . أما تومس فيسخر كل ما وهب من قوة الحدل أيدحض بيعث الحسم . أما تومس فيسخر كل ما وهب من قوة الحدل أيدحض المداكلية ، وعنده أن اختلافه عن ابن رشد في مسألة الخلود هر أهم المشاكل القائمة في القرن الذى يعيش فيه ، وأن ما يشأ عن الوقائع الحربية من تبديل في الحدود وتقير في يالألقاب يبدو إلى جانها عبئا المرون الا أكثر .

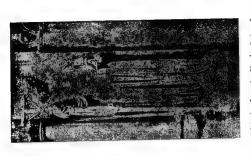
ويقول تومس إن للنفض خس صور أو قوى : النفس الناتية وما نطح ، وتنمو ونتكاثر ؛ والنفس الحاسة وبها نستقبل التنبهات من العالم الحارجي ؛ والنفس المشهة ، وبها نرغب ونريد ؛ والنفس الهركة وبها تحدث الحردة ؛ والنفس المعاقلة وبها نفكر (۱۰۱) . والمعلومات كلها تبدأ بالحواس ، ولكن التنبهات لا تسقط على سطح فارغ أهلس ، يل بتاقاها بناء معقد هو مركز الإحساس المشترك ، اللي يصبوغ هذه التنبهات أو الأحاسيس فيوالف مها أفكاراً . ويتفق تومس مع أرسطو ولكن عامد في أنه و لا شيء في العقل لم يكن له من قبل وجود في الحواس ، ، ولكنه يضيف إلى ذلك كما يضيف كانت ولينتر قوله :

إلا العقل نفسه ع - وهو قوة منظمة تستطيع تنظم التنبهات إلى أفكار ،
 وأشيراً إلى تلك الكليات والأفكار المجردة التي هي أدرات الاستدلال ،
 والميزة التي اختص مها الإنسان على هذه الأرض .

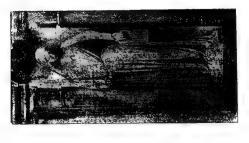
والإرادة أو الرغبة هي الموهبة التي تستطيع بها النفس أوالقوة الحيوية أن تتحرك تمو ما يرى العقل أنه خير . ويعرف تومس الحبركما يعرفه أرسطو بأنه ، هو الشيء المرغوب فيه ١٥٠٦٠ . والجال شكل من أشكال الحبر ، لأنه هوالذي تسر رؤيته . ولم كانت رؤيته سارة ؟ إنها نسر لما بين أجزائها من تناسب وتناسق يجعل منها كلا منظل . والعقل خاضع للإرادة لأن الرغبة تستطيع أن تحدد اتجاه الفكر ، ولكن الإرادة نفسها خاضعة للعقل لأن رغباتنا تحدُّهُ الطريقة التي تدرك مها الأشياء ، والآراء التي تكونها عبا (مقلدين في ذلك غبرنا عادة). وليست الحرية مستقرة حقيقة في الإرادة التيء بحركها بالضرورة ، فهمنا للمادة كما يعرضها علينا العقل(١٠٣)، بل هي مستقرة في التميز (arbitirium): ولهذا تتناسب الحرية تناسباً مطرداً مع درجات المعرفة ، والقُدرة على الاستدلال ، والحكمة ، وعلى قدرة العقل أن يعرض صورة صحيحة للحالة القائمة على الإرادة ، ومن ذلك يرى أن الحكماء وحدهم هم الأحرار حقاً (٩٠٠). وليس الذكاء خبر مواهب النفس وأسماها فحسب بل هو أيضاً أعظمها قوة : 3 وطلب الحكمة هو من بِنْ مَطَالَبِ الْإِنْسَانَ كُلُهَا أَكْمُلُهَا ، وأَعْلَمُها نَفْعًا ، وأجلها للسرور، (١٠٠٠) : ٥ وعمل الإنسان الخليق به هو أن يفهم ١٠٠١) .

ه ـ علم الأخلاق

وإذن قتاية الإنسان الحقة هي أن يصل إلى الحقيقة في الحياة الدنيا ، وأن يشهد هذه الحقيقة في الله في الحياة الآخرة ؛ ذلك أننا إذا سلمنا مع أرسطو بأن ما يسعى إليه الإنسان هو السعادة ، فأين يجد أحسّها ؟ إنه لا يجدها في الملاذ







(الصورة رقم ٢) « المميد » من كتيار ائية استر اسبورج

الجسمية ، ولا في الشرف، ولا في الثروة ، ولا في السلطان . بل إنه لايجلما في الأعمال الصادرة عن الفضيلة الحلقية ، وإن حصل من هذه كلها على المهنجة . ولنسلم كذلك بأن و النظام الكامل للبجسم ضرورى . . . للسمادة المالمة و(١٠٧٠) . ولكن ليس في هذه العليبات كلها ما يضارع السمادة الهادئة المناسلة المنصلة الناشئة من الفهم . ولعل تومس كان يذكر و فتئذ قول فرچيل : و ما أسعد من استطاع أن يعرف عبل الأشياء ! و فاعتقد أن أسمى عمل تقوم به النفس وأعظم ما تنخيط به ... أى اللموة العليبية لعقليها الخاصة ... هى و أن ينقش علمها النظام الكامل الكون وأسبابه و(١٠٨٠) . وإن السلام الملك يعلو على الفهم . يشمأ من الفهم .

ولكن هذه السعادة الدنيوية العليا نفسها لاثيرك الإنسان راضياً كل الرضا قانماً كل الشعادة الكاملة الحقة الأيكن أن تنال في هذه الحياة ع. وأن في داخله صبوتاً لا يمكن إسكانه يجعله يتوق على اللعوام لسعادة ولفهم لايتأثران بما يتعرض له الآدميون الفانون من تغير ات ومن صروف الزمان. وقد تجد غير هذه الشهوات ما يشبعها في الطيبات الرسطى ، أما عقل الإنسان الكامل فلن يستريح إلا إذا وصل إلى ذروة الحتى وجاعه وهو القلاماً . فني الله وحده الحالاً الاسمى لأنه مصادر كل الطيبات الأخرى ، ولأنه علة سائر العالى، وحقيقة كل الحقائي ، والهدف الأخير للإنسان هو نور النعم الباهر – الروي الني تها السعادة (٥٠).

وعلى هذا يكون علم الأشلاق هو الفن والعلم اللذين يعدان الإنسان لبلوخ هذه السعادة الهائية السرمدية ؛ ويمكن تعريف الطبية الحلقية أو الفضيلة بأنها السلوك المؤدى إلى غاية الإنسان الحقة وهى أن يرى الله والإنسان يطبعه ميال إلى الحير — المرغوب فيه : ولكن ما يواه هو خيراً اليس في كل الأحوال خيراً

 ⁽ه) وهو النور اللي يراء المؤتمة والإبرار عند مخولم البلتة . (المترجم)

من الناحية الأخلاقية ؛ وقد عسى الإنسان الله بسبب خطأ حواء فى الحكم على ما هوخير ، وهو يحمل الآن فى كل جيل وزر هذه الحطيثة الأولى⁽⁹⁾. وإذا ما سأل إنسان عند هذه النقطة لم خلق الله ، اللنى يعرف كل شيء قبل حلوثه ، رجلا وامرأة قلر عليهما أن يكون امشغوفين بالمعرفة ، وخلق جيلا قدر عليه أن يكون ملوثاً جادا الأم الموروث ، أجابه تومس أن من المستحيل على أى مخلوق بمقتضى قوانين ما وراء الطبيعة أن يكون كاملا . وأن حرية الإنسان فى أن يأثم هي الثن اللذي يجب عليه أن يؤديه نظير حريته فى الاختيار . وإذا سلب الإنسان حرية الإرادة أصبح مجرد آلة ذات حركة ذاتية لاتسمو على الحبر والشر بل تتحط دونها ، ولاتكون لها كرامة أكثر من أنها آلة .

وإذ كان تومس قد انهمس في عقيدة الخطيئة الأولى ، وانهمس في معبدة الخطيئة الأولى ، وانهمس في مبادئ أرسطو ، وفي الحوف من النساء واعترامن اعترالا ناشئا من حياة الأديرة ، فقد كان لابد أن يكون سي الظن بالنساء ، وأن يتحدث عنهن حديث الرجال ، وليس عليه في هذا لوم . وهو يحلو حلو أرسطو في أنانيته البالغة الخطورة حين يظن أن الطبيعة كبطارقة المصور الوسطى ترغب على اللوام في أن تخرج ذكوراً ، وأن المرأة مخلوق عاجز عارض ، أو أنها ذكر أخطأه التوفيق (mas occasisnatum) ، وأكبر الظن حيل حد قوله — أنها تتيجة لضعف قوة التلقيح عند الأب ، أو لعامل آخر حبرجي مثل ربيح جنوبية وطبة (١١١) . وكان يظن بالاعباد على آزاء أرسطو وبعض معاصريه في علم الأحياء أن المرأة ليس لها إلا المادة المنعلة في اللورة المناس أما الرجل فهو الذي يعطى الصورة الفاعلة ، وأن المرأة هي انتصار المادة على العمورة المعامورة وهي من غم أضعف الأوعية في الجسم ، والعقل ، والإرادة . وشأنها المعمورة ، وهي من غم أضعف الأوعية في الجسم ، والعقل ، والإرادة . وشأنها المعمورة ، وهي من غم أضعف الأوعية في الجسم ، والعقل ، والإرادة . وشأنها

^(*) لم يكن توسس يعرف أن الكنيسة سخر فظرية الحدل بلا دنس الخاصة بالداراء - أي تحررها من التلوث بالخطيئة الأولى - ولملذا غان أن مريم أيضاً قد ه حلت في إثم ه وقد أضاف إلى ذلك في شهامة لم تميح ما قرره غبل « أنها قد طهرت قبل أن تلد من الرسم (١٩١٥).

مع الإنسان فهو المعر عن العنصر الأكثر ثباتاً . والرجل والمرأة كلاهما الإنسان فهو المعر عن العنصر الأكثر ثباتاً . والرجل والمرأة كلاهما صُورًا في صورة الله ، ولكن الرجل أشبه به من المرأة . والرجل هومبذأ المرأة وغايته ، وهي تحتاج إلى الرجل في كل شيء ، أما هو فلا يحتاجها إلا النناسل ؛ والرجل قادر على أن يؤدى جميع الواجبات أحسن من أداء المرأة لل يستني من هذا الدنابة بالبيت (١١٦) ، فهى لا تصلح لأن تشغل أى منصب هام في الكنيسة أو الدولة ؛ وهي جزء من الرجل وإن شئت الدقة الحرفية فهى ضلع من ضلوعه (١١٦) ؛ وعلما أن تنظل إلى سيدها الطبيعى ، وأن تقبل إرشاده ، وتحفيع لتقويمه لما الرجل نظرتها إلى سيدها الطبيعى ، وأن تقبل إرشاده ، وتحفيع لتقويمه وتأديبه ، وسهذه الطريقة تؤدى رسائها وتحظى بسعادتها .

هذا هو ما يقوله تومس عن المرأة ؛ أما الشرفيندا غاية جهده لينيت أنه في نظرعام ما وراء الطبيعة لا وجود له ؛ ويتول إن الشر ليس موجوداً إيجابيا ، لأن كل حقيقة بوصفها حقيقة خبر (١٩٤٦) ؛ وليس الشر إلا غياب صفة أو مقدرة يجب أن تكون موجودة في الكائن بطبيعته ، أو هي الحرمان من هذه الصفة أو المقدرة . فليس شراً في الرجل ألا يكون له جناحان ، لكن شراً ألا تكون له يدان ، مع أنه ليس من الشرفي الطائر لا يستطيع أن ينقل كاله اللانهائي إلى مخلوقاته . والله يجز بعض الشرور لا يستطيع أن ينقل كاله اللانهائي إلى مخلوقاته . والله عجز بعض الشرور يقصد الوصول إلى بعض الغايات الحبرة أو المنع شرور أشد منها كا وتجز بعض المحكومات ... بحق بعض الشرور – كالمهر مثلا – خشية ... أن يودى منعها إلى أضرار أشد منها يا (١٩٠٠) .

و الحطيئة عمل من أعمال الإرادة الحرة حين تحرق نظام العقل الذي هو أيضاً نظام الكون . ونظام العقل هوالتوفيق الصحيح بدنالوسائل والغايات، وهو فيا يختص بالإنسان تكييف السلوك يحيث بودي إلى السعادة السرمدية . والله مهينا حرية ارتكاب الحطأ ، ولكنه مهنا أيضاً ، بوحيه الإلمى ، الشعور بالصواب والحطأ . وهذا الضمير الغريزى ذو سلطان مطلق يجب أن يطاع مهما تكن النئيجة ؛ فإذا أمرت الكنيسة إنساناً بشيء يخالف ضميره وجب عليه أن يعمى أمرها ، وإذا حدثه ضميره بأن الإيمان بالمسيح شر ، وجب عليه أن ينفر من ذلك الدُّيْنِ (١٣٠) .

والضمر في الأحوال العادية لايميل بنا إلى الفضائل الطبيعية وحدها كالعدالة ، والفطنة ، والجَلَّد ، بل يميل بنا أيضاً إلى الفضائل التي يأمرنا مها اللدين كالإيمان ، والأمل ، والصدقات . وهذه الثلاث الصفات الأخيرة هي الصفات الحلقية التي يمتاز لها الدين المسيحي ، وهي أيضاً سبب مجده . والإيمان واجب أخلاقى على الإنسان لأن العقل البشرى ةاصر محدود ؛ فعلى الإنسان أن يصدق تصديقا قائماً على الإيمان مقائد الكنيسة التي تعلو على إدراك العقل وعقائدها التي يستطيع أن يعرفها بطريق العقل. وإذا كمان الخطأ في شئون الدين قد يؤدى بالإنسان إلى الجحم ، فإن من الواجب ألا بتسامح في عدم الإيمان إلا إذا قصد بذلك تجنب شر أكبر، و فالكنيسة قد أجازت في يمض الأحيان شعائر الملحدين والوثنيين أنفسهم ، حين كان غير المؤمنين كثيرى العلمد ع(١١٧٦). ويجب ألاً يسمح لغير المؤمنين بأن يكون لهم السيطرة أو السلطان على المؤمنين(١١٨٥) ؛ وبمكن التسامح بوجه خاص مع اليهود لأن شعائرهم ترمز إلى شعائر الدين المسيحي قبل ظهوره ، فتشهد بذلك على صحة هذا الدين (١١٩٠) . ويجب ألا يُرخم اليهود غير المعمدين على اعتناق الدين المسيحي(١٢٠) ، ولكن الملحدين ــ وهم اللمين تخلوا عن إيمامهم بعقائد الكنيسة _ يجوز إرغامهم دون أن يكون في ذلك حرج على من يرغمهم (١٢١) . ويجب ألا يعد" أى إنسان ملحداً إلا إذا أصرَّ على خطئه بعد أن تبينه له سلطة كهنوتية ؛ والذين يرجعون عن إلجادهم يمكن أن يسمح لمم بالتكفير من ذنهم ، بل يمكن فوق ذلك أن تعاد لهم بحرامتهم الأولى ؛ فإذا عادوا إلى الحادم وجاز أن يسمح لهم بالتكفير عن ذنبهم ، ولكنهم لاينجون من Tلام الموت (۲۲۲) .

٦ - علم السياسة

كتب تومس فى الفلسفة السياسية ثلاث مرات : فى شرحه لكتاب السياسة لأرسطو ، وفى المخلوصة فى العرفوسة ، وفى رسالة قصيرة تسمى : فى حكم الأمراء Do regimine principum ([®]). ويبلو لأراو هلة أن تومس إنما يُعيد أقوال أرسطو ، ولكتنا إذا واصلنا القراءة أدهشتنا كثرة ما فى كتاباته من أفكار أصيلة قاطعة .

فهو يقول إن التنظيم الاجماعي أداة أوجدها الإنسان بدلا من أعضاء الجسم المحصول على مطالبه والدفاع عن نفسه ، وإن الجميع والدولة قد وجدا للفرد ، ولم يوجد الفرد المحجمع والدولة ، وإن السيادة تأتى من عند الله وهي حق الشعب ، ولكن الشعب كثير العدد ، مشت ، متقلب ، جاهل ، وهو لذلك عاجز عن أن يمارس حقوق السيادة بنفسه وبحكة ، ولهذا المؤنه يكل هذه السيادة إلى أمير أو زعيم آخر . وتوكيل الشعب من ينوب عنه على هذه السيادة إلى أمير أو زعيم آخر . وتوكيل الشعب من ينوب عنه على هذا النحو يستطاع إلغاؤه على الدوام ، و « لا يحتفظ الأمير بسلطة التشريع إلا من حيث هو ممثل الإرادة الشعب ١٣٦٣) .

و يمكن أن ينيب الشعب عنه مارسة سيادته عدداً كبيراً من الناس أو عدداً قليلا مهم أو فرداً واحداً . وتصلح اللمقراطية ، والأرستقراطية ، والملكية إذا صلحت القوائن وحسن تشيذها . ويمكن القول يوجه عام إن حر

 ^(•) لم يكتب ثومس من هذه الرسانة إلا الكتاب الأرل والفصول ١ - ٤ من الكتاب التانى . أما يقية الرسالة فقد كتبها بطليموس الموق Photemy of Eneca.

أنواع الحكومات هو الحكومة الملكية الدستورية ، لأنها تمكن الوحدة ، والاستمرار ، والاستقرار . « وحكم الجاهير ، كما يقول هومروس « على يد الفرد خير من حكمهم على أيدى الكثرين ، (۱۳۱۰) . غير أن الأمير أو الملك يجب أن يختاره الشعب من أية طبقة حرة من السكان (۲۲۰)، وإذ استباد الملك وجب خلعه بعمل منظم يقوم به الشعب (۲۲۰) ، ويجب أن يظل على الدوام خادم القانون لاسيده .

والقانون ثلاثة أنواع : قانون طبيعي مثل ٥ القوانين الطبيعية للكون ٤ ٠ وإلمي كالقوانين الواردة في الكتاب المقدس ، وبشرى أو وضعى كالقوانين التي تسمها الدولة . وقد أصبح النوع الثالث منها ضرورياً بسبب ما في طباع الناس من انفعالات ، وبسبب قيام الدولة . ومن أجل هذا كان آباء الكنيسة يعتقدون أن الماكية الفردية تتعارض مع الشريعتين الطبيعية والإلهية ، وأنها نتيجة لنزعة الإنسان في ارتكاب الآثام . ولكن تومس لا يعترف بأن الملُّكية تتعارض مع القوانين الطبيعية ؛ فهو يبحث في حجج الشيوعيين * أيامه ويرد علمهم كما يرد أرسطو بأن إذا كان كل واحد من الناس يملك كل شيء فإن أحداً من الناس لا يعني بأى شيء (١٢٢) . غر أن الملكية الفردية ... في رأيه ... و ديعة عامة ، ، فالإنسان يجب ألا يمتلك الأشياء الخارجية على أنها ملكه الخاص بل على أنها ملك عام ، وبذلك يكون على استعداد لأن ينقلها إلى غيره من الناس إذا ما احتاجوا إليها ع(١٢٨) . وإذا ما اشتهى الإنسان الكثير الزائد من الثروة ، أو سعى إلى أكثر مما يحتاجه منها لحفظ مركزه في الحياة ، كان طامعا أثيها(١٢٩) . ه وكل ما يمتلكه بعض الناس أكثر من حاجبهم إنما يقصه به حسب القانون الطبيعي مساعدة الفقراء ۽ و۽ اِذا لم يوجد علاج آخر فإن من حق الإنسان أن يسد حاجته من ملك غيره ، بالاستيلاء عليه سرآ أوجهرآ ٥٢٠).

ولم يكن تومس الرجل الذي يجعل الاقتصاد علماً مملا غبر شيق بفصله عن

الأخلاق. فكان يومن بحق الجاءة في تنظيم أهمال الزراعة ، والصناعة ، والصناعة ، والتجارة ، والإشراف على الربا ، وبلغ منه أن طالب يتحديد و ثمن عادل ، المخلمات والسلع . وكان ينظر بعن الربية إلى عملية الشراة يُسمن منخفض والبيع بشمن مرتفع . ويندد أشد التنديد بجميع ألواع المشارة في التجارة ، وبكل الحاولات التي تبذل للحصول على الكسب بالمهارة في الاستفادة من تقلبات السوق (٢٢٧) . وكان يعارض في الإقراض يقائدة ، ولكنه لا يرى إثما في الاقراض عرق (٢٢٧)

ولم يكن أرقى من أهل زمانه في نظرته إلى الاسترقاق ، فقد كان الفقهاء السوفسطائبون ، والرواقيون ، والرومان ، يعلمون أن الناس و بطبيعتهم ، أحرار ؛ وكان آباء الكنيسة يوافقون على الرق ويفسرونه كما يفسرون المبلك بأنه ناشى من نزعة الإنسان الآثمة التي كسها نتيجة لسقوط آدم . في الإنسان . وحاول تومس أن يوفق بين هذه الآراء المجارضة : فقال إنه لم يكن ثمة رقى في حالة البراءة ، أما بعد سقوط آدم فقد وجد أن من أم أجسام قوية وعقول ضعيفة قد الحدر المخضاع السلاج للعقلاء ، لأن من لم أجسام قوية وعقول ضعيفة قد أربد لم بمكم الطبيعة أن يكونوا أرقاء (١٦٦) . لكن المعبد ليس ملكا لسيده أربد لم بمكم الطبيعة أن يكونوا أرقاء (١٦٦) . لكن المعبد ليس ملكا لسيده إلا بوحه ؛ وليس العبد مرتجما على قبول الاتصال الجنسي بالسيد ، ويجب أن نتبع قواعد الاتحال المليدية بأجمعها في معاملة العبد .

٧ - الدين

وبدا لتومس أنه ما دامت المسائل الاقتصادية والسياسية فى آخر الأمر مسائل أخلاقية ، فإن من العدل أن يوضع الدين فى مرتبة أعلى من مرتبة السياسة والصناعة ، وأن تخضع الدولة فى مسائل الاخلاق لرقابة الكنيسة وإرشادها وكلا سمت آغراض السفطة لزداد تبلها ، ويجب أن يخضع ملوك الأرض ،
اللذين سدون الناس إلى السحادة الدنيوية ، لسلطان البابا الذي سهدى الناس إلى
السحادة الأبدية . على أنه يجب أن تبنى الدولة صاحبة السلطان في الشتون
الدنيوية ، غير أن من حتى البابا في هذه الشتون نفسها أن يتدخل إذا خالف
الحكام قواهد الأعلاق الصالحة أو تسبيرا في الإضرار بشعومهم إضرراً كان
يستطاع تجنبه . ولهذا فن حتى البابا أن يعاقب الملك المسىء أويعنى رعاياه
من يمن الولاء له ، وفوق هذا ظان من واجب الدولة أن تممى الدين ،

والمهمة العليا للكنيسة أن بهدى الناس إلى سبيل النجاة ؛ وليس الإنسان مواطئ في هذه الدولة الأرضية وحدها ، بل هوفوق ذلك مواطن في مملكة روحية أعظم إلى أبعد حد من أية دولة أخرى. وحقائق التاريخ الكرى تذي أن الإنسان قد ارتكب جرماً لاحد له بعصيان الله ، فاستحق بهذا المعصيان حقاباً لاحد له ، وأن الله الابن قد أصبح إنساناً وقامي العار والمرت ، وأنه قد خاق رصيداً من العركة المنتجية يستطيع الإنسان أن ينجوبه رغم خطيئته الأولى ؛ والقد مهم من يشاء من هذه المركة ما يشاء ؛ وليس في مقدورنا أن تقبن أسباب اختياره ، ولكن ه ما من أحد من إلناس قد بلغ من الجنون حداً يقول معه إن الجدارة هي سبب الاختيار الإلمي (١٥٠٥). وتد دد عقيلة بولس وأوضطن الرهبية في أقوال تومس الرفيق الظريف :

امن الخير أن يسيّر الله الإنسان بقضائه وقد ره، لأن الأشياء جميها خاضعة لمشيئته ... وإذ كان الناس قد هيثوا للحياة السرمدية بمشيئة الله ، فإن من مشيئة الله أيضاً أن يسمح ليضهم أن يعجزوا عن بلوغ هذه الناية ، وهذا هو ما يسمى « الشقاء » . . . وإذ كان قضاء الله وقد رّه يشمل إرادته في أن جب البركة والمجد، فإن الشقاء أيضاً يشمل إرادته فيأن يسمح لشخصما أن يقم في الخطيئة ، وأن يعاقب على تلك الخطيئة بعذاب الجحج . . . 3 اختارتا فيه قبل تأسيس العالم ١٣٦٥ .

ويبدل تومس ما وسعه من جهد ليونق بين قضاء الله وقد ره وبن حرية البشر ، وبن ليم يجب على الإنسان الله قد ره مصره أن يعمل لكسب الفضيلة ، وكيف تستطيع الصلوات أن توثر في الله الذى لا يتغير ولا يتحول ، وماذا يكون عمل الكنيسة في مجتمع قسم أفراده من قبل الى ناجن ومعد ين ؟ وهو يحيب عن هذا بأن كل ما هتائك أن الله قد عرف من قبل ما سوف يختاره كل إنسان بحريته ؟ وهو يفترض أن الوثنين من قبل ما سوف يختاره كل إنسان بحريته ؟ وهو يفترض أن الوثنين شجمهم من المعلمين مع جواز استثناء عدد قليل مهم بعث الله إليهم بوحى شخصى خاص (١٣١٤)

وأعظم ما خاله الناجون من السمادة هو فى رأيه روية الله ؛ وليس معنى هذا أنهم سيفهمون ؛ إذ لا يفهم اللانهائ غير اللانهائى ؛ بيد أن المنعمين بما ينفخ فيهم من النعمة الإلهية سوف يشهدون جوهر الله (١٩٤٨) . وبما أن الخليفة كلها قد نشأت من الله فإنها ستعود إلى الله ، والنفس المبشرية التي هى منحة من كرمه لا تستريح حتى تعود فتنضم إلى مصدرها . وهكذا تتم اللعورة المقدسة دورة الخلق والعودة ، وتحتم فلسفة تومس كما بدأت بالله .

٨ – كيف استقبلت فلسفة تومس ؟

لقد رأت الكثرة الغالبة من معاصريه أنها تكليس فطيع اللاستدلالات الوثنية شديدة الحطر على الدين المسيحى ؛ وصلحت مشاعرَ الرهبان القرنسيس اللين كانوا يسلكون لمعرفة الله طريق الحب العموق اللذى يقول يه أوغسطين

 ^() إن النفرة التي تقول إن كثيراً من النصين في الحقة يزيد تسيمهم بشاهنة عناب المطنين توجد في ملحق كتاب الخلاصة (٩٧) / وليست هذه الفقيرة الهزية من أقوالي قومن بل هي من أقول ربيجتك البيرنون(٩٣٦٥)

و ترحمةً و تومس و المقلبة و ، ورفعه المقل فوق الإرادة ، والفهم فوق الحب . وعجب الكثيرون كيف يمكن الدعاء والصلاة لإله فاتر ، سلبي ، يُعبد كالإله الموصوف في كتاب الخموصة ؟ وكيف يمكن أن يكون عيسى جزماً من هذا المحبى المجرد ؟ ومادا كان يقول القليس فرانسس عن الله أو بأي شيء كان يتحدث إليه ؟ و بدا لم قوله إن الجسم والنفس يكونان وحدة سيقضي على عقيلة خلود النفس وعام فسادها ، وقوله إن المادة والصورة وحددة سيودي ، رغم إنكار تومس المتكرر ، إلى الانحدار إلى نظرية ابن رشله سيحول دون التفرقة بن نفس ونفس ، وينحدر بنا إلى نظرية ابن رشله سيحول دون التفرقة بن نفس ونفس ، وينحدر بنا إلى نظرية ابن رشله ألمائم أنها وخلودها اللاشخصي . وشر من هذا كله أن غلبة أرسطو على أوغسطين في فلسفة تومس قد بدت للرهبان الفرنسيس كأنها . التصار الوثنية على المسيحية . ألا يونجد من الآن في جامعة باريس معلمون وطلاب يرفعون كتب أرسطو فوق الأناجيل ؟

ودافعت للسيحية والسنية ، عن نفسها فى الربع الثالث من القرن الثانى عشر عن فلسفة تومس الأرسطوطيلية ، كما قاوم أهل السنة المسلمون ابن رشد لاعتناقه فلسفة أرسطو ونفوه ، وكما حرق المهود السنيون فى بداية القرن الثالث عشر كتب ابن ميمون لنرحته الأرسطوطيلية . فقد حدث فى عام ١٩٧٧ أن أصدر أسقف باريس بإيماز البايا يوحنا الحادى والعشرين مرسوما باعتبار 1918 قضية منقضايا تومس خروجاعلى الدين . وكان من بين هذه القضايا ثلاث و ينوع خاص ، انهم بها الأخ تومس ، وهى قوله إن الملائكة لا أجسام لها ، وإن كل واحد مهم يكون بمفرده نوعا منفصلا عن ضره ، وإن المادة أسامل وإن كل واحد مهم يكون بمفرده نوعا منفصلا عن ضره ، وإن المادة أسامل وقال المؤمرة ية ، وإن المادة . وقال

الأسقف إن كل من يعتنق هذه العقائد يُحدّ بِمانا العمل وحده عمروما من الدين . وبعد أيام قلائل من صدورهذا المرسوم أفنع ربرت كاواردني Robert المرسوم أفنع ربرت كاواردني Kilwardby أحد كبار الرهبان الدمنيك أساتذة جامعة أكسفورد بأن ينددوا ببعض عقائد تومس ومنها وحدة النفس والجمد في الإنسان .

وكان قد مضى على وفاة تومس في ذلك الوقت ثلاث سنىن ، ولم يكن في وسعه أن يدافع عن نفسه ، ولكن ألبرت أستاذه القدم ، اندفع من كولوبي إلى باريس وأقنع رهبان فرنسا الدمنيك بأن يشدوا أزر زميلهم وأخهم ه ودخل راهب فرنسيسي يدعى وليم ده لا مار William de la Mare في المعركة برسالة سماها : Correctorium fratris Thomae يقول فيها إن تومس على حق في ١١٨ نقطة ، نقام راهب فرنسيسي آخريدعي پوحنا بكهام ، كبر أساقفة كنتربرى يندد رسميا بفلسفة تومس وينادى بالعودة إلى بونا ڤنتورا والقديس فرانسس . وانضم داني إلى المتنازعين فصاغ من فلسفة تومس فلسفة معدلة كانت الإطار العام الذي وضع فيه الحلمهاة الحقدسة ، واختار تومس ليقوده على السلم الموصل إلى أعلى سماء . ودامث الحرب ماثة عام أقنع بعدها الرهبان الدمنيك البابا يوحنا الثانى والعشرين أن تومس من القديسين ، وكان تقديسه (١٣٢٣) انتصاراً لفلسفته . ووجد المتصوفة من ذلك الوقت في كتاب **الخلاصة** (١٤٠٠) أعمق وأوضع عرض للحباة الصوفية الذكرية . ولما عقد مجلس ترنت (١٥٤٥ – ١٥٦٣) وضع كتاب الخموصة على المذبح إلى جانب الكتاب المقسدس وكتاب القوانين الكنسية(١٤١) . وفرض إجناتيوس ليولا Ignatius Loyola على اليسوعيين أن يعلُّمُوا فلسفة تومس ، وقرر البابا ليو الثالث عشر في عام ١٨٧٩ ،

والبابا بندكت الحامس عشر فى عام ١٩٢١ أن تكون موالفات تومس الفلسفة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية ، وإن لم يعلنا أن هذه المؤلفات سليمة من الأخطاء ؛ وهذه الفلسفة تلرس الآن فى جميع كليات الروم الكاثوليك ؛ ولقد كسبت لما أنصاراً جدداً فى وقتنا الحاضر، وإن كان لما نقاد من بين علما اللبن الكاثوليك ، وهى الآن من أفوى أنظمة التفكير الفلسنى تأثيراً وأبقاها على الزمن ، لا تقل فى ذلك عن الأفلاطونية والأرسطوطيلية .

وبعد فإن من السهل على من يقف الآن على كتفي السبعائة العام الأخيرة أن يشير في موالفات أكونوس إلى بعض العناصر التي لم تثبت الأيام صحبًا . وإن بما يعيبه ويشرفه معاً أنه كان كثير الاعتماد على أرسطو ، وبقدر هذا الاعتاد كان يعوزه الابتكار ويظهر من الشجاعة ما أنار السبل للعقول في العصور الوسطى . وعنى تومس بالحصول على تراجم دقيقة الأرسطو منقولة عن اللغة اليونانية مباشرة ، فكان لهذا يجيد معرفة مؤلفاته الفلسفية (لا العلمية) أكثر مما يجيد معرفتها أى مفكر آخر في العصور الوسطى عدا ابن رشد . ولم يكن يستنكف أن يأخذ العلم عن المسلمين واليهود ، ويعامل فلاسفتهم باحترام صادر عن وثوقه بنفسه . وإنا لنجد في نظامه الفلسني قدراً كبراً من السخف والأباطيل التي نجد مثلها في جميع الفلسفات التي لا تتفق مع فلسفتنا ؛ وإن من أعجب الأشياء أن يكتب هذا الرجل المتواضع بمثل ماكتب من الطول عن الطريقة التي يعرف بها الملائكة ما يعرفون ، وعما كان عليه الإنسان قبل سقوطه ، وعما كان يؤول إليه أمر الجنس البشرى لولا رغبة حواء فى المعرفة . ولعلنا نخطئ إذ نفكر فيه على أنه فيلسوف ، فقد كان هو نفسه أمينًا إذ سمى مؤلِّقه كتابًا في علم الدين ، ولم يدع أنه يسبر وراء العقل إلى حيث يقوده ، ويعترف أنه يبدأ بنتائجه ، وهو عمل يسمه معظم الفلاسفة بأنه خيانة للفلسفة وإن كانت كثرتهم تفعله , وقد كان عبال بحثه أوسع مما جرو عابه مفكر بعده عدا اسهنسر ، وكان فى كل ميدان واضحاً هادئ المزاج بعيداً عن المغالاة يبحث عن الطريقة الوسطى المهندلة ، ومن أقواله فى هذا المحلى وأن الرجل الماقل يخان النظام (١٩٢٥) . ولم يفلح فى التوفيق بمن أرسطو والمسيحية ، ولكنه وهو يحاول هذا التوفيق كسب للمقل نصراً موثرزاً سيدوم على مدى الأيام ، فقد قاد العقل أسراً إلى قامة الدين ؛ ولكنه قضى بانتصاره على عصر الإيمان .

الفصلاليابع

خلفاء تومس

يسرف المؤرخ على الدوام فى التبسيط ، ويتعجل فيعمد إلى حشد كبر من الأفس والحوادث لا يستطيع قط أن يلم بها كل الإلمام أو يفهمها كل الأفس ، ويختار من بينها عدداً قليلا من الحقائق والوجوه براها أطوع لقلمه من غيرها . وليس من حقنا أن نظن أن الفلسفة المدرسية معانى عبردة أزيلت منها آلاف الحقائق الغربية ؛ يل طينا أن ننظر إلها على أنها اسم غامض غير دقيق يطلق على مئات الفلسفات المتناقضة والنظريات اللاهوتية التي كانت تعلم فى ممارس العصور الوسطى من أيام أنسلم فى القرن الحادى عشر إلى أيام أكام Occam في القرن الرابع عشر . والمؤرخ بخضع أشد الحضوع وأنقله على نفسه فقصر الوقت ونفاد الصمر اللى هو من طبيعة بي الإنسان ؛ ويخط سطراً واحداً يحط به من قدر رجال خالدوا أسمامه في أحد الأيام ولكنهم اختفوا الآن في طيات التاريخ .

وكان من أعجب الشخصيات في القرن الثائث عشر الملىء بنوى المواهب المتعددة من الرجال رامون لل "Raymond Lully أو رعند لكلي Raymond Lully (و بعد لكلي Raymond Lully (و بعد لكلي Raymond Lully) . وقد ولا في بالما لأسرة قطالية Catalan وشق طريقه للى بلاط چيمس الثانى في برشلونة ، واستمتع بشباب صاحب ، ثم أخذ يضيق لفاق صقفه حي اكتنى بزوج واحدة . ولما يلغ سن الثلاثين نبذ على حين غفلة ملاذ العالم ، والجسم ، والشيطان ، ووهب نشاطه المتعدد النواحي للتصوف وللعارف الخفية ، وحب الإنسانية ، والتبشر بالدين ، والسعى للاستشهاد . ثم ولما المرية ، والمنابق ، وطلب إلى عجلس در الله العالم المورقة ، وطلب إلى عجلس در الله المعارفة ، وطلب إلى عجلس وللما المرية ، وطلب إلى عجلس والما المرية ، والمسابق ، وطلب إلى عجلس المورقة ، وطلب إلى عجلس والما المورية و الموروقة ، وطلب إلى عجلس الموروقة ، وطلب إلى عبلاس الموروقة ، وطلب إلى الموروقة ، وطلب إلى الموروقة ، وطلب الموروقة ، وطلب إلى عبلاس الموروقة ، وطلب إلى المورووقة ، وطلب إلى المورووقة ، وط

فينا أن ينشئ مدارس للغات والآداب الشرقية تعد الناس للبشير بين المسلمين والبهود . واستجاب المجلس لرغبته وأنشأ خمس مدارس من هذا النوع - فى رومة ، وبولونيا ، وباريس ، وأكسفورد ، وسلمنقة - كان فها كرانى للغات الدرية والكلدانية ، والعربية . ولعل للى نفسه تعلم اللغة المعربة لأنه أصبح علما متبحراً فى القبالة .

ويستحيل علينا أن نقسم مؤلفاته البالغ عددها ١٥٠ أصنافا . وحسبنا أن فسجلها هنا فنقول إنه في شبابه أنشأ الأدب القطالي بان كتب عدة مجلدات من الشعر الغزلى ؛ ثم ألف باللغة العربية كتابًا ترجمه فيها بعد إلى اللغة القطالية ٥كتاب التفكير في الله ٥ . وليس هذا الكتاب مجرد حلم صوفي يل هو موسوعة في علوم الدين من ألف ألف كلمة (١٢٧٢) . وبعد عامين من ذلك الوقت ، وكأنما بدل نفسه ، ألَّفكتاباً في حربالفروسية ، وألفّ في الوقت عينه تقريباً كتاباً في التربية سماه و كتاب في عقائد الشباب ، ، ثم جرّب حظه فى الحوار الفلسني ونشر فيه ثلاثة كتب يعرض فمها وجهات النظر الإسلامية ، والمهودية ، والمسيحية اليوفانية ، والمسيحية الرومانية ، والتتارية ، بتسامح ونزاهة ، ورفق ، تثير اللمشة . وألف حوالي عام ١٢٨٣ رواية دينية طويلة سماها بهوتكبرتا Blanquerna حكم الحبراء الذين أوتوا الصبر على قراءتها بأنها 1 من روائع آداب العصور السيحية و(١٤٢) . ثم أصلى في دومة عام ١٢٩٥ موسسوعة أغرى سماها شجرة العلم Arbre de sciencis حوت أربعة آلاف صؤال في ستة عشر علماً مع أجوبة عنها موثوق مها . وحارب أثناء مفَّامه في باريس (١٣٠٩ – ١٣١١) فلسفة ابن رشد التي كانت آ ثارها لا نز ال باقية فها ، وذلك في عدة مؤلفات دينية صغرى وقعها بإمضاء دقيق دقة لم يعتدها وهو Phantasticus و الواهم ۽ وظل خلال حياته الطويلة يصدر مجلدات في العلوم والفلسفة بلغت من الكثرة حداً يصعب معه حصرها . واثنتن في أثناء هذه المشاغل كلها بفكرة اسهوت عقول العباقرة في هذه الأيام — وهي أن جميع قوانين المنطق وعملياته يمكن ردها إلى صور رياضية أو رمزية . فيقول ريمند إن والفن العظيم » — فن المنطق — هو كتابة الملوكات الأساسية للفكر البشرى على مربعات متحركة ، ثم جمع هذه المربعات في أوضاع مختلفة ليس القصد مها رد جميع الأفكار الفلسفية إلى معادلات وأشكال فحسب ، بل بقصد مها كذلك أن تثبت بالمتساويات الرباضية حقائق الدين المسيحى . وكان ريمند يتصف بما يتصف به بعض مرضى المقول من دعة وقطف ، فيأمل أن يرد المسلمين عن ديهم إلى الدين المسيحى يتأثير فنه للقنع . ووحبت الكنيسة مهذه المنقة ، ولكنها لم ترض عما اقترحه من رد جميع أصول الدين إلى العقل ووضع التليث والتجسد على مشرحة منطقة (11)

واعترم فى هام ١٢٩٧ أن يستعيض عن استيلاء المسلمين على فلسطين بتحويل أفريقية الشهالية إلى بلاد مسيحية ، فعبر البحر إلى تونس ، ونظم فها سراً جالية مسيحية صغيرة ، ثم قبض عليه فى عام ١٣٠٧ أثناء رحلة تبشرية إلى تلك البلاد وجبىء به أمام قاضى القضاة . وعقد القاضى مناقشة عنى ريمند وبعض عليه الدين المسلمين . ويقول صاحب سرة ريمند إنه انتصر فها دام من نقاش وإنه ألقى فى السجن ، ولكن بعض التجار المسيحين أفلحوا فى إنقاذه وإعادته إلى أوربا . ويلوح أنه كان يتوق لى الاستشهاد فعمر البحر مرة أخرى إلى بوجى فى عام ١٣١٤ ، وأنتخل يلدو المسيحية عنداً فرحه الفوغاء المسلمون بالحجارة حتى مات (١٣١٥) .

وَإِذَا انتقلنا من ريمند للي إلى چون دنز اسكوتس John Duns Scotus كنا كن ينتقل من **فارس لل كالرفيكورر الصافية الزاج ^(*).** واشتق

⁽ ه) تمثيليتان غنائيتان أو لاها لييزيه والثانية ليلخ . (المترجم)

اسما چون الثانى والثالث من مسقط رأسة فى دنز Duas من أعمال بروكشير Berwick shire (?) ولما بلغ الحادية عشرة من عمره أرسل إلى دير للرهبان الفرنسيس فى دنفريز Dunfries ، وانضم إلى طائفة الرهبان رسمياً بعد أربع صنعن من دخول اللمير . وتلقى العلم فى جامعي أكسفورد و باريس ثم علم أكسفورد ، وباريس ثم علم عراق الحمق و وراء عدداً جماً من المؤلفات معظمها فيا وراء الطبيعة تمتاز كلها بالنموض والحفاء بدوجة يند أن تظهر مرة أخرى فى الفلمة إلاإذا ظهر اسكوتس جديد . والحق أن عمل دنز اسكوتس ليشبه فى الفلمة الإإذا ظهر اسكوتس جديد . والحق أن عمل دنز اسكوتس ليشبه إلى حد كبير عمل كانت الذى جاء بعده بحمسة قرون — فهو يقول إن المقائد إلى بياسكها المنطق _ ورضى الرهبان الفرنسيس أن يتبلوا الفلسفة لينقلوا أوضطان من تومس الدمنيكي فاتحلوا دكتورهم الشاب يقلالهم ونصراً ، واطور تحت لوائه ، في حياته وبعد مجاته ، طوال عدة أجيال من الحرب الفلسفية .

وكان دنز هذا ذا عقل من أشد العقول توقداً وذكاء في تاريخ العصور الوسطى . فقد در سراار ياضة وغيرها من العلوم، وتأثر في أكسفور د بجروستسي وروچربيكين ، فتكونت لديه فكرة صارمة عما يجب أن يكون البرهان الصحيح ، وطبق هذا الاختبار على فلسفة تومس فقضى بللك على بهوره في اقتران الدين والفلسفة ، و لما يكد هذا الاقتران يتم شهر العسل . وكان دنزيفهم الطربقة الاستتراثية في المنطق ولكنه كان يقول عكس ما يقوله فرانسس بيكن بالضبط ، وهو أن كل استقراء ، أي برهان سمن النتيجة إلى الله ... برهان غير موثرق به ، وإن البرهان الحقيق الوحيد هو البرهان الاستنتاجي أي إظهار أن ناتج معينة لا بد أن تحدث من طبيعة العلة ذاتها . مثال هذا أننا إذا أردنه أن نبيت وجود الله فإن علينا أن ندرس أولا علم ما وراء الطبيعة ... أي أن

تشرس ﴿ الْكَاثِنَ يُوصِفُهُ كَائِنًا ۗ ﴾ ثم نصل عن طريق المنطق الدقيق إلى ﴿ الصفات الجوهرية للمللم . وفي عالم الجواهر لابد أن يكون هناك جوهرهو مصدركل ما عداه منها وهو السلائن الرُّول ؛ وهذا الكانن الأول هو الله . ويتفق دنز مع تومس فى أن الله هو الحقية الخالصة ولكنه لايفهم تلك العبارة على أنها الواقعية الخالصة بل يفهم منها أنها الفاعلية الخالصة . فالله هو أولا إرادة لاعقل ، وهو علة ألعلل جيعها ، وهو أزلى ، ولكن هذا هو كل ١٥ نستطيع أن نعرفه عنه بطريق العقل . أما أنه إله الرحمة ، وأنه ثلاثة في واحد ، وأنه خلق العالم فى وقت ، وأنه يسيطر على جميع الأشياء بقدرته — هذه وجميع عقائد الدين المسيحي كلها تقريباً يجب أن نؤمن سا أى أن نصدقها اعتماداً على الكتب المقدسة والكنيسة واكنا لا نستطيع إثبائها بالفعل. والحق أننا في الساعة التي نبدأ فيها باستخدام العقل في إثبات وجود الله نقم في متناقضات تحبرنا (وهي التي يسمها كانت ومتناقضات العقل الخالص). وإذ كان الله قادراً على كل شيء ، فهو علة كل النقائص ، ومنها كل الشرور ؛ وإذن تكون العلل الثانوية ومنها الإرادة البشرية ، وهماً لاحقيقة ولكى نتلانى هلمه النتائج الحدامة ، ولما كانت العقيدة الدينية لازمة للحياة الأخلاقية (وهو ما يسميه كانت: العقل العملي ؛) فإن من الحكمة ألا نلجأ إلى فلسفة تومس التي تحاول أن تثبت الدِّين بالفلسفة ، وأن نقبل عقائد الدين بالرجوع إلى الكتاب المقدس وإلى الكنيسة(١٤٥) . وليس في مقدورنا أن نعرف الله ولكننا قادرون على أن نحبه ، وهذا الحب خبر من المرقة(١٤٦) .

ودنز في علم النفس و واقعي ۽ من الطراز الدقيق الخاص به : فالكليات عنده حقيقة موضـــوعية بمغي أن تلك المظاهر الموحدة التي يجردها المقل من الأجسام المائلة ليكون منها فكرة عامةً ، لابد أنتكون موجودة في الأجسام ، وإلالما استطعنا أن ندركها ونجردها . وهريقتي مع تومس في أن جميع المعرفة الطبيعية مستمدة من الحواس ، أما فيا عدا هذا فإنه يخالفه في جميع آرائه الفلسفية . فهو يقول إن أساس الانفرادية ليس هو المادة بل الممورة ، والصورة بمعناها الضيق الدقيق الذي نستطيع أن نقول عها و هسله ، haecceitas — أي الصفات الخاصة والمعلامات المديزة الشخص أو الشيء الفردي . وليست مواهب النفس مجيزة بعضها عن بعض ، وليست من المنس الأساسية هي الفهم بل هي الإرادة ، فالإرادة هي التي تعين الإحساس أو القصد الذي يجب أن يتجه إليه المقل ، والإرادة عميما المنافق بعد الاستمار والإرادة المحالمة بيت خلود النفس ، أن قول مبالغ فيه لأنه يمكن تطبيقه على كل حيوان في الحقول ، وليس في مقدورنا أن نثبت الخلود الشخصي ، بل علينا أن نومن به لا أكثر .

وكان في وسم الرهبان الدمنيك أن يروا في دنر انتصار القلسفة الغربية على الفلسفة الإسلامية ، كاكان الرهبان الفرنسيس يدعون أنهم يرون في تومس انتصار أرسطو على الأناجيل ، ففلسفة ما وراء الطبيعة عنده هي فلسفة ابن رشد ، وفلسفة شرائم الكون هي فلسفة ابن جبرول ، ولكن الحقيقة الأساسية اللماعية إلى الأمي في اسكوتس هي تخليه عن عاولته في هذه المسألة إلى أبعد من هذا ؛ وأخرجوا عقائد الدين واحدة بعد واحدة في هذه المسألة إلى أبعد من هذا ؛ وأخرجوا عقائد الدين واحدة بعد واحدة من ميدان العقل ، وضاعفوا بذلك ما وضعه من القروق والمعزات الدقيقة والسوفسطائي : البليد والغي إنجلرا يعني الأبله المولع بالتقسم الشمري ، والسوفسطائي : البليد والغي ? . وأنى الذين يجون الفلسفة أن يخضعوا لعلماء اللاموت الذين لنبؤوا الفلسفة وننازعت الدراستان وافترقنا ؛ وأدى رفض الدين للعقل إلى رفض العقل للدين ، وانتهت بذلك المظامرة ، الجورية الكيري التي قامت في عصر الإيمان .

⁽ و) dunce و الذيل مشتق من اسمه dunce (و المترحم)

ويعد ققد كاتت القلسفة المدرسية مأساة يونانية تكن في جوهرها الأسباب التي قضت عليها . ذلك أن في محاولها إثبات الدين عن طريق العمل اعترافا ضمنيا بسلطان العمل ، وأن اعتراف دنر اسكوتس وغيره بأن الدين لا يمكن إلباته بالعمل قد حطم الفلسفة المدرسية ، وأضعف الدين في القرن الرابع عشر إضعافا أدى إلى نشوب الثورة على طول جهة المقائد المكنسية . لقد كانت فلسفة أرسطو هدية يونانية المسيحية اللاتينية ، وكانت أشبه بجواد طروادة يختى في باطئه ألف عنصر من العناصر المعادية لمذا الدين . ولم تكن هذه البلور التي نيت مها الهضة والاستنارة وهي انتقام الوثنية ه من المسيحية فحسب ، بل كانت فوق ذلك انتقام للإسلام على غير علم منه . فقد غزت المسيحية يلاد فلسطن ، وأخرجت المسلمين من غير علم منه . فقد غزت المسيحية يلاد فلسطن ، وأخرجت المسلمين من أسهانيا كلها تفريبا فنقلوا علومهم وفلسفتهم إلى أوربا الفربية ، وكانت أسهانيا وابن رشد ، كاكان أرسطو ، هما اللذين بيناً جرائم النزعة وكان ابن سينا وابن رشد ، كاكان أرسطو ، هما اللذين بيناً جرائم النزعة العلمة في أوربا المسيحية .

ولكن مهما يكن من عيوب المنامرة المدرسية فإن شيئا مها لا يمكن أن يعشى لألاءها الساطع . لقد كانت مغامرة جريئة مشهورة جرأة الشباب وتهوره ؛ وكان لها ما للشباب من إفراط في الثقة وإسراف في الحلل ؛ وكانت صوت أوربا الجديدة الناقهة التي كشفت من جديد قوة العقل المنزة . ولقد استمتعت القلسفة المدرسية في خلال القرنين اللذين محت فهما إلى عليائها بحرية في البحث ، والتفكير ، والتعليم ، لا نكاد بحد ما يفوقها في جامعات أوربا في هلم الأيام ؛ وذلك على الرغم من مجالم التفييش ؛ واستطاعت بمعونة فقهاء القانون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أن تشجد عقول الغيين عاصاعته من أدوات المنطق ومصطلحاته ، وبالاستدلال المدين

المتن الذي لا يفوقه في الفلسفة الوثنية شيء. وما من شك في أن هذه السهولة في الحدل قد أسرف فها إسرافا كبراً ، وأنها ولدت الجدل المقمم بالحشو ولمغو الكلام و والتفتيت الملدرسي ، الذي لم يثر عليه روچر ببكن وفر انسس بيكن وحدهما ، بل ثارت عليه أيضاً العصور الوسطى نفسها (**) ومع هذا فإن كفة الخبر في هذا المراث ترجع كفة الشر . ذلك أن و المنطق ، ومم الأخلاق ، وما وراء الطبيعة ، على حد قول كندورسيه Condorce و مدينة للفلسفة المدرسية بما فيها من دقة لا يعرفها الأقلمون أنفسهم ، ، كما يقول صبر ولم همنتن إن و اللفات العامية مدينة للفلسفة المدرسية بما فيها من إحكام ودقة تحليلية ، (**) ، وإن أكثر ما في المقل الفرنسي من صفات خاصة ينفر دبها عما عداه ـ وهي حبه المنطق ، ووضوحه ، ودقته ـ قد كونه المنطق أيام عجده في مدارس فرنسا أثناء المصور الوسطى .

وكات الفلسة المدرسية في الترنن الثانى عشر والثالث عشر تقلما ثوريا في التفكير البشرى أو في إعادته إلى سابق عهده . ذلك أن التفكير و الحديث و يبدأ برزعة أبلار المقلبة ، ويسمو إلى ذروته الأولى في وضوح تومس أكوناس ومفامرته ، ويصاب مزيمة موقعة على يد دنز اسكوتس ، يغيق مها على يد أكم ، ويستحوذ على البابوية حين يفضع ليوالعاشر لسلطاته ، وعلى المسيحية حين يقبض على إرزمس Erasmus ، ويضحك بأعلى صوته في ربليه ، ويبتسم في منتانى ، ويصحب في قالتر ، وينتصر متهكما في هيوم ، ويجزن على ما فاته من نصر في أناطول فر انس . و لقد كان الاندفاع وراء العقل في العصور الوسطى هوالذي في أناطول فر انس . و لقد كان الاندفاع وراء العقل في العصور الوسطى هوالذي

⁽ و) عدانا جرالدس كبرنسس Olrakdus Cambremsin عن شاب تفی خس سنین پدر س الفلسفة فی باریس عل ثفقة آیبه الذی لم یكن موفور المال ، فلیا عاد آثیت (ایبه بمناقه القامی الصارم أن ست بیضات موضوعة عل المائدة كانت المثلی عشرة بیضة ، فلا كان من الاب إلا أن آكل المیشات الست التي كان في وسعه أن يراما وترك الأخرى لوله، (۱۹۵۸).

الباباليتابع والثلاثون العلوم المسيحية

الفضيلُ الأولُ البيئة السحرية

كان الرومان في أوج مجدهم الإمر اطوري يقدرون العلوم التطبيقية و ولكم كادوا ينسون علوم اليونان البحتة . وإنا لنجد منذ العهد القدم في كتاب التاريخ الطبيعي تأليف بلني الأكر خرافات يظها الناس من احتراع المصور الوسطى ، ولا تكاد تحلومها صيفتان من ذلك الكتاب . ولقد تآزرت قلة عناية الرومان والمسيحين بالملوم حي كادت تجدب الميلاد مها قبل أن يغزوها المرابرة في أوربا من حلوم اليونان في مكتبات التسطيطينية ، وحتى هذا القليل الباقى أوربا من حلوم اليونان في مكتبات التسطيطينية ، وحتى هذا القليل الباقى امتدت إليه يد التدمير حين مبت المدينة في عام ١٣٠٤ . وهاجرت علوم اليونان في القرن الناسع إلى بلاد المسلمين عن طرق الشام ، و مبت أفكارهم فقامت في بلادهم مضة ثقافية من أعظم البضات وأكثرها إثارة للدهشة في التاريخ كله ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه أوربا المسيحية تجاهد للخروج من ظلمات الخرافات والهمجية .

وكان لا يد العلوم والفلسفة في العصور الوسطى أن ينمو غرسهما في جو من

الأساطير ، والحرافات ، والمعجزات ، والفال ، والطيرة ، والعفاريت ، والمولات ، والسحر ، والتنجيم ، والتغيّر بالغيب ، وهي المقائد التي لاتنتشر إلا في عصور الفوضي والحوف . كل هذه كانت توجد في العالم الوثني ، ولا تزال توجد في هذه الأيام ، ولكنها ينفف من حدتها فكاهة لملدنة والعقول المستنبرة . وكانت ذات سلطان قرى عند الأقوام الساميين ، وأضحت لها الغلبة بعد أيام ابن رشد وابن ميمون ، وحطمت فيا بن القرن السادس والقون الحادى عشر أسوار الثقافة في غرفي أوربا ، ومجرت عقول الناس في المعصور الوسطى في بحر زاخر من الآراء الغامضة الحفية والسلاجة التي تصدق كل الوسطى في بحر زاخر من الآراء الغامضة الحفية والسلاجة التي تصدق كل ما يقال مهما كان بعيداً عن المعقول ، وحسينا أن نذكر مثلالذلك أن أوضعطن كان يعتقد أن المة الوثنين لا تزال ، وجودة في صورة عفاريت ، وأن جن الحراج وجنيا بها حقيقة (ال . كا كان أبلاريظن أن الشياطين تستطيم أن تقوم بأعمال السحر لمعرفها الوثيقة بأسرار الطبيعة (الله كان أفلسو الحكيف يومن بالسحر ويقبل النوات عن طريق النجوم (٢٠) ؛ وإذ كان هذا هر اعتقاد أولئك الرجال فكيف يشك فيه من هم أقل مهم شأنا ؟

وتسربت طائفة كبرة من الكائنات الخفية غير الطبيعية من الوثنية إلى المسيحية ، وكانت في الوقت الذي تتحدث عنه لانزال تنسرب إليها من ألمانيا واسكند بناوة وأبر لندة في صورة ستحرة ، وجن ، ومردة ، وجنيات ، وأغوال وهولات عجيبة ، وشياطين وعفاريت تمتص الدماء . وظلت خوافات جديدة تنخل أوربا من بلاد الشرق ؛ فكان الأمرات يمشون في الهواء في صورة أشباح ، وكان الحلائق الذين باعوا أنفسهم الشيطان يجوسون خلال الذيات والحقول كما كانت تجوس خلالها الذاب ، وكانت أرواح الأطفال الذين ماتوا قبل أن يعملوا تنفي المستقمات المفيء ؛ ولما أنرائي المقديس إدمند رتش St. Emund Rich من الغربان البود أورك من

فوره أنها سرب من الشياطين جاءت لتحمل روح غراب فى تلك المنطقة (1) . وكانت كثير من قصص العصور الوسطى تقول إنه إذا أخرج شيطان من جسم رجل ، فإن فى مقدور من حوله أن يروا ذبابة كبيرة سوداء تخرج من فهد(٥) . وكانت دنيا الشياطين لا يعتربها الضعف مطلقاً .

وكانت مثات الأشياء ـــكالأعشاب ، والحجارة ، والنمائم ، والأقراط ، والجواهر - تلبس لكي تود بقوتها السحرية الشياطين وتأتي للابسها بالحظ . الطيب , وكان حذاء اللغرص مجلبة للحظ الطيب لأنه على شكل الهلال ، الذي كان فىوقت،ما لِلْمَة معبودة ، وكان الملاحون الذين هم تحت رحمة العناصر الطبيعية ، والفلاحون الذين تتحكم فهم تقلبات الأرض والسهاء ، يرون خوارق الطبيعة أينًا ساروا ، ويعيشون في جو من الحرافات والأوهام . وانتقل الاعتقاد بأن لبعض الأعداد قوى سحرية من فيثاغورس عن طريق الآباء المسيحين : فكان رقم ٣ وهو ع**دد الثالوث** المقدس أكثر الأعداد قداسة ، وكان يرمز إلى النفس البشرية ؛ وكان الرقم ؛ يمثل الحسم ؛ ورقم ٧ وهومجموع الرقمين برمز إلى الإنسان الكامل ، ومن ثم كانت فضائل الرقم ٧ – سبعة أعماو الإنسان ، والكواكب السبعة ، والسبع الفضائل الرئيسية ، والخطايا السبع المهلكة . وكانت عطسة في غير الوقت المناسب نذير سوء ، وكان من الحمر أن يتنى شرَّها بعبارة و يرحمك للله ؛ ، كلما حدثت . وكان مزيج من الدواء يعطى لتوليد اللب أو القضاء عليه ؛ وكان منع الحمثل ببصق ثلات مراث في فم ضفدعة ، أو إمساك حصاة من حجر البشب باليد أثناء الجاع^{CO} . وكان أجوبار Agobard المستنعر كبعر أساقفة لبون Lyons فى القرن التاسع عشر بشكو من أن المسيحيين يومنون لهذه السخافات التي لم بكن يستطيع الإنسان قبل ذلك الوقت أن يحمل الكامرة على تصديقها (٧) ، .

وقاومت الكنيسة وثنية هذه الحرافات ، ونددت بكثير من للمتقدات

وأعمال الشعوذة ، وعاقبت مرتكبها بضروب من الكفارات متلمرجة في صرامها ، فكانت تندد بالسحر الأسود -- الالتجاء إلى العفاريت لئيل السلطان على الحوادث -- ، ولكن هلما الضرب من السحر كان واسع الانتشار في ألف مكان ختى . وكان الذين يمارسونه يوزعون سرأ كتاب اللغنة المحتوى على أسماء العفاريت الكرى ومساكها ، وقواها الخاصة (٨٠). وكان كل إنسان تقربا يومن ببعض الوسائل السحريه الى تحول مقدرة الكائنات فوق الطبيعة إلى غايات عبوية . وهاهو ذا يوحنا للسلز برى عمدان الكائنات فوق الطبيعة إلى غايات عبوية . وهاهو ذا يوحنا للسلز برى وكان أبسط أنواع السحر ما يملث بتلاوة الرقية وهي عبارة تتل حدة مرات في المادة ؛ وبها يمكن اتقاء شر ، وشفاء من مرض ؛ وإبعاد علومن الطريق . وأكبر الظن أن معظم المسيحين كانوا يعد ون علامة المعليب ، والصلاة الربانية ، والسلام عليك يا مريم Ave Maria ويسحون المسعوية ، والسلام عليك يا مريم Ave Maria ويشعون المسعوية .

وكاد الاعتماد بوجود النساء الساحرات يكون عاما في ذلك للوقت ، فهاهو ذا كتاب التوبة الذي وضعه أبقف إكسر Exter يسلد باللساء الملائي يدعين القلوة على تبنيل عقول الرجال بضروب السحر ، كتبديل الكره حبُّبًا ، والحب كُرها ، أو « سحر بضائع الناس وسرتجها » ، أو « يدعين القلوة على أن يركن في بعض الليالي على ظهرر بعض اللواب مع حشد من العفاريت في صورة النساء ، وعلى أن ينضمن إلى تلك الجماعات ، (17 مورة النساء ، وعلى أن ينضمن إلى تلك في القرن الرابع عشر . وكان من ضروب سحر النساء السيلة صنع صورة من الشمع للضحية المقصودة ، وإنفاذ الإبر فها ، وتلاوة صبغ من اللعنات علمها ؛ وقد اتهم وزير من وزراء فليب الرابع بأنه استأجر ماحرة لتقعل هله يصورة الملك . وكان من المتقدات المناشرة أن يعضى النساء يستطمن أن

يؤذين أو يقتلن ينظرة من « صونهن الحاسلة » . وكان برثولد الرچار برجي Berthold of Regenesburg يظن أن سيلتي في الجسيم من النساء أكثر عمن صيلتي يميها من الرجال الأن كثيرات من النساء يمارسن فنون السحر ـــ فلديهن و رُقُّ للحصول على الزواج ، ورق الزواج ، ورقى قبل مولد الطفل ، ورثى قبل التعميد ... ومن حجب أن الرجال لا يفقدون عقولم بسبب فنون السحر الرهبية التي تمارسها النساء عليهن و(١١) . وكانت قوانين القوط الغربيين ا تهم النساء باستحضار العقاريت، وبتقريب القرابن للشياطين ، وبإثارة العواصف وما إلى ذلك ، وتأمر بأن تحلق رئوس من ثثبت عليهن هسلم الحراثم ، وجلدهن ماثني جلدة (١٧٦) . وكانت قوانين كانوت Caut في انجلترا تعترف بأن من المستطاع قتل إنسان بالسحر . وكانت الكنيسة في بادئ الأمر صهلة مع أصماب هذه العقائد الشعبية ، ترى فها بقايا وثنية لن تلبث أنه تزول ولكن اللي حدث كان عكس هذا ، فقد أخلت تزيد وتنتشر ؛ حتى إذا كان عام ١٢٩٨ شنت عُكمة التفتيش حملة قوية بغية القضاء على السحر يحرق الساحرات علتًا . ذلك أن الكثيرين من رجال الدين كانوا يعتقلمون مخلصين أن من النساء من كن على صلة بالمفاريت ، وأن من الواجب أن يممى المؤمنون من رقاهن السحرية . ويؤكد لنا قيصربوس الهسترياخي Caesarius of Heisterbach أن كثيرين من الرجال في أيامه يتخالفون مع الشياطان(٧٣) ، ويقال إن من يمارسونُ السحر الأسودُكانوا يحتقرون الكنيسةُ ويسخرون من شعائرها بأن يعبدوا الشيطان بقداس أسود(١٤). وكان كثيرون من المرضى وضعاف النفوس يعتقدون أنهم قد ليسهم العقاريت ، ولربما كان القصد من الأدعية ، والصيغ ، والاحتفالات التي تتلي أو تقام لإخراج هذه العفاريت والتي تستخدمها الكنيسة لهذا الغرض ، أن تنخذ علاجا مُسالياً لُمِدنة عقول الخرّفان.

وكان الطب في العصور الوسطى إلى حد ما فرعاً من اللاهوت والشعائر

الدينية ؛ فقد كان أوغسطين يظن أن أمراض الآدمين تسبها العفاريت ، ووافقه لوثر على ظنه هذا ؛ وبدا من ثم أن علاج الأمراض بالصلوات، وعلاج الأوبئة بالمواكب الدينية وإقامة الكنائس ، أمر يتفق مع المنطق السلم . ومن أجل هذا بنيت كنيسة سانتا ماريا دلاسالوتي Santa Matia della Salute فى البندنمية لمقاومة طاعون ؛ وقد شفيت تلك المدينة – على حد قولهم – من وباء الزحار بفضل الصلوات التي أقامها القديس چربولد Gerbold أسقف بايو Bayeux(١٥٠). وكان الأطباء الصادقون يرحبون بما يسديه الإيمان بالدين من عون لِنجاح وسائل العلاج ، فكانوا يوصون بإقامة الصلوات ، ولبس القائم(١١٠) ؛ ولهذا نجد منذ عهد إدورد المعترف لا بعد الحكام الإنجلىز يباركون الحواتم لعلاج الجلمام(١٧) . وكانِ الملوكِ الذين نالوا القداسة بلمس المخلفات الدينية يشعرون أن فى مقدورهم علاج المرضى بوضع أيديهم علمهم ؛ وكان يظن أن المصابين بالنباء الحنازيري يستجيبون أكثر من غ هم الممس الملوك ؛ ولهذا سمى هذا المرض « داء الملك King's evil . . ومَا أَكُرُ مَا تَحْمَلُ القديسُ لويسَ مِن العناءُ الطويلُ في مس المصابين عهذا الداء ، ويقال إن فليب قالوا « مس » ألفاً و حسماتة من الأشخاص في جلسة واحدة (١٨) .

وكان ثمة وسائل سحرية للمعرفة والصحة جيماً ، فقد انتشرت في العصور الوسطى كلها معظم الوسائل الوثنية التي كانت تتبع التغير بالغيب أو روية الفائين على الرغم من تنديد الكنيسة بهذه الوسائل ؛ مثال ذلك أن تومس أبكت Thomas à Becket أراد أن يسدى النصح إلى همرى الثاني في مشروعه لفزو بريطاني فاستشار لذلك عرافاً برجر الطير ومراقبة طيرانها ، وقارئ كف عرف مصير الحملة بدراسة خطوط يده (١٠) . ويتدلون على صدق السحر بآية من سفر الحموج (الآية الثامنة عشرة من الأصحاح على صدق السحر بآية من سفر الحروج (الآية الثامنة عشرة من الأصحاح الثاني والمشرين) التي تقول : لا تدع ساحرة تعيش .

وكان غير هؤلاء من المتثبتان يحاولون معرفة النيب بمراقبة حركات الرياح ، أو المياه ، أو الدخان المتصاعد من ناز . وكان بعضهم يعلمون مواضع خبط عشواء على الأرض (أو أية مادة من مواد الكتابة) ويصلون هذه النقط بخطوط، ويتنبئون بحظ السائل بالنظر في الأشكال الهندسية التي تحدث مهذه الطريقة . ويقال إن بعضهم كانوا يتقبئون بالمستقبل باستحضار أرواح الموتى؛ من ذلك أن ألمر تس جرو تس Albertus Orotus استحضر – على حد قولم — روح زوجة الإمر اطور فر دريك بربرسا بناء على طلبه (٢٠). ومهم من كان يستشير كتب التنبؤ بالغيب ، كالكتب التي يقال إنها تحتوى على نبوءات السيبلات Sibyls أو مرلن Merlia أو سلمان . ومنهم من كان يفتح الكتاب المقدس أو الإنباذة في غير موضع معين ، ويتنبأ بالمستقبل بقراءة الآبة أوبيت الشعر الذي نقع أعينهم عليه . وكان أكثر المؤرخين جداً ووقاراً في العصور الوسطى يجدون - كما وجد ليقي- أن الحو ادث ذات اليال قد عرفت قبل وقوعها إما مباشرة أو رمز أ ، بالتلر ، أو الروى ، أو النبوءات ، أو الأحلام . وكانت توجد أكداس من الكتب - ككتاب آرنلد الڤلانوڤ Arnold Villanova -تعرض أحدث التفسيرات العلمية للأحلام _ ولم تكن هذه التفسيرات أكثر سخمًا مَمَا كتبه أشهر العلماء في القرن العشرين . وكان الناس في الزمن القديم يمارسون الأساليب المتيعة للتنبؤ أو الجلاء البصرى كلها تقريباً كما يمارسونها في هذه الأيام.

غير أن زماننا الحاضر ، على الرغم مما بذل فيه من بعض الجهود ، لم يبلغ ما بلغه عصر الإيمان — فى الإسلام أو البهودية أو المسيحية – من اعتقاد بأن المستقبل مكتوب فى النجوم كتابة لايستطاع حل رموزها^(٣) . فإذا كان مناخ الارض – على حد قوله — ونمو النبات يتأثر ان تأثراً واضحاً بالأجرام السياوية ،

 ⁽ ه) - لعل الكاتب يريد أن يعض المسلمين كانوا يعتقدون أن المستقبل مدون في النجوم وربما كان هذا سميماً ولكن الدين الإسلام نفسه لا يشير جذًا لا تصريحاً ولا تلميماً. (المرحم)

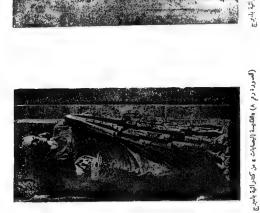
فكيف لاتوائر هذه الأجرام ، في أحوال الناس والدول ، بل كيف لا محذد هذه الأحوال تحديداً فتسيطر على نموهم ، وطبيعتهم ، وأمراضهم ، ومراحل حياتهم ، وخصوبتهم ، وما يفشو بينهم من أوبثة ، وما يقع لهم من أحداث وثورات، وتقرر مصيرهم ؟ هذا ما كان راسخًا فى عقل كُل إنسان تقريبًا فى العصور الوسطى . وقلما كان بخلو بيت ملك أو أمر من منجم محرف. وكان الأطباء يمجمون مرضاهم ، كما لا يزال كثير من الفلاحن يبذرون حبهم ، حسب أوجه القمر ؛ وكانت معظم الجامعات تدرس مناهج فىالتنجيم ، ويقصدون به وعلم النجوم » ؛ وكان علم الفلك نفسه جزءاً من التنجيم ، وكان من أكبر أسباب تقدمه اهتمام الناس بالتنجيم وأغراضه . وكان العلماء الجادرن يقررون أنهم وجلوا علاقات ثابتة منتظمة يمكن التنبؤ بنتائجها بين الأجرام السهاوية والأرض ؛ فالذين يولدون وزحل في أوجه بكونون باردى المزاج ، نكدين ، منقبضي الصدور ، والذين يولدون والمشرى فى أوجه يكونون معتدلى المزاج مرحن ؛ ومن يولدون تحت تأثير المريخ يكونون ملهيي المزاح ذوى نزعة عسكرية ؛ ومن يولدون تحت تأثير الزهرة يتصفون بالرقة وكثرة النسل ؛ ومن يولدون تحت تأثير عطارد يصبرون خلالق متقلبين لا يثبتون على حال ؛ ومن يولدون والقمر في كبد السهاء يكونون سوداويين قد تصل حالهم إلى حد الجنون . وكانت قراءة طالع المولود تنبي عيامًا كلها بالنظر إلى البرج الموجود وقت مولده . ولهذا فإن من يريد معرفة الطالع الصحيح لشخص ما يجب عليه أن ينظر إلى الساعة وبعرف بالدقة اللحظة التي ولد فيا ، وموضع النجوم بغاية الدقة والتحديد. ومن ثم كانت أهم الأغراض التي وضعت من أجلها الأزياح الفلكية هي المساعدة على معرفة هذه الطوالع .

وتبرز فى تلك الآيام أسماء المتبحرين فى هذه العلوم الحفية ؛ من هؤلاء بطرس الأبنووى. Peter of Abano الذي كان ينزل بالفلسفة فيجعلها تنجيأ . وكان الآرنلد الثلاثوثى الطبيب الشهير ولع بالسحر ؛ وكان سكوداسكولى (۱۲۵۷) Cecco d'Ascoli مدرس التنجم في چامعة بولونيا يفخر بأنه يستطيع قراءة أفكار أي إنسان ، أو يعرف ما يخبؤه في يده إذا عرف تاريخ مُولده . وأراد أن يشرح آراءه هذه فعمل غلى كشف طالع المسبح ، وأثبت أن العرج اللي كان في التهاء ساعة مولده قد جعل صَلَّبُه أَمَرًا محتومًا . وأدانته محكمة التفتيش (١٣٢٤) ، وأرغم على إنكار دعواه ، وعنى عنه على شريطة أن يلزم الصمت ، وخرج إلى فلورنس ، ومارس التنجم لعدد من العملاء ، ثم حرق علنًا لأنه أنكَّر حرية الإرادة (١٣٢٧) . وأنهم كثيرون من العلماء المحلصين لعلمهم – ومنهم قسطنطين الأفريقي ، وجربرت ، وأثبرتس مجنس ، وروچر بيكن ، وفنسنت البوڤيسي Vincent of Beauvais ــ بالسحر وبالاتصال بالشياطين لأن الناس م يكونوا بصدقون أنهم جصلوا على علمهم بالوسائل الطبيعية . وكان مُيخاتيل اسكت هدفاً تاريبة الأنه كتب رسائل ذائعة الصيت عن العلوم الحفية ، منها كتاب في التنجم ، وكتاب في العلاقة بين الصفات الحلقية وصفات الجسم ، وكتابين في الكيمياء الكاذبة . وكان ميخائيل يندد بالسحر ، ولكنه يسره أن يكتب عنه ، وقد ذكر ثماني وعشرين طريقة للتنبؤ بالغيب ، ويبدو أنه كان يؤمن بها كالها(٢١) . وكان كمعظم معاصريه دقيق الملاحظة ؛ يجرى بعض التجارب ؛ ولكنه يقول إن حمل حجر اليشب أو الياقوت الأصفر يساعد الرجل على الامتناع عن الجاع (٢٢٧ . وقد بلغ من مهازته أن ظلُّ حسن الصلة بفردريك الثانى والبابابوات ، ولكن دانتي المهلب الذي لا يقبل شفاعة جعل مثواه الجمعيم .

وكانت الكنيسة وعمكة التفتيش جزءاً من البيئة ألهيطة بالعلوم الأوربية فى القرن الثالث عشر . وكانت الحامعات تعمل فى الأغلب الأمم تحت سلطان الكنيسة ورقابتها . بيد أن الكنيسة كانت تترك للأسائلة قدراً كبيراً من حرية العقيلة ، وكانت فى كثير من الأحوال تشجع طلب العلم . من ذلك أن

ولم الأوڤرني أستقف باريس (المتوفي عام ١٣٤٩) ، كان يتاصر البحث العلمي ، ويسخر من الذين يتسرعون فعرون في كل حادثة غير فألوقة عملاً من أعمال الله مباشرة . وقد برع جروستسي أسقف لنكلن في دراسة العلوم الرياضية ، والبصريات، وفي العلوم التجريبية ، براعة جعلت روجر پيكن ؛ يضعه * مَدْلَة أرسطو. ولسنا نعرف أن طائقتي الرهبان اللمنيك أو الفرنسيس قد أثارتا اعتراضاً على الدراسات العلمية التي قام بها ألمرتس مجنس أوروچر بيكن ؛ أما القديس برنار وبعض المتحسسن المُتَرْمَتين فكانوا يعارضون في طلب العلم ؛ ولكن الكنيسة لم تأخذ برأمهم هذا(٢٣) ؛ وكانت ترى أن من الصعب عليها أن ترضى بتشريح جثث الآدمين لأن من عقائدها الأساسة أن الإنسان خلق في صورة الله ، وأن الجسم والروح كليهما سيقومان من القمر . وكان المسلمون واليهود يرون معها هذا الرأى يعينه(٢٤) . كما كانت تقول به الكثرة الغالبة من الناس(٢٠) . وقال جيسدو الشجيفانوي Ouido of Vigevano في عام ١٣٤٥ عن التشريح إنه و عمرم بأمر الكنيسة ٢٧٥) . ولكننا لانجد ما يحرمه في أوامرها قبل مرسوم البابا بنيفاس الثامن الصادر في عام ١٣٠٠ ، وحتى هذا المرسوم لاينهي إلا فن تقطيع الجئث وغلى لحمها ، لكى ترسل عظام الصليبين المعمة إلى أهلهم ليدفنوها في بلادهم(٢٧٠) . وربما فسر هذا تفسيرًا خاطئاً ففهم. على أنه نهمين عن تشريح الحثث بعد الموت ، ولكننا تُجد مندينو Mondine الجرّاح الإيطالي يغلى الجثث ويشرحها حوالي عام ١٣٢٠ ، ومبلغ علمنا أن الكنيسة لم تحتج على عمله هذا(٢٨).

وبعد فإذا ما بدت ثمار العلوم الطبيعية فىالغرب أثناء العصور الوسطير شيئلة قليلة الغناء فى هذا للوجز الذى يراه القارئ فيا بعد ؛ فإن علينا أن نذكر أنها نشأت فى بيئة من الخرافة والسحر معادية للعلم ، وفى عصر تتجه فيه خبر العقول إلى القانون ، واللاهوت ، وفى وقت يعتقد فيه الناس كلهم تقريباً أن للسائل الكثرى الخوصة بنشأة الكون ، وبيم الإنسان ، والطبيعة ، ومصائر الناس قد حف المجلسة بنشأة الكون ، وبيم الإنسان ، والطبيعة ، ومصائر الناس علم ١٩٥٠ لما أن أزداد القراغ ، وتمت الغروة ، وأعلت الراجم تنصب صيا في أوربا من يلاد الإسلام ، واشتدت رضة الناس في المعرفة حتى صارت ولما وتحسساً ، وشرعوا بيحثون شئون العالم القدم العظم الملى كان بيحثه الموان دون أن تقام في وجههم العقبات والعراقيل ، ولم يمض إلا قرن من الرامك حتى كانت أوربا اللاتينية كلها تحوج بالعلم والقلسفة .



(العمورة وقم ٧) « مريم » من كندرائية بالديرج

الفيرل لثاني

الثورة الرياضية

إن أول الأسماء العظيمة في طوم ذلك الوقت اسم لبونارد وفيبوناتشي البيزي Leonardo Pibonacci of Pisa .

لقد انتقلت علوم الرياضة السومرية ، التي لا نعرف نشأتها ، إلى بابل عن طريق بلاد اليونان ؛ وانتقل علم المناسخة المصرية ، الذى لا بزال ماثلا أمام أهيتنا في الأهرام ، إلى أيونيا وبلاد اليونان ، ولمل انتقاله كان عن طريق كريت ورودس ؛ وانتقلت علوم الرياضة اليونانية إلى أيونيا في أثر الإسكنلر ، وكان لما شأن أيما شأن في خلك التطور الذى بلغ خروته في براهم بجبتا اللغة المربية حوالي ٥٨٨ ؟ حـ ٢٦٠ ؟) وترجمت موافقات المنود الرياضية إلى في هذا العلم إلى تلك اللغة نفسها ؛ ودخلت الأرقام الهندية إلى بلاد المسلمين الشرقية حوالي عام ٥٨٠ ؛ ثم نقلها جربرت Ocrber إلى بلاد المسلمين الشرقية حوالي عام ٥٨٠ ؛ ثم نقلها جربرت Ocrber إلى مؤسسا حوالي الشرقية عن طريق أسهانيا المؤتن الميانية ، والعربية في المعربية في طريق أسهانيا وصقلية ، وحملها المحجار الإيطاليون إلى البندقية وجنوى ، وأماني ، ويبزا ؛ وصقاية أن المتناسل في الحياة .

وظهر طريق آخر من طرق نقل العلوم في القرن السادس قبل الميلاد وذلك في صورة ه المحلد ، الصدي ؛ وهو أداة العدينقل عصى صغيرة من الجيزران من مجموعة إلى أخرى ؛ ولا تزال أداة متعولة عن هذه تستعمل في يلاد المصين إلى يومنا هذا ؛ ويقول هيرودوت إن المصريين في القرن الخامس قبل الميلاد كاتوا يستخدمون الحصا في العد ، ويتقلونه بأيدهم من الجمن السار). أما اليونان فقد ساروا قيه من البسار إلى الجمن ته واستخدم الرومان أشكالاكثيرة من الميك ، كانب أدوات العد في أحدها تنزلتي في حزوز ، وكانت عليه الأدوات تصنع من الحيجارة ، أو المعادن ، أو الزجاج الملكون ؛ وكانوا يسمونها الكلكولي Calculi أي الحجارة الصغيرة (٢٧٠) . وينتبوس حوالي عام ٥٢٥ المعد ويقول عنه إنه يمكن الإنسان من المعد بالمشرات ؛ ولكن هذه المبداية لاسخدام الطريقة العشرية أهملت ؛ وكان تجار إيطاليا يستخدمون المعد ، ولكنهم يكتبون نتائجه بالأرقام المورانية السبحة .

وولد ليو ناردو فيبوناتشي في پيرا عام ۱۹۸۰ ؛ وكان والده مديراً لإحدى المؤسسات التجارية في بلاد الجزائر ، وانضم إليه ليوناردو في تلك البلاد وهو في سن المراهقة ، وتعلم على أستاذ مسلم ، ثم طاف يبلاد مجمر ، والشام ، واليونان ؛ وصقلية ، وحدس أساليب التجار ، وتعلم طريقة العد ، على حد قوله ، يوسيلة عجيبة استخدم فيها أرقام المنود التسعة ١٠٠٠ وهنا كانت الأرقام الهندية في بلاية تاريخها الأوربي تسمى بحق أرقاما هندية ، وكانت هذه الأرقام الي هي من أسياب الملل والإجهاد لأطفال هده الأيام موضع الدهشة كوالمبجة في ذلك الوقت . ولعل ليوناردو قد تعلم المغة اليونانية كما تعلم المربية ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإنا نجده ملما كل الإلمام برياضيات أرحيدس ، وإقليدس ، وهمرون ؛ وديوفانتس كل الإلمام برياضيات أرحيدس ، وإقليدس ، ومعرون ؛ وديوفانتس عرض أورب كامل للأرقام الهندية ، والصغر ، والطريقة العشيرية ، يقوم به عرض أورب كامل للأرقام الهندية ، والصغر ، والطريقة العشيرية ، يقوم به مؤلف مسيحي ، وكان بداية بعث الغلوم الرياضية في بلاذ أوربا المسيحية . وأدخل هذا الكتاب تقسه لم ليوري في أوربا الغربية ، وأجدك انقلابا بسيطا في خلك العلم المام لأنه كان يستجلم من حن إلى حين خروفاً يدل. الأرقام المعمى في خلك العلم المعام نات يستجلم من حن إلى حين خروفاً يدل. الأرقام العمم

الممادلات الجبرية واخترالها . واستخدم ليوناردو في كتابه الرسمسة التطبيقية Practica geometrica (۱۲۲۰) - لأول مرة في العالم المسيحي على ما تعلم - الجلس في حل النظريات الهندسية . ويوضع في كتابين آخرين نشرا في عام ۱۲۲۵ طرقاً مبتكرة لحل معادلات الدرجة الأولى والثانية . وفي تلك نالسنة نفسها رأس فردريك الثاني في مدينة بهزا مهرجاناً رياضيا ، وضع فيه يوحنا بالرمو John Palermo مسائل غطفة حلها فيبوناتشي .

وظل تجار أوريا يقاومون طريقة العد الجليدة على الرخم من ظهور هلما المؤلف الذي "يعد" بداية مهد جديد في تاريخ العلوم الرياضية ، فقد كان كترون مهم يفضلون تحريك المحد بأصابهم وكتابة التتاتيج بالأرقام الروانية ؛ وفي عام 1794 استطاع و العد ادون ، في فلورنس أن يقتموا ولاة فلأمور بسن قانون يمرم استمال و الأرقام الخيالية الجديدة (٢٦٠) ، ولم يدرك الاعدد قليل من الرياضيين الرموز الجليلة وهي الصغر وترتيب الحانات المشرية في آحاد وعشرات ومثات ... قد مهدت السنيل إلى تطور يكاد يكون مستحيلا إذا ظلوا يتخلون الجروف القديمة اليونانية والرومانية الوالمودية أرقاما . ولم تحل الأرقام الموانية العد الاننا عشرية مستخدمة في ميادين كثيرة في إنجلترا وأمريكا لأن رتم ١٠ لم ينتصر بعد في كفاحه العلويل الذي دام ألف عام انتصاراً حاسماً على رقم ١٧ .

وكان للطوم الرياضية في العصور الواسطى أغراض ثلاثة : خيدمة التجار ، و وإمساك حسابات رجال الإعمال، ورسم خرائط للسهاء . وكانت علوم الرياضة، والطبيعة ، والفلك وثيقة الصلة بعضهابيعض، ومن كتب في واحدمها أفاد العلمين الإنجرين ؛ ومن أمثلة هولاء العلماء جون الموليوودي John of Holywood (في يوركشبر) للعروف في العائم اللاليني باسم حجوانس ده سكروبسكو باريس ، وألف رسالة هي الكرة الأرضة وعرضاً الرياضة الجليدة سماه الرياض ، وألف رسالة هي الكرة الأرضة وعرضاً الرياضة الجليدة سماه الرياضة الجليدة سماه الرياضة الحدادة وهو اسم ممسوخ من اسم الحوارزى اصطلاحاً لانتياً يطلق على الطريقة الرياضية التي تستخدم الأرقام المندية . ويعزو جون إلى البرب فضل اختراع هذه الطريقة ؛ وهو من المسؤولين عن الحطاً الذي أدى إلى تسمية الأرقام المندية بـ و الأرقام المدية يـ و الأرقام المدية يـ و الأرقام المندية بـ و الأرقام المندية بـ و الأرقام المدين عن المسؤولين عن المساب العربية ي (٢٢٧ عساب المدين المرق المنافقة ا

وكان من أسباب دوام الاهتام بالفلك حاجات الملاحة والرغبة الشديلة في التنجم. وكانت المكانة العظيمة التي يمثلها كتاب المجمع في الذي ترجم مر الآكنيرة من أسباب جمود علم الفلك في أوربا المسيحية واستمساكه بنظرية بطليموس نظرية الدوائر الهتافة المراكز والدوائر التي في عيطات دوائر أخرى ، والقائلة إن الأرض هي عور الكون . وأحست بعض العقول اليقظة المدى وجهه العالم الفلكي البطروجي ، لهذه النظرية في القرن الثاني عشر ، كمقول أمر توجيد نظرية مجاوية مقبولة تحل عل نظرية بطليموس المكانيكة قبل أيام كوبرنيق . فقد كان علماء الفلك المسيحيون في القرن الثالث يتصورون أن الكواكب تدور حول الأرض ، وأن النجوم اللوايت مرصوصة في قبة من البلور يسرها العقل الإلى ، وتدور في حشد منظم حول الأرض وأن مركز الكون كله وأرق ما فيه هو ذلك الإنسان الذي يصفه علماء وأن مركز الكون كله وأرق ما فيه هو ذلك الإنسان الذي يصفه علماء الدين بأنه ذو دة حقيرة ملوثة باللنوب ، وعكوم على كثرة أفراده بأن يصلوا نار الجميع . وقد بحث علماء الفلك الساميون في القرن بأن يصلوا نار الجميع . وقد بحث علماء الفلك الساميون في القرن بأن يصلوا نار الجميع . وقد بحث علماء الفلك الساميون في القرن بأن يصلوا نار الجميع . وقد بحث علماء الفلك الساميون في القرن بأن يصلوا نار الجميع . وقد بحث علماء الفلك الساميون في القرن بأن يصلوا نار الجميع . وقد بحث علماء الفلك الساميون في القرن بأن يصلوا نار الجميع . وقد بحث علماء الفلك الساميون في القرن

الثانث عشر رأى هرقليدس القائل بأن منقأ حركة السهاه اليومة الفاهرة دوران الأرض حول محورها ، ولكن العالم المسجى نسى هذا الرأى نسياتاً تاماً ؟ ويقل مكروبيوس Martianus Capella المرتبانس كابلا Martianus ومارتبانس كابلا الشمس ؛ واستسك آخر له قلينس وهو أن عظارد والزهرة بلوران حول الشمس ؛ واستسك جون اسكوتس الرجينس سلما الرأى في القرن الثامن ثم طبقه على المربخ والمشرى ، وبهذا أوشكت النظرية القائلة بأن الشمس مركز العالم أن تنصر (٢٠٠) . ولكن هذه الفروض الباهرة كانت من بين الألكار التي الغشرت في المصور المظلمة ، وظلت الأرض مركز الكون حتى عام ١٩٤١ ، وإن كان عالم الفلك جميعه قد انفقرا على أن الأرض كرية و٥٠٠

وجانعت الأزياج والآلات الفلكية إلى الغرب من بلاد الإسلام ،

أو عملت على خرار الأزياج والآلات الإسلامية . ورصد ولشر اللوربي

إلى الإرماد الفلكية المدونة Walcher of Lorraine .

المسلم القمر في إيطاليا بأسطر الاب ، وكان هذا أول الأرماد الفلكية المدونة العالم المسيحى الغربي ، ولكن ولم الكلودى William of St Cloud .

اضطر بعد ماتي عام من ذلك الوقت (حوالي ١٩٩١) أن يذكر الفلكين ،

بأقواله وبما ضربه لمم من مثل بنفسه ، أن خر ما يتقدم به العلم هو الملاحظة الا القراءة أو الفلسفة . وخير ما قدم لعلم الفلك المسيحي من عون في ذلك الوقت هو الأزياج الأنهاسية لمركات الأجرام السياوية التي أطدها عالمان بوديال أسيانيان لأنفسو الحكم .

و تجمعت المعلومات الفلكية فكشفت عن أخطاء تقويم يوليوس قيصر (٤٦ ق. م) الذى وضع على أساس عمل سوسيچنيس والذى جعل السنة أطول من حقيقتها بإحدى عشرة دقيقة وأربع عشرة ثانية . وكان از دياد تنقل الفلكيين، والتجار ؟ و المؤرخين بين أقطار العالم بما كشف عن الصحاب التي يالاقونها من جراء اختلاف التقاويم . وكان البنروني قد قام بدراسات نافعة للفلوق المختلفة المتبعة في تقسيم الزمن وتاريخ الحوادث (حوالي عام ١٩٠٩) ، وواصل هاويون ابن مشلام وابراهام بارخية هذه اللبراسة في عام ١٩٠٦ . و ١١٠٢ ، وأهد ما ربرت جروستسي ووجر پيكن نعرضا في القرن الثالث هشر مقر حات علية ، أسفرت (حوالي عام ١٧٣٧) عن وضع جروستسي لطائفة من الأوباج . لتميين أوقات الحوادث الفلكية والتواريخ المتنبرة كتاريخ عيد القيامة ، وكانت هذه الأزياج أول خطوة لوضع التقويم الجريجوري (١٩٥٧) الذي يرشدنا ويضائنا في هذه الأيام .

الفصِلاثايث

الأرض وحياتها

وكان أكثر العاوم تقدماً في العصور الوسطى هو علم طبقات الأرض ؛ وسبب ذلك أن الأرض كانت في رأسم موطن المسيح ، وغلاف الجنعم ، وأن الأحوال الجوية من تقدير الله . وكان المسلمون والهود والمسيحيون على السواء يغشون علم التعدين بغلاف من الخرافات . ويوافنون و الجوهريات ، في المحجدة من قوى سحرية . من ذلك أن متربو Marbood آسفف رنن كناباً شمبيا سماه كناب الجواهر وصف فيه القوى الخفية الكامنة في ستن نوعا من الحجارة الكريمة ، فقال هذا الأسقف المتبحر في العلوم إنه إذا أسسك الإنسان بيماه الكريمة ، فقال هذا الأسقف المتبحر في العلوم إنه إذا أسسك الإنسان بيماه حجراً من الباقوت الأزرق أثناء الصلاة كان ذلك أدعي لاستجابة الله إلى دهائد ١٠٣٠ ، وإن حجر عمن الحبر إذا لف في ورقة من نبات القار يُسفى من يمسك به عن أمن الناس ، وإن حجر الحمشت يجعله عأمن من السكر ؛ وإن

وكان التشوف والتحمس الذان أحاطا معادن الأرض سده الحرافات هما اللذين بعثا الناس في العصور الوسطى على التجوال في أوربا ويلاد الشرق ، فأضوا بالملك علم الجفر افيا على مهل . من هولاء جرالدس كمرنسس Oiraldus ... حرالله الحياري Cambrensis ... جرالله الوياري Girald of Wales ... 1187) ... المذي طاف بيلاد كثيرة وكتب في موضوعات كثيرة ، وأتقن الحات كثيرة لهس

مها لفته هو ، والذي صحب الأمير چون إلى أيرائفة ، وعاش فها عامن ، ثم طاف بأنحاء ويلز يدهو الناس إلى الحرب الصليبية الثالثة ، وألف أربعة كتب ممتمة عن هذين البلدين . وقد أتقل صحف كتبه بتحيزه وبكرة ما أورده فها من أخبار المعجزات ، ولكنه خففها يوصفه الواضح الحي للأشخاص والأماكن ، وحديث الفلريف عن الأشياء التافهة التي توضح خصائص الأشخاص والمصور . وكان واثقاً من أن كتبه سوف تخلد ذكره(٢٦) ، ولكنه استخف عا يمتاز به الزمان من قدرة على النسيان .

وكان هو واحداً من آلاف الرجال الدين حجوا إلى بلاد الشرق في القرنن الثاني عشر والثالث عشر . وقد رسمت خرائط البلاد والطرق لمهندى مها هُوْلاء الحجاج ، وأفاد من ذلك علم الجغرافية . وحلث بين على ١٩٠٧ و ۱۱۱۱ أن أبحر سمبورد چوراسلفار Siguard Jorasalfare ملك العرويج في حملة صليبية ومعه ستون سفينة ، ومرَّ بإنجلترا ، وأسيانيا ، وصقلية ، ووصل إلى فلسطش. وحارب المسلمين كلما لاخت له فرضة لحربهم ، ثم قاد حملته بعد أن هلك منها من هلك إلى القسطنطينية ، ومنها اجتاز بلاد البلقان ، وألمانيا ، والدنمرقة بطريق البر حتى وصل إلى النرويج . وتكون قصة هذه الرحلة المقممة بالأخطار جزءاً من قصص اسكنديناوة الشعبية العظيمة . وفي عام ۱۲۷۰ أعاد لنزازتي مالوسلو Lauxarotte Malocello كشف جزائير الحالدات التي كانت معروفة للأقدمن . وتقول إحدى الروايات الملتواترة التي لم تحقق بعد إن أوجولينو Ugoʻino وڤادينو ڤيڤلدو Vadino Vivaldo أيمرا من چنوى حوالي عام ١٢٩٠ على ظهر سفيتين كي يصلا إلى الهند بالطواف حول قارة أفريقية . ويبدو أن جيع من كانوا على ظهر السفياتين من الملاحين لقوا حتفهم . وانتقلت قصة هذه الرحلة بطريقة ساخرة في صورة رسالة من و برنسترجون Prester John و أمطلون (حوالي عام ١١٥٠) يتحسدت فها عن أملاكه في أواسط آسية ، وعن جغرافية بلاد الشرق حديثاً مليئاً بالأوهام والخرافات. وقلما كان المسيحيون يعتقدون بوجود أرضين وسكان في الأجزاء المقابلة لبلادهم وعلى سطح الأرض ، وذلك على الرغم من قيام الحموب الصليبة وما استبعته من الأسفار. وكان القديس أوغسطن يرى أن ٥ من غير المعقول أن يسكن الناس في الجمهة المقابلة لنا على سطح الأرض ، حيث تغرب الشمس حين تشرق عندنا ، وحيث يمثى الناس وأقدامهم في اتجاه أقدامنا (٢٩٠٠) ، وكان راهب أيرلندى يدعى القديس فرجيل St. Fergil قد أشار حوالى عام الإلى إمكان وجود ه عالم آخر وعلق تخرين تحت الأرض (٢٠٠٠). وقبل ألم تس مجنس وروجر بيكن هذه الفكرة ، ولكنها بثبت خيالا جرينا يطوف بعقول قلة من الناس حتى طاف مجلال Magellan بالكرة الأرضية.

وجاءت إلى أوربا أهم المعلومات عن الشرق الأتصى من راهبن فرنسيسين. ذلك أن إنوست الرابع أوسل في إيربل من عام ١٧٤٥ إلى بلاط المغول في قرقورم چيوڤي ده بيانوكريها والمحتال من عام ١٧٤٥ إلى بلاط وهو رجل بدين في الخامسة والستين من عموه. ولاتي چيوڤي ووفية من الصحاب شد ما يلقاء الإنسان في حياته ، فقد ظلا مسافرين خمسة عشر عشر أم ، بيدلان الجياد في كل يوم . وإذا كانت قوانين الرهبان الفرنسيس نحرم عليهما أكل اللحم ، فقد كادا يميرتان جوفي في المدرسيا به وأخفى جوفي في المدنسين عرب عليهما أكل اللحم ، فقد كادا يميرتان جوفي في الميان مهمته ، ولكنه كتب بعد عودته وصفاً فرحلته يمد الآن من أمهات كتب الأدب الحفوافي حد عودته وصفاً فرحلته يمد الآن من أمهات بالحقائق دون غيرها لا يذكر فها كلمة شكوى أوكلمة عن نفسه . وأرسل بالحقائق دون غيرها لا يذكر فها كلمة شكوى أوكلمة عن نفسه . وأرسل لويس التاسم في عام ١٧٥٣ ولم الربركويزي William of Babruquis واغير لميدروك William من عقد حلف معه . وعاد ولم يحمل معه دعرة جافة مسامعه وغية البايا في عقد حلف معه . وعاد ولم يحمل معه دعرة جافة مسامعه وغية البايا في عقد حلف معه . وعاد ولم يحمل معه دعرة جافة المسامعة وغية الميان الأعلم لميد (١٢ - ج ١ - علد)

يخضوع فرنسا إلى سلطة للغول (١٠) ، وكان كل ما أثمرته البعثة هو وصف ولم الشيق الممتاز لعادات المغول وتاريخهم . وعرف الأوربيون وقتلد لأول مرة متابع بهرى الدن Don والمثلجا ، وموضع بحبرة بلكاش ، وشعائر الدلاى لاما Daia Lama ، وأماكن النساطرة المسيحيين في الصين ، والفرق بين المثول والتتار .

وأشهر الرحالة الأوربيين إلى يلاد الشرق الأقصى في العصور الوسطى وأعظمهم نجاخا هم أسرة پولو تجار البندقية . فقدكان لأندريا بولو Andrea Polo أبناء ثلاثة هم ماركو الأكبر، ونقولو ، ومافيو Maffeo ؛ وكانوا كلهم يعملون في تجارة بنز نطية ويعيشون في القسطنطينية . وانتقل نقولو ومافيو حوالي عام ١٢٦٠ إلى بخاري حيث بقيا ثلات سنن ، ومنها سافرا في أعقاب بعثة سياسية تنارية إلى بلاط كوبلاي خان في شامجتو . وأعادهم كوبلاى في بعثة إلى البابا كلمنت الرابع ؛ واستغرقت عودتهما إلى البناقية ثلاث سنين ، فلما جاءا إلها كان كلمنت قد مات . وفي عام ١٢٧١ خرجا من البندقية عائدين إلى الصن ، وأخذ نقولو معه ابنه ماركو الأصغر وكان وقتئذ في السابعة عشرة من عمره . وقضيا ثلاث سنين وتصف سنة في رحلتهما مختر قمن قارة آسية عن طريق بلنغ ، وهضبة الپامير وكاشغر ، ولوب تور وصمراء غربي ، وتنجوت . فلما وصلا إلى تنجوت كان ماركو في الحادية والعشرين من عمره ؛ وأعجب به كويلاي ، وخصه بمناصب رئيسية ، ووكل إليه القيام ببعثات هامة ، وأبقى أفراد ألمرة بولو الثلاثة في الصين سبعة عشر عاماً . ثم أبحروا عائدين إلى بلادهم ، وقضوا في عودتهم ثلاث سنين عن طريق جاوة ، وسومطرة ، وسنغافووة ، وسرندنيث ، والحليج الفارسي ؛ ثم ساروا براً إلى طريزون، ومنها ركبوا السفينة إلى القسطنطينية والبندقية . فلما استقروا فيها لم يصدق أحد ، كما يعرف العالم كله ، القصص التي أخذ يقصها ٥ ماركو ذو الملابين ، عن ٥ بلاد الشرق الفضمة . وأسر ماركو وهو يحارب في جيش البندقية في عام ١٩٩٨ ، وألتي في سمن چنوى عاماً كاملا ، وفيه أمل قصته على زميل له في السجن ؟ وألت تعد من قبل غير معقولة . فقد وصف ماركو للمرة الأولى رحلة تحترق جميع بلاد آسية ، وفي كتابه أول لحمة كتبها أورى عن بلاد اليابان ، وأول وصف صادق ليكن ، وجاوة ، وسومطرة ، وسيام ، وبورما ، وسرنديب ، وساخل زنجبار ، ومدخشقر ، وبلاد الحبشة ؛ وكشف كتابه للغرب الستار عن بلاد المشرق ، وساعد على فتح طرق جديدة للتجارة ، ولانتقال عن بلاد اللشرق ، وساعد على فتح طرق جديدة للتجارة ، ولانتقال على المغرافية الذي أوحى إلى كولميس بالسفر إلى الشرق بالانجاه نحو الغرب .

ولما اتسع ميدان التجارة والأسفار أخط علم رسم الحرائط يعود متناقلا إلى المستوى الذي بلغه في أيام أضطس ، وشرع الملاحون يُعدُّ ون كتباً يُهندُكى بها إلى الثغور التجارية ، تحترى خرائط ، ورسوماً ، وإرشادت للسائحين ، وأوصافاً ، فختلف المرافئ ، وبلغت هذه الكتب على أيدى أهل بهزا وچنوى هرجة كبرى من الدقة . وكانت خرائط العالم التي رسمها الرهبان في ذلك الوقت إذ قورت بغيرها تسير على تمط محاد لاتحيد له ويصحب فهمها .

وكانت رسائل أرسطو فى علم الحيوان ، وكتاب ثيوفر اسطس الحجة فى النبات ، حافزاً فويا لعقل الغرب المستيقظ من رقاده ، فأخل يكافح للخروج من القصص ومن أقوال بلنى إلى علم الحيوان والنبات . وكان كل إنسان تقريبا فى ذلك الوقت بعتقد أن الكاتنات العضوية الصغيرة ، بما فيها من اللديان واللباب، تتولد من تلقاء نفسها من الدراب ، والطان ، والمواد المتعقدة ، الفاسدة . وكادت الكتب التي تصف الحيوانات — الحقيقي مها والخراف — وترسم صوراً لها شما علم الحيوان ، وإذ كان الرهبان هم الذين يوافون معظم هذه الكتب فقد كان علم الحيوان يوصف فى عبارات مستمدة من كتب اللاهوت

يأنه مستوع للرموز المقوبة للإيمان ، وابتدحت منه مخلوقات إضافية ابتكرها الحيال الهنو والتسلية ، أو خلقها الحاجة إلى الثقى والصلاح . انظر مثلاً إلى قول الأسقف هونوريوس الأوتونى Honorius of Autun من رجال القرن الثانى حشه الملادى :

وحيد القرن ، وحش شديد الافتراس له قرن واحد ، فإذا أربد القبض عليه وُضمت فى الحقل فتاة علمواء ، إذا رآها اقترب منها واستراح فى حجرها ، وبذلك يُعَبض عليه . ويمثل هذا الحيوان المسيح ، ويمثل قرنه قوة المسيح التي لا تُغلب ... فقد انتزعه الصيادون وهو فى رحم علمواء ــ أى أن الذين أحيوا المسيح وجدوه فى صورة إنسان (٢٢).

وكان أقرب كتب الأحياء إلى العلم الصبحيح في العصور الوسطى هو كتاب فردريك الثانى المسمى 8 في القنص بالطير » وهو رسالة في هذا اللهن في ١٩٨٩ صفحة ، تعتمد فيا تعتمد عليه على المضلوطات البونانية والإسلامية ، ولكن الجزء الأكبر مها مستمد من الملاحظة والتجرية . وكان فر دريك نفسه من أشهر الصائدين بالبزاة ؛ ويحتوى وصفه لأجسام الطير على عدد كبير من المعلومات الأصيلة التي لم يسبقه إليها غيره من المؤلفين ، ويدل تعليله لعلم ان المطيور وهجريها ، وتجاربه في تفريخ البيض بالقطرة الصناعية ، وأعمال الصفورة ، على روح علمية الانظر لها في أيامد ١٩٠٦). وقد وضبح فردريك نصوص كتابه بمثات من صور الطير ، ربما كانت من صنع يده - وهي رسوم و صادقة حتى في أدق التفاصيل ع (١٤٠٠). ولم تكن مجموعات الميوانات وسوم و صادقة حتى في أدق التفاصيل ع (١٤٠٠). ولم تكن مجموعات الميوانات اليوانات معملاً يدرس فيه دراسة مباشرة مسلك الميوانات . وبذلك كان هذا الإسكندر أرسطو نفسه ،

الفصل لرابغ

المادة والطاقة

كان حظ الطبيعة والكيمياء أحسن من حظ علمى طبقات الأرض والأحياء ، ذلك أن قوانينهما وعجائبهما كانت في جميع الأوقات أكثر الثلاقاً مع حقيدة الإيمان بالله من و أنياب العالم الطبيعي وغالبه الحمراء ، ويدلنا على قوة هذين العلمين في بداية تلك الفترة ماكن يبلله ألفر المللز برىOliver of من جهود لصنع طائرة ؛ فقد أثم في عام ١٠٦٥ تركيب جهازه ، وحلابه في الجومن مكان مرتفع ولتي حتفه (ما).

ولم في علم الميكانيكا في القرن الثالث عشر اسم عظيم ، اسم راهب
دمنيكي سبق إسحق نيوتن إلى عدد من المبادئ الأساسية في هذا العالم . ذلك
هو چردانس نموراريوس Nemorarius المحسوف وعام ١٢٢٢
الفائد الثاني للرهبان الدمنيكيين . وإن قيامه بأعماله الباهرة في مبدان العلوم
الطبيعية ليشهد بما كان عليه الإخوان الواعظون من حاسة عقلية وغيرة عامية .
وقد ألف هذا الراهب ثلاث رسائل في العلوم الرباضية نافس فيا رسائل
فيبوناتشي في شجاعته ونفوذه العظيم ، استخدم فيها الأرقام المفادنية ، وارتقى
بعلم الجعر بحرصه الدائم على استعال الحروف يلمل الأرقام في قوانينه العامة
وقد درس في كتابه Elements super demonstrationem ponderis فعل
الجاذبية في مسير جسم متحرك ، ووضع القانون المعروف الآن باسم بدسية
جردانس . وهو أن القوة التي تستطيع رفع جسم معن إلى ارتفاع معرف ستطيع
زمع جسم أتقل من الأول ك المرات إلى ارتفاع يقل عن الارتفاع الأول ك المرات . وحلل في رسالة أخرى De ratione ponderis (لعل موافعها أحد

تلاميذه > فكرة قوة السكون ــ حاصل قوة ما في طول فراع رافعها ، واستبق الأفكار الحديثة في ميكانيكية الروافع والمستويات المائلة (٢٠٠٠) . وحاولت رسالة أخرى تعزى إلى ١ مدرسة چور دانس ١ أن تعمر عن نظرية الإزاحة الافعراضية ــ وهي المبدأ الذي قدره فيا بعد ليونار درو دافنشي ، وديكارت ، وجون برنولي John Bernoulli وصاغه آخر الأمر ج . ولارد چز John Bernoulli في القرن التاسع عشر .

وأثر تقدم الميكانيكا في الاختراع تأثيراً بسيطاً . من ذلك أن ربرت الإنجلزي Robert of England عرض في عام ١٩٧١ نظرية رقاص الساحة عرضاً واضحاً ؟ وفي عام ١٩٧٨ نسمع عن ساعة كبيرة في برج بوستمنستر ، كما نسمع حوالي ذلك الوقت نفسه عن ساعات ضخفة مثلها في كتائس أخرى بالقارة الأوربية ، ولكتنا لانجد دليلا قاطعاً على أن هذا الساعات كانت الات ميكانيكية كاملة ؟ أما أول ذكر صربح لساعة تدار بالبكرات ، والأنقال ، والروس فرجع تاريخه إلى عام ١٣٧٠)

وكان أكثر فروع علم الطبيعة نجاحاً فى ذلك الوقت هو علم البصريات ،
ذلك أن رسالة ابن الهييم العربية التى ترجت إلى الملغة اللاتينية قد فتحت
آلاقاً جديدة فى بلاد الغرب ؛ وقد تحدث ربرت جروستستى عن هذا العلم
فى مقال له عن قوس قزح نشر حوالى عام ١٩٣٥ عن فرع ثالث من فن
المنظور . . . لم يطرق بابه ولم يعرفه بيننا أحد حتى هذا الوقت . . . (وهو)
يعرفنا كيف نجمل الأشياء الشابيدة البعد عنا تبدو شديدة القرب منا ،
وكيف نجمل الأشياء الكبرة القريبة تبدو جد صغيرة ، وكيف نجمل
الأشياء البعيدة تظهر بالحجي الذى نريده .

ويضيف إلى ذلك قوله إنه يمكن الوصول إلى هذه الأشياء العجيبة بتكسير « شعاع الضوء » وذلك يجعله يمر خلال عدة أجسام شفافة ، أو عدسات محتلفة التركيب . وافتت تلميذه روجر بيكن سده الآراء أيما افتتان . وبحث جون يكهام ، وهو في أغلب الظن تلميذ من تلاميذ جروستسي في جامعة أكسفورد ، فى انعكاس الفهوء ، وانكساره ، وتركيب العين فى رسالة سماها فن فلنظور السام Perspetiva Communis ؛ وإذا ذكرنا أن بكهام أصبح بعدفة كبير أساقفة كنتر برى ، أدركنا مرة أخرى ماكان بين العلوم وكنيسة العصور الوسطى من وفاق .

وكان من نتائج هذه الدراسات في الضوء اختراع النظارات . فقد كانت المجاهر — النظاء ات المكدرة ـــ معروفة لليونان الأقدمين(⁽⁴⁸⁾ ، ولكن يبدو أن صنع هذه النظارات بحيث تجمع الأشعة جمًّا صحيحًا وهي قريبة من العن كان لا بد أن ينتظر البحوث التي تجرى في هندسة انكسار الضوء . وتوجد وثيقة صيلية ترجم إلى تاريخ هير موثوق بصحته بين على ١٣٦٠ و ١٣٠٠ تتحدث عن نظارات تسميها آى تاى Ai tai يستطيع مها كبار السن أن يقرأوا الكتابة الدقيقة . وجاء في موعظة لراهب دومنيكي ألقاها في بيسائزا عام ١٣٠٥ : ٥ منذ عشرين حاماً قبل هذا الوقت كشف فن صنع النظارات (أكشيالي occhiali) التي تمكن الإنسان من أن يحسن القراءة . . . ولقد تحدثت بنفسي إلى الرجل الذي كان أول من كشفها وصنعها » . وورد في خطاب مؤرخ عام ١٢٨٩ : 1 لقد تقدمت بي السنون حتى أصبحت عاجزاً عن القراءة والكتابة بغير النظارات المسهاه (أكيالي okiial) التي اخترعت من وقت قريب، . ويعزى فضل اختراعها عادة إلى سلڤينو دا مارتو Salvino da Marto الذي كُتب على شاهد قبره المصنوع في عام ١٣١٧ « محترع النظارات » . وفى عام ١٣٠٥ أعلن طبيب من منهليبه أنه أعد غسيلا للعن يجعل الإنسان في غني عن النظارات (١٩) .

وكانت قوة المغنطيس الجدابة معروفة هي الأخرى لليونان ، وبلوح أن الصينيين هم الذين كشفوا فىالقرن الأول الميلادى قدرته على تعيين الانجاه . وتعزو إحدى الروايات الصينية المتواترة إلى المسلمين أول استعال للإبرة المغنطيسية فى لمرشاد السفن حوالى عام ١٩٩٣ . وأكبر الظن أن استعالها كان واسع الانتشارين الملاحين المسلمين والمسيحين قبل بهاية القرن الثانى عشر ؛ وترجع أقدم إشارة لهذا الاستعمال عند المسيحين إلى عام ١٢٠٥ ، وعند المسلمين إلى عام ١٢٠٥ ، ولكن قبل اللبين عرفوا هذا السر الثمين من زمن طويل لم يتعجلوا في إذاعته ؛ يضاف إلى هذا أن الملاحين الذين كانوا بقيدون من هذا الاختراع كانوا يُرتاب في أمرهم فيظن أنهم سمرة ، وبلغ من أمرهم أن بعض الملاحين وفصوا أن يسافروا مع أمير سفينة يحتفظ معه مبده الآلة الشيطانية (1) . ونجد أول وصف معروف لبيت إبرة تتحرك على نقطة

ارتكاز فى رساك فى المفتطيسية كتها بطرس برجرينس 1۲۶ و دها إلى ف عام ۱۲۲۹ . وقد سجل الحاج بطرس هذا كثيراً من التجارب ، ودها إلى الطريقة التجريبية ، وأوضح فعل المغنطيس فى جلب الحديد ، ومغنطة غيره من الأجسام ، وتعين اتجاه الشهال ، وحاول كذلك أن يصنع آلة دائمة الحركة تعمل بمغنطيسات تولد ينفسها القوة اللازمة لتحريكها(۱۰).

وكانت البحوث في الكيمياء الكاذبة أكبر الموامل في تقدم علم الكيمياء ؛ فقد أخذت النصوص العربية في هذا العلم تترجم إلى اللغة اللاتينية من القرن المتاسع وما يعده ، وما لبت البحوث الحاصة بهذا النوع من الكيمياء أن انتشرت في بلاد الغرب حتى لم تمل مها الأديرة نقسها منذ نشر الأخ إلياس خطيفة القديس فرانسس كتاباً في الكيميا القديمة عويل المعادن بعضها إلى يعض ؛ وكان أشهر الكتب الطبية كلها في ذلك تحويل المعادن بعضها إلى يعض ؛ وكان أشهر الكتب الطبية كلها في ذلك المعدوس على أرسطو . وكان عدد من ملوك أوربا يستخدمون الكيميائيين القدامي ليسدوا ما ينقص من أموال خزائهم بتحويل المادن الرحصة إلى ذهب (٢٦) . وواصل غيرهم من المتحمسين البحث عن اكسر الحياة وحجر الفلاسقة . ولم تنقطع هـذه البحوث عن اكسر الحياة وحجر الفلاسقة . ولم تنقطع هـذه البحوث

رغم أن الكنيسة حرمتها فى عام ١٣٠٧ ووصفتها بأنها من البحوث الشيطانية ، ولمل بعض المؤلفين فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أرادوا النجاة من غضب الكنيسة بأن عزوا وإلفاتهم إلى ٥ جر ، Qebir () المسلم .

وأضافت التجارب الطبية على العقاقىر معلوماتكثيرة إلى علم الكيمياء ، كما أن العمليات الخاصة بالصناعة كادت ترغم على الكشف إرخاما ، وأفاد علم الكيمياء فوائد جمة من أعمال عصر الجعة ،وصنع مواد الصباغة ،والخزف، والميناء، والزجاج ، والغرّاء، واللك ، والمداد ، ومواد التجميل . وألف يطرس العمرىPeter of St. Omer حوالي عام ١٢٧٠ كتاب صنع الألواقد libier de coloribus fasciendis ، فيه ذكر لعدد من المواد الملونة الستخدمة فى التصوير تصف واحدة منها كيفية صنع ألوان زيئية بخلط الألوان الملونة بزيت بذر الكنان(٩٠). ونشرت-حوالي عام ١١٥٠ رسالة تعرفباسم Salernus Magister - ربما كانت من رسائل مدرسة الطب في سلرنو -ذكر فها تقطير الكحول ؛ وكان هذا أول. ذكر صريح لهذه العملية المنتشرة في جميعٌ أنحاءُ العالم في هذه الأيام . وكانت الأقطار التي تنتج العنب تقطر النبيذ وتسمى ما ينتج من تقطير هذا العصير ماء الحياة aqua vitae أو eau de vie أما بلاد الشهال ذات العنب القليل و المرد القارس فكانت تجد تقطير الحبوب أقل نفقة من تقطير العنب ؛ وكان لفظ يعكيمًا uisqebeatha الكلِّي الذي اختصر فصار وسكمي whisky يعني أيضاً « ماء الحياة ع(ده) . على أن التقطير كان معروفاً عند الكيميائين المسلمين قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، غير أن استكشاف الكحول ثم استكشاف الأحماض المعدنية بعد ذلك في القرن الثالث عشر وسعا دائرة المعارف الكيميائية وآفاق الصناعة توسيعا كبيراً .

⁽٠) يريد جابر بن حيان الكيميل الشهير . . (المَرجم)

ويكاد يضارع تقطير الكحول فيا له من آثار خطيرة استكشاف اللبارود . وبرتاب الدلماء الآن فياكان يظن قديمًا من سبق الصينين إلى هذا الاختراع . وليس في المخطوطات العربية ذكر صريح له قبل عام ١٣٠٠ (١٠٠٠). كتاب النيراق لحرق الأعراء المدى ألمادة المقرقمة هي التي وردت في المعتمد المعروفة الله عام ١٩٧٠ ، فقد وصف مارك اليوناني النار اليونانية والتألق المصفورى ، ثم وصف طريقة عمل البارود فقال : حوّل إلى مسحوق دقيق - كلاعلى انفراد - رطلا من الكبريت الحي ، ورطلن من المعم البابي الملمنوع من شجر الليمون الحامض أو الصفصاف ، وسئة أرطال من ملح البارود (نثر ات اليوناسيوم) ، ثم امزجها كلها(١٠٠) . ولم نعشر . هو ذكر لاستخدام البارود في الأعمال الحربية قبل القرن الرابع عشر

الفصرالخامس

إحياء علم الطب

غاط الفقر على الدوام بين الأساطير والطب لأن الأساطير حرة لا تمن الم والعلم غال عزيز المثال . والصورة الأساسية لطب العصور الوسطي هي صورة الأم ويخزيها الصغير من وسائل العلاج المنزلية ؛ والنساء المجائز غزيرات العلم بالأعشاب واللاصوق ، والرق السحرية ؛ وجامعي حشائش والحبوب ذات الفائدة الأكبدة ، والمعابوب ذات الفائدة الأكبدة ، والمعابرة في علية الولادة المخزية السخيفة ، واللجالين المتأهبين المحدودة عن القديمة في عملية الولادة المخزية السخيفة ، واللجالين المتأهبين الأديرة ؛ والراهبات يواسين المرضى في هدوء بما يقدمن لم من خدمات أو دعوات صالحات ؛ والأطباء المدريين في أماكن متفرقة يعالجون الفادرين أو دعوات صالحات ؛ والأطباء المدريين في أماكن متفرقة يعالجون الفادرين الفريبة المروعة والصيغ السحرية المعجيبة ؛ وكما أن بعض المحجازة إذا المسكت بالبد كانت في رأى بعض الناس تمنع الحمل ، كذلك كانت بعض المحمير لتقوى قدرجم على الإحصاب .

وظل بعض رجال الدين يمارسون الطب حى عام ١١٣٩ ، وكل ما كان هناك من علاج في المستشفيات كان يوجد عادة في ملاجئ أديرة الرجال والنساء . وكان للرهبان فضل عظم في حفظ الراث الطبي من الضباع ؛ وهم الذين مهدوا السبيل لزراعة النباتات الطبية ،وربما كانوا يعرفون ما يفعلون وهم يخلطون الطب بالمعجزات: وحتى الراهبات أفضمين كن في بعض الأحيان بحلقن علاج المرضى ، فقد كتبت هلديجاردى Hildegarde رئيسة دير بنجن Bengin كناباً فى الطب العلاجى ... وهو كتاب العلل والعلاج (حوال عم 110) ... وكتاباً فى المواد الطبية ، ووجا كتاب العلل والعلاج البرق السحرية ولكنه ملى بالمعلومات الطبية ، روبما كانت الرغبة فى القيام بالخدمة الطبية المدارة من الرجال والعجائز من النساء إلى الأديرة ، ولما أن تقدم الطب الذي يمارسه غير رجال اللبين ، وسرى حب الكسب فى القائمين على العلاج فى الأديرة ، حرمت الكيسة فى أوقت مختلفة الكسب فى القائمين على العلاج فى الأديرة ، حرمت الكيسة فى أوقت مختلفة ولم على عام ١٩٣٠) على رجال اللبين تمارسة الأعمال الطبية جهيرة ، ولم يحل عام ١٩٠٠ حتى كاد هذا النين القدم كله يصبح فى أيدى غير رجال اللبين .

ويرجع أكبر الفضل في بقاء الصب العلمي في بلاد الغرب أثناء المصور المظلمة إلى الأطباء البود ، الذين تشروا المعلومات الطبية اليونانية – العربية في بلاد العالم المسيحي ، وذنك عن طريق الثقافة البيزنطية الي انتشرت في جنوب إيطاليا وترجمة الرسائل الطبية اليونانية والعربية إلى اللغة اللاتبئية ، وربما تحات مدرسة سلم نو العلمية قائمة في أحسن المواقع ، وكانت أحسن المدارس استعداداً للإفادة من هذه المؤثرات ، فقد كان الأطباء اليونان ، واللاتين ، والمسلمون ، واليود يعلمون أو يتعلمون فها ، وظلت عنى القرن الثانى عشر أكبر المعاهد الطبية في أوربا اللاتينية . وكانت النساء يدرس التريض والقبالة في سلم نو (عم) وأكبر الثان أن النساء اللاقي يسمن طبيات سارنو كن قابلات تدرس في قالد للدرسة . وكان من أشهر ، المحروم وعموم قابلات تدرس في التوليد نشرت في القرن الثانى عشر يعنوان : ترفوه وعموم أمراضي النساء المن يعنوان : ترفوه وعموم المراضي النساء المن على ان ترتولا Trotul هذه المراضي النساء المن في مدرسة سارنو عدة وسائل هامة كانت قابلة في سلم نو (۱۳۰۰)

تشمل فروع الطب كلها تقريباً ، مها رسالة لأرخمائيوس Archimatheus تصف حال الطبيب وهو واقف بجوار سربر المريض : يجب أن يتحلى الطبيب وهو ينظر إلى حال المريض بالرزانة ، حتى لا تقلل من مكانته خاتمة المريض السيئة ، وحتى يضيف شفاؤه عجبية أخرى إلى ما اشهر به من المجائب ، وعليه ألا يغازل زوجة المريض أو ابنته أو خادمته ، وحتى إذا لم تكن تمة ضرورة لدواء ما وجب عليه أن يصف له مركباً عديم الضرر ، حتى لا يظن أن الملاج لا يساوى أجر الطبيب ، وحتى لا يظن أن الخليمة هي التي شفت المريض دون معونة الطبيب . وحتى لا يظن أن

وحلت جامعة ناپلي محل مدرسة سلرنو بعد عام ١٢٩٨ ، حتى لم نعد نسمع عن هذه المدرسة إلا الشيء القليل . وكان خريجوها قبل ذلك العام قد نشروا طب سلرنير في طول أوربا وعرضها . وكانت ثمة مدارس للطب صالحة في القرن الثالث عشر في بولونيا ، وبدوا ، وفرارا ، وبروچيا وسينا ، ورومة ومنيلييه ، وباريس ، وأكسفورد ؛ وامتزجت في هذه المدارس التقاليد الطبية الثلاثة الشهرة ــ اليونانية ، والعربية ، والمهودية ، وامتصها امتصاصاً تاماً ، وصيغ النراث الطبي كله صياغة جديدة حتى اصبح هو أساس علم الطب الحديث ، واحتفظ أسلوبا التشخيص القديمان - وهما فحص جدران الصدر بالمساع وتعليل البول ـ بشهرتهما وكثرة استعالها (ولا يزالان بمتفظان سهما إلى يومنا هذا) . وبلغ من انتشارها أن كانت المبولة رمز مهنة الطب أو دلالها في بعض الأماكن (١٣٠) . كلك بقيت أساليب العلاج القديمة بالمسهلات والحجامة ؛ وكان الطبيب في انجلترا « مركب عَلَق » . وكانت الحمامات الحارة من طرق العلاج المحببة . فكان المرضى يسافرون ۽ ليأخلوا الماء ۽ من العبون المعدنية . وكان الطعام الحاص بالمرضى يوصف وصفاً دقيقاً في الأمراض كلها تقريباً (٦٣) ، ولكن العقاقر الطبية كانت موفورة، فقلما كان هناك عنصر من العناصر لا يستخدم في العلاج – من الأعشاب البحرية (الغنية باليود) الى وصفها روجر السلوني عام ١١٨٠

لملاج تضغم الغدة الدرقية إلى الذهب الذى كان يعاطى و لتسكن آلام الأطراف و (١٠٠٠ ويظهر أن هذه هي طريقتنا الحديثة لعلاج النباب المفاصل . ويكاد كل عضو من أعضاء الحيوان يكون له عمل في أقر باذين العصور الوسطى – قرون الغزال ، دماء التنين ، وصفراء الأقاعي ، ومني الفيفادع ؛ وكان براز الحيوان يوصف في بعض الأوقات (١٠٥٠ وكان أكثر العقافير استمالا هو الرياق heriacum ، وهو مزيج غريب من عو سبع وحسن مادة أشهرها للم الأناعي السامة . وكانت عقاقير كثيرة تستورد من بلاد الإسلام وظلت عنظة بأسمائها العوبية .

ولما ازداد حدد الأطباء المدرين شرعت الحكومات تنظم صناعة العلب . من ذلك أن روچر الثانى صاحب صقلية تصرمهنة الطب على اللابن ترخص لهم الدولة ، وأكبر الظن أنه حذا في ذلك حذو السوابق الإسلامية القديمة . وحم فرريك الثانى (١٢٢٤) على من بريد ممارسة هذه المهنة أن يحصل على ترخيص بدلك من مدرسة سلرنو ؛ فإذا أراد إنسان أن يحصل علمها وجب عامان يتلقى منهاجاً يدوم ثلاثسنين في العلوم المنطقية ان يحصل علمها وجب ونظن أن معى هذا اللهظ العلوم الطبيعية والفلسفة ؛ وكان عليه بعدئذ أن يدس الطب في المدرسة مدة همس سنين ، وينجع في امتحانين ، ويتعرف عاما عمة إشراف طبيب عرب ٢٦٠).

وكانت كل مدينة ذات شأن تدفع أجور الأطباء لملاج الفقراء عباناً ٧٧٠. وكان في بعض الحدث أطباء موظفون. من ذلك أنه كان في أسبانيا المسيحية في القرن الثالث حشر طبيب تستأجره البلدية المناية بقسم خاص من الأهلمين، فكان يفحص في فتر ات محمددة كل شخص في الإطبع المحمص له ؟ ويسدى النصيحة له حسب ما يكشف عنه الفحص . وكان يعالج الفقراء في مستشفى عام ، ويهم

على زبارة كل مريض ثلاث مرات فى الشهر ؛ وكان كل هذا يؤدى من غير أجر إلا إذا زار المريض أكثر من ثلاث مرات فى الشهر ، فيصرح له فى هذا الحال أن يطلب أجراً عن الزيارة التالية . وكان الطبيب الذى يؤدى هذه الحلمات يعنى من الضرائب ويتقاضى مرتباً سنويا مقداره عشرون جنها(٤٨٨ قيمتها أربعة آلاف دولار فى هذه الأيام(٤٩٠) .

وإذا كان الأطباء المرخصون قليلي العدد في أوربا المسيحيه أثناء القرن الثالث عشر ، فقد كانت أجورهم عالية ، وكانت لهم منزلة اجتماعية سامية ؛ قمهم من جموا ثروات طائلة ، ومنهم من أصبحوا من هواة جم التحف الفنية ، ومنهم من كانت لهم شهرة عالمية . فمن هؤلاء الأطباء بطرس هسيانس Petrus Hispanus - بطرس اللشبوني ولكيستيلي Peter of Lis bon and Compostela – الذي هاجر إلى باريس ثم إلى سينا وكتب أوسع كتب الطب انتشاراً في العصور الوسطى وهو كتاب كنر الفقراء ، وخبر بحث في علم النفس في تلك العصور وهو كتاب النفسي De anima ؛ وصار بعداله البابا يوحنا الحادى والعشرين في عام ١٢٧٦ ، ثم قضي نحبه حنن سقط عليه سقف في عام ١٢٧٧ . وكان أشهر طبيب مسيحي في ذلك الوقت هو آرنك الڤلاتوڤي (حوالي ١٢٣٥ – ١٣١١). وقد ولد بالقرب من بلنسية وتعلم اللغات العربية ، والعبرية ، واليونانية ؛ ودرس الطب في ناپلى ، وعلمه هو أو الفلسفة الطبيعية في پاريس ، ومنهليبه ، وبرشلونه ، ورومة ، وألف عدداً كبراً من الكتب في الطب ؛ والكيمياء ، والتنجم ، والسحر ، واللاهوت ، وعصر النبيذ ، وتفسير الأحلام . ولما عين طبيبًا لجيمس الثانى ملك أرغونة أنلر الملك مراراً أنه إن لم يحم الفقراء من الأغنياء فإنه سوف يلتي في الجحم (٧٠) . وكان چيمس يحبه رغم هذا التحلير

⁽ ہ) ولم یکن یحق الطبیب حسب قوانین القوط النربین فی أسبانیا أن پیمفانسی أُرجراً إِذَا تول مرینسد(۲۱)

ويرسله في كثير من البعثات الدبلوماسية . وهاله ما رآه في كثير من البلدان من الموس والاستغلال ، فأضحى من أتباع يواقع الفلوري Jeachim of Flora وأعلن في رسائل يبعث بها إلى الأمراء والأحبار أن آثام الأقوياء وترف رجال الدين تليران يخراب العالم . ورى الرجل بالسحر والإلحاد واتهم بأنه صنع باستخدام الكيمياء سبائك من الذهب لربرت ملك نابل . وأدانته عكمة الكنيسة ولكن المابا بنيفاس الثامن أطلق سراحه ؛ ونجح في علاج البابا الشيخ من حصا في الكلي ، فأهداه البابا قصراً في أنيافي . ثم أنلر بينفاس أنه إذا لم تصلح الكنيسة أحوالها ، فسيحل علمها غضب الله سريعاً . وما لبث بنيفاس يعملند أن حلت به النوائب التي ذاعت أخبارها في طول البلاد وعرضها ومات من فرط اليأس . وظلت عكمة التغنيش تطارد آزنلد وكن الملوك والبابوات كانوا يدافعون عنه لأنه بداوي أسقامهم ، إلى أن أن

هذا من حيث الطب ، أما الجراحة في ذلك الوقت فقد كانت تعارب في جهتن إجهاهما الحلاقين والثانية ضد المطبين العمومين . فقد كان الحلاقون من زمن بعيد يعطون الحقن ، ويخامون الأسنان ، ويعالمون الحراحون الذين تلقوا تدريبا طبيا يحتجون على أداء هذه الحدمات التي تستخدم فيها القوة المضلية ، ولكن القانون ظل يحمى الحلاقين طوال المصور المظلمة كلها ، حتى لقد ظل من واجبات جواحي الجيش في بروسيا إلى عهد فردريك الأكبر أن يحلقوا ذقون الفياط (٣٠٠) . وكان من نتائج هذا الخلط في الواجبات أن ظل الجراحون أقل منزلة من الأطباء في العلم وفي نظر المجتمع ، فكان ينظر الجم على أنهم صناع بسطاء يطيعون أو امر الطبيب الذي كان قبل القرن الثالث عشر يستنكف أن يمارس الجراحة ينفسه (٢٠٠) . وكان نما ينبط هم الجراحين زيادة على هذا خطيهم من المدجن أو الموت إذا أخفقوا في أعملهم على أنهم عنا خياس المراحة ينفسه (٢٠٠) . وكان نما ينبط هم الجراحين زيادة على هذا خطيهم من المدجن أو الموت إذا أخفقوا في أعملهم على أنهم مناع بسطاء على المدراحة ينفسه (٢٠٠) . وكان نما ينبط هم الحراحين زيادة على هذا خطيهم من المدجن أو الموت إذا أخفقوا في أعملهم على أنهم على هذا خطيهم من المدجن أو الموت إذا أخفقوا في أعملهم على أنهم على أنهم مناع بسطاء عليهم من المدجن أو الموت إذا أخفقوا في أعملهم على أنهم عمناع بسطاء على المحراحة ينفسه (٢٠٠٠) . وكان نما ينبط هم المواحق وذا إذا أخفقوا في أعملهم على أنهم عمناع بسطاء على أنهم مناع بشعهم من المدجن أو الموت إذا أخفقوا في أعملهم على أنهم المحراحة وقاحي المؤلف والمحراحة والمحراح

ولم يكن يجرَوْ على النبام بالجراحات الحطرة إلا أعظمهم شجاعة ؛ وكان معظم الأطباء يطلبون قبل إقدامهم على هذه المجازفة ضهانا كتابيا بأنهم لن يصيبهم مكروه إذا أخفقوا في عملهم(٧٠) .

ومع هذا فقد تقدمت الجراحة في ذلك الوقت أسرع من تقدم أي فرع آخر من فروع الطب ؛ ويرجع بعض السبب في هذا إلى أنها كانت تعنى بأحوال قائمة لا بنظريات ، كما يرجع بعضه إلى ماكان يتاح للجراحين من غرص قيمة في معالجة جراح الجنود . ونشر روجز السالرني حوالي ١١٧٠ كتابه العمليات الخراهية وهو أقذم رسالة في الجراحة معروفة في بلاد الغرب المسيحية ؛ وظلت هذه الرسالة من المراجع الهامة ثلاثة قرون ، وفي عام ١٢٣٨ أمر فردريك الثانى أن تشرح جثة مرة كل خس سنوات في سالرنو (٧٠) ؛ وظل تشريح الحثث يجرى بانتظام في إيطاليا بعد عام (٢٦) ١٢٧٥ : وفي عام ١٢٨٦ فتح طبيب في كرمونا جثة ليدرس علمها سبب وباء انتشر في ذلك الوقت ، فكان هذا أول تشريح لحثة بعد الموت لمعرفة سبب الوفاة ؛ وفي عام ١٢٩٦ بدأ تيودريكو برجنيوني Theodorico Brogognomi أسقف سرڤيا Cervia كفاحاً طويلا في الطب الإيطالي ضد الفكرة العربية القائلة إن تكوين الصديد يجب أن يشجع أولا في علاج الحروح ؛ ويعد بمثه في التعقيم من أعظم البحوث في طب العصور الوسطى . William فرخطا جبجليلموساليستى Guglielmo Salicetti فرلم الساليستوى of Saliceto (۱۲۱۰ – ۱۲۷۷) – أستاذ الطب في جامعة بولونيا خطوات كبرة إلى الأمام في تحسن الحراحة ، وذلك في كتاب البراهم الذي صدر في عام ١٢٧٥ . وقد قرن في هذا الكتاب التشخيص الجراحي بمعرفة الطب المباطى ، وكان يعني بالاحتفاظ بسجلات المرضى ، وأظهر كيف يوصل الأعصاب المنفصلة ، ودعا إلى استعال المشرط بدل الكي الذي (11-31-44)

كان واسع الانتشار عند الأطباء المسلمين ، لأن جروح المشرط أضمن من الثار شفاء ولا تترك النار . وقال وليم الدالة عامة إن سبب تفسخ الفدة اللمفاوية والقرحة الزهرية هو الاتصال الجندى بعاهر مصاية بالمرضن ، ووصف داء الاستسقاء وصفاً دقيقاً وقال إنه ينشأ من تحجر الكليتين وضيقهما ، وأسدى نصائح طبية تمتازة الصحة والثغلية لكل سن في حياة الإنسان .

ونقل تليمناه هنرى المندقيا Ouido Lanfranchi (المتوفى عام ١٣٦٥) وجيدو لانفرانشي Ouido Lanfranchi (المتوفى عام ١٣١٥) المعارف العليبة من بولونيا إلى فرنسا . وعمل المندقيل ماعمله تبودوريكو المعارف العليبة من بولونيا إلى فرنسا . وعمل المندقيل ماعمله تبودوريكو محسن طرق التعقيم بأن دعا إلى المودة إلى طريقة إبقراط وهي الاحتماظ انتقل إلى ليون وباريس ، وألف كتاب الشريح الكبير Chirurgia Magna التقل إلى ليون وباريس ، وألف كتاب الشريح الكبير الموسقة وقد وضع اللى أصبح المرجع المعتمد في هذا العلم في جامعة باريس . وقد وضع في وسع إنسان أن يكون طبياً قديراً إذا كان يجهل علم التشريع ، وليس في مقدور إنسان ما أن يجرى جراحات ناجحة إذا كان يجهل العلب ه . وكان لافرانشي أول من استخدم تشريح الأعصاب لعلاج التنوس وإدخال أميومية في المرىء ، وهو أول من أدنى بالوصف الجراجي لارتجاج وإدخال أميومية في المرىء ، وهو أول من أدنى بالوصف الجراجي لارتجاج المنام المنام وقادي وقصارى القول أن القصل الذي وصف فيه إصابات الرأس من المالم اليارزة في تاريخ الطب .

وقد ورد ذكر الجرعات المنومة في كتب أرجن Origen (م-٢٠٤). وهيلارى أسقت بواتيه Hilary Bishop of Politiers (حوالي ٣٥٣). وكانت طريقة التخدير المألوفة في العالم المسيحي أثناء العصور الوسطي هي طريقة الاستنشاق مصحوبة في أغلب الفان بشرب مزيج أساسه المندرغورة (*) ، وعد وعد في المادة على الأفيون وحصر الشوكران ، والتوت. وقد ورد ذكر هلمه ه الإسفنجة المنزمة ، في القرن التاسع وما بعدة (٢٨٠). أما التخدير الموضعي فكان يستمان عليه بضيادة نحست في علول شبيه مهذا ، وكان المريض يوقظ بتشميمه عصبر الشمر . ولم تكن أدوات الجراحة وقتئذ قد تقدمت عما كانت عليه عند اليونان الأقدمين ؛ أما فن التوليد فقد المطاعا كان تقلمت عهد سورانس Soranus (عام ١٠٠ م) وبولس الإبجيبي عليه في عهد سورانس ٤٤٤ م) . وقد ذكرت العملية القيمترية (في الأدب ولكن يبدو أنها لم يكن يلجأ إلها . وكان تقطيم الجنين عند تعسر الولادة تتخليصه من الرحم يلجأ إليه في كثير من الأحيان لأن القابلة على تعسر الولادة تعذيص من الرحم يلجأ إليه في كثير من الأحيان لأن القابلة على كرمي يعد لهذا الغرض خاصة (٩٠) .

وتقدمت المستشفيات وقتئدها عرف عها في أى عصرمن العصورالقديمة فقد كان عند اليونان الأقدمين مؤسسات دينية لعلاج المرضى ؛ وأنشأ الرومان مستشفيات لعلاج جنودهم ، ولكن نظم الصدقات المسيحية كانت هي السبب في تقدم نظام المستشفيات تقدماً كبرراً. وحسينا أن نذكر عن هذا التقدم أن القديس باسيلي أسس في مدينة قيصرية من أعمال كبلوكيا داراً سميت الماسلياسي نسبة إليه ، كان فيها عدة مبان للمرضى ، والممرضات ، والأطياء ، والمصانع ، والمدارس . وافتقح القديس إفرايم Ephraim مستشفى في الرها عام ٣٧٥ ؛ وأنشت مستشفيات أخرى في جميع أنحاء الشرق اليونان البرنطين مصحات المسرضى ؛ وملاجئ للقطاء ، وأخرى لليتاى ، وملاجئ للفقراء ،

 ⁽ه) وتسمى البروح وهى نبات من الفصيلة الباذنجانية معروف فى العالم الغدم شيبه بصورة الإنسان (من قامون الدكتور شرف) . (المترجز)
 (ه) وهى تخليص الجئين بشق البطن بدون استحمال الرحيم . (المترجز)

وعبرها للفقراء أوالعلجزين من الحجاج أو للشيوخ الطاعنين في السن . وقاد أمست فابيرلا Fabiola في رومة عام ٤٠٠ أول مستشنى في البلاد المسيحية اللاتينية . وأنشأت أديرة كثيرة مستشفيات صغيرة ، وقام عدد من الرهبان -رهبان المستشفيات ، ورهبان المبسد ، والأنطونيين ، والألكسيين Alexians ، ــ والراهبات بالعناية بالمرضى . ونظم إنوسنت الثالث في رومة عام ١٢٠٤ مستشفي الروح القدس Santo Spiriot ، وقامت بوحي منه مؤسسات من نوعه في جميع أنحاء أوربا ، فكان في ألمانيا وحدها في القرن النالث عشر أكثر من ماثة من « مستشفيات الروح القدس » . وكانت المستشفيات في فرنسا تعني بالفقراء ، والطاعنين في السن ؛ والحجاج ، كما تعنى بالمرضى ؛ وكانت كموسسات الأديرة تستضيف هذه الطوائف ؛ وأنشأ لويس التاسع حوالي عام ١٢٦٠ ملجاً في باريس يدعى الشرقمائة Les quiuze-vingt ؛ وكان في بادئ الأمر مأوى للمكفوفين ، ثم أضحي مستشنى للرمد ، وهو الآن من أهم المراكز الطبية في باريس ؛ وأنشئ أول المستشفيات الإنجليزية المعروفة في التاريخ , . بس من الضروري أن يكون أول ما أنشئ منها في إنجلترا) بكنتربرى عام ١٠٨٤ . وكانت هذه المستشفيات تقوم في العادة بأداء الخدمات بالمجان نن يعجزون عن أداء الأجور ، وكانت ممرضاتها (ما عدا مستشفيات أديرة الرجال) من الراهبات . وانخذت الأثواب الني ترتديها و ملائكة الرحمة ورسلها ۽ ، وهي التي تبدو في نظرنا مرهقة لهن ، ني القرن الثالث عشر ، وأكبر الظن أنها اتخذت هذا الشكل لحمايتهن من الأمراض المعدية ؟ ولهذا السبب عينه جرت عادة قص الشعر ونغطية الرأس (·^{٨٠}) .

و تطلب مرضان معينان اتخاذ وسائل خاصة للوقاية ، وهذان المرضان هما « نار القديس أنطونيوس » وهو وباء جلدى ــ لعله مرض الحمرة ـــ وهو مرض بلغ من خبثه أن تألفت حوالى عام ١٠٩٥ طائفة من الرهبان هى جماعة الأنطونيين لمعالجة ضحاياه . ويذكر جربجورى التورى التورى الاورى ورحوالى عام ٥٠٠ مستشبات الجذام ؛ ونالفت جاء القديس لازار المعان المحاسفة في مستشبات الجذام ، وكانت أمراض المعانية تعد من الأمراض المعدية : وهي الطاعون الدمل ؛ والتدن الرقوى المحاسم ، والجرب ، والحسرة ، والبثرة الجبيئة ، والرمد الجبيبي ، والجذام . وكان يحرم على المصاب بأحد هذه الأمراض أن يلحل مليئة إلا معزولا عن غره ، أو أن يعمل الناس من اقترابه بالنفخ في قرن أو بدق ناقوس . وكان بمرضه يبدو عادة في شكل طفح صديدى على الوجه والجسم . وليس هذا المرض شديد العموى ، ولكن أكبر الظن أن ولاة الأمور في المصور سرضه يبدو عادة في شكل طفح صديدى على الوجه والجسم . وليس هذا الوضلي كانوا يخشون انتشاره بطريق الجاع . وربما كان هذا الله فلا يشمل المسلم ، ما يعرف الآن صد علا يعرف الآن صد الآن عد الأعباد أنه مرض الزهرى ، ولكننا لانجد فيا يشمل المسادة لمعالج المصابين بأمراض عقلية قبل القرن الحامس عشر (١٨) . ويبدو أنه لم تتخذ أية وسيلة خاصة لعلاج المصابين بأمراض عقلية قبل القرن الحامس عشر .

وعانت العصور الوسطى من فعك الأوبئة أكثر نما عاناه أي عصر آخر معروف ، وفلك لأن الفقر كان يحول بين أهلها وبين النظافة أو الفلاء الصالح ، ومن أمثلة فلك و الوباء الأصفر ، الذي المجتر أيرلندة في على ٥٥٠ و ١٣٥ وأهلك كما تقول الأخبار غير الموثوق يصحبها ثلثى الأهلين (٨٣٧) واجتاحت أوبئة مثله بلاد ويلز في القرن السادس ، وفشا في فرنسا وألمانيا في أعوام ١٩٤٤ ، ١٠٤٣ وقد وصف بأنه يحرق الأمعاء . وربما كان الصليبيون هم الذين نشروا وباعي Plica Polonica - والأملاء والأسقربوط ، ويدو أن مرض التشي البولندي Plica Polonica -

وهو مرض من أمراض الشعر – قد جاء به العزاة المغول إلى بولندة حمن غزوها في عام ١٩٨٧ ، وكان السكان البائسون يعزون هذه الأوبئة للقحط، والجدب وجيوش الحشرات ، وتأثير النجوم ، وتسميم البهود لآبار المياه ، أو غضب الإله ، وأقرب من هذه الأسباب إلى العقل ازدحام المدن الصغيرة المسورة يالسكان ، وعدم وجود الاحتياطات الصبحة أو مراعاة قواعدها ، وما ينشأ عن ذلك من ضعف مقاومة الأهلين للعدوى التي يحملها الجنود والحجاج والطلاب العائدون إلى أوطانهم (٩٨٠). وليست لدينا إحصاءات عن عدد الموتى في العصور الوسطى ولكن أكبر الظن أن الذين كانوا يصلون إلى سن النضوج لم يزيدوا على نصف المواليد ، وكانت خصوبة النساء تعمل جاهدة التكفير عن خباء الرجال وبسالة الجنود .

وتحسنت وسائل المحافظة على الصحة العامة في القرن الثالث عشر. ولكنها لم تبلغ قط في العصور الوسطى الدرجة الممنازة التي بلغها أيام الإمراطورية الرومانية . وكانت معظم المدن ، وأحياء المدن ، تعين موظفين للعناية بشوارعها(۸۸) ، ولكن أعمال هولاء الموظفين كانت بدائية ، وكان من يزورون المدن المسيحية من المسلمين يشكون – كما يشكو من يزورون المدن الإسلامية من المسيحيين في هذه الآيام – من قدارة ومدن الكفار ، ورائحها الكرمية (۸۸) . فقد كانت الفضلات وأقدار البالوعات في شوارع كمبر دج التي تبلغ الآن درجة كبرى من الجال والنظافة ، وكانت تنبعث مها و روائع كرمية يرض مها الكثيرون من المدرسين والطلاب (۸۲) . وكانت لبعض يمرض مها الكثيرون من المدرسين والطلاب (۸۲) . وكانت المعض المدن في القرن الثالث عشر قنوات مغطاة لنقل ماء الشرب ، وبالوعات ، ومراحيض عامة ؛ وكانت الأمطار هي التي يعتمد عليها في معظم المدن لاكتساح الأقذار ، وكان تدنيس الآبار ينشر وباء اليفود ؛ وكانت المهار المي التي تتخد عادة ـ في البلاد الواقعة في المهار التي تستخام في عمل المدن والمعارف عليها في معظم المدن المهار التي تستخام في عمل المدن وعمل الحدة عليها في معظم المدن المهار التي تستخام في عمل المدن والمهارفين عامة عمل المدن المهارفين عامة عمل المدن والمهارفين عامة عمل المدن المهارفين توشعد عادة ـ في البلاد الواقعة في المهار المهارفي التي تستخام في عمل المدن المهارفي عامة عمل المدن المهارفين عامة عمل المدن المهارفين عامة عمل المدن المهارفين القرن التراب عمل المهارفين عامة عمل المهارفين القرن التراب عمل عمل المهارفي المهارفين القرن القرن الفراد الواقعة في المهارفين عامة عمل المهارفين القرن القرن القرن القرن القرن الفراد الواقعة في المهارفين القرن القرن القرن القرن القرن القرن القرن القرن القرن المهارفين القرن القرن المهارفي القرن القرن المهارفين القرن القرن القرن القرن القرن القرن القرن القرن المهارفين القرن القرن المهارفين القرن القرن المهارفين القرن المهارفين القرن القرن المهارفين القرن المهارفين القرن المهارفين القرن المهارفين المهارفين المهارفين المهارفين المهارفين المهارفين القرن المهارفين الم

شمال الألب - من المجارى المائية التي تتلقي أقنار المدن (AN) . وكانت إيطاليا أكثر رقياً من غيرها من البلدان ، وأكبر السبب في هذا ما ورثته عن المرومان ، وما سنه فردريك الثانى ، من تشريعات مستنبرة لإزالة الأقذار ، ولكن عدوى الملاريا الناشئة من المستنبعات المحيطة بها جعلت رومة مدينة غير صحية ، قتلت كثيرين من كبار موظفها وزائرها ، وأنجت للدينة بين الفينة والفينة من الجيوش المعادية التي استسلمت للحمي وسط انتصاراتها .

الفيرالتادس

ألىرتس مجنس ١١٩٣ – ١٢٨٠

تبرز أمامنا في تلك الفترة من الزمان أسماء ثلاثة رجال وهبوا أنفسهم العلم : أدلارد الباثى Adelard of Bath ، وألبرتالعظم ، وروچر بيكن . فأما أدلار د فقد تلتى العلم في كثير من الأقطار الإسلامية ثم عاد إلى إنجلترا وكتب (حوالى عام ١١٣٠) حواراً طويلاسماه الدُّستُةِ الطبيعيةِ يشمل كثيراً من العلوم . ويبدأ الكتاب على الطريقة الأفلاطونية بوصف اجتماع أدلار د يجاعة من أصدقاته ، ويسألم عن الحالة فى إنجلترا ، فيجيبونه بأن الملوك يشعلون نبران الحروب ، والقضاة يرتشون ، وكبار رجال الدين يسرفون فى شرب الخمر ، وأن العهود جميعها تنكث ، والأصدقاء كلهم يتحاسدون . ويتقبل أدلارد هذا على أنه هو الحال الطبيعية التي لا تقبل النغير ، ويعرض على أصدقائه أن ينسوها . ويسأل ابن أخ لأدلارد عمَّه ماذًا تعلم في بلاد المسلمين؟ فيجيبه بأنه يقضل علوم السلمين عن علوم المسيحين ، فيتحداه أصدقاؤه وتكون أجوبته لهم مختارات طريفة من جميع علوم ذلك العصر . ويندد فها بما تفرضه التقاليد والسلطات من قيود ثقيلة ويقول : لقد تعلمت عن أساتلتي العرب أن أسترشد بالعقل ، أما أنتم يامن أسرتكم ... السلطات ، فإنكم تسرون إلى حيث يقودكم المقود والزمام . . . وماذا عسى أن تسمى السلطة غير المقود والزمام ؟ ﴾ إن الذين يحسبون الآن من أصحاب السلطان إنما حصلوا على سلطانهم باتباع العقل ، لا السلطات. ثم يقول لابن أخيه : و فإذا شئت إذن أن تسمع مني أكثر مما سمعت فأعط العقل وخذه . . . إذ ليس شيء أكثر ضماناً من العقل ١٠٠ وليس شيء أكثر كذباً من الحوام (٩٨٨ . ويدلى أدلارد ببعض الأجوبة الطريقة وإن كان يسرف فى اعتهاده على المنطق الاستدلالى . فإذا سئل ما الذى يمسك الأرض فى الفضاء أجاب بأن أسفل الأرض ومركزها شىء واحد ؛ ويسأل إلى أى مدى يسقط الحجر إذا ألتى فى ثقب يحترق مركز الأرض إلى الجانب الآخر منها ؟ فيجيب بأنه لا يصل إلا إلى مركز الأرض . وهو يذكر فى وضوح مبدأ عدم فناء المادة ، ويقول إن مبدأ الاستمرار العالمي يجعل وجود الفراغ مستحيلا . وجملة القول أن أدلارد برهان ساطع على يقظة العقل فى أوربا المسيحية أثناء القرن الثاني عشر . فقد كان شديد التبحس الإمكانيات العلوم ، ويسمى فى زهو وخيلاء عصره أى عصر أدلار د بالعصر الحديث المالية التاريخ كله .

أما ألمرتس مجنس فلم تبلغ روحه العلمية ما بلغته روح أدلارد ، ولكن شغفه بمعرفة حقائق الكون أدى به إلى إنتاج ضخم أكسه اسم و العظيم ، . واتخذت معظم موالفاته العلمية ، كما اتخذت معظم موالفاته الفلمية ، صورة شروح لرسائل أرسطو المقابلة لها ، ولكنها تحتوى من حين إلى حين نسات جديدة من الملاحظات المبتكرة ، وتتاح له وسسط سحب المقتبسات المنقولة عن الموافقين اليونان ، والعرب والهود فرص ينظر فها إلى الطبيعة بنفسه . وقد زار معامل التجارب ، والمناجم ، ودرس كثيراً من المادن المنتوعة ، وفحص عن حيوان بلاده الأصلة — ألمانيا — ونباها ، ولاحظ حلول البحر عمل الأرض والأرض محل البحر ، وفسر بلمك وجود الحفريات القديمة في المصخور . وإذا كانت فلسفته قد طفت على علمه فحالت بينه وبين الدقة العلمية ، فقد ترك نظرياته و القباية ، واتخ نظرياته و القباية ، والمايانية ، وترن في نظرياته و القباية ، والماية ، مثال ذلك ادعاوه أنه رأى شعر الخيل يتحول في الماعات دينه رابين المناه المعارد وبرفض تفسير الظواهر الطبيعية بأما تحدث ديدان . ولكنه كان مثل أدلارد يرفض تفسير الظواهر الطبيعية بأما تحدث

النظريات القبلية هي التي تكون في عقل الباحث قبل أن يثبّها بالأدلة الادنقرائية .

نبعاً لإرادة الله ، ويقول إن الله يعمل وفق علل طبيعية ، وإن من واجب الإنسان أن يبحث عن الله في هذه العلل نفسها .

وقد طمست ثقته بأرسطو رأيه فى التجارب العلمية . وإنا لتثعر عقولنا فقرة شهيرة فى الكتاب إلعاشر من مؤلفه De vegetabilis يقول فها : ﴿ إِنَ التَجْرِبَةُ وَحَدَّهَا هِي الَّتِي تُوصَلُ إِلَى الْحَقَائِقِ الْمُؤكَّدَةُ experimentum ولكن كلمة تجربة Experimentum solum Certificat كان لها وقتئذ معنى أوسع من معناها فى هذه الأيام كما يبذو ذلك من سياق هذه الفقرة : « إن كل ما هو مدون هنا إما ثمرة تجربتنا أو مأخوذ من مؤلفين نعلم أنهم قد كتبوا ما أيدته تجربتهم الشخصية ، لأن التجربة وحدها هي التي توصل إلى الحقائق المؤكدة ۽ . ومع هذا كله فقد كان عمل ألبرتس تقلماً سليا عظيم النفع . ويسخر ألبرتس من المحلوقات الأسطورية أنثال الحيوان الذي تصفه أسد ونصفه نسر ؛ والهولة المفترسة القذرة التي لها جسم امرأة ، وجناحا الطير الجارج ومخالبه وقدماه ، والتي هي رسول انتقام الآلهة ، والحرافات. وقصص الحيوانات الخرافية الواردة في أحد الكتب الواسعة الانتشار في ذلك الوقت وهو كتاب Physiologus ؛ ويذكر فيها يذكره أن ﴿ الْفَلَاسَفَةَ يَذَكُرُونَ كَثَمْرًا مَنْ الأكاذيب؛ (٩٠٠) . وكان في بعض الأحيان ــ ولا نقول في أغلب الأحيان ــ بجرى تجارب ، كها حدث حين أثبت هو ورفاقه أن وزير الحبحسدة. (Cicada) ظل يغني لحظة وجيزة بعد أن قطع رأسه . ولكنه كان يثق بأقوال باني ثقة الإنسان المرىء بأولياء الله الصالحين ، ويصدق تصديق السذج البلهاء القصص الى يرومها الكذابون من صائدى الوحوش و السمك .

و قد حضع لزمانه حين آمن بالتنجيم، ويعلم بالغيب وعز اقوى عجيبة للجواهر والأحجار، وبدعى أنه شاهد بعينيه ياقوتة زرقاء شفت قرحاً. وهو يرى، كما يرى تومس الوائق من نفسه ، أن السحر من الحقائق المؤكدة ، وأنه من فعل الهفاريت ، ويؤمن بأن الأحلام تغيى أحياناً بالحوادث المسقبلة ، ويقول :

﴿ إِنَ النَّجُومِ فَى الحَمْيَةَ هِي النِي نُحكُم العالم ﴾ في الأحوال الجسمية ، وأن القران الكواكب يفسر في أغلب النان ﴿ أحداثاً خطرة وأعاجب عظيمة ﴾ ، وأن المذنبات قد تنذر بالحروب وموت الملوك : ﴿ إِنْ فِي الإِنسان مصدراً مزدوجاً العمل _ القطرة والإرادة ؛ فأما فطرته فتحكما النجوم ، وأما الإرادة فحرة ؛ لكن الإرادة إذا لم تقاوم ، اكتسحها الفطرة و ويعتقد أن في وسع المنجمين القاحرين أن ينبئوا إلى حد كبر بما سوف يحدث للإنسان في حياته ، أو بنتيجة ما سوف يقدم عليه من المشروعات ؛ وذلك بالنظر في مواقع النجوم ، وهو يقبل ببعض التحفظ نظرية الكيميائين القدامي، النظر في مواقع النجوم ، وهو يقبل ببعض التحفظ نظرية الكيميائين القدامي، (أو المذهب النووى الحديث) القائل بتحول العناصر بعضها إلى بعض (٢٠).

وكان أحسن ما عمله في علم النبات . فقد كان أول عالم في النبات من أيام ثيوهراسطس (على قدرما وحمل إليه علمنا) يدرس النبات للعلم بالنبات للعلم بالنبات ألم ثيوهراسطس (على قدرما وحمل اليه علمنا) يدرس النبات العلم بالنبات و ورائحتها ، وأجزاءها ، وثمارها ، ودرس قوة إحسامها ، ونومها ، وتذكرها وتأثيثها ، ونموها ، وحاول أن يكتب مقالا في الفلاحة . وقد دهش همبولدت Humboldt إذ وجد في كتاب النبات الألبرت : و ملاحظات غاية في الدقة عن التركيب المضوى للنبات وعن وظائف أعضائه ١٩٦٩ . وأما كتابه الضحم في الحيوان فعظمه شرح الأرسطو ، ولكننا نجد فيه أيضاً ملاحظات أصيلة . فهو يحدثنا مثلا بأنه و سافر في بحر الثيال للقيام ببحوث فيه ، وبأنه نزل في الجزائر ، وعلى الشواطئ الرملية ليجمع ، عاذج للدرس (١١) .

وذا ما يُنظرنا إلى هذه الكتب في ضوء علمنا الحاضر حكمنا على أن فيها كثيراً من الأغلاط، ولكننا إذا نظرنا إليها في ضوء ما كانت عليه عقول الناس في الزمن الذي ألفت فيه حكمنا بأنها من أعظيم ما أثمرته العقول في العصور الوسطى . فقد كان الناس فى ذلك الوقت يعترفون بأن ألعرت أعظم للعلمين فى زمانه ، ولقد طال به العمر حتى رأى رجالا من طراز بطرس الأسيانى Peter of Spain ، وفخسنت البوفيزى اللذين ماتا قبله يتقلون عنه فى مؤافاتهم . نعم إنه لم يكن فى مقدوره أن يضارع ابن سينا أو ابن ميمون أو تومس فى دقة الحكم وصدقه أو فى قبضته على ناصية الفلسفة ، ولكنه كان أعظم علماء التاريخ العلميمى فى زمانه .

الفصلالتيابع

روجر بیکن –حوالی عام ۱۲۱۶ –۱۲۹۲

ولد أشهر علماء العصور الوسطى في سمرست حوالي عام ١٢١٤ ، ونحن على يقين من أنه عاش ح عام ١٢٩٢ ، وأنه قال عن نفسه في عام ١٢٦٧ إنه شيخ كبير (٩٦) . ودرس في أكسفورد على جروستسيَّى وكسب من هذا العالم المحيط بشي الفنون افتناناً بالعلم . وكانت الروح الإنجليزية ، روح النفعية والاعتماد على الاختبار، قد أُخذَت تتشكل . وسافر بيكن إلى باريس حوالى عام ١٧٤٠ ، ولكنه لم يجد فها الحافز القوى الذى بعثته فيه أكسفورد ، وأدهشه كثيراً أن لم يجد إلا قلة ضئيَّلَةً من أساتلة جامعة باريس تعرف لغة من لغات الْعلم خلاف اللغة الانينية ، وأنهم لايولون العلم إلا قدراً ضئيلا من وقتهم ، وأنهم ينفقون الكثير منه في الجدل المنطقي والميتافيزيقي وهو اللك كان يبدو لبيكن عديم النفع في الحياة إلى جد الإجرام. وهرس الطبوشرع يكتب رسالة في تخفيف متاعب الشيخوخة . وسعى للحصول على ما يلزمه من المعلومات لهذه الرسالة بالدنمر إلى إيطاليا ؛ وحرس اللغة اليونانية في بلاد اليونان الكبرى(*) ، وفيها عرف بعض المؤلفات الطبية الإسلامية ، ثم عاد إلى أكسفورد في عام ١٢٥١ ، وانضم إلى هيئة التدريس في تلك الجامعة ؛ وكتب في عام ١٢٦٧ يقول إنه أنفق في العشرين السنة السابقة على ذلك العام ألني جنيه في شراء ؛ الكتب السرية والآلات ، وفي تعليم الشبان اللغات والعلوم الرياضية(١٧) . واستأجر البهود ليعلموه هو وطلابه اللغة العبرية وليعاونوه على قراءة العهد القديم بلغته الأصلية .

^(,) أن البونان في الزمن القدم بالمدرن هذا الاسم على جنوب إيطالية . (المارجم)

وانضم لملى طائفة الرهيان الفرنسيس حوالى عام ١٢٥٥ ، ولكن يبدو أنه لم يصبح فى يوم من الأيام قسا .

وعاقت نفس بيكن ميتافنزيقية المدرسين، فألثى بنفسه بحاسة بالغة في تبار العلوم الرياضية ، والتاريخ الطبيعي ، والفلسفة . وليس من حقنا أن نفكر فيه على أنه مبتكر فذ ، وصوت عالمي يدوى في بيداء الفلسفة المدرسية ؛ لأن الواقع أنه كان فى كل ميدان مديناً لمن سبقوه ؛ وأن ما وهب من القدرة على الابتداع كان هواللدوة المحتومة لتطور طويل المدى. ولقد وضع (Bartholomew the Englishman ألكسندر نكهام، وبارثلميو الإنجلىزى وربرت جروستستى ، وآدم مارش Adam Marsh فى أكسفورد تقاليد. علمية ثابتة ، ورشما بيكن ، وأعلنها إلى العالم ، وكان يعترف بفضل أولئك السباقين عليه ويثني علمهم ثناء لا حد له : وكان يعترف كذلك بما للعلوم والفلسفة الإسلامية من فضل عليه وعلى العالم المسيحي كله ، وبما هو مدين لليونان عن طريق العلماء للسلمين ؛ وأشار إلى أن علماء اليونان والمسلمين 1 الكفرة ، كانوا هم أيضاً ممن تلقوا الوحى والهداية من الله(٩٨) . وكان يجل إسحق إسرائيلي ، وابن جبرول وغيرهما من المفكرين العبرانبين ، ووجد في نفسه من الشجاعة ما يمكنه من أن يقول كلمة طيبة عن المهود الذين كانوا يقيمون في فلسطين حييًا صلب المسبح(٢٩) . ولم يكن يأخذ العلم بنهم عن العلماء وحدهم ، بل كان يأخله أيضًا عن أى إنسان تستطيع معارفه في الصناعات اليدوية أو الأعمال الزراعية أن تزيد ما لديه من معلومات . وكتب في هذا المعنى بتواضع لا عهد لنا يه :

لاريب قى أن إنساناً ما لن يستطيع ، قبل أن برى الله وجهاً لوجه ، أن يعرف شيئاً مؤكداً تأكيداً نهائيا ... لأنه لا يوجد إنسان ملم بجميع أحوال الطبيعة إلماما بمكنه من أن يعرف كل شىء .. عن طبيعة ذبابة واحدة وخواصها.. وإذ كانت الأشياء التى يجهلها الإنسان لاحصر لها ؛ وكانت أعظم وأجمل إذا قيست إلى ما يعرفه مها ، فإن من يمتلح نفسه بكثرة ما يعرفه ، يحبول قلد اختلت موازين عقله . وكلما زاد الناس حكمة ، كانوا أكثر تواضعاً واستعداداً لتلقي العلم من غيرهم ؛ وهولاء لا يحتقرون من يأخلون عنه لسذاجته ، ولكنهم يظهرون التواضع للفلاحين ، وللعجائز من النساء وللأطفال ، لأن السلح وغير المتعلمين يعرفون أشياء كثيرة تحتى على الحكاء . . . ولقد عرفت أنا تفسى من أناس ذرى مكانة وضيعة حقائق أكثر أهمية من التي عرفها من جلة العلماء الذائمي الصيت . فليحلر كل

واندنع في العمل بجهد وسرعة أثرتا في صحته حتى اعتل جسمه في عام ١٢٥٦ ، فانسحب من الحياة الجامعية ولم تعد نعرف عنه شيئاً في العشر السنن التالية . وأكبر الظن أنه ألف في هذه الفترة بعض كتبه الصغيرة ، وتقدير أمثال : في اعسسات الحرقة وفي قرى العفتراء والطبيعة المحيية ، وتقدير الحاوثات الطبيعية . ووضع في هذا الوقت خطه « الكتاب الرئيسيي » وهو موسوحة من عمل رجل واحد أراد أن تكون في أربعة بجلدات : (١) النحو والمنطق . (٢) الرياضة ، والهيئة ، والموسيتي . (٣) البلوم الطبيعية والمنطق ، والخوافية ، والتنجيم ، والكيمياء القديمة ، والزراعة ، والراحة ،

وبعد أن كتب أجزاء متفرقة من هذه الموسوعة واتته فرصة خيل إليه أنها فرصة سعيلة إلىه أنها فرصة سعيدة ، فحالت بينه وبين إنجاد برنامجه . ذلك أن جاى فولك Quy فرصة سعيدة ، فحالت بينه وبين إنجاد قل شهرفبر ابر منام ١٢٦٥ وتسمى باسم كلمنت الرابع ، وجاء معه إلى البابوية ببعض الروح الحرة التي نشأت في جنوبي فرنسا من اختلاط الشعوب والمقائد اللينية . وكتب إلى بيكن في المجود ينه أمره بإرسال ٤ تسخة مبيضة » من مؤلفاته ١ مبراً وعاجلا »

و دون مبالاة بتحريم أى رئيس دينى، أو لأنمة الطائفة التي تنتمي إليها ١٠٠٠. وشرع ببكن بكل ما في وسعه من جهد (كما يتبين ذلك من أسلوبه الحماسي) يعمل ليتم موسوعته ؛ ولكنه خشى أن يتوفى كلمنت أو يفقد اهمامه بالعمل قبل تمامه ، فأجله ، وألف في اثنى عشر شهراً – أو جمع من مخطوطاته الرسالة الأولية المعروفة لنا باسم الكتاب الأكبر Opus Maius ، وظن أن هذا المؤلف نفسه قد يكون أطول نما يريده البابا الكثير المشاغل فكتب عناصر منه سماها الكتاب الأصفر ؛ وأرسل هدين المخطوطان في أوائل عام عناصر منه سماها الكتاب الأصفر ؛ وأرسل هدين المخطوطان في أوائل عام في طريقها إلى البابا فكتب خلاصة أخرى لآرائه هي الكتاب الرابع وأرسلها إلى كلمنت مع رسول خاص ، مصحوبة بعدسة ، وأشار على البابا أن يجرى أن كلمة واحدة لم ترسل إلى الفيلسوف من البابا نفسه أو نمن جاموا بعده أن كلمة واحدة لم ترسل إلى الفيلسوف من البابا نفسه أو نمن جاموا بعده احراقاً منه أو منهم بوصول هذه الكتب .

فالكتاب الوكر إذن هو عندنا « أكبر مولفات » بيكن ، وإن كان هو لم يرده إلا أن يكون فائمة لمولفات ، وهو كتاب ضخم يضم عامائة صفحة مقسمة إلى سبع رسائل : (١) في الجهل والحطأ . (٢) وفي العلاقة بن الفلسفة وعلوم الدين .(٣) وفي دراسة اللغات الأجنبية . (٤) وفي فائدة العلوم الرياضية . (٥) وفي فن المنظور والبصريات ، (٦) وفي العلوم التجريبية . (٧) وفي الفلسفة الأخلاقية . وفي الكتاب قدره الخليق به من السخافات ، وفيه كثير من لاستطراد ، وأكثر مما يلبق من المتبسات الطويلة من مولفات غيره ؟ ولكنه عناز بالقوة ، والإخلاص ، والاتجاه إلى القصد ماشرة ، ويقبل عليه

القراء في هذه الأيام أكثر من إقبالهم على أى مواقف آخر من موافقات العصور الوسطى في العلوم أو القلسفة . وإنا ليسهل علينا أن نفهم الاضطراب الحمامي ، والإشادة بالبابوية ، والحرص الشديد على الجهر بالقسك باللين القويم ، والأرول بالعلم والفلسفة إلى منزلة الحدم لعارم اللدين ، نقول إنا ليسهل علينا أن نفهم وجود هذا كله في كتاب يبلغ هذا المبلغ من انساع المدى وتعدد الموضوعات ، كتب ليكون خلاصة عاجلة ، ويراد به الحصول على تأييد البايا للربية العلمية والبحث العلمي . ذلك أن روجر بيكن كان يشعر يه فرانسس بيكن وهو أن تقلم العلوم في حاجة إلى معونة روساء الدين وكبار رجال الدولة ، وإلى أموالهم لتبتاع مها الكتب ، والآلات والسجلات ، ومعامل الاختبار ، والذاء أجور الموظفين

وكأنما أراد أن يستبق سميه إلى تحطيم و الأصنام و يلمائة عام ، فبدأ بذكر أربعة أسباب هي التي توقع الإنسان في الحنطأ وهي و الاقتداء بالمراجع الراهنة غير الجديرة بأن يقتدى بها ، والعادة التي استقرت من زمن بعيد ، وإحساس الجماهير الجاهلة ، وتفشية الجهل بستار من التظاهربالحكمة و(١٠٠٠). ويحرص على أن يضيف إلى هذا أنه و لايشر بحال من الأحوال إلى تلك السلطة القوية الموثوق بها التي .. وهيت إلى الكنيسة و . (٥) وهو يأسف لتسرع أهل زمانه واعتقادهم أنه يكفي لأن تكون قضية ما في رأيهم قد ثبتت بالدليل إذا وجد في أرسطو ، ويجهر بأنه لو أوتي السلطة الكافية لأحرق جميم كتب هذا الفيلسوف ، لأنها في رابه منبع الأخطاء ومصدر الجنهل (١٠٠٠) ، ثم تراه بعد هذا لاتخلو صفحتان من كتابه دون عبارة مقتيسة من أرسطو .

ويكتب فى أول الجزء الثانى يقول : « وبعد أن أقصيت أسباب الحلفاً الأربعة وألقيت ما فى الدرك الأسقل أحب أن أبين حكمة واحدة لا أكثرهى المحكمة الكاملة ، وهى الحكمة التى مجتوبها الكتاب المقدس ، وفى رأبه أنه (11 - ج ١ - عبد ٤) إذا كان فلاسفه اليونان قد أهموا نوعاً من الإلهام الثانوى ، فسبب ذلك أنهم اطلعوا على كتب الأنبياء والبطارقة (١٠٠٥). ويبلو أن ببكن يومن بقصص الكتاب المقدس إيماناً ساذجاً ، ويعجب لم لا يسمح الله للناس أن يعيشوا سمائة عام (١٠٠٥). ويومن كذلك بقرب نزول المسيح وبهاية العالم . وهو يدفع عن العلم لأنه يكشف عن الحالق في خلقه ، ولأنه يمكن المسيحين من أن بهلوا الكفار اللين لايتأثرون بالكتاب المقدس . وهكذا ، يتأثر العقل البشرى فيومن بمفيقة مولد المسيح من العلمراء ، لأن بعض المحلوانات تحمل وهي عدراء وتلد صفاراً ، ومن أمثلة ذلك الصقورة والقردة ، كما يقول أمروز في كتابه الأيام الستر . هذا إلى أن الحيل والقردة ، كما يقول أمروز في كتابه الأيام الستر . هذا إلى أن الحيل في كثير من البلدان تحمل بفعل الرباح وحدها حين تشهى الذكر كما يقول العلمية لا أكثر .

ويبلل ببكن في الحزم الثالث من كتابه غاية جهده ايملم البابا اللغة الممرية لأن دراسة اللغات في رأيه لازمة للدين ، والفلسفة ، والعلوم ، وذلك لأن الترجمة أيا كانت لا تنقل معنى الكتب المقدسة أو أقوال الفلاسفة الكفرة نقلا دقيقاً . ويتحدث ببكن في الكتاب المؤسفر حديثاً علميا مدهشاً عن التراجم المختلفة للكتاب المقدس ويثبت علمه الواشع بالنصوص المعبرية واليونانية . ويقترح أن يعمن البابا لجنة من العلماء المتبحرين في اللغات العمرية واليونانية ، واللاتينية لمراجمة الترجمة اللاتينية بطرس لمبارد هي التي تدرس مع علوم الدين ويحث على إنشاء كرامي بطرس لمبارد هي التي تدرس مع علوم الدين ويحث على إنشاء كرامي أسائدة لتدريس اللغات العمرية واليونانية والعربية ، والكلدانية ؛ ويعارض أسائدة لتدريس اللغات العمرية واليونانية والعربية ، والكلدانية ؛ ويعارض في استخدام القوة لتحويل غير المسيحين إلى الدين المسيحى ، ويتساءل

 ⁽ه) يريد الأيام الستة التي علق الله فيها العالم . (المترجم)

كيف تستطيع الكنيسة أن تنصل بالمسيحين اليونان ، والأرمن ، والسودين ، والكلدان إلا عن طريق لغائم . وكان يبكن يحمل بجد في هذا الميدان ويعظ الناس ، وكان أول العلماء في العالم المسيحي الغربي يتم وضع كتاب نحو يوناني ليستخدمه الذين يعرفون اللانينية ، وأول مسيحي يوالف نحو اللغة العبرية . وكان يقول إن في مقدوره أن يكتب باللغتين اليونانية والعبرية ، ويبدو أنه درس أيضاً اللغة العربية (١٠٧).

وحنن يصل پيكن إلى موضوع الرياضيات تصبح كتبه مسرحاً للتحمس البَّليغ والنظريات الغامضة . ويقول عن الرياضيات : • واعتقادى أن العلوم الرياضية لازمة وأنها تلي في ذلك اللغات ي . ويكشف عن خضوءه لتأثير الدين حين يقول إن العلوم الرياضية ﴿ يجب أن تساعد على معرفة مكان الجنة والنار ، ، وتزيد من علمنا بجغرافية الكتاب المقدس والتواريخ المينية ، وتمكن الكنيسة من إصلاح التقويم(١٠٨) . ويقول : ولنلاحظكيف تساعدنا و القضية الأولى في الهندسة ، – وهي إنشاء مثلث منساوى الأضلاع على خط معلوم ... على و أن ندرك أننا إذا سلمنا بشخص الله الأب ، تبدى أمامنا الثالوث ذو الأشخاص المتساوين ،(١٠٩) ثم ينتقل من هذا المركز السامى الذي يضع فيه الرياضة فيستبق استباقا مدهشا علم الطبيعة الرياضية الحديث بإصراره على أن العلم لا يبلغ حد الكال في الخصائص العلمية إلا إذا صاغ نتائجه كلها في صورة رياضية ، وإن كان لا بد له أن يجعل التجارب هي الطريقة التي يستخدمها في الوصول إلى تلك الغاية . وعنده أن جميع الظواهر غير الروحية أثر من آثار المادة والقوة ، وأن جميع القوى تعمل في تناسق وانتظام ، ولهـــــــــا فإنها يمكن التعبير عنها بمحلوط وأشكال • ومن الواجب تحقيق الأشياء بالبراهن المبينـــة بمخطوط وأشكال ، ؛ وليست جميع العلوم الطبيعية فَى آخَر الأمر إلا علوما رياضية (١١٠)

ولكن إن كانت الرياضة هي النتيجة ، فإن التجربة يجب أن تكون وسيلة العلم وطريقة اختيار نتائجه . ولقد أحدث بيكن ثورة علمية أدائها الرياضيات والنجارب ، على حين أن الفلاسفة المدرسين من أبلار إلى تومس أكوناس قد وضعوا كل ثقتهم في المنطق ، وكادوا يضمون أرسطو إلى الثالوث المقدس ، لأنهم في واقع الأمر جعلوه روحا قدسا . فهو يقول إن أدق النتافج التي يؤدي إلىها المنطق تتركنا غير واثقين من صدقها حتى تؤيدها الحبرة ، فالحرق وحده هو اللك يقنعنا بحق أن النار تحرق ؛ و ومن ُ برد أن يبتهج ابتهاجاً الأريب فيه بالحقائق الكامنة وراء الظواهر الطبيعية فلمهب نفسه التجارب العلمية ١١١١). ويبدو أنه في بعض الأوقات يرى أن التجربة experimentum ليست وسيلة منوسائل البحث ، بل هي الطريقة النهائية من طرق البرهان بوضع الأفكار – التي وصل إلها الإنسان بالحبرة والاستدلال ــ موضع الاختيار . وذلك بأن تصنع على أساسُها أشياء ذات فاثلمة عملية(١١٢٦) . وهو بدرك ويعلن في وضوح . أكثر من فرانسس بيكن أن التجربة في العلوم الطبيعية هي البرهان الذي لا برهان غيره . ولم يكن يدعى أن هذه الفكرة جديدة أتى بها من عنده ، بل يعتقد أن أرسطو ، وجالينوس ، وبطليموس ، والعلماء المسلمين ، وأدلارد ، وبطرس الأسهانيولي ، وربرت جروستسيّى ، وألبرنس تُمِنس وغمرهم قد قاموا بالتجارب العلمية أو امتلحوها ، وكل ما فعله روجر بيكن أن جعل الضمني صريحاً ؛ ؛ وأن ثبت راية العلم في الأرض المنتزعة من بيداء الحهل .

ولم يفد روجربيكن العلوم نفسها ، كما لم يفدها فرانسس بيكن ، إلاق القليل المذكلة لا يفقى ، إذا استثنينا من ذلك علم البصريات وإصلاح التقويم . ذلك أن هذين الرجلين لم يكونا عالمن بل كانا من فلاسفة العلم . وقد واصل روجر عمل جووستسي وامثاله فاستنتج أن التقويم اليوليوسي بالغ في طول السنة الشمسية فزادها يوماً في كل ١٤٥ مستة – وهو أدق تقدير وصل إليه العالم في ذلك

الوقت - وأن التقوم كان في عام ١٧٦٧ مقدماً عن الشمس بعشرة أيام . و ولهذا اقترح إسقاط يوم من التقويم اليوليومي في كل ١٧٥ سنة . ولا تكاد الصفحات المائة التي خصها بعلم الجغرافية في الجزء الرابع من الكتاب الكيم تقل براعة عن هذه الفكرة البارعة . فقد تحدث روچر بجاسة بالغة مع وليم ربسكري William of Rubresquis عن عودة زملائه الرهبان الفرنسيس من الشرق ، وعرف الشيء الكثير عنه ، وانطبع في ذهنه قول وليم إن تمة ملايين لا حصر لها من الناس لم يسمعوا شيئاً قط عن الدين المسيحي . وأعلن بالاستناد إلى أقوال وردت في أرسطو وسنكا أن و البحر الذي يفصل طرف أمهانيا الغربي عن شرق الهند يمكن اجتيازه في بضعة أيام قليلة جداً إذا كانت المربع مواتية ي ١٤٦٥ . وقد اقتبس كولميس الفقرة التي نقلت عنه في صصوم فرديناند وإزبلا في عام ١٤٨٠ وقال إنها مما أوحي إليه بالرحلة التي قام مها فرعام ١٤٨٠ المراحة التي قام مها في عام ١٤٨٠) .

وكأنماكان بيكن في العمل اللذي قام به في علم الطبيعية برى بعين الحيال المفترعات الحديثة ، وإن كان يغشاها من حين إلى حين الآراء السائدة في عصره . وإنى القارى* ترجمة حرفية الفقوات مشهورة يقفز فيها من القرن المشرين :

ينتص جزء من خسة أجزاء من كل علم بصنع آلات عظيمة الناع إلى القصى حد كالآلات التي تستخدم في الطيران ، أو بالانتقال في مركبات لاتجرها دواب، ولكنها تجرى مع هذا بسرعة لاتعادها قط سرعة أخرى؛ أو في عبور البحار من غير مجاديف وبسرعة أكبر مما يظن أنها مستطاعة على أيدى الآدمين. ذلك أن هذه الأشياء قد حدثت في أيامنا هذه . وليس من حتى أي إنسان أن يسخر أو بدهش منها . وهذا الجزء من العلم يوينا كيف نصنع آلات يستطاع يسخر أو بدهش منها . وهذا الجزء من العلم يوينا كيف نصنع آلات يستطاع

مها وفع أثقال لا يصدقها العقل أو إنزالها يغير مشقة ولاجهد ... (١١٥). ألا إن من المستطاع صنع آلات طائرة . . . إذا جلس الرجل فى وسط الواحدة مها أمكنه أن يديو دولاياً عجيب الابتكار تستطيع به أجنحة صناعية أن نضرب الهواء كما يضربه جناحا الطائر . و . و يمكن أيضاً صنع آلات يمثمي مها الإنسان في البحر أو اللهروفي قاعهما نفسه ، من غير خطر عليه (١١١) .

وفى السكتاب الأكبر فقرة فسرت بأنها تشر إلى البارود :

لقد كشفت فنون جديدة لمقاومة أعداء الدولة بستطاع بها إهلاك كل من يجرو على مقاومتها وإن لم يستخدم فى ذلك سيف أو غيره من الأسلحة التي تعتاج إلى الاتصال البدنى ذلك أن دويا مروعاً يصدر من قوة الملح المعروف بنبرات البوتاس إذا اشتعل فيه جسم ضئيل الحجم ، وهو قطمة صغيرة من الرق . . . وهذا اللهوى المروع يقوق هزيم الرعد وينبعث منه بريق أشد من البرق الذي يصحب الرحد .

وفى فقرة الملها مدسوسة على الكتاب الثالث يضيف يبكن إلى القول السابق قوله إن بعض اللعب ه المفرقعة » تستعمل فى ذلك الوقت وتحترى على خليط من نير ات البوتاس (بنسبة ٢ (٢٩٪) والفحم النباقى (بنسبة ١٩٠٤٪) والفحم النباقى (بنسبة ١٩٠٤٪) ويشر إلى أن قوة هذا المسحوق المفرقعة يمكن مضاعفتها بوضعه فى داخل مادة صلبة . وهولايدعى بأنه اخترع البارود ، وكل ما فى الأمر أنه كان من أوائل من درسوه كيميائياً وتنبأوا بإمكانياته .

وخيرما كتبه بيكن على الإطلاق هوالجزء الخامس من الكتاب الدُّكمِ ه فى علم المنظور ٤.وفى الرسالة المكلة له فى نضاعف الروُمة . وقدتفرعت هذه المقالة البارعة فى البصريات من كتاب جروستسى عن قوس قزح، ومن تاخيص وتلو Wifelo لكتاب ابن الهيثم ، ومن دراسات علم البصريات التى تقلت من ابن سينا ، إلى الكندى ، إلى يطليموس ، وبلغت غايبًا فى إقليدس (٣٠٠ ق.م) المذى برع فى تطبيق الهندسة النظرية على حركات الضوء . وكان من البحوث التى قام ها بيكن : هل الفوء هو انبعاث جزيئات من الجسم المرثى ؟ أو هل هو تحرك الوسط الكائن بين هذا الجسم والعين ؟ ويعتقد بيكن أن كل جسم مادى يشع قوة فى جميغ الاتجاهات ، وأن هذه الإشعاعات قد تنفذ فى الأجسام الصلبة :

ليس تمة جسم يبلغ من الكثافة حداً يمنع الأشعة منماً باتاً من أن تمر فيه ذلك أن المادة التي تتركب منها الأجسام واحدة فيها جميعاً ، ولهذا فليس محة جسم لا تحدث الأفعال التي تصحب مرور شعاع ما تغيراً فيه ... إن أشعة الحرارة والصوت تحترق جدران إناء من اللنعب أو الشبه ، ويقول بوليشيوس إن عن الوشق (*) تحترق الحدران السميكة (١١٨٨) .

ولسنا واثقين من هذه القوة المعزوة إلى الوشق ، ولكننا إذا استشينا هذا القول حق علينا أن نصجب جذا الخيال الجرىء لذلك الفيلسوف ، وهو هذا الخيال المياسك في كل أجزائه ، وحلول بيكن وهو يقوم بالتحارب على المحدسات والمرايا أن يصوغ قوانين انكسار الضوء ، وانعكاسه ، وقعل الأشمة الضوئية في تكبير الأجسام وتصغيرها . ومثل لنفسه قدرة العدسة المحدية على تركيز كثير من أشعة الشمس في نقطة واحدة ، ثم تشتيت هذه الأشعة خلف هذه التعطة لتكون مها صورة مكبرة فكتب يقول :

فى مقدورنا أن نشكل الأجسام الشفافة (المدحنات) ونرتبها بالنسبة إلى قوة بصرنا واللجسام المرئية عرتيباً يجعل الأشعة تنكسر وتنحنى في أى اتجاه نريده ، فنرى منأية زاوية نشاء الجسم قريباً منا أوبعيداً عنا . وعلى هذا فإن في وسعنا أن نقرأ أصغر الحروف من يعد لا يصدقه الإنسان ، وأن نعد حبات

⁽ o) Lynx (o وه. حيران من فصيلة الهر مرتفع الجسم عند مؤحره ، فو شعر طويل ، و ذيل قصير ، تنسّبي أفذاد بحصيلتين من الشعر ويقال إنه حاد البحم . (المترجم)

الغراب او الرمل ... وعلى هذا فإن جيشاً صغيراً يمكن أن يبدو للناظركبيراً ... وقريباً منه كل القرب ... وفى وسعنا أيضاً أن نجعل الشمس ، والقمر ، والتجوم تبدو كأنها قد نزلت إلينا ، ... وما إلى هذا من الظواهر الكثيرة المائلة نما لا يقبله حقل الشخص الذي يجهل الحقائق ... (١١١) ويمكن إلى هذا تصوير السياء بكل ما لها من طول وحرض بصورة مجسمة تتحرك حركتها اليومية ، وقيمة هذا عند الرجل العاقل تعادل نمكة بأسرها ... وثمة عجائب أخرى غير هذه يخطئها الحصر ويمكن حرضها على العن (١١٢).

تلك فقرات ذات رومة وجلال ، ويكاد كل عنصر من عناصر النظرية التى نبسطها يوجد قبل بيكن وخاصة فى كتب ابن الحيثم ، ولكنه هو الذى جمع مادتها كلها فى صورة عملية ثورية استطاعت وقت أن حل أوانها أن تبدل العالم . وهذه الققرات هى التى أرشدت ليونارد دجس Leonard Diggts (المتوفى حوالى ١٩٧١) إلى وضع التظرية التى اخترع المرقب على أساسها (١٣٧٧)

ولكن ما الذى يحدث إذا زاد تقدم العلوم الطبيعية من قدرة الإنسان دون أن يسمو بأغراضه ؟ لعل أكثر نظرات بيكن نقاذاً إلى الصميم هى سبقه إلى تصوره شكلة لم تتضمح للعالم إلا فى أيامنا هذه ، فهاهو ذا فى السكتاب الأكمر يعر عن احتقاده الراسخ أن العلم وحده لاينجى الإنسان :

كل هذه العملوم السالفة الذكر تظرية . ولسنا تذكر أن لكل علم وجهة علية ؛ ... ولكن الفلسفة الأخلاقية وحدها هي التي نستطيع أن نقول عنها ... إنها عملية في جوهرها ... لأنها تبحث في سلوك الإنسان ، في الفضيلة والرذيلة : في السعادة والشقاء ... والعلوم الأخوى كلها لا قيمة لها إلامن حيث أنها تعين على العمل الصالح ؛ وعلى هذا الاحتبار تصبيح العملوم و العملية ؛ > كالتجارب والكيمياء ، وغيرهما علوماً نظرية إذا قورنت بالعمليات التي تعنى ما العلوم الأخلاقية أو السياسية . وعلم الأخلاق هذا هوسيد كل فرع من فروع الفلسفة ٢٠٠٠>



﴿ الصورة رقم ٩ ﴾ [كهاردوزجته أوثا – في كتدرائية نومبرج

ويصور بيكن حكما الأخرى صالح الدين لا في صالح الفلسفة ، فبالأخلاق وحدها يويدها الدين يستطيع الإنسان أن ينجى نفسه ، ولكن أى دين يقصد ؟ إنه بحدثنا عن ندوة الأديان – البوذية ، والإسلام ، والمسجعة وهي النسلوة التي عقسلات ، على ما يقول وليم الربرسكوى في قرقورم وهي النسلوة التي عقسلات ، على ما يقول وليم الربرسكوى في قرقورم الأديان الثلاثة ، ويصلد حكمه في صالح الدين المسيحى ، ولكنه لا يصدرهذا الحريان الثلاثة ، ويصدر حكمه في صالح الدين المسيحى ، ولكنه لا يصدرهذا الحكم له بوصفه ديناً يتعبد به الناس في المالم وكنى . وهويشمر بأن البابوية ، مهما وجه إلها جروستسى من نقد لاذع ، هي الرابطة الروحية لأوربا ، وبدوجا تحرق المقائد والحروب ، وكان يأمل أن يدعم الكنيسة بالعلوم ، واللغات ، والفاسفة ليمكها من أن تحكم المالم حكما روحياً خيراً من حكما الحاضر (١٣١) . وخم كتابه كما بدأ بالجهر الصادر عن عقيدة قرية بولائه للكنيسة ، ويمجد في نهايته القربان المقدس – كأنه يقول إن الإنسان إذا لم يعمل من حن إلى حن للانصال بأسمى مثله الملبا احترق في لهيب هلما المالم .

ولعل حجز البابوات عن الاستجابة بوسيلة ما إلى المنج الذى وضعه بيكن وإلى دعواته المتكررة قد أظلم روحه أمرٌ قلمه . وكانت تتيجة هذا أنه نشر في عام ١٩٧١ مومرًا للدراسات المفلمة غركامل لم يضف إلا القليل للفلسفة ، ولكنه أضاف الشيء الكثير إلى الأمقاد الديئم التي كانت تمزق المدارس تمزيقاً . وفيه قضى قضاء عاجلا على الجدل الآخذ وقتلذ في الضعف بين الواقعية والصورية فقال : وليس الكلي الاتماثل عدة أفراد » و و في الفرد الواحد من الواقعية أكثر مما في الكليات كلها مجتمعة ه (١٧٥) . وأخذ بنظرية أوضعلن ووصل إلى أن جهود الأشياء كلها الإصلاح شأنها قد أحدثت سلسلة وطويلة من التعلورات (١٣٧) . كما أخذ بفكرة أرسطوالقائلة بوجود المقال الفاحل

أو العقل الكونى الذى 1 يسرى إلى عقولنا وينيرها 1 وأقترب التراباً شديداً من مبدأ وحدة الوجود الذى ينادى به اين رشد(١٣٧) .

ولكنه لم مهز مشاعر معاصريه بآرائه الفلسفية بقدر ما هزها مهجومه على منافسيه وعلى مبادئ زمانه الأجلاقية . ذلك أنه في مومر الدراسات الفلسفية كاد يلهب بسوطه جميع تواحي الحياة في القرنالثالث عشر : اضطواب نظام المحاكم اللبوية ، وانحطاط طوائف رهبان الأديرة ، وجهل رجال الدين ، وثقل مواعظهم وخلوها من التشويق ، وفساد أخلاق طلاب العلم ، وما في الفلسفة من لغو وتلاعب بالألفاظ . وذكر في رسالة له عن أخطاء العلمية في عمره ، وكتب في عام ١٩٧١ فقرة ربما تدعونا إلى التسامح في عيوب أمادنا هلده :

ير تكب في عصر نا هذا من الدنوب أكثر مما يرتكب في أي عصر قبله ...

الناس ؛ وغلت مر اجل الطمع في الصدور ؛ وأنشب الحسد أنيابه في جميع التفوس؛

والبلاط البابوى كله يسر بله الفجور بالمار ، والنهم هو سيدالحميع ... وإذا كان

والبلاط البابوى كله يسر بله الفجور بالمار ، والنهم هو سيدالحميع ... وإذا كان

هذا هو شأن الرأس فاذا عسى أن نفعل سائر الأعضاء ؟ فلننظر إلى كبار رجال

الدين كيف يجرونوراء المال ، ويهملون العناية بالأرواح ، ويرفعون إلى المناصب

العليا أبناء إخورهم وأخواتهم وغيرهم من الأصدقاء وأولى الأرحام ؛ والمحامن الماليا أبناء إخورهم وأخواتهم وغيرهم من الأصداء وأولى الأرحام ؛ والمحامن من

درجال اللدين ، لست أستنى أحداً مما أشاهده بيهم ؛ انظروا في أيتماوية تردوا ،

وهووا من شامخ بجدهم فرادى وجماعات ، وهاهم أولاء الرهبان (الإخوان)

الجدد قد فسدوا فساداً مروعاً وحادوا عن تقواهم الأولى . إن رجال الدين على

بكرة أبهم لاهم لمهإلا التكر ، والقجور ، والبخل ، وحياً ايمتمع طلاب العلم ...

لاتسمع مهم إلا اغتياب غير رجال الدين والتشهير بحروبهم ومنازعاتهم وغيرها من الرذائل . والأمراء ، والأشراف ، والفرسان يظلم بعضهم بعضاً ، ويشقون رعاياهم بحروبهم ومطالبهم الى لا حدثها والشعب الذي يشتى بأمرائه ، بحقد على هؤلاء الأمراء ، ولا يدين لهم بُولاء إلا إذا أرغم على ذاك فوة واقتداراً ؛ وقد أفسده المثل السبيُّ الذي ضُربه له سادته وكبراؤه ، فترى أفراده يظلم بخسهم بعضاً ويخدعه وينشه ، وتحن تشهد هذا كله بأعيننا في كل مكان ، وهم منهمكون في فستمهم ونهمهم ، وقد بلغوا من الانحطاط حداً يعجز اللسان عن النطق به . أما النجار والصناع فحدث عنهم ولاحرج ، لأن الخداع والنش هما ديدتهم في جميع أقوالهم وأفعالم . . . لقد كان الفلاسفة الأقدمون ، وإن أعوزتهم الكياسة المنعشة التي تجمل الناس خليقين بالحلود ، يعيشون خبراً منا إلى أبعد حد مستطاع ، سواء في أدبهم أو في احتقارهم هذا العالم وكل ما فيه من جهة وغيي ، وثروة ، وألقاب التكريم ، كما يتبين الناس جميعًا من موالهات أرسطو ، وسنكا ، وتلي Tully ، وابن سينا ، والفارابي، وأفلاطون، وسقراط وغيرهم ؛ وبهذا وصلوا إلى أسرار الحكمة ، وكشفوا عن جميع المعارف ؛ أما نحن المسيحين فلم نكشف شيئًا بماكشفه أو لئك الفلاسفة ؛ بل إننا لنعجز عن إدراك حكمهم . ومنشأ جهلنا هذا هو أن أخلاقنا شرمن أخلاقهم . . . وليس ثمة بن العقلاء من يخالجه أدنى شك في أن الواجب يقضي بتطهير الكنيسة (١٢٨).

ولم تنطبع فى عقله صورة طيبة من الفلاسفة المعاصرين له ، وشاهد ذلك ماكتبه عنهم إلى كلمنت الرابع يقول إن أخلداً مهم لا يستطبع فى عشر سنين أن يوثلف كتاباً مثل السكتاب الأكر ، فقد كانت موثفاتهم فى نظر بيكن مجللنات ضخمة من و الكذب الذى لا يستطاع وصفه ، والحشو الذى لا ضرورة له (١٣٩٥) ، وكان هيكل تفكرهم كله يقوم على الكتاب المقلس

وموالفات أرسطو ، وذاك قد أسىء فهمه وهذه قد أسيئت ترجمتها (۱۳۰). وكان يسخر من نقاش تومس الطويل فى عادات الملائكة ، وسلطانهم ، وذكائهم ، وحركاتهم (۱۳۱).

وما من شك في أن هذا الإسراف في انهام حياة أوربا وأخلاقها ، وتفكيرها ، في ذلك القرن المتلألى الباهر قد جعل بيكن وحده في ناحية وأورباكلها في ناحية أخرى . ولكننا لا نجد دليلا على أن طائفته أو الكنيسة. قد اضطهدته أو تدخلت في حرية فكره أو قوله قبل عام ١٢٧٧ ، أي قبل. أن يكتب المرثاة السالفة الذكر بست سنين. ولكن حدث في تلك السنة أن أخذ يوحنا القرشلي John of Vercelli رئيس الرهبان الدمنيك وجعروم الأسكولي Jerome of Ascoli رئيس الرهبان القرنسيس يتفاوضان ليخففا من حدة بعض النزاع الذي شجر بن الطائفتين . واتفقا على أن يمتنع الإخواف في كل طائفة عن نقد الطائفة الأخرى ، وأن وكل أخ يتبين أنه أساء إلى أخ . من الطائفة الأخرى بالقول أوبالفعل يجب على مجلس مقاطعته أن يوقع عليه من العقاب ما يرضي أخاه الذي أسيء إليه(١٣٢) . وبعد قليل من ذلك الوقت قام چىروم - على حد قول أغيار قادة الطائفة الأربة والعشرين التي كتبت في القرن الرابع عشر ـــ ، عملا بمشورة كثيرين من الإنخوان فعارض واستقبح تعالم الأخ روجر بيكن مدرس علم اللاهوت المقدس لأنها تحتوى على بدّع تثبر الشك ، ومن أجل هذا حكم على روجر المذكور بالسجن ١٣٣٥ .. ولسنا نعلم عن هذه المسألة شيئاً غير هذا ؛ فهل كانت هذه والبدع ، هي الإلحاد ، أو ارتياب من حكمواً عليه في أنه بمارس فنون السحر ، أو أن هذا الأمر يختى في طياته قراراً بإسكات هذا الناقد البغيض إلى الدمنيك والقرنسيس على السواء ؟ ولسنا نعرف كذلك ما فرض من التضييق على بيكن في سجنه أوطول الزمن الذي ظل فيه

سجيناً مضيةاً عليه . وكل ما نعرفه أن بعض المساجن اللين حكم عليم بالسجن في عام ١٩٧٧، علم عليم بالسجن في عام ١٩٧٧، ودبما كان بيكن ممن أطلق سراحهم في ذلك الوقت أوقبله . لأنه نشر في عام ١٢٩٧ صومرًا في الدراسات العراهوتية ، ثم لا نجد بعد ذلك إلا كلمة في سجل قديم : « دفن الدكتور روجر بيكن الجليل القدر في كنيسة جريسي في سجل قديم : « دفن الدكتور روجر بيكن الجليل القدر في كنيسة جريسي فريرز Orecy Friars (كنيسة الرهبان الفرنسيس) بأكسفورد في عام درور ١٧٩٧

ولم يكن لبيكن في عصره إلا أثر قليل . فكل ما يذكره به ذلك العصر أنه رجل يأتى بكثر من الأعاجيب، وأنه ساحر ومشعوذ . وقد صور سهذه الصورة في مسرحية كتبها روجرجرين RogerGreen بعد ثلاثمائة سنة من وفاته . وليس من السهل علينا أن نعرف مقدار ما يدين له به سميه فرانسس بيكن (١٥٦١ ــ ١٩٢٦) ؛ وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا أن فرانسس وروجر على السواء كلمهما رفضا منطق أرسطو ، والطريقة المدرسية ، وأرتابا في الاعتماد على المراجع القديمة ، وعلى العادات وغيرها من أصنام التفكير التقليدي ، وامتدحا العلوم ، وذكرًا ما يتوقع اختراعه بالاعتماد علمها ، ورسما منهاجاً لها ، وأكدا فائدتها العملية . وأخذت شهرة يبكن تعظم وتنتشر ببطء من القرن السادس عشر حتى أصبحت حياته من القصص الحرافية - فقيل إنه مخترع البارود ، والبطل الحر التفكير ، الذي ظل طول حياته مضطهداً من رجال الدين ، والمبتكر العظم للتفكير الحديث. والآن أخذت الآية تقلب ، فالمؤرخون يقولون إنه لم تكن لديه إلا فكرة مهوشة عن التجارب العلمية ، وإنه لم يجر من هذه التجارب إلا القليل ، وإنه كان في الدين أكثر حرصًا على تقاليده من البابا نفسه ، وإن صفحات كتبه تنتشر فها الحرافات ، والسحر ، والحطأ في الاقتباس ، والهم الكاذبة ، والقصص غبر الصادقة المأخوذة من التاريخ . وهذا كله صحيح ؛ وصحيح أيضا أنه وإن لم يجر من التجارب إلا القليل ، قد ساعد على دم مبدأ التجرية العلمية ، ومهد السيل إلى قيامها ، وأن جهره بالتسك بالسن الدينية قد يكون إجراء سياسيا من رجل يسمى للحصول على تأييد البابوية العلوم التي كانت مثاراً لربية . أما أخطاؤه فقد كانت علوى زمانه ، أو لعلها قد نشأت من المجلة التي تسير بها روح تحرص على أن تجعل المعارف كلها ميدانا لها . وأما امتداحه نفسه فقد كان هو البلمم الشافى لتجامل عبقريته ؛ كذلك كان هجومه على غيره تنفيسا لغضب إنسان جبار خابت آماله ، فأخذ يتهد إخفاق أحلامه النبيلة تفرق في بحر من الجهل وهو عاجز عن إنقاذها . وأما هجومه على النقل في الفلسفة والعلم فقد الجهل وهو عاجز عن إنقاذها . وأما هجومه على النقل في الفلسفة والعلم فقد الحمل الذي تأكيده لأسمى العلم وأهدافه الرياضية تقلما بخمسيانة عام عن العصر الذي يعيش فيه ؛ وخير من هذا كله في كذيره الناس من إخضاع الأخلاف للعلم درم أخطائه وآثامه ، خليق باسمه ؛ وأنه أعظم من أي مؤلف في جميع آداب رغم أخطائه وآثامه ، خليق باسمه ؛ وأنه أعظم من أي مؤلف في جميع آداب

الفصل لثامن

أصحاب الموسوعات

وقف العلماء المحيطون بمخنلف العلوم موقفاً جريئاً بين العلم والفلسفة بعملون لبث النظام والوحدة فى معارف عصرهم التي كانت آفاقها تزداد انساعاً على مر الأيام ؛ وليكونوا من العام الفن ، والصناعة والحكومة ، والفلسفة والدين ، والأدب والتاريخ ، وحدة كلية منتظمة يمكن أن تتخذ أساساً للحكمة . ولهذا بز القرن الثالث عشر سائر القرون بما وضع فيه من المو. رعات، والخلاصات التي كانت كنياً جامعة طابعها التركيب . وكان أكثر أصحاب الوسوعات تواضعاً يقنعون بتلخيص موضوعات العلوم الطبيعية ، و من هؤلاء الكسندر نكهام رئيس دير سرنسسر Cirencester (حوالي عام ١٢٠٠) ، وتومس الكنتمبريثي Thomas of Cantimpré تراهب الدمنيكي الفرنسي (حوالي عام ١٣٤٤) ؛ وقد كتب كلاهما موجزاً في العلوم بعنوان طبعة الأشياء ، ومنهم بارثلميو الإنجليزي Bartholomew of England وهو راهب فرنسيسي أخرج مجلداً كثير الحشو في فعمائص الأشياء (حوالي ۱۲۶۰) ؛ وفي عام ۱۲٦٦ كتب برونتو لا تيني Brunetto Latini وهو مسجل صكوك من فلورنس نني من بلده لمبادئه السياسية الجلفية (Guelf) ، وأقام بضع سنىن في فرنسا ، كتب بلغة دوئيل lange d'oil كتاب الكثر Le Livre de Tresor وهو موسوعة موجزة في العاوم والأخلاق والتاريخ والحكم . وظلت هذه الموسوعة واسعة الانتشار حتى أن نابليون نفسه فكر في أن تُصدر الدولة طبعة مها بعد أن تراجع، وذلك بمدخسين عاما من إصدار ديدرو Diderot موسوعته الكبرى التي هزت العالم هزاً . وكانت هـــلم

المؤلفات كلها التي صدرت فالقرن الثالث عشر تمزج اللاهوت بالعلوم ، والحرافات بالمشاهدات ، لأنها كانت تتنفس هواء زمانها ؛ ولو أننا قدر لمنا أن تعرف نظرة الناس إلى علمنا الجامع بعد سبعة قرون من هذه الأيام الأغضينا ما نرى .

وأشهر موسوعات المسيحين في العصور الوسطى موسوعة ثنست يوقيه المسهاة المرآة السكسرة (١٢٠٠ –١٢٦٤ أو حوالي ذلك الوقت) . وقد اتضم بوڤيه هذا إلى جماعة الرهبان الدمنيك ، وأصبح معاماً للويس التاسم وولله ، وعهد إليه الإشراف على مكتبة الملك ، وأخذ على عاتقه هو وجماعة من أعوانه أن يضع فى صورة سهاة التناول جميع ما يحيط به من ألو ان المعرفة . وقد أطلق على موسوعته اسم صورة العالم Imago mundi ، ومثل فيها اللعالم بمرآة ينعكس عليها الذكاء القدلسي والتخطيط الإلمي، وكاثت موسوعة ضخمة تعادل في حجمها أربعين مجلداً من المجلدات الكبيرة الحجم في هذه الآيام . وأتم منها فنسنت مع النساخين ثلاثة أجزاء : الحرآة الطبيعية ، ومرآة العقائد ، ومرآة التاريخ ، وأضاف إلها من خلفوه في هذا العمل ، حوالي حام ١٣١٠ مرآة الأهلاق ومعظمها مأخوذ من مومز تومس أكوناس . وكان قنسنت نفسه إنسانًا متواضعًا ظريفًا ، قال عن نفسه . ٥ إنى لا أعرف علماً واحلماً ٤ ، و هو يتنصل من أنه ابتكر شيئاً ما ، ويقول إن كل ما أراد أن يفعله هو أن ينقل أنوال ٥٠٠ موالماً بونانياً ، ولاتينياً ، وعربياً . وقد نقل أخطاء باني بأمانة ، وصدق كل عجائب التنجيم، وملأ صفه بالصفات السحرية للنبات والحجر، ولكن عجائب الطبيعة وروائع جمالها تبدومع ذلك واضحة في كتابه منحين إلى حنن ، تنفذ من خلال ما فيه من أقوال غبر ذات قيمة ، ويحس هو بها كما لا يستطيع أن يحس سها مأتهم الكتب فحسب: أحترف ، وأنا الإنسان المذنب ، قوالعقل الملوث في الحسد ، أنى تدفعى الرح السامية نحو الحالق المسيطر على هذ اللطام ، وأنى أزنداد تعظيا له حين تقع عيني على ما خلقه ... من عظمة وجال . ذلك بأن العقل إذا ارتفع من الأقدار التي يحبها ، وسما ، وهو القادر على السعو ، إلى نور التأمل ، أبصر من شاهق علوه عظمة الكون المحتوى على أماكن الاحصر لها مليئة بعلوائف المخلوقات المختلفة الأنواع (١٣٥٠)

ويضارع النشاط العلمي الذي انبثق في القون الثالث عشر عظمة فلسفاته المختلفة ، وآدابه للتنوعة الباهرة ، من الشعواء الفزلين إلى دانني . لقد كان علم تلك الآيام ، كما كانت موجراته العظيمة والحسعية الرئم، يهاى الكثير من إسراف أصحابه في الوثوق به ، ومن عجزهم عن بحث فروضه ، ومن عجزهم عن بحث فروضه ، ومن تحلط المعارف بالدين بلا تفريق بيهما . ولكن سفينة العلم الصغيرة التي كانت تسبح في بحر من المزاعم الحفية خطت خطوات واسعة في عصر الإبان نفسه . تسبح في بحر من المزاعم الحفية خطت خطوات واسعة في عصر الإبان نفسه . وهنرى المنافيلي ، ولا نقر اتشي ، وروجوبيكن ، وبطرس الحاج وبطرس الأسباني ، بدأ هوالا عمل المقرل ، وبالحد على ، وبالينوس من سلطان على المقرل . أخلت تحطم ماكان الأرسطو ، وبالي ، وجالينوس من سلطان على المقرل . وما التحمس للارتياد والمغامرة أشرعة سفينة المرواد ، وقد عبر عن ذلك الإخلاص العلمي الجديد ألكسندر تكهام في بعاية ذلك القرن العجيب فكتب يقول و إن العلم لا ينال إلا بثمن ياهظ ، هو البقظة الدائمة ، وإنفاق المقول ، وبالحد والكنح المتواصلين ، وباستخدام العقل بحاسة وقرة (١٢٥)

ولكن مزاج العصور الوسطى يتحدث إليثا قييل نهاية كتلب ألكسند أحسن أحاديثه ، ويتحدث إلينا برقة لا تتناسب مع عصره فيقول : (١٠ - بـ ٤ - بـ 1 علـ ٤) ربما حشت أمها الكتاب بعد الكسند هذا ، وربما أكلى الدود قبل أن تفرض صفحاتك ... إنك مرآة عقلى ، وشارح تأملاتى ... والشاهد المحادق على ضميرى ، والمواسى الرحم لأحزانى ... وإنك أنت المستودع الأمين الذي أودعت فيه أسرا وقلي ... فيك أقرأ ما في نفسى ... سوف تقع في يدى قارئ تني يزل من حلياته فيلمو لى بخير ، وإذن فسيفيد منك صاحبك أمها الكتاب الصغير ، وإذن ستجزى إسكندرك أحسن جزاء صاحبك أبها الكتاب الصغير ، وإذن ستجزى إسكندرك أحسن جزاء وأعظمه ، ولست آسفاً على كلحى ، فستصادف إخلاص قارئ صالح يضمك تارة في حجره ، ويرفعك تارة إلى صلبوه ، ويتخلك حيناً وسادة تحتر أسه ، ويطويك برفق ، ويدعو لى في حرارة وإخلاص عيسى المسبع تمين مع الله والروح القلم خلال الأحقاب التي لا نهاية لها – آمن ١٩٧٥.

الماب الثامن دايثلا نون

عصر الخيــــال

4... - 11...

الفضيل الأول

إحياء اللغـة اللاتينية

كل حصر فى حياة المالم عصر خيال ، لأن الناس لا يستطيعون أن يعيشوا بالخيز وحده ، والخيال عماد الحياة ، ولعل القرنين الثانى عشر والثالث عشر من تاريخ أوربا كانا إلى حد قليل أبعد خيالا من معظم المصور الأخرى. ذلك أن هلين القرنين لم ير ثا جميع المخلوقات الحقية التى ابتدعها خيال أوربا الوثاب فحسب ، بل قبلا الملحمة المسيحية بكل ما قيها من جمال الحيال ورهبته ، والمخلفا الحب والحرب فناً وديناً ؟ وشهد هلمان القرنان الحروب المصليبة وجاءا بمثات القصص والمجائب من بلاد الشرق ، وكتبا فى واقع الأمر أطول القصص الحيالية المعروقة فى التاريخ كله .

و كان مماساعد على از دهار الأدب في هدين القرنين ازدياد الثروة ، والفراغ ، والأدب غير الديني ، و نشأة المدن والطبقة الوسطى ، وارتفاع شأن المرأة في الدين ، و نظام الفروسية . و لما تضاعف صد المدارس بهر شيشرون ، وفر جيل ، وهوراس ، وأو فلد، ولينمى ، وسالست ، ولوكان ، وسنكا ، واستاتيوس ، وجوفنال ، وكونتايان ، وسيو نوتيوس ، وجوفنال ،

السفيان المفحشان ، مر هولاه بقيهم وعالمهم الغريب كثيراً من ملاجي الأساتلة والأديرة المنتزلة عن العالم وتسربا في يعض البلاد إلى قصور الأعيان ، واختلست الأرواح المسيحية من چيروم إلى ألكوين ، إلى هلواز، وهيدلبرت ، دقائق من أوقات صلواتهم لينشلوا أغاني الإنياذة وهم صامتون . وكانت جامعة أورليان تعتز اعتزازاً خاصاً قوياً باداب رومة الوثنية ، حتى شكا أحد المتزمتين وهو مرتاع وجل قائلا إن الآلفة القدامي، أوقد ، و قفد أنزل فرجيل عن العرش اللدي رفعه إليه ألكوين حتى جعله شاعر بلاط شارلمان ؛ وكان الرهبان ، والسيدات ، و والعلماء الجاثلون ، على السواء يقرأون بنشوة وابهاج كتب المحويوت ، والهمرويوات ، وفوى على السواء يقرأون بنشوة وابهاج كتب المحويوت ، والهمرويوات ، وفوى ألحب . وفي وسعنا أن نعفو عن كثير من أسباب اللهو الماح عند الرهبان المنين أحبوا هذه الكتب الملمونة ، وحفظوها من الضياع ، ولقنوها إغالاص

و نشأت من هذه الدراسات القديمة لغة لاتينية خاصة بالعصور الوسطى ، كان فها من التنوع وأسباب المتعة ما يعد من أعظم المفاجآت السارة فى المكشوف الأدبية . مثال ذلك أن القديس برنار الذى لم يكن يعتد إلا قليلا بالمنزايا العقلية ، كتب رسائل تفيض بالحب الرقيق ، والقد القصيح ، واللغة اللاتينية الممتازة ؛ وقد احتفظت عظاة بطرس دميان ، وبرنار ، وأبلار ، وبرثولد الرجز برجى للقة اللاتينية بقوتها وحيويتها .

وكتب المؤرخون الإخباريون في الأديرة بلغة لاثيقية فظيعة ؛ ولكنهم لم يكونوا يدعون أنهم يكتبون كتابة تشيع حاسة الحمال لمدىالقراء . بل كانوا يسجلون أولانشأة أديرتهم وتاريخها – انتخاباتها ، ومبانيها ، ووفاة روسائها، ومعجزات الرهبان ومنازعاتهم ؛ وأضافوا إلى ذلك مذكرات عن الخسوف والكسوف، والمذنبات، والجفاف، والفيضان، والقحط، والأوبثة، ونذر أيامهم ؛ وتوسع بعضهم فضمن كتاباته بعض الحوادث القومية والدولية نفسها . وقل مهم من كان يبحث في المراجع التي يعتمد علما بروح الثقد الصحيح، أويفحص عن العلل ؛ وكان معظمهم مهمان غير دقيقين، يضيفون إلى أرقامهم صفراً أو صفرين ليبعثوا الحياة في الإحصاءات الميتة ي وكلهم بلااستثناء يأتون بالمعجزات ، ويظهرون سناجة واستعداداً ظريفاً لتصديق كل ما يقال . من ذلك أن الإخبارين الفرنسين افترضوا أن فرنسا قد استوطئها الطرواديون النبلاء ، وأن شارلمان فتح أسبانيا واستولى على بيت المقدس، وحاول كتاب أهمال الفرنسيين Gesta Francorum (حوالى ١١٠٠) أن يروى بأمانة نسبية قصة الحرب الصليبية الأولى ، ولكن كتاب أهمال الرومان Gesta Romanortum (حوالي ۱۲۸۰) يروى في صراحة تاريخاً مخترعاً لتشوسر ، وشيكسبىر ، وألفا من كتاب الروايات . وجعل جوڤري المنموئي Geoffrey of Monmouth حوالي (۱۱۰۰ – ۱۱۵۴) من كتابه تاريخ بر بطانيا Historia Britonum ضرباً من الأساطر القومية ، وجد فها الشعراء قصص الملك لمر ، وآرثر ، ومعرلين Merlin ، ولاتسلت Lancelot ، وترسترام Tristram ، وبرسفال Perceval ، وجريل المقلس Holy Grail . ومن الأدب الحيحتي الآن ثر ثرة چوسلىن Jecelya وما رواه من أخبار بيورى سانت إدمندس Bury St. Edmonds (حوالي ١٢٠٠) وما رواه الأخ سلمبيني Salimbene عن بارما (حوالي ۱۲۸۰) .

وفى عام ۱۲۰۸ أهدى ساكسولانج (اللغوى) Saxo Lange الذي سمى بعد وفاته ساكسوالنحوى Saxo Grammaticus إلى أبسالوم كبير أساقفة لند Lund كتابه أعمال الدنحرقيعي ، وهوكتاب فيه بعض المشووفيه من سرعة التصديق ما لايصدقه الإنسان (). ولكنه مع ذلك قصة قوية حية ، فها من

الاتصال أكثر ثما في كثير من تواريخ الغرب في هذه الأيام . في الكتاب الثالث من هذا المؤلف نقرأ عن أملث Amleth أمير جتاندة Jutland الذي قتل عمه الملك ونزوج الملكة . ويقول سكسو إن أملت هذا ٥ اختار أن يتظاهر بالبلادة وفقدان الوحى فقداناً كاملاً ، وضمن مبذا الصنع الما كرسلامته » .

وارتقى خمسة من المؤرخين اللاتين في ذينك القرنين من طبقة الإخباريين للمطبقة المؤرخينوإن احتفظوا بالطابع الإخباري . من هؤلاء ولم الملزبري (حوالي ١٠٩٠ - ١١٤٣) الذي رتب مادة كتابه أعمال الأصار Gesta Pontificum ، وأعمال الملوك الإنجلبز Gesta Regum Anglorum ليجعل منها قصة متصلة حية ، نزمه ، جديرة بالثقة ، تروى أخبار الأحيار والملوك. وأرسل أردركس ڤيتالس Ordericus Vitalis رحوالي ١٠٧٥ م المولود في شروزبري Shrewsbury إلى دير القديس إڤرول St. Evroul في نورمندية في العاشرة من عمره وفاء لنذر ، وعاش فها بقية سنيه الثمان والستين ، ولم ير خلالها أبويه . وقضى من هذه السنين ثماني عشرة في كتابة تاريخ الكنيسة المكون من خسة مجلدات ، ولم يمتنع عن العمل في خلال تلك السثن ، كما يقول الرواة.، وأشد أيام الشتاء برداً حين كانت أضابعه تفقد حساسيتها من فرط النزد . ومن عجب أن عقلا مضيقاً عليه في المكان يستطيع التحدث هذا الحديث الحسن في غتلف الشئون الدينية والدنيوية ، فضلا عن استطرادات في تاريخ الرسائل والأخلاق العادية . وقص أتو Otto أسقف ڤرايزنج (حوالي ۱۹۱۶ ــ ۸ه) في كتابه في الدينتين تاريخ الدين والعالم الدنيوي من خلق آدم إلى ١١٤٦ ، وبدأ ترجة مليئة بالفخر لابن أخيه فردريك يربورسا ، ولكنه توفي ولما يتجاوز بطله منتصف حياته . وعبن رجل فرنسي مولود في فلسطين يدعى ولم الصورى William of Tyre (حوالى ١١٣٠ ــ ١١٩٠) مستشاراً لبولدوں الرابع ملك بيت المقدس ، ثم أصبح بعدتذ كبير أساقفة صور ؛ وتعلم اللغات الفرنسية ، واللاتينية ﴿ واليونانية والعربية وقليلا من اللغة العرية ؛ وكتب بلغة لاتينية سليمة كتاباً هو خير ما يعتمد عليه من المصادر في تاريخ الحملات الصليبية. الأولى ، وسماه تاريخ حوادث ما وراء الجار Historia reum in partibus transmarinis gestarum . وقد حاول فيه أن يفسر الحوادث جميعها بالاستناد إلى الأسباب الطبيعية . وكانت نزاهته في تصوير أخلاق نور الدين ٤ .. د وصلاح الدين من أكر أسباب عقيدة أوربا المسيحية في هذين العاهلين اللذين يخالفانها في الدين . وكان ماثيو پاريس (حوالي ١٢٠٠ ــ ١٢٥٩) راهباً في دير سانت أو لبنز ، وشغل أولا منصب مؤرخ لديره ، ثم بعد ذلك منصب مؤرخ للملك هُمْرِي الثالث ، واستعان جملين المنصبين على تأليف كتابه التاريخ الكبير بلغة شيقة ممتعة ؛ وهو يروى الحوادث الهامة التي وقعت في تاريخ أوربا بين على ١٢٣٥ ، ١٢٥٩ . ويمتازكتابه بالوضوح واللنقة ، ولكن فيه نحنزًا لم يكن متوقعاً منه ؛ وندد فيه (بالبخل الذي نفر الشعب من البابا) ، وانحاز إلى فردريكِ الثاني ضد البابوية . وملأ صفحاته بأنباء المعجزات ، وروى قصة الهودي الحوال (في عام ١٢٢٨) ، ولكنه روى بصراحة تشكك أهل لندن في انتقال بعض نقط من دماء المسيح إلى دير وستمنستر (١٧٤٧) . ووضحكتابه بعدة خرائط لإنجلترا رسمها بنفسه ، وهي خبر ما رسم من الحرائط في ذلك الوقت، وربما كان هر الذي رسم أيضاً الأشكال التي وضمع سها كتابه . وإنا لنعجب بجده وغزارة علمه ، ولكن الصورة التي رسمها للنبي محمد (۱۲۳۱) تکشف عما بمکن أن 'یکون علیه رجل مسیحی متعلم من جهل عجيب بالتاريخ الإسلامي .

أما أعظم المؤرخين فى ذلك العصر فهما فرنسيان كتبا بلغتهما القومية، وكان لها مع الشعراء الغزلين ورواة الملاحم وشعرائها للفضل فى جعل اللغة الفرنسية لغة

أدبية . فأما أولهما جيوةروى ده ڤيل هاردون Geoffroy de Villehardouin (حوالى ١١٥٠ – حوالى ١٢١٨) . فكان من النيلاء والمحاربين لم ينل مِن التعلم النظامى إلا القليل ؛ ولكن جهله بالحيل البلاغية التي تعلم في المدار س هو الذي مكته من أن يملي كتابه فتح القسطنطينية (١٢٠٧) بلغة فرنسية دقيقة خالية من التنميق ، تتجه نحو الغرض من أقرب طريق ، ومن أن يجعل هذا الكتاب من أهم ماكتب في فن كتابة التاريخ . ولم يكن من أسباب شهرة هذا الرجل بُعده عن التحر ، فقد كان وثيق الصلة بالحرب الصليبية الرابعة ، واضطلع فيها بدور هام ، فلم يستطع لهذين السببين أن يرى ثلك الخيانة الحميلة الظاهرة ، خيانة الحقيقة والتاريخ ، بعن الرَّجل الموضوعي الذي ينظر إلى الحقائق دون غيرها ؛ ولكن من أهم مزاياه أنه كان فى وسط الحوادث نفسها يشهدها ويحس ُمها حن وقوعها ، ثمَّا أضفى على كتابه حيوية لا يكاد يبلمها الزمن . وظهر بعد قرن أو تحوه من ذلك الوقت چان سير ده چوانڤيل Jean Sire de Joinville قيم القصر في شمبانيا ؛ وبعد أن خدَّم لويس التاسع ف حملته الصليبية وفي فرنساً ، كتبوهو في الثامنة والخمسين من عمره كتابه تأريخ الفديسي لويسي (١٣٠٩) ؛ ونحن نحمد له وصفه خلائق التاريخ وصفاً أميناً بعيداً عن التكلف، واهتمامه بعاداتهم وقصصهم التي توضح سيرهم وتنير ما يكتنفها من ظلمات . وبقضله نستطيع أن نحس بالجو الذي كان سائداً في ذلك العصر كما لا نحس به في كتاب ڤيل هار دون ، فتصحبه حين يخرج من قصره بعد أن يرهن ما يمتلكه كله تقريباً لينضم إلى الحملة الصليبية ؛ ويقول إنه لم يجرو على النظر إلى الوراء حتى لا ينوب قلبه أسى حين تقع عينه على زوجته وأبنائه ، ولعله لن يراهم بعد ذلك اليوم . ولم يكن لهذا الرجل ما كان لڤيل هاردون من دهاء وسعة حيلة ، ولكنه كان يمتاز بالإدراك الفطرى السليم ، وكان يرى ما فى قديسه من عيوب ، ولهذا رفض أن ينصم لل الحملة الصليبية التالية حين طلب إليه لويس الانضام إليها ، لأنه رأى بيصرته أن هذه مغامرة لا يرجى لها فلاح ، ويقول إنه حين سأله هذا الملك الورع : « أسمنا تفضل – أن تصاب بالجذام أو أن ترتكب خطيئة مويقة ؟ » .

و فأجته وأنا الذي لم يكلب عليه قط بأنه خبر لى أن أرتكب ثلاثين خطبتة مويقة من أن أصاب بالجذام . ولما خرج الرهبان من حضرته استدعائي وحدى وأجلسي عند قلميه وقال لى : كيف تجروا على هذا القول ؟ . . . وأخبته بأنى قلته مرة أخرى بعد ذلك الوقت ؛ فرد على " بقوله : لقد تسرعت وكنت أحمت في ردك ، فإن من واجبك أن تعرف أنه ليس ثمة جذام أبشع من ارتكاب الخطيئة المويقة . . . وسألنى : هل خسلت أقدام الفقراء يوم خيس المسعود ؟ فأجبته : يا مولاى ، لو فعلت لأصبت بالغشان ، إنى لن أغسل قط أقدام أولئك الوروكياء . فقال في الملك : الحق أنك قد اخطأت إذ نطقت "بهذا القول ، لأن عليك في الملك : الحق أنك قد اخطأت إذ نطقت "بهذا القول ، لأن عليك ألا كمنفر ما فعله الله ليومنا ، وطفا فإن أرجوك بحق حبك الله أولاك .

ولم تكن حياة القديسن كلها تروى بمثل هذا الصدق وتلك الأمانة ؛ ذلك أن الإحساس بالترام الأمانة ومراعاة الضمير في رواية التاريخ كانا من الضعف في عقول الناس في للعصور الوسطى بحيث بحيل إلينا معهما أن كتاب هذه القصص الأخلاقية كانوا يظبون أن لا ضرر مطلقاً في اعتقاد الناس أن ما يروونه صحيح كله ، وأن الحير كل الحير في أن يصدقوه . وأكبر الظن أن المرافين كانوا في معظم الأوقات يأخلون القصص المنشرة عن غيرهم ، وأنهم كانوا يصدقون ما يكتبون . وإذا أخذنا تراجم القديسين على أنها قصص لا أكثر وجدناها مليئة بالطرائف والمتع . فلينظر القدري مثلا إلى الطريقة التي حصل بها القديس كرسضر Christopher على اسمع لقد كان في أول حباته رجلا جباراً من أهل كتمان يبلغ طوله تمانى عشرة قدماً ، ثم دخل في خدمة أحد الملوك لأنه سمم أن هذا الملك أقوى رجل فى العالم . وحدث فى يوم من الأيام أن رسم الملك على نفسه علامة الصليب حن ذكر بعضهم أمامه امم الشيطان ، فاستدل كرستفر من هذا على أن الشيطان أتوى من الملك ، ولم يكن منه إلا أن دخل في خدمة الشيطان . ولكن الشيطان رأى علامة الصليب إلى جانب الطريق فولى هارياً ، واستدل كرستفر من هذا على أن عيسى (عليه السلام) أقوى بلا شك من الشيطان ، فوهب نفسه المسيح. ووجد الرجل مشقة في الصوم المسيحي ، فقد كان جسمه الضخم يتطلب الطعام الكثير ، وكان لسانه الكبير يتعثر في أبسط الصلوات . ووضعه ناسك صالح على شاطئ محاضة أغرق تيارها السريع كثيرين ممن حاولوا اجتبازها . وحل كرستفر المسافرين على ظهره ونقلهم إلى الشاطئ الآخر في أمان دون أن يبتلُّـوا بالماء ، حتى كان في يوم من الأيام بحمل طفلا صغيراً ليعبر به المجرى ، فوجده ثقيلا ؛ ولما صأله عن السبب أجابه الطفل بأنه يحمل ثقل العالم كله ؛ ولما وصل هذا الطفل إلى بر السلامة شكر له حسن صنيعه وقال له : ﴿ أَمَّا الْمُسْبِحِ عيسى ، ثم اختبى ، وفي هذه اللحظة أزهرت فجأة عصا كرستفر وكان قد غرسها في الرمل^{٢٣)}. ثم لينظر القارئ إلى قصة القديس چورج شفيع بريطانيا . فن هو هذا القديس ؟ لقد كان بالقرب من سيليم Şilenum فى ليبيا تنن يقدم له فى كل عام شاب أو شابة طعاما له ؛ وكان الشاب ﴿ أَوَ الشَّابُّ ﴾ يختار بالقرعة ويقلم للتنبِّنحتي لا يسمم القرية بنَفَسَه . ووقعت القرعة في أحد الأعوام على ابنة الملك العذراء ، ولما أقبل اليوم الموعود مشت نحو البيركة التي يقيم فيها التنين ، فرآها القديس چورج وسألها عن سبب بكائها ، فأجابته الفتاة قائلة : و أبها الشاب ، أرى أن لك قلباً كبراً نبيلا ، ولكنى أرجوك أن تبادر بالأبتعاد عنى 4 . وأبي الشاب أن يجيها إلى ما طلبت ، وما زال بها حتى أجابته عن سؤاله، فلما فعلت قال لها: و لا تخاق فإنى سأساعدك باسم عيسى المسيح ، وحرج التنبن من الماء في هذه اللحظة ورسم چورج هلامة الصليب ، ونادى باسم المسيح ، وهجم على التنبن ، وطعته بحربته ، وأمر الفتاة أن تلق بمنطقها حول عنق الثنن بخضع له كل شهم من الرجال ، وسار خطفها مطيعاً ذليلا طوال حياتها بخضع التن لسحر جملها الفتان كما يخضع له كل شهم من الرجال ، وسار خطفها مطيعاً ذليلا طوال حياتها المتصتن وأمنالها في كتاب ذائع الصبت نشر حوالي ۱۹۷۹ ، فكان بروى لكل يوم من أيام السنة قصة قليسها المخصص هذا المبوم له ، وسمى كتابه لكل يوم من أيام السنة قصة قليسها المخصص هذا المبوم له ، وسمى كتابه يقوبو من الكتب الخبية القراه في المصور الوسطى ، وأطلقوا علها امم الحقوبة الرفهية . وأشارت الكنيسة بوجوب الاحتياط تصديق بعض يكونوا في هذا أكثر الخداعا في الحياة عن السلج من الناس اللين يصدقون يكونوا في هذا أكثر الخداعا في الحياة عن السلج من الناس اللين يصدقون القصص الخرافية في هذه الأيام .

وكان الشعر أحسن ماكتب باللغة اللاتينية في العمور الوسطى ، ولم يكن الكثير منه شعراً إلا بالاسم فحسب ، لأن جميع للواد التلقينية على المختلات أنواعها – من تاريخ ، وقصص ، ورياضة ، ومنطق ، ودين ، وطلب – كانت تكتب في أبيات موزونة مقفاة ، ليسهل بللك استظهارها . وكتبت أيضاً ملاحم تافهة عظيمة الطول مثل ملحمة الكسندرسي وتبدو لنا هذه الملاحم الآن تملة بقدر ما تبدو قصيدة الفروسي المفقور وتبدو لنا هذه الملاحم الآن تملة بقدر ما تبدو قصيدة الفروسي المفقور والإنسان ، والموت والمجتل والمهدق ، والمالاح والتب أيضاً جدل شعرى – بين الجسم والنفس ، والموت والمتبد والماحة ، والدور والنفسج ، والطالب المقتمر والنس والمابية والماحة ، والورد والنفسج ، والطالب المقتمر والنس

الذي يتال من الطعام كفايته . بل ذهب بعضهم لك أبعد من هذا فكتب جدلا بين هيلين وجنيميد ليوازن بين فضائل عشق الرجال النساء وعشق الرجال للغلمان^(ه) . وقصارى القول أن شيئاً ما من شتون الآدمين لم يكن غريا على الشعر .

وترك الكتتّب من القرن الخامس وما بعده قياس أوزان الشعر بمقدار ما فيه من الحروف المتحركة كما كانوا يفعلون فى الشعر القدم ، وجاء الشعر اللاتني المستمد من الشعور العام لا من الفن العلمي بنوع من الشعر جديد يعتمد على النيرات والوزن والقافية . وكانت هذه الفيروب من الشعر موجودة بين الرومان قبل أن تغزو الأوزان اليونانية بلادهم ، وظلمت المن عام مع الطراز اليوناني . وبقيت الأنماط القصحي ... من شعر سداسي الأوتاد، ومراث، وشعر من نوع شعر سايفر طوال العصور الوسطى ؛ ولكن العالم الملاتيني حل هذه الأنماط ، فقد غيل إليه أنها لا تتنافم مع أمزجة المني ، والرحمة ، والرقمة ، والأدعية الدينية التي نشرها الدبن المسيحى ؛ فدخلت فيه أوزان أكثر منها بساطة ، هي الأبيات القصيرة من البحر العمي ٢٠٠ أدجل المحدد الراحفين إلى الحرب .

وما من أحد يعرف من أين جاءت القافية إلى العالم المسيحي الغربي وإن كان الكثيرون يبلون آراء تعتمد على الحلس وحده . لقد اتبعت القافية في عدد قليل من القصائد الوثنية كقصائد إينوس ، وشيشرون ، وأبوليوس ؛ وكانت تستعمل أحياناً في الشعر العمرى والسرياني ، واستعلت مراراً متغرقة في الشعر اللاتيبي أثناء القرن الحامس ؛ وهي شائعة الاستعال في الشعر العربي منذ عهدد قدم يرجع إلى القرن السادس الميلادي ، ولعل حب المسلمن القافية قد أثر في

⁽a) iamble من الشعر مؤلف من فراصل قسيرة تليها فواصل طويلة ، أو من مقاطع لها فيرة صوتية تليها مقاطع غير ذات ثيرة صوتية . (المترجم عن قاموش سعادة)

المسيحين الذين اتصلوا بالإسلام ، وبذكرنا الإفراط في الترام القافية في أواسط الأبيات وأواخرها في شعر العصور الوسطى اللاتيني بهذا الإفراط عينه في الشعر العربي . ومهما يكن في هذا من خير أو شر قإن هذه الحسينغ الجديدة قد أنتجت ضرباً جديداً من الشعر اللاتيني ، يختلف في كل شيء عن الشعر القديم ، موفوراً وفرة عجيبة ، يبلغ من الجودة درجة لم تكن متوقعة . وإلى القارئ مثلا من شعر بطرس دميان درجة لم تكن متوقعة . وإلى القارئ مثلا من شعر بطرس دميان المناسك المصلح يشبه دعوة المسيح بدعوة عب فتاة بحجا :

منذا الذي يدق باني ؟

أتريد أن تبدد أحلام ليل ؟ فرنادينى ؛ يا أجمل العذارى ، يا أخبّى ؛ ورفيقتى ، يا جوهرة متألقة ! أسرعى ! قوى! افتحىٰ يا أحل الفتيات !

. . .

أنا ابن الملك العلى الأعلى أنا أكبر أبنائه وأصغرهم هبط من السياء إلى هذه الفلامة ليحرر أرواح الأسرى . لقد تحملت الموت وكثيراً من ضروب الأننى » .

. . . .

فغادرت فراشى من فورى وهرولت نحو عتبة الياب لكى يُفتح البيت كله إلى الحبيب وتتعلى روحى بروئة

من تتحرق شوقاً إليه . ولكنه مرّ ينا مسرعاً وغادر بالى فاذا أفعل أنا الشقية البائسة ؟ فتبعت والدمع ينهمر من عيني

الشاب الذي صورت يداه الإنسان .

وكان قول الشعر عند يطرس دميان أمراً عارضاً ؟ أما عند هيلدبرت الله وين المنافقة تور الله وين المنافقة المنافقة

ه أى رومة ! ليس في المدائن كلها ما يمائلك ! وإن كدت تصبحان خوبات ! ألا ما كان أعظمك وأنت بمنجاة من اللدمار! إننا نعلم منك و محتنك ؛ لقد حطم كبريامك مر الدهور ، فتداعت في المناقع حصون قيصر مع هياكل الأرباب. وتهدمت تلك الصروح ، تلك الصروح المناهقة التي كان البرابرة المناة يرتملون حوفًا حين يرومها قائمة ، ويجزنون حين يرومها متداعية . . ولكن كر اللهور وقعقعة السيوف لا يقويان على إبادة هذا المجد » .

فى هذه المرثاة برع شاعرفى العصور الوسطى فى استخدام اللغة اللاتينية براعة لا تقل عن براعة ڤرچبلنفسه . ولكنه لم تفارقه قط نزعته المسيحية ، فقلم كان يجد من السلوى فى المسيح ومرتم أكثر نما يجدها فى جويتر ومنسرها ، ولهذا نراه فىقصيدة متأخرة عن القصيدة السابقة بهجر الأضرحة القديمة ويقول : (رومة تتحدث) : إن هذه الهزيمة أُحلى عندى من تلك الانتصارات ، وإنى فى فقرى لاعظم منى فى غناى ، وإنى وأنا ملقاة على الأرض لاعظم منى وأنا رفعة العاد ، ولقد أمدنى عكم الصلب بأكثر مما أمدتني النسور ،

وإنى فى فقرى لأعظم منى فى غناى ، وإنى وأنا ملقاة على الأرض لأعظم منى وأنا رفيعة العاد ، ولقد ألمدنى علم الصليب بأكثر مما ألمدتنى النسور ، ووهبنى بطرس أكثر مما وهبنى قيصر ، وحبتنى الجمعوع العزلاء بأكثر مما حبانى القواد المدجبون بالسلاح . لقد سدت الأمم وأنا فائمة على قدى ، وهأنذا وأنا غربة أضرب فى أعماق الأرض ، ولقد سيطرت على الأجسام وأنا قائمة ، وهأنذا وأنا عطمة جائبة أحكم الأرواح ؛ لقد كنت فى الزمن القديم آمر شعا بائسا ، أما الآن فإلى أصدر أوامرى إلى أمراء الظلام ، لقد كانت المدائن مملكتى فى الزمن القديم أما الآن فيلك أمراء الظلام ، لقد

إن اللغة اللاتينية لم يكتب بها حتى ذلك الوقت شعر يضارع هذا الشمر منذ أيام فورتناتس Portunatus .

الفصل ألماني الخمر والمرأة والأغان

من الطبيعي أن يكون علمنا بالنواحي الوثنية أو المتشككة في حياة العصور الوسطىقطعا متفرقة ؛ ذلك بأن الماضي لم يصل إلينا نزمها أمينا إلا في دمائنا . وهذا يزيد من إعجابنا بروح التسامح والتحرر ـــ أو روح الزمالة فىالغبطة ـــ التي حملت ديربندكتبرن Benediktbeuern (في باڤاريا العليا) على الاحتفاظ بالمخطوط الذي شق طريقه إلى المطبعة في عام ١٨٤٧ وسمى باسم قصائر بيران Carmina Burana والذي يعد الآن أهم ما لدينا من المصادر لشعر (العلماء الجوالين ٥٠٠. ولم يكن هوالاء من الذين يضربون في الآفاق؛ فقد كان مهم رهبان ضلوا فىطريقهم للىأديرتهم، ومنهم قساوسة فقدوا مناصبهم ، وكانت كثرتهم طلابا في طريقهم من موطعهم إلى جامعهم أو من إحدى الحامعات إلى الأخرى؛ وكثيراً ماكانوا يقطعون طريقهم هذا سيراً على أقدامهم . وكان كثيرون من الطلاب يعرجون على الحانات في الطريق ، ومنهم من كانوا يتلوقون الحمر والنساء ، ويستمعون إلى المعارف غير المدونة ، ومنهم من كانوايو لفون الأغاني ، ويتغنون بها ، وببيعونها لمن بطلمها ؛ ومنهم من فقدوا أملهم في أن يكونوا من وجال الدين فكانوا يعيشون بأتلامهم يخصون بشعرهم الأساقفة أو الأعيان. وكانت أكثر ميادين نشاطهم فرنسا وألمانيا الغربية ؛ ولكن شعرهم ما لبثأن انتشر بين البلدان المختلفة لأنهم كانوا يكتبونه باللغة اللاتينية. وكانوا يدعون أنهم ينتطمون في هيئة خاصة هي فقاية الجوالين، واخترعوا لهامؤسسا ،وهوما

 ⁽ه) ومن المصادر الأعرى تحلوط في مكتبة حارلم ألف قبل عام ١٣٦٤ و تشره توسس
 هـكيبت في عام ١٨٤١ باسم « تصائد لا تينية تمزى عادة إلى و انرميس » .

وقديساً شغيعاً هو شخصية أسطورية شبهة بشخصيات ريله وسموه جلياس . Oolias و وإنا لنجد من ذلك الزمن البعيد ، وهوالقرن العاشر الميلادى ، ولا تقر كبير أساقفة سان Sens ساخطاً أشد السخط على وأسرة جلياس . المرذولة ، كما أن عبساً كنسياً عقد في عام ١٢٢٧ جهر يسبخطه على الجلياردى الدينية (٢٠ . ويقول عبلس سازبرج المنعقد في عام ١٢٨١ إنهم ويسعون بين الناس عراة ، وينامون في أفران الحبز ، ويغشون الحانات ، وأماكن الألعاب ، والمواخير ، ويكسبون عيشهم يرذائلهم ، ويتشيئون أشد التشبث بشيعتهم هر٧٠ .

ولسنا نعرف من هوالاء الشعراء الجليارديين ، إلاأفراداً قلائل ، مهم شاعر يسمى هيو Hugh الوهجو بريماس Hugo Primas ، وكان راهياً علمانياً في أورليان عام ١١٤٠ يصفه كاتب من منافسه (^(A) بأنه و إنسان دفي ، مشوه الوجه » ، ولكنه اشهر و في كثير من الأقالم » بحضور البدسة ، وقرض الشعر ، هلك لأن أحداً لم ينتع شعره ، وكان يقلف الأغنياء من رجال للدين بأقلع أنواع الهجاء التي يملها عليه حقده . كان وجلا غزير العلم ، صفيق الوجه ، قليل الحياء ، يصوغ أفحش المعاني في شعر سداسي الأوتاد ، لا يقل روحة عن شعر هيلدبرت .

وكان أوسع منه شهرة شاعر آخر لا نعرف الآن اسمه ولكن المعجبين به كانوا يسمونه و كبر الشعراء Archipoela (حوالي ١٩٦١) ؛ وهوفارس الماني بفضل الحمر والمداد عن السيف والدم ، وبعيش عيشاً مضطر باعلى الصلقات التي كان يمده مها من حين إلى حين ريئلد فن داسل Rainald Von Dassel كير أساؤنة كولوني المتخب ، وسفير بر برسا في بافيا . وحاول ريئلدان يصلح ما فسد من أخلاقه ، ولكن الشاعر توسل إليه أن يتركه وشأنه ، وكان ذلك في مقصيدة من أشهر ما قبل من القصائد في المصور الوسطى ، وهي قصيدة و اعراف

جالوت؛ ـــ التى أصبحت المقطوعة الأخيرة منها نشيد الشراب المحبب الشائع ن الجامعات الألمانية :

> أنا الذى فاضت نفسى بالحقد الدفين الشديد ، استمع با صاح إلى العلن ما فى نفسى من حقد مرير : لقد خلقت من عنصر و احد ، مادتى الطيش ، أشبه الأشياء بورقة من شجرة فى مهب الربح.

لا أطق حنى اليوم الأحزان و لا الاحتدال فى الشهوات ، أحب الذكات ، والمرح عندى أحلى من الشهد . وكل ما أمرت به فينوس هو عندى النبطة التي لاتعادلها غبطة ، وهي لم تتخذ قط لها مسكناً فى قلب خيث .

الف أسير فى الطويق الرحب شاباً غير نادم على شيء ، ألا فلفتى فى الرفائل لفياً لكى أنسى كل الفضائل (٥٠) . فإن شرهي لعب اللذات أكثر من شوقى إلى ملكوت السموات ، لان ما كان فى من روح قد مات ، وأصبح من الحير لى أن أنجى الحسد .

عفواً أمها السبد الصالح، يا صاحب العقل الحصيف،
 إن هذا الموت الذي أسمى إليه حلو؛ وهو سم ما أحلاه.
 لأند تفادت في جسمي سهام لحاظ فناة جيلة.

 ⁽a) يذكرنا هذا بشول أبي نواس: تكثر ما استطنت من الطاليا . . . النع . انظر
 الحز ١٤٠ من هذه السلملة . (للترجم) .

وماذا على العقل لو عبدها إن لم يكن إليها من سبيل ؟

ألا تحرقك النار إن جلست في وسطها ؟

وإن جنت إلى يافيا ، فهل تعود سها طاهراً عفيفاً كما جنها ؟ يافيا التي تجتلب الشباب بأطراف أناملها ، الشباب الذي وقع في شرك عينها وافتتن بسحر شفتها .

. . .

جيء مهودليتس ليتمشى فى باڤيا ، فإذا أصبح الصباح اختنى هيوليتس عن الأنظار. فليس فى پاڤيا طريق لا يؤدى إلى الفجور ، وليس فى أبراجها الكثيرة برج واحد للمفاف.

. . .

و إن هذا هو معقد أملى ؛ فإذا دنت الساعة منى ، فدعنى أمت في الحانة وكأس الحمر إلى جوارى ، و الملائكة بطلون على ويغنون مشتطنن :

« رمْی الله عن هذا السکیر » ^(ه)

وتشمل قصائد بيرن جميع موضوعات الشباب: تشمل الربيع، والحب، والحب، والفحش الرقيق، وأغانى الحبب الحنونة التي لايستجيب لها الحبيب، وأغنية ينشدها طالب علم يشير فها بوقف الدرس، وتقرير يوم عطلة للحب. . وفي إحدى الأغنى تفاجئ فناة شاباً اثناء كدمه وتسأله: ١ ماذا تفعل ياسيدى ؟ هيا بنا نامب سوياً ٤ ؛ وتغنى أنشودة أخرى بخيانة النساء . وأخرى

 ⁽ه) ما أشبه هذه القصيدة بشعر عمر الحيام الذي ذكر للوالف شيئاً منه في الجزء الذي مقده
 المعقبارة الإسلامية في هذا المجلد . (المقرحج) .

عبرها بحزن فتاة غدر مها الحبيب، وكانت بدانتها صبيا في الضربات يكيلها لها أواها . ويتغنى كدير من القصائد بملذات الشراب، والميسر ؛ ومنها ما يندد بثروة الكنيمة مثل و قصيدة الإنجل حسب المارك الفضيى ؛ ومنها ما يقلد أنبل الترانيم ، ومنها قصيدة على غرار قصائد هو تمان Whitman تتغنى بالطريق المترح(١٠) . وكثير منها شعر غث لكن مه ما هو آية رائعة من آيات الشعر المنائى . وها هي ذي أشودة عب يتغنى فها بالموت المثالى :

لما أن استسلّمت في غير مبالاة للحب ولى ، ضحك الحمال من كوكها الوضاء البعيد في السهاء ،

ونحرتني نشوة لاحد لعظمتها ،

ولم يتسع قلبي لهذه النبطة العظيمة التي فاضت على"

حين بدلتني حبيبتي ، وقد طوقتني بذراعيها ، غير ما كتث ،

وصبت كل ما فى شفتها من رحيق فى قُبلة حبّانى بها . وما أكثر ما أحلم بالحرية التى نلها من صدرها اللهن .

لقد أصبحت بعدها ربا آخر بين أرباب السهاء ،

وإذا ما وجلت يدىمرة أخرى فوق صدرها فسأكون المحكم الأعلٍ. بن الآلمة و الخلق(*)(١١) .

ومعظم الشعر الغزلى فى قصائد بيرن شهوا صريح . نعم إن فيه أبياناً تفيض رقة وظرفاً ولكنها أبيات قليلة نادرة الوجود ؛ وكان علينا ولولم نعثر على هذا الشعر أن نتوقع وجود ترانيم لثينوس تنشأ عاجلا أو آجلا إلى جوار ترانيم الكيسة . ذلك أن المرأة ، وهى الدعامة القوية الوفية للدين ، هى أكبر منافس. . للآلمة ، وظلت الكنيسة تستمع وهى صابرة لهذه الأعلق، أغانى الحب والحمر،

 ⁽ه) وهذا يذكرنا أيضاً يقول امرئ الفيس في معلقته : وبيضة خدر . . . النخ . (البرجم)

ولكن عجلساً لما حقد في عام ١٣٨١ قرر أن كل قس (ومن ثم كل طالب)
يوالف أغاني شهوانيسة أو خارجة على الدين ، أو يتفى بها ، يفقد بذلك
منصبه الديني وحقوقه . وبللك انحطمن بني من الطلاب بعد هذا القرار موالياً
لجوايات إلى منزلة المفنى ، وخرج من سلك الأدباء إلى سلك الوزانين
المفحشن . ولم يحل عام ١٣٥٠ حتى كان عهد الطلاب الجوالين قد انقضى.
ولكنهم كانوا قدور ثوا تياراً وثنياً يسرى في طيات القرون المسيحية ، ولهذا
فإن مزاجهم وشعرهم بقيا كامن حتى دخلا في عهر النهضة .

وكان الشعر اللاتيني نفسه يلفظ آخر أنفاس بانقضاء عهد الطلاب الجوالان؛ ذلك أن القرن الثالث عشر قد وجه العقول نخو الفلسفة ؛ وانزوت الآداب القديمة وقنعت بمنزلة صغرى في برامج الجامعات . ولم يجد الأدب الفاريف الممتع أدب هيلد بعرت ويوحنا السلزبرى الذي كان يضارع أدب عصر أغسطس ، لم يجد هذا الأدب من يرثه . ولما تصرم القرن الثالث عشر واتخذ دانتي اللغة الإيطالية أداة يكتب بها شعره ، أضحت اللغات القومية لغات الأدب ؛ وحتى التمثيل ربيب الكنيسة وخادمها خلع عنه رداء اللاتينية ونطق بلغات الشعوب .

الفصل لثالث

بعث التمثيل

مات فن التمثيل القديم قبل بداية العصور الوسطى ، لأنه انحدر إلى تمثيليات هزلية ماجنة ثم حلت محله استعراضات للألعاب ؛ وكانت تمثيليات سنكا وهرسويذا Hroswftha حركات رياضية لا أكثر ، ويبدو أنها لم تجد سيلها إلى المسرح . ويقيت بعد ذلك ناحيتان من نواحى النشاط التمثيل تصلان الملضى القدم بالزمن الذى تلا العصور الوسطى : أولاهما مناظر المحاكاة التى كانت يحرى فى الأعياد الزراعية ، وثانيتهما التمثيليات المزلية التى كان يمثلها المغنون المهرجون فى أنهاء القصور أو ميادين القرى (١٧).

ولكن أشهر منابع التمثيل في العصور الوسطى هي الطقوس الكنسية شأتها في هذا شأن اليونان القديمة . فالقداس نفسه منظر تمثيل ، والحرم المقدس مسرح مقدس ، وكان القساوسة القائمون بمخدمة القداس يلبسون حلالا رمزية ؛ ويقومون هم وخدم الكنيسة بالحوار . وأناشيد القساوسة والمرتلين المنبادلة ، والمرتلين بعضهم مع بعض ، توجى بأن التمثيل تطور من الحواد المدن نشأت منه المسرحية الديونيسية . وفي الاحتفالات التي كانت تقام في بعض الأعياد المقدسة نشأ العنصر التمثيلي نشأة واضحة صريحة ؛ فقد كان الناس في بعض الطقوس الدينية التي تقام في يوم عيد الميلاد في القرن الحادى عشر يدخلون الكنائس في زي رعاة الذم ويعيهم غلام « ملاك » من المغنين بقوله : « أخيار سارة » ، ويتعبدون أمام صورة طفل من الميس في مذود . ثم يدخلون ثلاثة « ملوك » من باب في الجهة الشرقية ويقودهم إلى المذود نجم يدخلون ثلاثة « ملوك » من باب في الجهة الشرقية ويقودهم إلى المذود نجم يدخلون تلاثة « ملوك » من باب في الجهة الشرقية ويقودهم إلى المذود نجم يدخلون من ساكنائس تمشل في

الثامن والعشرين من ديسمبر و مذبحة البريش » : فكان بعض الغلمان للمرتب يمشون في صحن الكنيسة وجناحها ، ويسقطون على الأرض كأن بمرود قد ذبحهم ، ثم يقومون ، ويسيرون إلى الحرم المقدس ، يرمزون بذلك لصحودهم إلى السهاد⁽¹¹⁾. وفي يوم الجمعة الحزينة كانت كنائس كثارة ترف صور المسيح المصلوب من المذبح ، ثم تحمل هذه الصور وتودع في مستقر يشبه الضريح المقدس ، تعاد منه بعد ذلك إلى المذبح في صباح عيد القصح باحتمال مهيب رمزاً لبعث المسيح (⁶⁾. وكتب جريجوري نزيانزين Oregory باحتمال مهيب رمزاً لبعث المسيح (⁶⁾. وكتب جريجوري نزيانزين Wazianzen صورة تشلية يوربيدية Deuripidean ولا تزال تمثيلية آلام المسيح في دلك الوقت حتى الآن ذات شأن عظم عند الشعوب المسيحية . وكانت الكتب تقول إن أول مسرحية من هذا النوع هي الي مثلت في سينا حوالي علم ذاك التاريخ بزمن طويل .

وإذ كانت الكتبسة تستعين بالبناء ، والنحت ، والتصوير ، والموسيق لتطبع في عقول المؤمنين المناظروالأفكار الرئيسية في الملحمة المسيحية ، فإنها بيذلك كانت تلجأ إلى حيال الشعب وتزيد تقواه بما تضفيه على المناظر التمثيلية في الأعياد الكمرى من روعة وتفاصيل مطردة الزيادة ؛ وكانت النصوص الموضحة التي أضيفت إلى الطقوس الدينية لتكسيها الروعة الموسيقية ، كانت هذه النصوص الموضحة تحول أحياناً إلى تمثيليات قصيرة . من ذلك أن نصاً موضحاً لعيد الفصح في مخطوط من القرن العاشر في سانت جول St. Qall يدخل الحوار الآتي في ترنيمة مقسمة الخميل بلائكة والمريمات الثلاث.

الممرئكة : منذ الذي تبحثن عنه في الضريح يا خادمات المسيح ؟

المريمات : نبحث عن المسيع الذي صلب يا رسلا من السهاء .

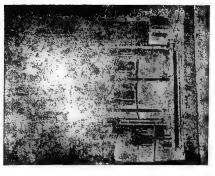
(ه) مريم أم المسيح ، ومريم أختبا ، ومريم المجدلية . (المترجم)

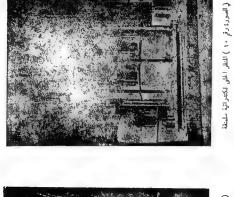
المعر*ئكة*: ليس هو في هذا المكان ، لقد صعد كما قال من قبل ؛ اذهبن وأذعن أنه قد صعد .

المرتاون محيما: احدوا الرب ، الرب قد صعد(١٧٠).

وأخلت المناظر الدينية منذ القرن الثانى تزداد تعقيداً على مر الأيام حى لم يعد تمثيلها فى داخل الكنيسة مستطاعاً ، ولذا أقيم طوار مرتفع فى خارجها ومثل المسرحية فوقه ممثلون يختارون من بين أفراد الشعب ، ويدربون على استظهار أدوار مطولة مكتوبة . وأقدم ما لدينا من أمثلة المذا الضرب من المثيل محشيلة آوم التى كتبت فى القرن الثافى عشر باللغة الفرنسية بينها سطور باللغة اللانينية مكتوبة بالمداد الأحمر لتكون تعليات للممثلين .

وق هذه المسرحية يظهر آدم وحواء ف دئارين أبيضين بلمبان في جنة ممثلة بأعشاب وأزهار أمام الكنيسة . ثم تظهر الشياطين في الأثواب الحمراء الملتصقة بالجسم التي أضحت من ذلك الوقت ثيامهم الحاصة في دور النتيل ، ويجرى أولئك الشياطين بين النظارة يلوون أجسامهم ويقطين وجوههم تقطيباً مروعاً رهبياً ، ويقدمون الفاكهة المحرمة لآدم فرفضها ، فيقدمونها في الممرفة فيسلكان في أعلال من الحديد وتجرهما الشياطين إلى الجحيم ممثلة في الممرفة فيسلكان في أعلال من الحديد وتجرهما الشياطين إلى الجحيم ممثلة بمغرة في الأرض ينبعث منها صوت رهيب دال على الفرح . وفي الفصل التافي يستمد قابن لذيح هابيل وينادى : « يا هابيل سوف تموت » ، فيسأله التيل : « ولم أموت ؟ » فيجيه قايين : « أنريد أن تعرف لم أريد أن أقتلك ؟ . . . سأخير ك . سبب ذلك أنك تفرط في سعيك لتنال الحظوة عند الله ؟ . . وبلتي قابين بنفسه فوق هابيل ويضربه حتى يموت . واكن موق الرواية تأخذه الراقة فيكتب بين السطور بالمداد الأحمر : « سبكون تحت ثياب هابيل جفية « (۱۸) .





(السور رقم ١١) داخل كندرائية سنتهاجو من كيستيلا

وأطلق فيا بعد على هذه التمثيليات المستمدة من الكتاب القدس اسم و الأفعال الخفية و ؟ والقفط مشتق من الكلمة اللاتينية ministerium ومعناها الفعل، وكانعلنا أيضاً هو معيى drama و معناها الفعل، وكانعلنا أيضاً هو معيى drama بعد زمن الكتاب المقدس سميت بمسرحيات المعجزات، وكانت تدور في العادة حولي بعض الأفعال المعجبية التي قامت المعادراء أوقام مها بعض القديسين . وقد كتب هيلاريوس Hilarius تلميذ أبلاركتراً من هذه المسرحيات (حوالي معنى كانت اللغتن اللاتينية والفرنسية ، ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى كانت اللغات القومية الأداة التي تكتب مها و مسرحيات المجزات و وأخدت الفكاهات المترايدة الصراحة تصبح فها ذات شأن مطرد الزيادة ، كما أصبحت موضوعاتها تتجه شيئاً فشيئاً وجهة دنيوية غير دينية .

وكانت والمهازل بم في هذه الأثناء قد أخذت تتطور تطوراً مستفلا بحو المسرحيات. ويتمثل هذا التطور في مسرحيتين قصير تين وصلنا إلينا من قلم آدم ده لا هال Adam de la Halle (حوالي ١٢٦٠) ، وهو رجل أحدب من أراس Arras . وتدور إحدى هاتين المسرحيتين ، مسرمية آدم شحب ، وتدول حياة المؤلف نفسه . فقد كان يفكر في أن يكون قساً ، ولكنه أحب مارية الحسناء . و وفي يوم جميل من أيام الصيف مهاره صافية ، وجوه لطيف ، بيناكانت الطيور تنطلق بأصواتها العلبة ، غمت مهاز الأشجار العالمية على شاطئ الهر فتاة هي الآن زوجتي . . . لقد رويت بالأشجار العالمية على شاطئ الهر فتاة هي الآن زوجتي . . . لقد رويت بالرسس ولمان الجاملة . ويضرها مهالم في صراحة ظريفة ويعتزم الملهاب لمل يوروجته ، طبيباً ، وعينوناً ، وراهباً ، يستجدى الناس المصدقات ويعدهم باديس الى مجاهة من الجنبات ينشدن الأناشيد ، ويذكرنا هذا بأدواد لرقص التي تقدم إقداماً في الفيليات الفنائية الحديثة . ويسىء آدم المل لموسى الموسية ، وعين ، حايه لهناة بمنه أن يفارق زوجته طول حياته ، ومن

هذا الهراء أخذت المسرحيات تتطور نطوراً مستمراً حتى وصلت إلى مسرحيات برناردشو Bernad Shaw .

وكلما بعدت المسرحيات عن الموضوعات الدينيسة واقتربت من الموضوعات الدنيوية ، انتقل تمثيلها شيئاً فشيئاً من الكنيسة وما حولها إلى السوق العامة أو إلى غبر ها من ميادين البلدة . ذلك أنه لم تكن هناك وقتثذ دور للتمثيل ، فكانوا إذا أرادوا أن يمثلوا في مكان ما تلك المسرحيات القليلة _ وكان ذلك يحدث في العادة في عيد من الأعياد الصيفية _ يقيمون مسرحاً مؤقتاً ، ويضعون مقاعد النظارة ، وينشئون مظلات مزركشة لأصحاب المقامات العالية . وكان من المستطاع أن تستخدم البيوت المحبظة بالميدان لتشيل المناظر الخلفية وغيرها مما يحتاجه المثلون . وكان الذين يقومون بالأدوار في المسرحيات الدينية هم الشبان من رجال الدين ؛ أما في المسرحيات غير الدينية فكان الممثلون هم أهل المدينة ، الماجنين ، أو المغنين الجوالين؛ وقلما كانت النساء يشتركن في القثيل . ولما زاد بعد التثيليات عن الكنيسة في مناظرها وموضوعاتها ، نزعت هذه التمثيليات إلى التهريج والحلاعة والفحش ؛ ورأت الكنيسة ، وهي التي نشأت في أحضائها المسرحية الجدية ، أن لا بد لها من أن تعلن أن التمثيليات القروية تجافى الأخلاق الفاضلة . وهكذا نرى جروستستى أسقف لنكلن يضم التمثيليات، ومنها ﴿ تمثيليات المعجزات ﴾ إلى مجالس الشراب . • وعيد الحمقي ه (٥) ، ويقول إن هذه أعمال يجب ألا يشهدها أي مسيحي ؛ وصدرت يعده أو امر شبية بهذا الأمر (بن عامي ١١٣٦ و١١٤٤) تقضى بأن المثلن الذين بشتركون في هذه التمثيليات يحرمون من الدين . أما القديس تومس قكان أكثر من هذا تساعماً ، وقال إن مهنة التمثيل قد وجدت لمواساة الإنسانية ، وإن الممثل الذي يمارسها على خبر وجه ربما نجا من الجمحم برحمة من الله .

 ⁽a) اسم كان يطلق هل رأس السنة عند بعض كنانس فرنسا في العصور الوسطى وسمى
 كذاك لما كان يحدث فيه من الخلاصة . (للشرجيم)

الفيلالابغ

الملاحم والقصص المنثورة

سار اصطباغ الأدب بالصبغة الدنيوية مع نشأة اللغات القومية جنباً إلى جنب. ويمكن القول بوجه عام إن رجال الدين وحدهم هم الذين كانوا يفهمون اللغة اللاتينية قبل القرن النانى عشر ، وإن الكتاب اللين كانوا يريدون أن يتصلوا بغير رجال الدين كانوا مضطرين إلى الكتابة باللغات القومية ، وكان بحمور القراء يز داد اتساعاً كلما زاد النظام الاجتماعي نماء ، وأخلت الآداب القومية ترتتي تدريجاً لنسد مطالب هذا الحمهور . وكانت نتيجة هذا أن نشأ الأدب الفرنسي في القرن الخالى في القرن الثانى في القرن الثانى عشر ، والإنجلزى والإسانى والإيطانى في القرن الثالث عشر .

وكان من الطبيعي أن تصبح الصورة الأولى لهذا الأدب القومي هي الأهنية الشعبية ، ثم طالت الأغنية فأضحت هي القصيدة الغنائية ، ثم كبرت القصيدة الغنائية ، ثم كبرت القصيدة الغنائية بما أدخل علمها من تطور و تضح فصارت هي الملحمة الصغرى كملحمة يبولف Beowulf و ويبلنجنلايد Nibelungenlied و أغنية رولان ضمت بعضها إلى بعض حوالى عام ١٩٣٠ من أغان كانت شائعة في القرن الناسع أو القرن العاشر .وهي تروى في أربعة آلاف بيت من الشعر النمها للنسجم العميق الوزن قصة موت رولان في رنسقال Roncessvales . و تفصيل ذلك أن شارلان يعد أن و فتح ، بلاد الأندلس الإسلامية كان عائدا بجيشه نحو فرنسا ، فا كان من جانيلون الموتورة لينجها من مأزق خطر . وبينا هو سائر في أخلود ضيق رولان لقيادة المؤخرة لينجها من مأزق خطر . وبينا هو سائر في أخلود ضيق رولان لقيادة المؤخرة لينجها من مأزق خطر . وبينا هو سائر في أخلود ضيق

ملتو فى جال البرانس إذ انقض حشد من الباشقة سمن شعاب الجبال على قوة رولان الصغيرة . وبرجوه صديقه ألشيه أن ينفخ فى بوقه الكبير ليستنجد بشارلمان ، ولكن رولان يأبى أن يطلب النجلة ، ويقود هو والفيه ، وثور پن Turpin كبير الأساقفة ، جنودهم ، ويلمافهون عن أنفسهم دفاع المستميت حتى يقتلوا كلهم تقريباً . وينزف اللم من جروح محيتة فى رأس المشيه ويغشى عينيه فيظن رولان جنديا من الأعداء ويضربه بسيفه ويشق خوذته من أعلى رأسه إلى موضع أنفه ، ولكنه ينجو من الموت :

وينظر إليه رولان وهو يضربه ؟
وبسأله بصوت لين حنون :
وأسا السيد الرفيق ؛ أتفعل هذا بجد ؟
إنى أنا رولان الذي يجبك أعظم الحب
ولم تطلب إلى النزال »
فيقول ألفييه : « أنا الآن أستمع قولك ؟
ولكنى لا أراك ، رعاك الله وأتجاك !
قد ضربتك ، فاغفرها لى ! ،
فيجيبه رولان : ولم أصب بسوم
وأعفو عنك لساعتى وأشهد الله . ،
فالما نطق مهذا المحتى كلاها لصاحبه

وينفخ رولان أخبراً فى بوقه العاجى ، ويواصل الفخ حتى ينبثق الدم من صدغيه ، ويسمعه شارلمان فيعود لنجدته و « لحيته البيضاء تطبر فى الربح » . ولكن الطريق طويل و « الجابال شاعة ، شاسعة مظلمة ، والوديان عميقة ، والأنهار سريعة التيار » . ورولان في هذه الأثناء حزين مكب على جثة ألشيه يناديها بقوله : وأيها السيد الرفيق ، لقد كنا زميلين أياماً وليالى طوالا ، ويتمسل إليه كبير الأساقفة وهو يحتضر أن ينجو بالهرب . ويأبى رولان ، ويتوسل إليه كبير الأساقفة وهو يحتضر أن ينجو بالهرب . ويأبى رولان ، ويواصل الحرب حتى يفر المهاجمون ، ولكنه هو أيضاً يصاب بجرح مميت . ويستجمع آخر ما فيه نمن قوة ويحطم فوق صخوة من الصخور سيفه دور ندال Durendal للطعم بالجمواهر حتى لا يقع في أيليى الكفار . و و رقد الكونت رولان تحت شجرة صنوبر ووجهه متجه نحو أسهانيا . . وطافت به وقتل أسرته ، وفي شارل الذي رباه ، وبكي 8 . ورفع قفازه إلى الساء دليلا على خضوعه لله ، ووفي فر نسا الحلوة ، وفي خطاصة القصة ممرجمة ولكن الترجمة أيا كانت لا تستطيع عاكاة أصلها السهل الجلال ، مرجمة ولكن الترجمة أيا كانت لا تستطيع عاكاة أصلها السهل الجلال وما من أحد غير من نشأ على حب فرنسا وتكريمها يستطيع أن يحس بالقوة والماطفة اللتين تفيض بهما هذه الملحمة التي يحفظها كل طفل فرنسي وينلوها في كل صلواته .

ووهب شاعر مجهول حوالى عام ١١٦٠ أسپانيا ملحمة قومية يمجد فها أخلاق راى Ruy أو ردريجو دياز (المتوفى سنة ١٩٩٩) ، وهى المعروفة يملحمة السيد المسلم المحمد السيد Poema de Cid . وموضوعها هي الأخرى القتال بين الفرسان المسيحين والمسلمين في الأندلس ، وتمجيد بطولة سادة الإقطاع ، وشرفهم ، وعظمتهم ، وتفضيل أبحاد الحرب عن ذلة الحب. وينفى رولان ملك جاحد بفضله ، فيودع زوجته وأبناءه في أحد الأدبرة ويقسم ألا يعيش بينهم بعدثاد حتى ينتصر فى خمس معارك ، ويخرج لقتال المسلمين . ويردد النصف الأول من القميد ذكر انتصارات هومرية . وينهب السيد فى خلال الفتراء ، ويقدم الطعام بيده إلى مجلوم ، ويأكل معه في صحفة على الفتراء ، وينام معه في فراش واحد ، ويتبن أنه ألمازر Lazarus الذي

رفعه السبح من بين للوقى . وليست هذه يطبيعة الحال هي صفات السيد التاريخية ، ولكنها لا تسيء إلى التاريخ أكثر مما تسيء إليه أغنية رولان يتمجيدها شارلمان وجعلها إياه مثلا أعلى للرجال ، وأضحت ملحمة السيد حافزاً قوياً للتفكير الأسباني والعزة الوطنية الأسهانية ؛ وألفت مثات الأغاني الشعرية التي تدور حول بطلها ، كما ألفت عنه مئات من الكتب متفاوتة القرب من الحقيقة التاريخية . وبعد فليس في الأشياء ما هو أبعد عن قلوب الناس من الصدق ، وعماد الناس والدول هو الروايات الخيالية التي تتعاقب على مدى الأبام .

. . .

واننقل بعد ذلك إلى أبسلندة فنقول إن أحداً لم يفسر لنا بعد كيف أحرجت هذه الجزيرة الصغيرة ، التي قست عليها الطبيعة وفصلها البحار عن غيرها من البلدان ، في تلك الفترة من الزمان ، أدباً لا يتناسب في مداه ولا في مهائه مع مكانها وحجمها . لقد ساعدها على ذلك عاملان : قدر كيم من الروايات التاريخية المتواترة ، العزيزة على قلب كل جاءة من المناس معزولة عن غيرها من الجاعات ، وحب القراءة ، أو الاسماع إلى القارف – أعان عليه طول ليالى الشتاء . لقد وجد في الجزيرة منذ القرن النائي عشر لا بعد كثير من دور الكتب بالإضافة إلى مكتبات الأديرة . ولما أن أصبحت الكتابة من مميزات الشخص المهلب ، صاغ الكتاب من رجال الدنيا والدين هذه القصص الشعبية صياغة أدبية بعد أن كانت من قبل ملكا للشعراء الشعبية .

وكان من المصادفات النادرة أن زعم كتاب القرن الثالث عشر في أيسلندة كان هو أغنى أهلها ، والرجل الذي اختبر ورثين ليكون رئيساً لجمهوريها --الناطق بالقانون كما يسمونه فها .كان أسترى استورلسون Snerri Sturison (١٧٤٨ - ١٧٤١) يجب الحياة أكثر مما يخب الأدب ، وكان كثير الأسفار ، منهمكا في السياسة و المنازعات، ثم قتله زوج ابنته وهو في الثانية والستن من عمره. وقد روى فى كتابه العالم المستدير Heimskringa تاريخ بلاد النهال وقصعها يما فطر عليه رجل الجلد والعمل من بساطة وإيجاز ؛ وروى فى كتاب القطر عليه رجل الجلد والعمل من بساطة وإيجاز ؛ وروى فى كتاب التاريخ الوارد فى الكتاب المقدس ؛ وشلوات من أساطير الشالين ، وضمنه التاريخ الوارد فى الكتاب المقدس ، وشرحا فذا النشأة هذا الفن من الول يقول فيه إن طائفتين من الأرباب اقتلوا ثم عقلوا الصلح بأن أخلوا يبصقون فى جرة ، ونشأ من هذا البصاق نصف إله يدعى أكفاز ير Kvasir يبصقون فى جرة ، ونشأ من هذا البصاق نصف إله يدعى أكفاز ير الانهزار علم الناس الحكمة كما علمهم إياها يروميثيوس . وقتل الأفزام أكفاز ير وانخذ الإله المنظم أودين اكفان (محيلة إلى المكان الذى خزن فيه الأفزام هذا الماء الحمر الشعرى ، وشربه كله ، وطار إلى السياء ؛ غير أن بعض السائل الحيوس خرج منه يطريقه قال تستخدم فى الفساق الدامة ؛ وسقط هذا الماء المجموس خرج منه يطريقه قال تستخدم فى الفساق الدامة ؛ وسقط هذا الماء الشهى رذاذا ماهما على الأرض ، وامتص من سقط عليه موهة قرض الشاريخ .

وهذه الفترة من تاريخ أيسائدة غنية بأدبها غنى تحار فيه العقول ، ولا يزال هذا الأدب يفيض طرافة ، ومرحا ، وفكاهة ، وفتت شهرية تسرى في نثره . وكتبت في ذلك المهد مثات من القصص المنتورة بعضها محلصر وبعضها في طول الروايات الشرية ، بعضها تاريخي وبعضها محلط التاريخ بالأماطير . وكلها بوجه عام ذكريات المحضارة من عصر الهمجية ، مليئة بأعمال المروءة والعنف ، يُعمَّدُها التاضي ويخفف من مالها الحب . وكثيراً ما يرد في قصص إنجلنجا Ynglinga تأليف أسترى ذكر فربان الذيال اللذين يحرق بعضهم بعضاً ، أو يحرق الواحد مهم نفسه ، أو ذكر أبائهم أو أقام شرابهم . وأوسع هذه القصص خيالا

قصص الفلستجاسامها Volsungasaga . وقد وردت قصصها في صورة باكرة . . في الإدا الكبرى أو الإدا الشعرية ؛ وأحدث صورة لها هي التي وردت في خاتم السانحيين Nibalungs تأليف فاجر Wagern .

والفلسنج Volsung هو كل من تناسل من ويلز Waels ، وويلز هذا ملك من ملوك الشمال ، وهو ابن حفيد أودين وجد " سيجورد Sigurd (ميجفر بد Siegfried) . والنيلنجون حسب نص البياغيد Nibelungenlied ملوك برغنديون ، أما في الفلسخاساما فهم سلالة من الأقرام يحرسون في بلاد الرين كنزاً وخاتماً من الذهب يجلاً ن عن التقدير ، ولكنهما يجلبان التقمة لكل من يمتلكهما . ويقتل سيجورد فهنر Fahnir التنهن الذي يحرس الكنز ويستولى عليه ، ويصل في تجواله إلى تل تحيط به النبر ان وتنام عليه برندهلد Brundhild المُلكراية Valkyrie (نصف الإلمة التي من نسل أودين) . وتلك إحدى صور قصة الجميلة النائمة Sleeping Beauty ويفتَّن سبجورد بجالها وتفتَّن هي به ، ويقسهان يمن الوفاء ، ثم يتركها ويواصل أسفاره ــ كما يفعل الرجال في كثير من قصص العصور الوسطى. ويلتني في بلاط جيوكي Oukil أحد ملوك بلاد الرين بالأمرة جلىرون Gudrun ، وتسقيه أمها شراباً مسحوراً ينسيه برندهلد ويتزوج جدرون ؛ ثم يتزوج جنار Gunnar بن جيوكي برندهلد ويأتي سها إلى بلاط أبيه ، ويسووها نسيان سيجورد إياها فتعمل على قتله ، ثم تندم على فعلتها فتعلو كومة حريقة ، وتنتحر بسيفه ونحترق معه .

وأحدث صورة لمله القصص الأيسنندة هي قصة أتجال الحترف Njai (حوالى ١٩٢٠). وشخصيات هذه النسة واضحة تحدهم أعمالم وأقوالم أكثر الما عددهم وصفهم. والقصة محكمة البناء وتنقل حوادثها المثيرة تنقلا محتمه السباق حتى تصل إلى الكارثة التي تدور حولها حوادثها وهي احتراق بيت

نجال ؛ واحتراقه هو وزوجته برجنورا Bergthura وأبنائه على أبدى جاحة مسلحة من الأعداء يقودهم شخص يدعى فلوسى Flosi يحقد على أبناء نجال ويعمل على الانتقام مهم :

ئم نادى فلوسى . . . نجال وقال له .

إنى آذن لك ، يا سيد نجال ، أن تخرج الأنه لا يليق بك أن تحترق فى
 داخل الدار .

فعرد عليه نجال فائلا : لن أخرج لأنى شيخ كبير ؛ لا أقوى على الثار لأبنائى ، ولكن لن أعيش مجللا بالعار »

ثم نادى فلوسى برجثورا قائلا : « أخرجى با صاحبة الدار لأنى لا أريد أن أحرقك داخل البيت مهما تكن الأسباب :

فتجيبه برجثورا بقولها : ولقد تزوجت نجال وأنا صغيرة ، ووعدته أن ألتي وإياه نفس المصبر »

ثم عادا بعد ذلك إلى البيت:

وسألته برجثورا : ﴿ أَيَّةَ نَصِيحَةً نَتْبِعُهَا الْآنَ ؟ يَ .

فيجيبها نجال : ٥ سنذهب إلى فراشنا ، ونرقد عليه ، فطالما تاقت نفسى إلى الراحة ٥

ثم قالت للغلام ثور د Thord بن كارى : Kari : ٥ سأخرجك أنت ولن تحتر ق هنا)

فيجيها الغلام قائلا: ﴿ لَقَدْ وَعَدَنَّى يَا جَدَنَّى أَلَا نَفْرَقَ مَا دَمَّ آرَغَبِ اليقاء معك ؛ ولكنَّى أرى أن موتى معك ومع نجال خير من حياتى بعدكما ﴾

ثم حملت الغلام إلى سريرها و... ووضعته بينها وبين نجال ، ورسما علمهما (١٧ – بر ١ – بجائـ ؛) وعلى الغلام علامة الصليب ، وأسلما أرواحهما إلى الله ، وكان هذا آخو . لفظ سمعه الناس منهما(٢٢)

وكان عصر الهجرة (٣٠٠ – ٢٠٠) قد ترك في ذكريات الشعوب والمنتن المضطربة ألف قصة وقصة عن الفرضي الاجباعية ، والشجاعة الهمجية ، والحب القاتل ؛ وانتقلت بعض هذه القصص إلى بلاد الروبيج وأشهرت الفلسجاساما ، وكثير مها متقاربة الأسماء والموضوعات ، وقد عاشت وتضاعف عددها في ألمانيا في صورة قصص تاريخية ، وقصائد غنائية وقصص شعبية ، حيى قام رجل ألماني غير معروف في زمن غير معروف أثناء القرن الثاني عشر وصاغ من تلك المواد النبياخيليم أو أغاني النبياخيين . وهي مصوغة في قصص مسلسل من الشعر لكل بيتين منه قافية واحدة بلغة القسم الأوسط من ألمانيا العليا ؛ وقصصها مزيج من الانفعالات البدائية والأمرجة الوثنية .

وحكم الملك جنثر Ounther وأخواه برغندية زمناً ما فى القرن الرابع الميلادى فى قصرهم فى ورمز على ضفة نهر الرين ، وكانت تقيم معهم فى ذلك القصر أختهم الشابة كريمهيله Krembild – التى لم يكن أجمل منها فى بلد من البلاده ، وكان الملك سجمند فى هذه الأثناء يمكم الأراضى الوطيئة ، وأقنم ابنه سيجفريد (سيجورد) ضيعة غنية بالقرب من أكسنتين Xanten الواقعة هى الأخرى على ضقة الرين . وترامت إلى مسامع سيجفريد أخبار جمال كريمهيله فذهب لزيارة بلاط جنثر وأقام هاك على الرحب والسعة مدة عال عركيمهيله فذهب لزيارة بلاط جنثر وأقام هاك على الرحب والسعة مدة عام ، ولكنه لم يركريمهيله قط وإن كانتهى قد أبصرت من نافلتها الشبان يثنا نفون فى فناء القصر ، فأحبته من أول نظرة . ذلك أن سيجفريد كان يفوق سائر الشباب فى قراع السيوف ، وأظهر بسالة عظيمة فى حربه فى صفوف سائر الشباب فى قراع السيوف ، وأظهر بسالة عظيمة فى حربه فى صفوف المرعندين ؛ وأراد جنثر أن يحفل بعقد الصلح بعد انتصاره وأمر سيدات القصر أن يشهذن الاحتمال !

وازينت كثيرات من بنات الأشراف أحسن زينة ، وتاقت نفوس الشبان لنيل رضاء السيدات وإحجاجين ، ونزلوا عن حقهم في أوض الملك الفنية فظير فوزهم جلما الإحجاب . . . : وتبدت كريمهيلد كأنها كوكب الصباح يتألق بين السحب المدكناء ، ولم يكد يراها الشاب اللدى اتطوى قلبه على حبا من زمن بعيد حتى ذهب عنه ماكان يحس به من تعب وسيجفريد وحزن ، فقد قال في نفسه : «كيف أخطب ود فتاة مثلك ؟ تلك لارب أضغاث أحلام ، ولكن الموت عندى أفضل من البعد عنك ه . . . واحرت وجتاها حين أبصرت أمامها ذلك الرجل ذا النفس العالية ، والحرت و مرحباً بك يا سيجفريد ، أمها الفارس الباسل النيل » . وامتلأ قلب الفارس شجاعة حين سمع هذه الألفاظ ، وانحنى أمامها انحنام جيلة قلب الفارس الشهم ، وشكر لها نحيبًا . وارتبط قلباهما برباط الحب القوى وتبادلا النظرات مراً .

وتراست أخبار برسيلد ملكة أيسلندة إلى جنثر وكان أعزب ، وقبل له إنها لا ينالها إلا من يتفوق علمها فى ثلاث مجارب للقوى ، وإنه إذا أخفق فى أية تجربة منها جوزى بقطع رأسه . ووافق سيجفريد على أن يساعد جنثر على ليل برسيلد إذا زوجه بكر يمهيلد . ويعربان البحر يسرعة القصص وسهولتها ، ويللس سيجفريد طيلسانا سحرياً يخفيه عن الأنظار ، ويساعد جنش على الحروج ظافراً من التجارب الثلاث ، ويأتى جنثر برسيلد إلى موطنه ليتروجها على كره منها . وتساعد ست وغانون فناة كر يمهيلد على إعداد الأثواب الفالية للمروس . ويحتفسل بزواج جنثر وبرسيلد وبزواج سيجفريد وكر يمهيلد وخرواج سيجفريد وكر يمهيلد

ولكن برنميلد تبصر سيجفريد فتحسأنه هو لاچنثر الذى يليق أن يكون زوجها . ويقبل جنّر علمها ليلة زفافها فترده عنها خائياً ؛ وتربطه فى عقدة وتعلقه على الجدار . وينطلق جنّر من العقدة ويستنجد بسيخريد ؛ وفى اللبلة الثانية يتخى البطل فى زى جنّر وينام بجرار برنبيلد ، بينا يكون جنّر نفسه مختيماً فى حجرة مظلمة يستمع إلى كل شيء ولا يرى شيئاً . وتلقى برميلد بسيجفريد بعيداً عن الفراش وتشبك معه فى معركة تفرى العظم ، وتحطم الرأس ، ولا تجرى على سن متبعة . ويقول فى نفسه أثناء المعركة : ﴿ واحسرتاه ! إنى إذا مت بيد امرأة فإن الزوجات جميعهن سيحتفرن أزواجهن » . وجزم بريلد آخر الأمر ، وتعد أن تكون زوجة . وينسجب سيجفريد دون أن يراه أحد حاملا معه منطقها وقرطها ، ويحل جثر عله بجوار الملكة الحائرة القوى . وجدى سيجفريد المنطقة والقرط إلى كريميلد ، ويأتى جا إلى أبيا ، فيتوجه ملكا على الأراضى الوطيئة . ويستخدم سيجفريد ما له من ثروة فى سنيدلنجن فيليس زوجته ووصيفاتها من الثياب ما لم تلبسه امرأة أخرى قبلهن .

وتزور كريمپيلد بعد فترة من ذلك الوقت برنهبلد في مدينة ورمز . وتسحر برنهبلد أنواب كريمهيلد الفالية فتدبر الفيرة في قلها ، وتذكرها يأن سيجفريد من أتباع جثر . وترد علها كريمهيلد بأن تكشف لها عن المنطقة والقرط لنتبت لها أن سيجفريد لا جنثر هو الذي غلها على أمرها . وكان لجنثر أخ تكد غير شقيق يدعي هاجن Hagen ملا صدره حقداً على سيجفريد ؟ فأرسلا إليه يدعوانه للخروج إلى الصيد . وينحني سيجفريد فوق بجرى ماء لروى ظمأه . فيطعنه هاجن بحربة ، وتبصر كريمهيلد بطلها يلمي منيته و فيغمي علها وتفقد وعها طوال ذلك اليوم وتلك الليلة ي . وترث كنر نيلنج بوصفها أرملة سيجفريد ، ولكن هاجن يغرى جنثر باغتصابه منها ، وبدفن جنر وإخوته هذا الكاز في نهر الرين ويقسموا ألا يكشفوا لأحد عن محيه .

وتظل كريمهيلد ثلاثة عشرحاماً تفكر فى الثار لزوجها من هاجن وإخوتها ، ولكنها لاتجد الفرصة التى تمكنها من هذا الثار ، ثم نقبل ما عرضه عليها (نزل Eizel (أتلاها) Adilla) ملك الهون من زواجه مها ؛ وتنتقل إلى ثمينا Vienna لتعيش فها وتكون زوجة له . و وكان إنزل ذا شهرة عظيمة تجتذب إلى بلاطه

بلا انقطاع أشجع الفرسان مسيحيين وكفاراً على السواء وكان الإنسان يرى عنده ما لا يستطيع أن يراه في هذه الأيام ــ يرى المسيحين والكفرة جنباً إلى جنب. وكان الملك ندى اليد سخياً على الناس جيماً أيا كانت هقائدهم ، فلم يكن تمة أحد لا ينال رفده » . وظلت كريمهيلد تحكم البلاد و حكماً صالحاً ، مدى ثلاثة عشر عاماً بدا فيها أنها لم تعد تفكر في الانتقام ؛ وبلغ من أمرها أن طلبت إلى إنزل أن يلحو هاجن وإخوتها إلى وليمة ؛ ويلبي هؤلاء الدعوة رغم تحذير هاجن ؛ ولكنهم يأتوز عمهم بحاشية من الفلاحن والفرسان المسلحين. وبيناكان إخوة الملك وهاجن ومن معهم من الفرسان يستمتعون بضيافة حاشية الهون في سهو إتزل ، إذ يقتل الفلاحون الذين في خارج الهو بأمر كريمهيلد ، ويتلقى هاجن النبأ ، فيستل سيفه ، وتدور معركة رهيبة في المهو بين البرغنديين والهون (ولعل القصة ذكري حربهم الحقيقية التي دارت في عام ٤٣٧) . ويطبح هاجن بضربته الأولى برأس أرتليب Artlieb ابن كريمهيلد وإنزل البالغ من العمر خس سنين ويلقى برأسه فىخجر كريمهيلد وجنثر . ولماكاد الىرغنديون جيعا يهلكون يطلب جرئوت Geraot أخو كريمهيلد ونجنثر إلى إئزل أن يسمح للباقين من الزوار بالحروج من المهو . ويظهر فرسان الهون رغبتهم في إجابة هذا الطلب ولكن كريمهيلد ترفضه ، وتستمر المذبحة ، ويتوسل إلها جزلهر Gissiher أخوها الأصغر الذي كان غلاما بريثا في الحامسة من عمره لما قتل سيجفريد وينادمها: و أختى يا أجمل النساء ، بأى ذنب أستحق الموت بأيدى الهون ؟ لقد كنت على الدوام وفيا لك ، لم تمسسك يداى بأذى ؛ ولكنى جثت إلى هذا المكان يا أعز الأخوات لأنى وثقت بحبك ، فهلا رحتني ﴾ . وترضى كريمهيلد بأن يخرج الباقون إذا أسلموا هاجن ، فبرد علمها جرنوت بقوله : وذلك ما يأباه الله في علو مياثه ، خبر لنا أن نهلك عن آخرنا من أن نقتلى أنفسنا هِوَاحِدُ مَنَا ﴾ . وتخرج كريمهيلد الهون من البناء » وتغلق الأبواب على من

فيه من البرغنديين ، وتأمر ماحراقه . ويمن البرغنديون من فرط الحرارة والقاماً فيصيحون من شدة الألم ، فيأمرهم هاجن بأن يطفتوا ظمأهم بشرب هماء القتلي ، فيصدعوا بما يؤمرون ، ويحرج بعضهم من بين الأخشاب الملتهة المتساقطة ، وتستمر المحركة دائرة في الفناء حتى لا يبقى حياً من البرغنديين غير جنثر وهاجن . ويقاتل ديثر ييخ Dietrich القوطى هاجن ، البرغنديين غير جنثر وهاجن . ويقاتل ديثر ييخ الكفلال . وتسأله هاجن أبن أخفى كنز نيبلنج ، فيجيها بأنه لن يكشف لها عن ذلك السرما دام جنثر حياً ؛ وبقتل جنثر ، وكان لايزال حياً ، بأمر أخته ، ويحمل رأسه إلى هاجن ، ولكن هاجن يتحداها يقوله : « إن مكان الكزلا يعرفه الآن إلاالله وحده وأنا ، ولن تعرفي هذا السر أيها المرأة الشيطانة » ؛ فتقبض بيدها على سيفه وتقتله به . وتشمئز نفس هاديراند Hildébrand القوطي مما سفكته كريمهيلد من اللعماء فيقتلها .

تلك قصة رهيبة تجرى فيها الدماء كما تجرى فى أية قصة أخرى فى عالم الأدب أو فيا هو دونه . وإنا لنظلم هذه القصة بعض الظلم إذا انتزعنا لحظاتها الرهيبة بما يحيط مها من ولاثم ، ومثاقفة ، وصيد ؛ وشئون النساء . ولكن هذا هو الموضوع اللي تدور حوادثها حوله _ فتاة رقيقة يبدلها ما صادفته من الشر امرأة وحشية سفاحة . ومن عجب أنه قلما يبقى فى القصة يعد هذا شىء يقربها من اللدين المسيحى ، فهمى فى الواقع مأساة يونانية تدور حول الانتقام ، ولا تفعل ما تفعله المآمى اليونانية إذ تأنى أن تقع أعمال العنف على المسرح . وتطفى هذه الجرائم على جميع فضائل الإنطاع فلا يكاد يظهر مها شىء حتى إكرام رب الدارأضيافه الذين دعاهم لزيارته ، وليس ثمة ما يفوق وحشية هذه القصة إلاوحشية أيامنا نحن .

الفصلالخامس

شعراء الفروسية الغنزلون(*)

في أواخو القرن الثالث حشر ، أي في الوقت الذي كنا نوقع فيه أن يكن الأدب الأوربي مصطبعاً بالحياسة المدينية التي يعتبها في الناس الحروب الصليبية ، في أواخر هذا القرن بالذات نشأت في جنوبي فرنسا ملموسة من الشعر الفنائي أرستقراطية ، وثنية ، غير كهنونية ، علمها الطابع المربي ، تغيي بانتصار المرأة على القيود الثقيلة التي فرضها نظرية سقوط آدم ، وانتقل هذا الطراز الشعرى من طولوز إلى باريس ومن باريس إلى لندن مم إليانور الاكتابية ، واستحوذ على قلب ابنها الباسل رتشرد الأول ، وأوجد المتصيبن بالشعر من الألمان ، وصاغ النفات المدنبة الهادئة التي مهدت السبيل إلى دانتي .

ويتلألاً في بداية هذا الطراز من الشعر وليم التاسع كونت بواتو ، وحوق أكتبن ، وجد إليانور نفسها . وألني هذا الخليع المستر نفسه في الحادية حشرة من عمره (١٠٨٧) حاكما لفرنسا الجنوبية يكاد يكون مستقلا بحكمها ؛ واشترك في الحرب الصليبة الأولى وتغني بنصرها ؛ ولكنه كان مثل كثيرين غيره من النبلاء في أرضه التي طغي طلبا الإلحاد ، فكان على الإجلال للكنيسة يسخر من قداوسها . وقد وصف في ترجمة پروفنسالية للبنانه ، من أكثر خلق الله أدباً وظرفاً ، ومن أكثرهم غواية النساء ، له بأنه ، من أكثر خلق الله أدباً وظرفاً ، ومن أكثرهم غواية النساء ، وأنه فارس مغوار ، كثير التورط في مفامرات الحيب ، يجيد الفناء وقرض الشعر ، وقد ظل وقتاً طويلا يجول في البلدان ويغوى النساء ، ١٩٣٥ ؟ وقد اغتطف وهو متروج كوننة شائل رول Chatelierault الحساء ، وعاش Angoulême الأصلع

^(*) Troubadour انظر اشتقاق هذا الفظ قيما بعد . (المترجم)

الجرىء أن يقلع عن غيه أجابه بقوله : وسأنبذ الكونتة في الساعة التي يحتاج فيها شكوك إلى مشطه ، والتتي يوماً ما بأسقف بواتيه بعد أن حكم بطره من الكنيسة وقال له : و اغفر لى وإلا قتلتك ، فرد عليه الأسقف وهو يمد له عنقه : و اضرب » ، وأجابه ولم : و لست أحباك بالقدر الذي يكفى لأن أبعث بك إلى الجنة و(۲۷) . ووضع الدوق طرازاً من الشعر الغزلى يكتب إلى البيلات ، وكان يفعل ما يقول ، وكانت حياته قصيرة مليثة بالمرح ، فقد مات في السادسة والحمسين من عمره (١١٣٧) ، وأورث إليارور ضياعه الواسعة وذوقه الشعرى والغرامي .

وجعت إليانور الشعراء حولها في طولوز ، وسرهم أن يتغنوا لها ولمناشيها بجهال النساء وما تبعثه مفاتهن من نشوة . وشرع برنار ده قتتادور عن نشرة من ينفرو الما Bernard de Ventadour ، وكان شعره في نظر پترارك لا ينقص إلا قليلا عن شعره هو نفسه ، يتغنى بجال فيكونته ثنتادور ، وحملت الشكونتة مديحه محمل الحد فاضطر زوجها أن يحبسها في يرج قصره . وشجع هذا برنار فراح يتغنى بجال إليانور نفسها وتبعها إلى رون Rouen ؛ و لما أن فضلت حب ملكين أفرغ ما في قلبه من هيام في لمن حزين ذاهم الصيت ، وبعد جيل من ذلك الوقت أصبح الشاعر الغزلى برتران ده بورن Bertraud فضلت حب de Born صديق و تشرد الأول الحميم ، ومنافسه المتفوق عليه في حب السيدة مينز المرتنياكية Dame Maens of Martignac ؛ وسحب شاعر غزلى آخر يدعى پتر ثيدال Poire Vidal ؛ وعاش بعد بحيثه فقيراً يقرض غزلى آخر ب الصبليية ، ورجع سالماً ، وعاش بعد بحيثه فقيراً يقرض الشعر حتى ظفر آخر الأمر بضيعة وهبها له ريمند السادس كونت طولوز (۲۰۰۷). الشعر حتى ظفر آخر الأمر بضيعة وهبها له ريمند السادس كونت طولوز (۲۰۰۷). الأربة دليلا على ما كانت عليه هذه الطائفة المغنية من انحلال .

كان بعض أفرادها موسيقين أفاقين ، وكانت كثرتهم من صغار النبلاء الهولمين بالغناء ، وكان أربعة مهم ملوكا ــ رتشرد الأول ، وفردريك الثاني ، وألفنسو الثاني ، وبدوو الثالث ملك أرغونة . وظل هوالاء الشعراء قرناً من الزمان (١١٥٠ – ١٢٥٠) يسبطرون على أدب فرنسا الجنوبية ، ويشكلون عادات الطبقات الأرستقراطية الني كانت تنتقل في ذلك الوقت من الوحشية الريفية إلى الفروسية الىكادت تكفُّر بالمجاملات عن آثام الحرب، وبالظرف والأدب عن الفجور والفسق . وكانت لغة شعراء الفروسية الغز لين هي لانج دك Langne Dioc أو لغة الرومان Roman التي كانوا يتكلمون بها في جنوبى فرنسا وشمالى أسپانيا الشرقى . أما اشتقاق اسمهم فهو موضع الخلاف الشديد ، والراجح أن كلمة تروبدور Troubodour مشتقة من الكلمة الرومانية ترويار Trobar ومعناها مجمر أو يُخترع ، كما أن من الواضح أن الكلمة الإيطالية Trovatore (تروڤتورى) مشتقة من تروڤارى Torvare ، ولكن من الناس من يقول إنها مشتقة من كلمة الطرب العربية ومعناها الغناء(٢٦) . وكانوا يسمون فنهم دالحكمة المرحة ، gai saber أو gaya ciencia ولكنهم كانوا يرونه من الأعمال الجدية التي تتطلب وتتاً طويلا من المران على الشعر ، والموسيقي ، وآداب الحديث التي تليق بالفرسان أو ني النبل والشهامة . وكانو يتزيون بزى الأشراف ، ويتشحون برداء طرزت-واشيه بالذهب والفراء الثمينة ، وكثيراً ما كانوا يركبون وهم مدرعون بدوع الفرسان ، ويتسابقون في ألعاب البرجاس ، ويقاتلون بالرماح والأقلام في صبيل السيدات اللاتي يقدمون لهن شعرهم وإن لم يقدموا لهن حياتهم ي ولم يكونوا يكتيون لغىر طبقة الأشراف ، وكانوا عادة يلـَحُّنون بأنفسهم شعرهم الغنائي ويستأجرون المغنن ليغنوه في المآدب وألعاب البرجاس ، ولكنهم كثيراً ما كانوا هم أنفسهم يعزفون على الفيثار وينفسون بأغنية عن عاطفة مكبوتة .

وأكبر الظن أن العواطف التي كانوا يعبرون عنها لم تكن إلاصورة أدبية ، وأن تحرقهم لم يكن أكثر من رغبة ، وأن سكنهم مع حبيباتهم فى السهاء تعبر عن إشباع رغبتهم، وأن يأس الترويدور المحزن إن هو إلار خصة شعرية وأداة للتعبر.

ويبدو أن الأزواج الذين كانوا يسمعون هؤلاء الشعراء يتشببون بنسائهم لم يكونوا يرون في هيامهم أكثر من هذا ، وأنهم لم يكونوا أكثر حرصاً على أزواجهم من معظم الذكور وإذ كان الزواج بين الأشراف لا يعدو أن يكون حادثاً من حوادث تداول الثروة ، فقد كان الحب إذا وجد يعقب الثروة لا يسبقها كما يحدث في القصص الفرنسي : وأما ما وجد من الحب في أدب العصور فكان كله من فرنسسكا Francesca وبيتريس Beatrice في الجنوب إلى إيسلد Isolde وچنيشر Guinevere في الشمال ، حبًا حراماً إذا استثنينا منه بعض الأمثلة القليلة ﴿ وَكَانَ عَجَزَ الْحُبِّ عَنْ الوصول إلى السيدة المتزوجة هو الذي أوجد طائفة التروبدور ؛ ذلك أن من الصعب خلق رواية غرامية تدور حول الرغبة المشبعة ، وحيث لا توجد العقبات لا يوجد الشعر . ولسنا تسمع إلا عن أفراد قلائل من شعراء الفروسية الغزلين حظوا آخر الأمر يعطف السيدات اللائى اختاروهن موضوعاً لأغانهم ، ولكن هذا لم يكن إلا خرقاً للمألوف من القواعد في الشعر ، فقد جرت العادة أن يطني الشاعر حرقته بقبلة من الحبيبة أو بلمس يدها : وكان هذا التمنع من أسباب الرقة والظرف ؛ ومن أجل هذا انتقل شعر الآ وبدور ــ ولعله تأثر في هذا الانتقال بعبادة مرىم ــ من الشهوانية إلى ما يقرب من الرقة الروحية .

لكنهم قلم كانوا رجالا أنقياء صالحين ، وكان عدم تعفقهم من أسباب التنافر بيهم وبين الكنيسة . وقد ألف بعضهم القصائد في هجو كبار رجال الدين ، وفي السخرية من الجمعيم (٢٧٠) ، والدفاع عن الملاحدة الألبچنسيين ، والإشادة بالحملة الصليبية التي انتصر فيها فر دريك العاصي حيث أخفق لو يس الصالح. ولم يرض جولم أديمار Adémar الصالح. ولم يرض جولم أديمار Ouillem Adémar إلا عن حملة صليبية واحدة ، وكان مبب رضائه عنها أنها أبعدت من طريقه زوج صيدة يشبب بها . وكان

ريمون چوردن Ra mon Jorden يفضل ليلة يقضيها مع محبوبته عن أية جثة هماوية يعلمونه مها(۲۸) .

وكانت الصور الإنشائية في نظر شعراء الفروسية المغزلين أجل شأناً من الوصايا الأخلاقية . وكان لكل ضرب من قصائدهم اسم يتسمى به فالطرو Canzo أغنية المغرام ، و البعرتي plante مرثية لصديق أو حبيب مات ، و النسوي Tenson حوار مقى عن الحب ، والأخلاق ، والفروسية ، والسرفتي sirvente أغنية الحرب ، والنزاع والهجوم السياسي ، والمستند منح sixtene قصيدة تنافف من ست مقطوعات معقدة القافية ، في كل واحدة مها ستة أبيات ، اخترعها أرنو دانيل Arnaud Daniel وأعجب بها داني ، والسروية غزلي وراعية ، والفهرية والفهرية والمهرية المنافقين بأن النهار سوف والمنطقة أمرهم ، والسرينا أو السرئيد serenade أمرهم ، والسرينا أو السرئيد serenade أغنية المناء ، والمهرية شاعر غير معروف تنطق والمهرية شاعر غير معروف تنطق بيعض أبياتها فناة من فنيات القرن الثاني عشر تذكرنا يجوليت Juliet :

ف حديقة ينشر فيها الشوك الأبيض أوراقه ،

كانت سيدتى يضطجع حبيها بجوارها

حتى نادى الرقيب بطلوع الفجر – ويلاه الفجرالذي يحزن المحبن ! رباه ؟ يَا رباه ، ما بال الفجريقبل مسرعًا !

> أتوسل إليك يا رب ألا ينقضى الليل ، الليل الحبيب ، وألا يبتمد عنى حبيم ،

وألا ينادى الرقيب (الفجر » ـــ الفجر الذي يقضى على السلام ! رباه 1 يا رباه 1 ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

د صديقتي الحميلة الحلوة ، أنيليني شقتيك - شفتينا مرة أحرى ا
 ها هي ذي الطيور في المراعي تشدو
 فليكن نصيبنا الحب ، ونصيب الحسود الأثم !
 رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرحاً !

من تلك الربح الحلوة التي تقبل من يعيد شربت حتى ارتوبت من أنفاس الحبيب، نع ، من أنفاس حبيبي المرح العزيز! رباه! يا رباه ، ما بال الفجر يقبل مسرعاً

ألاما أجمل فتاتى وما أظرفها ، رما أكثر من يرقيون الطريق الذى يتجلى فيه جمالها ولا يطوف بقلها طائف القدر! رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً! (٢٩٧).

وقضى على حركة شعر اءالفروسية الغزلين فى فرنسا متتصف القرن الثالث عشر، وكان من أسباب القضاء عليها ما قى صباغتها وعواطفها من تكلف وتصنع أخلا يتر إيدان على مر الآيام ، وما حل بجنوبى فرنسا من دمار بسبب الحروب الدينية الألبجلسية ، فقد تهدمت فى الوقت العصيب كثير من القصور التى كان يأوى الهاشعراء الفروسية الغزلون ؛ ولما أن قاست طولوز نفمها حصاراً مزدوجاً الهار نظام الفروسية هذا فى أكتن . وفر بعض المغنن إلى أسهانيا وبعضهم إلى

إيطاليا ، وفيهما يعث فن أغانى الحب بعثاً جديداً فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، ولم يكن يتر ارك ودانبي إلا وريشن للترويليور. وكان ما خلقوه من تقاليد الشهامة والمرح عوناً على صياغة دمتور الفروسية ، وتحويل سكان جنوبي أوربا الهمج إلى رجال مهذبين ، ولقد ظلت الآداب مزر ذلك الحين تحس بأثر أغانهم الرقيقة ، ولعل الحب تفوح منه فى هذه الأيام رائحة ذكية مستمدة من عطر مديجهم .

الفيرالساس

المتصببون بالشعر من الألمان

انتشرت حركة شعراء الفروسية الغزلىن من فرنسا إلى جنوبى ألمانيا حيث ازدهرت في عصر أباطرة هوهنستارفن الذهبي وكان الشعراء الألمان يسمون المنيسانجر Mennisänger أى المتصببين بالشعر ، ووجد شعرهم في الوقت الذي وجدت فيه في دستور الفروسية المعاصر فعرمة المحبوب Minnedienst وهَدمة السبرات Fraundienst . ونحن نعرف أسماء ثلثمانة من هوالاء المتصببين ، ولدينا ثروة موفورة من شعرهم ؛ وكان بعضهم من طبقة الأشرآف الدنبا ، وبعضهم من الفقراء ، يرعاهم الأباطرة أو الأدواق . وكان كثيرون مهم أمين وإن التزموا قواعد صارمة في الوزن والقافية ، وكانوا يملون ألفاظ أغانيهم وموسيقاها ؛ ولا يزال الشعريسمي في ألمانيا إلى يومنا هذا ومُتونج Dichfung أي الإملاء . وكانوا عادة يتركون المغنين العازفين يغنون أشعارهم ، وكانوا أحياناً ينشدونها بأنفسهم . ويروى لنا الرواة مباراة غناثية Sängerkrieg عظيمة عقدت في قصر وارتبرج Wartburg عام ١٢٠٧ ، ويقال إن تان هوزر Tannhäuser وولفرام ڤن إشنباخ Wolfram von Eschenbach اشتركا فها(٣٠). وظل المتصيبون قرناً من الزمان يعملون على رفع منزلة المرأة في ألمانيا ، وأضحت نساء طبقة الأشراف الباعثة والملهمة لثقافة أرق من أية ثقافة عرفتها تلك البلاد فيما بعد حي عصر شار Schiller وحبته

 ⁽a) لقد خلطت القصر. ين تان هوزر، وهومن المتصبين المتأخرين، و بين الفارس تان هوزر الذي فر من فينسبر Venusbery إلى رومة ووجد له مكاناً صغيراً في إحد المسرحيات الفنائية .

ويُشمّ ولفرام وولتر قن در قوجلويد Parzival ولكن الأفضل أن يسلك لل طائفة المتصيين لأنهما كتبا أغانى في الحب ، ولكن الأفضل أن يسلك ولفرام وقصائده المعروفة باسم بارزفال Parzival في سلك كتاب الروايات المغرامية . وكان مولد ولتره ابن مرج الطيور ، في مكان ما في التيرول التيرول المغرامية . وراد أحواله على صوءاً على سوء بأن اتحفد الشعر صناعة له . ونسمع عنه وهو في سن المشرين يكسب قوته بالغناء في بيوت الأشراف من أهل فينا . وكان وهو في سن الشباب هده يكتب في الحب كتابة شهوانية طلقة أغضبت منه منافسيه ، ولا يزال كلان ختى الآن يعترون بقصيدته تحت شجرة الشلما Unter den Linden لل

محت شجرة النيل وعلى الخلنج

كان لنا نحن الاثنين فراش ،
وهنا كنت تبصيرنا وقد النفت حولنا

الأزهار المتقطمة والكلأ الهشيم ؛
ومن أجمة في الوادى ــ تندرادى ــ
يشدو البلل بألحانه العذبة .

وأسرعتُ إليه من خلال الفضاء بين الأشجار ، ووصل حبيبي إلى المكان قبلي ، وهناك وقمت في شرك الحبيب -- وكنت أسعد الفتيات ، وحظيت بسعادة ليس فوقها سعادة .

و هناك قبلني مراراً -- تندرادي

انظروا إلى شفتي ما أشد حرتها !

هو مغتبط
 هأقام لنا حريثاً من الأزهار ع
 ولا بزال هذا دعاية زائلة ع

لأن الذين يمرون بهذا الطويق ويرون المكان الذي وضعت فيها رأمي بين الورود ــ تندرادي !

. .

ولو أن إنساناً (لا قدر الله !) كان بالقرب منا لجلانى العار ، فقد رقدنا هناك سوياً : ولكن هذا لم يعرفه أحد غيرى أنا والحبيب والعندليب الصغير – تندرادى ! – وأنا أعرف أنه لن يتم علينا(٢٣)

ونضج تفكيره لما كبر، وبدأ يرى في المرأة مفاتن ومحاسن أجل من بهشرتها البضة ، وبدت له فوائد الاتحاد بالزواج أعظم قيمة من التقلب بين التساء : « ما أسعد الرجل وما أسعد المرأة ، اللذين يرتبط قلباهما بالإخلاص المتبادل ، واللذين تزداد حياتهما قيمة على مر الزمن ، وبارك الله في بيهما وجيع أيامهما (٢٣٥) . وأخد يندد بتملتي زملائه الشعراء نساء البلاط ، وقال إن لقب « المرأة » أعظم قيمة لديه من لقب « السيدة » ، وإن النساء الصالحات والرجال الصالحين هم الأشراف بحتى ، وإن « النساء الألمانيات يضارعن الملاتكة في الجال ، وإن من يذمهن كلاب أشر ير٢٠١) .

ومات الإمبراطور هنری السادس فی عام ۱۱۹۷ وعمتالفوضی بلاد ألمانیا .هدی جیل کامل ولم تنقطع إلا بعد أن بلغ فردریك الثانی سن الرشد . ولم یعد الأشراف يناصرون الأدباء ويبسطون عليهم رعايتهم ، فأخذ ولتر ينتقل من بلاط إلى بلاط يقي عناء البائس الشق طلباً للقوت ، ينافسه فيه المشهوذون والمهرجون الأذلاء . وحسبنا دليلا على ماكان يعانيه في ذلك الوقت هده المبدارة المنقولة من حساب نققات ولفجر Wolfger اسفف باسو Passau المبدارة المنقولة من حساب نققات ولفجر عام ۱۹۲۳ إلى ولتر ثن درڤوچاويد ليشترى بها سترة من الفراء يتتي بها برد الشناء ع^(٥٧) . وكانت هذه حسنة مضاعفة لأن ولتر جبليي متحصس ، هجا في شعره البابوات ، ونلد مضاعفة لأن ولتر جبليي متحصس ، هجا في شعره البابوات ، ونلد بعبوب الكنيسة ، وثار على نقل الأموال الألمانية فوق جبال الألب نقلاً بها خزائن كنيسة القديس بطرس (٢٠٠٠) . غير أنه كان على الرغم من هذا مسيحياً صادقاً ، ألف نشيداً عظما سماه و نشيد الصليبين ع، هركنه كان يستطيع في بعض الأوقات أن يسمو فوق المعارك الحربية ويرى أن الناس كلهم إخوة :

الناس كلهم من أم واحدة وتحن جيماً أكفاء من الحارج والداخل ؟ وأنواهنا تطعم كلها بطمام واحد ، وإذا ما سقطت عظامهم وأصيحت كومة مختلطة فهل تعرفون يا من تميزون الأحياء ينظرة إليهم أمم الدنىء الآن وأمهم الشريف يعد أن أكل الدود لحومهم وتعرت عظامهم ؟ إن المسيحين والهود والكفار كلهم يتعبدون والله يبسط رعايته على جميع الحلق (٣٧).

وظل ولثر ربع قرن في تجواله وفقره ، ثم وهبه فردريك الثانى ضيعة ودخلا ثابتاً (۱۲۲۱) ، فاستطاع أن يقضى السبم السنين الباقية من حياته (۱۸ – بر ۲ – مجلد ؛) هادئاً مطمئاً . وقد أحزنه أن شيمفوخته ومرضه لا يمكنانه من الاشتراك في الحرب الصليبية ، وطلب إلى الله أن يغفر له عجزه عن أن يجب أعداءه (٢٨) . وقد أوصى في قصيدة له بمن يرث عنافاته و فللحساد سوء حظى ، والمكاذبين أحزاني وللمحبن الفادرين حاماتي ، وللسيدات آلام قلبي ١٩٤٦) . ودفن في كتدرائية ورزبرج Würzburg وأقيم يالقرب مها نصب تذكازي يعلن حب ألمانيا لأعظم شعراء عصره .

وقضى على حركة الشعراء المتصببين بعد موته ما تورطت فيه من إسراف ومغالاة ، وحل بها ما حل بألمانيا من دمار بعد سقوط فردريك الثاني . ويصف لنا الربخ ثن لختلشتاين Ulrich von Lichtenstein (حوالي ۱۲۰۰ – ۱۲۷۱) في سبرته الذاتية الشعرية (Frauendienst) كيف نشأ وسط عواطف د خدمة السيدات . فاحتار سيدة لتكون له معبودة ، وخيطت شفته الشرماء ليقلل نفورها منه ، وحارب من أجلها في ألعاب البرجاس . ولما قبل له إنها عجبت حين عرفت أنه لاتزال له إصبع كانت نظن أنه فتمدها في الدفاع عن شرفها ، قطع هذا العضو الآثم وبعث به إلها دليلا على الولاء والخضوع . وكاد يغمى عليه من شدة الفرح حين أسعده الحظ بشرب الماء الذي غسلت فيه يدمها(٠٠) . ولما تلتي منها رسالة ظل يحملها في جيبه عدة أسابيع حتى وجد شخصاً يستطيع أن يثق بأنه سيقروهما له سرًا ، لأن ألربخ كان يجهل القراءة(١٦). ولمسا وعدته بأنها ستعطف عليه انتظر وفاءها بوعدها يومن كاملين قى ثياب المتسولين بين المجذومين الواقفين ببالها : ثم أذنت له بالدخول ، ولما تبينت إلحاحه أمرت به فأنزل من نافذة مخدعها في ملاءة سرير . وكان له في ذلك الوقت زوجة وأبناء .

واختتمت حركة الشعراء المتصبيين اختتاماً فيه بعض الكرامة بموت هريخ فن مايسن Henrich von Meissen الذي أحرز بأغانيه في تكريم التساء لتب « صراح النساء » . ولما مات في مينر عام ١٣١٧ هملت نساء المدينة نعشه وأخذن يندبنه حتى وورى التراب في كتدرائية المدينة ، وسكين فوق تابوته خراً بلغ من كثرتها أن جرت في طول الكنيسة كلها(١٦) . وخرج فن الغناء بعد موته من أيدى الفرسان إلى أيدى الطبقة الوسطى ؛ وزالت نزعة عباد السيدات الفرامية ، وحل علها في القرن الرابع عشر مرح جماعة المغنين في المدن وفهم العارمان يرفعان إلى ريات الشعر قيام طبقة الملاك الوسطى .

الفصالكيابع

الروايات الغرامية

أما فى الروايات الغرامية فقد كانت الطبقة الوسطى هى المسيطرة على المبدان ؛ ذلك أن شعراء شالى فرنسا أبناء الطبقة الدنيا – المعروفين عند الفرنسيين باسم النروفير Trouvères أى الحتر عن – كانوا يحيون ليالى الطبقات الوسطى والعليا بقصص شعرية تتحدث عن الحب والحرب ، كما كان شعراء الفروسية الغزلون – الروبدور والتروفتورى يكتبون الأغانى الشعرية الرقيقة لنساء جنوبى فرنسا وإيطاليا .

وكانت كتابات المحترفين تتخد صور القصص الشعرية ، ballade و الأغانى الشعرية ، والتحدث بأعمال الأبطال Chanson de geste ، والتحدث بأعمال الأبطال Chanson de ووقد وصات إلينا ماذج جميلة من الأغانى الشعرية من قول كاتبة تدعى إنجلترا وفرنسا كلتاهما ألمها أول شاعراتها المظهات . فقد انتقلت هرى الثانى (Marie de Franca (مارية الفرنسية) من بريطانى لتعيش في إنجلترا أن أبام هرى الثانى (١٩٥٤ – ١١٨٩) . وأشار عليها أن تصوغ عدداً من أقاصيص الريطانيين شعراً ، ففعلت وخلعت عليها من طلاوة اللفظ وقوة العاطفة عما لم يفقها فهما أى شاعر من شعراء الفروسية الغزاين . وخليق بإحدى قما لدما الماطفية أن تحتل مكاناً في صفحات هذا الكتاب ، هي جديرة به ، لمرضوعها غير العادى — حديث المحبوبة الحية إلى حبيها الميت :

هل أحبَّك مناك إنسان طوال الصيف والشتاء ؟ وهل وجدت هناك جمالاوضع فى القير معك 1 وهل قبلة الميت الطويلة أحلى مما كانت قبلتي لك ؟ أو هل انتقلت إلى سعادة بعيدة ونسيتني كل النسيان ؟

أى نوم رقيق همت به فلفك لفاً رقيقاً ؟

وأى موت ساحر أغواك يقوته العجيبة فاستحوذ عليك بالايل والنهار ؟

إنك ترقد فى بقعة صغيرة تحت الكلأ بعيدة عن الشمس والظلال

ولكنها لشدة حزنى بعيدة عنى بعد السهاء ...

ستظل ترقد في ذلك المكان كما ترقد الآن

وإن كانٍ فى العالم العلوى شخص آخر يحيا حياتك مرة أخرى

ويحب حبيبتك كماكنت تحها .

أليس مقامك حلواً محت النخيل ؟

أليس اليوم الدفء الهادئ الطويل الجميل الذي لا يعرف كنهه

خيراً من الحب ومن الحياة ؟ ألا ما أشه أوراق الشجر العطرة العريضة العجسة

بالأيدى تنسج برد الليل إلى نهايته ،

تنسيج النوم الذى لا يستطيع الطبر البراق مقاومته ،

أما أنت فالموت ينسج لك النوم

ويسلبك في الصباح وفي الظهرة

كثيراً من الأنفاس العجيبة القوية .

ويقيني أتك وأنت في هذا المكان

قد وجدت الموت إنماء لذيذاً .

لا تستنسك من هذه الساعة بكلمة قاتبا أو غنيبا

فا من شك في أنك قد سمعت من زمن بعيد أغانى كثيرة أعلب منها ،

لأِن الرَّبة الخصيبة قدوصلت بلاريب إلى قلبك ، وحولت إيمانكأزهاراً. واختلست الربح اللغثة شيئاً فشيئاً روحك أثناء للساعات الغادرة .

ووجدت كثبر من البذور الطرية نربة من التفكير المثمر

أنبتت زهرة تستقبل الشمس ، ولولاها لما استقبلتها ، ولا ريب في أنك قد استمعت إلى كثير

من العواطف القوية الجائشة

التي جعلت ذلك الموضع أجمل ثما كان وجملت جزءاً من عواطفك لا يحنو علي " هناك^(۲۲) .

وربما نشأت أَهَانِي الرُّفعال من قصص الحوادث أو الأغاني . فكان الشاعر ينسج حول حادث تاريخي ، يأخذه عادة من المؤرخين الإخباريين، قصة من المغامرات الحيالية يرومها في أبيات ذات عشرة مقاطع أو اثني عشر مقطعاً ، وتبلغ من الطول ما لا تنسع له إلا ليالى الشتاء فى الشمال . ولقد كانت أغنية رولان مثلا متقلماً لهذه الأغاني . وكان البطل المحبب لأغاني الأفعال الفرنسية هو شارلمان ؛ وقد أفاد الشعراء الغزلون الفرنسيون من عظمته التاريخية فرفعوه في شعرهم إلى درجة من. العظمة لا يكاد يسمو إلها آدى ، قبدلوا هزيمته في أسپانيا فتحاً مبيناً ، وسروه في حملات مظفرة إلى القسطنطينية ؛ وبيت المقدس ، ومن حول لحيته البيضاء الخرافية هالة من العظمة والجلال . وكانت الأغانى الفرنسية مرآة ينعكس علما عصر الإقطاع في موضوعاته ، وأخلاق أهله ، وأمرجهم . وكما كان بيولف والنيبلنجليد يرددان أصداء و عصر الأبطال ، في زمن الهجرات ، كانت هذه الأغاني الفرنسية _ أيا كان موضوعها ، أو مكانها أو زمانها – تتحرك في جو إقطاعي إلى أهداف إقطاعية في أثواب إقطاعية . وكان موضوعها الذي لا تنفك تردده هو الحرب ، بن سادة الإقطاع ، أو بن الدول ، أو الأديان ، ولم تكن المرأة والحب يجدان بن قعقعة السيوف إلا أصغر مكان . ولما صلحت أحوال النظام الاجتماعي ، وارتفعت منزلة المرأة على أثر ازدياد الثروة ، تخلت الحرب عن مكانها في هذه الأغاني للحب ، فأضحى هو موضوع الشعراء الرئيسي ، فلما كان القرن الثاني عشر حلت القصص الغرامية محل أغاني الأفعال ، وجلست على هرش الأدب ، وظلت تجلس عليه قروناً عدة . وكان اللفظ الفرنسي roman المقابل للرواية الغرامية يعني فى أول الأمر أي مؤلَّف مكتوب باللغة الفرنسية التي كانت تسمى هي الأخرى رومان Roman دليلا على أنها من تراث الرومان الأقدمين . ولم تكن القصص الغرامية Romances تسمى في اللغة الفرنسية جاذا الاسم الأنها قصص وجدانية ، بل كان الأمر عكس هذا أى أن بعض العواطف أضحت توصف بأنها رومانسية romantic (وجدانية) لأنها كثيراً ماكتبت مهذه اللغة الرومانية roman الفرنسية . فكانت رواية الوردة roman de la rose أو طروادة le Troie أو الثعلب de Renard لاتنني أكثر من قصة عن وردة ، أو عن طروادة ، أو عن ثعلب باللغة الرومانية أي الفرنسية الأولى بـ وإذ كانت كل صورة أدبية يجب ألا تولد في عرف الأدباء إلا من أبوين شرعيين ، فإن لنا أن نعزو أصل الروايات الغرامية إلى أُعَانِي الرُّفعال جمَّزجة مع ما كان في قصائد شعراء الفروسية الغزلين من عواطف الغرام . ولعل بعض مادة هذه القصص قد أخذ من الروايات اليونانية مثل إثيو بط Ethiopica لهليو دورس Heliodorus . وكان لكتابو احد يوناني ترجم إلى اللغة اللاتينية في القرن الرابع أثر عميق في هذه الناحية ، ونعني به صرة الإسكندر الحيالية التي تعزى زوراً إلى كاستنتر. Callisthenes مؤرخه الرسمي. ذلك أن القصص التي تروي عن الإسكندر أضحت المعن الحبب الذي لا ينضب للفيض المتتابع من وسلاسل، الروايات التي انتشرت خلال العصور الوسطى في أوربا وفي بلاد الثم قي الناطقة باللغة اليونانية ، وكانت أجمل صورة لهذه القصة في بلاد الغرب رواية الا سكندر

Roman d' Alixandre من تأليف الشاعرين الغزلين لامبعرلي تو ر Lambert و المحتدر البرنالي Alexander of Bernay حوالى عام ١٢٠٠ . وتقع المدارواية في عشرين ألفاً من الأبيات الأثني عشرية المقاطع ، أي من المبحر المهروف بالبحر و الإسكندري .

وأكثر من هذه تنوعاً وأرق مها عاطقة سلسلة الروايات القرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية التي أخذت موضوعاتها من حصار طروادة . وكان أكبر ملهم لهذه الروايات هو فرچيل لاهوم . وكانت القصة التي كتبها ديلو Dido رواية غرامية حقة وإن جاءت في هذا الوقت البعيد . ألم يستوطن المطرواديون الفارون من هزيمة هم غير خليقين مها فرنسا ، وإنجلترا ، كما استوطنوا ليطاليا ؟ ثم قام حوالي عام ١٩٨٤ شاعر فرنسي غزلي يسمى بنوا ده سانت مور Benoît de Ste-Maure بإعادة قصة طروادة في ثلاثين النفير من عشر أمم . وفي ألمانيا كتب ولغرام في إستنبا ، ودخلت في آداب نفسها ، وفي إيطاليا أخذ بوكاشيو Bocaccio من بنوا Wolfram von فيلوستراتو Eschenbach ، وفي إيجالترا كتب ليامون Bocaccio قصة بروت نفسها ، وفي إيطاليا أخذ بوكاشيو Bocaccio من بنوا Senott قصة بروت الموستراتو Layamon) في ١٩٢٠ كتب ليامون Layamon قصة بروت يد بروتس ابن حفيد إينيامي Acneas ؛ ومن بنوا جاءت قصة ترويلس يد بروتس ابن حفيد إينيامي Acneas ؛ ومن بنوا جاءت قصة ترويلس يد بروتس ابن حفيد إينيامي Troilus and Criseyde .

وكانت السلسة الثالثة المظيمة من روايات العصور الوسطى الغرامية هي روايات آرثر مدا نييل . Arthur و وايات آرثر هذا نييل مسيحى إنجلزى ، حاربالغزاة السكسون في القرن السادس . ولسنا ندرى من هو وفرسانه تلك القصص البديمة المطربة التي من يعدوق جمالما

إلا محبو مالورى Malory وحدهم ؟ ومنذا الذي ابتدع جاوين Cawaine وجـــــلاهاد Galahad وپرسڤال Perceval ، ومرلىن Merlin وچنڤىر Quenevere . ولانسلت Lancelot ، وترسترام Tristram ، وفروسية المائدة المستديرة Round Table ذات الصبغة الدينية المسيحية ، وقصة الكأس المقدسة Holy Grail (*) ؟ لم يصل الأدباء إلى جواب مؤكد عن هذه الأسئلة بعد نقاش دام مائة عام كاملة ، ذلك أن البحث يقضى على الحقيقة المؤكدة (** عنه أقدم إشارة لآرثر في كتب المؤرخين الإخباريين الإنجلىز ، وتظهر بعض عناصر قصته فى ألهار ننيوس Nenius (٩٧٦) ، ووُستَّع نطاق هذه القصة في التاريخ الريطاني Historia Britonum لحوفري المنموثي Geoffrey of Monmouth ؛ وصاغ قصة چوفرى شعراً فرنسياً ربرت ویس Robert Wace و هو شاعرغزلی من چرسی Jersey نی روایة بروتس الإنحلىزىLe Brut d'A nglettere) ؛ وفيها نجد للمرة الأولى قصة الماثلة المستديرة . والراجح أن أقدم أجزاء متقطعة لهذه القصة هي بعض قصص ويلز التي جمعت الآن في مابنوجيون Mabinogion ؛ وأقدم مخطوطات عثرنا عليها للقصيدة بعد نمائها وتطورها مخطوطات فرنسية . والإجماع منعقد على أن مكان بلاط آرثر والكأس المقلسة في ويلز والجنوب الغرىمن بريطانيا . وأقدم رواية كاملة منثورة للقصة هي التي تجدها في أكسفورد (١١٣٧ ـــ ١١٩٦) وإن كان هذا مشكوكاً في صحه . وأقلم صياغة شعرية لهذه السلسلة هي التي نجدها في روايات Romans كريتيان ده تروى Chretien de Troyes (حوالي ۱۱۹۰ – ۱۱۹۱).

 ⁽a) الكأس التي استعملها المسيح في العشاء الأخير . (المترجم)
 (a) يريد في أغلب الثلن ما كان يظله الناس حقيقة مؤكدة . المترجم)

ولسنا نعرف عن حياة كريتيان إلا قدراً ضئيلا لايكاد بزيد على ما نعرفه عن حياة آز أر . نعرف عنه أنه ألف في بدء حياته الأدبية قصة مفقودة تدعى ترستان Tristan . ووصات هذه القصة إلى يدى الكونتة مارى ده شمياني Marie de Champagne ابنة إليانور الإكتانية ، ويلوح أنها قد بعثت في قلمها الأمل بأن كريتيان هو الرجل الحليق بأن يصوغ ٥ الحب الرقيق ، ، وأنبل المثل العليا للفروسية في صورة الرواية الفرامية . واستدعته ماري لأن يكون شاعرها الغزلى – إذا صح هذا التعبير – في بلاطها بتروى Troyes . وكتب وهو في رعاينها (١١٦٠ – ١١٧٧) أربع روايات غرامية قى شعر مقنى (الشعر الدوبيت العربى) كل بيتين منه ذوا قافية واحدة ، وفي كل ببت عمانية مقاطع . وهذه الروايات هي إرك وائيد Eric et Enide وكليجيه Cligès ، وأيفين Yvaine وفارسي العربة Le Chevalier de la Charette ... ولم يجد هذا الشاعر عنواناً أرق من هـــذا لقصة و الفارس الكامل ؛ لانسلت Lancelot . وبدأ في عام ١١٧٥ أثناء إقامته في بلاد فليب كونت فلاندرزرواية كونت دل جرال Conte del Graal أو پرسڤال له جالوا Perceval le Gallois ، وكتب منها ٩٠٠٠ بيت وتركها ليتمها غره في ٢٠٠٠ بيت. ويظهر جوهذه في القصص بداية أرك:

حقد الملك آرثر في يوم عيد الفصح عجلساً للبلاط في كاردجان Cardigan ، فقد حضر الاجهاع ولم يشهد الناس قبل ذلك الاجهاع حاشية أغنى من حاشيته ، فقد حضر الاجهاع كثير ون من صفوة الفرسان الأقوياء ، البواسل ، ذوى الجرأة والشجاعة ، كما المجتمع مها كثير ات من النساء الفتيات ذوات الثراء الواسع ، وبنات الملوك ذوات الرقة والجهال . وقبل أن ينفض الاجهاع في ذلك اليوم أبلغ الملك فرسانه أن يرغب في أن ينفض الاجهاع في ذلك اليوم أبلغ الملك فرسانه أن يرغب القديمة . فاما سمع لورد جاوين هذا غضب أشد الفضب وقال : د مولاي !

لن يعود عليك من هذا الصيد ثناء ولا رضاء . فنحن نعرف من زمن يعيد ما هي هذه العادة عادة الوحل الأبيض : نعرف أن من يقتل الوحل الأبيض . . . ولكن هلما قد يؤدي إلى شر يجب أن يقبل أجمل قتاة في حاشيتك . . . ولكن هلما قد يؤدي إلى شر مستطير ، لأن في هذا المكان خسيائة فتاة من ذوات الحسب والنسب ، . . . وما من واحدة مهن إلا لها فارص جرىء مغوار ، على استعداد لأن يعلن بالحق أو بالباطل أن السيدة التي هو متم بها أروعهن كلهن جمالا وأعظمهن رقة ، فأجابه الملك بقوله : وإنى أعلم هذا حق العلم ، ولكن علمى به لا يحول بيني وبن تنفيذ ما اعترته . . . وسنذهب غداً لنصيد الوعل الأبيض وسيكون ذلك اليوم يوم جبحة ومرح ع(١٤٤) .

وفى بداية الرواية أيضاً نجد المبااغات القصصية المتعة . و لقد عمدت الطبيعة فى تكوين إنيد Enide إلى كل ما لديها من حذق ، ودهشت الطبيعة خسياتة مرة من نجاحها فى إبداع هذا المخلوق الكامل ع . ويقال فى قصة لانسلت إن و الحب الكامل مطبع على الدوام ، يسارع إلى تنفيذ رغبات حبيبته وهو مسرور . . . والألم (فى سبيلها) عبب إليه ، لأن الحب الذى مهديه ويقوده فى سبيله يخفف هذا الألم بل يمحوه الأها . غير أن الكونة مارى كان لما فى الحب رأى فيه شيء من المرونة :

إذا وجد الفارس فتاة أو عنراء مهجورة ، وإذا كان يعنى بسمعته الطبية ، فإن نفسه لا تطاوعه بأن يعاملها معاملة غير شريفة إلا بقدر ما تطاوعه لأن يقطع عنقه . وإذا ما هاجمها فإنه سيجلل بالعار في كل بلاط ، أما إذا انترعها منه وهي تحت حراسته بحد السلاح فارس آخو اشتبك معه في معركة ، فإن من حتى هذا الفارس الثاني أن يفعل بها ما يريد دون أن يجلله عار أو يستحتى من أجله لوماً (١٤) .

وشعر كريتيان ظريف ولكنه ضعيف ، وسرعان ما يمل الإنسان ثقله وكبرته فى عصر السرعة الحديث . لكنه يمناز بأن فيه أكمل تعبير باق حى اليوم عن المثل الأعلى للفروسية ، وذلك فى الصورة التى رسمها الكاتب لحاشية تبدو فيها المجاملات ، والشرف ، والبسالة والإخلاص للحبيب أجل قدراً من الكنيسة أو العقيدة . ولقد أثبت كريتيان في روايته الأخيرة أنه خليق ياسمه (**) ، ورفع سلسلة الروايات التي تدور حول الملك آرثر إلى النروة العليا بأن أضاف إلها قصة الكأس المقدمة (**) فقد جاء في القصة أن يوسف الأرعائيائي Joseph of Arimathea تلقي بعض دم المسيح المصلوب في وعاء شرب منه المسيح نفسه أثناء العشاء الأخير ؛ وجاء يوسف أو واحد من نسله مهذا الوعاء والدم آلحالد إلى بريطانيا ، حيث احتفظ به ملك مريض سمين في قصر خيي عجيب ، ولن يعثر على الكأس ويطلق سراح الملك بسواله عن سب مرضه إلا فارس كملت طهارة حياته وقله . وتقول قصة كريتيان في قصر شمثل الغالى أخذ يبحث عن الكأس ، أما الصيغة الإنجلزية للقصة فتقول إن المدى أخذ يبحث عنها جلاهاد الابن الطاهر للانسلوت الملوث . وتفق القصتان في أن الذي عثر علها صعد بها إلى الساء . وفي ألمانيا بدل ولوزم الم قن المستنباخ پرسفال فجعله بارفيزال Parvizal وأعطى القصة أشهر وورة كانت علها في العصور الموسطى .

وولفرام هذا فارس باقارى (حوالى ١١٥٥ - حوالى ١٢٠٠) كان يكسب قوته بشعره، ثم وجد له نصيراً في هرمان Hermann أمير ثور نجيا Thuringia ، وأقام في قصر وار تبرج Wartburg عشرين عاماً ، وكتب أشهر قصيدة في القرن الثالث عشر . وما من شك في أنه كان يملها إملاء لأن الرواة يؤكلون لنا أنه لم يتعلم قط القراءة . وهو يقول إنه لم يأخذ قصة پارزيقال عن كريتيان بل أخذها عن شاعر پروفنسالي يدعي كيو Kiot . ولسنا نعرف شاعراً يسمى مهذا الاسم ، كا أننا لا تعرف أحداً تعرض لهذه القصة بين زمني كريتيان (١١٧٥)

⁽ ه) أى بأنه سيحى صميم . (المترجم)

⁽ Hoty Grait (ويقاً ل إن الفظ Grait مَأْخُودَ من لفظ Gratalle المشتق من الفظ الملائيني crater ومعناه الكأس .

وو افرام (١٢٠٥) . ويبلو أن أحد عشر (كتاباً » من « كتب » قصيدة ولفرام البالغ عددها ستة عشر تعتمد على قصة كونت ول همرال Conte del المنكون والفرسان الأنجاد من رجاك العصور الوسطى يرون أن من واجهم أن يعترفوا بما عليهم من ديون أدية ، بل إن الكتاب كانوا يرون أن مادة الروايات الفرامية ملك مشاع ، من حق كل من يشاء أن يستمرها إذا كان في وسعه أن يرقى بها ، ولقد فاق ولفرام في هذه الناحية أستاذه تحريتيان .

وپارزیقال فی قصة ولفرام ابن فارس من أنجو Anjou رزقه من الملكة هرزلید Titurel (الحزینة القلب) حفیدة تیتورك Titurel ... أول حراس الكأس ــ وأخت أمفررتاس Amfortas المؤلف المریض فی ذلك الموقت . ویبلغها قبل أن تلد پارزیقال بقلیل أن زوجها خر صریعاً فی معركة بین الفرسان أمام الإسكندریة . وتمترم ألا تعرض پارزیقال للموت وهو صغیر السن ، فتر به فی عزلة فی الریف ؛ وتمنی عنه أصله الملكی ، وینشأ جاهلا بفنون القتال وحمل السلاح:

وحزن لذلك أهلها أشد الحزن ، لأنهم رأوه عملا مشئوماً ، وقالوا إن هذه النشأة لا تليق قط بابن ملك عظم ، ولكن أمه أخفته في أودية الغابات الدية ،

وحال حيها وحزّمها بينها وبين التفكير في مبلغ إسامتها للطفل الملكي . فلم تمطه قط سلاحاً من أسلحة الفرسان إلاما كان يصنعه لنفسه في أثناء لعيه من الأعشاب التي تنيت في طريقه المنعزل .

ذلما أن سقط طير الغاب المفرد ميتاً عند قدميه ،
مال برأسه ذى الشعر الذهبي فى دهشة وحيرة صامتة ،
واندفع فى غضب الطفولة وحير تها الصامتة يقتلع غدائر شعره اللـهـي ؛
(فأنا أعلم حتى العلم أنه لم يكن على ظهر الأرض كلها من يضارعه.
فى جاله م

وطاف بعقله أن الموسيق التي ظل طول حياته يعزفها بيدد
قد ملات بأنغامها العلدية قلبه نشوة ، فأحز نه هلما التفكير وأمضه (١١).
ويبلغ بارزيقال طور الرجولة وهوقوى الحسم فارغ العقل ، حي تقع عينه
في يوم من الأيام على فارسين في الطريق ، فيحجب بدروعهما البراقة ، ويظهما
إلهن لا فارسين ، ويعترم أن يكون له مثل ما لحا من رونق ومها ، ويعود
إلى موطنه ليبحث عن الملك آرثر الذي بجمل الرجال فرساناً ، ويحزن أمه لذها به
حزناً يكاد يقتلها ، ويلتني بارزيقال في طويقه بدوقة نائمة فيختلس منها قبلة ،
ويسلم منطقها ، وحاتمها ، ويرتك بعمله هذا إنما يدنسه سنن طوالا ،
ثم يلتني بليار المقتال ، ويدخل بارزيقات على الملك ويستأذنه في أن
يدعو دعوة إيثر ، فيأذن له ويعود إلى أيثر ، ويقتله — لأن الحظ في
للمنامرات ، ويطلب إلى جرنمانز Gernemanz في أتناء الليل أن يستضيفه ،
للمنامرات ، ويطلب إلى جرنمانز Gernemanz في أتناء الليل أن يستضيفه ،
للمنامرات ، ويطلب إلى جرنمانز Gernemanz في أتناء الليل أن يستضيفه ،
لمسحة الفرسان :

اشفن على المحتاجن ، وكن رحيا ، كريماً ، متواضعاً . إن الرجل الكريم المحتاج يستحيى أن يسأل ، فتقدم إليه أنت بالعون قبل أن يسألك . . . ولكن كن حازماً لاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط . . . لا تكثر من السوال ، ولا ترفض الإجابة عن سوال خليق أن تسأله . لاحظواستمع . . . أعف عن يستسلم لك مهما تكن إساءته إليك . . . تغلق بأخلاق الرجولة أعف عن يستسلم لك مهما تكن إساءته إليك قالق بأخلاق الرجولة

وكن مرحاً . . . احترم النساء وأحبهن ، فلنك مما يزيد فى شرف الشاب ــ كن ثابتاً غير متقلب فإن الثبات من شيم الرجال . ألا ما أقل ما ينال من الثناء شخصُ بمحون الحب الشريف (AA) .

ويخرج پارزيقال مرة أخرى في طلب المغامرات ، ويقك الحصار عن كندورامور Kondurramur ، ويتروجها ، ويتحدى زوجها بعد عودته ، ويبارزه ، ويقتله ، ثم يترك زوجته ليبحث عن أمه . وتشاء الصدف أن يصل إلى قصر « الكأس المقلمة ، فيستضيفه حراسه الفرسان ، وتقع عينه على الكأس (و الكأس في هذه القصة حجر ثمين) ، ويذكر نعيحة جور نماتز الطبب ، فلا يسأل عن الكأس المسحورة أو الملك المريض ، ولم يكن يعرف أنه عمه . ويصحو في صباح اليوم النافي فيجد القصر كله خاوياً على عروشه ؛ فيخرج على ظهر جواده ، وترفع أبد مجهولة الجسور الموصلة إلى القصر كأنها تنهاه عن العودة إليه . وينضم مرة أخرى إلى بلاط آثر ، ولكن العرافة كندرى Kondury تنهمه في أثناء هذا الترحيب بالجمهل وقلة الأدب لأنه لم يسأل عن سبب علة أمفورتاس ، ويقسم يارزيقال أن يعود مرة أخرى لطلب الكأس .

ولكن سورة من الغضب تظلم عليه حياته فى تلك الساعة . فهو يشعر أنه غير جدير بما وجهته إليه كندرى من تقريع ، ويدرك كثرة ما فى العالم من مظالم ، ويخرج عن طاعة الله ، ويظل أربع سنن لا يزور كنيسة ، ولا ينطق بصحاة (١٠٠٠) . وتصيبه فى تلك السنن مائة من الكوارث ، ويظل يبحث عن الكأس ولكنه لا يجدها . ثم يعثر فى يوم من الأيام على خلوة ناسك يدعى تريشريز نت Treverezent ويتبن أنه عمه ، ويعرف منه قصة الكأس ، وأن علمة أمفور تاس التى تفارقه سبها أنه ترك حراسة الكأس ليشغل نفسه بحب غير مشروع . ويعيد الناسك يارزيفال إلى الدين المسيحى ، ويتحمل عنه عقاب ذنوبه . وهكذا مهون يارزيفال على نفسه ، ويتطهر من خطاياه ، وجهله وينجيه

عذابه من آثامه ، فيعود إلى البحث عن الكأس المقدسة . ويكشف الناسك إلى كندرى أن پارزيفال ابن أخى أمفورتاس ووارث ملكه ، فتبحث عنه وتعلن إليه أنه اختبر ليخلف أمفورتاس على العرش وليكون حارساً على . الكأس . ثم تقوده إلى القصر الختى ، ويسأل أمفورتاس عن سبب مرضه ، ويشنى الملك الشيخ لساعته . ويجد بارزيفال زوجته كندوبرامور وتأتى إليه اتكون ملكته . وبرزقان بولد يدعى لوهنجرين Lohengrin .

وكأنما أراد جنفرايد السازبرجي Odtifrind of Salisburg أن يمد قاجنر Wagner بموضوع آخر لمسرحياته الموسيقية ، فأخرج حوالى عام 1۲۱۰ أعظم تراجم قصة ترستان نجاحاً . وهذه القصة تمجد الزنا وعدم الوفاء تمجيداً حاسياً ، وتندد بالدستور الأخلاتي الإقطاعي والمسيحي على السواء .

ولد ترتستان ، كما ولد پارزیفان ، لأم صغیرة السن تدعی بلانش فلیر Blanche fleur (الزهرة البیضاء) ولما بحض آلا وقت قصیر علی نبأ یان زوجها الأمر قتل نی معركة . ولهذا تسمی الطفل ترستان اسلی الطفل ترستان المد علی نبأ ملك كورنول Cornwall و بعده من الفرسان . ولما بلغ أشده واستوی ملك كورنول Cornwall و وبعده من الفرسان . ولما بلغ أشده واستوی ثبغ فی ألحاب البرجاس وقتل مورولد Morold خصیمه الأبرلندی ، ولكته يجرح فی المعركة جرحاً مسموماً يقول له عنه مورولد وهو يحتضر إنه لا يشفيه إلا إيزيولت العداقة أبرلندة . فيتخی فی زی تانتریس مربياً لاية الملكة واسمها أیضاً إيزيولت . ويود بعدئذ إلى كورنول مربياً لاية الملكة واسمها أیضاً إيزيولت . ويود بعدئذ إلى كورنوول مارك من حال إيزيوات الصغيرة وحسن صفاتها وأدمها ، ويرسله مارك عن جال إيزيوات الصغيرة وحسن صفاتها وأدمها ، ويرسله مارك من حال إيزيوات الصغيرة وحسن صفاتها وأدمها ، ويرسله مارك من تعالى عنها مورولد فيستان قلها حقداً عليه ، ولكن أمها العدار حيل، وتعطي و صيفها براجين Brangane شراباً مسحوراً بعشاطب

قى القلوب لتسقيه إيزيولت ومارك اتستثير به حيهما . وتخطئ الوصينة متسقيه إبزيولت وترستان فلا يلبث الاثنان أن يحتضن كلاهما الآخر ، وتكثر الخيانات ويتفقان على أن يخفيا حيهما ، وتتزوج ليزيولت مارك ، وتنام مع ترستان ، وتدبر مكيدة لقتل برنجين لأنها تعرف أكثر مما ينبغى أن تعرفه . ومارك هو الرجل الشهم النبيل في هذه القصة (وليس الأمر وترستان أنهما أعز عليه من أن ينتقم مهما ، ويقنع في ذلك بنفي ابن أخيه من البلاد . ويلتي ترستان في تجواله بإيزيولت ثالثة ويقع في حيها ، وإن قلك بنفي ابن أخيه كان قد أقسم أن يكون هو وملكة مارك و قلباً واحلماً ، وروحاً واحدة ، كان قد أقسم أن يكون هو وملكة مارك و قلباً واحلماً ، وروحاً واحدة ، وجميا واحداً ، وحياة واحدة ، . وهنا يترك جتفرايد القصة ناقصة حطمت فيها جميع المثل العليا للفروسية . أما يقية القصة فن صنع مالورى وعصر متأخر ،

وأخرجت آلمانيا في هذا الجيل اللحجيب ، الجيل الأول من القرن المناث عشر شاعراً آخر يكون هو وولتر ، وولفرام ، وجفرايد أربعة لا يدانيهم أربعة سواهم في أي مكان آخر في أدب العالم المسيحي في أيامهم . يدأ هارتمان فن أو Erec بتقليد كريتيان تقليداً أعرج في وايتيه الشعريتين إرك Erec و إوبن العالم ولكنه لما النفت إلى أقاصيص بلاده سوابيا Swabia أخرج آبة فنية صغرى هي Swabia أخرج رجلا بلاده سوابيا معرف المعرف أخرج آبة فنية صغرى هي كما كان أيوب رجلا غنياً يصاب وهو عنفوان مجده بلناء الجفام ولا يستطيع أن يشفيه منه إلا موت علم العموم من أجله (إذ لا بد أن يقول السحر في المصور في المصور في القصص) . ولا يتوقع هنرى أن يجد هذه التضحية في المسلم النفود ، تعزم أن قياسام يعربي يشفي هنريخ من دائه الوبيل . ويظن أبواها أن قرارها هذا موحى تحوت كي يشفي هنريخ من دائه الوبيل . ويظن أبواها أن قرارها هذا موحى

به من عند الله فيوافقان على هذا العمل الذى لم يكن أحد يظن أجمة سبوافقان عليه ، وتكشف الفتاة عن صدرها الجميل النصل . ولكن هنريخ للب فيه نخوة الرجولة على حين غفلة ، فيأمر بألا تقنل الفتاة ، وبرفض هذه التضية ، ويمتنع عن العويل ، ويرتفى آلامه معتقداً أنها من عند الله ، ونتبدل روحه بفضل هذه المزعة الجديدة ، فيزول مرضه الجنائي زوالا سريماً ، ويتزوج الفتاة التي أنقذته وبعوض هارتمان القصة عما فها من سخف وبعد عن المعقول بشعره البسيط الساس الحالى من التكلف ، من سخف وبعد عن المعقول بشعره البسيط الساس الحالى من التكلف ،

وثمة قصة أجمل منها كتبها شاعر فرنسى غير معروف فى وقت ما فى النصف الأول من القرن الثالث عشر وسماها همدار هما أوكسار وشقولت . C'est d'Aucassia et Nicolette سخرية من الروايات الغرامية ، صيغت كما يليق بها أن تصاغ تارة شعراً . وتارة نثراً ، ووضعت لها علامات موسيقية بن النصوص الشعرية .

وخلاصها أن أوكسان ابن الكونت بوكبر Beaucaire ينبغولت متبناة فيكونت بوكبر . ويعارض الكونت في زواجه بها لأنه يريد أن يزوج ابته من أحد البيوت الإقطاعية التي تستطيع أن تمده بالعون في الحرب ، ويأمر تابعه الفيكونت أن يحقى الفتاة . وير با أوكسان أن ير اها فيشير عليه الفيكونت أن على المتاقب وير با أوكسان أن ير اها فيشر عليه الموكسان أن على قولت وشأنها وإلا فلن يرى الجنة قط » . ويرد عليه أوكسان وداً يعنى مع نزعة التشكك التي أخذت شاهر في الوقت :

ما شأنى أنا والجنة ؟ إنى لا صمى قط أن أدخلها ، وكل الذى صمى أن أحظى بنيقولت ... ذلك أن الجنة لا يدخلها إلا القساوسة الطاعنون فى السن ، والشيوخ المقعدون ، والمرضى اللمين لا يبارحهم السعال ليلاأو بهاراً أمام مدابع الكنائس ... أما أنا فلاشأن لى جولاء ، بل إنى أريد أن يكون مأواى الجمحم ، لأن الجحم مثوى العلم الظرفاء ، والفرسان الأنجاد الذين يقتلون فى ألعاب الشرومية أو الحروب العوان ، كما هى مأوى النّابل القوى والرجل الوقى : إلى أريد أن أكون مع هولاء . وإليها تلعب السيدات الحسان الطريدات اللاق لكل مهن أصدقاء – النان أو اللائة – زيادة على زوجها . وفيها بمر العازفون ، والمفنون ، وملوك العالم . سأذهب مع هولاء إذا كانت نيقولت صديقتي الحلوة الجديلة إلى جانبي .

ويظق والد نيقولت باب حجرتها عليها ، كما يخبس والد أوكسان ابته فى سرداب أرضى حيث يتغنى الصبى بدواء عجيب مسمور :

نيقولت - يا زهرة الرئيق البيضاء ،
يا أحلى فتالا وجدت في خريش ،
يا حلوة كالكرمة
التي تفيض جا الكأس المبلة حلاوة ؛
التي تفيض جا الكأس المبلة حلاوة ؛
ان جاء من أبوزين Limousan
ان جاء من أبوزين عند عائف ،
حاج متعب عائف ،
يتقلب ويغشى الموت حين يتنفس ،
يتقلب ويغشى الموت حين يتنفس ،
مكرثب أشد الاكتاب ،
قاب قوسين أو أدف من الموت .
قاب قوسين أو أدف من الموت .
ومشيت يخفة حتى أيصرك الرجل العليل ،
ورفعت ذيل لربك المبلل ،
ورفعت الجلباب الموش ،

ورقعت الشعار وكشفت له يحقة
عن كل عضو فيك جميل .
وحدث وقتئذ حادث عجيب ،
فقد قام في تلك الساعة سليا معافى ،
وغادر قراشه ، وأمسك بيده الصليب ،
يا زهرة الزئين البيضاء الحلوة ،
ما أحلى وقع قدميك ؛
وما أحلى ضحكك وما أحلى حديثك !
وما أحلى لهبنا مماً !
وما أحلى قبلاتك وما ألعن ملمسك !
وما أحلى قبلاتك وما ألعن ملمسك !

وق هذه الأثناء تقتل زهرة الزئيق حبلا من أغطة فراشها وتنزل به إلى الحديدة . وتمسك ذيل ثوبها يكلتا يدبها . . . وانزلقت بحفة فوق الندى المرابع المحافظة على الكلأ ، وخرجت بهذه الطريقة من الحديقة . وكان شعرها ذهياً ، جعلت منه غدائر حب صغيرة . وعيناها زرقاوين باحمتين ، ووجهها جمل يسر المرء أن يراه . لها شفتان أشد حرة من الوردة أو الكرزة . في حر السنان بيضاء ضغيرة ، وثلايان ناهدان يبدوان تحت ثبلها كأنهما رم سن ، وكانت ذات خصر تحيل تكاد يداك تنطبقان عليه ، وكانت الا سر التي تنكسر تحت قدمها ثبلو سوداء أمام باطنهما ويشرتها ، الا ما أسم بياض تلك الفتاة الحسناء (١٥٠) .

تتحذ سمها إلى نافلة سجن أوكسان ذات القضبان الحديدية وتقص خصلة
 من م ها وتلقيها إليه ، وتقسم أن حيها لايقل عن حيه . ويرسل والدها من
 يب ن م عها . فتفر إلى الغابات وتعيش مع الزعاة الذين يعرفون قدرها . ويظن

والد أوكسان بعد مضى فترة من الزمان أنها أصبحت بعيدة من ولده فيطلق سراحه . فيخرج أوكسان إلى الفايات ويبحث عنها وتعترضه فى ذلك البحث حوادث لا تفلو من الهزل ، ثم يعثر حليها ويردفها خلفه على جواده و و يقبلها وهما واكبان ٤ . ويريدان الفرا من أبومها اللنين يتعقبانهما ، فعركبان سفينة يعبران مها البحر للتوسط ؛ وينزلان فى أرض يلد فها المرجال ، ويحترب الناس بالترامى المرح بالفاكهة . ويعتقلهما عاربون أقل من هؤلاء رقة ، ويفترقان مدى ثلاثة أهوام ، ثم يجسمان تحر الأمر مرة أعرى ؛ وبحوت الوالدان الحائقان لحسن الحظ ، ويصبح أوكسان ويقولت كونت بوكبر وكنتها .

وليس في أدب فرنسا الموفور الثراء ما هو أبدع من هذه القصة .

الفصِلالثامِن

الرجوع إلى الهجاء

وكانت الفكاهة التي تخللت فصول هذه القصة توحى بأن الفرنسيين بدأوا يتخمون بالروايات الغرامية . ذلك أن أشهر قصائد العصور الوسطى وهى القصيدة التي يعرفها من القراء أكثر بمن يعرفون المسلاة الإلمية _ بدأت قصة غرامية وانتهت بأن كانت أقوى وأفحش قصيدة هجائية في التاريخكله . وتفصيلذلك أن جيوم ده لوريس Guillaume de Lorris(*)، وهو طالب صغير السن في أورليان ، كتب حوالي عام ١٢٣٧ قصيدة رمزية كان يقصد مها أن تشمل جميع فنون الحب ، وأن تكون بفضل صبغها التجريدية نموذجا لجميع الروايات الغرامية وخلاصة لهلمه الروايات . ولسنا نعرف عن ولم اللواري هذاWilliam of the Loire أكثر من أنه كتب الأبيات الأولى البالغ عددها ٤٣٦٦ من رواية الوردة Roman de la rose. وهو يصور نفسه فيها يطوف في حلمه بمديقة حب فخمة تتفتح فيهاكل زهرة معروفة وتشدو فيها جميع الطيور ، وتجتمع فيها أزواج سعيدة تمثل كل ما فى حياة الحب منّ متمة ونعيم ــ المرح والسرور ، والأدب والجمال ، ويرقص كل زوجين اثنين من هذه المتع تحت رياسة إله الحب. ذلك دين جديد يمنوى فكرة جديدة عن الجنة تحل فها المرأة علىالله . وفي هذه الجنه يرى الحالم زهرة أنهى من كل ما يحيط بها من جمال ، ولكنها تحوسها ألف شوكة . وهذه الوردة هيرمز المحبوب. وتتألف منشوق بطل الرُّوابة إلى بلوغها وقطفها قصة جميع الحملات الغرامية التي تشرها الشهوة المكبوتة التي تشر الخيالوتغذيه . وليس فى القصة كلها إنسان سوى راومها نفسه ، أما من بنى من المثلين فيها فتجسيد

^(•) جيوم هو وليم كا يكتنِّه الفرنسيون . (المثرجم)

الصفات خلقية توجد فى كل القصور التى يطارد فيها الرجال النساء : المظهر الجميل ، والكبرياء ، والنبالة ، والحياء ، والأراء ، والبخل ، والحسد ، والخمول ، والنفاق ، والشباب ، واليأس ، و د الفكر الجديد ، تفسه ومعنى الفكر الجديد هنا هو التلبلب . وأصبب ما فى القصة أن جويوم استطاع جده التجريدات أن يقرض شمرًا يمتماً .. ولحل سبب ذلك أن المها أيا كان عصره وأيا كان مظهره فيه من المتعة بقدرما فى الدم من حرارة (اله.)

ومات وليم صغير السن دون أن يتم قصيدته ؛ وظل العالم أربعين جاماً حاثراً لا يدرى هل فعل الحب الذي أصابه كيوبد إله الحب يسهمه فأخد برتجف من شدة الحب ، نقول هل فعل أكثر من أن يقبل الوردة . ثم أمسك هرنسي آخر يدعي چان ده مونج Jean de Meung بالشملة ، وبلغ سا أكْثر من اثنين وعشرين ألف بيت من الشعر في قصيدة بينها وبين قصيدة ولم من البعد مثل ما بين ربليه وتنيسُن ° Tennyson . ذلك أن مرور حيل من الزمان قد بدل مزاج القوم ؛ وأن الروايات الغرامية قد استنفدت الل حن كل ما عندها من حديث ، وأخلت الفلسفة تغشى بستار العقل شعر الإيمان ؛ وكانت الحروب الصليبية قد أخفقت ، وبدأ عصر الشك والهجاء . ويقول بعضهم إن چان كتب الجزء العاصف العجاج اللك أكل به القصيدة بناء على إشارة الملك فليب الرابع الذي بعث يمحاميه المتشككين ليضحكوا في وجه البابا . وكان مولد چان كلوينل Jean Clopinel في مونج القائمة على شاطئ ثهر الثوار حوالي عام ١٢٥٠ ، ودرس الفلسفة والأدب في باريس ، وأصبح من أعظم رجال زمانه تبخرا في العلوم . ولسنا ندري أي عامل من عوامل الشر والفساد أغراه بأن يسخر علمه ، وبغضه للكهنوتية ، واحتقاره للمرأة والروايات الغرامية ،

⁽ه) لا تقل ترجمة تشوسر النصف الأول من تصيدة برواية الأوردنة The Romanet . ق من خالها عن أصلها الذي كتبه وليم نفسه .

أن يسخر هذا كله ليكمل به أعظم تضيدة غرامية فى الأدب كله . فقد أخذ چان ييسط آراءه في جميع الموضوعات من خلق العالم إلى يوم الحساب بينا ينتظر الحبيب المسكن في الحديقة طوال هذا الوقت ليقطف الوردة . ويصوغ أبياته في شعر من نفس البحر ذي الثمانية المقاطع والقافية الواحدة فى كل بيتين كالذى صاغ فيه وليم قصيدته ، ولكنه بما فيه من حماسة وطرب بعيدٌ كل البعد عن أشعار وليم الحالمة . وإذا كان قد بتى فى قلب چان شيء من الغرام فقد كان ذلك هو صورة أفلاطون الحيالية للمصر الذهبي فى الماضى و لا يقول أحد فيه إن هذا الشيء أو ذاك ملك له ، ولا يعرف فيه الناس الشهوات أو السلب والنهب » ، ولم يكن فيه سادة إقطاعيون ، رلا دولة ، ولا قانون ، يعيش الناس فيه دون أن يأكلوا اللحم أو السمك أو الطير ، و و تكون فيه جميع خبرات الأرض ملكا مشاعاً بينهم ١٥٣٥ . ولِيس چان متحرراً من الدين ، قهو يقبل عقائد الكنيسة دون أن يحط من قدرها ، ولكنه يبغض و أولئك الفجار البدن المترفن ، والإخوان. لمُتَسِولِينَ ، الدِّين يُخدِّعُونَ أَلنَاسَ بِالْأَلْفَاظُ الْكَاذِيةِ ، ويمارُونَ بِطُونُهُمُ بِاللَّحْمِ والشراب ه (٥٩) وهو لا يطبق المنافقين ، ويوصيهم بأكل ألبصل والثوم لييسر لهم أن يلىزفوا دموع التماسيح^(ده) . ويقر بأن 1 حب امرأة ظريفة » عدر ما في الحياة من نعم ، ولكن يبدو أنه لم يتلوق قط هذه التعمة (٥٠) ، ولعله لم يكن خليقاً بأن يتلوقها لأن الهجاء لم يكن قط طريق كسب فتاة حسنًاء ؛ وَلَأَنْ چَانَ كَانَ شَدَيْدَ التَّأْثُرُ بِأُوقَدَ ، وقد تتلمذ عليه إلى حد جعله يفكر في وسائل الانتفاع بالنساء ، ويُعكِّم غيره هذه الوسائل ، أكثر مما يحبهن . وهو يجهر بأن الاقتصار على زوجة واحدة سخف ، لأن الطبيعة قد أعدت الكل للكل - كل النساء لكل الرجال. وهو يُنطق الرجل المشبع عهلم الأبيات يؤنب مها زوجته المزدانة : وماذا تجدى هذه المظاهر كلها ؟

وأى نفع يعود على من الأثواب الغالية وهذ. الحلل ذات القِظم الشاذ الغريب ؟

وماذا يعنيى من هذه الصمائب التي تلوين ما شعرك وتعقصيته ، وتجدلينه مخيوط من الذهب ؟ ولماذا تطعمين بالماج مرايا مرصمة بالميناء ، منشورة عليا دوائر ذهبية ؟ وما شأن هذه الجواهر الحليقة بتيجان الملوك ، لمرائر وياقوت أحمر وأذرق جبل ، يعث فيك الغرور الجنوني

وما جدوى هذه الأقشة الغالبة !

المقوت ؟

والطيات المثناة المجلولة ، والمناطق التي تطوقين بها خصرك . علاة ومزدانة بالنقوش الكثيرة ?

ثم قولى لم تختارين أن تلبسى فى قدميك حداءين ملتمعن إلا إذا كنت تشهين أن تكشق من ساقيك الجديلتين ؟ قسما بالقديس ثيبو Thibaud لأبيعن هذه الأشياء النثة قبل أن تمضى من هذا الوقت ثلاثة أيام ، ولأنبذنك نبذ الثوب الخلق إ (٩٠)

و إذا لنتجد بعض السلوى حين تعرف أن إله الحب بهاجم في آخر الأمر ،
على رأس أتباهه اللمين يخطئهم الحصر ، البرج الذي يقوم فيه الحطر ، والحبياء ،
والحموف (تردد السيدة) بحراسة الوردة ، ويكخول الترحابُ الحبيبة إلى الكعبة
للماخطية ويتركه يقتطف أمل أحلامه . ولكن أ أ لمذه الحاتمة الغرامية التي طال التنظارها أن تحدو ١٩٥٠ بيت من الواقعية الفناة والبلاءة الساخرة ؟

وكان أكثر ما يقبل الناس خلى قراءته فى أوربا الغربية فى القرنين الثانى حشر والثالث حشر كتب لالاة همى رواية الوردة، واقفعة الذهبية، ورسار الكمام وبدأت قصة Yeingrinus باللاتينية في إستجريس Yeingrinus حواله عام ١٥٠ ٩ ١ أثم انتقلت مها إلى عدة لغات قومية بأسماء عطة ؛ Reman de Renart غلقه أسماء عطة ؛ Reinaert ، Reineke de Vos ، Reynard the Fox برواية Reineke Fuchs لحيته . وأضاف موالفون مختلفون نحو ثلاثين قصة مرحة لحدة السلسلة حتى بلغ مجموعها ١٠٠ و ٢٤ بيت خصصت كلها تقريباً لهجاء الإساليب الإقطاعية ، وحاشية الملوك ، والاحتفالات المسيحية ، والميوب الآدمية على لسان الحيوان .

ويحتال رينال الثعلب حيلا شيطانية على الأسد نوبل Noble (الشريف) ملك الدولة ، ويُعظِّر درع نوبل بالسيدة هاروج Dame Harouge الفهدة ، وينصب لها من الدسائس ما لا يقل عن دسائس تلران Tallyrand ترضى أن تكون عشيقته . ويسترضى نوبل وغيره من الوحوش بأن بهب كلامنها طلسيا بنيُّ الزوج بخيانات زوجته . وسلم الطريقة تنكشف مخاز رهيبة ، ويضرب الأزواج زوجاتهم الخاتنات ، فتفر الزوجات ويحتمن برنار فيتخذهن جيعاً حريماً له . وتقول إحدى القصص إن الحيوانات تشتبك فى ألعاب الفروسية ، وتبدر بأثواب الفرسان الزاهية في استعراض رائع . ونرى الثعلب في قصة رينار الميت La Mort Renart يحتضر ؛ ويقبل برنار Bernard الحار كبير أساقفة الحاشية ليقوم له بالمراسم الدينية ، ويخاطبه بلغة توفى على الغاية فى العاطفة والإخلاص ، ويتصنع منتهى الجله والوقار . ويعترف رينار بلنويه ، ولكنه يشرط إذا شني من مرضه أن يصبح في حل من يمينه غبر مقيد سها . وتدل المظاهر كلها على أنه مات ، وتجتمع كل الوحوش الكثيرة العدد التي خانيا في زوجاتها ، أو ضربها ، أو مزق لحمها ، أو خدعها ، تتظاهر بحزنها ، ولكنها في خبيئة أمرها سعيدة بموته , ويلتي كبير الأساقفة على قمر الميت عظة شهبهة بأقوال ربليه ، ويلوم رينار لأنه كان يرى و أن كل شيء حسن إذا استطعت أن تستحوذ عليه ». ولكن رينار تدب فيه الحياة حين يوش عليه الماء المقدس ه ويقيض على عُنق شانتكاير (الديك) وهو يطوح بالمبخرة ، ويخرج إلى المقابة بفريسته . وبعد فإذا أراد الإنسان أن يفهم العصور الوسطى على حقيقتها فعليه ألا ينسى رينار .

ذلك أن قصة رينار أعظم القصص الحرافية التي تروى على لسان الحيوان للمجاه الإنسان . وكانت هذه القصص عادة تكتب بالشعر ذى الثانية الأوتاد ، ويتراوح طولها بين ثلاثين بيئاً وألف بيت ؛ ومها ما هو قديم يرجع لمل عهد ليسوب Aesop أو إلى أقدم من عهده ، وجاء بعضها من ملاد المند عن طريق المسلمين . وكان أكثره قلفاً في سن النساء أو القسيسين على ما لم من يصد النساء على ما حين الطبيعة من سلطان ، والقسيسين على ما لم من يعر طبعية ، يضاف إلى هذا أن النساء والقساوسة قد عابوا على المنتن تلاوة القصص الحرافية الشائنة . ذلك أن الحرافات كانت تتبجه على الدوام من القصاب البطون القرية ، وتستخدم لمنة الحانات والمواخير ، وصاخت آلامًا من القماص المترة فدهم من القصاص، استمدوا من معيها القياض كثيراً من القصص المنترة فلدهشة .

وكانت بهضة الشعر الهجائى سبباً في انمطاط منزلة الشعر الفنائى . واشتق الشعراء المغنون الجوالون اسمهم Ministeriales الإنجليزي من لفظ Ministeriales من المستقوا اسمهم الفرنسي Ministeriales من المصلحات المستقوا اسمهم الفرنسي Jonglenurs من المستقوا الممهم الفرنسي ioculator أي صاحب النكات . وقد قام هو لاء بوظيفة شعراء اليونان المدوارين والماجنين الرومان ، وشعراء اسكنديناوة القدماء ، والمغنين الإنجليسكسون ، وشعراء ويلز وأبرلندة المداحين . وكان المغنون حين بلغت الموايات الغنائية قد جدها في القرن الثاني عشر يقومون مقام الطباعة في هذه الأيهام ، وقد احتفظوا بمكانهم بماكانوا بروونه أحياناً من القصص الخليقة بأن

تسمى أدبًا . فكان الواحد منهم بمسك بقيثارة أو الكمان الكبرة وينشد الأغاني أو القصص القصرة ، أو الملاحم ، أو قصص مريم أو القديسين ، وأغاني أعمال الأبطال ، والروايات الغرامية أو خرافات الحيوانات(*) . وإذا حل موسم الصوم الكبر ، وقل علهم الطلب ، عقدوا إذا استطاعوا مؤتمراً للمغنىن والماجنين كالمؤتمر الذي نعرف أنه عقد حوالي عام ١٠٠٠ ؟ وفيه يتعلم بعضهم ما عند البعض الآخر من حيل وأساليب ، وما عند شعراء الفرنوسية الغزلين والقصاصين من أغان وقصص جديدة . ومنهم من كان يرضى ، إذا تبن أن أقواله ذات طابع عقلي أقوى مما يطيقه المستمعون ، أن يسلوهم بالشعودة ، والألعاب المهلوانية ، وثنى الأجسام ، والمشى على الحبال . ولما أخذ القصاصون يتنقلون في المدن يروون أقاصيصهم ، ولما انتشرت عادة القراءة وقل الطلب على القصاصين ، تحول المغنى الجائل تدريماً إلى ممثل للمهازل ذات الأغاني والرقص ، وأصبح المغني في واقع الأمر مشعودًا ، يقذف بالسكاكن ، ويحرك الدى ، ويعرض ألعاب الدببة المدربة ؛ والقردة ، وألحيل ، والديكة ، والكلاب ، والجمال ، والآساد . ومن المغنىن من حول خرافات الحيوانات إلى روايات هزاية ، ومثلها دون أن يمحو ما فمها من فحش . وقلومت الكنيسة شيئاً فشيئاً هذه الطائفة ، وحرمت على الصالحين الاستماع إلى أفرادها ، وعلى الملوك أن يطعموهم ، وكان هونوريوس أسقف أوتون Autun يرى أن أحداً من أولئك المغنن أو القصاصين لن يدخل الجنة .

وكانحب الشعوب لأولئك المغنن والقصاصن ورواة خرافات الحيوانات ، والترحيب الصاخب الذي لقيته ملحمة چان ده مونج عن الطبقة الموسطى

 ⁽ه) ما أشبه هؤلاء « بالشعراء» الذين ينشدرن على الربابة تسمس أبي زيد الهذلى
 و شير م من الأبطال والذين أعدوا مع الأسف الشديد ينقر دنون في هذه الإيام . (المترجم)

bourgoisie من الطبقات المتعلمة الجاديدة وطلبة الجامعات المتحردين ؟ كان هذا عائمة ذلك العصر . نم إن الروايات الغرامية ظلت باقية ، ولكنها كانت تتحداها من كل ناحبة القصائد الهجائية ، والفكاهات ، والمزاج الدنيوى الواقعى الذى يسخر من قصص الفروسية قبل أن يولد مرفنتير Cervantes يزمن طويل . وظل الهجاء قرناً كاملا من ذلك الوقت هو المسطر على المبدان ، يقرض بأنيابه قلب الإعان ، حتى ترضت جميع دعائم صرح العصور الوسطى ، وتعطمت أضلاعه ، وتكلمت نفس الإنسان مزهوة تترنج على حافة العقل .

الباب للناسع واليثلاثون

دانتي

1771 -- 1770

الفضل الأول

شعراء الفروسية الغزلون الإيطاليون

كان بلاط فردريك النانى فى أبوليا هو المكان اللذى ولد فيه الأوب الإيطالى . وربما كان لمن فى حاشيته من المسلمين تصيب فى الحافز الباعث على نشأة هذا الأوب لأن كل مسلم يعوف القراءة والكتابة فى ذلك الوقت كان يقرض الشعر . وشاهد ذلك أن سيلودالكامو مسلمة، وسيدة ع . كان يقرض الشعر . وشاهد ذلك أن سيلودالكامو وسيدة ع . وتكاد مدينة ألكامو إحدى مدن صقلية تكون مدينة أسلامية . ولكن أثراً أقوى من أثر المسلمين جاء إلى الجزيرة من شعراء الفروسية الغزلين فى پروفانس . فقد كان هؤلاء يرسلون أشعارهم ، أو يأتون بأنفسهم ، إلى قردريك وأعوانه المثقفين ، وكان هو يجلهم ويقدر جهودهم . إلى قردريك وأعوانه المثقفين ، وكان هو يجلهم ويقدر جهودهم . ويكن فردريك نفسه يتاصر الشعر فحسب ، بل كان فوق ذلك يكتبه ، ويكن هو الذى صاغها فى تلك الصيغة ويكن مناها فى تلك الصيغة . وكان ريئلدو داكوينو Rinaldo d'Aquino (أخو القديس وميمس) والذى كان جيش فى بلاط فردريك ، وجيدودلى كران عوص) والذى كان جيش فى بلاط فردريك ، وجيدودلى كران

المتحدد المسجل الصكوك في بلاط فردريك التانيو دائليو دائليو شمراء أحد مسجل الصكوك في بلاط فردريك الاكان مولاء جيماً من بن شمراء كلك و البيضة الأبولية ع و وإنا لنجد في أغنية ياقويو (كتبت حوالي ١٩٣٣) أي قبل موقد دائلي بجبل من الزمان ع ما نجده في قصائد الحياة الجديرة الماطفة وجال الصفل :

لجد فى قلى قوة تدفيتى إلى أن أخدم الله ،
لكى يكون مثواى الجنة
المكان المقدس الذى سمعت أن الهجة والنهم
يفيضان فى كل مكان فيه .
خالت الوجه المتاذل والشعر الواق ،
لأنى أعرف أنها إن خابت عبا وكنت أنا فيها
كان نعيمى أقل من لا شيء .
ولكن حدار أن تظن أنى أقول هذا
لأنى سأرتك فيها الآثام ،
وعيبها الناصت الجمهات ، ووجهها المعبوح
وعيبها الناصت الجمهات ، ووجهها المعبوح
حتى تم بذاك سعادتي

ولما أن سافر فردريك وحاشيته في بلاد إيطاليا أخد ممه شعراء وحيواناته السرية ، وسار وشكانيا ، ولمباردية . وسار المسرية ، وتشكانيا ، ولمباردية . وسار الهند مانفرد Manfred على سنته في مناصرة الشعر وكتب مقطوعات غنائية المتحقق ثناء دانتي . وتررجم كثير من الشعر والصقلي ، إلى لفة تسكانيا ، وكان

له نصيب في تكوين مدرسة الشعراء التي انتبت إلى دايمي . وحدث في ذاك الوقت عينه أن هجر شعراء الفروسية الغزلون الفرنسيون بلاد لانجويدك Languedoe التي مرقبا الحروب الدينية ، ولحقوا إلى بلاد الحكام الإبطالين ، وعلموا شعراء تلك البلاد فهم المرح ، كما علموا النساء الإيطاليات أن يوحين بقصائد المدين ، وأقده اكبار الإيطالين بأن يجز لوا العظاء الشعراء وإن توجهوا بشعرهم إلى زوجاتهم ، وقد بالغ بعض شعراء التسكان في تقليد شعراء الفروسية فكتبوا شعرهم بلغة پروفقسال نفسها للفرنسين . ومن هولاء مردلو Sordello برحوالي ۱۲۰۰ ـ ۱۲۷۰) وهو شاعر ولد في منتوا Mantua بلغة فرجيل ، وأغم با إذ لينو Ezzelino الرهيب ؛ فقر إلى پروفانس ، وكتب بلغة تلك البلاد قصائد في الحب الروحاني الأفلاطوني .

ونشأ من هذه العاطفة الأفلاطونية ، بمزيج حجيب من المتنافزيقا والشعر ، و الأسلوب الحليد التسكانى . ذلك أن الشعراء الإيطالين خرجوا على الشهوانية الصريحة التى وجلوها عند المغنن من شعراء يروفانس ، و آثروا أن يجوا ، أو ادعوا أنهم يحبون ، النساء بوصف كونهن مثلاث للجال التى المبرد ، أو كونهن رموزاً للحكة أو المفلسفة الإلميتين . وكانت هذه نغمة جديدة في إيطاليا التى عرفت مائة ألف من شعراء الغزل . ور عاكان قلم القديس فرانسيس هو الذي حرك هذه الأقلام المنفيفة ، أو لعل كتاب الخيومة لتومس أكوناس كان شديد الوطأة عليهم ، أو لعلهم شعروا بتأثير المتصوفة المسلمين الذين لم يكونوا يرون في الحال غير الله ، والذين كانوا يرجهون قصائد الحب للخالق جل وعلا .

وتكونت المدرسة الحديثة من سرب من المغنن العلماء ، فأعد جونزلى Ouinizellb (۱۷۳۰ ؟ -- ۱۲۷۰) أحد مواطمي بولونيا ؛ الذي سماه دائتي والله في الأدب ٢٠٠ ؛ يتغني بفلسفة الحب الجلميدة أُعنية ذائعة الصيت سمانعا أغنية والغلب الرقيق ، وطلب فها أن ينفرله القدحيه مشرقته لأنها في رأيه الألوجية

عسدة ؛ ونشر لا باجيى Lapa Clanni ، ودينو قرسكوبلدى Clab المحدود المستويا Clab المحدود المستويا وحيدو المحدود المحدود

جمال النساء ؟ وقرار الإرادة العليا ؟
والفرسان الأنجاد المسلمون لألعاب الرجولة ؟
وشدو الطير الجميل ؟ وإجابات الهب الحلوة ؛
وقوة السفن المسرعة فوق متن البحار ؛
والحواء الصانى حين يبدأ الضوء أن يكون ؟
والطبح الأبيض ، الذي يسقط ويستقر في مكون الربيع ؛
وحقول الأزهار ، والمكان الذي يقيع منه الماء ؛
والفضة والذهب ، وزوقة الجواهر :
إذا وزنت أمام مالى من قيمة
في قلب سيدنى العزيزة حلى"

فإنها تبدو ضايلة . وفى الحق أنى لأسمو فى نظرها على هذه كالها وأعلو جنها علو السهاء عن الأرضين وكل خير سرحان ما يمتد للخلائق الأقربين(⁶⁾

وأحد داني الشيء الكثير عن حيدو وقلد أغانيه ، ولعاه مدين له بعزمه على كتابة الحلهاة المفسرة The Divine Comedy باللغة الإيطالية . وشاهد ذلك قول دانق نفسه : و وقد رغب إلى في أن أكتب له على الدوام بلغة البلاد لا باللغة الاتينية ١٩٥٩ . وكن أسلاف دانق هم المنين بدلوا في القرن الثالث عشر فجاجة اللغة الحديدة وعجزها إلى نغمها الحدوة ، وإلى العبارات المركزة المدقيقة التي لا تضارعها فيها لغة أخرى من اللغات الأوربية ، وهم المدين خلقوا لغة يستطيع دانتي أن يسمها : و فخمة ، أصيلة ، مهلبة ، تبلد إذا قيست إلى أغاني الإيطالين ناشزة غير متناخمة ، وقصص الأبطال عمل بعد الشعر في هله الأغاني الإيطالية مصرفا للرثرة المرحة ، بل أصبح علا من أعمال الفن القوية المحكمة يبلك في صياغته من الجهد ما بلك نقولا لايجاني والده في نحت تماثيل المنابر . وبعد فإن من أسباب عظمة الرجل العظم أن رجالا أقل منه تم عهدوا له السبيل ، وهيئوا لمبقريته مزاج العظم أن رجالا أقل منه تم عمله اله السبيل ، وهيئوا لمبقريته مزاج عصره ، وشكلوا له أداة يمسكها بيديه ، وأسلموه عملا أنجزوا نصفه .

الفصلالثاني

دانتي وبياتريس

ق شهر مايو عام ١٧٦٥ والدّت بلا ألجرى Bella Alighieri لزوجها ألجرى المجدى Drarante للجدري Alighiero Aligieri ولدا سموه دوراني Drarante ألجدرى ، ولعلهما لم يفكرا في ذلك الوقت أن معنى هذين النفظين هو عامل الجناح الطويل البقاء . ويبلو أن الشاعر نفسه هو اللي اختصر اسمه الأول فيجعله دانتي (٨) . وكان لأمرته سلسلة نسب طويلة في فلزرنس . ولكها حلت بها القاقة ، وماتت والله العلمل في السنين الأولى من عمره ، وتزوج ألبحرى غيرها ، ونشأ دانتي مع زوجة أبيه ، وأخ له غير شقيق ، وأختين غير ها ، ولعله لم يكن سعيداً معهم (١٠) . ومات والله دانتي حر كان ابنه في الخامسة عشرة من عره ، وخلف لم عبناً من الديون (١٠)

وكان دائتي يذكر من بين مدوسيه بروتو لاتيني الدكتر من بين مدوسيه بروتو لاتيني فضله عليه . وكان بروتنو حين عاد من فرنسا قد اختصر موسوعته الفرنسية السكنر Tresor إلى موسوعة إيطالية صغرى سماها السكنر Tresor إلى موسوعة إيطالية صغرى سماها السكنر Come l'uom s'eterna منه دائتي كيف يخلد الإنسان ذكره وجد في دراسته للذة كبيرة ، وما من شك في أن دانتي قد درس فرچيل ، وأنه وجد في دراسته للذة كبيرة ، فهو يحدثنا عن أسلوب شاعر مانتوا الجميل ، وهل يوجد طالب سواه أحب كتاباً من كتب القدماء حياً جعله يسير وراء مؤلفه في الجمح ؟ ويشير بوكاشيو إلى أن دانتي كان في بولونيا عام ١٩٨٧. وحصل الشاعر في هذه البلدة أو في مكان سواها قدراً يوسف له من العلوم ومن فلسفة المعجزات التي كانت منتشرة في زمانه

جعل قصيدته مثقلة بعلمه الواسع الغزير . وكان ثما تعلمه فضلا هن هذا وكوب الخيل ، والصيد ، والمثاقفة ، والتصوير ، والغناء . ولسنا نعرف كيف كان يحصل على قوته ، وأيا كانت مديله في تحصيله فإنه كان يقبل في الأوساط المثقفة ، لصداقته لكفلكتني إن لم يكن لأسباب أخرى مضافة إلى هذه الصداقة ، وقد وجد في هذه الأوساط كثيراً من الشهراء .

وبدأت أشهر الحوادث الغرامية كلها حن كان داتي وبياتريس كلاهما في سن التاسعة . وكانت بدايها كما يقول بوكاشيو في حفلة من حفلات أول مايو أقيمت في بيت فلكو برتنارى Folco Portinari أحد كبار المواطنين في فلورنس . وكانت « بيس » الصغيرة ابنة فلكو ، والراجع أيضاً أنها هي التي يتحدث عها دانتي باسم بياتريس(٢١٦) ، ولكن هذا الرجحان لا يقرب من التأكيد قرباً يزيل شكوك المترمتين . ولسنا تموث شرف شيئاً عن هذا اللقاء الأول إلا من الوصف الذي كتبه عنه دانتي بعد تسع سنين من ذلك الوقت في ثينا نيوقو Vita nuovo وخلع علمها فيه من الممذات ما جعلها مثلا أعلى قال :

كان لباسها في ذلك اليوم من أبدع الملابس ، فقد كان ذا لون قرمزى هادئ جميل ، وكانت ممنطقة ومزينة بما يناسب سنها الصغيرة . وإنى لأقول صادقاً كل الصدق إن روح الحياة المستكنة في أعمق خبايا الفلب أخلت من تلك الدحظة ترتجف ارتجافاً عنيفاً اهتزت معه جميع أجزاء جسمى ، وقالت وهمي تهزز : و هاهي ذي إلحة أعظم مني قوة مقبلة التسيطر على و وأصبحت من تلك المحظة عبداً لحواها(١٢).

إن في يقترب من سن البلوغ انهي ناضيح لهذا الارتجاف متأهب له ؟ ولقد عرف معظمنا هذه التجربة، وفي وسعنا أن نعود بذاكرتنا إلى ذلك العشق المسريع الزوال ، ونرى أنه من أكثر التجارب التي تعترض شبابنا روحانية ، وأنه يقظة عجبية عفية مزيقظات الجمع والروح، ندرك لمها الحياة ، والصلات الجنسية ، وإلجال ، ونقص الواحد منا بمفرده ، وإن كان الإنسان مع هذا لا يدرك وقتلد رغبة الجسم في الجسم ، بل كل ما في الأمر أنه يتوق في حياء لأن يكون قريباً من حبيبته ويمندمها ، ويستمع إلى حديثها ، ويراقب ظرفها ورشاقها . وإذا ما وهبت نفس الشاب حساسية كحساسية دائي أي إذا كان ملهب العاطفة قوى الحيال ، فقد يبى هذا الإلهام وذاك النضوج في ذا كرته مدى الحياة ، ويظل أبد الدهر حافزاً قوياً له . ويصف لنا دائي كيف كان يتحين الفرص لبرى بياتريس ، وإن لم تتبع له إلا نظرة لها دون أن تراه هي ؟ ثم يبلو أنه ظل لا يراها تسم سنن ، حين بلغا الثامنة عشرة من عمرهما ، وفي هذا يقول :

و هكذا نشأت سلسلة أغانيه وتعليقاته المعروفة باسم الحيامة المجموعة المعروفة باسم الحياة المجموعة La vita nuovo أذا جازلنا أن نصلق ما قاله هو عن نفسه . وأخذ في فتر ات من التسع السنين التالية (١٩٨٣ - ٩٧) يوالف مقطوعاته الغنائية ، ثم أضاف كظلكاتي المقطوعة . إثر المقطوعة ، وكان يحلك المؤت صديقاً له . والقصة الغرامية القيامية المؤامية المؤلمية المؤلمية المؤلمية المؤلمية المؤلمية بهده الأغاني من المبتكرات الأدبية إلى حدما ، وإن فوقنا الذي تهدل في هذه الأعامي علم هذا القصائل لما فها من تأليه للحب تأليا مسرفاً في المؤلف المؤلمية المغالمة التي المؤلفة المؤلفة التي المؤلفة التي المؤلفة المؤلفة المؤلفة التي المؤلفة التي المؤلفة التي المؤلفة التي المؤلفة التي المؤلفة التي المؤلفة المؤلفة التي المؤلفة الم

يفسلها بها: ، وما تحتويه من البحوث الخفية الغامضة حول الثلاثات والنسعات. لهذا كان من الواجب علينا أن نغض الطرف عن هذه العيوب التي هي في الحق عدوى زمانه :

يقول الحب فيها : «كيف يمكن أن يكون الجسم وهو من تراب نقياً هذا النتماء ؟ » .

ثم يقسم وهو لا ينفك يحدق فيها : ٥ حقاً إنها لمخلوق من خلق اقد لم يعرف من قبل » .

إن لها من شحوب الدرة القدر الخليق بالمرأة الجميلة لا أكثر منه ولا أقل

ولقد سمت بالقدر الذي يمكن أن تسمو به الطبيعة وإبداع الحالق ، ها يقاس الجال ، وكل ما وقعت عليه نظراتها الحلوة

خرجت منه أرواح الحب ملتهية . فإذا نظر الناس إلى هذه الأزواح سرت في عيومهم وأصابت سهام قلك العيون شفاف قلومهم . . ف. . . الما يرم علم الما يرم الما النظام المنا النظام ال

وقى بسياتها ترى الحب مجسها فلا بستطيع إنسان أن يعليل النظر إلها(١٥)

ويعض النَّر أبعث على السرور من الشمر :

الإذا ظهرت في مكان ما ، خيل إلى وأنا أؤمل أن تحييني تحيتها الجميلة ، أن لم يبق لى في العالم كله علمو ، وخمرتى في ذلك الوقت فيض من الهبة لا أشك معه في أنني سأعفو عن كل من أساء إلى مهما تكن إساءته ... ومشت يخللها التواضع ، ظها أن خادرت المكان قال كثيرون من فيه : لا يست هذه امرأة ، وإنما هي مملك جيل هبط من السياء ، وإلى الأقول بحق إن فيها من الرقة والظرف ما يبعث في نفس كل عن ينظرون إلها هدوما وسكينة يسجز البيان عن وصفهما ١٧٥).

وليس في هذا الافتتان ، الذي تجسيه متكلفاً.، إشارة إلى فكرة زواجه من

يباتزيس . ولقد تزوجت بالفعل فى عام ١٣٨٩ من صيمون ده بلرى Simone de. Bardi ، وهو عضو فى شركة مصرفية كبرى . ولم بهم دائتي بهذا الحادث العرضي ، بل ظل بكتب فها القصائد دون أن يذكر المبها ، فلما ماتت بياتزيس بعد عام من زواجها وهى فى الرابعة والعشرين من عمرها ، رئاها الشاعر بقصيدة هادئة ذكر فها المها الأول ، و ، ، وجاء فها :

صعدت بياتريس إلى السموات العلى ،
إلى الملكوت الذي يتمتع فيه الملائكة بالسلام :
فهى تعيش معهم ، وإن فقدها الأصدقاء ،
ولم يدفعها إليه زمهربر الشتاء ، كما يدفع غيرها من الناس
لا ولا حر الصيف اللافع ،
وإنما اندفعت بغير هذا وذاك ، بلطفها الكامل ،
لأن هالة عظيمة خرجت من نور جبينها الوضاء ،
فأثارت الدهشة في نفس الحلاق الآزلى ،
ومسرت فيه رغبة حلوة في ذلك الجال البلوع ،
فأمرها أن تتوق إليه في علاه ،
لأنه رأى أن هذا المكان الممل الخبيث

ويصورها فى قصيدة أخرى يحيط بها فى الجنة من يقلمون لها فروض الولاء ، ثم يقول :

وبعد أن كتبت هذه المقطوعة ، قدر لى أن أرى رونى صجيبة . إذ أبصرت أشياء اعتزمت بعدها ألا أقول شيئاً قط عن هذه السيدة المنعمة ، إلى أن يحن الوقت الذى أستطيع فيه أن أتحدث عها حديثاً أجدر بها . وأنا أبلل ما وسعى من جهد لبلوغ هذه الفاية ، كما تعرف هي يحق . ومن أجل هذا فإذا أراد الله باعث الحنباة في كل شيء أن يطيل حياتى عدداً قليلا من السنين ، فإتى أوجو أن أكتب فيها ما لم يكتب من قبل في أبة امرأة سواها ، فإذا قعلت نقد يرى المنعم المنفضل أن تغادر روحي هذه الأرض لتعملى بمجد سيدتها ، أصى بحد بياتريس السعيدة التي لا تفلك الآن تتطلع إلى وجه الله المقدير . وهكذا ، أخذ كما يقول في ختام كتابه الصغير يتطلع إلى وضع كتاب أكبر منه وأعظم ، ه وأخلت مقطوعاتى نتابع بلا انقطاع من أول يوم رأيت فيه وجهها في هذه الحباة ، حتى رأيت هذه الروى التي يختم بها أقواله في الجند (١٠) . وقال عرفنا إنسانا رسم طريقاً واضح المنهج ، ولم يحد عنه مهما صادفه من صروف الدهر وطوارق الحدثان .

الفيرل لثالث

الشاعر في غمار السياسة

بيد أنه حاد في بعض الأحيان عن صراطه المستقم. فقد تورط داني بعد موت بياتريس بوقت ما في حب خفيف بعد حب خفيف - أحب و بيرا Pietra ، و وبرجلتا Lisetta و و لزتا Lisetta و وغيرهن من الأباطيل التي لم ينتفع بن الإزمناً قصراً ، ((()) وقد وجه الى سيدة واحدة - يسمها السيرة الظريفة قصائد غزلية - أقل روحانية من قصائده إلى بياتريس . ثم تزوج في عام ١٧٩١ وهو في السادسة والمشرين من عمره حادونافي المنافق و عام ١٧٩١ وهو في السادسة أقدم الأسر الشريفة في فلورنس . وأنجبت له في عشر صنن عدة أبناء يقدرهم البعض بثلاثة ، والبعض باربعة ، والبعض الآخر بسبعة (()) ويلغ من إخلاصه للمستور شعراء الذووسية الغزلين أنه لم يذكر قط زوجته أو أبناءه في شعره ، ولو فعل لكان هذا عملا غير لائتي به ، لأن الزواج والحب الرواني ضدان لا يجتمهان .

"م ألقى بنضه في محر السياسة ، ولعل الذي ساعده على هذا هو كفلكانى ؟ وانضم لأسباب لا نعرفها إلى حزب و البيض Blanchi وهو حزب الطبقة المتوسطة العليا . وما شك في أنه كان ذا مواهب سياسية ، لأنه اختد في عام ١٣٠٠ لا بعد عضواً في المجلس البلدى ؟ وحلث في أثناء اضطلاعه بهذا العب القصير الأجل أن حاول السود Neir يقودهم كورسو دوناني Corso ألمب المقصير أن يحدثوا انقلاباً سياسياً مفاجئاً يعيدون به الأشراف الأقدمين إلى الحكم . ولكن المقدمين أعضاء المجلس البلدى ... قدموا المقتة وسعوا

وافقة دائى لنشر لوام السلام فى المدينة بنى زعاء الحزبين – ومهم دونانى – صهر دانتى ، وكفلكانتى صديقه . لكن دونانىغزا فلورنس فى حام ١٣٠١ بعصية من فلسوم المسلمين ، وخلع المقدمين ، واستولى على زمام الحكم ؛ ثم حوكم دائتى وخسة حشر من المواطنين فى أوائل عام ١٣٠١ وأدينوا بعدة جرائم سياسية ، ونفوا من المبلغة ، وحكم عليهم بأن يقتلوا حرقاً لمذا عادوا إلى فلورنس مرة أخرى . ففر دانتى ولكنه ترك أسرته فى المدينة لأنه كان يأمل فى المودة إلها بعد قليل . واضطره هذا الذى وم صحبه من مصادرة أمواله إلى أن يقضى تسعة عشرة عاماً فى فقر مدقع وعموال البلاد ، ماذ قلبه غلا وحقداً ، وكانا من أسباب مزاجه النكد وتجوال البلاد ، ماذ قلبه غلا وحقداً ، وكانا من أسباب مزاجه النكد وتجوال المحلود هذا النكل يسرد موضوع الحلماة فو لهية . أما شركاؤه فى الذي فقد أفنعوا مدائن أرزو ، وبولونيا ، وبستوياً بأن تسيرً على فلورنس جيشاً موافقاً من أوقد فعلوا هذا على الرغم من نصيحة دانتى لم ألا يقدموا على هذا العمل . وأخفقت هذه الحاولة ، واختبط دانتى لغضه من ذلك الوقت خطة خاصة ، وعاش مع أصدقائه فى أرزو ، وبولونيا ، وبهدوا .

وكانت السنون العشر الأولى من نفيه هي التي جع فيها بعض القصائد التي كتبها إلى السيرة الظريفة ، وأضاف إليها تطبقات نثرية استحالت بها هذه السيدة إلى السيرة الفلسفة . ويحدثنا دانتي في قصيدة الحائرة (Convisio) السيدة إلى السيرة الفلسفة . ويحدثنا ولى وجهه ، بعد خيبته في الحب وفي الحياة ، محو القلسفة ليخفف بها من آلامه ، وكيف وجد في هذه الدراسة المغربة إلهاماً مقدماً ، وكيف احترم أن يشرك فها كشفه من إلهام من الايستطيسون قراحة اللاتينية بأن يكتب لهم بالإيطالية ، وبيدو أنه كان يفكر في كتابة محرم أو كر جده على إحدى قصائله

عن السيدة الجميلة . وتلك بلا ربب خطة حجية أراد بها أن يستعيض عن الحلب الشهواتي بالحب المجلب . والكتاب الصغير خليط مهوش من العلوم المنامضة العجيبة ، والاستعارات المتكلفة ، وشدرات السفية مستمدة من يوثيثيوس وشيشرون . ويحتى لنا أن نشيد بعبقرية دانتي التي حلته على أن يبخلي عن إتمام هذا الكتاب ، ويراه عملا خاسراً كل الحسران ، بعد أن كتب ثلاثة من الشروح الأربعة عشر التي كان يعترم كتابها .

وشرع وقتثذ في ذلك العمل المتواضع ألا وهو إعادة حكم أباطرة الدولة الرومانية المقدمة في إيطاليا ؛ ذلك أن تجاربه قد أقنعته بأنْ منشأ ما في المدن الإيطالية من فوضى وعنف هو فهمها الخاطئ المجزَّأ للحرية – فقد كان كل إقلم ، وكل مدينة ، وكل طبقة ، وكل فرد ، وكل ذي شهوة ، يطالب بالحرية الفوضوية . وكان هو يتوق إلى ما تاق إليه مكيڤلي بعد ماثني عام من ذلك الوقت ، إلى قوة تنسق جهود الأفراد ، والطبقات ، والمدن فتجعل منها كلا منظإ يستطيع الناس في داخله أن يعملوا ويعيشوا نى سلم وأمان . وكان يرى أن هذه السلطة الموحدة إما أن تأتى من البابا أو من رئيس النولة الرومانية الشرقية ، التي كان شمالي إيطاليا من زمن بعيد يخضع لها من الوجهة النظرية . غير أن دانتي كان قد نني من زمن قصير بأمر حزب متحالف مع البابوية ؛ وتقول إحدى الروايات غير المو كدة إنه اشترك في بعثة سياسية غير موفقة أرسلت من فلورنس إلى بنيفاس الثامن ، وقد ظل البابوات زمناً طويلا يعارضون في توحيد إيطاليا لأن هذا يعرض للخطر حريثهم الروحية وسلطتهم الزمنية . ولهذا بدا أن الأمل الوحيد في عودة النظام إلى البلاد هو إعادة السلطة الإسراطورية ، بالرجوع إلى السلم *الرومانية* التي بسطت لواءها رومة القديمة

وفى هذه الظروف كتب دانتى فى تاريخ غير معروف رسالته المدرة فى الهلكية المطلقة De monarchia ، كتبها باللغة اللانينية ، وكانت لاترال لغة ولما كان عاجزاً عن ممارسة هذا النشاط إلا في السلم ، فإن الحكم المثال هو ولما كان عاجزاً عن ممارسة هذا النشاط إلا في السلم ، فإن الحكم المثال هو إذا قامة دولة عالمية تقر السلام الدائم وتبسط العدالة على جميع سكان الأرض . فإذا قامت هذه الدولة كانت الصورة الصحيحة المطابقة النظام السهاوى الدى وضعه الله في الكون . وكانت روحة الإمراطورية أقرب الدول إلى هذه الدولة المالية ، ولقد أظهر الله رضاء عن هذه الدولة إذ اختار أن يخضعوا يكون إنساناً في عهد أغسطس ، وإذ أمر المسيح نفسه الناس بأن يخضعوا لسلطان القياصرة السياسي . ولم يكن سلطان الإمراطورية القديمة مستمداً بعليه الحال من الكتيسة المسيحية ، غير أن الدولة الرومانية المقاسة لم شار لمان إمر اطوراً ؛ ولاح بهذا أن الإمراطورية قد خضعت البابوية ؛ ولكن واغتصاب حق لا يحتى هذا الكنسية للدولة المدنية بعد أن أعاد. ولكن واغتصاب حق لا يحتى هليا الكنسية للدولة المدنية بعد أن أعاد. الإمراطور أتو 1000 اليابا ليو 1000 وخلع بنيفاس ١١٠٠٠ .

ولقد كان كتاب الملكية المطلقة دفاعاً قوياً عن قيام و عالم واحد ، ذا حكومة واحدة ، وشرائع واحدة رغم ما في هذا الكتاب من جدل مدرسي فل معديتمشي مع طرائق التفكير السائدة في ذلك الوقت . ولم يكن مخطوط الكتاب معروفاً في أثناء حياة موافقه إلا لمدد قليل من الناس ولكنه انقشر بعد وذاته ، واتحده لويس البافاري Louis of Bavaria عدو البابوية وسيلة للدعاوة ، ثم أحرق الكتاب علناً بناء على مرسوم بابوي صدر في عام ١٣٧٩ وأدرج في القرن السادس عشر في الثبت البابوي الهنوي أسماء الكتب الهرمة ، ثم رفعه من هذا الثبت ليو الثالث عشر في عام ١٨٩٧ .

ويقول بوكاشيو إن دانتي ألف كتاب الطلكية وحين جاء همرى السادس 4 ذلك أن ملك ألمانيا غزا إيطاليا في عام ١٣٦٠ راجياً أن يبسط على شبه الجنوبرة علها ، عدا الولايات البابوية ، الحكم الإمراطورى الذي انقضى عهده بموت فردريك الثانى . ورحب به دانى وجاشت في صدره آمال كبار ؛ وأهاب بمدن لمبارديا ، في درسالة موجهة إلى أمراء إيطاليا وشعوبها ، أن تفتح قلوبها وأبوابها إلى و القادم ، الكحسمرجي الذي سينجها من الفوضى والمبابوات . ولما وصل هرى إلى ميلان هرع دانني إلها وألى بنفسه وهو في تشوق المحماسة عند قدى الإمراطور ، وخيل إليه أن كل ما كانت تصويم له أحلامه من قيام إيطاليا للوحدة يوشك أن يتحقق . لكن فلورنس لم تسبيب لنداء الشاعر ، وأوصدت أبرابها في وجه همرى ؛ ووجه داني وهو في سورة الغضب رسالة وإلى الفلورنسين أشد الناس إجراماً .

وساء دانتي وملاً قلبه هلماً أن هنرى ترك فلورنس وشأمها ؛ ولهذا كتب الشاعر إلى الإمراطور في شهر إبريل كما كتب نبي من أنبياء بني إمم اثيل يحلن الملوك فقال :

لسنا ندرى أى خمول يقعلك عن العمل هذا الزمن الطويل ...إنك نضيع الدين المعلى هذا الزمن الطويل ...إنك نضيع الدينع كما تضيع الشتاء فى ميلان ... (لعلك لا تعرف) أن فلونس مصدر الشرأ المستطر ... وأنها هى الأفعى... التي تنفث من أنفاسها الفاسدة اللنخان الموبوء اللذي يُقضى على القطعان الحجاورة لها... مُعبَّ إذن يا ابن يسمَّى Besse النجيل الـ(۲۵)

وكان رد فلورنس أن أعلنت نني داني ، وحرمانه أبد الدهر من كل_{ير} عفو يصدر عن الخاتين . وترك هنرى فلورنس دون أن يمسها بسوء ، وانتقل عن طريق چنوى وبرز الى رومة حيث توفى (۱۳۹۳) .

وكان موته من أشد الفواجم التي حلت بدانتي ؛ ذلك أنه قد قامر بكل شيء على انتصار هنرى ، وحرق من ورائه كل الجسور الفلورنسية ولم ير أمامه إلا أن يفر إلى جبيو Gibbio و بلجاً إلى دير الصلب المقدس (سانتا كروس Santa Croce) . وبيدو أنه كم يكن قد شيع بعد من السياسة ، فقد كان في أغلب المقدسة ٣٧٠ . غير أنه لم يكن قد شيع بعد من السياسة ، فقد كان في أغلب المقدسة ٣٧٠ ، غير أنه لم يكن قد شيع بعد من السياسة ، فقد كان في أغلب عام أجريو لو Uguccione della Fuggiulo لوكا عام 1٣١٦ ، وفي ذلك المام هزم فجيولو الفلورنسين عند مونى كاتني المكوم عليم بالإعدام – ولم ينقذ هذا الحكم قط . وخرجت لوكا على أجميوني وألني دانتي إلى عنف مرة أخرى بلا وطن . ورأت فلورنس في نشوة أشيوني وألني داني نفسه مرة أخرى بلا وطن . ورأت فلورنس في نشوة النصر أن تكون كريمة ، وأن ننسي أحكامها الأبدية ، فمرضت أن تعفو عن جميع المنفين وتوميم على حياتهم إذا عادوا إليا ، على شرط أن يودوا لما غرامة مالية ، وأن يسروا في شوارع المدينة في أنواب الندم ، وأن يزج هم في السجن وقا قسراً . وتطوع أحد أصدقاء دانتي بإيلاغه هذا القرار ، فرد عليه برسالة ذائمة الصيت قال فها :

إلى صدين فلورنسى: تلقيت رسالتك بما يليق بها من الإجلال والحب، وأدركت منها بقلب مفتم بالشكر ... أن عودتى إلى بلدى عزرة على نفسك . ولكن انظر إلى ما هو مفروض على ما ... ذلك أنى إذا ما قبلت أن أودى قدراً من المال وأن أتحمل وصمة السجن ، فيسيعنى عنى فأستطيع العودة من فورى .

فهل هذه إذن هي الدعوة الكريمة التي توجه إلى داني المجرى ليعود إلى

بلذه بعد أن صدر على النفى ما يقرب من خمسة عشر عاماً ؟ . . . إن وجلا ينادى بالعدالة لا يطبق أن بودى ما له إلى من يرتكبون المظالم ، كأتهم يحسنون إليه . ألا إن هذه ليست الطريقة التى أعود مها إلى بلدى . . . فإقا كان ثمة طريقة أخرى . . . لا تزرى بكرامة دانى . . . فإنى لن أثوافي قط عن اتباعها ؛ أما إذا لم يكن دخول فلورنس مستطاعاً مهذه الطريقة الأخرى ، فإنى لن أدخلها أبداً . . . ما هذا الذى تقول ! أليس وسعى أن أستمتع بنور الشمس وجمال النجوم فى كل مكان على ظهر الأرض ؟ أليس فى مقدورى أن أفكر فى أعظم الحقائق شاناً تحت كل سماء (٢٧٧)

وأغاب الظن أنه قبل في أواخر عام ١٣١٦ دعوة وجهها إليه كان جراندي دلا اسكالا Can Orande della Scala ، حاكم ڤيرونا لأن يجيء إليه وبعيش في ضيافته . ويبدو أنه أتم في هذه البلدة قسم الجنَّرَفي الحلهاة المقرسة (۱۳۱۸) – وفعها بلا ريب أهدى هذا القسم إلى كان جراندي . وفي وسعنا أن نصوره في تلك الفترة من حياته ــ أي في الحادية والحمسين من عمره ــ كما صوره بوكاشيو في الحياة الجديرة عام ١٣٥٤ ؛ تصوره رجلا متوسط القامة و منحني الظهر قليلا ، يسير بخطى وقورة منزنة تنم عن المهابة والانقباض ، ذا شعر أسود وبشرة سمراء ، ووجه طويل يُم عن كَثْرة التفكير ، وجهة بارزة مغضنة ، وعينين غائرتين ذواتي نظرات صامتة ، وأنف رفيع أنحى ، وشفتين منطبقتين ، وذقن بارز(٢٨) . ذلك وجه روح كانت من قبل وادعة ظريَّفة ، ولكن الآلام جعلتها نكلة مربرة ؛ وليس من السهل على دانتي صاحب الوصف الوارد في الحياة المجريرة أن يتصنع كل ما وصفه به هذا الكتاب من شفقة ورقة عاطفة ؛ وإن شيئاً من هذه لمصفات ليظهر فيما بدا عليه من حنان وهو يستمع إلى قصة فرانسسكا . وكان عبوساً صارماً شأن الرجل المغلوب على أمره المنني من بلده ، وقد أكسبته الشدائد حدة في اللسان ، وغطرسة يغطى ما ما فقده من قوة وسلطان .

هكان يفخر ينسبه لأنه كان فقراً ، ويحتمر رجال الطبقة الوسطى من أهل ظورنس اللمين يجرون وراء المال ؛ ولم يكن فى وسعه أن يغفر لبرتنارى زواج بياتريس من مصرفى ؛ وسلك طريق الانتقام الوحيدة التي وجدها أمامه فوضع المرابين فى اللدك الأسفل من النار . ولم يكن ينسى قط أذى أو إهانة ، وما أقل من سلم من أعداقه من سموم قلمه . وكان يرى أن اللمين يبقون على الحياد فى الثورات أو الحروب أقل نفعاً فى نظره مهم فى نظر سولون . وكان منبع صفاته الحلقية كلها هو الشدة الملتبة : و لم أكن ما أنا بفضل ثرائى بل يفضل الله على ، وإن غيرتى على بيته لتشعل النار فى قلبي ، (۱۲) .

وقد أفرغ فى قصيدته كل ما وهبه الله من قوة ، ولم يكن يستطيع أن يعيش بعد تمامها زمناً طويلاً . فني عام ١٣١٩ غادر ڤيرونا وسافر إلى راڤنا فيعيش فنها مع الكونت جيدو دا پولنتا Count Guido da Polenta ، ثم تلتى دعوة من بولونيا للقدوم إلها لكي يتوج فها شاعراً لبلاطها ، ورفض الدعوة بأنشودة رعوية كتبها باللغة اللاتينية . وفي عام ١٣٢١ أرسله جيدو إلى مدينة البندقية في بعثة سياسية كان نصيبها الإخفاق ، وعاد دانتي من هذه البعثة مريضاً بحمى أصابته من مستنفعات ثينيتو Veneto . ولم يستطع جسمه الضعيف مقاومة المرض ، فقضى عليه فى ١٤ سيتممر سنة ١٣٢١ وهو في السابعة والحمسين من عمره . واعتزم الكونت أن يقيم شاهداً على قدر الشاعر ، ولكن شيئاً من هذا لم يتم ، أما النقش القليل البروز . القائم فوق التابوت الرخامي في هذه الأيام فقد نحته پيترو لمباردو عام ١٤٨٣ ، والعالم كله يعرف أن يبرون جاء إليه وبكى ، والقرر في هذه الأيام لا يكاد يبدو الناظر ، يجده الإنسان في أحد الأركان وهو قادم من أكثر ميادين راڤنا ازدحاماً بالأعمال ، وإذا ما قدمت إلى حارسه المقعد الطاعن في السن يضع لمرات أنشدك بعض قطع جميلة طنانة من القصيدة التي يمتدحها الناس جميعاً ولا يقروها منهم إلا القليلون .

الفصل لرابع

الملهاة المقسسة

١ - القصيدة

يقول بوكاشيو إن دانتي بدأها بالشعر اللاتيني السداسي الأوتاد -. (ذي الستة التفاعيل) ــ ولكنه استبدل به اللغة الإيطالية ، لكي تصل قصيدته إلى عدد أكبر من القراء . ولعله تأثر في اختياره بقوة عاطفته ؛ فقد بدا له أن التعبر عن الانفعال باللغة الإيطالية أيسر منه باللغة اللاتينية الى طال ارتباطها بالحياة المدنية والقيود القديمة . وكان في شبابه قد قصر اللغة الإيطالية على شعر الحب ؛ أما الآن وقد جعل موضوعه أسمى فلسفة ، وهي الهتداء البشرية عن طريق الحب ، فقد خطر بباله أن يقدم على التحدث بلغة بلاده . وكان في وقت ماض غير معروف قد بدأ مقالا لاتينياً لم يتمه سماه في فصاحة اللغة الشعبية De vulgari eloquentia ، أراد به أن يغرى الطبقة المتعلمة بالتوسع في استخدام اللغة القومية . وقد امتدح فيه جزالة اللغة اللاتينية وإحكامها ، ولكنه عبر عن أمله في أن تسمو اللغة الإيطالية فوق لهجاتها العامية بفضل أشعار دولة فردريك ، والأسلوب المجربر الذي ابتدعه شعراء التسكان واللمبارد القصاصون ، فتصبح (كما ورد في . المأرية وغاصة بأروع التعابير وأجلها »)<٣٠) . ولم يكن دانثي نفسه ــ الذي نهلم عن كبريائه ما نعلم ــ يتصور أن ملحمته ستجعل اللغة الإيطالية صالحة للتعبير عن أي غرض من الأغراض الأدبية ، وأنها لن تكتبي سلما بل سنمسو بهذه اللغة إلى درجة من العلوبة والرقة قلما عرف لها العالم مثيلا .

ولم يبذل في إعداد قصيدة ما من الجهد مثل مايذل دائمي في إعداد قصيدته . (٢١ - ج ٢ ، جلد ؛) وكانت نرعة إلى التثليث – تعبر عن النالوث الدبني للقدس – وتم عن ضعف الشاعر هي التي عينت شكل القصيدة فبعلها موافة من ثلاثة و أناشيد »، في كل نشيد ثلاث وثلاثون أغنية ، تقابل سني حياة المسيح على هذه الأرض ، تضاف إلها أغنية أخرى في النشيد الأول فتكون عدمها مائة كاملة . واعترم أن يكتب كل أغنية في مجموعات كل مها ثلاث أبيات ، يضع المجموعة التي بعدها . وليس ثمة ما هو أكثر تكلفاً من هذا ، ولكن ما من فن يخلو من التكلف ، وخير ما يمكن أن يصنعه الفنان أن يخيى تكلفه ، وهذا القافية الثلاثية erar rima تربط كل أغنية بالتي تلها ، وتولف مها كلها أغنية واحدة متصلة ، تلساب في لذبها الأصلية انسياباً مهلا على اللسان ، ولكها إذا ترجمت تعبرت وبدت كليلة . ولقد لند داني مقدماً بكل ترجمة لقصيدته ، فا من شيء يسرى فيه توافق الاتصال الموسيق يمكن أن ينقل من لفته الأصلية إلى لفة أخرى دون أن يفقد حلوته وتوافقه (۲)(۲)(۲).

وكما أن أبيات القصيدة هي التي عينت صورتها ، فإن الاستمارات هي التي عينت قصتها ، وقد شرح دانتي في الرسالة التي أهدى بها القصيدة إلى كان جراندي(٢٦) ما تنظوى عليه أناشيده من رموز ، ولنا أن نظن أن شرحه هذا فكرة متأخرة لاحت لشاعر كان يريد أن يكون فيلسوفا ، ولكن انهماك العصور الوسطى في الرمزية ، وما كان في الكنائس الكبرى من تماثيل رمزية ، ومظلمات جينو وجادى ومطلمه ورفائيل ، وكلها رمزية ، وتساى دانتي الرمزى في الحياة الجميعة والماشرة ، كل هذا يوحى بنن الشاعر كان يفكر في النقط الرئيسية لمشروعه الذي وصفه وصفة رفضلا قد يكون خيالياً . وتجون دانتي إل

إ) ومن ، أجينا أن يستني من هذا ترج داني جبريل روزني السهات السيد ومن جاهرا قبل داني.

القصيدة تتبع ه جنس ۽ الفلسفة ، وإن موضوعها هو الأخلاق . وهو يفعل ما يفعله عالم الدين الذي يفسر الكتاب المقدس فيجعل لكلمانه ثلاثة معان : الحرق ، والمجازى ، والصوفى .

« وموضوع هذه القصيدة حسب معانيها الحرفية . . . هو حال الأرواح بعد الموت . . . أما إذا نظرنا إليها نظرة مجازية فإن موضوعها هو الإنسان من حيث تعرضه المثواب والعقاب العادلين اللذين يستحقهما بسبب أعماله الطبية أو الخبيثة . . والغرض المقصود منها في مجموعها وأجزابها هو انتشال من يحيون هذه الحياة مما يعانونه من شقاء ، وإرشادهم إلى طريق السعادة » .

وإذا عبرنا عن هذه المعانى بطريقة أخرى قلنا إن الجماعيم المهره من مرور الإنسان بالخطيئة ، والمداب ، واليأس ، وإن المطهر هو تطهيره عن طريق الإيمان ؛ والفردوس هو نجاته عن طريق الوحى الإلهى والحب غير الأيمان ، وبمثل فرجيل ، الذي يقود دانتي خلال الجميم والمطهر ، المعرفة ، والمعتل ، والحب تمد وهي التي تستطيع أن تقودنا إلى أبواب السعادة ؛ والإيمان ، والحب (بيتريس) وحدهما هما اللذان يدخلاننا فيها . وكان الذي في ملحمة حياة دانتي هو جحيمه ، كما كانت دراساته وكتاباته هي مطهرة ، وكانت آماله وحبه هما نجاته وسعادته اللتين لم تكن له غيرهما نجاة الذي يعمل هذا النشيد أكثر أناشيده استعصاء على الفهم ؛ ذلك بأن بيتريس التي كانت في الحياة المحميرة رويي سماوية تصبح في تصويره السهاء نجريداً التي كانت في الحياة المحميرة رويي سماوية تصبح في تصويره السهاء نجريداً ذا ألمية وفخامة — ومثل هذه الجال المرىء غير خليق بهذا المصير . ويشرح دانتي لكان جرائدي في آخر الرسالة سبب تسميته ملحمته ملهاة ويشرح دانتي لكان إلى القصة انتقلت من الشقاء إلى السعادة ، و دايها

⁽ ع) وقد أضاف إليها المجبرة ما مقة Divrina المقامة في القرن البايع عشر ،

كتبت بأسلوب مهلهل وضيع ، باللغة العامية الى تتحدث بها ربات المنازل أنفسين (٣٦٠) .

وكانت هذه الملهاة الأليمة وهي والكتاب الذي هزل فيه جسدي هذه السنين الطوال ۽ شغله وسلوته في مثفاه ، ولم يفرغ منها إلا قبل موته بثلاث سننن : وقد لخص فنها حياته ، وتعليمه ، وآراءه الدينية ، وفلسفته ؛ ولو أنها احتوت فضلا عن هذا ما كان في العصور الوسطى من فكاهة ، ورقة ، وشهوانية عارمة لجاز أن تكون من المؤلفات والجامعة في العصور الوسطى ، . ذلك أن دانتي قد حشر في هذه الماثة من الأناشيد الموجزة كل ما أخذه من العلم عن برونتولاتيني، ولعله حشرفها أيضاً ما تعلمه في بولوتيا ـــ حشر فيها كل ما كان هناك من فلك وعلم الكون ، وطبقات الأرض ، والتوقيت في عصر تمنعه للشاغل من أن يكون عصر علم . ولم يكن يومن بالقوى الحفية ، وبالنتائج المحتومة التي يستقمها من التنجيم فحسب ، بل كان يؤمن فوق ذلك بجميع الأساطير المعماة الملغزة التي كانت تعزو معانى وقوة خفية للأعداد ولحروف الهجاء . فكان يقول مثلا إن العدد ٩ يمنز بياتريس من غيرها لأن جزره التكعيبي هو ٣ الذي جعله الثالوث رقّاً مقلماً . وفى الجحيم تسع دوائر ، وتسع طبقات فى المطهر ، وتسع طبقات كرية فى الفردوس . ويستمد دانتي في رهبة واعتراف بالجميل قسطاً كبراً من فلسفة تومس أكوناس وحلومه الدينية ، ولكنه لا يسبر وراءه سراً دقيقاً ولا يراعى الأمانة في النقل عنه . وما من شك في أن القديس تومس لم يكن يرتاح إلى الحجج الواردة في كتاب الطكية أو إلى روية البابوات في الجحم، وإن تصوير دانتي لله بأنه نور وحب ١ الحب الذي يحرك الشمس وساثر النجوم ١٣٦٥ له قول أرسطو انتقل إليه عن طريق الفلسفة العربية . وكان يعرف الشيء القليل عن القاراني ، وابن سينا ، والغزال ؛ وابن رشد ؛ ويضع ابن رشد في المحيط الحارجي للججيم ، ولكنه يهز مشاعر المتدينين بوضعه

سيجر البر ابنتي Siger de Brabant معتنق مذهب ابن رشد في الفر دوم ٢٣٠٠ . وفضلا عن هذا فهو ينطق تومس بالثناء على الرجل الذي أثار ثاثرة هذا العالم الديني الذي يكاد يصل إلى مرتبة الملائكة . غير أنه يبدو أن سيجر أنكر عقيدة الحلود الفردي الذي هو دعامة قصيدة دانتي ؛ ولهذا فإما أن يكون التاريخ قد تغالى في وصف سيجر بالزيغ والضلال أو في وصف دانتي بالاستمساك بالدين. وتؤكد الدراسات الحديثنة ما استمده داني من المصادر الشرقية وبخاصة المصادر الإسلامية كقصة أردا ڤراف التي تصف الصعود إلى السهاء ، ووصف الجمحم الوارد في القرآن ، وقصة المعراج ، ووصف الجنة والنار في رسالة الففران. لأنى العلاء المعرى ؛ وفتوحات ابن عربي . . . فني رسالة الغفران يصور المعرى إيليس يعذب في الجمحم وهو مقيد بالأغلال ، كما يصور الشعراء المسيحيين وغيرهم من « الكفرة » يعذبون فيها . وتستقبل صاحب القصة عند باب الجنة واحدة من الحور العين ، اختبرت لترشده (٣٨) . وقد رسم ابن عربي في الفتومات الحياة الآخرة رسمًا دقيقًا ، ووصف الجنة والنار بأنها فوق البيت المقدس وتحتها مباشرة ، وقسم النار والجنة إلى سبع طبقات ، وصور مكان الملائكة المسبحين حول النور القلسي ــ وصف ذلك كله كما ورد في الحليهاة الهقرسة لا يفترق عنه في شيء(٣١) ﴿ وَنَقُولُ هَنَّا استطراداً إن ابن عربي كتب قصائد في الحب يفسرها المفسرون تفسراً مجازيًا دينيًا) ، ومبلغ علمنا أن شيئًا من هذه الكتابات العربية لم يكن قلد ترجم من قبل زمان دانتي إلى أية لغة يستطيع قراءتها .

وقد وردت فى الآداب الدينية البهودية وللسيحية غير المعرف بها أوصاف لرحلات أو ردى فى الجنة والنار ؛ ولاحاجة بنا إلى ذكر ما ورد فى وصفهما فى الكتاب السلام من إنباؤة فرچيل : وتقول قصة أيرلندية إن القديس پاتريك زار المطهرو الجمحيم ؛ ورأى فهما أثواباً وأحزمة من نار ، والمذنبن معلقين فيها من أرجلهم ، أو تلهمهم الأفاعى أو يغطيهم الجليد (على المحافقين فيها من أرجلهم ، أو تلهمهم الأفاعى أو يغطيهم الجليد (على المحافقين ا

قصاص يدعى آدم ده رس Adam de Ros فى قصيدة طويلة طواف القديس بولس في النار يقوده الملاك ميخائيل ؛ وينطق ميخائيل بوصف مراتب العقاب التي توقع على درجات الذنوب المختلفة ، ويظهر بولس وهو يرتجف من هذه الأهوال كما يرتجف منها دانتي (١١) . وتحدث قبل هذا يواقيم الفلورى Jaockim of Floraعن هبوطه إلى الجحيم وصعوده إلى السياء. وجملة القول أنه قد وجدت مئات من هذه الروّى والقصص ؛ وأمام هذا الحشد الكبير من الأوصاف المروعة نرى أنه لم يكن دانتي بحاجة إلى أن يتخطى الحواجز اللغوية إلى الآداب الإسلامية لكى يجد فها نماذج لوصف الجمر . ولقد فعل دانتي ما يفعله كل فنان فمزج ما لديه من مادة وبدل فوضاها نظاماً ، ووضعها فوق النار بعد أن أضاف إلها خياله القوى وإخلاصه الملتهب . ولقد أخذ عناصر وصفه أنى وجدها ــ من تومس ، ومن شعراء الفروسية الغزلين ، ومن مواعظ بطرس دميان النارية وما ورد فها من وصف لعذاب ألجحم ، ومن تفكيره الطويل في بياتريس في حياتها وبعد موتها ، ومن صراعه مع السياسيين والبابوات ، ومن العلوم القليلة التي اعترضت طريقه ؛ ومن اللاهوت المسيحي وما ورد فيه عن سقوط آدم ، وعن التجسد ، والحطيثة ، والغفران ، ويوم الحساب ؛ ومن الفكرة الأفلوطينية - الأوغسطينية عن مدارج صعود الروح حتى تتحد مع الله . ومن توكيد تومس أن الروى الطوباوية هي الهدف الأخبر الذي يغتبط به الأبرار ؛ من هذا كله صاغ القصيدة التي وجدت فيها روح العصور الوسطى وما يحيط بها من رعب ، وأمل ، واغتراب صوتاً ، ورمزاً ، وصورة تعبر نها وتصورها .

٢ - الجحيم

وجلت نفسى وأنا في منتصف طربق حياتنا في غابة مظلمة كانت الجادة
 فها غير واضحة ومفقودة ١٩٤٤، وبينهاكان دانتي يجول في هذه الظلمة إذ النقي

بشرچيل و أستاذى ومرشدى الذى أخذت عنه وحده الأصلوب الجميل الذى بشرقت به ((الله) . ويخره فرجيل أن السيل السليمة الوحيدة للخروج من الهفاية هى اجتياز الجمحم المطهر ؛ فإذا ما صحبه دانتى قيهما فسيقوده إلى أبواب الفردوس ، و حيث يتولى إرشادك من هو أجدر من وأكرم ، . أبواب الفردوس ، و حيث يتولى إرشادك من هو أجدر من وأكرم ، . ويضيف إلى المشاعر بأمر بياتريس . ويمران خلال فتحة في سطح الأرض إلى أبواب الجحيم ، نقشت عليها هذه الألفاظ المريرة : و من خلالي يدخل الإنسان المدينة المحزنة ؛ ومن خلالي يدخل الإنسان الآلام السرمدية ؛ ومن خلالي يدخل الإنسان بين الأجناس المضالة . لقد حركت العدالة خالتي الأعلى ؛ وصنعتى القرة الإلهة هي والحكمة العليا والحب الأزلى . ولم يخلق قبلي سوى الأشياء الأزلية ، وأنا باقية العليا والحب الأزلى . ولم يخلق قبلي سوى الأشياء الأزلية ، وأنا باقية أبد الدهر ؛ فتخلوا عن كل آمالكم يا من تدخلون هذه الدار! » .

والجحم فتحة تحت الأرض تمتد إلى مركزها . ويصورها داني بجال قوى يكاد يبلغ الغاية في الاكتئاب : فهى هاوية سميقة مظلمة مرعبة ، بين صخور ضخمة قائمة ؛ تتصاعد من منافذها الأبخرة والروائح الكربهة ، وتجماحها السيول الجارفة ، وبها بحبرات وبجار ؛ وعواصف من المطر ، والله ، والله و ؛ ومشاعل من لهب ؛ وتزجر فها الرياح والزمهرير الذى يحمد الدم والحسد ؛ وبها أجسام معلبة ، ووجوه كالحة مقطبة ؛ ويشقها صراخ وأنين يقف لهما الدم في العروق . وفي أهل مكان في هله الفتحة الجهنمية يقيم من لم يكونوا أخياراً أو أشراراً ، ومن وقفوا على الحياد بين الحمير والشر . أو نشك يماقبون بآلام حسيسة ، تلسمهم الزناير ، ويأكلهم الدود ، ويحرق قلوبهم الحسد والندم ، وهولاء يزدرجم داني الذي لم يقف على الحياد في يوم من الأيام :

و الرحمة والعدالة تز دريالهم ، و نحن لانتحدث عليم ، بل نائي نظرة عليهم
 و غر جم ، . و يصل الجائلان إلى لهر أكرون Acheron في باطن الأرض ،

ويعبره بها كارون Charon الذي يعمل في ذلك المكان من أيام هومر . فإذا صراه وجد دانتي نفسه في المحيط الخارجي للجحيم حيث يقيم الصالحون الذين لم يعملوا ، ومنهم ڤرچيل وجميع الصالحين من عبدة الأوثان ، وجميع المهود الصالحين إلا عدداً قليلا من أبطال العهد القديم الذين أطلقهم المسبع حَن زار هذا المحيط الحارجي ورفعهم إلى السهاء . وكل ما يعلب به هؤلاء هو رغبتهم الأبدية في مصير خير من مصيرهم ، وعلمهم بأنهم لن ينالوا هذا المصر . وفي هذا الموضع من الجمعم شعراء وثنيون يعظمهم كل المقيمين فیه ـــ هومر ؛ وهوراس ، وأوقد ، ولو كان ؛ وهؤلاء يرحبون بڤرچيل ويحلون دانتي المكان السادس بينهم ، ثم يقول دانتي : وأنظر إلى أعلى و فأرى سيد العارفين يجلس بين أسرة الفلاسفة ، أى أرسطو يحيط به سقراط، وأفلاطون ، ودمقريطس ، وديچين، وهرقليطس وأنكسغوراس، وأنبادقليس ، وطاليس ، وزينون ، وشيشرون ، وسنكا : وإقليدس ، وبطليموس ، وأبقراط ، وجالينوس ، وابن سينا ، وابن رشد ؛ الذي ألف الشرح العظيم ٤(٤٨) . وما من شك في أنه لوكان دانثي مطلق الحرية في رأيه لوضع في الجنة هذه الفئة النبيلة كلها ، ومن بينها فلاسفة المسلمين الخالفين له في الدين .

ثم يقوده قرچيل إلى الدائرة الثانية ، حيث تتقاذف الرياح الماتية اللمين ارتكبوا خطايا جسدية شهوانية لا يستريحون منها أبداً . وهنا يشاهد دانتي پاريس ، وهيلين ، وديدو ، وسمبراميس ، وكليوبطرة ، وترستان ، وپاولو ، وفر آنسسكا ، وقصة فر آنسسكا كما يروتها دانتي تتلخص في أن فر انسسكا داپولتنا الجميلة أريد لها أن تتزوج چيانسيتو مالانستا التشخص في أن فر انسكا داپولتنا الجميلة أريد لها أن تتزوج چيانسيتو نزاع قام بين أسرة پولتنا سادة رافنا ، وأسرة مالانسنا سادة ريميني . هذا هو الجزء المؤكد في القصة ، أما بقيتها فغير مؤكدة . فهناك رواية يقيلها الكثيرون تقول إن پاولو Paolo الوسم أخا جيان سيتو يدعي يقيلها الكثيرون تقول إن پاولو Paolo الوسم أخا جيان سيتو يدعي

أنه هو الخطيب، وأن فرانسكا تعاهده على أن تتزوج به ، ولكما تجد فى يوم العرس أنها تزف على الرغم منها للى چيان سيتو . ثم لا يمضى إلا القلبل من الوقت حى تستمتم بحب ياولو ؛ ويقبض عليها چيان سيتو ويقطها فى تلك اللحظة (حوالى ١٣٦٥) . وتُمتّص فرانسكا دار يمينى قصتها وهى تتأرجع فى الريح خيالا بلا جسد إلى جانب روح حبيها غير الحجمد :

إن أشد ما يمزن الإنسان أن يذكر أيام المناءة حن يقترب مند الشقاء .. كنا في يوم من الآيام تتسلى بقراءة لانسلت ، وكيف استبد به الهوى . وكتا في تلك الساحة وحدنا ولا يوجد بالقرب منا ما نرتاب فيه . وكثمراً ما كانت أحينا تتبادل النظرات في أثناء هذه القراءة ، وذهب اللون من خدودنا وتبدلت صوربا . ثم وقعت أحيننا على نقطة في الكتاب واصدة ، وذلك حن وصلنا إلى تلك القبلة المشهاة التي طبعها في هيامه ونشوته لمني برح به الوجد . وفي تلك اللحظة طبع وهو يرتبض قبلة على وكانبه كلاهما في الكتاب شقتي ، طبعها ذلك الحب الذي لن يفارقي قط . لقد كان الكتاب وكانبه كلاهما مموثين من عند الحب . ولم نقرأ شيئاً في صفه بعد ذلك اليومه (١٤)

ويتملك الأسى دانتي حين يسمع هذه القصة فيضى عليه ، ثم يفيق فيجاد نفسه في الدائرة الثالثة من الجلحم ، حيث يستقر من كان ذنهم النهم في هأة عمت عاصفة دائمة من الثلج ، والبرد، والمياه القذرة، وحيث ينبح في وجوههم صربروس Cerberus و يمزقهم إرباً بأنيابه الثلاثية. ثم يبط فرجيل ودائم إلى الدائرة الرابعة ، حيث يقم افلوطس Plutus ، وهنا يلتني المبلدون والبخلاء ويقتلون، ويلتي بعضهم على بعض أثقالا ضخمة في حرب سيسفية Sisyphean (°)

^() نسبة إلى سيمفس ملك كورنئية النوسكم عليه أن يوفع إلى أهل تل حجراً نسخماً ، وكالم رفع الحجر إلى أعلى التل تدحرج إلى أسله ، وجنا أصبح عمله هذا أبدياً لا يتقطع وهذا هو المفنى القصود بهذا التمثط في التن . (المترجع)

ويسر الشاعران بإزاء نهر استيكس Styx المظلم الذي يغلي ماؤه ، حتى يصلا إلى الدائرة الخامسة ، حيث يقم من كان ذنهم الغضب ملطخين بالأقذار ، يضربون أنفسهم ويمزقون أجسادهم . والذين كان ذنهم الكسل والتراخي يغمرون في ماء البحيرة الأستيجية Stygian الآسن ، وتعلو سطحها الطيني فقاعات من زفر هم . وينقل فلجياس Phiegyas الحائلين على سطح البحيرة حتى يصلا في الدائرة الثالثة إلى مدينة ديس Dis ، أوالشيطان Lucifer حيث يشوى الملحدون في قبور ملتهبة ، ثم يهبطان إلى الدائرة السابعة وهناك يريان من ارتكبوا جرائم العنف تحت رياسة المنوتور Minotaur ° يكادون على الدوام يغرقون في نهر من الدماء مضطرب صاخب ، ويرمهم الةنطورون(**) بالسهام كلما علت رءوسهم فوق ماء النهر . ويريان في قسم من هذه الدائرة المنتحرين ومنهم يعرودل فني Piero delle Vigne ، وفي قسم آخر يريان من ارتكبوا جرائم العنف ضد الله ، أو الطبيعة ، أو الفن يقفون حفاة فوق رمال حامية ، وتسقط على رءوسهم كسف من النار . وبلتى دانتي بنن السدوميين بمعلمه القديم برونتو لاتيني ــ وهو لايليق بشخص كان هاديا لدانتي وصديقاً له وفيلسوقاً .

وتظهر عند طرف الدائرة الثامنة هولة مروعة تحمل الشاعرين يشاهدان طائفة عجيبة من الآلام السرمدية يعذب مها من يغوون النساء ، والمتملقون والمتجرون بالوظائف الدينية . وهؤلاء المتجرون يعلقون من أرجلهم في حفر لا تظهر منها إلا سيقائهم ، ويلحس اللهب أقدامهم تدليلا لهم . ومن بن هؤلاء المتجرين البابا نقولاس الثالث (۱۲۷۷ – ۱۲۸۰) ؛ ويند دانتي أشد التنديد بسيُّ أعمال هذا البابا وغيره

⁽ه) مخلوق خراؤ له رأس ثور وجم إنسان . (المترجم) (هه) الغنطور أو السئار مخلوق وهمي نصفه إنسان والنصف الآخر فرس . (المترجم)

من البابوات ؛ ويصور نقولاس هذا صورة فذة جريتة فيقول إن البابا بحسب أن دانثي هو ينيفاس الثامن (المتوفى عام ١٣٠٣) وأن قدومه إلى الجمحم متوقع في أية لحظة من اللحظات(٤٨) . ويتنبأ نقولاس بأن كلمنت الرابع (المتوفى عام ١٣١٤) سينضم إليهم بعد زمن قليل . وفى الحور الرابع من الدائرة الثامنة يقيم من يدعون معرفة الغيب ، ورموس أولئك الأةوام مثبتة فى أعناقهم ومتجهة نحو ظهورهم . ويطل الشاعران من جسر وماليبلج Maleboige = فوق الحور الرابع فبريان من تحتمها مختلسي الأموال العامة يسبحون إلى أبد الدهر في في بحرةً من القار في درجة الغليان . أما المنافقون فلا يتقطع مرورهم حول اللَّور السادس في أردية من الرصاص مطلية بالنَّاهب. ويشاهد في الممر الوحيد الذي يخترق هذا الخور قيافي مصلوباً و لمنى على الأرض بحيث لا يستطيع أحد اجتياز الطريق إلا إذا وطئ جسده . وفى الحور الرابع يعذب اللصوص بأفاع سامة ؛ وهنا يتعرف دانتي على عدد من الفلورنسيين ، ويشاهد من عقد قائم فوق الحور الثامن لهيبًا يحرق جلود مشيرى السوء ، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليلوقوا العذاب ؛ ويرى من بن هوالاء أديسيوس المخادع . وفى الحور التاسع يستقر النمامون والعاملون على الانشقاق تنتزع أطرافهم طرفاً بعد طرف .

وفى الحور العاشر من الدائرة الثامنة يرقد المزورون، المزيفون، والكيميائيون الكاذبون ، يثنون من أوجاع مختلفة ، وتملأ الهواء من حولهم رائحة كرمة هى رائحة العرق والصديد ، وأنين المعذبين يملأ الهواء بأصوات كقصف الرعد .

وينتهى مطاف الشاهرين بالداترة التاسعة وهى الدرك الأسفل من الجحم ، ومن عجب أن توصف بأنها هوة واسعة من الجليد ؛ وفها يدفق الحفونة فى الجليد إلى أذقانهم ، وتتجمده موع الألم فتصبح قناعاً متبلوراً فوقيوجوههم. ومن بين هولاء يرى كونت أجولينو دلا غرار دسكا Ruggier كبير الأساقفة ، الذى اللذي خان بيزاً مشلوداً أبد الله هر إلى رجيرى Ruggieri كبير الأساقفة ، الذى سجنه هو وأبناءه وأحفاده وتركهم كلهم يموتون جوعاً. والآن يستند رأس أجولينو على رأس كبير الأساقفة ، ويظل رجيري إلى الأبد يمضع رأس أجولينو . وفي مركز الأرض أي في قاع فتحة الجحيم الآخذة في الضيق يرقد الشيطان (لوسفر) الجبار مدفوناً في الجليد إلى وسطه يرفرف يجناحين ضخمين مثبتين في كتفيه ، ويلرف من وجوهه الثلاثة التي تقسم رأسه دموعاً من اللام المتجمد من شدة الزمهرير ، ويمضغ في كل فلك من فكوكه الثلاثة أحد هؤلاء الخونة : بروتس ، وكاسيوس ، وجوذا Judas .

وقصارى القول أن نصف الأهوال التى كانت تزعج الأنفس فى العصور الوسطى قد جمعت فى هذه القصة النموية . وكلا أمعن الإنسان فى قراء صفها الرهبية ازداد رعباً على رعب حتى تطنى عليه نتيجة هذا الرعب آخر الأمر فلا يعود يعليقها . وإن ذنوب الإنسان وجرائمه فى هذا العالم وفى جميع عوالم الكون وسلامه لأقل من غضب الإله وانتقامه بالصور التى يتخيلها الشاعر . وإن فكرة دانتي عن الجحيم لهى منهى ما وصل إليه لاهوت المصور الوسطى من فظامة . لقد كان اليونان القداى يصورون جحيا المصور الوسطى من فظامة . لقد كان اليونان القداى يصورون جحيا مكاناً مظلماً تحت الأرض لا يمكن تميز شيء فيه ، ولكنهم لم يصوروا هذه الجمعيم بأنها مكان للتعذيب ؛ وكان لا بد من أن ثمر قرون طوال من الهمينة ، والاضطراب ، والحرب قيسل أن يتقول الإنسان على من المعمن :

ويخفف من روعنا أن نعلم أن دانتي وقزيجيل قد مرا من خلال مركز الأرض،وأنهماقليا اتجاهرأسيهما وأقدامهما،وأنهما يتحركان إلى أعلى نحوالجمهة المقابلة لبلادنا من الأرض: ويجتاز الشاعران قطر الأرضكله في سرعة الأحلام الى نهزأ بمر الزمان ، ويخرجان إلى النصف الجنوبي مها في صباح يوم عيد الفصح ، ويشربان فيوضح النهار ،ويقفان عند أسفل الجبل المدرجوهوالمطهر.

٣ - المطهر

إذا قيست فكرة المطهر بفكرة الجحم بدت فكرة رحيمة ؛ ذلك أن في مقدور الإتسان بجهده وألمه ، وأمله ورؤياه ، أن يطهر نفسه من الذنوب والأثرة ، ويرقى خطوة خطوة , في مدارج الإدراك ، والحب ، والنعم . والمطهر ، كما يصوره داني ، مخروط جبلي مقسم إلى سبع طبقات : ما قبل المطهر وهو سبعة أسطح ــ واحد للتطهير من الذنوب المميتة ــ وفي أعلاه يقوم الفردوس الأرضى . وينتقل المذنب من كل طبقة إلى التي تلما وتقل آلامه كلم انتقل إلى طبقة أعلى من التي كان فها ، وفي أثناء هذا الانتقال بنشد ملك إحدى التطويبات . وتوجد في المراحل السفلي من المطهر سبع عقوبات للذنوب التي اعترف بها وغفرت ، ولكنها لم يكفر عنها بما يكفي من العقاب . بيد أن هناك فارقاً عظيها بين المطهر والجحيم من هذه الناحية ؛ في الجحيم يعرف الإنسان هذه الحقيقة المريرة وهي أن العذاب سرمدي ، ما المطهر ففيه تلك الحقيقة التي تبعث القوة في النفس وهي أن السعادة سرمدية ستعقب العقاب الذي له أجل ينشى عنده . ويسرى في هذه لقطوعات مزاج أرق وضياء أبهى مما يسرى فىالمقطوعات السابقة ، وتكشف ن دانتي يتعلم الرأفة من ڤرچيل مرشده الوثني . ويغسل ڤرچيل بالدهن الندى ما غطَّى وجه دانتي من عرق الجحيم وأقذارها . وتتلألأ في ضوء شمس المشرقة مياه البحر الذي يحيط بالجبل حنن تهتز النفس التي كدرتها . أنوب طرباً وهي تستقبل الرحمة الإلهية . وهنا في الطبقة الأولى يلتني دانتي كاتو اليوتكي Cato of Utica ، الرواقي الصارم العنيد ، الذي آثر أن يقتل سه على أن يتلتَّى عذاب رحمة قيصر . وقد وضعه دانتي في هذه الطبقة تحقيقاً

لأمل تومس أكوناس في أن ينجو بعض عبدة الأوثان من الهلاك. وفي هذه الطبقة نفسها يقيم مانفرد بن فردريك الذي قاتل بابا من البابوات ولكنه أحب الشعر ، ويسرع ثمرجيل بدانتي وهو يتلوعليه تلك الأبيات التي تجرى على كثير من ألسنة الناس .

د دع الناس يتكلموا ، وقف أنت كالرج المتن الذى لا تهز قمته وإن هبت عليه كل الرياح ٤ (٥٠) . وليس المطهر بالمكان الذى يوام فرچيل ، فهو لا يستطيع أن يجيب عن أسئلة داتي بالسرعة التي تعود أن يجيب ما ضن أسئلته في الجحم . وهو يحس بتقس ذكائه ، ويظهر أحياناً حنيناً يولمه ، غير أن ألمه هذا بزول حن يلتي الشاعران بسردلو . Sordello . ويحتضن الشاعران ابنا مانتو أحدها الآخر ، يولف بن قلسهما للبلدة التي قضيا فها عهد الشباب . وفي هذه اللحظة ينطلق لسان داني مهذا الخطاب المؤلم بهوجهه إلى بلده ، ويلخص فيه مقاله عن الحاجة إلى المحكومة الملكية :

أى إيطاليا المستعبدة ! يا موطن الأحزان ! ياسفينة بغير دليل فى مهب الماصفة الهوجاء ! يا صيدة انترعت منها ولاياتها الجميسلة ، ولم تعد إلا ماخوراً دنساً ! إن هذا الروح الرقيق قد حفزه الصوت الجميل الصادر من بلده العزيز أن يحيى رجلا من أهل وطنه مرحباً به مبتهجاً بلقائه . من الغل والحقد منهم لحم أخيه من الغل والحقد ، نم ما أشد الفهغن الذي يملاً قلوب من يحيط جم جدار واحد وخندق واحد . ألا أبها البائس الحزين طف بشواطئ عارك ، ثم عد إلى نفسك فاسألها هل يستمتع جزء منك بالسلم الحلوة ؟ وماذا يفيلك إذا كان جستنيان قد [أحيا القادن الروماني] من أجلك ، وهل يفعلك إذا كان جستنيان قد [أحيا القادن الروماني] من أجلك ، وهل يشعب طيكم أن تطلوا مخاصين أوفياً . أجلسوا قيصر في السرج إذا شكم أن تستجيبوا الأمر القد(٥٠) ! ه

وكأنما أو اد دانى أن يظهر شوقه إلى الملوك الذين يستطيعون القبض على الأعنة الثابتة ، فيصف لنا كيف يقوده سردلو هو وزميله إلى واد مشمس جميل عند سفح جبل المطهر منثورة عليه الأزهار ، ويفوح منه شذى عطرها الذكى ، ويقيم فيه الإسراطور رودلف ، وأتوكار Ottokar ، ملك بوهيميا ، ويطرس الثالث ملك أرغونة ، وهنرى الثانى ملك إنجائرا ، وفليب الثالث ملك فرنسا .

وتقود لوشيا (التي ترمز إلى ضوء رحمة الله) دانتي وڤرچيل ، ويدخلهما أحد الملائكة إلى الشرفة الأولى من شرقات المطهر . وهنا يعاقب المتكبرون بأن يحمل كل منهم فوق ظهره المقوس حجراً ضخماً ، وترى على الجدار والطوار نقوش بارزة تصور أعمال التواضع الذائعة الصيت وما للكبرياء من نتائج رهيبة . وفي الشرفة الثانية يرى الحاسدون في أثواب من الحيش الغليظ ، تخاط عيونهم باستمرار بخيوط من حديد ؛ وعلى السطح الثالث يستقر الغضب ، وعلى الرابع الكسل ، وعلى الخامس البخل ، ويلقى كل واحد منهم ما يستحقه من العقاب. ويرى على هذا السطح الأخر البابا هدريان الحامس ، الذي كان في وقت ما حريصاً على الثروة ، يكفر عن ذنبه وهو هادئ هدوء الواثق من النجاة في آخر الأمر . وفي إحدى الحوادث الباهرة التي تضيء ختام قصة المطهر يظهر الشاعر الروماني استاتيوس Statius ويحيى الشاعرين الجائلين ويظهر من السرور بلقائهما ما يندر أن يظهره شاعر يلتني بشاعر آخر على ظهر الأرض. ويصعد الشعراء الثلاثة جميعاً إلى السطح السادس حيث يطهر الهدون من نهمهم . وهناك تهتز الفاكهة الذكية الرائحة على الأشجار أمام أو لئك النادمين ، فإذا امتدت أيدمهم إلمها لتقطفها استرجعت الأشجار فاكهتها ؛ وتسمع أصوات في الهواء تردد مافي التَّاريخ من أعمال القناعة . وعلى السطح السابع والآخير بستةر الذين كانجرمهم أنهم لم يستعنفوا ، ولكنهم اعترفوا بذنهم قبل الموت ، وهؤلاء يمسهم اللهب مساً خفيفاً إطهرهم من ذنهم. وهكذا يظهر دانتي أنه وطف عطف الشعراء على

T نام الحسد ، وخاصة إذا ارتكها ذوو المزاج الفي ممن هم لهذا السبب رقيقو الإحساس ، واسعو الحيال ، مندفعون في أعملكم . ومن بين هؤلاء جيدو جويترلى Guido Guinuzelli ؛ الذي يحبه دانتي ويسميه أباه في الأدب، ويشكر له و الأغاني الحلوة ، التي ستوحى إلينا ما يقيت لفتنا بأن نحب المداد الذي خطت به (٥٠).

ويقودهما أحد الملائكة خلال نار في صعودهما الأخير إلى جنة الأرض ، وهنا يودع ڤرچيل صاحبه بقوله :

و إن علمي لا يصل إلى أبعد من هذا ، لقد سرت بك بحدق وفي إلى هذا الحد ، فاتخذ الآن مسرتك دليلا لك . . . انظر ! تر الشمس التي تسطع أشعتها على جهتك ؛ انظر ! تر الأعشاب والشجرات والأزهار التي تفرجها هذه الأرض موفورة من تلقاء نفسها . وإلى أن تأثيك هاتان العينان الوضاءتان [عينا بياتريس] تشع منهما الهجة ، وهما اللتان جعلتاني بيكائهما أسرع إلى معونتك ـ أقول إلى أن تأثيك هاتان العينان فأتت عفير بين الجلوس هنا أو التجوال حيث تشاء . ولا تنتظر أن تسمع مي بعد الآن صوتاً أو إلهارة تحلوك . وإذ كنت الآن حراً تختار لنفسك ما تشاء ، حصيفاً ، حكياً . . . فإني أخلع عليك التاج والهامة وأجعاك سيد نفسك ه (٢٩٥) .

ويجوس الآن دانتي خلال الغابات والحقول ، وعلى ضفاف الأنهار فى جنة الأرض ومن ورائه ــ لا من أماه ــ ثرجيل واستاتيوس ، يستنشق هواءها التي ذا الرائحة الذكية ، ويستمع من خلال الأشجار شدو الطيور تغنى القسم الأول من النشيد الكهنوتي . وتمتنع سيدة تجمع الأزهار عن الغناء لتشرح لم خلت هذه الأرض الجميلة من الناس ، فتقول إنها كانت فها مضى جنة عدن ، ولكن الإنسان عصى ربه ، فأخرج هو وذريته من مباهجها المريئة . وتنزل بياتريس من الساء إلى هذه الجنة المفقودة يجيط بها لألاء يذهب سناه بالأبصار ،

فلا يستطيع دانتي أن يراها بعينه ، بل كل ما يقدر عليه أن يحس بوجودها : د ومع أن عيني لم ترباها فقد سرت منها قوة فضلى خفية لم أكد أمسها حتى استبدت في قوة الحب القدم (١٥٥) .

ويلتفت ليحدث الشاعر الذي يرشده ، ولكن قرچيل كان قد عاد الله المخيط الخارجي للجحيم وهو الموضع الذي جاء به منه استحابة لنداء بياتريس . ويبكى دانتي ولكن بياتريس تأمره أن يندب بدل البكاء شهوانه التي دنس با بعد موتها صورتها التي في قلبه . وتوكد له أن أن الك الغابة المظلمة التي أغته منها على يد قرچيل لم تكن إلا حياة اللهارة التي ضل فها في منتصف عمره وأظلم أمامه بسبها الصراط المستقم . ويقع دانتي على الأرض من فرط الحجل ، ويقر بلنوبه ، فتقبل علماري سماويات ويشفعن له عند بياتريس التي أساء إلها بغمله ، ويرجونها أن تكشف له عن جملها الناني الروحي . وليس هسدنا لأن بياتريس قد نسيت جملها الأول :

د فأنت لم تر ف حياتك ، لا فى الفن ولا فى الطبيعة شيئاً بيلسغ من الحلاوة ما بلغته تلك الأعضاء التي كانت تلفى داخل إطارها الجميل ، والتي تناثرت الآن هباء ه⁽⁰⁰⁾ x

ويرق قلمها ، وتكشف له عن جملها السياوى الجديد ، ولكن المملارى محذرن دانتي من النظر إليها مباشرة ، ويطلن إليه أن بكتن بالنظر إلى قدمها وتقوده بياتريس هو واستاتيوس (اللّذي أتم أجله في المطهر بعد أن قضى فيه التي عشر قرناً) إلى نبع يخرج منه بهران أحدما ليثي Lethe النسيان) والآخر يونوثى Euni € (النمهم الصالح) . ويشرب دانتي من يونوثى فيتطهر ، وتتجدد حياته ، وه يصلح للصعود إلى النجوم و (٢٠٠٠).

وليس صحيحاً أن وصف الجحيم هووحده الجزء الطريف الممتع في الملهاة (٢٧ -ج ١ - مجلد ؛) المقدسة . نعم إن وصف الطهر كثيراً من الفقرات التعليمية المجدية ، وإن فيه على الدوام قدراً كبيراً من اللاهوت الذى لا حاجة القصيدة به ، ولكنها وقد خلت في هذا الفشيد من رهبة التعذيب ترق في مدارج الجال والحنان خطوة بعد خطوة ، وتغمر هـ أما الرق بجو من جمال الطبيعة الذى عاد إليها من جديد فأكسبها بهجة وطلاوة ، وبذلك تتأهب القصيدة لأن تضطلع بشجاعة بذلك الواجب العظم واجب إحاطة بياتريس المجردة من الجسد بالجال الروحاني ، وبفضلها يدخل داني الحنة مرة أخرى ، كما دخلها أيام شيايه .

٤ - السموات

لقد كان تفقه دانى فى علوم اللدين مما زاد عمله مشقة ، فلو أنه أجاز لنفسه أن يصور الجنة فى صورة حليقة مليئة بالمباهج الجسمية كما هى مليئة بالمباهج الروحية ، لوجلت فطرته بجالا واسعاً لهذا التصوير . ولكن كمين يستطيع العقل البشرى وهو ه المركب المادى ، أن يتصور جنة منمه روحى خالص ؟ يضاف إلى هذا أن تشأة دانى الفلسفية كانت تمنه أن يصور القد أو ملائكة الجنة وقليسها بصور بجسدة ، بل كان تنهم مرماً كأنهم صور ونقط من النور ، وكان تصويرهم بهده الصورة تنبعه تجريدات تضيع فى الفراغ النوراني حياة الجسد الملنب وحرارته . غير أن المقيدة الكانوليكية كانت تعمرف بيعث الجسم بعد المرت ، ولهنا نان دانى وهو يحاول أن يكون روحانياً بخلع على بعض سكان الجنة ملامح جسدية وينطقهم بكلام بشرى ، ومحا يسر له الإنسان أن يقرأ أن لبليتريس ، وهى فى الجنة ، قلمين جيلتين .

ولقد تقدَّد الصورة التي صور جا الجنةفي خياله تنفيذًا متناسقا يدعو إلى الدهشة ، ونفذها بخيال رائع ، وتفاصيل دقيقة و اضحة . واسترشد بفكك بطليموس فصور الساءكم أساسلسلة من تسمكر ات مجوفة مطردة الاتساع تدور حول الأرض ، و هذه الكرات هي د المساكن الكثيرة التي فيها د بيت الأب ، . وقد ثبت في كل كرة كوكب وعدد كبير من النجوم ، كما تثبت الجواهر في التاج . وكلما ثمر كتحده الأجرام السهاوية ، وقد وهبت كلهاذكاء ربانيا متفاوت اللوجات ، أخذت تعنى بهجة معادتها وتسبح بحمد خالقها ، وتغمر السهاوات بموسيق تلك الكرات . وبقول دانتي إن النجوم هي أولياء السموات الصالحون ، وأرواح المناجين ، ويختلف ارتفاعها عن الأرض باختلاف ماكسبت من عمل صالح في حياتها على ظهر الأرض ، وبقدر هذا الارتفاع تكون سعادتها ، ويكون قربا من أعلى السموات التي يقوم عليها عرش الله .

وكأن النور الذى تشعه بياتريس قد جلب دائى فارتفع من جنة الأرض إلى الدائرة الأولى من دوائر السهاوات وهى دائرة القمر ؛ وفها تستقر أرواح الذين اضطروا لغير ذنب ارتكبوه إلى الحنث بأيمام الدينية ، ومن هؤلاء شخص يدعى بكاردا دونانى Piccarda Donati . ويقول لدائلى إمم فى أسفل دائرة من دوائر السموات ، وإنهم يستمتعون بقدر من النعم أقل مما تستمتع به الأرواح التى فوقهم ؛ وقد أنجهم الحكمة الإلهية من كل حسد ، وشوق ، وتذمر ؛ ذلك بأن جوهر السعادة هو الخضوع لإرادة الله خضوعاً مقروناً بالفيطة والسرور ، لأن «فى إرادته راحنا (٥٢٠). وهذا هو بيت القصيد فى المهافة المقدرة .

ويرقى دانتى مع بياتريس إلى السهاء الثانية منجذباً إلها بقوة معتطيسية سمار: تجدب كل شيء إلى الله . وهذه السهاء الثانية هي التي يسبطر علمها الكوكب عطارد . وفها يقيم الذين كانوا يقومون وهم على الأرض بنشاط عملي يبتغون به الحسر ، ولكنهم كانوا أكثر إلهماكا في الشرف الدنيوى منهم في خدمة الله . ويظهر من بن هولاء چستيان ، يصوغ في عبارات ملكية الوظائف التاريخية للإمراطورية الرومانية والشريمة الرومانية . وعن طريقه يوجه دانتي ضربة أخرى يبغي مها قيام عالم واحد ، خاضع لشريعة واحدة ، وملك واحد . ثم تقود بياتريس الشاعر إلى السهاء الثالثة ، وهي داترة الزهرة حيث يتنبأ فلك Folque الشاعر البروقنسالى بمأساة بنيفاس الثامن . وفي السهاء الرابعة وهي دائرة الشمس يشاهد دانتي الفلاسفة المسيحين يوثيثيوس ، وإزدور الأشبيلى ، وبيد Bede ، وبطرس لمبارد ، وجراتيان ، وألبرتس يجنس ، وتومس أكوناس ، وبونا فتتورا ، وسيجرده برابانت . ويتبادل كل من تومس الدمنيكي ، وبونا فتتورا الفرنسيسي حديثهما ، فيقص تومس على دانتي حياة القديس فرانسس ، كما يقص عليه بونا فتتورا قصة القديس دمنيك . وإذ كان تومس على الدوام رجلا واسع العقل إلى حدما فإنه يقحم في قصته أقوالا عن موضوعات دينية دقيقة ؛ وتشتد رغبة دانتي في أن يكون فيلسوفاً فيمتنع في عدة أغان عن أن يكون شاعراً .

وتقوده بياتريس إلى الساء الخامسة ، سماء المريخ ، حيث تقم أرواح المحاربات الذين قتلوا وهم يحاربون لنصرة الدين الحق ــ يوشع ، ومهوذا مكابيوس ، وشارلمان ، وحتى ربرت جوسكاد Robert Guiscard الذي خرب رومة . وينتظم هوالاء على شكل صليب متلالئ عليه المسيح محابيرب ، ويشترك كل نجم من النجوم في هذا الرمز المضيء في إيقاع موسيق معموى . ويصعد الشاعر وبياتريس إلى الساء الحامسة سماء المشترى فيجد فيها دائري من كانوا وهم على ظهر الأرض يوزعون الممالة بالقسطاس المسقم ؛ فقها داود ، وحزقبال ، وقسطنطن ، وتراجان ــ وهاهو دائري آخر يقتحم الساء . وتنظم هذه النجوم الحية في صورة نسر ، وتتكلم بصوت واحد ، وتُحدث دائبي في علوم الدين ، وتردد الثناء على الملوك العلول . ويصعد الشاعر وقائدته إلى ما تسميه بياتريس تسمية بجازية « سلم للعصر الخالد ، فيصلان إلى الساء السابعة سماء المهجة ، سماء زحل وحاشيته من النجوم . ويزداد جال بياتريس سهاء كلا علت في السموات ، كان كل دائرة تعلو إلها تزيدها بهية وجلالا ؛ وهي لا تجرو على

الابتسام لحبيبها لنلا يحترق ويستحيل رماداً بقوة إشماعها . وهذه السهاء هي دائرة الرهبان الذين عاشرا معيشة الصالحين ، وأخلصوا لأيمام ، ومن بيمم بطرس دميان ؛ ويسأله دانى كيف يوفق بين حرية الإنسان وعلم الله بانغيب ، وما يؤدى إليه هذا العلم من الإيمان بالقضاء والقدل ؟ فيجيبه بطرس بأن أكثر الأرواح استنازة في السهاء تحت عرش الله لا تستطيع الإجابة عن هذا السوال . وهنا بظهر القديس بندكت ، ويرثى للفساد اللي انحد إليه رهبانه .

ويسبح الشاعر وقتند من دوائر الكواكب إلى السهاء الثامنة ، منطقة النجوم الثوابت . ويطل إلى أسفل من كوكبة الجوزاء فيرى الأوض المتناهية في الصغر و ذات منظر حقير لم أتمالك معه تفسى من الابتسام ، ولربما كان خليناً بأن يسرى فيه وقتند إلى أمد قصير حنن إلى هذا الكوكب التعسى ، ولكن نظرة من بياتريس تنبوه أن هذه السهاء ، سماء الضوء والحب ، لامكان الذرب والنزاع . هي موطئه الحق .

وتبدأ الأغنية الثالثة والعشرون بتشبيه من التشبيهات التي يمتاز بها شعر داني:

كالطائر الذي حلس طوال الديل في عشه المظلم بين أوراق الشجر، ومعه صغاره الجديلة، يتحرق شوقاً إلى رواية نظرائها الحلوة. وإلى أن يسمى سعيه الحبيب ليأقى إليها بطعامها غير شاعر بما يلاقيه في سبيلها من مشقة ، جلست تستبق الزمن على الفصن المعلق فوق عشها ، يقظة تترقب أن تطلع الشمس فتطرد من الشرق ستار الفجر .

وتحدق بياتريس بعينها فى جهة من الجهات مترقبة ، فننشق السهاء فجاءة عن منظر رائع وضاء : وتناديه قائلة « انظر ! إلى جيش المسيح المنتصر » — أرواح جديدة كسبها الجنة . ويلتفت دانتى ولكنه لا يرى إلا ضوءاً ساطماً قوياً يذهب سناه ببصره، فلا يعرف ما يمر به . وتأمره بياتريس أن يفتح عينيه » وتقول له إنه يستطيع في ذلك الوقت أن يطيق النظر إلى جائبا كاهلا.
وتبتسم له ، ويقسم أن هذا حادث لا يمحى من ذاكرته . وتسأله :
ولم يأسرك جمال وجهىي ؟ ، وتأمره أن ينظر بدلا منه إلى المسيح ومريم
والرسل . ويحاول هو أن يتبينهم ، ولكنه لا يبصر إلا وكتائب من البهاء ،
تسقط عليها من فوقها بروق ترسلها أشمة محرقة ، ، وتصل إلى أذنيه في
تلك اللحظة موسيقي الكتائب السهاوية .

ويصعد المسبح ومريم ، ولكن الرسل يبقون خلفهما ، وتطلب بياتريس إليهم أن يتحدثوا إلى دانق ، فيسأله يطرس عن دينه ، وتسره أجويته ، ويوافقه على أن الكرسي الرسولي سيظل شاغراً أو مدنسا ما دام بنيفاس بابا(^A). إن بنيفاس لا يجد في قلب دانتي ذرة من الرحمة .

ويمنعنى الرسل فى الطباق العليا ، ويصعد دانتى أخيراً مع والتى أسكنت روحى الجنة ، إلى الساء الناسعة ، أعلى السموات جميعا . وليس فى هذه السهاء نجوم ، بل كل ما فها نور صاف ، وفها الله الروح الحالص ، المجرد من الجسد ، والذى لا علة له ، والأصل الثابت لجميع الأرواح ، والأجساد ، والأسباب ، والنور ، والحياة . ويحاول الشاعر وقتئد أن يستمتع بنور النعيم الباهر ، ولكنه لا يرى إلا نقطة من الفوء تدور حولها تسع دوائر من الذكاء الحالص – ملائكة الطبقة الأولى ، وأرواح سماوية ، وعروش ، وأملاك ، وفضائل ، وسلطات ، وإمارات ، وملائكة كبار ، وملائكة غير كبار . وعن طريق هؤلاء – وهم عمال الله ومبعوثوه – وملائكة عبر كبار . وعن طريق هؤلاء – وهم عمال الله ومبعوثوه – يمكم الحالق جل جلاله العالم . ولا يستطيع دانتي أن يرى الجوهر الإلمي ، ولكنه يرى كل كتائب السهاء تؤلف من نفسها وردة وضاءة ، هي أعجوبة من النور ال. اق والألوان المختلفة تتمدد ورقة بعد ورقة حتى تصبح من النور ال. اق والألوان المختلفة تتمدد ورقة بعد ورقة حتى تصبح خرهرة ضخمة .

وحينئذ تترك بياتريس حبيها ، وتحتل مكانها في الوردة . ويراها تجلس

على عرشها ، ويظل يرجرها أن تساعده ، فتيتسم له ، وتحدق من ذلك الوقت بعينها فى مركز جميع الأضواء ؛ ولكنها ترسل الفديس برنار ليساعده ويواسيه . ويوجه برنار دانتي نحو ملكة السياء ؛ ويتجه الشاعر نحوها ولكنه لا يرى إلا بريقاً وهاجاً يحيط به آلاف من الملائكة مسربلين بالنور . ويقول له برنار إذا شاء أن يكون له من القوة ما يستطيع به أن يشهد الروئ الساوية واضحة ، فإن عليه أن ينضم إليه فى الصلاة لأم الإله ، وتبلناً الأغنية الأخيرة بتضرع برتار ينضمه الحلو :

و أينها الأم العذراء ، با ابنة ابنك ، يا من أنت أعظم تواضعاً ورفعة من كل الحلائق ، ويتوسل إلها برنار أن تمن على دانتي بأن يقدر على رؤية ذات الحلال القدسي ، فتنحي بياتريس وينحي كثير من القديسين نحو مرم وبرفعون أيدهم مقبوضة يتوسلون إلها بالدعوات . وتلقي مرم نظرة قصرة رحيمة على دانتي ، ثم تحول حينها نحو و النور السرمدى ٤ . والآن ، كما يقول الشاعر : وتصفو نظراتي ، فيدخل فيها شيئاً فشيئاً ذلك النور الأكلى وهو الحق ٤ . ويقول إن كل ما رآه بعدلان نعجز اللغة عن وصفه ، ويعجز الحيال عن تصوره ؛ ولكن و في هذه الهرة من اللهاء المثانى ، ويعجز الخيال عن تصوره ؛ ولكن و في هذه الهرة من اللهاء المثانى ، والصافية الشاعة ، خيل إلى أنى أرى كرة ذات ثلاثة ألوان عندمة في لون واحك ع . ونختم الملحمة الشخمة ونظرات داني لا تزال مثبتة على النور واحك ع . ونختم الملحمة الشخمة ونظرات داني لا تزال مثبتة على النور المثانى ، ويجلسها ويدفعها وحب الله الذي يحرك الشمس وجميع النجوم » .

وجملة القول أن الملهاة المقرسة أعجب القصائد كلها وأصمها . فليس ممة قصيدة غيرها تضن بكنوزها إلا على من يبذلون في سبيلهاجهوداً جبارة ؛ ولغنها أكثر اللغات إيجازاً وإحكاماً بعد لغة هور اس وتاستس ، فهي تجمع في كلمة أو بضع كلمات معانى وأفكاراً دقيقة يتطلب فهمها كاملة معلومات ابقة غزيرة ، وعقلا مستيقظاً ، وذكاء ، وحتى بحوثها المملة في طوم الدين ، والنفس ، والفلك ، "تاز بدقة في اللفظ وغرارة في المادة ، لايستطيع أن يجاريها فيهما أو يستمتع بهما إلا الفيلسوف المدرسي . ذلك أن دانتي كان يميا في عصره حياة قوية عمية تكاد قصيلة بسبها أن تتحطم تحت عبء الإشارات إلى الحوادث والمعانى المعاصرة التي لا يمكن فهمها إلا إذا أضيف إلنها كثير من الشروح التي تعطل تنابع القصة .

وكان يحب أن يعلم الناس ، ولهذا أراد أن يفرغ * قصيدة واحدة ما تعلمه كله تقريباً ، وكانت النتيجة أن البيت الحي من الشعر يرقد إلى جانب السخافات المبتة ، ويضعف جمال بياتريس وفتنتها بأن ينطقها بما يحبه ويكرهه فى الشئون السياسية . وهو يقطع قصته ليصب جام غضبه على ماثة مدينة أو جماعة أو فرد ، ويغرق ملحمته أحياناً في بحر من السباب ؛ وهو متم بحب إيطاليا ؛ ولكن بولونيا مليئة بالقوادين(٥٩) ، وفلورنس هي الثمرة الحبوبة من ثمار الشيطان(٢٠٠ ، ويستونيا حظيرة للوحوش(٢١١ ، وچنوى ه استشرى فيها الفساد ه (^{۲۲)} ؛ وأما يبزا ه ألا لعنة الله على يبزا ؛ ألا ليت نهر الآرنو يسد عند مصبه ، ويغرق پنزا كلها ، بما فها من حرث ونسل ، محت مياهه الصاخبة ! ١٣٥٥ . ويظنُّ دانتي أن ١ الحُكمَة العليا ، والحب الأزلى » هما اللذان خلقا الجحم . وهو يعد بأن يزيل الجليد لحظة من الزمان عن عيني ألبر يجو Alberige إذا ما أخره هذا باسمه وقص عليه قصته . ويجيبه البريجو إلى ما طلب وبرجوه أن ينجز ما وعد ـــ ويقول و مد إلى ً يلك ، وافتح عيني ! ، – ويواصل داني حديثه قائلا : ولكنني ولمُ أفتحها له ﴾ لأن الوقاحة معه هي المجاملة بعينها ٤٢٠٠ . ألا إننا سنشجو جميعاً من العذاب إذا كان رجل ملى" قلبه بهذا الغل يستطيع أن يطوف به طائف خلال الحنة .

ومع هذا كله فإن قصيدته أعظم كتب المصور الوسطى ، ومن أعظم كتب التاريخ باجمه . ذلك بأن تجمع قوتها وغزارة مادتها تدريجاً خلال أغانها البالغ عددها مائة أغنية تجربة لايستطيع قارئ أكمل قراءتها أن ينساها ، وهي كما قال فيها كارليل Carlyle أعظم القصائد إخلاصاً ؛ فليس فيها شيء من الادعاء ، أو الملق ، أو التواضع الكاذب ، أو الحنوع ، أو الجنن ؛ بل إن أقوى رجال ذلك العصر ، ومهم البابا الذي يدعى أنه صاحب السلطان الأعلى ، مهاجمون بقوة وحرارة ليس لهما في الشعر كله مثيل . وفيها فضلا عن هذا كله خيال وثاب يسرى فيها كلها ويبعث فيها القوة ، وبغالب شيكسير لينزع منه أواء الشعر : فيها صور واضحة حية لأشياء لم يرها الأرباب أو البشر ؛ ووصف للطبيعة لا تستطيعه إلا روح يقظة فوية الملاحظة مرهفة الحس ؛ وقصص قصرة ، كقصة فرانسكا وأجلينو ، نجع المآسى العظيمة في حز صغير دون أن تقرك منها شيئاً ذا بال . نعم إن هذا الرجل خلو من الفكاهة ، ولكن فيه حُباً ظل حتى أحالته المصائب لاهوتا .

ويبلغ داتي آخر الأمر بقصيدته مرتبة السمو. نعم إننا لا يجد في ملحمته ما نجده في الإليادة من تيار الحياة الجارف أو تتابع الحوادث سراعا ، كا أننا لا نجد فيها ما في شعر فرچيل من انسياب سهل هادئ ، أو ما يمتاز به شيكسير من إدراك شامل ، وتسامح ، وغفران اللنوب ؛ ولكن فيها عظمة ، وقوة معلمة نصف همجية تستيق ميكل أنچلو وتني بقدو، ؛ ولكن فيها وإذ كان داني ممن يجبون النظام كما يجبون الحرية ، فقد قيد عواطفه وروياه فيخلغ عليهما صورة محددة ، ولهذا أخرج قصيدة ذات قوة ماثلة المأم أهيننا لمخ يصل إلى مثلها إنسان آخر من بعده . وقد ظلت إيطاليا طوال القبود ، وتلقي يتر ارك و يوكاشيو ومائة غيرهما من الأدياء الإلهام من وقائمه وقته ، وردت أوربا كلها أصداء قصة المنفي الفخور الذي سار إلى الجحيم ثم عاد مها ولم يبتسم قط بعد عودته .

انحے ہے۔ تراث العصور الوسطی

إن من الحر أن تختم بدانتي قصتنا الطويلة المتشعبة ، فقد ظهر في القرن اللَّى توفُّ فيه أولئك الرجال الذين شرعوا بعدئذ في عظيم الصرح العظم صرح الإيمان والأمل الذي عاش فيه : فن هؤلاء ويكلف Wyclif ، وهوس Huss اللذان مهدا السبيل للإصلاح الديني ؛ وچيتو Giotto وكريسلاراس Chrysolaras ، ويترارك ، وبوكاشيوالذين بشروا بالهضة ، وقد يبقى إلى زمن طويل خلال تاريخ الإنسان ــ ذى العدد الكبر والطبائع المختلفة – مزاج من نوع ما في نفوس وأماكن أخرى . فني أوربا مثلا وصل عصر الإيمان إلى عنفوان عبده ، في دانتي ، ثم أصابته طعنة نجلاء من يد أكام Occam في القبرن الرابع عشر ؛ ولكنه ظل يغالب المرض والضعف حتى أقبل برونو Bruno ، وجلليو وديكارت ، واسينوزا ، ويبكن ، وهُنز Hobbs ؛ وقد يعود عصر الإيمان إذا ما حلت بعصر العقل كارثة (٥) ؛ ولقد بقيت مساحات واسعة تحت شعاد الاعان وسلطاته بيناكانت أوربا الغربية تسعر بسفينة العقل في البحار الغبر المطروقة . إن العصور الوسطى حال من أحوال الزمان كما هي فترة من فتراته : ومن واجبنا أن نختتمها في أوربا الغربية بكولميس ؛ ولكنها دامت في الروسيا إلى زمن بطرس الأكبر (المتوفى عام ١٧٢٥) ؛ أما في الهند فلا تزال باقية إلى اليوم .

ولقد نساق إلى التفكير في العصور الوسطى على أنها فنرة مجدية محصورة بين سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب (٤٧٦) وكشف أمريكا ؛ بيد

^(») يتمد بعصر العثل عصرتا الحاشر ، ولهذا يقول إنه سيسمى المجلد السابع من هذه سلسلة وهو المجلد اللدى يووى حضارة هذا العشر «عصر المقل» . (المترج)

أننا يجب ألا ننسي أن أتباع أبلار كانوا يسمون أنفسهم محدثين moderni . وأن أسقف إكستر Exeter قد وصف في عام ١٢٨٧ القرن الذي يعيش قيه بأنه و الزمن الحديث moderni tempores ، أضف إلى هذا أن الحد الفاصل بين العصور ؛ الوسطى ، والعصور ، الحديثة ، يتقدم على الدوام ؛ وأن عصر الفحم والزيت والأحياء القذرة المليئة بالدخان والكَتَن ، إذا ما حل محله عصر أكثر منه نظاماً وأرحم منه حياة ، قد يعد بن العصور الوسطى . كذلك لم تكن العصور الوسطى مجرد فترة بين حضارة وحضارة . ذلك أننا إذا أرخنا بداية هذه العصور بقرول رومة للمسيحية وبمؤتمر نيقية عام ٣٢٥ ، رأيناها تشمل القرون الأخبرة من حياة الثقافة اليونانية ـــ الرومانية القديمة ، ونضوج المسيحية الكاثوليكية حتى أضحت حضارة كاملة غنية في القرن الثالث عشر ، وانقسام تلك الحضارة إلى الثقافتين المتعارضتين وهما النهضة والإصلاح الديني . وشيء آخر خليق بالذكر ، وهو أن رجال العصور الوسطى كانوا ضحايا الهمجية ، ثم صاروا هم أنفسهم الغالبين للهمجية ، وأمسوا بعدئذ المنشئين لمدنية جديدة . وليس من الحكمة أن ننظر بعن الكبرياء إلى عصر أنجب هذا العدد الجم من عظاء الرجال وعظمات النساء، ورفع منار البابوية فوق أنقاض العصور الوسطى، وأقام النول الأوربية ، وجمع بالكدح المدائب تلك الثروة التي خلقتها لنا تلك العصور (**).

وقد جمع هذا التراث بين الشر والحير . فأما عن الشر فنقول إننا لم نفق بعد كل الإفاقة من العصور المظلمة : من اضطراب الأمن الذي يشر المطامع والشهوات ، والحوف الذي يوللمالقساوة ، والفقر الذي يوجد القذارة والحهل ، والقذارة التي تتفشى يسبها الأمراض ، والحهل الذي يودي إلى سرعة التصديق وإلى الإيمان بالحرافات ، والسحر ــكل هذا لا يزرال باقيا بيذا ؛ وإن العقائد التحكية القاعة

 ⁽ ه.) قسر قا الجزء الأكبر من هذه الإعادة على الحديث من المسعية في الصعور الترسطي ،
 ولن نسيد هذا الحلاصة التي كتبتاها من الحضارة الإسلامية في خدام الكتاب الثاني من هذا المجلد .

على غير أساس من العقل ، والتي أدت إلى التعصب وإلى محاكم التفتيش لا تزال تنتهز القرص أو الإذن لكي تظلم ، وتقتل ، وتلمر ، وتحرب . وليست والمصرية ، هبذا المعني إلا ستاراً يغشى مبادئ العصور الوسطى وعاداتها . ولا تزال هذه المبادئ والعادات باقية في الخفاء ؛ وليست الحضارة في أي جبل من الأجيال إلا تمرة من تمار الكدح الذي تقوم به قلة مزعزعة مغمورة وميزة اضطرارية لهذه القلة . ولقد خلفت عاكم التفتيش مزعزعة مغمورة وميزة اضطرارية لهذه القلة . ولقد خلفت عاكم التفتيش به في الإجراءات القضائية ، وردت الناس من منامرات العقل إلى الاتفاق الراكد المنبث من الحوف .

والدين أهم ما أورثنا إياه عصر الإيمان: أورثنا بهودية ظلت حيى القرن الثامن عشر يستوعها التلمود ؛ وأورثنا الإسلام الذى هدأت عقول أصحابه بعد انتصار السُنَّة على القلسفة فى القرن الثانى عشر ، ومسيحية انقسمت بعن الشرق والغرب ، والشهال والجنوب ، ولكنها لا تزال رغم هذا الانقسام أقوى الأديان وأعظمها أثراً فى تاريخ الرجل الأبيض . فعقيدة كنيسة المصور الرسطى يدين بها الآن معنور و ٢٣٠٠٠٠٠٠٠ من الرومان ، و و ٢٠٠٠٠٠٠٠ من الرومان ، و و ٢٠٠٠٠٠٠٠ من الأرمان عرك النفوس بعد أن أعفقت كل الحجج المنطقية . ولقد خلفت جهود الكنيسة فى ميادين التعلم ، والمعدقات ، وبث الأخلاق الفاضلة فى نفوس الهمج من الناس ، خلفت الحبود إلى المالم الحديث تراثاً ثميناً من النظام الاجتماعى ، والتأديب الخلق . ولما الموحدة قد قضى عليه الذي الم الماكات تحلم به البابوية من قيام دولة أوربا الموحدة من الأجبال لا تستثيره روى نظام أخلاق دولى يسمو على النظم الأخلاقية من الماتهاد المستقلة ذات السيادة .

ولما أن قضى على ذلك الحلم البابوى اتخذت الأمم الأوربية الشكل الذى

لا تزال تحتفظ به فى جوهر حتى هذا القرن ، وتأهب مبدأ القومية لكتابة التاريخ السياسي للأزمنة الحديثة . وابتدع عقل العصور الوسطى فى هذه الأثناء أنظمة من القانون المدنى والكنسى ، ودساتير بحرية وتجارية ، وعهوداً لحرية المدن ، ونظام المحلفين ، وحتى القضاء فى إطلاق سراح المسجون بلا محاكمة . وفى المصور الوسطى وضع نبلاء الإنجليز العهد الأعظم ، وأعمدت الحاكم والمجالس القضائية للدول والكنيسة أساليب الحكم ودواليب الإدارة الباقية إلى هذه الأيام . وظهر نظام الحكم النيانى فى الكورتيز Cortes مجلس أسانيا النيانى ، والألانيج Althign عجلس أيسلندة ، وجمية الطبقات الفرنسية ، أسبانيا النيانى ، والألانيج Althign عجلس أيسلندة ، وجمية الطبقات الفرنسية ،

وكان أعظيم من هذا كله تراث العصور الوسطى الاقتصادى : فقد استغنت هذه العصور البرارى المقفرة ، وكان لها النصر في مغالبة الغابات ، والحراج، والمستنقعات، والبحار، وأخضعت تربة الأرض لإرادة الإنسان . وقضت العصور الوسطى على الاسترقاق في معظم أجزاء أوربا الغربية ، وكادت تقضى أيضاً على نظام رقيق الأرض. ونظمت العال المنتجين في نقابات الحرف ، وهي النقابات التي لا تزال من المثل العليا عنام رجال الاقتصاد الذبن يسعون لإيجاد طريق وسط بين الأفراد غير المسئولين والدولة الأتوقراطية . ولقد ظل الخياطون ، والأساكفة ، وصناع الملابس إلى وقتنا هذا يقومون بأعمالهم اليدوية في حوانيت خاصة كما كانوا يقومون مها في العصور الوسطى ؛ وكان خضوعهم لنظام الإنتاج الكبير وللتنظيم الرأسمالي على مرأى ومسمع منا . وإن المواسم الكبرى التي تعقد في المدن الحديثة ويجتمع فيها الناس والسلع لمن مخلفات تجارة العصور الوسطى ؛ كما أن من هذا البراث أيضاً ما نبذله من جهد لمنع الاحتكار ، وتحديد الأثمان والأجور ؛ ولقد ورثنا عمليات المصارف الحديثة كلها تقريبا من نظم العصور الوسطى المالية ؛ وحتى منظاتنا الأخوية ، وجمعياتنا السرية تمتد جذورها وشعائرها إلى العصور الوسطى نفسيا .

وكانت مبادئ العصور الوسطى الخلقية وليدة الممجية ومنشأ نظام ولا تن مبادئ العصور ؛ ولا تكرتنا عن السيد الكامل (السميدع) لمن خلق تلك العصور ؛ ولا ترزال مثل الفروسية العليا ؛ وإن بعدت عن أساليب الفرسان القدامى ، من أنبل الأفكار التي طافت بالعقل البشرى ؛ وربما كانت عبادة مرم العلواء قد جاءت بعناصر جديدة من الرقة والحنان إلى أخلاق الرجل الأوربي . وإذا كانت القرون المتأخرة قد ارتقت بأخلاق الناس عما كانت عليه فى المصور الوسطى ، فقد كان ذلك الرق على أسس من وحدة الأسرة ، والمربية الحلقية ، والانتشار البطىء لعمادات الشرف ، والأمانة ، والحجاملة ، وهي الأحسى التي أرست دعائمها المصور الوسطى ، شأنها في هذا شأن الحياة الاخلاقية الممتشككين المحدثين التي لا يبعد أن تكون صدى المبادئ المخلاقية المنشككين المحدثين التي لا يبعد أن تكون صدى المبادئ

أما تراث العصور الوسطى الذهنى فهو أضعت مما ورثناه عن اليونان الأقدمين ، كما أنه يختلط به كير من المعارف الخفية الفاسدة التي ترجع أصولها إلى الأزمنة القديمة . ولكنه على الرغم من هلما يشمل اللغات الحديثة ، والجامعات ، ومصطلحات الفلسفة والعلوم . وكانت الطريقة الجدلية المدرسية تدريبا في المنعلق لا فتحا فلسفيا دائما ، وإن كانت هله الطريقة تسيطر على ألف كلية . ولسنا تنكر أن يعض المقائد الدينية في المصور الوسطى قد عاقت كتابة التاريخ الصحيح ؛ فقد كان الناس في تلك المصور يحسبون أنهم يعرفون منشأ العالم والإنسان ومصيرهما ، وحاكوا المصور يحسبون أنهم يعرفون منشأ العالم والإنسان ومصيرهما ، وحاكوا نييجاً من الأساطير كاد يقصر التاريخ على مورضي الأديرة الإخباديين . ولكن ليس محيحاً أن مؤرخي المصور الوسطى لم يكونوا يعرفون فيئاً عن التطور والتقدم ؛ وكان القرن التاسع عشر ، كما كان القرن التاسع عشر ، مناكل القرن التاسع عشر ، مناكل لم تكن العصور الوسطى منائر آ أشد الناثر يما تم فيه من جليل الأعمال . كلمك لم تكن العصور الوسطى زمن ركود وجود كها كنا نظن ذلك مزهويين ؛ ذلك أن يعد ما يبننا وبين ثلك زمن ركود وجود كها كنا نظن ذلك مزهويين ؛ ذلك أن يعد ما يبننا وبين ثلك زمن ركود وجود كها كنا نظن ذلك مزهوين ؛ ذلك أن يعد ما يبننا وبين ثلك

العصور يجملنا نظن الحركة سكونا ، والفروق معلومة من الوجود ، ونحسب التغير جموداً ؛ ولكن الرغبة في التغير كانت تلج وقتئذ ، كما تلج الآن ، في تبديل العادات والثياب ، واللغة والأفكار ، والشرائع ونظم الحكم، وأساليب التجارة والمال ، والأدب والفن . غير أن مفكرى العصور الوسطى لم يكونوا يعلقون أهمية كبرى على ارتقاء الوسائل غير المصحوبة بإصلاح المغابات كما يفعل المخدثون غير المفكرين أهل هذه الأيام .

وفى الحتى أن تراث العصور الوسطى العلمى تراث متواضع ، ولكنه يشمل فيا يشمل الأرقام الهنابة ، والطريقة العشرية ، وفكرة العلوم التجريبية ، وقسطاً كبيراً من العلوم الرياضية ، والجغرافيا ، والفلك ، والبصريات . وفى العصور الوسطى كشف البارود ، واخترعت النظارات، والبصرية ، والمساعة ذات الرقاص (°) ، وتقطير الحكول – المنت يبدو أشد الحقرعات لزوما للإنسان ! وفيا ارتي أطباء العرب والبهود بالطب اليونانى ، وحرر الرواد المسيحيون الجراحة من فنون الحلاقين ؛ ونصف المستشفيات التي تقوم الآن في أوربا إما أنها من منشئات العصور الحديثة ، والعد ورث العلم الحديث من طريقة التفكير في العصور الوسطى نزعته ولقد ورث العلم الحديث من طريقة التفكير في العصور الوسطى نزعته الدُّولية ، وقسطا غبر قليل من للدُّولية .

وأجل ما ورثه العالم من العصور الوسطى بعد التأديب الأخلاق هو الفن . نهم إن بناء إمبير استيت Empire State Building لا يقل روعة وجلالا عن كندر اثبة شارتر ، وإنه يدين بعظمته لهنامسته وحدها ــ لثباته رغم ارتفاعه وعتوه ودقة تخطيطه . ولكن اجماع فنون النحت ، والتصوير ، والشعر ، والموسيق مع فن العارة في حياة الكندرائية القوطية يكسب كندرائيات أميان ،

 ⁽ه) من حق العرب علينا أن نقول إن هذه الهتر عات يكاد يرجع الفضل كله قبا إلى
 الحضارة الإسلامية . (المترجم) .

وريمس ، وتتردام سمة وعمقاً في التوافق الروحي ، وثروة وتنوعاً في الترافق الروحي ، ويلاوة وتنوعاً في الترخوف ، يملان النفس غبطة أكثر مما تملوهما عظمة البناء الحديث ، ولا تفتر أممهما متمة الإنسان أن يغفر الشهيء الكثير لذلك العصر الذي أحب بملء قلبه رموز دينه ، وأعمال يديه من أبواب ، وأبراج ومنارات مستلقة ، وقباب من حجارة تناطح الساء ، وتماثيل ومذابح للقربان ، وواجهات ، ومقابر عنى بنحها أعظم عناية ، وشبابيك تنافس بألواتها قوس قزح ، وتتتى أشعة الشمس قبل أن تنفذ فها . ومن أجل الكندرائيات تشأت الموسيتي المتعلدة النغات ، ووضعت العلامات الموسيقي ؛ ومن الكنيسة نشأ فن التمثيل الحديث .

ولا يقل تراث العصور الوسطى فى الأدب عن تراث الرومان وإن لم
مرتبة فرجيل ، ويتر لوك إلى جانب هوراس ، وشعراء العرب والفروسية
مرتبة فرجيل ، ويتر لوك إلى جانب هوراس ، وشعراء العرب والفروسية
الغزلين إلى جانب أوقد ، وتبيلس ، ويرويرتيوس ؛ وإن روايات آرثر
ولا يقل عهما ظرفاً وجالا ، وإن الترانم الكرى التي كانت تنشذ في
ولا يقل عهما ظرفاً وجالا ، وإن الترانم الكرى التي كانت تنشذ في
المعصور الوسطى لأرقى من أجمل الأغلق الشعربة الرومانية . ولا يقل القرن
المتالث عشر رقيا عن عصر أغسطس أو أبو العاشر ، وقلما شهد قرن
من القرون ما شهده ذلك القرن من ازدهار فني أو ذهبي كامل متعدد
الألوان ، وقد اتسع فيه نطاق الهجارة انساعا لا يقل عما وصل إليه في
أواخر القرن الخامس عشر ، وكانت هذه التجارة سبياً في اتساع رقمة العالم
المعروف وازياد ثروته ويقظته . وكان في القرن الثالث عشر بابوات أقوياء
من طراز إنوسنت الثالث وبنيفاس الثامن ، وفعوا مقام الكنيسة مهى
من طراز إنوسنت الثالث وبنيفاس الثامن ، وفعوا مقام الكنيسة مهى
من كرال إلى أهلى درجات النظام والقانون في جمع البلاد الأوربية . ولم يكن

القديس فرانسس يحشى أن يكون مسيحياً ؛ وأعاد الرهبان المتسولون المثل المسلما للأديرة ، ورفع الحكام العظام أمثال فليب أغسطس ، والقديس لويس ، وفليب الرابع ، وإدورد الأول ، وفردريك الثانى ، وألفسو العاشر ، رفع هؤلاء دولم من بلاد تجرى على العادات والتقاليد إلى دول تثبع القوانين ، كما رفعوا شعوبهم إلى مستويات جديدة من الحضارة في العمور الوسطى . وانبشت في القرن الثالث عشر فلمنة وعلوم جديدة تفليت على المنزعات الصوفية التي كانت سائدة في القرن الثاني عشر ، وكان انبعائها على المنزعات الصوفية التي كانت سائدة في القرن الثاني عشر ، وكان انبعائها والقرن العجب » من بارزيهال تأليف ولفرام فن إسشناخ إلى فكرة المحمور الوسطى وصلت في خلال المعهور الوسطى وصلت في خلال المعهور الوسطى وصلت في خلال فقون القرن إلى الوحدة والنصور وإلى صورتها الهائية .

وبعد فإنا لن تستطيع تقدير العصور الوسطيء حتى قدرها إلا إذا نظرنا إلى الخبضة الأوربية على أنها إنمام لما بدأته لا نقض له . فقد واصل كولميس و مجلان وجنوى ، ومرسيايا ، وبرشاو نة ، وقادس ، والى تقدمت على أيلميم وجنوى ، ومرسيايا ، وبرشاو نة ، ولشبونة ، وقادس ، والى تقدمت على أيلميم تقدما عظيا ، وإن الروح الى كانت متأججة فى أثناء القرن الثانى عشر لمي نفسها التي أثارت روح الكرياء والكفاح فى المدن الإيطالية خلال عصر الهضة ؛ كان النشاط و الحلق تقوى اللذان امتاز بهما إنريكو دندولو Enrico وفر دريك الثانى ، وجريجورى الناسع هما اللذين تاتهب بهما صهور رجال النهضة ؛ وكان منشأ زعاء عصابات المفامرين العسكريين اللين بيمون خلماتهم لأى حزب فى كل نزاع من الحطة التي انبعها ربرت جسكارد Robert كاماتهم لأى حزب فى كل نزاع من الحطة التي انبعها ربرت جسكارد Robert و ومنشأ المكام و الطفاة » مثل إزلين Ezzelino و ومنشأ المكام و الطفاة » مثل إزلين Ezzelino ويلافشينو ودونشيو Pallavicino ، وكانت ياسترينا Palevicino هزة الوصل بين الترنم ودونشيو ودونشيو والمناس بين الترنم

الجريجورى وباخ Bach . كذلك كان پر رارك وارثا لدانتي وشعراء الفروسية الهنزلين ، كما كان بوكاشيو قصاصا إيطاليا جوابا . وقد ظلت الروايات الغرامية مزدهرة في أوربا أثناء النهضة على الرغم من كتاب دور كيشوت ، وبلغت أساليب كريتيان ده تروى Chrétien de Troyes حد الكمال على يد مالورى Matory . وكانت بداية ، إحياء الآداب ، في مدارس العصور الوسطى ؛ وكل ما امتازت بداية ، إحياء الآداب ، في مدارس العراق الإحياء حتى شملت الآداب البونانية بعد أن كان مقصوراً على اللاتينية ، يترانوا القرطى لتبهض بالفن اليوناني . لكننا يجب ألا ننسى أن نقولو يترانوا الهناك عشر يترانوا المناهزة على منواله ، ولما أن جاء كريسلوراس Chrysoloras المحدور المصور المصور المونانية ما الموروناتية ما الموروناتية ما المناهزة عام المحدور المحدور المناهزة عام المحدور ال

وكان الدين الذى شاد الكنائس الكبرى وألف الترانيم الحميلة هو الدين السائد في إيطاليا ، وأسبانيا ، وفرنسا في هصر البضة مع فارق واحد ، وهو أن الكنيسة الإيطالية ، التي كان لها نصيب كبر في ثقافة ذلك الوقت ، وهبت العقل الإيطالي حرية في التفكير ولدت في جامعات العصور الوسطى ، وظلت باقية ، بشرط أن يكون مفهوما فهما ضمنياً أن يسير الفلاسفة والعلما في بحوثهم دون أن يحاولوا القضاء على دين الجاهير .

ومن أجل هذا لم تشرّك إيطاليا ولا فرنسا في حركة الإصلاح الدبني ، بل انتقلنا من ثقافة القرن الخامس عشر انتقلنا من ثقافة القرن الخالف عشر المناتف على والسادس عشر و الإنسانية ، ، ثم انتقلنا من هذه الثقافة الآخيرة إلى عصر الاستنارة في القرن الناليام عشر والثامن عشر . وكان هذا الاطراد المستمر مضافا إلى تجارة البحر المنوسط قبل كشوف كوليس هي التي أكسيت الشعوب اللاتينية ميزة ثقافية مؤتنة على التي التي المناتف المناتف المناتف المناتف المناقبة ، والتي كان لها فيها

من الآثار المعمرة أكثر مماكان في البلاد اللاتينية . وتمتد أصول هلما الاطراد عمالة المصور الوسطى إلى رومة القديمة ومجتازة جنوبي إيطاليا إلى بلاد اللاتيان القديمة . وكان تيار واحد عظم من الثقافة يحرى خلال المستعمرات اليونان القديمة في صقلية ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وخلال الفتح الروماني لفرنسا وأسيانيا واصطباغهما بالصبغة اللاتينية مبتلئاً من سابفو وأنكريون إلى قربيل وهوراس ، وإلى دانتي ويترارك ، وإلى ربليه ومنتاني ، وإلى فلتير وأناتول فرانس . ونحن في انتقالنا من عصر الإيمان إلى عصر البضة إنما نقدم من الطفولة المزعزعة غير الوائقة بقصها إلى الشباب البيج للثقافة التي قرنت ماكان عند الرومان واليونان الأقدمين من ظرف ورقة إلى ماكان عند المرابرة من قوة ؛ وهي ثقافة نقلت إلينا تراناً متجدد الشباب موفور الغيلي لحضارة من حقها علينا أن تعمل على الدوام از يادتها وألا تركها تموت :

شكراً لك مرة أخرى أيها القارئ الصديق

(انتهى المجلد الرابع ويليه المجلد الخامس في حضاوة عصر النهضة)

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع الهميلة في الجزء الأول ، والأرقام الروءانية الصديرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل طررتم الهلد ويتلوها رتم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكويرة فتدل على رتم ه الكتاب ، أو الجزء من النص ويتلوها رتم الفصل أو الآية في الفرآن أو الكتاب المفدس.

CHAF YXXIV

- 1. In Ogg, 145.
- 2. Vossler, K., Medieval Culture, 1, 5.
- 3. Dante, La Vita Nouva, xxv.
- 4. Munro and Sellery, 830.
- 5. Cf. Pollock and Maitland, I, 57.
- Mumford, L., Technics and Civi. lization, 436 f. Encyclopaedia Britannica, XXI 100%.
- 7. Lyra Gracca. III, 676, app. by J. M. Edmonds.
- Munro and Sellery, 232: Haskins. Renaissance, 16: id., Normans, 236.
- 9. Haskins, Renaissance, 72.
- Thorndike in Sppeculum, Apr. 1937, 268.
- 11. Haskins, Renaissance, 72.
- 12. Coulton, Panorama, 683.
- Lea, Inquisition in Middle Ages, 1, 654.
- 14. Lacroix, Arts, 472.
- 15. Walsh, Thirteenth Century, 156.
- Coulton. Medieval Scence, 126;
 Panoramu, 576; Haskins, Renalissance, 71.
- 17. Encyclopaedia Britannica, XIV,3.
- 18. Haskins, Renaissance, 43.
- Calvert, Moorish Remains in Spain, 426.

- Haskins, Sindies in Medieral Cuiture, 100.
- 21. Bevna, Legacy, of Israel, 230.
- 92. Ibid., 211,
- 23. Sarton, II (1), 125.
- 24. Arnold, Legacy of Islam, 847.
- 25. Ibid., 244. 26. Wright, Domestis Manners, 271.
- 27. De Wulf. Medieval Philosophy,
- 1, 61; West, Alculn, 57.
 28. John of Salisbury, Metalogicus,
- 24, in Poole, litustrations 98.
 Thorndike in Specalum, Oct., 1940, 401.
- 30. Walsh, Thirteenth Century, 28.
- Thorndike, I.C.; Rashdall, Universities of Europe in the Middle Ages, Ill, 350; Cramp, Legacy of the Middle Ages, 202-3.
- 32. Abélard, Historia. Calamilatam, Introd. by R. A. Cram. p v.
- 33. Contton, Medival Village, 254.
- 34. Jusserand, 279.
- 35. Coulton, Panorama, 388.
- Thorndike, Speculum, Oct. 1940, 408.
- 37. Rashdall, Universities, 111, 870.
- 88. Aristotle, Politics, viji, 1.
- 89. Crump, 266.
- 40. Rashpall, 1, 93.
- 41. Ibid., 113.
- 42. Lea, Insquisition in the Middle Ages, 1, 69.

- Walsh, Thirteenth Century, 38;
 Baedeker, K, Northern Italy, 471,
- 44. Rashdall, I. 149-67.
- 45. Ibid., 196.
- 46, 196-7,
- 47. Partow, L.J., Gaide to the Study of Medieval History, 448.
- 48 Haskins, Renaissance, 396,
- 49, Rashdall, I, 445.
- 50. Thoradike. Magic, II, 53.
- Cambridge Medieval History, VI, 746.
- 67. Encyclopaedia Britannica, XI,995
- 53, Rashdall, III, 29n.
- 64. Ibid., 38.
- 55. 199.
- 56. 246n; Saiton, II (2), 584.
- 57. Davis, Medleval England, 398.
- Encyclopadia Britannica, X, 8096b.
- 69. Ashley I, 208.
- Munro and Sellerx, 350; Walsh, Thirteenth Century, 65.
- 61. Waddell, Wandening Scholars, 171.
- 62, Walsh, 65.
- 69. Rashdall, IV, 325-36.
- 64. Ibid.
- 65. Coulton, Social Life, 95.
- 66. Rashdall, 111, 386.
- 67, Ibid., 439.
- 68, 441.
- 69, 440,
- 70. 96u.
- 71, 431,
- 72. 432; Coulton, Life, Ill, 78.
- 121 4003 00011000 200
- Rashdall, III, 439.
 Castiglione, 328.
- 70. Munro and Sellery, 850.
- 76, Rashdall, 1, 465-70.

CHAPTER XXXV

- 1. V. Cousin in Abélard, Ouvrages. Inédits, xxix.
- Oilson, É, La philosophia au moyen âge, ed. 1947, 288.
- De Wulf, Medieval Philosophy, 1, 103.
- 4. Ibid., 46.
- Thomas Aquines. Summaa Theologica, I, i, 1,
- 6. Ueberweg. History of Philosophy,
- 1, 386.
 7. Abélard, Historia Calamitatum,
- ch. 6.
- 8. Rémusat, C. de, Abélard, I, 89.
- 9. Abélard, Calamitatum, ch. 5. 10. Oilson, La Philosophia au moyen
- dge, ed. 1922, I, 89.
- 11. Abélard, Calamitatum ch. 5,
- 12. Rémusat, 1, 80n.
- 13. Abélard, ch. 16.
- 14. Rémusat, 1, 54.
- Abélard, ch. 6. Herdoes not say that he accompanied her.
- 16. Ibid., ch. 7; Lea, Calibacy, 269.
- 17. Abélard, ch. 7.
- 18. Ibid.
- 19. Poole, Ittustrations, 125.
- 20 Abélard, Dialectiea, Introd. to Part IV. in Ouvrages inèdits.
- 21, fbid.
- 28. In Rémueat. II, 534-5.
- 23. Ouvrages inédits, p. cixxxvii.
- Abélard, Sic et non, in Ouvrages,
 p. 16.
- 25. De Wuls Medieval Philosophy, 1, 201,
- 26. Abélard Calamitatum, ch. 9.
- 27. Rémusat, I, 77.
- 28. Abélard, Calamitatum, Ch. 9.
- 29. Ch. 11.

- 30. Rémusat, II., 197.
- \$1, Ibid., 196; Gilson, La Philesophie au moyen age, ed. 1947, n. 201.
- 82. Ueberweg, I. 387.
- 38. Rémusat, II. 203.
- 34. Ibid., 205.
- 35, Abérland, Calamituium, ch. 12. 36, Ch. 18,
- 37, Ch. 15,
- 88. Ch. 14.
- 89. In Scott Moncrieff, Letters of Abelard and Beloise, 53-6.
- 40. Ibid., p. 82.
- 41. P. 103.
- 42. Butler, Women 68.
- 48. Prof. Pastow considered the "letters of Héleïse . . . the vain Imaginings of a very vais man"-Speculum, Apr. 1927, 227. Prof.
 - Offson concludes in favor of their general authenticity; cf. his Héloïse et Abélard, Paris,
 - 1938, and Speculum, July 1989, 394.
- 44. Abélard, Scito te ipsum, xiii-xiv, .in Rémusat, Il, 466.
- 45. Abélard, Ep, xiii, Cambridge Medieval History, V, 798. 46. St. Bernard, Eps. 191 and 338,
- in Talor, Medieval Mind, 1, 417, and II, 385; Adams, H., 813; Ueberweg, 396.
- 47. Raby, Christian Latin Poetry, 321.
- 48. Rèémusat, 1, 260.

CHAPTER XXXVI

- 1. Duhem Système du monde, 111 88.
- 2, De Wulf, History of medieval philosophy, I. 154.

- 3. Foole, Illustrations, 151.
- 4. ibid., 185.
- 5. 108,
- 6. Thorndike, Magic, 11, 58.
- 7. 1bid., 50.
- 8. Ibid., 58.
- 9. Poole, 158.
- 10. Taylor, Medieval Mind, 11, 402.
- 11. In Poole, Illustrations, 164.
- 12. In Adnms. H . 292.
- 13. John of Salisbery, Polycraticus, v, 16; vi, 24; vii, 17.
- 14. V, 16.
- 15. IV. d.
- 16. V. 6; vi. 6, 12, 25; iii, 15.
- 17. VIII, 20.
- 18. VII. 11.
- 19. Munro and Sellery, 460; Sarion, 11 (2) 860 ; De Wulf, History of Medieval philosophy, 1, 248,
- 20. Ibid.
- 21. Robertson, J M., History of Free Thought, I, 325.
- 22. Lea, Inquisition in Middle Ages 1, 99.
- 23. Coulton. Five Centuries 1, 845.
- 24. Id., Medieval Scene, 111,
- 25. De wulf, 1, 189. 26. Lea, ed. II, 319.
- 27. Oilson, Lu Philosophie au moyen âge, ed. 1947, 384.
- 28. Rashdall, I, 354.
- 29. Lea, 11, 820-8.
- 30. Reuan, Averroés, 288.
- 31. Coulton. Panorama, 449.
- 32. Rashdall, J. 264. 38. De Walf, 11, 97.
- 34. Hernshaw, Medievai Contributions to Modern Civilization, 145. 85, Lea, III, 440.
- 36. Castiglione, 830.

- 37. Coulton, Panorama, 461.
- III. Gilson, La Philosophie, ed. 1947, 564.
- 39. De Walf, II, 103.
- 40. In Oilson, ed. 1947, 564.
- 41. Ibid., 565.
- 42, 562.
- 43. 558; Renan, Averroès, 268.
- 44, lbid., 273-5; Gilson, ed. 1947, 559.
- Cambridge Medieval History, V, 822.
- 46. De Wulf, 1, 144.
- 47. ld., Philosophy and Civilization in the Middle Ages, 51.
- 48. Gilson, Philosophy of St. Bonauenture, 8.
- 49. Sabatier, 41.
- 50. Sarton, Il (2), 988; Taylor, Medieval Mind, II, 451.
- Sarton, 11 (2), 988; Taylor, Medieval, Mind, 11, 451.
- 59. Maritan, J., The Angelic Doctor, 39.
- 53, Ibid., 29,
- 14. 81; D'Arcy, Thomas Aquinas, 85.
- 55. Ibid., 51.
- **56.** 46.
- Grabmann, M., Thomas Aquinas,
 89.
- 58. Wicksteed. P. H., Dante and Againss, 93; D'Arcy, 47.
- 59. Maritain, 45.
- 60. D'Arcy, 52.
- De Wulf, Philosophy and Civilization, 186.
- II2. Maritain, 40.
- 63. Bevan, Legacy of Israel, 267,
- III. Diesendruck, Z., Maimonides and Thomas Aquinus, 5.
- Gilson, La Philosophie, ed. 1922,
 I, 114.
- 66. In Sarton, Il (2), 915,
- Thomas Aquinas, De caelo et mundo, lect. 22, in Orabmann, 44.

- 68. 1d., Summa contra Gentiles, i, 2,
- 69. Ibid.
- Id., Comm. on Aristotle's Metaphysics, 831.
- 71. Id., Samma Theologica, I, avi, 8.
- 72. 1., Summa Contra Gentiles, 1,12.
- 78. Ibid., I, 3.
- 74. Id., Summa Thiologica, Il Ilne i. 5.
- 7δ. Ibid., II Ilae, x, 7.
- Id., Quodibeta, II, a, 7, in Grabman, 50.
- Id., Summa Theologica, II line,
 i, 10.
- 78. Ibid., xxvi, 10.
- 79, Id., De veritate, ii, 10.
- Id., Summa contra Gentiles,
 It.
- Id., Summa Theologica, I, it,
 Samma Contra Gentiles,
 16.
- 82. Ibid., i. 3; i, 30.
- 83. 1d., Samma contra Gentiles, fi, 38. 85. 1bid., 35.
 - 86. Ibid., Ili, 28.
- 87. Id., Quodibeta, xi 4.
 - Id., Comm on 11 Sent., VIII, vi,
 in Hopkins. C. E., Share of Thomas Againss in ... the Witcheraft Delusion, 78.
 - Thomas Aquinas, Summa Theologica, I, exvit, 3.
 - 90. Ibid., lexv, 3; xev, 5.
 - 91, Ibid., 4,
 - 62. ld., Comm. on Aristotle's Metaphysics, 146, 157.
 - 93. Id., Summa Theologica, I, Inxvi, I.
 - 94. la Walsh, Thirteenth Centary,
- 96. Thomas Aquinas, Samma Theologica, I. Ixxv. 4.

. '96. Id., Summe cantra Gentiles, ii, 72.

·97. D'Arey, 147.

98. Themas Aquines, Comm. on Aristotie's Metaphysics 179.

99. Id., Summa contra Gentiles. ii. 49.

100. ld., De aulma, iil, 7.

101. Id. Summa Theologica, I, Ixxviii, 1-4.

102. Ibid., I, w 6.

108: De Wulf, History of Medieval Philosophy, 11, 25.

104. Thomas Aquinas, De veritate, xxlv, I.

105, Id, Summa coatra Gentiles, i,

106. Id., Summa Theologica, 1, Ixxvi, 1.

107. Idid , Hae, jv, 6.

108, Id., De veritate, ii. 2.

109. Id., Samma eontra Gentiles, jil, 27-31.

110. Id., Samma Theologica, Il Ilae, xiv, 8; axvil, I; xxxl, 4.

'111, Id., Comm. on Aristotle's Meto physics 207; Samma Theologica, 1, xcii, 1; xcix, 2; exv,2,

112. Ibid.

113. Ibid., I, xcii, 8.

114. Ibid., I, v, 8.

116. Ibid., Il Ilac, x, 11.

116. Ibid., Il llae, civ. 1; I llae. xix, 5; De veritate, xvii, 5;

on IV Sent, 88. '117. Id., Samma Theologica, Il Ilae

x, 11, 118. lbid. 18.

119. Ibid., 11.

120. Ibid. R.

121. Ibid.

122, Ibid., Il Ilae, xi, 4. 193, Ibld., I liae, xcvii, 3,

124, Ibid., I, clil 3.

425, Ibid., I llae, cv, 1; evil, 1. .126, Id., De rezimine principum, 1.6. 127. Id., Suma Theologica, Il line, Ixvi, 2.

128. Ibid.

129, Ibid., II Ilae, exviii, 1.

130. Ibid., II Ilae, Ixvi, 7.

131, Ibid., II llae, lxxvii, 4.

132. Ibid., Il llae, luxviii, 1-4.

133. lbid., I llae, xcil, 1; cv, 1; Il lize, ivii, 8; ixx, 3.

134. Ibid. I lise, vii. If : Comm on Il Sent., xliv; Samma coptra Gentiles. Iv. 76; Hearnshaw, Social and Political Ideas 108,

135. Thomas Aquinas, Summa Theologica, i, vxiii, b.

186. Ibid., 'L. xviii, 1, 8; Summa contra Gentiles, lii, 168,quoting Paul, Ephesians, I, 4.

187. Wicksteed, 266.

138, Gilson, Bonaventure. 7.

139. Thomas Aquinas, Summa Theologica, I, xii, I, 7-8.

140, Ibid., Il liae., cixxix-cixxvil.

141. Sarton. II (2), 916.

142. Tuomas Aquinas, Summa contra Gentiles, i, 1.

148, Sarten, 11 (2), 906.

144. Oilson, Reason and Revelation

145. ld. La philosophia, ed. 1947. 606.

146. De Wult, Medieval Philosophy 11, 85,

147. Ibid., 84; Gilson, 603.

148. Quoted in Mill, J. S., System of Logic, pret.

149. Waddell, Wanaering Scholars, 118.

150. Oilson, La philosophie, ed 1922, 1, 154.

CHAPTER XXXVII

1. James, Women, 120.

2. Thorndike, Magic, II, 8.

3. Ibid., 814.

4. Coulton, Panorama, 105,

- 5. Coulion Five Centuries. 1, 251:
- 6. Himes, 1 .1.
 - 7. Coulton, Panorama, 106.
 - 8. Kantorowicz., 354,
 - 9. Thorndike, Magic, II, 189.
- 10. Coulton, Life, I, 38.
- 11. ld., Panoroma, 115.
- ----
- 12. Milman, I, 542.
- 18. Les, inquisition in Middle Ages, 111, 424.
- 14. Hastinge, Encyclopedia of Religion and Ethres, 11, 42 la.
- 15. Pauphilet, A., Jenz et saplence du moyen âge, 317 n.
- 16. Coulton, Social Life, 526.
- 17. Singer, Chas., Stadtes in the History and Method of Science,
 - I, 165.
- 18. Castiglione, 885.
- 19. Thorndike, Mogic, 'II, 167,
- 20, Lacroix, Science and Litterature, 908.
- 21. Thorndike, Il' 819,
- 22. Ibid., 328.
- 28, 689, 949,
- 24. Sarton II (2), 1082.
- 25. Waish, The Popes and Science,
- 26. Sarton, II (2), 1082.
- 27. Cf, text in Walsh, Popes, app.
- 28. Ibid, 31, 43.
- 29. Pliny, Natural History, xxxvi, 26. 67.
- 80. Thorndike, II, 287.
- 31. Sarton. II (2), 611.
- 82. Thorndike, if' 449.
- 38. Sarton, Il (2), 617.
- 34. Singer, Studies, Il' 105.
- 36. Ibid., I, 18.
- 36. Thorndike, I. 775.
- 37: Addison, Arts. 78.
- 38. Giraldus Cambrensis, Itinerary, 6

- 89. Augustine, City of God, xvi, 9.
- 40. Sarton, I, 516.
- 41. Joinville, 268,
- 42. Raby, Chiristian Latin Portey,. 356.
- 48. Sarton II (2), 575.
- 44. Kuntorowice, 360.
- 45. Mumford, 22,
- 46. Sarton, II (1), 21,
- 47. Speculum, Apr. 1941, 242.
- 49. Sarton, Il (2), 1024.
- 49. lbid.; Singer, II, 398. 50. Arnold, Legacy of Islam, 97.
- 51. Kantorowicz 854.
- 52. Sarton. II (2), 1030,
- 53. Willoughby, W., Social Jasice.,
- 54. Sarton, II (2), 1041.
- 55. Ibid., 1098.
- 56, 1037,
- 67, 1088.9.
- 58. Thorndike, 1, 710.
- 59. Garrison, 148.
- 60. Sarton. ii (1), 81. 242.
- 61. Garrison, 175. 62. Ibid., 181.
- 63. Castiglione, 881:
- 64. Bartholomaeus Anglibus, xiv, 4.
 - ia Coulton, Social Life, 502.
- Castiglione, 384.
 Kantorowicz, 356,
- 67. Lacroix. Science, 149.
- Thorndike in Speculum, Apr. 1928, 194; Neuman, Jews In Spain, II, 110.
- 69. Garrison, 170,
- Lea, Inquisition in Middle Ages, 111, 52.
- 71. Ibid., 52-7.
- 72. Carrison, 144, 172.
- 73. Lacroix, Science, 154.

74. Carrison, 144.

75. Coniton, Panarama, 448.

76. Sartou, II (1), 72.

77, In Castiglione, 337.

78. Carrison, 153,

79. Castiglione. 388.

80. Walsh Thirteenth Century, 345.

81. Sarton, II (I), 84.

82. Joyce, Ireland, 151.

83. Garrison, 186.

84. Speculum, Jan. 1927, 19.

85. Munro and Sellery, 266.

86. In Coulion, Panorama, 304.

87. lackson, Byzantine and Romanesque Architecture 1, 142; Barne,

Economic History, 165.

88. Thorsdike, II, 28f.

89. Ibid., 25.

90, 538,

91, Ibid.

92. 526, 566, 568, 583,

93. Walsh, Thirteenth Century, 48. 94. Albertus Magnus, De anim-

alibus, iv, 3, in Sarton, II (2), 938.

95. Sarton, II (1), 72,

96. Bacon Opus tertium, ch. 17.

97. ld , Opus Malas, 1. xi

98. Bridges, J. H., Life and work of Roper Bacon, 125.

99. Bacon, Opus tertium Brewer ed., p. 28.

100, ld., Opus matus, i, 10.

101. In Little. A. C., Rogee Bacon Essays. 10.

102. Opus Mais, 1, 1, 103. Compendium studit philosophiae.

ed. Brewer, p. 469.

104. Opus matus, ii, 12.

105. Ibid.

106, VII, 1.

107, Little, 117; Sarton, II (2), 805, 961.

108. Opus tertium, ch. 29.

109. Opus mains, iv, 16.

110. Ibid., lv. 4; De Coelestibus, in: Little 15,

111. Opus maius, vi, 1.

112. Throndike, II, 650.

113, Opas manus, iv. 4.

114. Brioges, 36; Little, 180.

115. Sloane MS., tolio 83b, 1-2, in

116. De secreits operibus artis et

naturae, ch. iv. in Little, 178.

117. Little 321; En. Br., XI, 3.

118. In bridges, 98.

119, Opus maius, v. 4.

120. De secreits operibus, in Singer.

11, 397.

121. Singer, II, 132.

122. Opus maius, vii, at in tium.

123. Bridges," 887.

124, Ibid., 127.

125, 62,

126. Do Wuli, Med. Philosophy, II, 139.

127. Opus maius, ji, b.

128. Combendium Philosophiae, in Coulton, Life, 11, 85f.

129. Opus tertium, in Taylor' Medieval Mind, II, 523.

130. Ibid in Coulton, Five Centuries, 1, 135.

181. Taylor, II, 530.

132. Little, 26.

133, Ibid.

134. 28.

135. Taylor , 11, 347. 186. Thoradike, Il, 196.

137, Ibid., 208.

CHAPTER XXXVIII

1. Cf. Saxo Grammaticus, 89.

2. Joinville, 140.

3, lacopo de Voragine Golden Legend, pp. 48-56.

4. Mâle, 820.

- 5. Raby, Secular Latin Poetry, It, 289.
- 6. Haskins, Renaissance, 177.
- 7. Waddell, Wandering Scholars,
- 9. Tr. by Helen Waddell in Medieval Latin Lyrics, 171.
- 16. In Van Doren, M. Anthology of World Poetry, 464.
- 11. In Waddell, op. cit., 278.
- 19. Bieber, M., Bistory of the Greek and Roman Th:ater, 423,
- 13. Chambers, Medieval Stage, II, 44; Mathews, B., Development of the Drama, 115.
- 14. Manizins, History of Theatrical Art. 11, 5.
- 15. Matthews, 114.
- 16. Symonds, J. A., Studies of the Greek Poets, 310.
- 17. Raby, Christian Latin Poetry, 219.
- 18, Mantzius, Il. 1 of.
- 19. Thomas Aquinas, Summa Theologica, Il Ilae, cixviii, 8.
- 20. Chanson de Roland. Il. 1989-2009.
- 21. Sturinson, Prose Edda. # 72, in : igfusson.
- 22. Dasent, G. Story of Barnt Njat, 237-58.
- 23. in Bailer, Women, 101.
- 24. Cambridge Medieval Bistory, III, 128.
- 25. Cf. an excellent fictionalized blography of Piere Vidal in Cronvon, Q., The Fool of Venus,
- 26. Arnold, Legacy of Islam, 17.
- 27. Lecky, Morals, II, 232.
- 28. Speculum, Oct. 1988, 380-7. 29, Tr. by Ezra Pound in Van Doren, 660.
- . 30. Rerse, Medieval Music, 232.
 - 31. Fiedier, Das Oxforder Buch

- Deutscher Dichtung, B. 32. Walther von der Vogelweide, I saw the World, 41.
- 83. In Taylor, Medievol Mind, Il, 56. 84. Songs and Sayings, 83.
- 35. Walther von der Vogelweide, I saw the World, 16.
- 36. Taylor, II, 62.
- 87. Walther von der Vogelweide, I saw the World, 69.
- 38. Walther von der Vogelweide, Songs and Sayings, 22.
- 89, Taylor, II, 58.
- 40. Prestage, Chivalry, 100: Coulton, Life, III. 77: Francke, German Literature, 111.
- 41, Kroeger, A E., The Minnesigger of Germany, 4.
- 42. Schoenfeld. Woman of the Teutonic Nations, 162.
- 43. Tr' by Arthur O'shaughnessy in Van Doren, 663.
- 44. Chrétien de Troyes, Arthurian Romances, 1.
- 45, Ibld., 318, 809.
- 46, 287,
- 47. Wolfram you Eschenbach, Parzlyal, 1, 67.
- 48. In Taylor, II, 8.
- 49. Wolfram, 1 188; vi, 937.
- 50. Aucassin et Nicolette, 6.
- 51, ibid., 12. French text in Pauphilet, 444.
- 52. Aucassin, 13.
- 53. William of Lorris and Jean Clopinel deMeung, Romance of the Rose, H. 8767f. 8858.
- 54, Limes 8511f.
- 55, 7849, 56, 1685,
- 57, 9267, 70 9725-47,
 - CHAPTER XXXIX
- 1. Tr. by D. G. Rossetti-

- 2. Asin v Palacion, Islam and the Dlyine Comedy. 271 f.,
- 8. Dante, Porgatorio, xxxi, 91f.
- 4. Sedwick, Italy 11, 277.
- 5, Tr, by D G. Rossetti.
- 6. Vossier, II, 159.
- 7. lu Ledgwick. II. 291.
- 8. Cf. Purgatorio. xxx, 55,
- 9. Sedgwick 11, 283.
- 10, Vossler, 1, 328.
- 11. Dante. Inferno, xv, 85.
- 12. Vossler, I, 164.
- 18. Dante, La Vita Nuova, il, tr. Rossetti.
- 14. Ibid., ffi.
- 16. xix.
- 16. xxvi.
- 17. xxxll.
- 18. Paradiso, xxx, 28.
- 19. Id., Purgatorio, xxxl, 80.
- 20. Symonds Danie, 55.
- 21. Dante, De Monarchia, ill, 11. 22 Ibid., 16.
- 28. De Monarchia, pref., xxxiii.
- 24. Dante, Elvan Letters, vi.
- 25, Ep. vil.
- 26. Symonds, Dante, 79.
- 97. Ep. x.
- 28. Symonds, Daute, 92.
- 29. Litter to the Italian Cardenals, (1314).
- 30. Dante, Il Convito, x, 5.
- 31. Ibid., vil. 4.
- 3?, The authenticity of this letter has been unconvincingly questioned by Vossier, I, 76.
- 33. Danie, Eleven Letters, p. 197.

- 34. In Coulton, Panorama, 208.
- 35. Dante, Ppradiso, end.
- 36. Ibid., x. 1871.
- 87. Cf. Blachet, Sources orientales: de la Divine Comédie Paris, 1901. and Asin y Palacios La escatologia musulmana en la Divina Comedia, Madrid, 1919, translated as Islam and the Divina Comedy.
- 38, Asin y Palacios, 55-61,
- 89. Ibid., 171-8, 276-7.
- 40. Ibid., 232.
- 41. Rowbotham, 180.
- 42, Dante, Interno, i, 1-8,
- 48. Ipid., I. 86.
- 44. Ibid., fil. 1-9.
- 45. Ibid., Ili, 50.
- 46, Idid., iv, 181-43.
- 47. ibid, v. 191-42; ir. Cary.
- 48. Ibid., xix, 58.
- 49. Ibid., xxviii, 22-48; tr. Cary. 50. Id., Pargatorio, v, 13.
- 51. Ibid., vi. 76-98.
- 52. Ibid., xxvi. 112.
- 53. Ibid., xxvii, end.
- 54. Ibid., xxx, 37-9.
- 55. jbid, xxxi, 49-51.
- 56, Ibid., end.
- 57. Id., Paradiso, ift, 85. 58, ibid., xxvii, 22-8.
- 59. 1d , Inferno, xviii, 57-68.
- 60. Id., Paradiso, ix, 127.
- 61. Id., Inferno, xxiv, 125.
- 62. Ibid., xxxiii, 152. 68. Ibid., xxxiil, 80-4.
- 64. Ibid., xxxiii, 148.

EPILOGUE

1. Coulton, Medleval Village, 290.

وْسْءَ الْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ لِنَالِي الْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ الْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُورِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُورِ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤِمِ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ لِلْمُؤْرِدُ ل

وِل وَايرنل ديورَانت

النهضت

تَرِجتة مح**دّرَراث**

الجزا الأقرل مين المجلّدالنَاميس







هذه البرجة مرخص بها وقد حصلت الإدارة الثقافية بلامعة الدول العربية عن ط يق موسسة فرانكلين الطباعة. والنشر على حق العرجة من صاحب الحق .

> الغامرة **خىنلىلان بالانبىلاتر.**



(شکل ۱) البشارة نحت عل حجر الفرسان فی کنیــة السلیب المقدس بفلورنس – من عمل دوناتار (انظر ص ۱۷۱)

الفهـــرس

القبدالمها	الموصوع
L	إلى القارئ
الكنساب الأول	
تمهيسان	
A C	h
باب الأول ــ عصر بترارك وبوكاتشيو	п
يو الباشة	
اپل و پوکاتشیو ایل و پوکاتشیو	
نامر البلاط ١٩٠	
ورة پيناسو ۲۷	
لمالم الحوال المالم الحوال	
چيتو	
ديكرون	
سيلان هده ۲۱	
ليندقية وچوري	
القرن الرابم عشر ٧٦	
غرقالة	
•	
الباب الثاني _ البابوات في أفنيون	
-3. 3 - 3 3	
الأسر البابل المعادلة ا	
الاسر البايل سد مده مده مده مده مده مده مده ۳۰۰ ۱۰۳ الطريق إلى رومة مده	
الحياءِ المسيحية ١٠٢	
\$11 per ecc occ occ sec er- ec- er- er- 2,500-7, 2,500-	, (20)

الكتاب الثاني : النهضة الفلورنسية

الباب الثالث المنهضة آل مديتشي

المأة														ш		
14						***				ادث	Lì.			33	rl	لفمسل
111			***	***				***		ادی	ي . ص الم	الأسا	į.	اثان	ı	لقصيال
																لقصــــل
																مىسىل ئغمىسىل
191		***		***				لسك	بروق	-all	- 1	الماء	Ţ	لاس	Ľĭ	الفصـــل
																ب القمىــــــــــــــــــــــــــــــــــــ
111																
177																
																۲.
144	***	***	***	•••	***	***	** *	***		للون	رير ا	التص	:	لسابع	١,	الفصسا
.144																
145																
AAA																
-14"										1-4	.e.la	G 4 ~	•	اما د		L st
	***	***	•••	***	••••	•••	•••	•••				مندو	:	ننامن	٠,	القمسإ
					لھي	W _	العه		al J	اب	31					
					۔ سی	<i>-</i> -	,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,	- (3.7.	-	Ψ,					
144				•••		•••		***	6.5	لمتومر	la s	142	:	الأو ل		القمسإ
																الفمسا
Y + 4										الأنا الأنا	- حور قلصه	!	i.	المالة	-	الفمسا
***								 الشاد	.,	- 44		ان.		البالب	-	أقمس
M W W						A7		- 25	JE J		, T.	1.5	•	الرابع الدار	ن ا ا	الفمب
																القمي
714										***	۳,	<i>.</i>	ى : ادا،			
724	***					•••			***	***		٩	صدر	25.	_	1
700	•••		***	***	***		000		***	رقدسو	أة لور	وقا	2 6	الباب	J	الفه

الموضوع الصقعة
الباب الخامس - سفنرولا والجمهورية
الفصل الأول: التين
فهرس الصور
رقم السورة موضوعها مكانها البنازة أو الكتاب البنازة أو الكتاب البنازة أو الكتاب البنازة أو المحد أو المحد ا
۱۹ مولد ثينوس ۱۹ ۲۴۷۰ مولد ثينوس ۱۹ ۲۴۷۰ مادنا دل آدي ۱۹ ۲۰۲ ماد د
فهرس ألحق أنط من ١٠ - إيطاليا الحديث أمام من ١٠ - إيطاليا الثابانية والوسطى في الفرنين الخاس عشر والسادس عشر أمام من ١٠ - جنوب ليطاليا في الفرنين الخاس عشر والسادس عشر أمام من ٥٠ - ٥٠ - منوب ليطاليا في الفرنين الخاس عشر والسادس عشر أمام من ٥٠ - ٥٠

مقدمة الترجمة

بت إندار حمر الرحيم

الحمد لله على عظم نصه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والرسل . وبعد ، فهذا هو الجزء الأول (رقم ١٨) من المجلد الحامس من وقصة الحضارة » ، وهو المجلد الذى يروى هذه القصة الطريقة فى إيطاليا . ولسنا مغالن إذا قلنا إن ذلك العجر أهم العصور كلها من حيث الحضارة . فقيه خرج العالم الغرق من ظلمات العصور الوسطى ، وبه بدأ العصر الحديث ، ومن أجل هذا خصه المؤلف بمجلدين كاملين ، هذا المجلد الذى يروى قضة الحضارة فى إيطاليا ختاصة ، ومن حتى إيطاليا أن تنفر د فى ذلك العصر منه على مناثر أوربا . أما قصة النهضة الذى نشأت فيه وترعرعت ثم فاضت منه على مناثر أوربا . أما قصة الرضة فى غير إيطاليا من العالم – فى أوربا والدى شرعنا فى ترجته .

وسيجد القارئ في هذا الجزء وفي الأجزاء الثلاثة الأخرى التي سيصدر فيها هذا المجلد الخامس وصفاً رائماً لمظاهر البضة الأدبية والفنية والعلمية والمعارية ، وحديثاً شقاً عن أعلام هذا العصر ، والى جانبه حديث آخر عن أحوال البلاد الإيطالية وحكامها ورجال العلم ، والدين ، والأدب ، والسياسة ، والحرب فيها ، كل ذلك في لغة شيقة تتخللها بعض الدعابة التي تذهب بالملل في كثير من الأحيان .

والرجمة صورة دقيقة من الأصـــل المرجم بلا زيادة ولا نقصان > قلم تحذف من أقوال المؤلف شيئاً قط ولم نزد علمها إلا بعض تعليقات قليلة فى هامش الكتاب تفسر عبارة أو تشرح إشارة تاريخية . وقد راعينا فى تعريب الأسهاء سسواء منها أساء المدن أو الأشخاص نطقها بالإيطالية قدر المستطاع بعد أن حققنا هذا النطق بقدر ما وصل إليه جهدنا . ولهذا قد يخد القارئ فيها بعض الحلاف عن الأجزاء السابقة ولكنه خلاف قليل ستتداركه فى ثلك الأجزاء عند إعادة طبعها .

وترجو أن يجد القراء في هلما المجلد من غزارة العام وطرافة البحث ما يعوضهم عن طول الوقت الذي يقضونه في قراءته . فإن وجدوا فسيعوضنا نحن أيضاً. ما عانينا من جهد في ترجمة هلما المجلد الذي يحتوى موضوعات معظمها جديد عليتا ، كفنون العارة والنقش والتصوير والنحت وغيرها من المنون والعلوم ، وفي البحث عن الاصطلاحات العلمية والفنية التي يزخر بها الكتاب ، ونرجو أن تكون قد وفقنا في هلما بعض التوفيق إن لم يكن كله .

ولا يفوتنا أن نسجل شكرنا للإدارة الشمافية فى جامعة الدول العربية التي يرجع إلىها الفضل فى إخراج هذا الكتاب وللجنة التأليف والترجمة والنشر عنايتها بطبعه ونشره ، وللقراء الكرام فى مصر وسائر البلاد العربية ، اللدين كان تشجيعهم حافزاً قوياً لنا على مواصلة هذا الجهد المضي الطويل .

وفقنا الله إلى أداء واجبنا في خيدمة لغننا العربية عن طريق الترجمة ، وهو الطويق الذي اخترنا أن نسلكه لخدمتها ، وأعاننا على تدليل ما نلاقيه فيه من صعاب ﴿

أكتوبر سنة ١٩٥٨

تحر بررانه

إلى القياري

هذا الحيلا كامل بنفسه مستقل بثانه ، ولكنه هو الجزء الخامس من تاريخ الحضارة الذي كتب على أن يكل بعضه بعضاً وأن يجمع في قصة واحلة نواحي النشاط البشري جمعها . ولقد بدأت هــــله السلسلة في عام ١٩٣٥ وكان أولها مما ورشاه من الشروب - أي تاريخ مصر والشرقيين الأدني والأوسط حتى عام ١٩٣٠ ق . م ، وتاريخ المئد والمعين واليابان تاريخ اليونان وثقافتهم من أقدم العصور المعروفة ، وتاريخ الشرقين الأدني والأوسط من ١٩٣٥ ق . م حتى الفتح الروماني في عام ١٩٣٩ . وواصل الخزء الثالث قيهمر والحسيم (١٩٤٤) رواية قصة الجنس الأبيض حتى عام ١٣٣٠ م ، وكان محورها اللي تلور حوله هو نشأة رومة وسقوطها والقرون الأولى من المسيحية . وواصل الجزء الرابع عهمر الارماني والقرون الأولى من المسيحية . وواصل الجزء الرابع عهمر الارماني المينانية الحضارة والميزنطية وحضارات الإسلام والهودية والعالم المسيحي اللايني .

و بدف هـــذا المجلد إلى رسم صورة شاملة موجزة لجميع متاحى الحياة البشرية فى إيطاليا على عهد النهضة ــ من مولد يترارك فى عام ١٣٠٤ إلى موت تيشيان Titian فى عام ١٩٧٦ . وتشير كلمة النهضة فى هذا الحجلد إلى إيطاليا دون ضيرها من البلاد ، ولن تستخدم للدلالة على ما حدث من تقدم ونضوج فى فرنسا ، وأسيانيا ، وإنجابرا والأراضى الوطبئة فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر إلا ما بعث بعثا جديداً فى تلك البلاد وكانت أصوله أجنبية عنها ، وحتى فى إيطاليا نفسها تعنى هذه التسمية أكثر ما تمنى بعث الآداب القديمة التى لم يكن لها من الحطر فى إيطاليا

ما كان لتقدم اقتصادياتها وثقافتها حتى بلغت صورتها المميزة لها فى قلك البلاد .

ولقد أردت أن أجتنب التكرار السطحي لما نشر في هذا الموضوع من كتب قيمة ، فوسعت نطاق البحث إلى أكثر مما ألفه القارئ في المجلدات السابقة من هذه السلسلة . وكان ممسا اقتضى هذا التوسع غير هذا السبب أثنا كالم اقتربنا من عصرنا الحاضر زاد اهتمامنا بموضوعناً ؛ ذلك أننا نشعر بما يجرى في دماثنا من حيوية مستملة من تلك القرون الخطيرة الأحداث التي نشأت فيها أوربا الحديثة ، وبذلك تصبح أفكار تلكُ القرون ، وحوادثها ، وْأَشْخَاصِها ، لا غنى عنها لفهم عقولنا وأيامنا . ولقد درست ينفسي كل ما ورد ذكره في هذا الكتاب من مؤلفات خاصة بالفن إلا القذيل منها ، ولكنني تعوزني الدرية الفنية التي تخواني حق إصدار أحكام علمها قائمة على البحث والثقد . غر أنني قد أقدمت على التعبر عما أفضله منها وعما انطبع في ذهني يعد قراءتها . والآن نرى الفن الحديث يسر في طريق مضاد الله سار فيه فن الهضة ، ويحاول جاهداً أن يجد صوراً جديدة اللجال ، ومعانى جميلة للأشياء . وليس لدينا ما نأخذه على هذه النزعة ، لأنه مهما يكن تقديرنا لها ، فإن هذا التقدير يجب ألا يحول بينا وبن الترحيب بكل محاولة صادقة منظمة يقضد مها محاكاة ما تمتاز به من قوة ابتكار لا ما أسفرت عنه من نتائج .

^(*) لقد ظهر مذا الحِلد قطة ريداُّقا لشرحه . (الشريم)

عصر العقل يواصل رواية القصة إلى بداية القرن الناسع عشر 🤉

وأرى فرضاً على أن أشكر لمستر چوزف أوسلاندر ولطبعة جامعة إذنه لى بأن أنقل هنا ترجته الجميلة لإحدى أغانى پتر أوك ، ولطبعة جامعة كميمردج إذنها بأن أنقل هنا ترجته الجميلة لإحدى أغانى پتر أوك ، ولطبعة جامعة كميمردج إذنها بأن أنقل فقرة بقلم رتشرد جارنت Cambridge Modern History والزوجي ما كان لها من اقتر احات وأحاديث أنارت لى السيل ، وللنكتور إدور ه هبكن الها من اقتر احات وأحاديث أنارت لى السيل ، وللنكتور وللآنسة مارى كوفان Mary Kaufman والآنسة فلورا كوفان Kaufman والآنسة فلورا كوفان Kaufman ما قلمتا من معونة كتابية متعددة الأنواع ، والسيدة إدث ديميت الكاتبة رغم ما به من صعوبات جمة ، ولولاس بركواى المفطوط على الآلة خيرته العظيمة في كتابه المفطوط على الآلة الكاتبة رغم ما به من صعوبات جمة ، ولولاس بركواى هسلم الناحية من نصائح صديدة .

وأشكر بعد هذا كله ناشرى هذا الكتاب ، فاقت دلت صلى الطويلة بهم على أبهم من خبر من يستطاع وجودهم من الناشرين ؛ ذلك أبهم لم يضنوك على بأى معونة ، فقد تحدلوا معى نفقات البحث ؛ ولم يجعلوا الحساب المكسب . أو الحسارة أى أثر في علاقاتنا . وقد نشروا في عام ١٩٧٦ كتابي . قصة الفشم . فقد الفشم عنه هذا النشر . عمارة ، وقد ظلت علاقتنا قائمة سبعة وعشرين عاماً كانت بالنسبة لى صاة . موفقة سبعة :

ملاحظات عن طريقة استخدام هذا الكتاب ١ -- حذفنا من النص تواريخ مولد الأشخاص ووفامم ، ولكننة أثبتاها في فهرس الأعلام والأماكن . الفقرات المكتبرية بالحط الصغير تعنى الدارسين المتخصصين
 وحدهم ، وفى وسع القارئ العادى أن يغفلها وهو آمن .

٣ ــ رأين عند ذكر الأماكن التي توجد فيها التحف الفنية أن نذك
 امم المدينة للدلالة على أهم معرض الفنون بها مثال ذلك :

مدينة برجامو للدلالة على محمع برلين للدلالة على متحف قيصر كرارا الذي فردريخ بما

سرار. السي الدلالة على يناكوتيكا تشكّاجو للدلالة على معهد الفنون

مار تنتجو دترويت الدلالة على معهد الفنون با

كليفلند للدلالة علىمتحف الفنون بها مدريد ه « البرادو

لنينتجراده و الصومعة بها ميسلان و و ممسرض

لندن و و المعرض القوى بريرا النَّنى متنول و . و قصر الدوق نابل للدلالة على المتحف القومى

مودينا ۽ ۽ پيناکوٽيکا إستنسي پارما ۽ ۽ المعرض الملکي

غيوپورك 1 0 متحف الفن الفنون العاصمي واشنجتن للدلالة على المعرض القومى

البندقية للدلالة على المجمع العلمي الفي للغنون

غير أنا قد مزنا معرضى فلورنس الفنين العظيمن باسمهما أفنزى Uffizi. وكذلك المعرض العرض Borghese في رومة.

لوس أنجليز في أول ديسمير سنة ١٩٥٢

ول ديورانت

الكِثابِ الأول

۱۳۷۷ – ۱۳۰۰

الهابالاول عصر بترادك وبوكاتشو

1500 - 15.5

الفضيل الأول

أبو النهضــة

في عام ١٣٠٧ نفسه ، أي في العام الذي انتزع فيه حزب الأشراف السوو حكم مدينة فلورنس بالقوة ، ونفوا دانتي وغيره من حزب العلبقة الوسطى البيغنى أتهم الأشراف الفلافرون عامياً من البيض هو السرّ Ser (أي السيد أو الرئيس) بتراتشيو Petracco بأنه زور وثيقة قانونية . ووصف بتراتشيو الهمة بأنها حجة ماكرة المقضاء على حياته السياسية ، فأنى أن يمثل أمام القضاء ليحاكم عليه أن فيابه ، وخير بين أن يودي غرامة باعظة أو تقطع بده اليمي . وإذ كان قد ظل يوفض الحفيور أما المحكمة فقد صدر الأمر ينفيه من فلورنس ، وصودرت أملاكه . فما كان منه إلا أن فر إلى أريتسو Arezzo هو وزوجه . وفي هذه المدينة طلع فرانتسكو بتراركا Francesco Petraca (كما سمى نفسه فيا بعد علين من نفيه .

وكانت بلدة أريتسو الصغيرة جيئلية Chibeline عارمة (أى تدين بالولاء السياسي للإسراطورية الرومانية المقدمة لا البابوات)، فكانت الملك تعانى في القرن الرابع عشر كل ما تعانيه المدن الإيطالية من المحن . وكانت فلورنس الجلفية Guellic - أى التي تناصر البابوات على الأباطرة فى النواع القائم بينهما على السلطان السياسى فى إيطاليا السقد قد أوقعت بأريتسو هزيمة منكرة عند كيلدينو Campaldino (1184) وهى المعركة التي حارب ين الثالثة عشرة والسبعين من بلدة أريتسو ، ثم خضعت تلك البلدة نفسها تهائياً لحكم فلورنس فى عام 1874 . وكانت أريتسو هذه هى البلدة التي ولد فيها ماسناس Maccenas فى الرمن القديم ، وهى التي شهدت فى القرنين الخالمس عشر مولد چيورچيوڤاسارى Pietro Aretino المنك حدا من المنائر أفاع شهرة النهضة ، ويسرو أريتينو والكا المهد عبقرياً من العباقرة شائها وقاماً ، وأنجبت كل بلدة فى إيطاليا فى ذلك المهد عبقرياً من العباقرة ثم نعته منها .

وهرول السيد پتر اتشيو نحق الشمال في عام ١٣١٢ لمرحب بالإسمر اطور همرى السابع الذي كان يرجى في ذلك الوقت أن ينقذ إيطاليا أو في القليل من فها من الجبلين . ولم يكن پتر اتشيو في ذلك العام يقل عن دانتي أملا وثقة في المسقبل ، فنقل أسرته إلى يترا Pisa وانتظر فها القضاء على الحلفين الفلورنسين .

وكانت پرزا لا تزال حتى ذلك الوقت من بين مفاخر المدن الإيطالية ،
ثيم إن تدمير أسطولها على يد أهل جنوى في عام ١٢٨٤ قد أفقدها بعض
أملاكها ، وأتقص تجارتها ؛ وأن النزاع الذي قام بين الجبلين والجلفين
داخل أسوارها لم يترك لها من القوة ما تستطيع أن تفلت به من قبضة
فلورنس التجارية صاحبة النزعة الاستجارية ، والتي كانت تتوق إلى السيطرة
على ثهر الآرنو حتى مصبه . ولكن أهلها البواسل كانوا يزهون بكتائسها
المرخامية الفخمة ، وأبراجها المزعزعة ، ومقابرها الشهيرة ، وذلك الحقل
المقلس Campo Santo الذي ملي مربهه الأوسط بثرى الأرض المقلسة ،

والذى زينت جلوانه بعد قليل من ذلك الوقت بمظلمات من صنع تلاميذ جيتو Oiotto والدورندسي Lorenzett ، والذي حَلَّد تقوره المزدانة بالنائيل ذكرى الموتى من الأبطال أو الأصحاء وإن لم يدم هذا التخليد إلا إلى حن. وفي جامعة پنزا عكف المشرع البارع بارتولوس Bartolus الساسوفرتووى المحتاجات OSassoferratato بعد إنشائها بزمن وجز على تعديل القانون الروماني ليوائم حاجات العصر الذي كان يعيش فيه ، ولكنه صاغ علم القانون في عبارات غرية حمل عليه من أجلها پتر ارك وبوكاتشود حملة شعواء . ولعل بارتولوس قد رأى من الحكمة أن تكون لغة القانون غامضة لأنه كان يعر قتل الطفاة المستبدين ، وينكر على الحكومات مصادرة أملاك الناس إلا بعد الإحراءات القانونية الواجب اتباعها في مثل هذه الأحوال (١٠) .

وتونى هنرى السابع (۱۳۱۳) قبل أن يقرر هل يكون إمراطوراً رومانياً أو لا يكون: وابتهج جلفيو إيطاليا بوفاته ؛ ورأى السيد بر اتشيو أنه غبر آبن على نفسه في برزا فهاجر مها هو وزوجته وابنته إلى أقلنون التائمة على ضفة نهر الرون حيث كان البلاط البابوى قد أقيم من عهد قريب ، وحيث كان البلاط البابوى قد أقيم من عهد غينة المحاى البارع في مهنته . وركبت الأسرة سفينة شراعية سارت بمحاذاة الساحل لي چنوى ، ولم ينس پتراوك قطما كان يتجلي أمامه من مناظر تنحدر إلى بحار ورقاء عضرة ، يقول فها الشاعر المثاب : وإنها أشبه تنحدر إلى بحار زرقاء عضرة ، يقول فها الشاعر ألفاب : وإنها أشبه لملرات العالية ، فانتقلت مها إلى كاربنتراس Carpentras التي تبعد صها لملرات العالية ، فانتقلت مها إلى كاربنتراس Carpentras التي تبعد صها الثانية أربع سنين سعيداً في تواكله وعدم مبالاته بما يجيط به . وانتهت أسواحة حين أرسل إلى منها إلى موادنية السعادة حين أرسل إلى منهاييه (۱۳۱۹ – ۱۳۲۳) ، ومنها إلى بولونية السعادة حين أرسل إلى منهاييه (۱۳۱۹ – ۱۳۲۳) ، ومنها إلى بولونية السعادة حين أرسل إلى منهاييه (۱۳۱۹ – ۱۳۲۳) ، ومنها إلى بولونية السعادة حين أرسل إلى منهاييه (۱۳۱۹ – ۱۳۲۳) ، ومنها إلى بولونية السعادة حين أرسل إلى منهاييه (۱۳۱۹ – ۱۳۲۳) ، ومنها إلى بولونية المناس المناسة القانون .

وكان من شأن بولونيا أن تسره ؛ فقد كانت مدينة جامعية ، مليغ بمرح الطلاب وبجوبهم ، يغمرها جو التعليم ، وتحمس التفكير الحر المستقل ؛ وق هذه المدينة كانت تدرس في هذا القرن الرابع عشر أولى مناهج التشريح الآدى ، وكانت فيها أستاذات من النساء بلغت بعضهن — مثل نوفيلا دندريا Novella d'Andrea (المتوفاة عام ١٣٦٦) — من الجاذبية من تحت قناع للا يشغل الطلاب بجهالها عن علمها . وكانت يلديه بولونيا من أوليات المبلديات التي ألقت عن كاهلها نير الإمبر اطورية الرومانية المقدمة أوليات المبلديات التي ألقت عن كاهلها نير الإمبر اطورية الرومانية المقدمة قد اختارت محافظها وظلت قرنين كاملين محافظة على حكومتها الدمقراطية ؛ ولكنها منيت في عام ١٩٣٧ ، ويترارك مقيم فيها ، جزيمة ساحقة على يد مودينا هموها لا أن تضع نفسها عمت حماية البابوية ، يد مودينا هما ١٩٧٧ ارتضت أن يكون قس معين من قبل البابا حاكما لها ، ونسجت حول هذه الفترة من تاريخها كثير من القصص للربرة .

وكان پدرارك يحب الروح السائدة في بولونيا ، ولكنه كان يبغض حرفية القانون : « وكان مما يتعارض مع ميولى ويؤلمي أن أحصل فنا لا أريد أن أمارسه ممارسة غير شريفة ، ولا أستطيع أن أمارسه يغير هذه الطريقة يه ?) . وكل ما كان يعني به في الرسائل القانونية هو « ما كان فيها من إشارات يحطئها الحصر العصر الروماني القدم » . وهذا فإنه بدلا من أن يدرس القانون قرأ كل ما استطاع أن يجده من كتابات قرجيل ، وشيعرون ، وسنكا . وفتح هولاء أمامه عالما جديداً في الفاسفة والفن الأدبي ، وشرع يفكر كما يفكرون ، ويتوق إلى أن يكتب كما يكتبون ؛ ولما توفي أبواه (١٣٧٦) هجر دراسة القانون ، وعاد إلى أفنيون وألئي بنظمه في نحمار الشفر القدم وآداب الغرام .

ويقول إن يوم الجمعة الحزينة هو اليوم الذى وقعت فيه هيناه على المؤاة التي كانت مفاتنها المتسنعة هي التي جعلته أشعر شعراء عصره . وقد وتحقيقها وصفا مفصلا يفتين به قارئه ، ولكنته سرص على الاحتفاظ يسرية بشخصيتها حرصا حمل أصدقاءه على النظن أنها من مبتكرات خياله الشعرى ، وأن كل ما يبتها من عاطفة إنما هو "من قبيل التسامح الشعرى لا أكثر ، ويكتنا لا يزال في وسعنا أن نرى على الصفحة الأولى من نسخته المناصة من ديوان قرجيل ، التي تحرص مكتبة أمبروز بميلان على الاحتفاظ بها وتعدها من أنمن كنوزها ، لا نزال نرى الألفاظ التي كتبها بخطه في عام ١٣٤٨ بنصها :

في سنة ١٣٢٧ من ميلاد المسيح ، وفي اليوم السادس من شهر ابريل ، وفي الساحة الأولى ، وقعت عيناى في كنيسة القديسة كلارا Santa Clara بأقنيون على لورا Laura التي تمتاز بفضائلها ، والتي ذاعت شهرتها في أغانى . وفي تلك المدينة نفسها ، وفي الشهر نفسه ، وفي اليوم السادس يعينه ، وفي الساحة الأولى ذاتها ، من عام ١٣٤٨ احتجب هذا الفهوء من هارنا .

ترى من كانت لورا هذه ؟ لقد سُجِنَّت فى أفنون فى اليوم الثالث من أبريل عام ١٣٤٨ وصية أوصت بها سيدة تدعى لورا ده ساد Laura من أبريل عام ١٣٤٨ وصية أوصت بها سيدة تدعى لورا ده ساد Adde التي ولدت له اثنى عشر طفلا . وأكبر الفلن إن هذه هى السيدة التي كان بهم بها الشاعر ، وكان زوجها من الأسلاف الأيعدين لأشهر رجل سادى فى المتاريخ . وتصف الرواية المأثورة نفشا دقيقا يعزى إلى سيمون مرتيني يهزارك ، والصورة ذات وجه رقيق ، وفم ظريف ، وأنف مستقم ، وعين ناصبتن توجيان بالتواضع والتفكير . ولسنا نعرف أكانت أورا عودة قد تروجت أم كانت أما شابة حين وقعت علها عين يترارك أول مرة ،

وكان في هذه الأثناء يعيش في يروڤانس ، بلاد شعراء الفروسية الغزلن ، وكان صدى أغانهم لا يزال يتردد في أثنيون ، وصار يترارك ، كما صار دانتي من قبله بجيل من الزمان من هولاء الشعراء الغزان على غير علم منه ، يعير عن عاطفته بألف حيلة وحيلة من الحيل الشعرية . وكان قرض الشعر وقتئذ من أسباب اللهو الشائعة . وقد بلغ من شيوهه أن شكا پترارك في إحدى رسائله من أن المحامن ، ورجال الدين ، بل وخادمه الخاص نفسه قلد عمدواكلهم إلى قرض الشعر ، ويقول إنه يخشى ألا يمضى وقت طويل حتى « تشرع الماشية نفسها أن تخور شعرا ٣٦٠). وقد ورث عن بلاده بحر الأغانى ، وربط بينه وبن الشعر المني العسر الله ظل ماثة عام يشكل الشعر الإيطالي ويقف في سبيله ؛ وألف في خلال الإحدى والعشرين السنة التالية ، وهو سائر على ضفاف الجداول ، أو بين التلال ، أو راكع خاشع أثناء صلوات المساء أو القداس ، يتحسس طريقه بين صيغ الأفعال والصفات ، في سكون حجرته ، نقول إنه ألف في خلال هذه السنين سبع أغان وماثتي أغنية ، وقصائله. أخرى متنوعة عن لورا الحية الولود. وجمعت هذه الأغنيات والقصائد في نسخ مخطوطة وسميت الكندسنيير Canzoniere أو كتاب الأغاني ، فأثارت خيال شباب إيطاليا ، ورجالها ، ورجال الدين فيها . ولم ير أحد حرجا فى أن مؤلفها ، حنن لم يجد طريقا للرقى إلا طريق الكنيسة ، قد تيفيخ (*)

^() أي حلق شعر اليانوغ وهو كتابة عن أنه افتظم في سلك رجال الدين 🥒 (المترجم)

وانتظ في المراتب الصغرى من مراتب الكنيسة ، وأخذ يسعى للحصول على الرتب الكهنوتية . وأما لورا نفسها فلعلها قد اعتراها الخجل ، واهترت مشاعرها - حتن سمعت أن شعرها ، وأتفها ، وشنتها . . . كانت يتغي المباه من البحر الأدرياوى إلى تهر الرون . ولم يحدث قطد من قبل فيا أنقل من الضياع من أدب العالم أن عبر إنسان عن عاطفة الحب هذا التعبر الكامل المختلف الأنواع أو بمثل هذه الأساليب الشعرية التي بذل فيا الكثير من الجهد والعناء ، ففيه نجد كل تلك الأوهام المتكلفة الظريفة المنبعثة عن الرغبات المصوغة شعرا ، ونجد شعلة الحب الملهة قد شذبت تشذيبا عجيبا حتى احتواها الوزن والقافية . وفي هذا يقول الشاعر نفسه :

ا ما من ضخرة ، مهما بردت ، إلا ستشتعل من هذه الساعة وتحترق تحسراً إذا مستها أغاني » .

رلكن الشعب الإيطالى قد تلقى هذه المعانى الحلوة مصوفة فى أروع ما عرفته لغنه من الأنفام الموسيقية : رقيقة ، ظريفة ، منسجمة ، مزدانة بالخيال الساطع الوقاد ، الذى يبلو دانتى بإزائه فى بعض الأحيان خشئاً فيجاً ، فها هى ذى الآن تلك اللغة الفخمة الخيدة التى التصرت فها الحركات على الحروف الساكنة ، قد بلغت الآن درجة سامية من الحمال لم ترق إلها لغة ما إلى يومنا هذا . إن فى وسع الأجنى الذى ليس من أهل هذه اللغة أن يترجم ما فها من الأفكار ، ولكن منذا الذى يستطيع أن يترجم ما فها من موسيقى ؟ :

فى أية مملكة ذات سناء ، بل فى أى مبدان من ميادين الفكر المتألق صرت الطبيعة على النموذج الذي صاغت على مثاله هذه الصورة الرقيقة الباهرة التي تمثل هنا على ظهر الأرض ، اصنعته الطبيعة فى السهاء ؟ وأية حورية من ساكنات عيرن الماء ، وأية روح من أرواح الحراج نشرت مثل هذه الذوابات الذهبية
على متن الهواء ؟ وأى قلب عرف أمثال هذه الفضائل ؟
وإن كانت أكبر فضائلها قد انطوت على موتى :
إن من لا يتطلع إلى عينها اللتين اكتمل فهما الجمال
إنما يبحث عن الجمال السماوى بلا جلوى ؛
ومن لا يرى هاتين المقلمين النبرتين الزرقاوين تشعان الفهياء
لا يعرف كيف يلحن الحب ويصد
وليس يعرف حلو أنفاسها إلا من عرف

ولقد هيأت ليترارك تصائده ، وفكاهته المرحة ، وإحساسه المرهف بالجال في المرأة وفي الطبيعة ، وفي السلوك ، والآداب ، والفنون ، مكاناً في المجتمع المثقف ؛ ولم يكن تنديده بأخلاق رجال الدين في أثنيون ليمتع عظاء هوالاء الرجال من أمثال الأسقف جياكومو كولنا الدين في منافتهما ومناصرتهما ، أو أخاه الكردنال جيوقني كولنا أن يعرضا عليه ضيافتهما ومناصرتهما ، وقد فعل ما تفعله الكرة الغالبة منا فاستمتع وغفر قبل أن يمل ويلعن ؛ فقد كان يلهو مع محظية له بدن الفتر ات التي ينشد فها أغانيه للورا ، وولد له طفلان غير شرعين . ووجد متسماً من الوقت للأسفار ، وجع فيا يظهر مالا موفوراً ، فتحن نجده في باريس عام ١٣٣١ يمل ضيفا على آل كولنا فلاندز وألمانيا ، ثم في رومة عام ١٣٣٦ يمل ضيفا على آل كولنا فلانسرز وألمانيا ، ثم في رومة عام ١٣٣٦ يمل ضيفا على آل كولنا فقد كشفت له عن قوة وفخامة قديمتن لا تتفقان مع ما كانت عليه تلك الماصمة المهجورة في العصور الوسطي من فقر وقذارة ، وألح على خسة من البابوات متعاقبين أن يتركوا أفنيون ويعودوا إلى رومة ؛ وإن كان مو نفسه قد غاهر رومة وعاد إلى أفنيون ويعودوا إلى رومة ؛ وإن كان . هو نفسه قد غاهر رومة وعود إلى أفنيون . هو نفسه قد غاهر رومة وعود إلى أفنيون .



(الخريطة رقم ١)

وعاش سبع سنن بن أسفاره في قصر الكردنال كولنا في هذه المدينة الثانية ، كان يجتمع فمها بأظرف العلماء ، ورجال الدين ، والمحامن ، وحكام إيطاليا ، وفرنسا ؛ وإنجلترا ، ويوحى إلىهم ببعض تحمسه للآداب القديمة ، ولكنه كان يُغضبه ما في أڤنيون من فساد ورشا وخصام رجال الدين ، وما يستمتعون به من فراغ منهك قتال ، واختلاط الكرادلة والسراري، والنزول بالمسيحية إلى الشئون الدتيوية . فلما كان عام ١٣٣٧ ابتاع له منزلا صغراً في فوكلوز Vaucluse ، الوادي المغلق ٤ ــ الذي يبعد عن أثنيون عشرين ميلا جهة الشرق . ويجتاز الإنسان مناظر فخمة ذات روعة ليصل إلى ذلك المكان المنعزل ، فلا يتمالك نفسه من الدهشة حين يشهد كوخاً صغيراً قائماً أمام صخرة تعلوها أجراف شامخة وعرة ، ولكنه يلاطفه انسياب نهر السورج Sorgue الهادئ الرجراج . ولم يستيق بأرارك روسو إلى النسامي العاطني بحبه فحسب ، بل استبقه فوق ذلك إلى المتعة التي كان يستمدها من المناظر الطبيعية . انظر مثلا إلى ماكتبه إلى صديق له بقول : الاليتك تعرف ما أحس به من الهجة وأنا أجول ، حراً وحيداً ، بن الجيال والغابات ، ومجارى الماء ٩ . وفى عام ١٣٣٦ ضرب المثل لغيره من السياح بأن تسلق قمة ثنتو Ventoux (التي تعلو ٦٢١٤ قدماً) لا لشيء إلاالرياضة ، واجتلاء ما حولها من المناظر ، وما يشعر به المنتصر من زهو وخيلاء . وكان وهو في فوكلوز في ذلك الوقت يرتدى زى الفلاح العامل ، ويصيد السمك في الغدير ، ويرتاض في حديقتن، ويقنع وبكلب واحد وخادمان لا أكثر ۽ . ولم يكن يندم على شيء (لأن هيامه بلورا قد الصرف في أشعار الصيد) إلا على شدة بعده عن إيطاليا وشدة قربه من أڤنيون ۽

ومن هذه البقعة الصغيرة من الأرض أثار پترارك نصف العالم الأدنى . وكان يحب أن يكتب الرسائل الطوال لأصدقائه ، وإلى البابوات والملوك ، والأموات من المؤلفين ، وإلى الأبناء الذين لم يولدوا يعد . وكان يحفظ

بصور من هذه الرسائل ؛ ولما تقنمت به السن كان يسلى كبرياءه بمراجعتها وإعدادها للنشر بعد وفاته . وتعد هذه الرسائل المصوغة فى لغة لاتيثية جزلة ، ولكنها لاتضاهي لغة شيشرون ، أهم ما بثي من آثار قلمه . وقد وجه في يعضها إلى الكنيسة نقداً بلغ من شدته أن أبقاها سراً فلم تنشر إلا يعد أن مات وأصبح آمنا على نفسه . ذلك أنه وإن قبل في إخلاص ، كما يبدو للعيان ، عقائد الكنيسة الكاثوليكية كاملة ، كان يقيم بروحه مع الأقدمين : فكان يكتب إلى هوميروس ، وشيشرون ، وليني ، كأنهم رفاق له أحياً ، ويتحسر لأنه لم يولد في أيام البطولة ، أيام الجمهورية الرومانية . وكان من عادته أن يطلق اسم ليليوس Laelius على واحد ثمن يراسلهم ، واسم سقراط على واحد آخر . وقد أوحى إلى أصدقائه أن يبحثوا عن المخطوطات الضائعة في الآداب اللاتينية واليونانية ، وأن ينقلوا النقوش. القديمة ، ويجمعوا المسكوكات القديمة ، لأنها وثاثق تاريخية قيمة . وحث ولاة الأمور على أن ينشئوا دور الكتب العامة ، وكان يجعل نفسه قلوة فيعمل بما يدعو إليه : فكان في أسفاره يبحث عن النصوص الأدبية القديمة ويبتاعها لأنها د تجارة أعظم قيمة من كل ما يعرضه العرب أو أهل. الصين ٧٤ ، وينقل بخط يده المحطوطات التي لايستطيع شراءها ؛ ولما عاد إلى موطنه استأجر النساخين وأسكنهم معه في داره . وكان يزدهي پنسخة من هومبروس أرسلت إليه من بلاد اليونان ، ورجا مرسلها أن يبعث إليه بنسخة من موالفات يوريديز . وكان يصحب معه أينها رحل النسخة التي للديه من أشعار ڤرچيل ، ويسجل على الصفحة الأولى منها الحوادث البارزة في حياة أصدقائه . ولسنا ننكر أن العصور الوسطى قد حافظت على كثير من الآداب الوثنية القديمة ، وأن بعض الدارسين في تلك العصور قد أولعوا جله الآداب ؛ ولكن يترارك عرف من إشارات عثر علمها في هذه المولفات أن روائع لاحصر لها قد نسيت أو وضعت في غير المكان . اللاثق مها ، وجعل همه الكشف عنها . ويسميه رينان Renan ، أول الوجال المحدثين ، لأنه وخلق في العالم الغربي اللاتيني حنيناً رقيقاً إلى الثقافة القديمة ١٧٠ . على أن هذا الوصف الايكنى لتحديد معنى و الحداثة ، التي لم تكتف بإعادة الكشف عن أدب العالم القديم ، بل أحلت الأدب الطبيعي محل الأدب الحارق الطبيعة ، وجعلته مصدر اهمَّام بني الإنسان . ومهذا المعني أيضاً يستحق يترارك أن يوصف يالرجل ﴿ الحَديث ؛ ، فهو وإن كان تقيأ معتدلًا في تقواه يُنحره في بعض الأحيان ما يحدث للإنسان في الدار الآخرة • فإن ما بعثه من الاهمام يالعالم القديم كان هو منشأ اهتمام عصر النهضة بحياة الإنسان على هذه الأرض ، وعدم تحريم الملاذ الحسية ، وتمجيد الحياة الدنيوية بدلا من الخلود الشخصي . على أن يترارك لم يكن يخلو قلبه من العطف على وجهة نظر العصور الوسطى ؛ وقد أنطلق في محاوراته عن الهنقار الدنيا De Contemptu Mundi القديس أوغسطين بشرح جيد لهذه النظرة . ولكنه وضع نفسه في هذه الأحاديث الحيالية موضع المدافع عن الثقافة الزمنية والشهرة الدنيوية . وكانت هوة صيقة تفصل بين مزاجي دانتي ويترارك وإن كان ثانهما قد بلغ السابعة عشر من عمره حن توفى أولها . والنقاد مجمعون على أنه أول الكتاب الإنسانيين ، وأول كاتب عبر في وضوح وقوة عما للإنسان من حق في الاهتمام لهذه الحياة الدنيا ، وفي الاستمتاع بما تحويه من جمال ، وبدِّل الجهد في زيادته ، والعمل على أن يستحق الثناء من الأجيال المقبلة ؛ وقصارى القول أنه كان أيا للنهضة .

الفصل لثا في

ناپلى وبوكاتشيو

وبدأ يترارك في فوكلوز القصيدة التي كان يوجو بها أن ينافس فرچيل به وهي ملحمة سماها أفريقا اقتصاد، وهوضوعها تحرير إيطاليا بفضل انتصار السكييو الأفريق على هنيبال . واختار اللغة اللاتينية واسطة لها كما اختارها الكتاب الإنسانيون بعد قرن من ذلك الوقت ، ولم يحتر اللغة الإيطالية كما فعل دائى ، لأنه كان يريد أن يفهمه كل العالم الغربي الذي يعرف القراءة والكتابة . وكان يزداد ارتياباً في فيمة قصيدته كلما تقدم في نظمها ، ولهذا أفإنه لم يتمها ، ولم ينشرها . وبينا كان منهمكاً في شعره السدادسي الأوتاد ، كان كتاب أغانيه الإيطالية ينشر شهرته في طول إيطاليا وعرضها ، وأذاعت ترجة له شهرته في فرنسا . ثم وصلته في عام ١٣٤٠ دعوتان – كانت له هو يد في توجههما إليه – إحداهما من مجلس الشيوخ الروماني والأخرى من جامعة پاريس – تطلبان إليه القدوم إلهما ليتوج فيها أميراً للشعراء . Robert the Wise في طريقه إلى رومة .

وأعطيت مملكة فردريك الثانى بعد هزيمته هو وآل هوهنشتوفن بقوة بجيوش البابوات ودهائهم السيامى ، وكانت تشمل جميع إيطاليا الممتلدة جنوب الولايات البابوية ــ نقول أعطيت هذه المملكة لملى ببت أنهجو اللك كان يمثلهم شارل كونت پروثمانس . وحكم شارل تلك البلاد بوصفه ملك نابلى وصقلية . ثم انتزع بيت أرغونة صقلية من ابنه شارل الثانى . وكسب ابنه ربرت لقب الحكيم لكفايته وحسن تصريقه لشؤن الحكيم، ومهارته اللهلوماسية ، ومناصرته للآداب والفنون الراقية ، وإن كان قد أخفق في الحرب التي شها لاستعادة صقلية . لقد كانت مملكته فقيرة في الصناعة ، وكانت الزراعة يسيطر عليها ملاك قصيرو النظر يستغلون الزراع كما يستغلهم المملاك الآن استغلالا يكاد يدفعهم إلى الثورة . ولكن تجارة نابلي كانت تلم حفلات المرح والطرب. وحلم القصر الجليد Castel Nuovo لانتقطع منه حفلات المرح والطرب. وحلما أهل البسار حلو البلاط الملكي ؛ فأصبحت حفلات الزواج سبيلا إلى الحراب ، كما أضحى سباق الزوارق الملي يقام من آن إلى آن مصدر الهجة في خليج نابلي ذي الشهرة التاريخية المعظيمة . من آن إلى آن مصدر الهجة في خليج نابلي ذي الشهرة التاريخية المعظيمة . الحلورة بينا كانت السيدات المتوجات يبقسمن لهم من الشرفات المرجاس بالأعلام . وكانت الحياة في نابلي سارة طبية ، والآداب والآخلاق العامة الجو الملم المؤسلة طليقة ، والنساء حساناً لا يصعب منافن . وقد وجد الشعراء في هذا الحو الحل المنات الشعراء في هذا الحو الحو المؤمو عات لشعره ومن الحوانو اللها فعة الفرض الشعر . وكانت هذه البيئة هي التي كونت بوكاتشيو .

وكان بركاتشيو قد مدأ حياته في باديس : وكان مولده ثمرة غير مقصودة لوتفاق هي بن أبيه — وهو تاجر فلورنسي — وفتاة فرنسية. لا يعرف اسمها على وجه التحقيق ، وأخلاقها موضع للرية (٧٠ . ولعل مولده غير الشرعى : وأصله النصف الفرنسي ، قد تعاونا على تكبيف أخلاقه وتاريخ حياته . وجيء به وهو طفل إلى تشر تلدو Certaldo القربية من فلورنس حيث قضى طفولة غير سعيدة مع زوجة أبيه ؛ ثم أرسل وهو في العاشرة من عمره إلى نابل (١٣٦٣) ، حيث أعد لحياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفسه كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والمبتد وقبها سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المال والتجارة ، كما سرى في نفس كره حياة المناز و كما سرى في نفس كره حياته المقدر والشعر : وكما سرى في نفس كره حياته المتحر و كما المرى في نفس كره و كما المرى في المراك الم

أوقد : وأعجب أشد الإعجاب الفحولات والهمرودات ، وحفظ عن ظهر قلب الجزء الأكبر من فتوره الحب الذي يقول فيه : وإن أعظم الشعراء جميعاً يكشف كيف يمكن أن تلبّب نار فينوس المقامة في أشد الصدور برودا ه⁽¹⁾. فلما عجز أبوه عن أن يرخمه على حب المال أكثر من الجال أجاز له أن يترك الأعمال التجارية والمالية على شريطة أن يدرس القانون الكنسي ووافق بوكاتشيو على هذا الشرط ولكن عقله كان قد نضج المكتابة في الغرام .

وكانت أكثر النساء مرحاً في نابلي هي مارية داكوينو Maria d'Aquino . وهى ابنة غيرشرعية للملك الحكم (١١) ، ولكن زوج أمها قبل أن تكون ابنته . وتعلمت الفتاة في دير للنساء ، ثم تزوجت وهي في الخامسة عشرة من عمرها بكونت أكوينو ولكُنها لم تجد فيه ما يثي بحاجتُها ، فشجعت عددًا من العشاق واحداً بعد واحد لكي يسدوا ما تجده من نقص ، وينفقوا مالمم في نرفها وزينتها . وأبصرها بوكاتشيو أول مرة في قداس سبت النور (١٣٣١) ، يعد أن مرت أربعة من أعياد الفصح على العيد الذى كشف فيه پترارك الورا في ظروف مواتية مقدسة شبهة لهذه الظروف". وبدت له أجمل من أَفرديتي Aphrodite ، فلم يكن في العالم كله أجمل من شعرها الأشقر ، ولا شيء أكثر إغراء من عينها الحبيثين، ؛ وأطلق علها اسم فيامنا Fiammetta ـــ اللهب الصغير ـــ وكان يتوق لأن يحرق نفسه بنارها . ونسي في هيامه بها القانون الكنسي ، وانمحي من ذاكرته كل ما حفظه في حياته من الوصايا ، وقضى شهوراً طوالا لايفكر إلا في الطريقة التي تقربه منها . وكان يذهب للى الكنيسة منفرداً لعله يراها فيها ، ويذرع الشارع المقابل لنافذتها غادياً رائحاً ، ورحل إلى باني Baiae حين ترامي إليه أمها فيها . وظل يتتبع خطاها خمس سنين ؛ وجعلته ينتظر حتى فرغت من المال جيوب غيره ، ثم سمحت له أن يتغلُّب علمها . وقضت معه عاماً كلفه المال الكثير وأضعف من حدة

شهوته ؛ وشرعت هى تشكو من أنه يتطلع إلى غيرها من النساء ؛ هذا إلى أن موارده المالية قد نضب معينها فأخذت الشعلة الصغيرة تبحث عن موارد للمال جديدة ، وانزوى بوكاتشيو فى زوايا الفقر .

وأكبر الظن أنه كان قد قرأ ليترارك كناب الأُعاني ولداني كتاب الحياة الجريرة Vita Nuova ؛ وشاهد ذلك أن قصائده الأولى كانت كقصائدها أغاني مفعمة بالحنن ، والحرقة . والهيام الشديد . وكانت كثرتها موجهة إلى فيامنًا ، ومنها عدد قليل يصف هياماً أقل من هذا الحيام لوعة . وكتب فها رواية نثرية مملة تدعى فيلوكو يا اقتبشها من إحدى روايات العصور الوسطى الغرامية وهي الزهرة والزهرة البيضاء . وكان أجل منها قصة فيلوسترانا التي روى فها شعر رائع متألق كيف أقسمت كريسيدا Criseda أن تكون وفية لتروبلس Troilus طوال حياتها ، وكيف أسرها اليونان ، وكيف أسلمت نفسها بعد قليل من الوقت إلى ديوميد Diomed بحجة أنه « فارع الطول ، قوى ، جميل » وأنه سهل المنال . واختار بوكاتشيو أذاة له الموشحات ذات الثمانية الأبيات Ottava Rima التي كانت مثالا احتذاه بلتشي Pulci وبوياردو Boiardo ، وأريستو Ariosto . وهي قصة شهوانية سافرة مؤلفة من ٤٠٠ره بيت من الشعر . تصل إلى ذروتها حن « تطرح كريسيدا ثيامها وتلقى بنفسها وهي عارية في أحضان حبيمها ١٣٥٠) . ولكن القصة إلى هذا دراسة نفسانية رائعة لصنف من النساء ــ خائن في قلة ، مغرور في مرح : وتختم بعبارات أضحت الآن واسعة الانتشار في التمثيليات الغنائية . ١ إن الفتاة الشابة طائشة . تشتهي كثراً من العشاق ، تقلس جالها أكثر مما تنبئها به مرآنها ، مختالة فخوره ... لا تعرف كنه الفضالة . ولا الذكاء ، قلقة على الدوام كالريشة في مهب الريح ، .

(+ 4 = 1 = - T)

وكأنما أراد بوكاتشيو أن يقضى على تمنع فيامتا بوطأة الشعر لا غير ك فأهدى إليها بعد قايل من الوقت ملحمة شعرية يبلغ طولها طول الإنياذة تماماً. وتروى هذه الملحمة ما وقع من التنافس اللدموى بين أخوين هما ياليمون Arcite وارتشيق Arcite بسبب حهما لإميليا Falemon وأحضان حبيه ، ثم قبولها المهزوم بعد التريث الواجب غير أن حب الأبطال نفسه بهن بعد نصف أبيات القصة البالغ عادها عمر أن حب وق وسع القارئ الإنجليزى أن يقنع بالموجز المحكم الذي وضعه تشوس علم كله القصيدة في قعة الغارس .

وغادر بوكاتشيو نابلي لل فلورنس فى أوائل عام ١٣٤١. وبعد شهرين من ذلك الوقت قدم پتر ارك إلى بلاط الملك ربرت ، وتفيأ بعض الوقت ظلال هذا المليك ، ثم سار فى طريقه يبحث عن تاج أمر الشعراء فى رومة ـ

الفيرل لثالث

شاعر البلاط

وكانت رومة عاصمة العالم بلدأ خليقاً بالرثاء ؛ فقد غادرتها البابوية إلى أثنيون منذ عام ١٣٠٩ ، ولم يبق فها من الموارد الاقتصادية ما يني حتى بذلك المجد الوسط الذي عرفته تلك المدينة في القرن الثالث عشر، ولم تعد تتلقى تلك المُروة التي كانت تنساب من ألف أبرشية وأبرشية موزعة في نحو اثنتي عشرة دولة . كذلك لم تكن للسفارات الأجنبية قصور فها ، وقلما كان يظهر فها وجه كردنال بين خربات الإمبر اطورية والكنيسة . ولم يكن ما أصاب الأضرحة للسيحية من دمار ليقل عما أصاب الصروح القديمة المعمدة ؛ وكان الرعاة يسرحون بقطعان الماشية على صفوح التلال السبعة ، والمتسولون يجوبون شوارع للدينة . وقطاع الطرق واللصوص يكمنون * الطرق العامة ، والزوجات ُ يختطفن من أزواجهن . والراهبات ُ يغتصين ، والحبجاج ينهبون ، وكل من في المدينة يحمل السلاح(١٣) ، وكانت أسر الأشراف القديم، ـــ آل كولنا ، وأرسيني ، وساقلي ، وأنيبا لدى ، وجيتانى ، وفرنچيها – تتنازع فيا بينها ، وتلجأ إلى العنف ثارة وإلى الدسائس والمكاثد تارة أخرى ، الظفر بالسيادة السياسية في مجلس الشيوخ الألجاركي الذي كان يحكم رومة . وكانت الطبقات الوسطى قليلة ضعيفة ، وجمهرة الشعب خليطا مهوشاً من عشرات الشعوب يعيشون على حال من الفقر المدَّفع يشل كل قواهم ولا يبعث فيهم أقل رغبة في حكم أنفسهم بأنفسهم . وقد تدهورت قبضة البابوية الغائبة على المنينة فلم تعد أكثر من سلطة اسمية نظرية لمندوب بابوى لايعني أحد بشأنه ، ومِن هذه الفوضى والفاقة كانت الآثار المحطمة لعصر قدم مجيد تغذى وروى العلماء وأحلام الوطنين. فكان الرومان يعتقدون أن ستعود رومة في يوم من الأيام حاضرة العلم الروحية والسياسية ، وأن البرابرة المقميين وراء الآلب سيرسلون إلها الجزية والزكاة . وكان لايزال في وسع رجال يقيمون في مناطق متفرقة من الملايئة أن يجدوا لديم فضلة من المال يناصرون بها الفن : فقد زين پيرو كفلني Pietro Cavallini كنيسة مارية في تراستيفيرى Trastevere بالفسيفساء البديعة ، وأنشأ في كنيسة القديسة تشيئشبلها مدرسة رومانية لرسوم المظلمات تكاد تضارع في أهيئها مدرسة جيتو Giotto في سينيا أو مدرسة جيتو Giotto في فقرها لم تحل من الشعراء الذين أساهم ماضها المجيد حاضرها البئيس . فبعد أن أعادت پدوا Padua ويراتو وضع إكليل على جهة شاعر عبوب ، رأى مجلس الشيوخ أن نما يتفق مع مكانة رومة التاليدية بوصفها أولى المدائن الإيطالية أن تنوج الرجل الذي أجمت الآراء على أنه حامل أول المدائن الإيطالية أن تنوج الرجل الذي أجمت الآراء على أنه حامل أولى المدائن الإيطالية أن تنوج الرجل الذي أجمت الآراء على أنه حامل أولى المدائن وأمة وعصره .

وتنفيذاً لهذا العزم سار موكب بهيج من الشباب والشيوخ في اليوم النامن من إبريل عام ١٣٤١ يرافق پتراوك وقد ارتدى المزر الأرجواني الذي خلعه عليه الملك وبرت حتى وصل إلى سلم الكيتول . وهناك وضع تاج من الغار على رأسه . وقام الشيخ استفانو كولنا الطاعن في السن بإلقاء خطبة أثني فها عليه ثناء جاً . ومن ذلك اليوم كسب پتراوك شهرة جديدة وأعداء جدداً ، هأخد منافسوه ينتفون تاجه بأقلامهم ، ولكن الملوك والبابوات رحبوا به في بلاطهم ، وسرعان ما وضعه بوكاتشيوفي مصاف و الأقامين النابهين » ، وأعلت إيطاليا وهي مزهوة يما يلغه من الصيت أن فرجيل قد ولد مرة أخرى .

ترى أى رجل كان پترارك في ذلك الوقت الذي بلغ فيه دُووة مجده ? لقد كان في شبابه مهى الطلعة وسيماً ، يختال بجال منظره وثيابه ؛ وكان حين كبر يسخر من حرصه الشديد على العناية بمظهره وملابسه وعقص شعره ، وضغط قدميه في حذاءين جميلي المنظر . ولما بلغ سن الكهولة سمن وأطال الشعر على ذقنه ، ولكن وجهه ظل محتفظًا بسحر رقته وحيويته ٪ . وبقى مزهواً بنفسه إلى آخر أيامه ، وكان كل ما حدث فى هذه الناحية من يتغيير أنه أخذ يزهو بجلائل أعماله بدل الازدهاء بمنظره ؛ لكن هذا عبب لايسلم منه إلا أعاظم القديسين. ولولا مايظهر في رسائله من تواضع متكلف وافتخار شريف لتضاعف ما فها من فتنة وبهاء . وكان كسائر الناس يحب الثناء، وتتوق نفسه للشهرة، ﴿ وللخلود ﴾ الأدبي ، وبذلك كان في مسهل عصر النهضة الضارب على وترها الحساس وهوالتعطش إلى المحد . وكان يغار من منافسيه ، ونزل من عليائه لمرد على ما يصفونه به من عيوب ؛ وقد أثار البعض على ما يلغه دانتي من مكانة (وإن كان قد أنكر ذلك) ؛ وارثاع من شراسة دانتي، كما ارتاع إرزمس فيها بعد من فجاجة لوثر ؛ ولكنه كان يحس أن في عناد شاعر فلورنس وجرأته شيئًا أعمق مما يستطيع القلم الهين أن يسير غوره . وكان وهو في ذلك الوقت نصف فرنسي في نزعته أكثر تحضراً من أن يسب نصف العالم ، وكانت تنقصه العاطفة المتأججة التي رفعت سمت بإيطاليا ثم أنهكت قواها .

وإذا كان قد وهب بعض المناصب الكهنوتية ، فقد كان له من الرخاء ما يحمله على ازدراء الثروة ، ومن الضعف ما يبعث فيه حب الحياة الأدبية ، ويقول في هلما :

و ليس ثمة عبء أخف على النفس أو أحب إليها من حمل الفلم . فأما غير ذلك من المتع فإنا تعجز عن نيله ، أو أنه يجرحنا في الوقت الذي يسحر فيه لبنا ؛ وأما القلم فنصلك به مغتبطين ، ونلقيه راضين ، ذلك أن فيه من

القوة ما لا ينفع ربه وسيده وحده ، بل ينفع كذلك كثيرين غيره ، وإن لم يولدوا إلا بعد موت صاحبه بآلاف السنن . . . وكما أنه لا يوجد بن المناهج الدنيوية ما هو أسمى من الأدب ، فكذلك لا يوجد بينها ما هو أبقى على الزمن ، أو أرق ، أو أكثر وفاء ؛ أو ما يلازم صاحبه في جميع صروف الحياة نعيمها وشقائها ، دون أن يكلفه إلا القليل من الجهد أو انشفال المبال (١٩٥٠).

لكنه مع هذا يحدثنا عن و أمرجته المتغلبة التي قلما كانت تسعده ، والتي كانت عادة تنزع به إلى القنوط (١٥٠٥) . وكان لا بد له ، إذا أراد أن يكون كانباً عظها ، أن يكون مرهف الإحساس مجال الشكل والصوت ؛ في الطبيعة ، وفي النساء والرجال على السواء ؛ أى أنه كان عليه أن يعاني أشد نما تعانيه الكثرة الغالبة منا من صحب العالم وما فيه من تشويه . وكان يحب الموسيق ، ويجيد العزف على العود ، وكان يعجب بالتصوير الجميل ، وبعد سيمون مرتبي Simone Martini من بن أصدقائه . وما من المحميل ، وبعد سيمون مرتبي العزف على أن النساء كن مجتذبته ، وشاهد ذلك أنه يتحدث عهن في بعض شك في أن النساء كن مجتذبته ، وشاهد ذلك أنه يتحدث عهن في بعض الأحيان بحوف لد يقل عن خوف النساك الزاهدين ، ويؤكد لنا أنه لم يتصل في المرأة اتصالا جمهانياً بعد أن بلغ من الأربعين ، ويقول في هذا : ويان قوة الجسم والمقل التي تكني النشاط الأدني وتكني معه الزوجة ، لا بد

ولم يعرض يترارك على العالم فلسفة جديدة . فقد نبذ الفاسفة الكلامية المللوسية لأن كل ما رآه فيها هو بتر وتقطيع منطق لا جدوى منه وبعيد كل البعد عن مطالب الحياة . وتحدى القاتلين بعصمة أرسطير من الخطأ ، وجرو على تفضيل أفلاطون عنه . ورجع عن أكوناس ودانز اسكوتس إلى الكتاب المقدس وكتب آباء الكنيسة ، وأحب تقوى أو غسطين وأقواله المنعمة الجميلة ، كما أحب رواقية أمير وز المسيحية ؛ بيد أنه كان يقتبس من أقوال شيشرون وسنكا بإجلال لايقل عن إجلاله ما يقتيسه من أقوال

القديسين ؛ ويأخذ حجج عن السيحية أكثر نما يأخذها من النصوص الوثنية . . وكان يسخر من انقسام الفلاسفة على أنفسهم ويقول إنه 1 لم يجا بينهم من الاتفاق أكثر مما يجلمه بين الساعات(١٧) . وكان من أسباب شكواه أن و الفلسفة لا "مدف إلا إلى التقسّم والتفتيت ، و إلى التنقيب عن الاختلافات والفروق ، والتلاعب الألفاظ (١٨٠) . وتلك طريقة بمكن أن تخلق أشخاصاً بارعين في النقاش والجلدل ، ولكنها قلما تخلق عقلاء . . وكان يسخر من درجةً ﴿ الأستاذَ ﴾ أو ﴿ الدكتور ﴾ التي تتوج هذه الدراسات ، وعجب كيف تستطيع الحفلات أن تبدل الأبله الأحمق عالمًا نحريراً . ونبذ ، في ألفاظ تكاد تكون هي بعينها ألفاظ أهل هملم الآيام ، التنجيم والكيمياء الكاذبة النديمة ، وحلول الشياطين في أجسام الآدميين ، والفأل والطيرة ، وزجر العلير ، ومعرفة الغيب عن طريق الأحلام ، وما كان يروى في أيامه من المعجز اتّ(١٩) وأوتى من الشجاعة ما استطاع به أن يثني على أبيقور (٢٠٠ ، في الوقت الذي كان اسمسه مرادفاً للكفر بالله . وكان من حين إلى حين يتحدث حديث المتشككين ، ويجهر لهذا التشكك جهر ديكارت به ويقول : ﴿ إِنَّى لَارْتِيانَى في مواهبي . . . أتقبل الشك نفسه على أنه حقيقة . . . فلا أو كد شيئًا ، وأرتاب في كل شيء إلا حيث يكون الشك تجديفاً ،(٢١) .

ويبدو أبه حين استثنى هذا كان محلصاً في استثنائه . ذلك أنه لم يكن يجمور بأى شك في عقيدة ما من حقائد الكنيسة ، فقد كان ظرفه و دمائة بحلقه وراحة باله مانعة له من الإلحاد . وقد وضع كثيراً من المؤلفات التي تقواه وخشوعه ؛ وهو يسائل نفسه سؤال المتحبر : ألم يكن خبراً له أن يشق طريقه صهلا إلى الحنة كما شقها أخوه في ظل حباة الدير الهادئة . ولم يكن يرى نفعاً في فلسفة ابن رشد الإلحادية التي كانت قريبة منه في بولونيا وبلنوا ، وكانت المسيحية في نظره تقدماً لاشك فيه على الوثنية ، وكان يرجو أن يتبن الناس أن في وسعهم أن يتعلموا دون أن يتخلوا عون أن يتخلوا على مسيحيهم .

ورأى پر ارك أن من الحبر له بعد انتخاب البايا الجديد ، كامينته السادس (۱۳۴۲) ، أن يعود إلى أفينون ليقدم له تحياته ويعرض عليه أمانيه .. وجرى كلمنت على السُنَّة القديمة سنة منح هبة _ هى عبارة عن إيراد بعض. أملاك الكنبة لمن يؤيلونها من الكناب والفنائن ، فوهب الشاعر رياسة دير بالقرب من يهزا ، ثم عينه فى عام ١٣٤٦ أسقفاً فى بازما ؛ ثم أرساله عام ١٣٤٣ أسقفاً فى بازما ؛ ثم أرساله عام ١٣٤٣ فى بعثة إلى نابل حيث التى بحاكم من أصعب حكام زمانه مراسة وأقواهم شكيمة .

وكان ربرت الحكيم قد مات توا ، وورثت ابنته چونا Joanna الأولى عرشه وأملاكه ومنها ولاية بروقانس وأفنيون تبعاً لذلك . وتزوجت چونا بابن عمها أندرو ابن ملك الهر إرضاء لوالدها ، وظن أندرو أن من حقه أن بكون ملكاً وزوجاً مما ، فقتله لويس صاحب تارنتو عشيق چونا (١٣٤٥) . و وزوجاً لملكة . وخلف أندرو على عرش الهبر أخوه لويس فرحف بجيشه على إيطائيا ، واستولى على نابلي (١٣٤٨) . و فرت چونا إلى أفنيون ، وباعت المدينة إلى البابوية بيانين ألف فلورين (نحو مدوني دولار) ؛ وأعان كلمت أنها بريئة ، ووافق على زواجها ، وأمر الفزاقة بالمعودة إلى بلاد المجر . ولم يأبه الملك لويس بأمره ، ولكن الموت الأسود (١٣٤٨) فننا في جيشه ، وأهلك كثيراً من جنوده فاضطر إلى الانسحاب . واستعادت چونا عرشها (١٣٥٧) ، وظلت تحكم البلاد في جو من الأمهة والذيلة حتى خامها البابا إربان السادس (١٣٨٠) ؛ ثم قبض علها شارل. دو دورتسو وروسور على المام التالى ، وقلت في عام ١٣٨٠)

ولم يتصل پترارك بهذه المهزلة اللموية إلا في بدايتها أى في السنة الأولى من حكم چونا ؛ ثم لم يليث أن عاد إلى نجواله ، وأقام فترة من الوقت في پارما ، ثم في بولونيا ، ثم قضى جزءاً من عام ١٣٤٥ في فيرونا . وفي هذه المدينة الأخيرة ، عثر في مكتبة بإحدى الكنائس على مخطوط يجوى رسائل شيشرون المفقودة لأنكس ، وبروتس ، وكونتس ، وكان قبل ذلك قد كشف فى لبيج Liége عام ۱۳۳۳ عن خطبة شيشرون المسهاة Pro Archia وهى أنشردة المشعر . وكان هذان الكشفان أجل ماكشفته المهضة من الأدب الغدم وأعظمها ثمرة .

وقىمقدورنا أن نعد ﭬرونا فى أيام پترارك من أعظم الة ى فى إيطاليا ؛ فقد كانت هذه المدينة تزُّهو بقدم تاريخها ، وبملهاها الروماني (حيث لا يزال في وسع الإنسان أن يستمع في ليالي الصيف إلى التمثيليات الغنائية في الهواء الطلق ؛ وزادت ثروتها بفضل التجارة التي تهبط من جبال الألب وتنقل في نهر الأديج Adige . وارتقت المدينة رقيًا عظيمًا في عهد أسرة اسكالا حتى كادت تنتزع السيادة النجارية من مدينة البندقية ، واختارت حكومة المدينة بعد موت إتسيلينو Ezzelino الرهيب (١٢٦٠) مستينو دلا اسكالا Mostino della Scala حاكماً علمها ، واغتيل مستينو (١٢٧٧) ولكن أخاه ألبرتو Alberto الذي خلفه في الحكم ثبت دعائم حكم الاسكلچيرى Scaligeri (أى ه حملة السلم ه و هو رمز ملائم لهذه الأسرة المصَّمَّدة ﴾ ، وبدأ هذا الحاكم عهد ڤىرونا المجيد . وفي عهده بدأ الرهبان الدمنيك يشيدون الكنيسة الجميلة كنيسة القديسة أناستاسيا Anastasia ؟ وكشف نَسَّاخ غبر ذي شأن القصائد المفقودة التي كتبها كاتلس Catulus أشهر أبناء فمرونا ، وحاربت أسرة الكاپلتي الجلفيـــة Quelf ، أسرة المنتشى Montechi ، ولم تكن هاتان الأسرتان تحليان أنهما سوف تصبحان أسرتى الكاپيولت Qapulet والمنتجيو Montagues في رواية شيكسپير ؟ وكان أقوى (الطغاة ، وإن لم يكن أقلهم نبلا ، من أسرة اسكالا هو كان جراندي دلا اسكالا Can Orande delia Scala الذي جعل بلاطه ملجأ الجبليين المنفيين ومثابة للشعراء والعالمء ؛ وفيه ظل دانتي عدة سنين يتمتع بالعطف المزعزع المطرد الزيادة . ولكنَّ كان جراندى هذا أخضم فيتشندسا Vtcenza ، ويدوا ، وتريڤىزو Treviso ، وبلونو Belluno ، وفلترى Feltre ، وتشقد الله التناقة من جميع نواحيا . ولما أن خلف كان يتهددها خطر الإحاطة الخانقة من جميع نواحيا . ولما أن خلف كان جراندى أخوه مستينو Mastino الثانى -- وكان أقل منه قوة وحاسة -- أعلنت البندقية الحرب على فرونا ، وتحالفت مع فلورنس وميلان ، واعلنت فرونا على أن تتخلى هن جميع ما فتحته من المدن هدا مدينة والوعت فرونا على أن تتخلى هن جميع ما فتحته من المدن هدا مدينة على جهر المكالجيرو Scalegero الفخم على جهر المكالجيرو المكالجيرو Consignorio ، وكانت في ذلك الوقت أكبر قنطرة في العالم ، واغتاله أخوه كنسنيوريو Consignorio ، وحكم بعد هذا الاغتيال حكماً خيراً صالحاً ، وشاد أعظم قمر مزخوف من القبور الذائمة الصبت التي دفئت فيها أسرة اسكالا . واقتسم ابناه المرش وظلا يقتتلان إلى أن ماتا ، فلما كان عام ۱۳۸۷ استوات دوقية ميلان هلي قبرونا وقيتشندما .

الفصل لرابع

ثورة بيندســو

وعاد پترارك إلى أشيون وفوكلوز (١٣٤٥ - ١٣٤٧) ، وكان لا يزال يينم بصداقة آل كولنا ، فسره أن يعلم أن الثورة قد اشتعل لحبها فى رومة ، وأن ابن صاحب حانة وغسالة (٢٠٠٠) قد انتزع السلطة من آل كولنا وغيرهم من الأشراف ، وأعاد إلى الوجود الجمهورية الجيدة جمهورية آل المحبور ، وجراكس ، وآرناك العريتشيائي Arnold of

وكان نكولا دى ريندسو جعريى ذلك الوقت فجعلوه الذى احتصر العامة المقتصليون في الأسماء اسمه فى ذلك الوقت فجعلوه كولا دى ريندسو Cola di Riezo ثم احتصره الحلف المهملون فجعلوه ريندسي Rienzi ، كان هذا الرجل قد التي يبترارك في عام ١٣٤٣ ، وذلك حين قدم إلى أفيون ، وهو شاب موثق ، قبل ذلك الوقت بطلائن عاماً ليطلع كلمنت السادس على ما آل إليه حال رومة من البوس ، وليهالب إلى البابوية أن تمد يد للمونة الشعب الروماني ضد النبلاء المتنازعين المبابين المسلايين وقتئد على العاصمة وداخلت كلمنت الشكوك في هذا الرجل ولكنة رده بعد أن نفحه بالفلورينات وشجعه بالأقوال لأنه كان يأمل في أن يستخدم هذا القانوني المتحمس في النزاع الكثير الحلوث بين البابوات والأشرافه .

وأثارت خرائب رومة وآدامها القديمة خيال رينلسو كما أثارت خيال يترارك ، فارتدى الشملة الرومانية (Toga) البيضاء التي كان يلبمها أعضاء عِلْس الشيوخ القدامى، وأخذ يتحدث إلى الرومان بجاسة لا تقل عن هاسة ابنى جراكس وبلاغة لا تكاد تقل على بلاغة شيشرون، ويشر إلى بقايا السوق الرومانية الكرى ذات الجلال والفخامة، والحيامات الكبرى، ويذكر الرومان بالأيام الخوالى حين كان الأباطرة أو القناصل يشرعون القوانين من فوق هذه التلال ويصدرون الأوامر المدينة وللعالم أجمع على القوانين من فوق هذه التلال ويصدرون الأوامر المدينة والعالم أجمع على واختيار تربيون له من القوة ما يستطيع به أن يحميم من الأشراف واختيار تربيون ألم التبخار هل يستطيع ذلك التربيون المرتقب أن يجمل مكاناً آمناً تقوم في السناعة وتنشط التجارة ، وسخر منه الأشراف ، واتخذوا ريندمو هدفاً لمرحهم وفكاهاتهم على موائد العشاء ، وثوعدهم هو بأن يختار طائفة مهم بيشقهم حين يندلع لهيب الثورة .

وما كان أشد فزعهم حن الغليم لهيجا فعلا. فقد حدث في ٢٠ مايو من عام ١٣٤٧ أن جاء حشد من الرومان وازدحموا في الكيتول. وظهر ريندسو أمامهم يحف به أسقف أرقينو ناتياً عن البابا . وأعلن عودة الجمهورية ، وتوزيع الهيدةات على المعوزين ، واختبر الرجل حاكماً بأمره ، وأجازوا له في اجتماع آخر عقد فيا بعد أن يتحد لنفسه اللقب الشعبي القديم – لقب تربيون . واحتج على ذلك استفانوكولنا عضو الشيوخ الحرم ، فأمره كولا أن يخرج هو وغيره من النبلاء من المدينة . واستشاط هولاء الأشراف غضباً ولكتهم اضطروا إلى إطاعة الثوار المملحين ، فانسحبوا إلى ضياعهم في الريف . وأسكرت ريندسو خرة النصر فأخذ يتحدث عن نفسه كأنه

 ⁽ ه) ررد هذا الفظ بصينة وأطربون و أي اتفائد أو الحاكم في أقوال العرب و فإن يكن أطربون الروم قطعها فإن فيها بحمد الله متنفعاً وكفائل فيها بحمد الله متنفعاً وكفائل يترجه البعض و عاصلة عندي وكننا أثرفا بقاء الاحم الأجزبي لأنه أوضح (المترجم)

« المنقذ الأعظم للجمهورية الرومانية المقدسسة » الملهم « يقوة . . .
 يسوع المسيح(۲۲) » .

وكانت إدارته لشئون البلدة أحسن ما تكون الإدارة ، فقد نظم أثمان المواد الغذائية ليمنع المكاسب غير المشروعة ؛ وحفظ ما زاد من الغلال في أهراء ، وبدئ العمل في تجفيف المستنقعات الموبوءة ببعوض الملاريا ، وزرعت أرض كمپانيا وأنشئت محانكم جديدة لتوزيع العدالة بإنصاف لا رحمة فيه ولا هوادة ، فكان يحكم على الراهب وعلى البارون بالإعدام إذا ارتكبا نفس الجرم ، وشنق عضو شيوخ قديم لأنه سرق مركبا تجاريا ؛ ,وقبض على التَثلة الذين الستأجرهم الأحزاب المتنازعة ، وأنشلت محكمة للصلح وفقت في بضعة أشهر بين المتخاصمين في ١٨٠٠ نزاع . وارتاع الأشراف اللذين اعتادوا أن يتصرفوا فى القوانين على هواهم إذ وجدوا أنهم قد ألقيت على هانقهم تبعة الحرائم التي ترتكب في ضياعهم ، وفرضت على يعضهم. غرامات فادحة ، وسيق بيترو كولنا رغم مهابته وخيلائه إلى السجن حاقى القدمين . وعرض القضاة المهمون بالعبث بالعدالة مصلوبين في الميادين العامة ، وفلح الزراع حقولهم فى أمن وسلام لم يعهدوا لها مثيلا من قبل > .وكان النجار والحجاج القادمون إلى رومة يُفَجِّلُون شعار الجمهورية الى معثت من جديد والتي أمنت الطرق العامة بعد أن ظلت نصف قرن من الزمان مهامة لقطاع العلريق(٢٤) . ودهشت إيطاليا على بكرة أبها مما حدث رومة من تغير وتحول ، ورفع بعّراوك إلى رينامسو قصيدة تغيض بالثناء. والاعتراف بالجميل .

واغتيم التربيون هذه الفرصة وأفاد منها كما يفيد السياسي المحتك المدرىء ، فأرسل الهوفود إلى جميع أمحاء شبه الحزيزة ، ودعا المدن أن ترسل بمثلها ليتألف مهم برلمان عظم يضم أشتات و إيطاليا المقدسة ، ويحكمها على منظام الملديات المستقلة المتحدة ، وتكون رومة عاصمة العلم كما كانت من

قبل . وتمهيداً لهذه الغاية جمع مجلسا من القضاة دعاهم من كافة أنحاء إيطاليا ، وعرض علمهم السوَّال الآتي : هل من حق الجمهورية الرومانية ، وقد بعثث إلى الوجود ، أن تستعيد جميع الامتيازات والسلطات التي عهدت مها في أثناء ضعفها وانحلالها إلى غيرها مِن السلطات ؟ ولمسا أجاب المجلس عن هذا السَّبُّ أَلَّ بِأَنْ ذَلِكَ من حَمّها ، عرض رينامو على الحمية الشعبية قانونا يعيد إلى الحمهورية كل هذه المنح والسلطات . ومحا هذا الإعلان الشامل مثات من الهبات ، وحوادث النزول من العرش ، والتتوبج ، وهدد الإمبر اطورية الرومانية المقدسة ، والمدن المستقلة ، وسلطة الكنيسة الزمنية جيعها . وبعثت خمس وعشرون من حكومات المدن المستقلة بممثلها إلى برلمان ريندسو ، ولكن المدن الكبرى ــ البندقية ، وفلورنس ، وميلان ــ ترددت في المزول عن سيادتها العليا إلى دولة اتحادية . وسر كلمنت السادس من تقوى ريندسو ، ومن إشراك أسقف أرڤينو معه في السلطة رسميا ، ومما أفاءه على الحجاج من حماية ، ومن مشروعه الذي يرمى إلى إقامة عيد عام في سنة ١٣٥٠ ينتظر أن يدر على البلدة مالا جما ، ولكنه شرع يسائل نفسه : أليس هذا الجمهوري العظم الآمال رجلا حلما مثاليا مندفعا اندفاعا سوف يؤدي به إلى النمار ؟

ثم تحطم هذا الحلم النيل ، وكان تحطمه مثاراً للعجب والأمى مما . ذلك أن السلطة ، كالحرية ، امتحان لا يجتازه بنجاح إلا من اتصف بالذكاء والرزانة والهدوء . أما رينامسو فقد بلغت قوته الحطابية مبلغاً يمنعه أن يكون من رجال الحكم الواقعين . وأصبح يومن بعباراته الخلابة ، ووحوده ، ومطالبه ، وسممت عقله أقواله المنبقة . ولما اجتمعت الجمعية الاتحادية (في شهر أغسطس من عام ١٣٤٧) ، انفق على أن تبدأ أعمالما بمنحه لقب فارس . واتحذ طريقه في مساح ذلك اليوم يحف به حرسه إلى مكان التعميد ف كتيسة القديس جون لاتران ، وألق بنفسه في الحوض العظم ، الذي تطهر فيه قسطنطين من وثنيته وذنويه ، كما تقول القصة ، ثم ارتدى ثياياً. بيضاء ، وقضى الليل نائماً على أربكة عامة وضعت بين أعمدة الكنيسة . فلا أصبح الصباح أصدر إلى الجمعية وإلى العالم أجمع مرسوماً يعلن فيه حربة جميع الملك الإيطالية ، ويمنح أهلها جميعاً حق المراطنية الرومانية ، محتفظ لسكان ورمة وإبطاليا دون ، واهم بحق اختيار الإمبراطور . ثم استل سيفه ولوح به في ثلاث جهات وقال بوصفه ممثل رومة : ه ذلك ملكى ، وذلك في ، جواد أبيض ، ويختف الحين في الإسراف والمباهاة ، فكان يمنطي صهوة بحواد أبيض ، ويختف من نفوق رأسه علم ملكى ، ويتقدمه ألف حارس ولما عاب عليه استفانو كولنا أهدابه اللهجية أعلن أن الأشراف يأتمرون به فسيقوا مكيلن بالأغلال إلى الكيتول ، وعرض على الحمعية أن يعلموا ، فسيقوا مكيلن بالأغلال إلى الكيتول ، وعرض على الجمعية أن يعلموا ، مناصب المدولة في تعالم المرض ، وعفا عبم ، وانتهى الأمر بأن عيهم في بعض مناصب المدولة في تعالميا . وكان جزاوه منهم أن حشلوا قوة من مرتزقة مناصب المدولة في تعالميا . وكان جزاوه منهم أن حشلوا قوة من مرتزقة المختد معادية الجمهورية ؛ وخرج حرس للدينة الوطني لملاقاتهم ، وهزمهم ، وقتل في المحري استفانو كولنا وولده (٢٠ نوفير سنة ١٣٤٧) .

وسكر ويندسو بحمرة النصر فأخذ يغفل شيئاً فشيئاً شأن مملي البايا الله أشركه معه من قبل في منصبه وسلطانه . وأخذ كرادالة إيطاليا وفرنسا ينذرون كلمت بأن إيطاليا الموحدة ستجعل الكنيسة أسرة الدولة – وأن هذا الأسر يصبح أشد وأكثر توكداً إذا قامت إدبر اطورية يحكها رومة . وعملا سلما التحلير كلف كلمنت مندوبه في رومة برتران ده دو Bertrand de أن يعرض على ريندسو واحدة من اثنتين : خامه من منصبه أو تقييد ملطانه بحيث يقتصر على الشئون الدنيوية الحاصة بملينة رومة . وخضح كولا بعد أن قاوم بعض المقاومة ، ووعد بإطاعة البايا ، واسرد المراسم كولا بعد أن قاوم بعض المقاومة ، ووعد بإطاعة البايا ، واسرد المراسم القي ألغي علمها الامتيازات الإمبراطورية والبابوية . ولكن هذا الحضوع

لم يرض كلمف فاعترم أن يخلع العربيون المعاند ، وأصلع في الثالث من حيس مرسوماً بابوياً يصم فيه كولا بالإجرام والإلحاد ، وجيب بالرومان أن يطرح ومن البلاد . وأشار أيلظهوب إلى أسم إن لم يفعلوا هذا لن يقام عيد . وكان الأعيان في هذه الأثناء قد حشدو اجيشاً آخر ، زحف على رومة . وأمر ريندسو أن تدق الأجراس تدعو الشعب إلى همل السلاح . لكن هذه المدعوة لم يستجب لها إلا عدد قليل ، لأن كثيرين قد أغضهم فعد المنحرات التي فرضها عليم ؛ ومهم من فضل ما ينالونه من المكاسب في العيد عما تلقيه عليهم الحرية من تبعات . ولما اقتريت قوى الأشراف من المكتول خارت قوى ريندسو ، وخلع شارة منصبة ، وودع أصدقاءه ، وأجهش بالبكاء ، وحيس نفسه في كاستلو سانتا أنجلير 'Castello Sant (١٥ ديسمبر منة ١٣٤٧) ، وعاد الأشراف الظافرون فدخلوا قصورهم في المدينة واختار المندوب البابوى اثنين مهم ليحكما رومة .

وفر ريناسو بألى نابل ، وكان لا يزال مغضوياً عليه من الكنيسة وإن لم يناسب بأذى من جانب الأعيان ؛ ثم فر من نابلي إلى غابات الجبال فى أبردسى Abruzzi القريبة من سلمونا Sulmona ، وهناك لبث أثواب التاثبن ، وقضى عامين يعيش عيشة الزهاد المتقطعين للدين . وبعد أن مرت بعد مشرات المثات من المشاق والحن انحذ سبيله مرا متنكراً إلى بواج بحتاز ا يرطاليا بوجبال الألب والنما ، ومثل فى تلك المدينة فى حضرة بالإمراطور شارل الرابع ، وأخذ وهو غاضب يندد بالبابوات ، ويقول إن ما تعانيه المدينة من فقر وما يسودها من فوضى إنما يرجمان إلى كثرة غيامهم عنها ، وإن سلطتهم الزمنية وسياستهم هما علة القسام إيطاليا . وعضة شارل على أقواله ودافع عن البابوات ؛ ولكنه أنى أن يجيب البابا وحشة شارل على أولله ودافع عن البابوات ؛ ولكنه أنى أن يجيب البابا كولا الزج في يمن أفنيون ، وأبقاءه معتملا كحد القلاع القائمة على نهر الإلب . وقضى كولا في العزلة .

وعدم النشاط عاماً كاملا لم يطنى بعده صبراً عليهما فطلب أن يرسل إلى بلاط البابا . وهرم الناس إلى رويته وهو فى طريقه إلى أثنيون ، وعرض عليه بعض الفرسان الأنجاد أن يحموه بسيوفهم . وبلغ أثنيون فى اليوم العاشر من شهر أغسطس سنة ١٣٥٧ منهوك القوى محزق الثياب إلى حد امتثار عطف كل من رآه . ثم سأل عن يترارك وكان وقتشــذ فى ثوكوزب ورد الشاعر بأن أهاب بأهل رومة أن يحموا الرجل الذى أراد أن مهم الحرية . ومما جاء فى هذه الدهوة :

إلى أهل رومة ... البواسل الأنجاد ... الذين صادوا الأمم !

إن زعيمكم السابق أسر الآن في أيدى الأجانب ؛ وكأنه و وياالهول حقاً ! - لص من لصوص الليل أو خائن لبلاده ، يعرض قضيته وهو مصفد في الأغلال ، تأني أعلى عكمة أرضية أن تمكنه من الدفاع المشروع عن نفسه إن رومة بلا ربب لا تستأهل هذه المعاملة . لقد كان أهلها من قبل غير خاضعين لقانون أجني ... أما الآن فيساء الهم بلا تميز بينهم ، ويلقون هذه المعاملة وهم برآء من إثم الجريمة بل وهم جديرون بالثناء المعظم الذي يستحقه أهل القضيلة ... وليست الهمة الملاجهة إليه هي خيانة المعظم الذي يستحقه أهل القضيلة ... وليست الهمة الملاجهة إليه هي خيانة هي أنه قد جرو على التوكيد بأن الإمبر اطورية الرومانية لا تزال قائمة في هي أنه قد جرو على التوكيد بأن الإمبر اطورية الرومانية لا تزال قائمة في ومنه أنه أنه المرابلات أنها المسيح ! ويبا لتلك الغيرة المائية من المنافق على المشعل المنافق ! أين أنت أنها المسيح ! علما سحب شقاء البشرية ؟ ... لم لا تقضى بعرقك وصواعقك على هذه المائمة المدنسة بالاتهارة المنشية ؟ ... لم لا تقضى بعرقك وصواعقك على هذه المائمة المدنسة بالاتهاكة الدنسة بالاتهال

ولم يطالب كلمنت بإعدام كولا ، بل أمر بأن يوضع تحت الحراسة (٣- يا - بحلا ه) في برج القصر البابوى بأفنيون . وبينا كان ريتاسو يلاس الكتاب للقيمين وكتاب للقيمين وكتاب للقيمين المتاب المقيمين وكتاب ليق في سجنه ، استولى تربيون آخو يلحى فرانقسكو برنتشلى وأمان المندوب البابوى ، وتحالف هو والجيليون مويلو الأباطرة ضد البابوات ، وأطلق إنوسنت السادس، المنى علم ككلمت في الكرسي البابوى ، كولا من سجنه ، وأرسله إلى إيطاليا مساعداً للكردنال ألم نودس Albornez المندى عهد إليه إعادة سلطة البابوية في رومة . وبينا كان المكردنال الماكر ، والطاغية المستضعف يقربان من الماصحة دبرت فتنة في المدينة ، خلع على المؤما برنقشلي وقتل ، وأسلم الرومان المدينة الألمر نودس . ورحب العامة بريندسو ، وأقاموا له أقواس النصر ، وحتفوا باسمه وقد احتشدوا في بريندسو ، وأقاموا له أقواس النصر ، وحتفوا باسمه وقد احتشدوا في الشوارع إظهاراً لفرحهم . وعينه الرودس عضواً في مجلس الشيوح ، وعهد إليه الأعمال غير المدينة في حكومة رومة (١٣٥٣) .

ولكن السنن التي قضاها في السجن قد سببت ترهل جسمه ٤ وحطمت شجاعته ، وفلت من حدة عقله ، وقد كان من قبل قوياً ساطعاً غير هباب ولا وجل . فكانت سياسته متمشية من أغراض البايا ، بتهيب المغامرات العظيمة التي كان يندفع إلها في حكمه وهو شاب . وكان الأعيان لايزالون يحقدون عليه ، وصعاليك المدينة يرون فيه الآن رجلا حدراً متحفظاً متجرداً من المثل العليا ، فانقلبوا عليه وعدوه خاتناً المضييم . ولما أعلن آل كولنا الحرب عليه وحاصروه في بلسترينا ، أوشك جنوده اللين لم يتناولوا مرتباتهم أن يتمردوا عليه ، فاقترض المال ليودي منه مرتباتهم ، وفرض المضرائب لين بدينه ، وأغضب بذلك العلقة الوسطى . ثم زحفت جوع المضرائب لين بدينه ، وأغضب بذلك العلقة الوسطى . ثم زحفت جوع وأخدت تنادى و ليحي الشعب ! لموت الخان كولا دي ريندسو ! » . فخرج إليم من قصره في دروع الفرسان وحاول أن يسيطر على الجاهد

يفصاحته وزلاقة لسانه ، ولكن الثاثرين علا صياحهم على صوته ، وألقوا عليه وابلا من القذائف ، فأصاب سهم مها رأسه وانسحب على أثر ذلك للى القصر . وحينئذ أشمل الغوغاء النار فى الأبواب واقتحموها ، وبهبوا الحبرات . واختى رينلسو في إحداها ، وأسرع فعلى لحيته ، وارتدى ثياب حمال ، وكوم بعض قطع من الفرش على رأسه ، وخرج من القصر ، ومر ببعض الغوغاء دون أن يكثفوا أهره ولكن سواره الذهبي م عليه ، وسين أسراً إلى سلم الكيتول ، حيث كان هو من قبل قد حكم على الناس بالإعدام . وطلب إلى الشعب أن يستمع له ، وحاول أن يستميل قلوب الهامة بخطبته ، ولكن أحد الصناع خشى أن يتأثر هولاء بفصاحته ، فقطع عليه كلامه بضرية سيف في بعلنه . وتبعه مائة من أشباه الأبطال فأنفذوا عليه خاجرهم فى جسده المبت . ثم سحبت جنته والدم يسيل مها فى شوارع خلابه يضرية سيف فى بعلنه . وتبعه الهائم . وبقيت على هذه الملبنة وعلقت فى حداده المبت . ثم سحبت جنته والدم يسيل مها فى شوارع الملبنة وعلقت فى حاده المبت . ثم سحبت جنته والدم يسيل مها فى شوارع الملبنة وعلقت فى حاده المبت . ثم سحبت جنته والدم يسيل مها فى شوارع الملبنة وعلقت فى حاده المبت . ثم سحبت جنته الهائم . وبقيت على هذه المها فى يومن تعرضت فى خلالهم الإهانات الشعب وحجارة الغلمان (۲۷).

الفصل لخامس

العسالم الجوال

أخفق ريندسو في إعادة رومة القديمة التي مات فيها كل شيء إلا الشعر ، وقد أفلح يترارك في إعادة الآداب الرومانية التي لم تكن قد ماتت ، وكان قد أيد أيد ثورة كولا تأبيداً بلغ من القوة حداً خسر معه عطف آل كولنا في أغنيون . وفكر وقتاً ما في الانضام إلى ريندسو في رومة ، واتخذ طريقه فعلا إليها حتى وصل إلى چنوى ، وفها سهم أن مقام التربيون ومسلكه آخذان في الاعطاط ، فما كان منه إلا أن غير طريقه واتجه نحو يارما (١٣٤٧) . وكان في إيطاليا حين فشا فها الوباء الأسود ، وأودى بحياة كثيرين من أصدقائه ، وقضى على لورا في أفنيون وقبل في عام ١٣٤٨ دعوة ياقوبو المحدود الله في يدوا .

وكانت المدينة ذات جو حتيق ثقيل ممل. فقد كان عمرها مائة عام حتن ولد فيها ليقي عام ٥٩ ق. م ، وأصبحت تحكم نفسها بنفسها في عام ١١٧٤ ورزحت تحت طفيان أنسيلينو Ezzeliao (١٢٥٦ – ١٢٥١)، ثم استردت استقلالها ، وغنت أناشيد الحرية ، وأخضمت فيتشناسا لسلطانها . ثم هاجمها كان جراندى دلا اسكالا صاحب ثمرونا ، وكاد يقلبها على أمرها ، فتخلت عن حريتها واختارت ياقوبو الأول صاحب كرارا حاكماً بأمره علمها (١٣٦٨) ، وكان رجلا فئد قله من الرخام المسمى باسمه . وتولى صلحته من بعلمه بعض أعضاء أسرته إما بطريق المراث أو بالاغتيال : واستولى مضيف يترارك على مقاليد الحكم في عام ١٣٤٥ بعد أن اغتال واستولى مضيف يترارك على مقاليد الحكم في عام ١٣٤٥ بعد أن اغتال علم الهد . وحاول أن يكفر عن ذنبه بالحكم الصالح ، ولكنه اغتيل بعد أن

حكم أديع سنين وخلفه فرانتفسكو الأول صاحب كرارا (١٣٥٠–١٣٨٩) ، وحكم البلدة حكماً عجبياً دام نحو أربعين عاماً ، رفع في خلالها مقام بلدوا إلى مصاف المدن الكرى أمثال ميلان ، وفلورنس ، والبندقية ، وإن كان هذا لم يدم إلا وقتاً قصيراً . وقد أخطأ فاضم إلى جنوى ضد البندقية في الحرب العوان التي انقدت نارها سنة ١٣٧٨ ، والتي انتصرت فيا مدينة البندقية وأخضعت بدوا السلطانها (١٤٠٤) .

وقدمت المدينة في هلم الأثناء أكثر من نصيبها لحياة إيطائيا التمافية ، فأتمت في عام ١٣٠٧ كنيسة القديس أنطوني المعروفة بذلك الاسم الحبيب إلسانتو El Santo ؛ ورثم في عام ١٣٠٦ النهو الأعظم المعروف باسم سالا دلا رجيوني Sala della Ragione (مهو العرلمان) على يد المهتلس المجارى الراهب چيو فخي إر يمتانو Glovanni Eremitano ،ولا يزال هذا الهو قائمًا إلى الآن : وكان القصر الملكي (الرجيو Reggio في ١٣٤٥ وما بعدها م يحتوى على أربعاثة حجرة في كثير منها مظلمات يفخر بها آل كرارا : ولم يبق من هذه المظلمات إلا برج دقت ساعته الشهيرة أولى دقائها في عام Enrico Scravegui . وابتاع تاجر طموح يدعى أنربكو اسكراڤني Enrico Scravegui في بداية ذلك القرن قصراً في المدرج الرومائي القديم يسمى و الحلمة ، Arena ، واستدعى أشهر مثسال في إيطاليا وهو حِيوثني پنزانو Giovanni Pisano ، وأشهر مصوريها وهو چيتو Giotto ، لينةشا له معبد بيته الحديد (١٣٠٣ – ١٣٠٥) . وكانت نتيجة جهودهما ٥ معبد الحلبة ﴾ الصغير الذائع الصيت في أنحاء العالم المتعلم كله . وفيه صوّر چيتو الظريف نحو خسين صورة جدارية ، ونحتاً مستديراً ومدلاة تروى كلها القصة العجيبة قصة العلواء وابنها ، وأحاط المظلمات الرئيسية برءوس الأنبياء والقديسين ، وبأشكال نسوية ترمز إلى فضائل الجنس البشرى ورذائله . وصور تلاميذه على الباب الداخلي بجد فاتر صورة ليوم الحساب ذات أشكال غريبة مختلطة مهوشة كأنها الميازيب ؛ ونقش متناجينا Montagena بعد ولمله وهو يقوم بعمله قد سخر من التصسم الساذج ، وفن المنظور البدائى ، ولما وهو يقوم بعمله قد سخر من التصسم الساذج ، وفن المنظور البدائى ، ومن تشابه الوجوه ، والمواقف ، والأشكال تشابها يبعث على الملل والسامة ، الأشكال ، كأنما اللمبارد أهل يدوا لا يزالون هم بعيهم المنجيوبارد للاشكال ، كأنما اللمبارد أهل يدوا لا يزالون هم بعيهم المنجيوبارد المحطلات المدورة الطعام . ولكن ملامح المعادراء الجميلة في صورة مولد المسيح ، ورأس المسيح الفيل في صورة الحافل . والمسيح المادئ ، ومهوذا الأسخر بوطي في صورة الحالة في والماسيخ المادئ ، والمحاف ، والتاليم المائلة المائلة من المائلة المائلة المائلة المائلة المائلة المائلة على المنظر الفسيح من حيث المون والشكل ، كل هذا يكسب المنظر جدة ورونةا وصفاء لا زال يحتفظ مها بعد ستة قرون ، وتجعله أول نصر التصوير في القرن الرابع عشر .

ولعل برارك قد وقعت عيناه على مظايات الحلبة ، وما من شك في أنه كان يقدر جيتو أعظم التقدير : وشاهد ذلك أنه أوصى إلى فرانتسكو داكرارا بصورة العلمراه بريشة ه المصور الممتاز ، چيتو ، وهي صورة يبدهش جالها . . . سادة اللن يريشة ، المصور الممتاز ، چيتو ، وهي صورة عنه مولماً بالأدب أكثر من ولعه بالفن . وما من شك في أنه قد نبه و وشحد همته ما سمعه من أن ألد تينو مساتو Albertino Mussato ، وهو رجل من ذوى المشاعر الإنسانية سابقاً على پتر ارك نفسه قد توج شاعراً للبلاط في بدوا عام ١٩٣٤ لأنه كتب مسرحية باللغة اللاتينية تسمى إنشرينس بدوا عام ١٩٣٤ لأنه كتب مسرحية باللغة اللاتينية تسمى إنشرينس مسرحية كتبت في عصر البضة . وما من شك في أن پتر ارك قاد زار مسرحية كتبت في عصر البضة . وما من شك في أن پتر ارك قاد زار الجامعة التي كانت في ذلك الوقت أشهر مدارس إيطاليا بأجمها ، وكانت تنافس جامعة بولونيا بوصفها مركزاً مدارس إيطاليا بأجمها ، وكانت تنافس جامعة باريس يوصف كونها مركزاً المتدرب عارالقانون ، كما كانت تنافس جامعة باريس يوصف كونها مركزاً المتدرب عارالقانون ، كما كانت تنافس جامعة باريس يوصف كونها مركزاً المتدرب عارالقانون ، كما كانت تنافس جامعة باريس يوصف كونها مركزاً المتدرب عارالقانون ، كما كانت تنافس جامعة باريس يوصف كونها مركزاً المتدرب عارالي المتراب عارالي الموروب على الموروب عارالي الموروب عارالية الموروب عارالي الموروب عارالية الموروب عارالي الموروب عارالية الموروب عرار عارالية الموروب عارالية المور

للفلسفة . ودهش يترارك حن شاهد فلسفة ابن رشد يعتنفها في غير خفاء بعض أساتذة پلوا الذين كالوا يرتابون في خطود نفوس الأفراد ، والذين كانوا يتحلئون عن المسيحية كأنها خوافة مقيلة يقبلها المتعلمون في الحفاء :

وفى عام ١٣٤٨ نجد شاعرنا القلق فى مانتوا ، ثم نجده بعدال فى فرادا ، ثم انضم فى عام ١٣٥٠ إلى سيل الحجاج المتجهن إلى رومة للاشتراك فى عبدها ؟ وعرج وهو فى الطريق على فلورنس فرارها المرة الأولى وحقد أواصر الصداقة القوية بينه وبين بوكاتشيو . وقد وصف يترادك هله الصداقة يقوله إنهما من ذلك الحن «كان لها قلب واحد ١٩٥٠) . وحدث فى عام ١٩٥١ أن ألفى سيد فلورنس المرسوم القاضى بمصادرة أملاك يترادك ، ثم أرسل بوكاتشيو إلى بلوا ليعرض على يترادك تعويضاً مالياً وكرسى الأستاذية فى جامعة فلورنس، فلما رفض يترادك هذا المرض مالي ترادك هذا المرض مالي وكرسى المناس عن إلغاء المرسوم .

الفيرالتاس

چــيتو

إن من العسير أن نحب فلورنس كما كانت فى العصور الوسطى (٣٠. فلك أنها كانت وقتبد نكدة صارمة فى الصناعة والسياسة ؛ ولكننا لا يصعب علينا مع ذلك أن نعجب مها . لكنها خصصت ثروتها لخلق الحمال . ففيها أيام شباب يترارك كانت النهضة فى أوج مجدها .

فقد علا شأبها فيها كان يكتنهها من جو حافز ملء بالتنافس الملل والتجارى ، والنزاع العائل ، والمنف الفردى ، لم يكن لشيء مها مثيل في سائر أنحاء أوربا . لقد كان أهل للميئة منقسمت على أنفسهم تفرق بينهم حرب الطوائف ، وكانت كل طائفة فيها منقسمة هي الأخرى إلى أحراب لاترحم إذا كتب لها النصر ، ولا تسكت عن الانتقام إذا منيت بالمؤيمة ، وكان انتقال بعض الأسر من حزب إلى حزب في أي وقت من تنتضى السلاح بعض العناصر المتلمرة ، وعمول إسقاط الحكومة ، فإذا أفلحت نفت زهماء الحزب للغلوب من المدينة ، وصادرت في العادة أملاكهم ، وحرقت بيوتها أحياناً . على أن هذا النزاع الاقتصادي وذاك أملاكهم ، وحرقت بيوتها أحياناً . على أن عذا النزاع الاقتصادي وذاك الاضطراب السياسي لم يكونا كل ما أي فلورنس من حياة ، ذلك أن أهلها كانوا ذوى شعور وطبي قوى يعترون به وإن كانوا أكثر إخلاصاً لحزبهم مبهم لمدينتهم ، وكانوا ينفقون كثيراً من ماله في سبيل للصلحة العامة . منهم لمدينتهم ، وكانوا ينفقون كنيراً من ماله في سبيل للصلحة العامة .

 ⁽ ه) يستمعل لفظ العمور الوسطى في هذه المجلدات للدلالة على تاريخ أوربا وحضارتها
 بعن عامى ٣٣٥ و ١٤ ٩٧ يعد لليلاد – أى بين قسطنطين وكولميس



(شكل ٢) الحرب إلى مصر تصوير چيتو ؛ منقولة عن معبد الحائـة في پدوا



(شکال ۳) البشارة من تصوير سيموفى مرتميزي – منقولة عن معرض افيرى بمدينة ظورنس (افظر ص ٦٣)

المجارى ، وتحسين موارد ماء الشرب ، وإعداد مكان صالح للسوق العامة ، وتشييد الكنائس ، والمستشفيات ، وإعداد مكان صالح للسوق العامة ، كانت تفعل نقابات الحرف . وكان الأهلون ذوى شعور بالحال لا يقل في قوته عن شعور اليونان الأقدمين أو الفرنسيين المحدثين ، وكان هذا الشعور يدفعهم لرصد الأموال العامة والخاصة لتزيين المدينة بالمهائر ، والمخار ، وتجميل بيوتهم من الداخل مهذا كله وبعشرات من الفنون الصغرى .

وكان الحرف الفاررنسي أرقى أنواع الحرف الأوربي في ذلك العهد يه كذلك كان الصياغ يحلون الأعناق والصلمور ، والأيدى ، والمعاصم ، والمناطق ، ومذابح القرابين ، والنضد ، والأسلحة ، والنقود ، بالجواهر أو الحشب الملبس ، والنقوش المحفورة أو البارزة التي لا يفوقها شيء من فوجها في عصر آخر من العصور .

وأخذ الفنان في ذلك الوقت تنعكس عليه النزعة الجديدة نزعة المهام اللهرد بكفايته المدانية أو حبه الفن الجميل ، فعرز من الطائفة أو الجاهة ، ورسم ما ينتجه باسمه . وكان نقولو پيزانو Niccolo Pisano قد خلص قبلئذ في النحت من تقليد الموضوعات الدينية ، وخضوعه الأماليب الهارة وذلك بجمعه بين الزعة الطبيعية القوية ومثل الإغريق المليا في تصوير الجمع بن الزعة الطبيعية القوية ومثل الإغريق المليا في تصوير الجمع أندرا بيزانو Andrea Pisano نصفي بابين من المرنز وعشرين نقشا بارزا تقدم الفنون والعلوم منذ حفر آدم وغزلت حواء ، وليس هذان الأثران الفنيان الباقيان من القرن الرابع عشر بأقل قيمة من وليس هذان الأثران الفنيان الباقيان من القرن الرابع عشر بأقل قيمة من عشر المواس عشر عشر فلورنس على تخطيط على هذا البناء نفسه . وفي هام ١٣٣٤ وافق أمير فلورنس على تخطيط جيتو لمرج بتحمل ثقل أجراس الكنيسة وينشر أصواتها ، وصدر بذلك

موسوم تتمثل فيه روح العصر جاء فيه أن و برج الأجراس يجب أن يشاد بحيث يسمو في فخامته ، وارتفاعه ، ودقة صنعه ، على كل شيء من نوعه أبدعه في الزمن القديم اليونان والرومان في أوج بحدهم (٣٠ م . وليس جمال الربح في شكله المربع الذي لا يمتاز يشء عن أمثاله (والذي كان چيتو يرغب في أن تعلوه منارة مستدقة) ، بل في از افله المزخرفة على الطراز القوطي ، وفي المتقوش البارزة التي حفرها چيتو ، و مديا بيزانو ، ولوكا دلا ربيا مناوه المدود على الألواح السفلي . وواصل العمل ، بعد موت چيتر ، بيزانو ، ودوناتلو ، وفرنتشمكو تالتي ، وإلهما يعدين العرج بما حوته أعلى مقنطرانه من جمال بالغ الأوج .

وكان جيتو دى بندونى Oiolio di Bondoni يحمل لواء المصورين في القرن الرابع عشر كما كان بترارك يحمل لواء الشعراء في ذلك القرن بغضه ، وكان الفنان يضارع الشاعر في تعدد كفاياته ، فقد كان مصوراً ، ومثالاً ، ومهندما معاريا ، ورأسمالياً ، وخبيراً بأحوال العالم ، لا يقل حلقه للآراء الفنية ، عن مهارته في الحيل العملية والأجوبة الفكهة للسكتة ، وفلما كان جيتر يسعر في الحياة واثقا من نفسه ، يشر روائع فنه في فلورنس ، ورومة ، وأسيسي ، وفرارا ، وراثما ، وريميني ، وفايندسا فورنس ، ورومة ، وأسيسي ، وفرارا ، وراثما ، وريميني ، وفايندسا ونايلي ، وأربينو Orbino ، وميلان . وبيدو أنه لم يكن بهم مطلقا بأن يكلف بالنيام بعمل من الأعمال ، ولما سافر إليا نايلي سافر إليا ضيفا على يكلف بالفيام بعمل من الأعمال ، ولما المأو إليا نايلي سافر إليا فسيفا على القنية المادنة ، وحياته التي تسرى فيها روح الهجة ، لم تأثراً قط الحدا الفتح ، وكان يوجر الأنوال للصناع بضعفي أجرها المعتاد٢٧٥ ، ومع الما المنابة الماقية من عصر الهفة .

وكان لا يزال في شرخ الشباب حين استدعاه الكردنال استفانستشي

Stefaneschi إلى رومة ليصور له بالفسيفساء صوره 1 الفنية الصغرى و navicella التي تمثل المسيح يتقل بطرس من الموج . ولا يزال هذا النقش باقياً إلى اليوم ، وإن كان قد أدخل طيه تغيير كبير ، في دهليز كنيسة القديس بطرس في مكان غير ظاهر فوق عمد المدخل ومن خلفها . وأكبر الفطن أن هذا الكردنال نفسه هو الذي كلفه يعمل صورة الملاك المجنح الحفوظة في الفاتيكان : وتظهر هذه الأعمال كلها جيتو شخصاً غير ناضح ، قوى الشمكير ، ضعيف التنفيذ . ولربما كلها جيتو شخصاً غير ناضح ، ييتروكفنليي Pietro Cavanelline الفسيفسائية الموجودة بكنيسة القديسة ماريا في ترتستيشري ، ومعلماته في كنيسة القديسة تشيشيليا Cecilia تليي ماديا في تكوين چيتو في تلك السنن الرومانية ، ولمل النحت الطبيعي ماعدت على تكوين چيتو في تلك السنن الرومانية ، ولمل النحت الطبيعي الذي قام به نقولو برانو قد جعله يجول عنايته من أعمال أسلافه إلى ملامح الأحياء من الرجال والنماء ومشاعرهم . وفي ذلك يقول ليوناردو دافنتشي : لقد ظهر جيتو وصور ما رآه و ٢٠٠٥ : واختنى الجمودة البرنطي من المنال الم

مُّ انتقل چيتو إلى پدوا وقضى ثلاث سنين يصور على الجمس تلك المرسوم اللذائعة الصيت التي تزدان بها كنيسة أرينا . ولعله قد التي في پدوا بدائتي ، ولعله قد عرفه قبل ذلك فى فلورنس ، فها هو ذا فاسازى Vasari ، الممتع على الدوام ، والدقيق الصددق فى بعض الأحيان ، يصف حانتي بأنه و الرفيق والصديق الصدوق ، لحيتو^(۱۲۲) ، وها هو ذا بعزو لحيتو صورة لدائتي تكون جزءاً من نقش جميى فى قصر الحاكم فى فلورنس يحترى الشاعر يخى على المصور ثناء رقيقا مستطابا فى المسلاة الإلمية (۲۵) .

ولما كان عام ١٣١٨ كلفت أسرنان من رجال المصارف هما أسرة باردى Bardi وأسرة يدرتسى Peruzzi حيتو بأن يقص لها على الجص قصص القديسين فرانسس ، ويوحنا المعمدان ويوحنا المبشر بالإنجيل ، وذلك ف المزارين اللذين كانا يشيدانهما في كنيسة سافتا كروتشي (الصليب المقدس)

Sante Croce في فلورنس . وقد غطيت هذه الرسوم بالجير فيا بعد ، ولكنه كشف عنها في عام ١٨٥٣ وأعيد تلوينها ، وبذلك لم يبق فيها من عمل چيتو إلا الرسم والتأليف : وكان هذا بعينه مصمر المظالات الذائعة الصيت في كنيسة القديس فرانسس المزدوجة في أسيسي . ويحج عدد كبعر من الإيطالين إلى هذا الضريح القائم فوق إحدى الرواني ، ويبدو أن عدد الذين يفدون مهم لشاهدة الرسوم الني تعزى لتشابيو Cimabue وچيتو لا يقل عمن يفدون لتكريم هذا القديس أو للتبرك به : وأكبر الظن أن جيتو هو الذى وضع تصميم للوضوعات ورسم الخطوط الحارجية المظالات السفلي في الكنيسة العليا . أما ما بني فيبدو أنه اكتبي فيه بالاشراف على عمل تلاميذه . وتقص هذه المظلمات التي في الكنيسة العليا حياة. القديس فرانسس بتفصيل قلم حظى المسيح نفسه يسترة مصورة له تماثل هذه القصية في دقائقها . وهي تمتاز بالبراعة في التفكير والتأليف، وباللطف والرقة والتناسق في الإخراج والتنفيذ ، وتقضى قضاء لا رجعة يعده على الجمود الكهنوتى الذي كان يلازم الأشكال البنزنطية ، ولكما مع ذلك يعوزها العمق والقوة والنزعة الانفرادية ، فهي في حقيقة الأمر لوجات مصورة رشيقة خالية من تأثير العاطفة أو دم الحياة : أما مظلمات الكنيسة السفلي فقد كانت أقل من مثيلاتها في الكنيسة العليا تعرضاً لعوادي. الأيام ، وهي نشهد بما طرأ على قدرة چيتو من تقدم . ويبدو أنه هو نفسه الذي قام برسم الصور التي في مُصَلِّي مجدلين ، وأن تلاميذه هم النين. صوروا الرسوم الرمزية التي تشرح الإيمان التي يقسمها الرهبان الفرنسيس بأن يلتزموا حياة الفقر والطاعة والطهر . ولقد كانت قصة فرانسس المصورة في هذه الكنبسة المزدوجة حافزاً قويا ، بل تكاد تكون مولداً جديداً ، لفن. التصوير الإيطالي ، ونشأت منها تقاليد بلغت المثل الأعلى من الكمال في أعمال. الراهب اللمنيكي و الأخ انجلكو Fra Angelico . «

وفي وسعنا أن نقول إن أعمال حيتو كانت في مجموعها ثورة على الأوضاع الفنية القائمة وقتئذ . ونحن تشعر بأخطائه لأتنا نعرف مقدار ما أحدثته الحركة التي بدأها هو من إنقان وبراعة . نحس بأن رسمه ، وصياغته ، ومراعاته لفن المنظور ، وعلمه بالتشريح ، كل هذا ناقص معيب . لقد كان الفن ، كما كان الطب في عهد چيتو ، قد بدأ تواً في تشريح الجسم البشرى ، وفي أن يبن موضع كل عضلة ، وعظم ، ووتر ، وعصب ، وتركبيه ووظيفته . وقد أتقن معرفة هذه العناصر رجال من أمثال منتيذيا Mantegena ومساتشيو Masaccio ، وبرع في هذه المعرفة ميكل أنجلو وبلغ فيها درجة الكيال ، بلكاد يجعل منها معبودًا له ولأمثالة من رجال الفن . أما في أيام چيتو فقد كان لا يزال من غير المألوف أن يدرس اناس الحسم البشرى عادياً . وكان تصويره يجلل من يقدم عليه بالعار . فإذا كان هذا فما اللدى يجعل أعمال جيتو فى بدوا وأسيسى من معالم تاريخ الفن ؟ إن الذي يجعلها هكذا هو التأليف المنزن ، ورسم العين من أكل زاوية إلى مركز الاهتمام ، والمهابة المستملة من الحركة الهادثة ، والتلوين الرقبق المتألق ، وانسياب القصة في عظمة وجلال ، والاعتدال في التعبير ولوكان عن المشاعر العميقة ، وعظمة الهدوء الذي يغمر تلك المناظر المضطربة ، وما نشاهده بن الفينة والفينة من نزعة طبيعية في تصوير الرجال ، والنساء ، والأطفال كما شاهدهم وأحس بهم ، وهم يتحركون في الحياة لاكما درمهم الفنانون في ماضي الأيام . تلك هي العناصر التي تألف مها انتصار جينو على الحمود البيزنطي والكآبة البيزنطية ، وتلك هي أسرار تفوذه الحالد . لقد ظل فن فلورنس مائة عام بعد وفاته يستمد من أعماله حياته و إلهامه .

وجاء فى أعقابه جيلان من الفنانين الذين ساروا على سجه ، فحلوا حلم ه موضوعاته وفى طرازه ، ولكهم قلما كانوا يبلغون ما يلغه من براعة وإنقان ، فقد كان تديو جدى Taddeo Gaddi تلميذه وابنه فى العاد يرث عنه فنه ، وكان والد تديو وثلاثة من أبناء تديو الحمسة رسامين ؟ ذلك أن النهضة الإيطالية ، كالموسيقي الألمانية ، كانت تنزع إلى الانتقال في الأسر من الآباء إلى الأبناء ، وقد ارتقت فيها بانتقال أصولها الفنية وتجمعها في البيوت والمفاقد (*) والمدارس . وقد بدأ باديو حياته صبياً عمر فا عند چينو ، وما وافي عام ١٣٤٧ حتى كان هو حامل لواء ملصورين الفلورنسيين ؛ وكان حتى بعد أن بلغ تلك المكانة يوقع بإمضاء لا تلميد جينو الأستاذ الجليل ، تكريماً لذكرى أستاذه (*) ي وقد أثرى بجده في في التصوير والعارة ثراء استطاع به بنوه أن يكونوا من أنصار الفن ،

ولدينا تحقة فنية ظلت زمناً طويلا تعزى إليه ، ولكنها الآن تعزى إلى أندريا دا فريند مي Andrea da Firenze وهي تبدل على أن إيطاليا في هذا القرن الأول من عصر النهضة لم تكن قد خرجت بعد من العصور الموسطى . فقد أقام الرهبان الدمنيك حوالي عام ١٣٧٠ في ٥ كابلادجلي اسينيولي اكتهاد الإسبانيين في كنيسة سانتا ماريا اسينيولي اكتهاد تجدل تجدل الإسبانيين في كنيسة سانتا ماريا وضع راسخ مربح ولكنه بلغ من الحضوع حداً يحول بينه وبين الكهرباء ، ويقف وقفة الظافر والزنديقان أربوس ، وسابيوس ، والفيلسوف ابن رشد يتمرغون تحت قلميه ، ومن حوله موسى ، ويوسخنا للبشر الإنجيل يتمرغون تحت قلميه ، ومن حوله موسى ، ويوسخنا للبشر الإنجيل عشرة صورة ترمز إلى سسبعة علوم مطهرة وسبعة دنسة ، مها نحو دو النوس المحاسرة صورة ترمز إلى سسبعة علوم مطهرة وسبعة دنسة ، مها نحو وما إليها . والفكرة التي أوحت بهذه الصورة لا تزال كلها من أفكار المصور وما إليها . والفكرة التي أوحت بهذه الصورة لا تزال كلها من أفكار المصور جديد من ظلمات العهد المقدم . ولقد كان الانتقال تدريجياً إلى حد لم يشعر جديد من ظلمات العهد المقدم . ولقد كان الانتقال تدريجياً إلى حد لم يشعر جديد من ظلمات العهد المقدم . ولقد كان الانتقال تدريجياً إلى حد لم يشعر جديد من ظلمات العهد المقدم . ولقد كان الانتقال تدريجياً إلى حد لم يشعر جديد من ظلمات العهد المقدم . ولقد كان الانتقال تدريجياً إلى حد لم يشعر

⁽ ه) جم مفقه وهو المشغل والمرسم Studio . (المترجم)

الناس معه بأنهم في عالم جديد إلا بعد مائة عام من ذلك الوقت .

ويبدو التقدم في التنفيذ الفني أوضح وأكثر جلاء في أعمال أركانيا Arcagna الذي لا يسمو عليه أحد من الفنانين الإيطاليين في العصور الوسطى إلا چيتو وحده : وكان اسمه الأصلي أندريا دى تشيوني Andrca di Cioni ، لكن معاصريه المعجبين به سموه أركانيولو Arcagnolo أى الملاك الأعظم ، ثم اختصرت الألسنة الكسولة هذا الاسم فجعلته أركانيا . وكثيراً ما بعد هذا الفنان من بين أتباع چيتو ، ولكنه كان في واقع الأمر من تلاميذ المثال أندريا بزانو Andrea Pisano . وكان أركانيولا بارعا في فنون كثيرة شأنه في هذا شأن أعظم العباقرة في عصر النهضة . وهو بوصفة "رساماً قد صور لمعبد استرتشي Strozzi في سانتا ماريا نوڤلا غطاء ملوثاً للمحراب مثل عليه المسيح جالساً على عرشه ، كما أنشأ أخوه الأكبر ناردو ، Nardo على الجدران مظلمات واضحة تمثل الجنة والنار (١٣٥٤ - ١٣٥٧). وخطط بوصفه مهندساً معاريا التشرتودسا Cerioza أو الدير الكرثوذي Carthusian بالقرب من فلورنس، وهو الدير الذي اشهر بطرقه المسقوفة الجميلة وما احتواه من مقابر أتشيابولي (Aceiaiuoli) . ونفذُ هو ووالده بوصفهما مهندسين ومثالين الحيكل المزخرف في « أورسان متشيل Or San Micchele في فلورنس . وفي هذا الهيكل صورة العذراء كان الناس يعتقدون أنها تفعل المعجزات، ولهذا فإنه لما زال وباء الموت الأسود الذي اجتاح أوربا عام ١٣٤٨ بلغت النذور التي قدمها لها الذين نجوا من الوباء من الكثرة درجة اغتنى منها الرهبان القائمون على خدمة البناء، وتقرر بعدثة أن يضم هذه الصورة ضربح مقام من الرخام والذهب . واختطه تشيوني على شكل كنيسة قوطية مصغرة ذات عمد ، وأبراج مستدقة ، وتماثيل ، ونقوش بارزة ، ومعادن ثمينة ، وأحجار غالبة ، فهي والحالة هذه درة من زخرف القرن الرابع عشر . وذاعت بفضلها شهرة أندريا فعن كبير الفنانين في أرڤيتو Orvieto واشترك في تخطيط واجهة كنيستها . "ثم عاد

إلى فلورنس في عام ١٣٦٢ وأخذ يعمل في الكنيسة العظيمة إلى يوم وفاته .

وكانت شهرة سانتا ماريا دل فيورى Santa Maria del Fiori – أكبر الكنائس التي بنيت في إيطاليا حيى ذلك الوقت ... قد بدأت من عهد أر للفو دى كمبيو Arnolfo di Cambio في عام ١٢٩٦، وتتابع علمها عدد من كبار الفنانين بعضهم في إثر بعض ظلوا يعملون فها حتى هذا اليوم ، ونذكر من هؤلاء چيتو، وأندريا بنزانو، وفرانتشكو تالنثي وغيرهم : ويرجع تاريخ واجهتها الحالية إلى عام ١٨٨٧ ، ولا تزال الكنيسة الكبرى ناقصة إلى هذا اليوم ، ولابد أن يعاد بناء جزءكبر منها في كل قرن . وسبب ذلك أن العمارة كانت أقل الفنون نجاحاً في إيطاليا إبان عصر البضة ، لأنها أخذت في غير حماسة أو اهبّام من الشهال بعض عناصر العمارة القوطية كالعقد المستدق ، وجمعت بينها وبن العمد المأخوذة من العمارة القديمة ، ثم شادت فوق هذه كلها في بعض الأحيان القبة ذات الطراز البنزنطي. فكان هذا خليطاً غير متناسق العناصر ، إذا استثنينا منه بعض الكنائس الصغرى من عمل برامنتي Bramante حكمنا بأنه تعوزه الوحدة والرشاقة . وكانت واجهة أرفيتو وسينا Siena مظهراً فخماً لفن النحت والفسيفساء أكثر منها مظهراً لفن العهارة الصحيح ؛ وإن العناية الشديدة بإبراز الخطوط المستقيمة والناشئة من وجود طبقات متتالية من الرخام الأسود والأبيض في جدراتها ، لما يسبب الانقباض للعن والنفس ، مع أن معني الكنيسة نفسه يجب أن يكون هو الضراعة أو الابتهال الصادرين إلى السموات العلى . وإن من العسر أن نعد كنيسة سانتا ماريا دل فيورى ــ وهو الإسم الذي أطلق على كنيسة فلورنس بعد عام ١٤١٢ ، وقد اشتق اللفظ الأخبر ــ فيورى ، من الزنبقة المرسومة على شعار المانينة ــ زهرة من الأزهار . ولولا القبة الشهرة التي أنشأها بروتلسكو Brunellesco لعدت كهفاً قد يكون فراغه المظلم هو فم جحم دانتي بدل أن يكون بيتاً لله .

وكان أرنلفو دى كمبيو ، الرجل المجد الذي لا تنفد قواه ، هو الذي يدأ كنيسة الرهبان الفرنسيس المسهاة سانتا كروتشي أو الصليب المقدس في عام ١٢٩٤ ، والذي بدأ أيضاً في عام ١٢٩٨ أجمل بناء في فلورنس كلها ، وهو بلاتسا دلا سسنيورا Palazz della Signora الذى تعرفه الأجيال المتأخرة باسم بلاتساثيتشيو ، وتم بناء الكنيسة في عام ١٤٤٢ ما عدا واجهتها التي تمت في عام ١٨٦٣ ؛ أما البلاتسا دلا سنبورا المعروفة أيضاً باسم القصر القديم فقد تمت أجزاؤها الرئيسية في عام ١٣١٤ . وكانت هذه هي السنين التي شهدت نني دانتي ووالد پترارك ؛ ذلك بأن النزاع الحربي كان وقتئذ على أشده ، ولهذا شاد أرنلفو لحاكم المدينة حصناً لاقصراً وجعل من سقفه معاقل ذات مزاغل ، وكان برج الجرس الفريد في نوعه يدعو برنين جرسه أهل المدينة إلى الاجتماع في مجلسها النيابي أو إلى حمل السلاح . ولم يكن كبراء المدينة Priori, Signori يحكمون من هذا المكان فحسب ، بل كانوا أيضاً يعيشون فيه ؛ وتظهر روح ذلك العصر فى القانون الذى ينص على أن أو لئك الكبراء لم يكن يجوز لهم أن يغادروا البناء لأى سبب كان . وأقام نىرى دى فيوراڤنتى Neri di Fioravante فوق نهر الآرنوجسرا من أشهر جسور العالم هو جسر ثيتشيو Ponte Vecchio الذي تصدع الآن بفعل الأيام والحروب ، ولكنه لا يزال بنوء بحمل حركة المرور واثنين وعشرين حانونا . وكانت تقوم حول هذه الصروح الضخمة ، التي أنشأُها أهل فلورنس مدفوعين بروحهم الوطنية ، في الشوارع الضيقة المؤدية من الكنيسة وميادين سنبوريا Signorla كانت تقوم حولها بيوت الأغنياء للعذبين ، وكانت لا تزال وقتئذ بيوتاً متواضعة ، والكنائس الفخمة التي استحال فيا ذهب التجار فنا . وحوانيت التجار والصناع الصاخبة والمساكن المزذحمة التي تقم فها جمهرة الشعب المجـــد ، الثائر ، السريع الاهتياج ، : الذكي . وفي جنون هذه العناصر و لدت النهضة .

الفصراليابع

ديكمرون

كانت فلورنس هي المدينة التي آخرزت فيا الآداب الإيطالية أعظم التصاراتها ، فضيا خلع جوندسيل Quenzlii وكثلكتي Cavalcanti في أواخر القرن الثالث عشر على الأغنية صورتها المصقولة ، وأرسل دانتي الشاعر الفلورنسي أولم تغات شعر الملاحم الإيطالي وآخرها في الحنين إلى فلورنس وإن لم ينشد هذه النغات فيا نفسها ، وفها أنف بوكاتشرو أعظم كتاب في النثر الإيطالي ، وكتب جيوفني فلاني الثانوية الحديثة . ذلك أن كتاب في المنتور الوسطى الإخبارية اتفاقاً مع الزعة التاريخية الحديثة . ذلك أن أفلاني زار رومة أيام الاحتفال بعيد عام ١٣٠٠ وتأثر كما تأثر جبن تلك الملحظة أن يسجل تاريخ المدينة ، ثم رأى أن رومة قد ناات كفايتها من غليد ذكراها ، فحول فكره إلى موطنه الأصلي وقرر أن ويحشد في هذا المجلد . . . جيم ما وقع في ددينة فلورنس من أحداث . . . وأن يقص أعمال أهل فلورنس كاملة ، وأن يورد في إيجاز الشئون الهامة في سائر العالم و⁽⁷⁷⁾

وبدأ تاريخه برج بابل وختمه بالأحداث التى وقعت قبيل الموت الأسود الذى مات هو فيه ؛ وأتم القصة أخوه ماتبو Matteo وفلبو الأسود الذى مات هو فيه ؛ وأتم القصة أخوه ماتبو وكان چيوقنى حسن الاستعداد للعمل الذى اضطلع به . فقد كان ينتسب إلى أسرة ثرية من التجار ، وكان متمكناً من اللغة التسكانية الخالصة ، وقد طاف بأنحاء إيطاليا ، وفلاندرز ، وفرنسا ، وعمل ثلاث مرات مختلقة رئيسا للدير ،

ومرة مديراً لدار سك النقود ؛ وكان لديه إحساس غير عادى ، بالنسية لتلك الأيام ، بالأسس والعوامل الاقتصادية التي تعمل في التاريخ ؛ وكان هو أول من أدخل في قصته إحصاءات عن أحوال البلاد الاجتماعية فجعلها بذلك طريفة ممتعــة . ومعظم ما فى الثلاثة الكتب الأولى من « تاريخ فلورنس الإخباري » قصص خيالية ، أما ما تلاها من الكتب فتحدثنا أن فلورنس وما وراءها من الأرضين كان يسكنها في عام ١٣٣٨ ماثة ألف وخمسة آلاف من السكان ، سبعة عشر ألفاً منهم متسولون ، وأربعة آلاف يعيشون من الإعانات العامة ، وأنه كان بالمدينة ست مدارس ابتدائية يؤمها عشرة آلاف ولد وبنت ، وأربع مدارس ثانوية يتعلم فيها سيّائة و لد وقليل من البنات • النحو » (أى الأدب) . و • المنطق ، (الفلسفة) . وقد فعل ڤلائى ما لم يفعله غبره من المؤرخين فضمن كتابه ملاحظات عما هنالك من كتب ، وصور ، ومبان ، جديدة ، حتى ليصح القول بأننا قلما نعرف أن مدينة أخرى قد وصفت جميع مظاهر حيائها وصفآ مباشراً كما وصفت فلورنس ؛ ولو أن ڤلاني قد سلك كل هذه المناحي والتفاصيل في قصة موحدة من العلل ، والمظاهر ، والشخصيات ، والنتائج لجعل من كتابه الإخباري تاريخا حقيقيا .

واستقر بوكاتشيو فى فلورنس عام ١٣٤٠ وظل يطارد المرأة فى الحياة والشعر والنثر . فقد أهدى امورازا فزيونى Amorasa Visioni إلى فيامنا واسترجع فى ١٤٤٠ ييت أيام صلتهما السعيدة . وينتش بوكاتشيو فيامنا الأميرة غير الشرعية المولد فى رواية نفسانية بقصة المحوافها مع بوكاتشيو وتحلل نشوات الحب القوية ، وآلام العاطفة ، والفيرة ، والهجران بتفصيلات وافية ، وحين يؤنها ضميرها على عدم. وفاتها تتمثل أفردين تونها على جبها وتقول : و لا تجبنى وتقولى إن لي وعلى الم وواعون القوان المقدسة والوعود تحرم هذه الأشياء على الأد هذا!

كله غرور كاذب واعتراضات حماء طائشة على قوة الحب : ذلك أن الحب يفرض قوانينه الأبدية كأنه أمر قوى عظم ، ولا يبالى بغبرها من القوانين التي هي أقل منها شأنا . والتي يراها قواعد منحطة دنينة (۱۷۷) . ووسي م بوكاتشيو استخدام قلمه فيختم كتابه بأن ينطق فيامتا تمجيداً له وتعظيا بأنه هو الذي هجرها وليست هي التي هجرته . ويعود بوكاتشيو إلى الشعر فينشد في نفائي فيرويونو حب أحد الرعاة لكاهنة من كاهنات درانا ؛ ويصف في دقة الهاشق الواله ظفره بها بجاسة احتفظ بها المناظر ويكور مي الأساس الذي بني عليه ويكورون .

وقد بدأ بركانشيو يكتب هذه السلسلة الذائمة الصيت والمتصلة الحلقات من قصص الإغواء بعد طاعون عام ١٣٤٨ بزمن قليل . وكان وقتئذ في الخامسة والثلاثين من عمره وكانت حرارة الشهوة قد نزلت من الشعر إلى النير ، وشرع يدرك ما في مطاردة النساء الحنونية من فكاهة . ويبدو أن فيامتا نفسها قد ماتت بالطاعون ، وأن بوكانشيو قد هدأ هدوماً يكفي لأن يستخدم الاسم الذي أطلقه عليها ليسمى به واحدة من أقل الفتيات الراويات في كتابه . ولم ينشر الكتاب كله إلا في عام ١٣٥٣ وإن كان بعضه قد نشر من غر شك على أجزاء متقطعة ؛ وشاهد ذلك أن المؤلف بجيب وهو بجهد لليوم الرابع عما وجه إلى القصص السابقة من نقد . والكتاب في صورته الى لدينا الآن موالف من ماثة قصة كاملة . ولم يكن يقصد بها أن يقرأ عدد كبر منها دفعة واحدة ؛ وما من شك في أنها وقد نشرت متابعة قد اتخذت موضوعات السمر في كثير من الأمامي النيور

وتصف المقلمة ما كان للموت الأسود الذى اجتاح أوربا يأكملها فى عام ۱۳۶۸ وما بعدها من آثار فى مدينة فلورنس . ويبدر أن المرض قد نشأ من خصب السكان الأسيويين وقدارهم وما انتاهم من الفقر بسبب الحباعة ، فامند الوباء من بلاد العرب إلى مصر م ومن البحر الأسود إلى الروسيا وبلاد بعرنطية ؛ ثم نقله تجار البناخية ، ومن البحر الأسود إلى الروسيا وبلاد بعرنطية ؛ ثم نقله تجار البناخية ، ومرهوسة ، وبهزا ، وجنوى ، ومرسيليا وسفها من القسطنيطنية والإسكندرية وفرنسا . وأكبر الظن أن سى القحط المتعاقبة التى حلت بأوربا الغربية ماكان للفقراء من قوة المقاومة ، ثم نقل الوباء إلى سائر الطبقات (٢٣) . ماكان للفقراء من قوة المقاومة ، ثم نقل الوباء إلى سائر الطبقات (٢٣) . دموى ويودى إلى الموت في خلال ثلاثة أيام من بلم الإصابة ، ودملي مصحوب بحمى والبة وبصاق مصحوب بحمى وخراجات وجمرات ويودى إلى الموت في خلال خمسة أيام . من بلم الإصابة ، ودملي مقصحوب بحمى وخراجات وجمرات ويودى إلى الموت في خلال خمسة أيام . وقضى الطاعون في هجاته المتعاقبة على نصف سكان إيطاليا بين على ١٣٤٨ .

لم يكن يصحب الجئث إلى قبورها أحد من أهل المتونى أو أصدائله القساوسة أو الرهبان ، ولم تكن تتلى علمها صلاة الجنازة وحفرت فى كثير من أنحاء المدينة خنادق ألقيت فيها الجثث ، وغطيت بطبقة رقيقة من التراب ؛ وتلها طبقة بعد طبقة حتى امتلا الخندق ثم بدئ بحفر بيدى خسة من أبنائى فى خندق واحد ، وفعل هذا بعينه كثيرون غيرى . وكانت الطبقة الى غطيت بها جثث بعض الموتى رقيقة إلى حد جعل الكلاب تخرجها وتهشها وتنشر أعضاءها فى جميع أنحاء المدينة . ولم تدق أجراس ، ولم يبك الموتى مهما فدح الحطب الأن كل إنسان تقريبا كان يترقب الموت ... وكان الناس يقولون إن و همله هى آخر العالم ، ويؤمنون بم يقولون إن و همله هى آخر العالم ، ويؤمنون بم يقولون إن و همله هى آخر العالم ، ويؤمنون

ويقول ماثيو فلانى إن ثلاثة من كل خسة من سكان فلورنسى ماتوا ين شهرى إبريل وسبتمبر من عام ١٣٤٨ ؛ وقدر بوكاتشيو عدد من مات من أهل فلورنس بستة وتسعين ألفا17، وتلك بلا ريب مغالاة واضمحة لأن سكان المدينة لا يكادون يزيدون وقتئذ على مائة ألف . ويبدأ بوكاتشيو كتاب ديكمرون بوصف مروع الطاعون يقول فيه :

ولم يكن الاتصال بالمرضى أو التحدث إلهم وحدهما ينقلان العدوى إلى الأصحاء . بل يبدو أن مجرد لمس ثياب أوائك المرضى أو أى شيء آخر مسوه أو استعملوه كان يكني لنقل المرض. . . وكان أى شيء مما يملكه الموتى أو المصابون لهذا الوباء إذا أمسه حيوان . . . مات بعد وقت قليل . . . وتلك أمور شاهدتها بعيني رأسي . وقلفت هذه المحنة الرعب فى قلوب الناس جميعاً . . . فتخلى الأخ عن أخيه . والعم عن ابن أخبه ، . .: وكثيراً ١٠ تخلت الزوجة عن زوجها . بل حدث ما هو أعجب من هذا. وما لا يكاد يصدقه العقل . وهو أن بعض الآباء والأمهات رفضوا أن يزوروا أبناءهم أنفسهم أو يعنوا مهم كأنهم ليسوا منهم . . . وافترس المرض فى كل يوم آلافا من عامة الشعب لأنهم لم يجدوا من يرعاهم أو يعمل لإنقاذهم ، وماتوا وهم لا يكادون يجلون ملجأ أو معونة . ولفظ الكثيرون مُنهم آخر أثفاسهم في الطرقات ، ومات كثيرون غيرهم فى بيوتهم ولم يعرف جيرانهم خبر موتهم إلا من رائحة أجسامهم المتعفنة لا من أية وسيلة أخرى ؛ وامتلأت المدينة بهؤلاء وأولئك وغيرهم من الأموات . وأخرج الجبران جثث الموتى من منازل أصحابها ووضُّعوها أمام أبوامها مدفوعين إلى ذلك بحوفهم أن يتعرضوا هم للخطر بسبب تعفن هذه الحثث لا بأى شعور بالرحمة نحو هؤلاء الأموات ؛ ولهذا كان المارة وبخاصة في الصباح يرون من الجثث ما يخطئه الحصر . وكانوا حيثثذ يجيئون بالتوابيت فإذا أعوزتهم جاءوا بأاواح من الخشب وحملوهم علمها : ولم يكن الأمر مقصوراً على أن يحمل التابوت الواحد جثتين أو ثلاث جنث مجتمعة ، أو أن يحدث هذا مرة واحدة ، بل إنك لتستطيع أن تجد توابيت كثيرة وقد وضع فيها الزوج وزوجته ، وأخوان أو ثلاثة إخوة ، وأب وابنه ، وما إلى هذا وأشاله ... ووصل الأمر إلى حد لم يكن الناس ..معه يحصون من مات من الحلائق إلا كما يحصى الناس عدد الماعز في هذه الأيام (١٢).

ويرسم بوكاتشيو صورة كتابه ديكمرون من مناظر الخراب السالفة الذكر ، وقد وضعت خطة إخراجه في «كنيسة سانتا ماريا نوڤلا المعظمة » على أيدى و سبع فتيات ترتبط كل واحدة منهن بالأخريات برباط الصداقة أو الجرة أو القرابة ، وقد استمعن تواً إلى القداس. وتتراوح أعمارهن بين الثامنة عشرة والثامنة والعشرين من العمر » . وكلهن ذوات فطنة ، وُنبل ، وجمال ، وآداب عالية ، مرحات مرحاً يزينه الشرف : ﴿ وَتَقْتُرُ حَ إحداهن أن يقللن من خطر عدوى الطاعون بالرجوع إلى ببوتهن الريفية مجتمعات لا فرادی ، و أن يأخذن معهن خدمهن ، وأن ينتقلن من بيت ريني إلى آخر وأن « يستمتعن بالمرح واللهو الذي يتيحه ذلك الفصل من فصول السنة ... فهناك نستطيع أن نستمع إلى تغريد الطبر ، ونرى التلال والسهول وقد اكتست بحلة سندسية ، والحقول وقد امتلأت بالقمح يتماوج فيها تماوج ماء البحر ، وفيها نرى آلافاً من أنواع الثر ، ونشاهد وجه السماء مبسوطاً للناظرين ، لا يحجب عنا جماله ، وإن كان مغضياً علينا ۽(¹¹⁾ . وتوافق الفتيات على هذا الاقتراح ، ولکن فلومينا ۽ نلخل عليه بعض التحسن فتقول : ﴿ إِنَّنَا نَحْنَ النَّسَاءُ مَتَقَلِّبَاتُ ، عنيدات ، · شديدات الريبة ، خوارات العود » ولهذا فقد يكون من الحبر أن يكون معنا بعض الرجال . وساقت إليهن الأقدار في تلك اللحظة ثلاثة رجال ه ثلاثة شبان دخلوا علمهن الكنيسة ... لم تقو صروف الزمان ، أو فقد الأهل والأصدقاء . . . أن تنال منهم فنطني . . . نار الحب الملتهة في قلوبهم . . . وكانوا جميعاً ذوى لطف وأدب جم وتربية عالية ، وقله خرجوا جميعا يبحثون عن أعظم سلوى لهم جند وهي روية عشيقاتهم : واتفقى أن كانت أولئك العشيقات الثلات من بين السبع الفتيات السالفات الذكر » و وتشير تمبينيا على صاحباتها أن يلحى أولئك الشبان للانضهام إلى جاعتهن فيخرجوا معهن إلى الريف ، وتخشى نيفيلي Neifile أن يودى هذا إلى القبل والقال ، فترد علها فلومينا بقوفها : « ما دمت أحافظ على شرف ، ولا أفعل ما يونيني عليه ضميرى ، فلست أبل بما يقول الناس غير هذا » .

ويتم الاتفاق وتبدأ الرحلة في يوم الأربعاء التالى يتقدمهم الخدم يحملون الطعام ميممين شطر بيت ربقي على مسرة يومين من فلورنس ويتوسطه فناء جميل رحب ، وأبهاء ، وحجرات للاستقبال ، وأخرى النوم ، كل واحدة مها ذات جمال ، مزدانة بصور تسر النفس ، وتحيط بها خائل وأرض ذات كلأ ، وحدائق عجيبة غناء ، وعيون ماء بارد زلال ، وسراديب ملأى بالخمر الغالى الني بهدائ . وتنام الفتيات والشبان بعد أن يحفى من الليل معظمه ، ويفطرون على مهل ، ويتنزهون في بعد أن يحفى من الليل معظمه ، ويفطرون على مهل ، ويتنزهون في تتفق مع هذا الأسلوب من الحياة . وتتفق الجاءة على أن يقص كل فرد من أفرادها العشرة قصة في كل يوم من أيام الذهة . ويقضون في الريف عشرة أيام (ومن ثم اشتق اسم الكتاب من الكلمتين اليونانيين ديكا همراى مراكاتبو المرحة قصة تعارض كل مقطوعة من مقطوعات دانى المكتئب المخزنة . وتضم الجاعة قاعدة تعرم على أي عضو من أعضائها و أن ينقل من الخارج أي خور غير سار و

ويندر أن تكون القصص التى يبلغ متوسط طول الواحدة مها ست . صفحات من ابتكار بوكاتشيو نفسه ، بل إنه جمعها من المصادر اليونانية والرومانية القديمة ، ومن كتاب الشرق ومن أقاصيص العصور الوسطى ؛ والقصص والحرافات الفرنسية ، والأقاصيص الشعبية المنتفرة في إيطاليا نفسها ، وآخر قصص الكتاب وأوسعها شهرة قصة جريزلدا Criselda الصابرة الى بني عليها تشوسر Chaucer واحدة من أحسن وأسخف قصص كتربرى Canterbury Tales : أما أجمل قصص بوكاتشيو فهى القصة الناسعة التي تروى في الروم الحامس — قصة فدريجو Federigo ، وصقره وحيه ، والتي تحوى من التضحية ما لا يكاد يقل عن تضحية جريزلدا ، أما أكبرها فلسفة فهى قصة الحواتم الثلاثة (الكتاب الأول — القصة الثالثة) ومضمومها أن صلاح الدين وسلطان بابل ع يحتاج إلى المال فيلمو ملشردك أصنها — المهودية أو المسيحية أو الإسلام ؟ ويخشى الشيخ المهودي الحكم أضها با ما يعتقد فيجيب عن هذا السؤال بقصة رمزية :

ففكر . . في أن يرضيهم هم النلانة وعهد في السر إلى صانع اهر أن يصنع له خامين آخرين يشهان الحاتم الأول شها يكاد يعجز معه هو نفسه عن أن يعرف أيا الحقيقي وأبها المقلد . فلها قربت منيته أعطى كل واحد من أينائه خاتمة سرا ، فلها مات الأب وأراد كل واحد من الأبناء أن يرث المال والشرف دون غيره من أخويه أظهر خاتمه يويد به حقه . وإذ كانت الحواتم الثلاثة متشابهة كل الشبه فقد كان من غير المستطاع معرفة الحاتم الأصيل . وتأجل من ثم الفصل في أى الثلاثة يرث أباه ، ولا يزال ذلك موجلا حتى الآن . وكذلك أقول لك يا مولاى . إن كل شعب من الشعوب الثلاثة يرى أنه هو الذي يرث من الله شريفته الحقة ووصاياه من بين الشرائع الثلاثة التي أنرلها الله أبو الخاني على هذه الشعوب : أما أى شعب منها هو صاحب هذه الشريعة وتلك الوصايا فإن هذا لم يعرف بعد ، وشأن ذلك شأن الحاتم سواء بسواء .

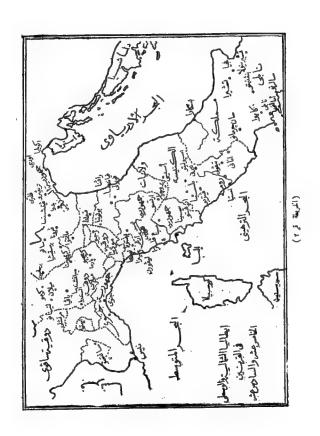
وتوحى هذه القصة بأن بوكاتشيو وهو في السابعة والثلاثين من عمره لم يكن مسيحيا متعصبا لمسيحيته . وخليق بنا أن نوازن بينه وبين تعصب دانتي وما قاله عن الذي عمد (صلى الله عليه وسلم ١٤٠٤) . وفي القصة الثانية من قصص ديكرون نرى البهودى بحنات يعتنق الدين المسيحي بعد اقتناعه بالحجة التي أوردها فلتر وهي أن المسيحية دين منزل من عند الله الأخلاق ، وارتشاء ، وبيع للمناصب الدينية ، ويسخر بوكاتشيو بالنسك : الأخلاق ، والاعتراف الديني ، والخلفات المقدسة ، والقساوسة ، والرهبان ، وجماعات الإخوان ، والراهبات ، وإضفاء صنة القداسة على الصالحين . ويرى أن الكثرة الفالية من الرهبان قوم مراءون منافقون ، ويسخر من و البلهاء ، الذين يقدمون لم الصدقات (الكتاب السادس . ويسخر من و البلهاء ، الذين يقدمون لم الصدقات (الكتاب السادس . القصة الماشرة) . وغدثنا واحدة من أكثر قصصه مرحا عن الراهب تشييلا Cipalla وكيف أداد أن يجمع مبلغاً كيمراً من المال فوعد مستمعيه

أن يعرض عليم ﴿ أَثْرا مقدساً أعظ التقديس ، وهو رسة من ريش الملاك جريل يقيت في حجرة مرم المدراء بعد أن يشرها بمولد المسيح (الكتاب المسادس القصة الماشرة) . أما أكثر هذه القصص بذاءة وفحشا فهي التي تروى كيف أشبع الثاب ماستو Masetto الشيّيق شهوة دير النساء بأكمله (الكتاب الثالث حاقصة الأولى) . وفي قصة أخرى يروى بوكاتشيو كيف زني الراهب رينلمو Rinaldo بزوجة رجل ، ثم يسأل راوى القصة : « ومن من الرهبان لا يفعل هذا ، (الكتاب السابع القصة الثالثة) .

وتظهر السيدات في كتاب ويكمرور شيئاً من الحياء حين يستمعن إلى هذه القصص ، ولكنهن يستمتعن بما تحويه من فكاهة شبُّهة بفكاهة ربليه Rabclais وتشوسر . وتقص فلومينا ، وهي فتاة ذات آداب راقية ، قصة رينالدو ، ويقول بوكاتشو في أسوأ صورة من صوره إن 1 السيدات كن فى بعض الأحيان يواصلن الضحك زمنا يكفى لخلع أســنامهن جميعها »(٤٧) . ويرجع هذا النحو الذي نحاه بوكاتشيو في قصصه إلى أنه قد نشأ وسط مرح نابلي الطليق ، وإنه إذا ما فكر في الحب كان في أغلب الأحيان يفكر في معناه الشهواني ؛ أما حب الفروسية والشهامة فكان يسخر منه ، وكان موقفه من دانتي كموقف سانكوپانزا من دون كيشوت ۽ ويبدو أنه كان يؤمن بالحب الطلبق مع أنه قد تزوج مرتين(٤٨) . وتراه بعد أن يقص نحو عشرين قصة لا يصح أن يتحدث بها اليوم بين جماعة من الذكور ينطق أحد الرجال بعبارةً يقولها للسيداتُ : ﴿ لَمْ ٱلاحظ قط أى عمل ، أو لفظ ، أو كلمة ، أو أى شيء ناب صدر منكن أو من الرجال ، . ويعترف المؤلف في ختام كتابه بصحة بعض ما يوجه من النقد إلى ما في الكتاب من فحش وخاصةً ﴿ لأني قلت الحتى عن الرهبان في مواضع كثيرة ۽ . وهو في الوقت ذاته ڇپئ نفسه علي ما بذله من وجهد طويل أتم فيه عمله على أكمل وجه بمعونة ألله ، .

ولا يزال ويُحمرون من رواثع الأدب العالمي ؛ ويرجع سبب شهرته

إلى أخلاقه أكثر نما يرجع إلى فنــه ، ولكنه حتى لو خلا من كل ما يجافى الحلق الكريم لكان مع ذلك خليقا بالبقاء : وليس في بناء الكتاب شيء من النقص ــ وهو يسمو من هذه الناحية على كتاب قصص كنتريرى . وقد ارتفع نثره بالأدب الإيطالي إلى مستوى لم يسم عليه قط ، وهو نثر قد يكون في بعض الأحيان معقدا أو مزخرفا ، ولكنه في معظمها بليغ ، جذل ، لاذع ، مطرب ، صاف صفاء النبع الجبلي . إنه كتاب في حب الحياة ، وقد استطاع بوكاتشيو في غمرة أكبر كارثة حلت بإيطاليا في مدى ثمانين عاما أن يجد في نفسه من الشجاعة ما يستطيع به أن يري الحيال ، والفكاهة ، والطيبة ، والمرح لا تزال تمشى على الأرض ؛ وتراه في بعض الأحبان ساخرا كما تثبين ذلك في هجوه الحالي من الشهامة للنساء في الكرباتشيو Corbaccio ، لكنه كان في ويكمرون شبيها بربليه في ضحكه العالى ومرحه ، يتقبل ما تعطيه الحياة إياه وما تأخذه منه ، ويرضى منها ومن الحب بمتاعيهما وسقطاتهما : ولقد شهد العالم لنَفْسه مصورا في الكتاب رغم ما فيه من مغالاة ومن صور هزلية : ولقد ترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، ونقل هانز ساكس Hans Sachs ولسنج Lessing ومليىر Molière ولافنتين La Fontaine ، وتشوسر Chaucer ، وشيكسبير نقل هولاء كلهم صحفاً منه أصجبوا بها كل الإصجاب : وسيظل الكتاب متعة للقراء بعد أن يكون جميع شعر بْتراركْ قد انطوى في عالم الكتب التي يمدحها الناس ولا يقبلون على قراءتها .



الفصِل لثامِن

٠___نا

وكانت سينا خليقة بأن تتحدى ادعاء فلورنس بأنها مهد النهضة. ففها أيضاً رفعت حدة الانقسامات الحزبية من حرارة التفكير ، وغدى زهو المدينة باستقلالها شجرة الفنء وأمدت صناعة الصوف وصادرات المدينة إلى البلاد الواقعة في شرق البنحر المتوسط ، والتجارة المتبادلة بين فلورنس ورومة مارة بطريق فلامينا Via Flamina ، بقدر لا بأس به من الثراء ؛ فلم يحل عام ١٤٠٠ حتى كانت ميادينها وشوارعها الرئيسية مرصوفة بالآجر أو الحجارة ، وحتى بلغ فقراؤها من الثراء درجة شجعتهم على القيام بثورة ، ذلك أن العال في صناعة الحشب حاصروا القصر العام Palazza Pubblico في عام ١٣٧١ ، وحطموا أبوابه ، وطردوا منه حكومة رجال الأعمال ، وأنشأوا محكومة الفقراء ٢٠.ولم تمض على قيام هذه الحكومة إلا بضعة أيام حتى قام جيش مؤلف من ألني رجل جهزه ذوو المصالح التجارية في المدينة ، فهاجم أحياء العال ، وذبح من فنها من الرجال، والنساء، والأطفال، دون تمييز أو رخمة، فنهم من أنفلت في أجسادهم الحراب ، ومنهم من مزقت بالسيوف. وخف الأشراف ورجال الطبقة الوسطى ـــ للدنيا لإنقاذ العامة ، وقضى على الثورة المضادة ، وتولت حكومة الإصلاح مقاليد الأمور ، فوهيت المدينة أشرف نوع من الإدارة يستطيع أهلها أن يتذكروه . ثم ثار التجار الأغنياء مرة أخرى في عام ١٣٨٥ ، وأسقطوا حكومة الفقراء ، وطردوا أربعة آلاف من العال العاصين من المدينة . وضعف شأن الصناعة والفن في سينا من ذلك. التاريخ^(٠) .

وبلغ الذن في صينا ذروة مجده في القرن الرابع عشر الملىء بالاضطراب ، فقد قام فيها على الجانب الفرني من الكامهو الفسيح - وهو الميدان الرئيسي في المدينة - القصر العام ، البلات ويبليكو (١٢٨٨ - ١٣٠٩) ، يجاوره برح الأجراس Torre de Magnia الذي يعلو رفيعاً في الجو إلى ١٣٣٤ مقاما ، والمدى هو أجمل برج في إيطاليا حتى اليوم . وفي عام ١٣١٠ اتقل لورندسو مبتاني المصاديين والمثالين والمثالين والمثالين والمثالين والمثالين والمثالين والمثالين من أهل سينا ومعهم أندريا ينزانو يعملون في شبه حمى جنونية لتزيين المداخل ، والعمد المربوعة ، والقواصر ، حتى أخرجوا وأنشئت لقصر سينا العظم في عام ١٣٧٧ واجهة عمائلة للواجهة السالفة وانشئت لقصر سينا العظم في عام ١٣٧٧ واجهة عمائلة للواجهة السالفة في إنسان التخطيط الذي تركه جيوفي ينزانو ، ولعلهم قد بالغوا في زخوفته . ولكنه مع هذا لايزال من عجائب الفن في إطاليا الذي وخوفته . ويكنه م ولكنه ع

وكانت طائفة ممتازة من المصورين في سينا قد واصلت العمل من الشعلة التي وقف عندها دبشيو دى بيوننسنيا Duccio di Buoninsegna : ذلك أن سيمون مارتيني قد عهد إليه في عام ١٣١٥ أن يزين بهو المجاسر. العظيم في الهلانسوببليكو بصورة تمثل تنويج الفدراء (المائستا (Maesta)).

⁽ه) إن ثورة عمال سينا في عام ۱۳۷۱ ، وثورة التشييسي Ciompi في ظور نس عام ۱۳۷۸ ، وثورة وات ثيلر Wat Tyler التي تابت معها في نفس اوقت تقريبا في إنجائزا ، واشورة التي تابت في فرنسا حوالي عام ۱۳۵۰ توسى كلها بوجود موجة من الشورات اجتاحت أوريا ، كا توسى بوجود تسط من الاتصال والتأثير المتبادل بين الطبقات العامة في أوريا الفرية أكبر عايان الناس عادة أن كان موجه دا في ذلك الوقت .

وذلك لأن العذراء كانت من الوجهة القانونية كما كانت من الوجهة الدينية ملكة المدينة المتوجة ، وكان من حقها أن ترأس اجتماعات الحكومة البلدية . ولم تكن الصورة نقل روعة عن مثيلتها التي رسمها دتشيو لتوضع في الكنيسة قبل خمس سنين من ذلك الوقت . نعم إنها لم تضارعها في حجمها ، أو فيما أثقلت به من الذهب ، وهي شبيهة بأخبًا و ذات الجلال ه تكشف عما استمده فن التصوير في سينا من فن بمرنطة ، وذلك بما تظهره من جمود وعدم حركة في الملامح ، ومن وقوف أشخاص الصورة المزدحمن فها وِققة خالية من الحياة ، ولعلها قد تقدمت على الصورة الأولى في اللون وفى التصمم . ولكن سيمون ذهب فى عام ١٢٢٦ إلى أسيسي حيث درس مظلمات چيتو ، فلما دعى ليصور في معبد بالكنيسة السفلي حياة القديس مارتن ، خرج على الوجوه ذات الطابع الراسخ الني مثلها في صوره السابقة ، وصور وجه أسقف تور تصويراً أبرز فيه نزعة انفرادية ذائعة الصيت . والتني بيترارك في أثنيون ورسم صوراً للشاعر ولورا Laura ، ومجلد من أجل ذلك الكندسونيير Canzonière . ويقول ڤاسارى Vasari إن هذه السطور الموجود و قد آذاعت شهرة سيمون أكثر مما أَذَاعَتُها أعماله هو مجتمعة . . . ذلك أن أعماله سيأتى علمها وقت لا يكون لهنا فيه وجود ، أما ما يكتبه رجل مثل يترارك فسيبتى أبد الدهر ، ؛ وذلك تفاول لانجده عند علماء طبقات الأرض أنفسهم . وعن بندكت الثاني عشر سيمون مصوراً رسمياً للبلاط البابوى (١٣٣٩) ؛ وأوضع بحكم منصبه حياة المعمدان في معبد البابا وحياة العذراء والمنقذ على مدخل الكنيسة . ومات في أڤنيون عام ١٣٤٤ .

واصل پيترو Pietr وأخوه أمروجيو Ambrogio ابنا لورندسي Lorenzetti ما حاوله سيمون من إخراج الفن من طابعه الديبي إلى طابعه للدنوى وتوسم فيه . ولعل پيترو قد هجر التقاليد العاطفية المسرفة التي اتسم مها فن التصوير في سينا ، وأخرج طائفة من الصور لتزدان مهة

هاريب الكنائس ليس لها فيا سبق مثيل في قوتها ، وليس لها في بعض الأحيان مثيل في والعيثها الوحشية . فقد صور أسروجيو في يهو العسم ﴿ الشَّيْرِينَ ﴾ في البلانسوبيليكو أربعة مظلمات (١٣٣٧ – ١٣٤٣) : الحكومة الحبيثة ، وعواقب الحكومة الخبيثة ، والحكومة الصالحة ، وعواقب الحكومة الصافح. وقد استبق فها الرمزية المضادة في العصور الوسطى والني تخلى عنها چيتو ؛ فنرى صوراً فخمة لأشخاص يمثلون سينا ، والعدالة ، والحكمة ، والاتفاق ، والفضائل السبع ، والسلم — وتنحني الشخصية التي تمثل السلم في رشاقة كما تنحني آلمة فدياس . ونشاهد في صورة الحكوم الخيئة الاستبداد جالساً على العرش ، ووزيره الرعب ؛ ونرى التجار تنهب بضائعهم في الطريق ، والتحزب والعنف يخضبان الملدينة بالدماء و وتظهر صورة المحكومة الصافحة المرسومة على جدران هذا الهو نفسه الأهلن السمداء يعملون مغتبطين في صناعاتهم اليدوية ، وقى مسراتهم وتجارتهم ؛ ونرى الزراع والتجار يقودون إلى المدينة بغالا محملة بالطعام والسلم ، الأطفال يلمبون ، والفتيات يرقصن ، والآلات الموسيقية تصدر عبها ننهات صامتة ؛ وترفرف فوق المنظر كله روح عجنحة ترمز إلى الأمن ، وربما كان هذان الأخوان النشيطان هما اللذين صورا المظلم الضخم الذي يمثل انتصار الحوت في الكامبو سانتو Campo Santo ﴿ الميدان القدس) في بنزا Pisa : وتمثل هذه الصورة جماعة من الصيادين حَوَّلُمَةً مِنَ الْأَعِيانَ والسيداتِ يُرتدونَ ثِيابًا خَالِيةِ النَّنِ ، ويعثرون على ثلاثة عوابيت تحتوى جئثا متحفنة لملوك . ويمسك أحد الصيادين بأنفه اشمئز ازآ من رائحتها . ويحوم ملك الموت فوق هذا المنظر ، وهو يلوح بمنجل ضخم ؛ وفي الهواء ملائكة الرحمة يحرسون الأرواح الناجية في طريقها إلى الجنة ،

يم نرى الشياطين المجتمعة بمر معظم المرتى إلى الجمعيم ، ونرى الأفاعى تطوق أجسام الرجال والنساء العارية والنسور تهشها . وتلتهمها ، ومن تحتها الملوك ، والمماتفة ، والكرادلة ، والمماتفة ، والكرادلة يتلوون فى الهاوية التى تضم الملعونين ، وقد صور هذان الفنانان نفسهما على حجار مجاور لهذا فى مظلم آخو ضمخ صورة يوم الحساب إلى اليسار ومنظراً آخو من مناظر الجمعم إلى اليمن . وتتجمم فى هدين المنظرين جميع الأهوال التي يتصورها أهل العصور الوسطى . فهي شبية بمنظر "محم دانى ترى رئى العين خالية من الرحمة وذاهبة إلى أبعد حد .

ولم تخرج سينا يوماً. من العصور الوسطى ؛ بل بقيت هى وجبيو • Oobblo ، وسان چمنيانو San Gimignan ، وصقلية على حالها إلى ما بعد دالمبضة : لم تمت هذه. المدن أبداً ولكيّها تَبْربصِ وقبّها صابرة مستورة حتى تتقظير من جديد. ٥

الفصل لتاسع

ميالان

عاد يترارك إلى أفنيون فى عام ١٣٥١ ؛ وأكبر الظن أنه كتب فى. فوكلوز Vaucluse مقالا لطيفا فئ هيان الوهدة De vita solitaria يمتاح فيه الوحدة التي يستطيع أن يتخيلها على أنَّها علاج شاف ولكنه لا يطيقها إذا كانت طعاماً يقيم يه الأود . وبعد قليل من عودته إلى أڤنيون أثار عليه غضب جماعة الأطباء حين حذر البابا كلمنت السادس ، وكان وقتتلم يعانى آلام المرض ، من الأدوية الني يصفها له الأطباء : ﴿ لَقَدْ كُنْتُ عَلَى الدوام أرجو أصدقائي وآمر خدى ، ألا يسمحوا أبداً بأن تجرب أية حيلة من حيل الأطباء هذه في جسمي ، وأن يفعلوا عكس ما بشر به هؤلات تماماً ع⁽⁴⁹⁾ . واستشاط غضبا من إخفاق بعض العلاج فكتب فى عام ١٣٥٥ شريدا بطبيب. وقم يكن أكثر من ذلك ميلا إلى المحامن و الذين يقضون وقتهم كله في النزاع : . . على أنفه للسائل : : « استمع إلى حكمي علي جماعتهم كلها . إن شهرتهم ستفنى بفناء أجسادهم ، وإن قبراً واحداً لبكني أسماءهم وعظامهم بالزمن وأراد البابا إنوسنت السادس أن يجعل أثنيون يغيضة أشد البغض ليترارك فاقترح أن يحومه بمحجة أنه متنيئ روحانى ساحر اعتاداً على أن الشاعر دارس لفرجيل . وخف الكردنال تلمران Talleyrand لإنقاذ يترارك ، ولكن نفس الشاعر عافت جو أڤنيون المعطر بالجهالة القدسية فزار أخاه الراهب جراردو Gherardo وكتب رسالة شيقة فى فراغ الرهبان داعب فيها فكرة دخول الدير : ولكنه جاءته دعوة لأن ينزل ضيفا على طاغية ميلان ثى قصره (١٣٥٣) فبادر إلى قبولها مبادرة صدمت مشاعر أصدقائه الجمهوريين :

وكانت الأسرة الحاكمة في ميلان بطلق علمها اسم الشيكونتي لأن أفرادها كثيراً ما كانوا يشغلون منصب الفيسكوميت vicecomites أي كبار قضاة الأبرشية . وعن الأمراطور هنرى السابع في عام ١٣١١ ماتيوڤيكونتي قسا له في ميلان ، وكانت هذه المدينة كما كانت الكثرة الغالبة من مداثن شهاني إيطاليا ، تعترف على نحوما بأنها جزء من الإمراطورية الرومانية المقدسة . وأظهر ماتيو في حكمه من البراعة والحزم مامكن بنيه من أن يحتفظوا بالسلطة حتى عام ١٤٤٧ وإن كان قد ارتكب هو في أثناء حكمه أغلاطا شنيعة . وقلما كان خلفاؤه هؤلاء يراعون في حكمهم ذمة أو ضميراً ، وكثيراً ما كانوا قساة غلاظا ، كما كانوا أحياناً مسرفين ، ولكنهم لم يكونوا أبدًا أغبياء . وقد فرضوا الضرائب الفادحة على الشعب ليحصلو بذلك على الأموال اللازمة لحروسهم الكثيرة التي أخضعت الشمال الغربي من إيطاليا لحكمهم ، ولكن مهارتهم في اختيار الحكام وقواد الحرب الماهرين أكسبت جيوشهم النصر وعادب بالرخاء على ميلان . وقاد أضافوا إلى صناعة الصوف التي اشتهرت بها ميلان صناعة الحرير ، وزادوا من عدد القنوات التي ضاعفت تجارتها ، وأمنوا رعاياهم على أنفسهم وأموالم إلى حد أنساهم حريتهم ، فأضحت ميلان تحت حُكمهم الاستبدادي من أغي مدائن أوربا ، فكانت قصورها ذات الوجهات الرخامية تطل على الشوارع المرصوفة بالحجارة . ووصلت ميلان بفضل چبوڤنی فیکونٹی الوسیم ، المجد ، الذی یستطیع أن یکون قاسیا أو کریما إذا دعته إلى ذلك الحاجة أو طافت به نزوة من النزوات ، إلى ذروة مجدها ، واعترفت لودي Lodi ، ويارما ، وكريم Crema ، وبيا تشندسا ، وبریشیا ، وبرجامو ، وتوقار ا Nova:a ، وکومو ، وڤرتشلی Vercelli ، و ألسلىريا Alessandria ، وتور تونا «Torton ، وينتر يمولي Alessandria ، وأستيا Astia و بولونيا ، اعترفت هذه كلها محكمه وسلطانه ؛ ولمسا أن نازعه بابوات أثنيون دعواه في تملك بولونيا ، وأصدروا عليه قرار الحبر مان ، حارب كلمنت السادس بالشجاعة والرشا ، وظفر ببولونيا ، وبالففران ، والسلم نظير مائتي ألف فلورين (١٣٥٧) ، وأصيب من جراء جرائمه بالتقرس ، وزان استبداده بمناصرة الشعر ، والعلم ، والفن ، ولما وفد يترارك على بلاطه ، وسأله أى الواجبات يطلب إليه أن يؤديها ، ود عليه چيوفني ذلك الرد الجميل : ولا شيء أكثر من وجودك الذي يشرفني ويشرف حكمي هداه) .

وأقام پترارك في بلاط الڤيكونتي في پاڤيا أو ميلان ثماني سنين ، وألف في أثناء هذا الحضوع المربح سلسلة من القصائد بالشعر الإيطالي الرباعي الأوتاد سماها الونتصار أي انتصار الشهوة على الإنسان ، والعفة على الشهوة ،، والموت على العفة ، والشهرة على الموت ، والزمان على الشهرة ، والحلود على الزمان . وهنا أنشد آخر أغانيه إلى لورا Laura ، وُطَلَبَتَ أَنْ تَغَفَّرَ لَهُ شَهُوانَيَةً حَبَّهُ ، وتَحَدَّثُ إِلَى رَوْحُهَا الطَّاهَرَةُ وَحَلَّمُ أَنَّه اجتمع بها في الجنة _ ولعل زوجها قد ذهب إلى مكان آخر . ولا تقل هَلَم القَصَائِد شَأْنَا عَن قَصَائِد دَانِّي ، وهي تُمثِل انتصار الغ ور على الفن . وتوفى چيوڤنى ڤيكونتى فى عام ١٣٤٥ وأوصى بملكه إلى ثلاثة من أبناء أخيه ، وكان ماتيو الثانى ، عاجزا مهمكا في ملذاته ، فقتله أخواه فيحفظا بذلك شرف أسرتهما (١٣٥٥) . وحكم برنابو من ميلان جزءًا من الدوقية ، وحكم جليتسو الثاني Galezzo II من بدوا ما بثي منها . وكان جليتسو هذا حاكما قديرا يرسل شعره الذهبي في غدائر ، وزوج يناته من أبناء الملوك . ولما أن تزوجت ابنته ڤيولنتي Violante دوق كالارنس Clarence ابن إدوارد الثالث ملك إنجلترا ، أعطاما باثنة قدرها حاثتا ألف فلورين ذهبي (أي خسة ملايين دولار) ، ونفيح كل واحد من حاشية الزوج الإنجليزية المواققة من مائيي ألف تابع سهدية ترفع مقامه في المكرم فوق مقام أغني معاصريه من الملوك . ويؤكد لنا الرواة أن بقابا مائدة العرس كانت تكني عشرة آلاف رجل . لقد يلغت إيطاليا في القرن الرابع عشر هذه الدرجة العليا من الثراء في الوقت اللني كانت فيه إنجلترا تمردي في هاوية الإفلاس ، وكانت فرنسا تُستيزف دماؤها في حرب المائة السنين .

الفصلا لعاشِر

البندقية وچنوى

بعث الدوق جيوڤئي ڤيكونتي في عام ١٣٥٤ پترارك إلى البندقية ليفاوضها في عقد الصلح مع چنوى :

وكتب الشاعر في ذلك يقول : ﴿ إِنْكَ لَنْشَهِدُ فَى جِنْوَى مَدْيَنَةُ حَاكُمَةُ ﴾ مستقرة على سفح تل أجرد ذاتأسوار شاهقة ورجال عظام ٢٥٢٥) . وكان أهلها من أشد الناس حرصا على الكسب يتحدون البحار بإقدامهم وبسالتهم ؛ شقوا لتجارة چنوى طرائق في البحر المتوسط إلى تونس ، ورودس ، وعكما ، وصور ؛ وإلى ساموس ، ولسبوس ، والقسطنطيلية ؛ واغترقوا البحر الأسود إلى بلاد القرم وطربزون ؛ واجتازوا مضيق جبل طارق والمحيط الأطلنطي إلى رون وبروج . وهوالاء المغامرون من رجال الأعمال هم الذين ابتدعوا قبيل عام ١٣٤٠ طريقة القيد المزدوج (حساب الدوبيا) في إمساك الدفاتر ، كما ابتدعوا التأمن البحرى على السفن قبيل هام ١٣٧٠(٥٣) . وكانوا يقترضون المال من الأفراد المستثمرين بفائدة تتراوج بن سبعة وعشرة في المائة ، في حين أن سعر الفائدة في معظم الملدن الإيطالية كان يتراوح ببن اثنى عشرة وثلاثين . وظلت ثمار التجارة ودحا طويلا من الزمن يتقاسمها بغير طريقة حبية عدد قليل من الأسر الغنية ــ أسرة دوريا Doria ، واسينولا ، وجريملدي ، والفيسكي Fieschi . وقاد سيمون بكانبرا Simone Boccauera البحارة وغيرهم من العِبال في ثورَة موفقة ، وأُسس أول أسرة من الأدواج Doge حُكموا چنوی حتی عام ۱۷۹۷ . وخلد ڤیر دی Verdi اسمه فی تمثیلیة غنائیة . ثم انقسم الغالبون بدورهم إلى عدة جماعات متعادية ونشروا الاضطراب فى المدينة بمنازعاتهم التي كلفتهم أموالا طائلة ، في للوقت الذي كانت فيه البندقية منافسة چنوى العظيمة يعمها الثراء والرخاء بفضل ما تستمتع به من النظام والوحدة .

وكانت البندقية أغنى دول إيطاليا وأقواها بعد ميلان ، وكانت حكومتها أقدر الحكومات وأكرها حرماً بلا استثناء . واشهر صناعها اليدويون بيمال مصوحاتهم ، وكانت كرّمها خاصة بتجارة مواد الرف . وكانت كار مها دار صنعها البحرية تضم ١٦٠،٠٠ رجل ، و١٣٠٠٠ بحار بسرون رجالا من سفيتة حربية وبحارية . وكان الذين يسرون سفاتها بالجاذيف رجالا من الأحرار لا من العبيد كما جرت بذلك العادة في القرن السادس عشر . وكان بحرار البندقية يغزون جميع الأسواق من بيت المقدس إلى أنتويرب ، ويتجرون مع المسيحين والمسلمين على السواء ، لا يمنزون بين أولئك وهولاء ، ويتجرون على أنفسهم اللهنات البابوية التي كانت تتساقط عليم كما يتساقط لوطى الأرض. وكان يترارك الذي جاب الآفاق من نابل إلى فلاندرز ليشع ه حبه وتحمسه لروية كثير من الأشياء » يعجب أشد العجب من ليشعم د حبه وتحمسه لروية كثير من الأشياء » يعجب أشد العجب من

وكانت هذه التجارة العظيمة الواسعة تعتمد على الأموال الخاصة يجمعها ويستشمرها المرابون الذين أطلق عليهم فى القرن الرابع عشرلقب المصرفين ٥ Bancherii ؛ وهذا الاسم الإيطالي مشتق من لفط Banco أى المقمد الذي كانوا يجلسون عليه أمام نضدهم لمبادلة النقود . وكانت أهم و-حدات النقد هي . اللبرا (واسمها مختصر من لبرا ، أي رطل) واللبوقات (من دوقا ، أي دون أودوج) ، والثانية قطمة من النقد الذهبي زنتها ٣٥٦٠ جراماً ٥٠٠ وكانت هذه القطمة النقدية هي والفلورين والفلورنسي أكثر أنواع العملة . ثباتاً وأعظمها تقديراً في العالم السيحي (٥٠٠ :

وكانت الحياة هنا تكاد تبلغ من المرح ما بلغته مدينة نايلي في عهد.
بوكاتشيو . فكان البنادقة يحتفلون بأعيادهم وأيام نصرهم احتفالات فخمة ،
ويصنعون ويلونون سفهم الحاصة بالنزهة وسفهم الحربية ، ويرتدون الحرائر الشرقية ، وتتلألاً على موائدهم آتية الزجاج للبندقية ، وتعزف لهم الموسيق في البيوت وعلى صفحة الماه .

ورأس اللنوج لورنامسو تشلسي Lorenzo Celsi يصاحبه بمراك مباراة بين أمهر الموسيقية في إيطاليا ، وأنشلت الأغاني على نفات عشاف. الآلات الموسيقية ، وغنت فرق المغنين ، وكانت الحائزة الأولى من نصيب فرانتشيسكو لنديي الماتصد Lorenzo Condini الفلورنسي وهو مولف ضرير للقصص الشعرية والقصائد الفزلية . وكان لورندسسو فينيلسيانو Lorenzo Veneziano وغيره ينقلون وقتنذ بالمظلمات من صرامة المصور الوسطى إلى رشاقة المنهشة ويبشرون بهاء فن التصوير البندق وزهاء ألوائه .

⁽ o) هذا ما يقوله المؤلف . على أن سجم ريستر' (المطبوع فى عام ١٩٥٤) يقول إذ. قيمة الدوقة الإيطالية تباغ هى ٢٥٢ دولار أمريكس . (المترجم)

⁽⁰⁰⁾ وستقدر هذه القطع الثلاث جيمها في هذا الحجلد تفديرا فير حقيق قبل عام ١٤٩٠ بالفرة الشرائية المحادث في عام ١٩٥٧ . بالفرة الشرائية المحادث المستقرط بالفرة الشرائية لائتي عشر دولارا وتصف دولار . وقد حدث تضخم بطيء أنقص قبية العبلة الإيطالية بين عامي ٥٠٠٠ إلى ما يقرب من ضعف ضيعة المحادث المحادث فضف قبطيء أنقص قبية العبلة الإيطالية بين عامي ٥٠٠٠ إلى ما يقرب من ضعف فضف قبية العبلة الإيطالية بين عامي ٥٠٠٠ إلى ما يقرب من ضعف ضيعة العبلة الإيطالية بين عامي ٥٠٠٠ إلى ما يقرب من ضعف فضف قبية العبلة الإيطالية بين عامي ٥٠٠٠ إلى ما يقرب من ضعف ضعف فسئون المحادث المحادث

فكات الدوت ، والقصور ، والكنائس ترتفع فوق البحر كالمرجان . ولم يكن في البندقية قصور كالقلاع أو مساكن محصنة ، أو أسوار ضخمة منبعة ، لأن خصام الأفراد فيها سرحان ما كان يحضه الطلبية . وظل التخطيط المهارى قوطياً يكون لكل بيت خندق من صنع الطبيعة . وظل التخطيط المهارى قوطياً كما كان ، ولكنه كان يحوى من الرشاقة والحفة ما لا تجرو العارة القوطية الشيالية أن تكونه . وشيدت في ذلك العهد الكنيسة الفخمة الى تحمل اسم وظلت كنيسة القديس مرقس بين القينة والفينة ترقع وجهها القديم مزداناً بالحديد من التمانيل ، والفسيفساء ، والنفوش العربية ، وتعلوها أقواس قوطية فوق عقود مستديرة من الطراز الميزنطي القديم . ولا يكاد پترارك يصدق أن ميدان القديس مرقس والنف الميدية ، ولا يكاد پترارك يصدق أن ميدان القديس مرقس وال لم يكن قد أحيط في ذلك الوقت بكل يصدق أن عيدان الفرية ، وإن لم يكن قد أحيط في ذلك الوقت بكل

ووجهت في عام ١٣٧٨ ضربة مهلكة إلى هذا الجال كله الذي كان ظله يباوج منعكساً على مياه القناة العظمى ، وهذا الصرح الموحد من نظاى الحكم والاقتصاد الذي كان يسيطر على إمبر اطورية تشمل البحر الأدرياوي وبحر المجه ، وهو نفسه قائم في بقمة مائية صغيرة على سطح الأرض ، وذلك حن بلغ الذاع القديم أوجه بين البتدقة وجنوى . وسار لوتشيانو دوريا ووجد الأسطول البندق قد أضعفه وباء تفشى بين بحارته ، وأوقع به هزية ساحقة استولى فها على خس عشرة من سفنه . وأمر نحو ألفين من رجاله . وقتل لوتشيانو في الممركة ، ولكن أخاه أمير رجيو خلفه في إمارة الأسطول البحزة والمحقول على بلمرة على المحرفة ، ولكن أخاه أمير رجيو خلفه في إمارة الأسطول ،

على بعد خسة عشر مبلا أو تحوها جنوب البندةية نفسها . ثم عقد حلفاً مع پدوا وسد الطريق على جميع سفن البندقية ، واستعد لغزو المدينة نفسها ببحارة من چنوی وجنود مرتزقة من پلموا . وظنت المدينة المزهوة بنفسها أنها عاجزة عن الدفاع فطلبت الصلح ، ولكن الشروط التي فرضها **المنتصرون** كانت من الوقاحة والشدة بحيث رفضها المجلس الكبير ، و صمم على اللدفاع عن كل شبر من المياه الضحلة المتصلة بالبحر . وأخرج الأغنياء ما كانوا يخبئونه من المال وصبوه صبا في خزائن الدولة ، وأخذ الأهلون يكدون ليلا ونهاراً لبناء أسطول جديد ، وأنشئت قلاع سابحة حول الجزائر ، وجهذت بالمدافع التي ظهرت وقتئذ لأول مرة في إيطاليا (١٣٧٩) . ولكن أهل چنوی وپدوا کانوا قد حاصروا البندقیة من ناحیة البحر ثم مدوا حصاراً آخر من الجند على مداخلها البرية وقطعوا الطعام عن المدينة . وبينا كان بعض أهلها يموتون جوعاً كان ثيتورى ينزاني Vittore Pisani يدرب المجندين للأسطول الجديد ، حتى إذا كان شهر ديسمبر من عام ١٣٧٩ قاد ينراني والدوج أندريا كنتاريني Andrea Contarini هذا الأسطول المحدد ــ وكان موالفاً من أربع وثلاثين سفينة واطئة ذات سطح واحد ، وسنين مركباً كبراً ، وأربعاثة قارب صفر – ليحاصر به الغزاة الحنويين وسفائهم عند كيوچيا . وكان أسطول چنوى أصغر من أن يواجه أسطول البندقية الجديد ، وكانت مدافع البنادقة تصب على مراكب چنوى ومعاقل جنودها ومعسكراتهم حجارة زنة الواحد منها مائة وخسون رطلا ، وقتلت فيمن قتلت وهم كثيرون أمير البحر پيترو دوريا . ولم يجد الغزاة من أهل چنوى حاجتهم من الطعام ، فطلبوا أن يوُّذن لهم أن يخرجوا النساء والأطفال من كيوجيا ؛ وأجابهم البنادقة إلى ما طلبوا ؛ ولما أن طلب الحنويون أن يخضعوا إذا سمح لأسطولم أن يعود إلى بلدهم ، جاء دور

البنادقة فطلبوا التسلم بلا شرط . ودام حصار البنادقة لكيوجيا سنة أشهر حتى فت الموت والمرض في عضد الجنويين فاستسلموا ، وعاملتهم البندقية معاملة كريمة رحيمة ، ولما أن عرض آمديوس السادس V Amadeus VI كونت سافوى أن يتوسط لحسم النزاع وافق الطرفان المهوكا القوى ، وبنحا إلى الترك كلاهما عن بعض مطالبه ، وتبادلا الأسرى ، وجنحا إلى السلم (۱۳۸۱) .

الفصل كحاد عيثمر

خاتمة القرن الرابع عشر

خسر پتراراك كل مدينة وكل مضيف ، ثم أتخد مقامه في البندقية حام ، الاتبنية القديمة مها سبع سنين ، وجاء معه بمكتبته ، وكادت تحتوى كل الآداب اللاتبنية القديمة ما عدا كتب لكريشيوس . وأوصى في رسالة بليغة بمجموعته القديمة إلى البندقية ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق استجاله حتى مماته وأرادت حكومة البندقية أن تظهر تقديرها لعمله ، فوهبته قصر مولينا في Palazzo Molina وأثنته له بأثاث مربح ، ولكن پترارك عمل كتبه معه في آخر أسفاره ، ووقعت عند وفاته في يد آخر مضيفيه فرانتشسكو الأول صاحب كرارا Carrar وكان من أعداء البندقية ؛ واحتفظ بعض هذه الكتب في بدوا ، وبيع بعضها الآخر ، ثم تشتت بغير هذه وتلك من الوسائل .

وأكبر الظن أنه كتب في البندقية مقالا في واحبات الوصراطور وفضائر وسلسلة طويلة من الحوار عن علاج [الحظ] الحسن والسبي . وينصح في هذا الكتاب الأخبر بالتواضع وقت الرخاء ، والشجاعة وقت المحنة ، ويحدر الإنسان من أن يربط سعادته بانتصاره على ظهر الأرض أو بالحصول عن طيباتها ، ويعلم الإنسان كيف يصبر على آلام الأسنان ، والبدانة ، ونقلبات السمعة ؛ وهلم كلها نصائح سديدة ، ولكنها كلها موجودة في أقوال سنكا . كذلك ألف في هذا الوقت عينه أعظم كتبه النثرية وهو كتاب ، الرجال النابهوله De vfris illustribus وهد ، واحد وثلاثين من عظاء الرومان من رميولوس إلى قيصر ،

وقد خص قيصر بثلمائة وخمسن صفحة من قطع الشَّمن ظلت حتى القرن الناسع عشر أكمل سرة لهذا الحاكم .

وغادر يترارك البندقية إلى باڤيا في عام ١٣٦٨ يرجو أن يتوسط في الصلح بن جايتسو الثاني ڤيكونتي والبابا إربان الحامس ، وكان كل ما وجده أن البلاغة إذا لم تصحمها المدافع لا تجد من السياسيين إلا آذانًا صاء . وفي عام ١٣٧٠ قبل دعوة فرانتشسكو الأول صاحب كرارا لينزل ضيفاً عليه مرة أخرى في بلاطه الملكي في يدوا . لكن أعصابه التي أوهنتها الشيخوخة عافت صخب المدينة وزحامها ، وما لبث أن آوى إلى بيت ربني متواضع في أركوا Arqua بن التلال الأوچانية Euganean في الجنوب الغرى من يدوا وعلى مسرة اثنى عشر ميلا منها ، وقضى في هذا البيت الأربع السنين الباقية من حياته ، جمع فها رسائله وأعدها لتنشر بعدوفاته ، وكتب لنفسه ترجة صغيرة فاتنة سماها رسالة للمستقبل Epistola ad Posteros (۱۳۷۱) . ثم استسلم مرة أخرى لضعف الفلاسفة القدم ، فأخذ يسدى النصح إلى الحكام في كيفية تصريف شئون الدول ، وكتب إلى أمير بدوا في رسسالته التي أسماها خير الوسائل بودارة مشود الدولة (١٣٧٢) يقول ولا تكن سيد رعاياك بل أباهم ، وأحهم كما تحب أبناءك ۽ . ونصحه بأن يجفف المناقع ، ويضمن لرعاياه الطعام ، ويحافظ على الكنائس ، ويعين المرضى والمحتاجين ، ويبسط حمايته ورعايته على رجال الأدب _ الدِّين تعتمد على أقلامهم كل أسباب السمعة الطيبة ، ثم عمد إلى كتاب ويمحرون فترجم قصة جربزلدا إلى اللغة اللاتينية الكي تكون في متناول القراء في أوربا .

وكان بوكانشيو وقتنذ فى حالة نفسية تجعله يندم على كتابة ديكمرون أو القصائد الشهوازية التى قالها فى أيام شبابه . وكان أحد الرهبان قد ممث وهو يحتضر إلى بوكاتشيو رسالة يؤنبه فيها على حياته الآئمة وعلى قصصه المرحة ، ويتذره ، إذا لم يعجل بالثوبة ويصلح حاله ، بالموت العاجل. والعذاب المقيم فى نار جهنم . ولم يكن بوكاتشيو فى وقت من الأوقات يصبر على التفكير الطويل ، وكان يقبل أوهام زمانه وما يومن به أهله من معرفة الطالع والتنبؤ بالمستقبل عن طريق الأحلام ، ويؤمن بوجود آلاف الشياطن ، ويعتقد أن إينياس Aeneas قد زار الجحيم بحق^(۲۵) .

وأخذ يجمع بتحريض يترارك المخطوطات القديمة ؛ وأنقذ من النسيان الكتب من ١١- إلى ١٦ من الحوايات والكتب من ١ إلى ٥ من التواريخ لتاستس وكانت وقتثذ فى مكتبة مونثى كاتشيو ؛ وأعاد نصوص ماريتالى وأوسنيوس ، وحاول أن يقدم هوميروس إلى العالم الغربي . وكان بعض العلماء في أثناء حصر الإيمان قد ظلوا على علم باللغة اليونانية ، أما في. أيام بوكاتشيو فقد كادت هذه اللغة تختني اختفاء تاما من غرى أوربا ما عدا جنوبي إبطاليا الذي كان وقتئذ تصف يوناني . ثم شرع يترارك في. عام ۱۳٤٢ يلوس اللغة اليونانية على راهب من كابريا Calabria يدعى بارلام Barlaam . ولما خلت إحدى أسقفيات كلابريا من راء ا أوصى يْتُرادِكُ بِأَنْ يَخْتَارَ لِهَا بِارْلَامَ ، وأَخَذَ بوصيته ، فلما سافر الراهبُ إلى مقر عمله انقطع بِترارك عن دراســة اللغة اليوتانية لأنه لم يجد لها مدرسا ، أو كتابًا في النحو ، أو معجا ؛ ذلك بأن هذه الكتب لم يكن لها وجود باللغة اللاتينية أو الإيطالية . ثم التتى بوكاتشيو في عام ١٣٥٩ بتلميذ لبارلام في ميلان يدعى ليون پيلاتس Leon Pilatus ، فدعاه للمجيء إلى فلورنس ، وأقمنع جامعتها – وكانت قد أسست قبل أحد عشر عاما من ذلك الوقت ، بأن تُنشئ فيها لهبلاتس كرسيا للغة اليونانية . وتبرع پذرارك بجزء من مرتب. الأستاذ ؛ وبعث بنسخ من الإلياذة والأوديسية إلى بوكاتشيو ، وكلف يـ لاتس بترجمتها إلى اللغة اللاتينية . وتعطل العمل مرة بعد مرة وورط پترارك في. مراسلات متعبة ؛ وكان يشكو من أن رسائل بيلاتس أطول وأجف من ذقته نفسها على طولها وجفافها(٥٧° ، ولم يتحرك بيلانس لإنجاز العمل. للا بمساعى بوكاتشيو . وكانت هذه الترجمة النبرية الحالية من الدقة هى العرجمة اللاتينية الوحيدة التى تعرفها أوربا لملحمتى هومبروس فى القرن الرابع عشر .

وكان بيلاتس فى خلال هذا الوقت قد علم بوكاتشيو من اللغة اليونانية ما يكفيه لقراءة الآداب اليونانية القديمة قراءة عاجزة . وكان بوكاتشيو نفسه يعترف بأنه لا يستطيع أن يقرأ النص إلا قراءة ضعيفة . ولكنه وصف ما قرأه بأنه يبلغ من الجمال خدا لا يستطيع وصفه . وألهمته هذه الكتب كما ألهمه پترارك نفسه ، فخصص ما بتى من جهوده الأدبية كلها تقرببا لأن يعرف أوربا اللاتينية بأدب اليونان ، وأساطيرهم ، وتاريخهم . فنشر سلسلة من التراجم القصرة سماها في مفلوظ مشهوري الرجال من آدم إلى چون ملك فرنسا ، وروى فى الفساء النابهات قصص شهيرات النساء من حواء إلى چوانا الأولى Joanna I ملكة ناپلي ، وفي كتاب الجيال والفابأت والعبود ، إلخ ثبتا مرتبا حسب الحروف الهجائية بأسماء الجبال ، والغابات ، والعيون ، والأنهار ، والبحرات التي ورد ذكرها ف الأدب اليوناني ، ثم وضع كتيبا في الأساطير اليونانية سماه في تسلمل. الدُّنساب . وقد بلغ من انهماكه في موضوعه أن كان يسمى إله المسبحين چوڤ ، والشيطان پلوتو ، ويتحدث عن الزهرة (ڤينوس) والمريخ كأنهما شخصان حقيقيان كمرم والمسبح. وتبدو هذه الكتب في هذه الأيام مملة ثقياة لا تطاق ، كتبت بلغة لاتينية ردبثه وليس فيها كثير من العلم ، ولكنها كانت في زمانها كتبا دراسية قيمة لطلاب اللغة اليونانية ، وكان لها شأن أيما شأن في تهيئة أسباب النهضة .

وهكذا خرج بوكاتشيو من نزق الشباب إلى وقار الشيوخ ، واستخدمته البندقية بن الفينة والفينة في بعض شتولها الديلوماسية ، فأرسلته في مهمات. سياسية إلى فورلى Forli ، وأفنيون ، ورافتا . والبندقية . وضعت بحسمه حين بلغ سن الستن وأصيب بالقوباء الجافة و المراض لا أعرف كيف أحصها ، (٩٨) . وعاش في تشر تلدو Certaido إحدى أرباض فلورنس عيشة ضنكا يشكو آلام الفاقة . ولعل رغبة بعض أصدقاء بوكاتشيو في أن يقدموا له بعض المعونة المالية هي التي حدت بهم إلى أن يقعوا أمر فلورنس بأن ينشئ في عام ١٣٧٧ كرسيا للمواسة دانتي ، وأن يوظم لبوكاتشيو مائة فلورين (٢٥٠٧ دولار) ليلتي سلسلة من الحاضرات عن دائتي في الباديا Badia . لكن صحته وهنت قبل أن يتم المهج المقرر ، فعاد إلى تشرتلدو وقد وطن نفسه على ملاقاة المؤرث

وكان بترارك قد كتب عن نفسه يقول : 9 أحب أن يجلنى الموت مستمدا القائه أكتب أو ، إذا شاء المسيح ، أصلى وأيكى ، (٩٥). وقد أجاب الله دعاءه فوجد في يوم عيد ميلاده المتيم السيمين وهو الوم العشرون من شهر يولية عام ١٣٧٤ مكبا بوجهه على كتاب بيدركانه نائم ولكنه في الحقيقة ميت . وقد ترك في وصيته خسن فلررينا يشترى سها رداء لبوكاتشيو يتقى به البرد في ليلل الشتاء الطويلة . ومات بوكاتشيو أيضاً في البوم الحادي والعشرين من ديسمر عام ١٣٧٥ وهو في الحادية والستين من عرد . وأقفرت إيطاليا بعد وفاته من كبار الأدباء حتى نبتت البذور التي فرجوها وأينمت وآتت أكلها .

تارنق (الخريطة رقم ٣)

الفصل لثاني عشر

نظرة عامة

تتبعنا تنقل يترارك وبوكاتشيو في أنحاء إيطاليا ، لكن إيطاليا من لوجهة السياسية لم يكن لها وجود ، بل الذي كان موجوداً هو دول ـــ المدن ، وهي قطع ممزقة حرة في أن تهلك نفسها في الأحقاد والحروب ه نقد دمرت پنزا منافستها التجارية أملني ، ودمرت ميلان بياتشنوسا ؛ ودمرت چنوی وفلورنس ينزا ، ودمرت البندقية چنوی ، وانضمت بعد هذا العهد نصف أوربا إلى الجزء الأكبر من إيطاليا لتنمر البندقية . وأدى الهيار الحكومة المركزية على أثر غزوات البرابرة ، و ١ الحروب القوطية ، الَّى ثار عجاجها في القرن السادس ، وانقسام شبه الجزيرة بين لمبارديا وبنزنطية ، وتهدم الطرق التجارية الرومانية ، والنزاع بن اللمبارد والبابوات ، وبن البابوات والإمراطورية ، وخوف البابا أنه إذا قامت سلطة عليا في إيطاليا تمتد من الألب إلى صقلية ، فإن قيامها يجعل الباها أسراً ويخضع رئيس أوربا الروحي إلى رئيس الدولة السياسي ، كل هذا فكُك وحدة إيطاليا ومزقها كل ممزق . ولم يقتصر أشياع البابوات وأشباع الأباطرة على تقسيم إيطاليا شيعاً ، بل قسموا فضلا عن ذلك كل مدينة تقريباً إلى جلف وجبلن Guelf & Chibelline ؛ ولما أن خبت نار النزاع بِين الطائفتين استخدم الشعارين القدين منافسون جدد ، وظلت نيران الأحقاد مشتعلة في جميم مناحي الحياة ، فكان إذا وضع الجبلين الريش في ناحية من قبعاتهم وضعها الحلف في الناحية الأخرى ؛ وإذا قطع الجالن الفاكهة بالعرض قطعها الجلف بالطول ، وإذا اتخذ الجبلين وردة بيضاء شارة لهم اتخذ الجلف شارة حمراء . وانتزع الجبلين في ميلان تمثالا للمسيح

(1-31-460)

من محراب. فى كنيسة وأحرقوه لأن وجهه كان متجهاً إلى ما ظنوه ناحية الجلف ، وفى برجامو الجباينية اغتال مضيفون بعض ضيوفهم من الكلبرينن لأنهم تبينوا من أسلوب أكلهم النوم أنهم من الجلف (٢٠٠ . وبعث ضعف الأفراد وخور عزيمهم ، واضطراب الأمن بن الجاعات، وخداع الغرور ، بعث هذا فى النفوس دوام الحوف ، والارتباب ، والكراهية ، واحتقار المخالفين ، والأجانب ، والأغراب ,

و نشأت دولة - المدينة الإيطالية من هذه العقبات القائمة في سبيل الوحدة فلم يكن الناس يفكرون إلا في مدينتهم ، ولم يكن أحد يفكر في إيطاليا بوصفها وحدة وكنار الا قليل من الفلاسفة أمثال مكيفل Machtavelli أو شاعر مثل پترارك ، وكان تشليني في القرن السادس عشر نفسه بشبر إلى أهل فلورنس بقوله إنهم « رجال من أمتنا » وإلى فلورنس بأنيا : وطفى » . وكان بترارك ، الذي تحرر بفضل إقامته بالبلدان الأجنبية من الوطنية الحابة الضيقة يأسف لحذه الحروب التافية ، والانقسام المتفشى في بلده ، وتوسل في أنشودة بليغة عنوانها : بعروى إيطالها إلى أمراء إيطالها الله والوحدة :

أى يلادى إيطاليا ! - وإن كانت الألفاظ لا تجدى في اندمال الجروح المنسرة التي تخزق صدرى ، التي تخزق صدرى ، بيد أنه قد يخفف من آلامي أن أنفى بأحزان التير مالمظالم الدروات التير مالمظالم الدروات التير

وبالمظلم التي حلت بالآرنو حين أطوف وأنوح بشواطى البو المحزنة أترنم فيها يقصائدى ...

ويلاه ! أليست هذه هى الأرض التى وطنتها قدمى أول ما وطنت ؟ أليس هذا هو المكان الذى دُلِّلت فيه برفق وأنا مستريح في المهد ، وربيت به في حز وحنان ؟ ويلاه ! أليست هذه بلادى ــ التي أعزها لما يلينى وبينها من روابط البنوة ؟ والتي يثوى في ثراها أبواى ؟ فهلا بعض الأسى في قلوبكم القاسية فغلا بعض الأسى في قلوبكم القاسية فظرتم إلى أحزان الشعب ، فنظرتم إلى أحزان الشعب ، فإذا ما عطقم وأذعتم ، فإذا ما عطقم وأذعتم ، فإذا ما عطقم وأذعتم ، فإن الفضيلة سترفع راسها عالمية ، فيد قوى الغضب العمياء ولن يطول الزمن الذي تحترب فيه القوتان غير المتكافئتين ولن يطول الزمن الذي تحترب فيه القوتان غير المتكافئتين الدي رفع الهاب القدم

وكان پترارك يحلم أن يستطيع رينلسو Rienzo توجيد إيطاليا ، فلمه أن خاب أمله فيه انجه كما انجه دانتي إلى عاهل الإسراطورية الرومانية المقلسة ، وكان هذا العاهل من الوجهة النظرية الوارث من غير رجال المدين لجميع السلطات الزمنية التي كانت الإمبراطورية الرومانية الوثنية في بلاد الغرب . ومن أجل هذا فإنه لم يحض إلا قليل من الوقت على انسحاب رينلسو من ميذان العمل (١٣٤٧) حتى وجه پترارك رسالة شرة إلى شارل السادس ملك بوهيميا ، الذي كان بوصفه و ملك الرومان م الوارث لعرش الإمبراطورية . وقال الشاعر في هذه ال سالة : وقال الملك إلى ررمة ليتوج فها إمبراطورياً ، وليتخذ رومة لابراج عاصمة

للكه ، وليرجع إلى إيطاليا وحديقة الإسراطورية ، الوحدة ، والنظام ، والسلم (٢٠٠٠ م ولما اجتاز شارل جبال الألب في عام ١٣٥٤ دعا يترارك لمقابلته في ماننوا Mantua واستمع في رقة وبشاشة إلى ما وجهه إليه من دعوات تردد أصداء نداء دانتي الحار إلى جده هنري السابع ، ولكن شارل لم يكن لديه من القوة ما يكني لمزيمة جميع طغاة لمبارديا ، وجميع أهل علورنس والبندقية ؛ فأسرع إلى رومة ، ولم يكن البابا فيها وقتئذ ، فعمل على أن يتوجه نائبه ، ثم قفل راجعاً إلى بوهيميا ، وجد في بيع المناصب الدينية وهو عائد إلى بلاده ، وسافر إليه يترارك في يراج بعد عامين من ذلك الحادث ، في سفارة من ميلان ، ولكن هذا اللقاء لم تجن منه أيطاليا ثمرة تستحق الذكر .

ولعل سَهَة ما لم تكن قد وجدت إذا ما تحقق أمل يترارك. ذلك أن تقطيع أنوصال إيطاليا كان مما ساعد على قيام البَهْة ، فالدول الواسعة المرقمة توطد النظام وتدعم السلطان أكثر مما تنشر لواء الحرية وترعى المنفون. أضف إلى هذا أن التنافس التجارى بين المدن الإيطالية كان هو ولسنا ننكر أن تعدد المراكز السياسية في تنسية اقتصاد إيطاليا وثروتها . ولسنا ننكر أن تعدد المنازعات الصغرى في مجموعها لم تسبب من هلاك في الأنفس وخراب في البلاد قدر ما سببته حروب مائة السنين في فرنسا ، الأنفس وخراب في البلاد قدر ما سببته حروب مائة السنين في فرنسا ، عارات الأجانب علمها ، ولكنه ولد منافسة نبيلة بين المدن والأمراء فراتعلم ، والحرص على التفوق في فنون الهارة ، والنحت ، والتصوير ، والمنح التعليمية ، والشعر . لقد كان في إيطالية البَهْمة ، كما كان في المائيا القوطية ، مراكز كثيرة مثل باريس .

ولسنا في حاجة إلى المبالغة لكي نقدر ما كان ليترارك وبوكاتشيو من

فضل في التمهيد إلى النَّهضة : لقد كان كلاهما لايزال أسمراً لأفكار العصور الومطي . وكان الفَنصَّاص العظيم في عنفوان شبابه يسخر من فساد أخلاق رجال الدين واتجارهم بمخلفات القديسين ، ولكن آلاف الآلاف من رجال العصور الوسطي ونسائها كانوا يفعلون فعله ، وقد أصبح أكثر استمساكاً بالدين واصطباغاً يصبغة العصور الوسطى فى الأيام الى أخذ يدرس فمااللغة اليونانية . وكان پتراوك يصف نفسه بحق بأنه واقف بن عهدين(٢١٢) ، وكأنه لهذا كان يتنبأ بما سوف يكون . فقد كان يقبـــل قواعد الكنيسة التحكية في الوقت اللمى كان يشن فيه حرباً شعواء على أخلاق بابوات أَفْنِيونَ ، وَكَانَ يَحِبُ الآدابِ القديمة في أواخر حصر الإيمان ، كما كان چىروم Jerome يحمها فى بدايته ، وكان فى قرارة نفسه غىر راض عن هذا الحب . وكتب في العصور الوسطى مقالات ممتازة في احتقار العالم الدنيوي وفى السلم المقلصة التي تنبعث من الحياة الدينية . لكنه رغم هذا كان أكثر وفاء للآداب القديمة منه للورا Laura ، وكان يبحث عن الخطوطات القديمة ويعتز لها ، ويلهم غيره بأن يحلو في ذلك حلوه ، وقد يزجميع المؤلفين في العصور الوسطى تقريبًا عدا أوغسطين في العمل على عدم انقطاع الصلة بالأدب اللاتيني ، وصاغ عباراته وأسلوبه على مثـــال ڤرچيل وشيشرون ، وكان يفكر فى ذيوع شهرته أكثر مما يفكر فى خلود نفسه . وقد أثمرت قصائا.ه ماثة عام من الأغانى المصطنعة المتكلفة فى إيطاليا ، ولكنها أعانت على تشكيل أغانى شبكسبر . وانتقلت روحه الحماسة من بعده إلى يبكو Pico كما انتقل أسلوبه المصقول إلى بولتيان ، وكانت رسائله ومقالاته بمشابة قنطرة من الدماثة والرشاقة بين سنكا ومنتاني ، واكتمل توفية، بن العهود القـــديمة والمسيحية في البابا نقولاس الحامس والبابا ليو العاشر . وملاك القول أنه كان بحق أبا النهضة في تلك الآيام .

لكننا نقول مرة أخرى : إن من الحطأ أن نبالغ في حظ الاقدمين من هذا الحجد الذي يلغته إيطاليا ، ذلك أنه كان تتمة لا انقلاباً ، وكان لنضوج العصور الوسطى في هذه التتمة شأن أعظم من الكشف الثناني للمخطوطات القديمة والفن القدم . وكان كثير من علماء العصور الوسطى يعرفون الآداب الوثنية ويحبونها ، وكان الرهبان هم الذين حافظوا علمها ، ورجال الدين هم الذين ترجموها ونشروها ، وكانت الجامعات الكبرى هي التي أخذت منذ عام ١١٠٠ ننقل إلى شباب أوربا قدراً من التراث العقلي والأدبى للجنس البشرى . وكانت نشأة الفلسفة الانتقادية عند إرجينا Erigena وأبلار ، وإدخال دراسة أرسطو وابن رشد في مناهج الجامعات ودعوة أكوناس الجويثة إلى إثبات كل العقائد للسيحية تقريباً على أساس العقل ، وما تلاها بعد قليل من اعتراف دنزاسكوتس Duns Scotus بأن الكثرة الغالبة من هذه العقائد خارجة عن نظاق العقل ، كان هذا كله صبباً في نشأة صرح الفلسفة الملىوسية العقلي ثم تحطيمه بعدثك ، وفي ترك المسيحين المتعلمين أحراراً يحاولون التأليف من جديد بين الفلسفة الوثلية ولاهوت العصور الوسطى من جهة ؛ وتجارب الحياة من جهة أخرى . وكان تحرر المدن من عوائق الإقطاع ، واتشاع نطاق التجارة ، وانتشار الاقتصاد القاتم على النقود ، ــكانت كل هذه قد سبقت مولد پتر ارك . وعلم روچر ملك صقلية ؛ وفردريك الثانى ؛ دع عنك خلفاء المسلمين وسلاطينهم ، علم هوَّلاء كلهم حكام البلاد أن يضيفوا سنا المجد إلى السلطان بمناصرة الفن ، والشعر ، والعلوم ، والفلسفة . وقد احتفظ رجال العصور الوسطى ونساوهما ، رغم قلة منهم كانت منهمكة في شئون المدار الآخرة ، دون حياء بما طبع عليه الإنسان من سرور بملاذ الحياة الحسية البسيطة ، وكان للرسجال الذين صوروا ، وشاهوا ، ونحتوا تماثيل الكنائس الكبرى إدراكهم الخاص الجمال ، فسموا بالتفكير وبالشكل سمواً لم نر له نظراً قط ،

لهذا نقول دون أن نخشى الزلل إن جميع قواعد النهصة [قد وضعت قبل أن يموت يترارك . وكان النماء العجيب في تجارة إيطاليا وصناعتها اله واستثنارهما بجانب كبير من نشاط أهلها ، قد كدسا الثروة التي أمدت الحركة بالمال ، كما كان الانتقال من سلم الريف وركوده إلى حيوية الملك وتشاطها سبباً في خلق المزاج الذي غذى هذه الحركة . أما الأساس السياسي غقد قام على حرية المدن وتنافسها ، والقضاء على الأرستقراطية المتعطلة ، وقيام الأمراء المتعلمين ، والطبقة الوسطى القوية . وأما الأساس الأدبي فقد مهد له تحسن اللغات القومية ، والتحمس إلى الكشف عن الآداب اليونانية والرومانية القديمة ودراستها . وكلن الأساس الأخلاق قد وضع هو الآخر : فقد أخذ ازدياد الثروة يحطم القيود الأخلاقية القديمة ، وشجع الاتصال بالبلاد الإسلامية عن طريق التجارة والحروب الصليبية نزعة التسامح في الانحراف بالقواعد الدينية والأخلاقية عن المعتقدات والأساليب التقليدية . وكان الإعادة الكشف عن العالم الوثني ذي الحرية النسبية في التفكير والسلوك نصيب في تحطم عقائد العصور الوسطى ومبادئها الأخلاقية ، ولهذا كله تقهقر الاهتمام بالحياة الآخرة أمام للشاغل الزمنية ، البشرية ، الدنيوية . وتما الإحساس بالجمال نماء مطرداً ، فقد خلفت ترانيم العصور الوسطى، والقصص الغرامية لملتتالية ، وأناشيد شعراءالفروسية الغزلىن ، وأغانى دانتي ومن سبقه من الشعراء الإيطاليين ، والتصوير المنسجم الذي يطالع الإنسان في المسلاة الإلهية ، كل هذا خلف وراءه تراثا من الذبي الأدنى ؛ كما أن النماذج الأدبية اليونانية واللاتينية القديمة قد نقلت إلى بِّر ارك رقة من النوق والتفكر ، وصقلا وتأدبا في الحديث وفي الأسلوب ،

أورشهما يترارك من يعلمه أسرة تجمع أفرادها من دول مختلفة كلهم عباقرة الحضر جاءوا في سلسلة متصلة الحلقات من إرزمس إلى أناتول فرانس . وكانت ثورة في اللهن قد بلمأت حن هجر جيتو الصرامة الصوفية التي انطهت ما الفسيفساء الدرنطية لكى يلوس الرجال والنساء في عجرى حياتهم الحقة وطرفهم القطرى .

لقد كانت كل الطرق في إيطاليا تودي إلى النهضة .

اليابالثا في البابوات في أفنيون ١٣٠٩ – ١٣٧٧

الفضيل الأول

الأسر البابلي

نقل البابا كلمنت الحامس في عام ١٣٠٩ مقر البابوية من رومة إلى المثيون. وكان كلمنت الحامس في حام ١٣٠٩ مقر البابوية أسقفا لبوردو ، وكان الفضل في اختياره لمنصبه عائدا إلى فليب البابوية أسقفا لبوردو ، وكان الفضل في اختياره لمنصبه عائدا إلى فليب والمد اكتفائه علمه الحزيمة بل أضاف إليه القبض عليه ، وإذلاله ، ومنع الطعام عنه حي كاد يميته جوعا . ولم يكن كلمنت ليأمن على حياته في رومة التي كانت تحتفظ لنفسها دون غيرها بالحق في إصامة معاملة البابا ، والتي اغتاظت من وقاحة الملك البادية في عدم احترامه إياه ؛ يضاف إلى المناف أن الكرادلة الفرنسيين كانوا يوالفون وقتئد أغلبية كبرة في المهمع علمات بعض الوقت في ليون وپواتييه ؛ ثم اتخذ مقامه في أغنيون القائمة كلمنت بعض الوقت في ليون وپواتييه ؛ ثم اتخذ مقامه في أغنيون القائمة على الضفة الأخرى انهر الرون المقابلة لأرض فرنسا كما كانت في القرن الرابع عشر ، وكان يرجو بلكك أن يكون أقل خضوعا لفليب في القلمي يمتكك ملك نابلي بوصفه كونت بورقانس .

وكانت الجهود الجبارة الى بذلتها البابوية من أيام جريجورى السابع.

وراد المائة أوربية يإخضاع الملوك البابوات - كانت هذه الجهود قلد ولا عالمية أوربية يإخضاع الملوك البابوات - كانت هذه الجهود قلد أخفقت ، وانتصرت القومية على النزعة الاتحادية النظرية ، وحتى في إيطاليا نقسها رفضت جمهوريات فلورنس والبندقية ، ودول المدن في لمبارديا ومملكة تابل سيطرة الكنيسة عليها ، وأطلت برأسها مرتين جمهورية أمر يجلون الهائة الإقطاعيين - من أمر يجلون Baglioni ، والمندون من العسكريين أو السادة الإقطاعيين - من أمر يجلون Malatestas ، أحد هؤلاء وأولئك يستبدلون ومنفريد نها البابوية الأخرى (°) عجوفهم المسكرية بنواب الكنيسة . وكانت اللبابية أثناء مقامها في رومة تستخدم مكانتها المنظيمة التي استحوذت عليها قرونا طوالا ، وكانت الأمم قد اعتادت أن تعظمها وتخضع لسلطانها ، وتبعث لها بالأموال ؛ أما بابوية يختار لها باستمرار أحبار فرنسيون وتبعث لها بالأموال ؛ أما بابوية يختار لها باستمرار أحبار فرنسيا ، ويقرضون هؤلاء الملوك أموالا طائلة ليشنوا بها حروبهم ، أما بابوية من ويقرضون هؤلاء الملوك أموالا طائلة ليشنوا بها حروبهم ، أما بابوية من ويقرضون هؤلاء الملوك أموالا طائلة ليشنوا بها حروبهم ، أما بابوية من ويقائلة المنازة والمحالية المها قوة قوقة والمحالة المناز المناز المها قوة قوقة المحالة ا

⁽ ٥). يمكن جمع الولايات البابوات في أنسام أربعة :

ا – لاتبوم وتشبل مدائن تیفول Tivoli وتشفینا کستلانا Civita Castellans . وسیباکو Sablaco ، وفیتربو Viterbo ، وأنانیی Anagni ، وأستیا ، ورومة

۲ – أمبريا وتضم فارق Narii ، وأسهوليتو Spoleto ، وأسيسي Asslai ، وبتروجيا ، perugia ، وجميع Oobbio .

۳ – ولایات الحدود وتضم أحکولی Aacoll ، واوریتن Loreto و انکونا ، وسنجلیا Senigaliia ، وأدبینو Urrbino کرینو Camerino ، وفیریانو Pabriano ، وپیز ارو pesaro .

الرومانيا Romagna وتشمل ريميني ، وكازينا Casena ، وفورلى Forli وتُأانزا . Paenza ، وراثنا ، وإمولا Porli ، ويولوينا ، وقرارا .

معادية لها ، وأنها سلاح نفسانى فى يد الملكية الفرنسية : وأخلت ثلك الأم تغفل ما تصدره هذه البابوية من أوامر الحومان ومن العنات وتزداد جرأة على هذا كلما مضت الآيام ، ولا تبها إلا شيئاً من التبجيل الآخذ فى النقصان على كره منها مترابد باستمرار .

وأخذ كلمئت الخامس يعمل في صعر وأناة للتغلب على تلك الصعاب ، ولم يخضم لفليب الرابع إلا أقل ما يستطيع من الحضوع ، وكان فليب هذا يصلت فوق رأس كلمنت سيف التهديد ، بأن يكشف للعالم ص ملوك بنيفاس الثامن ومعتقداته الدينية بعد أن توفى هذا البابا . واشتدت حاجة البابا إلى المال فأخذ يبيع الرتب الكهنوتية إلى من يعرض فها أغلى الأثمان ، ولكنه كان يوافق موافقة ضمنية على التقاير القاسية التي يقدمها عملة أنجير Angers وأسقف مندى Mende لمجلس ڤينا (١٣١١) عن أخلاق رجال الدين وإصلاح الكنيسة . وكان هو نفسه يحيا حياة مقتصدة طاهرة ، ويلتزم أسباب التقوى في غير تظاهر ولا مباهاة ، وحمى أرنلد القلانوڤي Arnolod of Villanova الطبيب العظيم من الاضطهاد لحروجه على أصول الدين القويم ، وأعاد تنظيم الدراسات الدينية في جامعة مناييه على أساس النصوص اليونانية والعربية ، وحاول أن ينشئ كراسي للغات العدية ، والسربانية ، والعربية في الجامعات ــ وإن لم يفلح في هذه المحاولة ، وكَانَ مما ضاعف متاعبه أن أصيب بمرض شديد الألم _ يظن أنه ناسور _ اضطره إلى تجنب الاختلاط بالناس ، وقضى عليه في عام ١٣١٤ . ولو أنه عاش في بيئة حر من بيئته لكان ممن ازدانت بهم الكنيسة م

وأهقبت موته آفترة خلا فيها كرسى البابوية من شاغله ضربت فيها اللهوضى أطنابها ، وكشفت عن طبيعة ذلك العصر ومزاجه . وكتب دائق إلى الكرادلة الطليان يحرضهم على أن يصروا على اختيار بابا إيطالى وعلى إعادة . مقره إلى رومة ، ولكن عدد الكرادلة الإيطالين لم يكن يتجاوز ستة ،

فلما انعقد المجمع المقدس في حجرة مقفلة (٥) في كرينتر اس Carpentras القريبة من أثنيون احتاط به الغوغاء من أهل غسقولية Cascony وأخدوا يصيحون : و الموت للكرادلة الإيطاليين ! ، وهوجمت بيوت أولئك الكرادلة ، وأشعل المتجمهرون النار في البناء الذي انعقد فيه المجمع المقدس ، والنبران . ولم تبذل أية محاولة أخرى لانتخاب البابا مدة سنتين ، ثم رفع. الكرادلة آخر الأمر في اجتماع لهم عقد في ليون مجاية الجنود الفرنسيين إلى كرسي البابوية رجلا كان وقتئذ في الثانية والسبعين من عمره ، لا يكاد يخطئ من يظن أنه لن يطول به الأجل ، ولكنه قدر له أن يحكم الكنيسة ثمانية عشر عاماً بحاسة ، وفظاظة ، ونهم لا يشبع ، وإرادة حديدية . وكان يوحنا الثاني والعشرون قُد ولد في كوهور Cohors من أعمـــال جنوبي فرنسا ، وكان أبوه إسكافا ، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يختار فها. ابن إسكاف إلى أعلى منصب في العالم المسيحي بفضل الدمقر اطية العجيبة القائمة في كنيسة مطلقة في تصرفاتها . وكان إربان الثاني ١٢٦١ – ١٢٦٤ ٧. قد مهد الطريق لهذا الاختيار : فقد كان معلماً لأبناء ملك نابلي الفرنسي. وكان يوحنا قد درس القانون المدنى والكنسي بحاسة قربته من قلب الملك ؟ واختاره بنيفاس الثامن بناء على توصية الملك اسقفا لفريجو Fréjus ورفعه كلمنت السابع إلى كرسي أفنيون . وأسكت ذهب ربرت ملك نابلي وطنية الكرادلة الطلبان ، وأصبح ابن الإسكاف من أعظم البابوات قوة وأمضاهم عزيمة ي

وأظهر يوحنا من الكفايات ما يندر اجتماعه فى إنسان : أظهر جداً فى الدراسة ، ومهارة فى الإدارة ، وأقامت بابوية أفنيون بزعامته نظاماً

 ⁽ و) جرت الدادة منذ عام ١٩٧٤. أن تغلق على الكرادلة الحبيرة التي يعقدون فيها المجمع المقدس الاختيار البابا واشتق من هذه الدادة اسم المجمع نفسه (Con-clave ومداه بمعتلع) .

يروقراطاً قديراً ، وإن كان فاسداً مرتشياً ، وجمعت طائفة من الموظفين الملسن بالشون الماليسة أدهشت القائمين على وزارات المالية في أوربا ، وحسدوها على كفايتها في جمع الإيرادات . واشتبك يوحنا في نحو المني عشر نزاعاً كبيراً تطلبتك منسه الأموال ، فحلا حلو سلفه في بيع المناصب المكهنوئية ، ولكنه كان يبيعها دون حياء . واستطاع ابن بلدة كوهور المصوفية بعدة أساليب مختلفة أن يما خزانة البابوية بالمال حتى كان فيها حين وفاته ٥٠٠،٠٠٥ فلورين ذهبا (٥٠٠،٠٠٥ دولار) وكانت حجته وما قيمته سبعة ملايين من صفائح الذهب والجواهر ٢٠ . وكانت حجته في جمع هذه الأموال أن البابوية قد فقدت كثيراً من أموالها المستمدة من في جمع هذه الأموال أن البابوية قد فقدت كثيراً من أموالها المستمدة من وبيدو أن يوحنا كان يشعر أن خير طريقة يخدم بها الله هي أن يضم إله المال إلى جانبه ، وكانت حاداته الشخصية تنزع إلى النقشف والزهد في المالها والشراب .

وكان مع هذا كله يناصر العلوم ، وأسهم في إنشاء مدارس للطب في يروجيا وكوهور ، وأعان الجامعات ، وأنشأ كلية لدراسة اللغة اللاتيئية في أرمينية ، وشجع دراسة اللغات الشرقية ، وسحارب الكيمياء القديمة الزائفة والسحر ، وكان يقضى الأيام والليالي في المدراسات العلمية ، وخيم حياته ربح دين مهمة بالخروج عليه . ولعل المدى دعا يوحنا أن ينشر على الناس أن إنساناً ما سحى أم الله نفسها سلايستطع أن يرقى إلى مرتبة و الروئي السيملة ، إلا في يوم الحساب ، لعلى اللذى ذعاه إلى هلما هو رغبته في أن يقاوم انتشار نوع من التصوف يكدًّ عي الآخذون به الاتصال المباشر بالله ، وقامت عليه ثورة بين من يدعون العلم بشئون الدار الآخرة ، ونددت جامعة باريس بآراء البابا ، وأعلن مجلس مقدس اجتمع في فنسن Wincenne أنها خالفة للدين ، وأمره فليب السادس ملك فرنسا أن يعود في آرائه المبيئية إلى الصراط المستقيم (٤) ، ولكن المعمر الداهية الذي كان وقتئذ قد

يلغ سن التسعين أفسد عليهم جميعاً أمرهم بأن مات في عام ١٣٣٤ ؟

وكان الذى خلف يوحنا رجلا لطيف المزاج . كان بندكت الثانى عشر ابن خباز ، حاول أن يكون مسيحياً وبابا مماً ، وقاوم إغراء توزيع المناصب الكنسية على أقاربه ، ونال شرف عداء الناس له بأن اختار لهله المناصب الأكفاء الجديرين سا ، لا من يشترونها بالمال ، وقطع دابر المرشوة والفساد في جميع فروع الإدارة الكنسية ، وكسب عداء الرهبان المسولين بدعوتهم لمل إصلاح طوائفهم ، ولم تعرف عنه النسوة أو إراقة اللماء في حرب ، ولهذا البهجت جميع قوى الفساد أوته المبكر في عام 1964 .

وانحلس كلمنت السادس من ببت شريف في ليموزن Limousin ، وقد ألف الترف ، والمرح ، والفنون ، ولم يكن يستطيع أن يفهم لم يكون البايا جادا صارما إذا كانت خزائن البابوية عاسرة بالمال ، وكاد كل من جاءه يطلب وظيفة أن ينالها ، لأنه كان يقول إن أحدا يجب الا يخرج من عنده غير راض ، وأعلن في وقت ما أن كل رجل من ربحال المدين يفد إليه في خلال شهرين سينال نصيبا من رفده ، ويقدر شاهد حيان عدد من وفدوا عليه بمائة ألف (٥٠) . وأجزل العطاء الفنانين والشعراء ، واحتفظ باسطبل من الجياد الكريمة يضارع أكبر اسطبل المتحر في العالم المسيحي ، وأجاز النساء أن يدخلن البلاط البابوي واستمتم بمقانين والمنع من اتصال كونتة تورن عالمالم المنافق الفرنسين وبلغ من اتصال كونتة تورن عرف بلدهم ، ولم ير الحير في هذا ولكنه ترضاهم بأن أعلن أن الميد أن يقيم في بلدهم ، ولم ير الحير في هذا ولكنه ترضاهم بأن أعلن أن الميد أن يقام كل خسين عاما . وابهبجت رومة حين سمعت هذا الحبر ،

وخلعت ريندسو ، وأعادت خضوعها السياسي البابوية .

وأصبحت أفنيون في عهد كلمنت السادس الحاضرة الدينية المالم اللاتيني ، وكذلك حاضرة سياسته ، وثقافته ، وملداته ، وضاده ، واتحافت الأداة الإدارية للكنيسة وقنتك صورتها الواضحة المحددة ، فكان لها مجلس رسولي (Camera apostolica) يشرف على شئونها المالية ، يرأسه حاجب بابوى (Camera iu) لا يعلو عليه في المغزلة إلا البابا نفسه ؛ ثم ديوان الثوقيعات (Cancelleria) وله سبعة دواثر يديرها كردنال نائب عن البابا ويشرف على مراسلات الكرس البابوى الكثيرة المعقدة ، ثم مجلس القضاء اللبابوى المكون من رجال الدين المتضلعين في قانون الكنيسة ، ويشمل أيضاً مجمع الكرادلة — المكون من البابا وكرادلته واللبي كان بمنابة محكمة استثناف ؛ ثم مجلس التوية الرسولي — وهو هيئة من رجال الدين تنظر في شئون الزواج ، والحرمان من خطيرة الدين . والمعنة ، ويستمع إلى اعترافات من يطلبون الغفران البابوي .

وأراد بندكت الثانى عشر أن يوجد مسكنا للبابا وأهوانه ، وتطلع الوزارات ، والحيثات ، والموظفين ، والحسدم ، فبدأ بتشييد قصر البابوات ، وطائفة من الأبنية القوطية الطراز – تشمل حجرات للنوم ، وأماء للمجالس ، وأماكن للصلاة ، ومكاتب – وتضم فناءين كبرين ، أبراجها ، بأن البابوات إذا حوصروا لا يعتمدون فى المنظاع عن أنفسهم على جبزة من الساء ، وأتم إربان الخامس هذا البناء الضخ . ودعا بدكت التانى عشر چيتو إلى القدوم لتربين القصر والكتيسة الملاصقة له واعترم چيتو أن يجيب طلبه ، ولكن المنية عاجلته ؛ فاستدعى سيمون واحترم چيتو أن يجيب طلبه ، ولكن المنية عاجلته ؛ فاستدعى سيمون مارتيى من سينا ، وأنشأ فيهما المظالمات التي عيت الأن والتي بلغ مها في التصوير في أفيون ذروة بجده . واجتمع حول هذا القصر ، في قصور أخرى أقل منه شأنه ، وبيوت كبرة وصغيرة ، وأكواخ حقيرة ، علد

"كبير من رجال الدين ، والمجويين ، والمحامين ، واستجار ، والفنانين ، والشعراء ، والخدم ، والجنود والمتسولين ، والعاهرات على اختلاف طبقائهن من المحظيات المنتفات إلى عاهرات الحانات : وسكن هنا لأول مرة أساقفة الطائفة غير المؤمنة اللين عينوا في المراكز التي آلت إلى غير المسيحين .

و في وسعنا نحن الذين اعتدنا الضخامة في كل شيء أن نتصور مقدار المال الذي لابد منه لإقامة هذا الصرح الضخم وكل ما يحيط به : لقد كاد عدد من موارد الثروة ينضب معينه : فكانت إيطاليا بعد أن غادرها البابوات لاتكاد ترسل إلىهم شيئاً ؛ واقتصرت ألمانيا الني شجر النزاع بيها وبين يوحنا الثانى والعشرين على إرسال نصف الحراج الذى اعتادت أن ته سله ، وأما فرنسا التي كادت البابوية تصبح أسيرة لها تحت رخمّها فقد خصت جزءا كبراً من إيراد الكنيسة الفرنسية بالأغراض الدنيوية ، واستدانت المبالغ الطائلة من البابوية لتمول مها حرب ماثة السنين ، وفرضت إنجلترا أشد القيود على تسرب الأموال إلى كنيسة كانت في واقع الأمر حطيفة لفرنسا؛ واضطر بابواتأڤنيونكي يواجهوا هذا الموقف إلى أن يستغلوا كل مورد من موارد الثروة مهما يكن ضئيلا ، ففرضت على كل أسقف أو رئيس دير ، سواء كان معينا من قبل البابا أو أي أمير زمني ، أن ينزل لحكمة الكرسي البابوي عن ثلث إبراده لمدة سنة نظر تعبينه في منصبه ، وأن يقدم هبات أخرى باهظة إلى الوسطاء اللين أيدوا ترشجه لمنصبه . فإذا ما أصبح رثيس أساقفة كان عليه أن يؤدى مبلغا كبراً من المال عما لمصلبان الأسقفية ــ وهي منطقة من الصوف الأبيض يلبسها فوق الملحقة هُتَكُونَ شَعَارًا لَمُنصِبِهِ ؛ فإذا ما اختبر بابا جديد أرسل أِصحاب كل مرتبة ، وكل منصب من مراتب الكنيسة ومناصها دخلهم كله مدة عام ، ثم تابعوا بعد ذلك إرسال عشر إيرادهم كل عام ؛ وكان ينتظر منهم فوق ذلك أن يرسلوا له تبرعات أخرى من أن إلى آن . وإذا ما مات كردنال ، أو كبر أساقفة ، أو أسقف ، أو رئيس دير عادت أملاكه الشخصية وأمواله المنقولة إلى البابوية ، وفى الفترة التي يظل فيها المنصب شاغرا بين موت شاغله القديم وتعيين صاحبه الجديد كان البابوات يستولون على لمرتب المقرر لهذا المنصب ، ويؤدون نفقاته ، وكان البابوات يتهمون بأسم يتعمدون إطالة هذه الفترة . وكان كل من يعنن في منصب من مناصب الكنيسة يعد مسئولا عن الرسوم التي لم يؤدها سلفه . ولما كان الأساقفة وروساء الأديرة فى كثعر من الأحيان سادة إقطاعيين يمتلكون ضياعا أقطعها إياهم الملوك ، فقد كان عاجم أن يؤدوا لهم الخراج ، ويملوهم بالحنود ، ولهذا كان الكثيرون منهم يواجهون صعابا حمة فى الوفاء بالتزاماتهم الدنيوية والدينية ، وإذ كانت مطالب البابوية أشد صرامة من مطالب الدولة ، فإنا نجد رجال الدين في بعض الأحيان يويدون الملوك ضد البابوات ؛ وكان بابوات أثمنيون يتجاهلون تجاهلا تاما ماكان لمجالس الكنائس والأديرة من حقوق قديمة في اختيار الأساقفة وروْساء الأديرة ؛ وكانت هـــــذه النصوص القديمة سببا آخر من أسباب غضب رجال الدين . وكانت القضايا التي تنظر فمها جهات القضاء البابوية تتطلب في العادة الاستعانة بالمحامين ، وهي استعانة كبيرة النفقة ، وكان على هؤلاء المحامين أن يؤدوا أجرا باهظا في كل عام نظر حصولم على ترخيص بالمرافعة أمام المحاكم البابوية . وإذا ما أصلى الجلس البابوي حكما أيا كان نوعه أو أدى خلمة ما لأى إنسان ، فقد ينتظر نمن يفيد من هذا الحكم أو تلك الخلمة أن يقدم هدية للبابوية اغبرافا منه بما عاد عليه من نفع ، وحتى الإذن لشخص ما بأن يرسم قسا كان يبتاع بالمال . وكانت الحكومات الزمنية في أوريا تنظر بعين الخوف والسخط إلى أداة البابوات المالية(٧) .

وثار الاحتجاج من كل ناسية ، ولم يكن أقلها هنفا ما جاء من رجال

الله المحتيسة أفسهم . من ذلك ما كربه الحبر الأسباني ألفارو پلايو Alvaro Pelayo

(٧ - ج ١ - له ه)

هو من أنصار البابوية الموالين لها في رسالة في رئاء السنيسة يظهر فيها أسفه-ويقول 1 كلما دخلت حجرات رجال الدين في البلاط البابوي ، رأيت السهاسرة والقساوسة منهمكين في وزن المال وعده وهو مكدس أكداسه أمامهم إن الذااب هي المسيطرة على الكنيسة ، وهي تطعم من دماء ، القطعان المسيحية (٨) . وهال الكردنال ناپليوني أرسيني Nopoleone Orsini أن يجد جميع أسقفيات إيطاليا موضعا للمبادلة أو دسائس الأسر في. أيام كلمنت الحامس. وكتب إدورد الثالث ملك إنجلترا ، وكان هو نفسه-بارعا في فرض الضرائب – كتب يذكر كلمنت السادس أن و خليفة الرسل إنما جاء ليقود خراف الرب إلى المرعى لا ليجزها ١٩٥٤) ، وسن البرلمان. الإنجليزى عدة قوانين يحد مها من حق البابوات في فرض الضرائب في. إنجلتراً : وكان الجباة البابويون في ألمانيا يطاردون ، ويقبض علمم ،. ويسجنون ، وتبتر أطرافهم ويشنقون فى بعض الأحيان . وأقسم فساوسة كولونى ، وبُن ، وأكسانان Xanten ، ومينز في عام ١٣٧٢ ألا يؤدوا العشور الي طلها إلهم جريجوري الحادي عشر . وفي فرنسا حل الحراب بكثير من أملاك الكنيسة بسبب ما أصابها من كوارث الحرب ، والموت. الأسود، ونهب اللصوص وقطأع الطريق ، ومَا كَانْ يَفْرَضُهُ عَلَمُا جَبَالَةً ﴿ البابا ، وهجر كثير من الأساقفة أبرشامهم .

ورد البابوات على هذه الشكاوى يقولم إن الإدارة الكنسية تتطلب هذه الأموال كلها ، وإن العال الصالحين الذين لا يرتشون يندر وجودهم ، وإنهم هم أنفسهم يخوضون بحارا من المتاعب . وأكبر الظان أن كامنت السادس حين أقرض فليب السادس علك فرنسا ١٩٠٠،٠٠٥ فلورين ذهبي ، (١٠٠٠، ١٤٥٨ دولار) والملك جون الثاني ١٠٠٠،٠٠٠ دولار) والملك جون الثاني ١٠٠٠،٠٠٠ فلورين أخرى (أى ١٠٠، ١٥٥، ١٨٥، ١٥٨ دولار) إنما فعل ذلك مرغمان. ، واحتاج البابوات نفقات طائلة لاسترداد الولايات البابوية التي فقلوها

فى إيطاليا ، ولذلك كانت الخزانة البابوية تعلى حجزا دائما فى إيرادها على الرغم من حميع ما فرضته من الضرائب. وأنقذ البابا يوحنا الثانى عشر تلك الخزانة بأن أدى إلها ١٠٠٠، ٤٤ فلورين من أمواله الخاصة ، وباع إنوسنت السادس صحافه الفضية ، وجواهره ، وتحفه الفنية ، واضطر إربان الخامس أن يقترض ٢٠٠٠، ٣ فلورين من كرادلته ، وكان جريجورى الحادى عشر عند موته مدينا بمائة وعشرين ألف فرنك.

وبقول الناقدون إن عجز مالية البابوات لابرجع إلى النفقات المشروعة بل يرجع إلى ضروب البذخ التي كانت سائدة في بلاط البابوات وصنائعهم فقد كان كلمنت السادس مثلا محوطا بأقاربه من الذكور والإناث يرتنبون أثمن الثياب والفراء ؛ وبطائفة من الفرسان والأتباع والجنود المسلحين ، والقساوسة ، والحجاب ، ورجال التشريفات ، والموسيقين ، والشعراء ، والفنانن ، والأطباء ، والعالماء . والخياطين ، والفلاسفة ، والطباخين ممن كانوا موضع حسد الملوك . وكان هؤلاء جميما البالغ عددهم قرابة أوبعاثة شخص يطعمون ، ويكتسون ، ويسكنون ، ويتقاضون مرتبات من بابا مولع بالإسراف لم يعرف فى يوم من الأيام ماذا يتطلبه جمع المال يـ وكان كلمنت يرى نفسه حاكما من واجبه أن يقلف الرعب في قلوب رعاياه ، وأن يؤثر في نفوس السفراء بضروب ٥ الاستهلاك البادى للعيان ، كما يفعل الملوك . وكان لابد للكرادلة أيضاً ، وهم مجلس الدولة الملكي وأمراء الكنيسة في الوقت عينه ، أن يكون لهم ما يليق بمكانهم. وسلطانهم من مظاهر ، فكانت حاشيتهم ، وبطانتهم ، ومآدمهم حديث أهل المدينة . ولعل الكردنال برنار الجرڤنزى Bernard of Clarves قام جاوز فى التنعم والأبهة الحد المعقول حين استأجر واحدا وخسىن مسكنا تقيم فها حاشيته ، وفعل فعله الكردنال بطرس البنهاكي Peter of Banhac الذي كان في خسة من اسطبلاته العشرة تسعة وثلاثون حصانا من أحسن. طراز منعمة مسريحة : وسهج هذا النج عينه الأساقفة أتفسهم ، وكانت لمم هم أيضاً قصور فخمة مليئة بالمهرجين ، والنزاة ، والكلاب ، على الرغم من احتجاج المجالس المقلمة فى الأقالم .

وتخلقت أثنيون وقنشـــذ بأخلاق حاشية الملوك وآدابها . فانتشرت فيها ضروب الخسة والســـفالة ، يشهد بذلك ماكتبه جويوم دوران فيها شروب الخسة والســـفالة ، يشهد بذلك ماكتبه جويوم دوران Guillaume Durand أسقف منك

قد يكون إصلاح الكنيسة كلها مستطاعا إذا بدأت كنيسة رومة تطهر نفسها مما فيها من قلوة سيئة ... تصم رجالها أشنع وصمة وتتسرب عدواها إلى الناس كلهم ... ذلك أن كنيسة الله المقدسة ، وخاصة كنيسة رومة أقدسها جميعا ، قد ساءت محمةها .ت. في كل مكان ، وأخد الناس جميعا يصيحون ويذيعون في الحارج أن كل من تضمهم إلى صدرها من أعلاهم إلى أقلهم شأنا قد امتلأت قلوبهم طمعا ... ومن الأمور الواضحة التي تلوكها الألسنة أن جميع المسيحين يتخفون رجال الدين أسيرا قدوة لهم في الحشم ، لأن هوالاء الرجال يأكلون من مواقد أشد ترفا وأعظم فخامة ،

واستنفد پترارك ، وهو من دانت له أساليب البلاغة ، كل ما في معاجم اللغة من ألفاظ السباب التي وصم بها أفنيون فقال عنها إنها :

بابل العاصية ؛ جحم الأرض ، بالوعة الرذيلة ، ومستودع أقدار العملم . لا تجد فها إيماناً ، ولا إحساناً ، ولاديناً ، ولا خوفاً من الله قرى كبار السن من رجالها لقد تجمعت فها جمع أقدار العالم وخبائته . . . ترى كبار السن من رجالها يندفعون غير مبالن إلى أحضان فينوس ؛ لايبالون بكبر سهم أوكر امهم ، أو مالمم من سلطان ، بل يرتكبون كل عار ، كأن مجدم كله لايعتمد على صليب المسيع ، بل يقروم على المأكل المشرب ، والسكر ، والدعارة فالفسق ، ومضاجعة المحارم ، وهتك الأعراض ، والزناهي المنظم المباهيج الشهوانية لمهازل رؤساء الكنيسة (١٢) .

وليس في مقلورنا أن نغض الطرف عن هذه الشهادة الصادرة من المبالغة شاهد عيان لم يحد طوال حياته عن طريق الدين ، وإن لم تخل من المبالغة والحقد الشخصي . ومن واجينا فوق ذاك أن نقص منها بعض الشيء لصدورها من رجل يبغض أفنيون لأنها اختطفت البابوية من إيطاليا ، وكان يطلب الهبات من بابوات أفنيون ، وينال منها الكثير ، ويطلب المزيد ، وبحل رضي أن يعيش مع السفاح فيسكوني عدو البابوية ، وكان له هو يفسه ولدان غير شرعين . ولم تكن الأخلاق في رومة ، التي كان يترارك يلع على البابوات في أن يعودوا إليا ، خيراً عما كانت في أفنيون وقتلذ ، إلا أن الفقر كان معواناً على العفة . ولم تصف القديسة كترين السينائية الهيون بالوضوح الذي وصفها به يترارك ، ولكنها أخيرت جريجوري المخادي عشر أنها إذا جاءت إلى البلاط البابوي كانت و خياشيمها تقتحمها الحاصح وواقح الجمحها تقادي وواقح الجمحها

ووجد فى هذا الاعلال الأخلاق بابرات كثيرون خليقون بمنصهم الرفيع ، يفضلون آداب المسبع على آداب زمانهم . وإذا ذكرنا أنه لم يوجد ين بابوات أفنيون السبعة إلا واحد عاش معيشة اللذة الدنيوية ، وواحد آخر هو يوحنا الثانى والمشرون ، أخذ نفسه بحياة الزهد والتقشف مهما يكن من شراهته وقسوته ، و آخر هو جريجورى الحادي عشر كان فى السلم مضرب المثل فى المتقوى وصحو الأخلاق وإن كان فى الحرب قاسياً لا يرحم ، وأنوسنت السادس ، وإربان الخامس يكادون يكونون فى حياتهم قديسين أطهاراً _ إذا ذكرنا هسذا لم يكن يكادون يكونون فى حياتهم قديسين أطهاراً _ إذا ذكرنا هسذا لم يكن كاهل البابوات. لقد كانت الثروة سبب هذه الرذائل ، وقد كانت لما همهذه المتاتج بعيها فى أماكن أخرى — فى رومة أيام نيرون ، ورومة أيام ليو العائم ، وباريس فى جهد لويس الرابع عشر ، ونيويورك وتشكاجو فى العائم الماني المدينين الأخبرتين

ونسائهما تعيش عيشة صالحة طيبة ، أو ترتكب ما ترتكبه من الآثام في اعتدال ، فإن من حقيًّا أن نفرض أن المحامى المعرج ، والقاضي غير النزيه ، والكردنال الذي يريد الدنيا ، والقس الذي لا يراحي واجبات مهنته ، كانوا شواذاً يبرزون في وضوح أكثر مما يبرز أمثالم في أي مكان آخر ، لأنه كان يشرف عليهم ويصفح عنهم في بعض الأحيان كرسي الرسول . غير أن هذه الفضائح كان فيها من الحقيقة ما يكني إذا ضم إلى فرار البابوات من رومة للقضاء على منزلة الكنيسة وسلطانها : وكأنما أرِّ اد بابوات أَمْنِيونَ أَنْ يَحْقَقُوا ظَنَ النَّاسَ فَهِم ، بأنَّهِم لم يَعُودُوا كَمَا كَانُوا قُوةَ عَالَمَيْة ، يل أضحوا آلات طيعة في يد فرنسا ، فاختاروا ١١٣ كردنالا فرنسياً لهجمع الكرادلة المؤلف من ١٣٤ كردنالا(١٩) . وكان هذا من أسباب تغاضي الحكومة الإنجليزية عن هجات ويكلف Wyclif القاسية على البابوية . كذلك رفض الناخبونَ الألمان بعد ذلك الوقت كل تدخل من جانب البابوات في انتخاب ملوكهم وأباطرتهم ، ولما أن رفض روْساء الأديرة في أسقفية كولونى عام ١٣٧٢ أن يؤدوا العشور إلى البابا جريجورى الحادى عشر ، أعلنوا جهرة أن الكرسي الرسولي قد انحط إلى الدرك الأسفل من الاحتقار ، حتى بدأ أن للذهب الكاثوليكي في تلك الديار مهدد بأشد الأخطار . أما غير رجال الدين فهم في حديثهم عن الكنيسة يظهرون. لهـــا ضروب الاحتقار ، لأنها تخلت عما تعودته في الأيام الماضية ، فلا تكاد تختار رسلها من الواعظين أو المصلحين ، بل تختارهم من الرجال المتباهين ، الماكرين ، الأنانين ؛ الشرهين . وقد بلغت الحال من السوء درجة يندر معها أن تجد مسيحين إلا بالاسم ١٥٥) ،

لقد كان الأسر البابلي للبابوات في أفنيون ، وما تلاه من انقسام في اللبابية ، هو الذي مهد الببيل لما الإصلاح الديني ، وكانت عودة البابوات لمل ليطاليا هي التي أرجمت لم مكانتهم وأجلت الكارثة التي حلت بهم قرناً من الزمان :

الفصاراتنا في

الطريق إلى رومة

وكانت منزلة الكنيسة في إيطالبا أقل مها في أي بلد آخر . وكان من أسباب ذلك أن بندكت الثاني عشر أراد أن يخصد شوكة لويس صاحب بافاريا الثائر فأيد في عام ١٣٤٢ هيم السلطات التي انتحلها طفاة المدن المساردية متحديا بذلك دعاوى الإمبراطورية ؛ ونار لويس لهذا الممل فأيد من قبل الإمبراطورية الطفاة الذين اغتصبرا الولايات البابوية(١٦٠ على صحفرت ميلان من البابوات علانية ، ولما أن أرسل إلها إربان الخامس في عام ١٣٦٢ مندوبن يحملان قرارات الحرمان للفسكوني أرغهم برنابو و Bernabo على أن يأكلوا القرارات عا فها من رقوق ، وخوط حريرية ، وأختام من الرصاص (١٦٠ ، وكانت صقلية منذ عام ١٢٨٧ قد ظلت تعادى البابوات بجهرة .

وجهز كلمنت السادس جيشاً ليسترد به الولايات البابوية ، ولكن خطيفته إنوسنت السادس هو الذي ردها إلى طاعته موققاً : ويكاد إنوسنت هلا أن يكون نموذجاً طبياً المبابوات . ذلك أنه بعد أن حبا عددا قليلا من أهله ببعض المناصب اعترم أن يقف سبل المحسوبية الكهنوتية والفساد، وقضي على مظاهر الرق والفخفخة والإسراف في البلاط البابوي، وقصى الجيش العرمرم من الخدم اللين كانوا يحيطون بكلمنت السادس، وأهسى المعدد الجم من طلاب المناصب، وأمركل قس أن يقيم في مقرعمله، وعاش هو نفسه معيشة الاستقامة والاعتدال . وكان يعتقد أن السبيل الوحيد لإعادة سلطان الكنيسة هي تجويرها من صلطان فرنسا ، وعودة اللبابوية إلى إيطاليا : ولكن الكنيسة إذا خرجت، من فرنسا يتعذر علها . اللبابوية إلى إيطاليا : ولكن الكنيسة إذا خرجت، من فرنسا يتعذر علها . اللبابوية إلى إيطاليا : ولكن الكنيسة إذا خرجت، من فرنسا يتعذر علها

الاحتفاظ بكيام؛ بغير الإيراد الذى كان يصل إليا من الولايات البابوية به ومع أن إنوسنت نفسه رجل سلم فقد رأى أن لاسبيل لاستعادة تلك. الولايات إلا الحرب.

وعهد لهذه المهمة إلى رجل أوتى إيمان الأسيان وحماستهم ، ونشاط اللمنيك ، وفروسية عظاء قشتالة . ذلك هو جيل ألفارز كارلو ده ألىرنوز Gil Alvarezo Carillo de Albernoz . وكان جيل هذا جندياً في جيش ألفنسو الحادى عشر صاحب قشتالة ، ولم ينقطع عن الحرب بعد أن صار كبير أساقفة طليطلة ؛ والآن وقد أصبح الكردنال إجديو دالبرنوز Egldio؛ d'Albornoz فقد صار قائداً بارعاً . وقد أقنع جمهورية فلورنس – وكانت وقتئذ تخشى الطغاة وقطاع الطريق المذين كانوا يحيطون بها ــ أقنعها بأن تمده بما يلزمه من المال لتنظيم جيش . وأفلح بالمفاوضات البارعة ، الشريفة · رغم براعثها ، لا بالقوة ، أن يُعلِّع الطغاة الصغار الذين اغتصبوا الولايات البابوية طاغية بعد طاغية ، ووضع لهذه الولايات : النساتبر الإجيدية ، (١٣٥٧) التي ظلت قانونها الأساسي حتى القرن التاسع عُشر ، والتي كانت حلا وسطا عمليا بين الحكم الذاتى والولاء للبابوية . وتغلب على چون هوكوود Joha Hawkwood المغامر الإنجلىزى الذائع الصيت ، وأسره ، وقلف في قلوب زعماء عصابات المغامرين الخوف من مندوب البابا إن. لم يكن من الله ؛ واستعاد بولونيا من رثيس أساققتها المتمرد ، وأقنع أمراء ميلان أن يعقدوا الصلح مع الكنيسة ، وتهيأت بذلك السبيل لعودة . البابوات إلى إيطاليا .

وواصل إربان الحامس سياسة إنوسنت السادس الصارمة الإصلاحية ؛ وبلىل كل ما فى وسعه لإعادة النظام والأمانة إلى رجال الدين وإلى البلاط للبابوى ، وقلوم شرف الكرادلة ، وقضى على خداع المحامين ، وجشع المرابين ، وابتزازهم أموال المدنين ، وعاقب من يتجرون بالمقدمات. وبالمناصب الكهنوتية ، وضم إلى خدمته رجالا من ذوى الأخلاق الممتازة والعقول الراجحة ، وأنفق من ماله الحاص على ألف طالب فى الجامعات ، وأنشأ كلية جديدة فى منهليه ، وأمد بالمال كثيرين من العلماء ، وأراد أن يتوج أعماله البابوية فاعترم أن يعبد مقرها إلى رومة . وارتاع الكرادلة حين علموا سهده النية ، لأن الكثيرين منهم كانت أصولهم ومواضع حبهم فى فرنسا ، وكانوا مكروهين فى إيطاليا ، وتوسلوا إليه ألا باتى بالا إلى مطالب الهديسة كترين أو إلى بلاغة يترادك . وشرح لهم إربان الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فى فرنسا – التى كان مليكها أسراً فى إنجلترا ، وجيوشها عطمة ، والإنجلتر يستولون على أقاليها الذجالية ، ويقتربون يوماً بعد يوم، من أفيون ؛ تترى ماذا تعمل إنجلترا إذا انتصرت البابوية التى كانت تخدم فرنسا وتحد ما بالمال ؟

ونفذ البابا ما اعترمه فأبحر من مرسيليا في اليوم الثلاثين من إبريل . هام ١٣٦٧ تحرسه عدة سفن شراعية إيطالية مفعمة قلوب من فيها مهجة ؟ ودخل رومة في السادس عشر من شهر إكتوبر وسط مظاهر الترحيب اللدي وصل إلى عنان السهاء ، من العامة ، ورجال الدين ، والأشراف ؛ وأسك الأمراء الإيطاليون بزمام البغل الأبيض الذي كان يمتطيه ، وانطلق لسان يتراك بالشكر البابا الفرنسي الذي جرو على الإقامة في إيطاليا . وكانت رومة وقتلد مقفرة وإن كانت سعيدة : أفقرها انفصالها الطويل الأمد عن البابوية ، وهجر المصلون نصف كنائسها وتهدمت ، وتخربت كنيسة القديس بطرس توشك أن تنهار في أية لحظة ، وقصر لاتبران قد دمرته النار منذ عهد قريب ، والقصور لا يقل تهدماً عن المساكن الصغيرة ، وانتشرت المستنقمات فحات محل البيوت ، وتكدست الأقذار في الشواوع والميادين (۱۸) . وأصدر إدبان الأوامر بيناء القصور البابوية ورصد لما الأموال . ولم يطق صبراً علي منظر رومة ، بيناء القصور المابوية ورصد لما الأموال . ولم يطق صبراً علي منظر رومة ،

خَاتَخَذَ مسكنه في مونتي فياسكوني Montefiascone ولكن ذكريات أثنيون وترفها وفرنسا المحبوبة أقضت مضجعه ونغصت عليه حياته . وترامت أنباء تردده إلى پترارك ، فأخذ يحثه على أن يصر على ما عقد عليه نيته ، وتنبأ القديس بردجت St Bridget السويلك بأن البابا سيموت من فوره إذًا غادر إيطاليا ، وعمل الإمبراطور شارل الرابع على تقوية عزيمته ، فأيد استعادة البابا لإيطاليا الوسطى ، وجاء خاشعا إلى رومة (١٣٦٨) ، ليقود جواد البابا من كنيسة القديس إنجيلو إلى كنيسة الرسول بطرس ، ووقف على خدمته أثناء القداس . وتوجه البابا في حفل خيل إلى الجمع المحتشد المبتهج أنه يحسم النزاع القديم بين الإمبراطورية والهابوية . فلما كان اليوم الحامس من سبتمبر عام ١٣٧٠ أقلع إربان إلى مرسيليا ، ولعله يعمله هذا قد خضع إلى رغبة كرادلته الفرنسيين ، وادعى أنه يريد إعادة السلام بين إنجلتراً وفرنسا . ووصل في السابع والعشرين من هذا الشهر غفسه إلى أفنيون حيث وافته المنية في التاسع عشر من ديسمبر ، وهو يرتدى ثياب راهب بندكتي ، ويرقد على أريكة حقيرة ، وكان قد أمر بأن يسمح لكل من شاء باللخول عليه ، حتى يستطيع الناس جيعاً أن يروا أن عظمة أجل الناس مقاما ليست إلا مهرجا كاذبا قصير الأمد .

وكان كلمنت السادس البابا الظريف قد عين جويجورى الحادى حشر ابن أخيه كردنالا وهو في الثامنة عشرة من عمره ، ورسم قسا في التاسع والهشرين من ديسمبر عام ١٣٧٠ ، ثم اختبر بابا في الثلاثين من ديسمبر في سن التاسعة والثلاثين . وكان غزير العلم ، مولعا بشيشرون ؛ وقضى مدة بابويته في إخاد الخورات العنيفة . ذلك أن إربان الحامس كان يخشى ألا يثق البابا الفرنسي بالإيطالين ، فاحتار عدداً كبراً من الفرنسين مندوبين عنه لحكم الولايات البابوية . ووجد هؤلاء الحكام أنفسهم في بيئة معادية لم فشادوا الحصون المقاومة الشعب ، وجاءوا بأعون لهم كندرين من الفرنسين ، وفرضوا

خبرائب باهظة ، وآثروا الغطرسة على الكياسة والدهاء : وحلث أن أخذ قبن أخ للمندوب البابوي في پروچيا يطارد امرأة متزوجة مطاردة بلغ من عنفها أن سقطت المرأة من نافلة وقضت نحبها وهي تحاول الفرار منه . ولما جاء وقد إلى المندوب البابوي يطلب إليه عقاب ابن أخيه رد طلبه بقوله : ١ علام هذه الجلبة كلها ؟ هل تظنون أن الفرنسي خصي ؟ ١٠٠٠ وأثار مناوبو البابا بوسائل كثيرة متنوعة كراهية الشعب إلى حد دفع كثيراً من الولايات إلى الانتقاض علمهم في عام ١٣٧٥ واحدة بعد واحدة . ورفعت القديسة كترين صوتها نائبةً عن إيطاليا فألحت على جريجورى أن يعزل أولئك د الرعاة الأشرار الذين يسممون حـــديقة الكنيسة ويعيثون خبها فسادا »(٢١) : وتزعمت فلورنس هذه الحركة وهي التي كانت في العادة حليفة البابوية ، ونشرت راية حمراء كتبت علمها بأحرف ذهبية كلمة الحرية ، فلم يحل عام ١٣٧٦ حتى لم يبق مواليا للبابا من مدن إيطاليا إلا واحدة بعد أن كان عدد المدن التي تعترف البابا بزعامته المدنية والروحية أربعا وستين مدينة في عام ١٣٧٥ ، وخيل إلى العالم أن جميع ما عمله ألرنوز قد ذهب أدراج الرياح ، وأن البابوية قد خسرت مرة أخرى جميع إيطاليا الوسطى :

واتهم جريجورى ، بإيعاز الكرادلة الفرنسيين ، أهل فلورس بأهم يتزعمون الثورة عليه ، وأمرهم بالخضوع إلى المندوب البابوى ، فلما عصورا أمره حرمهم من اللدين ، ومنع إقامة الحلمات البدينية في مدينتهم ، وأصدر مرسوما يعلن فيه أن جميع الفلورنسيين خارجون على القانون ، وأحل لأى إنسان في أي مكان أن يستولى على أملاكهم ويتخلعم أرقاء . وحاق خطر الانهيار بصرح التجارة والمال الفلورنسي كله ، واعتقلت إنجلترا وفرنسا من فورهما من فهما من القلورنسيين واسستولتا على أهملاكهم ، وكان رد فلورنس على هذا أن صادرت جميع أملاك الكنيسة الموجودة فى أراضها ، وهدمت مبانى محكة التغييش ، وأغلقت أبواب المحاكم البابوية ، وزجت فى السجن ، وشنقت فى بعض الأحيان ، القساوسة المعاندين ، وبعث بنداء إلى أهل روءة تدعوهم فيه أن ينضموا إلى الثورة ، ويقضوا على جميع ما الكنيسة فى إيطاليا من ساطة زمنية . وبينا كانت رومة لا ترال تردد فى الأمر ، إذ قطع جريجورى لزعمائها وعدا صريحا بأن يعبد البابوية إلى رومة إذا ظلت موالية له ، وقبل أهل رومة هذا الوعد واعتصموا بالسلم .

وكان البابا في خلال ذلك قد سر إلى إيطاليا قوة من الجنود البريطانين. المرتزقين الجفاة بقيادة و الكردنال المندوب البابوى ربرت من أهل چنيڤا (٢٧٥). وخاض ربرت عمار الحرب بوحشية لا يكاد يصدقها حاقل ، من ذلك أنه لما استولى على كازينا Casena بعد أن قطع على نفسه عهدا بالعفو عن أهلها قتل بالسيف كل من كان فها من رجال ونساء وأطفال (٢٣٠). وكان چون هوكودك يقود جنود المرتزقة في خامة للكتيسة ، فلبح هو الآخر في فالتلما Eaenza أربعة آلاف من أهلها لارتيابه في أن البلدة تريد الانتهام إلى الثورة . وارتاعت القديسة كاترين السيئائية من هذه الأغال الوحشية ، ومن مصادرة الأملاك من الجانين ، السيئائية من هذه الأغال الوحشية ، ومن مصادرة الأملاك من الجانين ، ومن انقطاع الحامات الدينية في جزء كبير من إيطاليا ، فكتبت إلى جريجورى تقول :

نم إن عليك أن تسرد الأملاك التي خسرتها الكنيسة ، ولكن عليك أكثر من هذا أن تسرد جميع الحراف التي هي كنز الكنيسة الحقيق والتي على جها الفاقة بحق إذا خسرتها . . . عليك أن تضرب الناس بسلاح المصلاح ، والحب ، والسلم ، فإن فعلت كسبت به أكثر بما تكسب يسلاح الحرب . وأنا حين أسأل الله عن خير الطرق لنجاتك ، وإعادة . الكنيسة إلى حالها الأولى ، وعودة العالم أجمع ، لا أجد جوابا غير كلمة السلم ! السلم ! فيحق للنقذ المصلوب عد إلى السلم (17) !

ودهما فلورنس إلى أن تكون مع وفدها المرسل إلى جربجورى ؟ فقيات الدعوة ، وسافرت ، وانتهزت هذه الفرصة لتندد بأخلاق أفنون ، وبلغ من صرامتها في هذا التنديد أن طالب الكثيرون بالقبض علها ، ولكن جريجورى بسط عليها حايته ، ولم يكن لسفر المعنة تقييمة عاجلة ، ولكن جريجورى حمن ترامى إليه أن رومة تنضم إلى الثورة إذا لم يعجل يأخي الها أقلع من مرسيليا ووصل إلى رومة في السابع عشر من ينابر مسئة ١٩٧٧ ، وربما كان من أسباب سفره أنه تأثر بدعوة كترين ؟ ولم يرحب بعودته جميع الأهلين لأن نداء فلورنس أثار في هذه المدينة المنتطة في عاصمة العالم المسيحي القديمة ، وجاءت الشدر إلى جريجورى أن حياته غير المهمة وي العديمة . فانتقل منها إلى أناني في شهر مايو ؟

وكأنه الآن قد خضع آخر الأمر إلى رجاء كترين ، فتحول من الحب الله الديلوماسية . وأخذ عماله يشجعون الجماهير في المدن على أن يقبلوا حكوماتهم المتمردة . وكانت تلك الجماهير تتوقى إلى مصالحة الكنيسة ، ووعد جميع المدن التي تعود إلى الولاء له بأن تكون لها حكومة ذاتية تحت رياسة نائب عن البابا تحتاره هي ينضها . وقبلت المدن هذه الشروط على أن يحكم برنابو فيكونتي في الذراع المقائم بينهما . وأفتع برنابو البابا على أمر المدينة بأن تودى المكرسي المقدس غرامة قلبوها وافق على خلك أمر المدينة بأن تودى المكرسي المقدس غرامة قلبوها حماءها قد غلورين (۲۰۰۰،۰۰۰ دولار) . ورأيت غلورنس أن حلفاءها قد تخفي الغرامة إلى وحماه كارمة مغضبة ، ولكن البابا إربان السادس خفض الفرامة إلى ۲۰۰،۰۰۰ فلورين ،

ولم يعش جريجوري حتى يشهد نصره ، فقد عاد إلى رومة في السابع

من نوفمبر عام ١٩٣٧ ، وكان يعانى آلام المرض حتى وهو فى أثنيون ، وتأثر بالشتاء الذى قضاه فى إيطالبا الوسطى ، وأحس بدنو أجله ، وخشى أن يقطع النزاع القائم بن فرنسا وإيطالبا المسيطرة على البابوية أوصاك الكنيسة ؛ فأعد العدة فى التاسع عشر من مارس عام ١٣٧٨ لاختيار خلفه على الفور ، وتوفى بعد ثمانية أيام من ذلك الوقت وهو يحن إلى أرض فرنسا الجميد.

الفصلاثايث

الحياة المسيحية

سرجى إلى باب آخر بشنا في دين الشعب وأخلاق رجال الدين ، ولكننا للاحظ في هذا الفصل ظاهر تن غنلفين من ظواهر الحياة المسيحية في إيطالبا خلال القرن الرابع عشر هما محكمة التغيش والقليسون و والإنصافية يقتضينا أن نذكر أن الكثرة الغالبة من المسيحين كانت تعتقد وقتئد أن الكثرة الغالبة من المسيحين كانت تعتقد وقتئد أن ثم فإن أية حركة تقوم القضاء عليها — أيا كانت الأخطاء التي يرتكها الآحدين اللدين يجرفون شئوبها — إنما هي خروج على السلطة القلمسية وغيانه الملولة الزمنية التي كانت الكنيسة درعها الأخلاق الواقى . وإذا لم تنتب هذه الفكرة الأساسية في عقولنا لم نستطع فهم تلك الوحشية التي تعقد رجال الدين وغير رجال الدين إلى الاشتراك ما في القضاء على دعوة الإلحاد التي أثار عجاجها (حوالي عام ١٣٠٣) و دتشينر النوقاري Margherita المساح Dolcino of Novara

وقد قسم دلتشينو التاريخ ، كما قسمه بواقع الفلوري Joachim of Flora إلى فترات شهدت الفترة الثانة منه الممتدة من عهد البابا سلفستر الأول (٣١٤ – ٣٣٥) إلى ١٢٨٠ فساد الكنيسة بسبب ما كان لحسا من ثرات دنيري . ويقول دنتشينو إن البابوات جميعا من أيام سلفستر كانوا غير عظمين للمسبح إذا استنينا منهم سلستين الخامس Celestine V وكان تتخليص الرهبان بندكت ، وفرانسس ، ودمنيك قد بذلوا محاولات نبيلة لتخليص الكنيسة من عبادة المال وإعادتها إلى عبادة الله ، ولكنهم أخفقوا في هذه

المحاولات ، وأضحت البابوية في عهد بنيفاس الثامن هي العاهر التي وصفها سُفر الرواني . وتزعم دلتشينو طائفة جديدة من الإخوان تدعى وإخوان بارما الرسولين ، رفضت سلطان البابوات ، وورثت خليطا من العقائد غن الباتارينين Patarines ، والولدنسين Weldenses ، والقرنسيس الروحيين . وكانوا يدعون أنهم يلتزمون العفة المطلقة ، ولكن كل واحد منهم كان يعيش مع امرأة يسمها أخته . وأمر كلمنت الحامس محكمة التفتيش أن تحاكمهم ، ولكنهم رفضوا المثول أمامها ، وسلحوا أنفسهم ، واتخلوا موقفهم في أسفل جبال الألب البيدمنتية . وسرت محكمة التفتيش عليهم جيشا ، ونشبت بن الجانبن معارك حامية الوطيس ، وانسحب الإخوان إلى بمرات في الجبال حوصروا فها حتى نفذ طعامهم ؛ فأخلوا يأكلون الفئران والكلاب ، والأرانب الدية ، والكلأ ، ثم هوجم معقلهم الجبل أخيراً ، وخر ألف مهم قتلي وهم يحاديون ، وحرق مهم علمة آلاف (١٢٠٤) : ولما سيقت مرجريتا إلى مكان الحرق ، كانت لا تزال رائعة الحمال على الرغم من ذبول جسمها ، وبلغ من جملها أن عرض علمها رجال من ذوى المكانة أن يتزوجوها إذا تخلت عن إلحادها ، ولكنها رفضت تلك العروض وأكلتها النار على مهلى . واستبتى دلتشينو وزميل له يدعى لنچينو ليحاكما محاكمة خاصة ، وأركبا عربة طافت سهما الموكب ، وانتزعت أطرافهما وأعضاء تناسلهما من جسمهما ثم تركا آخر الأمر ليموتا(١٧٠) .

ویلد لنا أن نتحول عن هذه الوحشة إلى ما عكفت عليه المسيحة من بث روح التقوى والصلاح فى نفوس الرجال والنساء . ذلك أن القرن اللكى شهد ما حل بالنيون من ضروب الهن والفساد أخرج أيضاً مبشرين المثل چيوفى دا موتى كرفينو Giovanni da Monte Cervino وأودريك للردينوفي Oderic of Pordener اللذين حاولاً أن مهذيا الهنود والصينين إلى الدين المسيحي ؛ ولكن الصينين كما يقول إخبارى فرنسيسى أصروا على اعتقادهم « الحاطئ بأن في وسع أى إنسان أن ينجو وهو في ملهه (٢٢٧) . . وكان ما أفاده العالم من هذين المبشرين في علم الجفرافية أكبر مما أفاده مهما في شئون الدين » .

وولدت القديسة كثرين السينائية ، وعاشت ، وماتت في غرفة وضيعة الأرض على تحريك البابوية وعلى أن تبث في أهل إيطاليا من التقوى ما بقي بعد ريناشيتا Rinascita وريزرجنتو Risorgimento . وانضمت وهي في الحامسة عشرة من عمرها إلى طائفة التوبة التابعة للقديس دمنيك ؟ وكانت هذه الطائفة منظمة ، ثلاثية ، لا تتألف من رهبان أو زاهبات ، يل تتألف من رجال ونساء يعيشون كما يعيش أهل الدنيا ، ولكنهم يخصصون حياتهم قدر استطاعتهم لأعمال الدين والبر , وكانت كثرين : تعيش مع أبوبها ، ولكنها جعلت حجرتها أقرب ما تكون إلى خلوة الزهاد ، والهمكت في الصلوات والتأملات الصوفية لا تكاد تترك حجرتها إلا لللهاب إلى الكنيسة . وقلق أبواها واضطربا لتفكيرها المتصل في شئون الدين وخشياً أن يؤثر ذلك في صحبها ، فكانا يعهدان إلمها بأشق أعمال البيت ، ولكنها كانت تؤديها بلا ملل ولا شكوى وتقول : ﴿ إِنَّى أَحْصَصَ فَي قَلَّى ركناً صغيراً ليسوع، (٢٨) . وظلت محتفظة بصفاء كصفاء الأطفال . وبينا كان غيرها من البنات ببحثن عن جميع المباهج ، والشكوك ، والنشوة في الحب و المدنس ، ، كانت من تبحث عنها وتجدها في الحشوع الممسح ؛ وكانت وهي في عفوان هذه التأملات المترايدة أثناء عزلتها تفكر في المسيح وتنحدث إليه كأنه حبيها السهاوي ، وتتبادل القلب معه ، وترى نفسها في الروئي كأنها قد تزوجته ، وأطالت التفكير في جراح المصلوب (A - 3 1 - + L 0)

الخمسة ، كما أطال التمكير فيها القديس فرانسس ، حتى كانت تشعر بهده الجراح فى يديها وقلمها وجنيها . ونبلت كل شهوات البدن ، وكانت ترى فيها وسوسة من الشيطان ، وأساليب خبيئة لحرمانها من ذلك الحب الذى النهمك فيه وحده .

وقفت ثلاث سنين لا تكاد تنصرف فيها عن وحدثها ونةواها ، أحست. بعدها أن في مقدورها أن تخرج آمنة إلى حياة المدينة ، وكما أنها كرست أنوثها للمسيح ، فقد خصت ما انطوت عليه من حنان الأمهات إلى العناية بالمرضى ، والمعوزين من أهل سينا ؛ فكانت تبقى إلى آخر لحظة مع ضحايا الطاعون ، وتواسى بروحها المحكوم علمهم بالإعدام من المجرمين حتى يتفذ فهم حكم الإعدام(٢٩) . ولما توفَّى والداها وتركا لها مبراثاً صغيراً ، وزعته على الفقراء ؛ وكان وجهها ، وإن شوهه الحدرى ، نعمة وبركة لكل من شاهدها . وكان الشبان يتبذون ، يكلمة تصدر منها ، ما اعتادوه من تجديف ، كما كان الكبار يستمعون إلى فلسفتها الساذجة الصادقة فتذوب منها شكوكهم . وكان من رأبها أن جميع شرور الحياة إنما هي نتيجة لخبث الإنسان ، ولكن جميم خطايا البشر ستمحى وتزول في بحر حب الله ؛ وسنزول شرور العالم كله إذا رضى الناس أن يعتادوا حب المسيح. وآهن كثيرون من الناس بها ؛ وبعثت إليها موني بلشيانو Montepulaiano تدعوها لتزيل الخصام بين أسرتها المتعاديتين ؛ وكانت مدينتا پنزا ولوك تستنصحانها ، ودعتها فلورنس لأن تنضم إلى وفد ترسله إلى أثنيون ، وهكذا استدرجت شيئاً فشيئاً إلى شئون العالم .

وهالها ما شهدته فى إيطاليا وفرنسا : فقد رأت رومة قذرة مهجورة ، ورأت إيطاليا وقد انفصلت عن كنيسة هجرتها إلى فرنسا ؛ ورأت رجال الدين ؛ ووجدت وجال الدين ؛ ووجدت فرنسا وقد خربت نصفها الحروب ، وحملها تقدّنها برسائها القدسية علمي

أن تندد بالمطارنة والأحبار في وجوههم ، وتقول لهم إن عودتهم إلى رومة وإلى الحياة الصالحة هي وحدها التي يمكن أن تنقذ الكنيسة بما هي فيه ب وإذ كانت هي نفسها عاجزة عن الكتابة ، فقد أخذت وهي فتاة في السادسة والعشرين من عمرها تملي بلغتها الإيطالية البسيطة الرنانة رسائل صارمة ولكنها يسرى فها الحب تبعث مها إلى البايوات ، والأمراء ، والحكام ، وتكاد تظهر في كل صفحة من صفحاتها تلك الكلمة التي كانت تنبيُّ بما سيكون وهي كلمة الإصلاح 🤉 وأخفقت في مسعاها مع رجال الحكم ، ولكنها أفلحت مع الشعب . وابتهجت حين جاء إربان الحامس إلى رومة ، وحزنت حين غادرها ، ثم عادت إلى الحياة النشيطة حين جاء إليها جريجوري الحادي عشر ، وأسلت النصح الرشيد إني إربان السادس ، ولكنها روعت من وحشيته ؛ ولما أن مزق انقسام البابوية العالم المسيحي وفرقه شيعتين ، كانت بن الضحايا الأولى لهذا النزاع الذي لامبرر له : ذلك أنها قللت طعامها حتى لم يكن يزيد على بضع لقيات ، وأوغلت في النسك إيغالا بلغ من شدته ، كما تقول القصة ، أن كان عُذَارُهما الوحيد هو الحيز المقلس الذي تتناوله أثناء العشاء الرباني . وكان من أثر هذا أن فقدت قدرتها على مقاومة المرض ، كما أن الانقسام الديني أنقدها إرادة الحياة ، فانتقلت إلى الدار الآخرة بعد عامن من هذا الانشقاق ، وكانت وقتئذ في الثالثة والثلاثين من عمرها (١٣٨٠) . ولا تزال حتى اليوم قوة تعمل للخبر في إيطاليا الني كانت نحبها لا تزيد علمها في ذلك إلا قوة المسيح والكنيسة .

وولد في ذلك العام نفسه وفي المدينة التي توفيت فيها كتربن القديس برنردينو St. Bernerdino وصاغته وشكلته التقاليد التي خلفتها ، فكان يقفي أيامه ولياليه أثناء الطاعون الذي فشا في عام ١٤٠٠ في العناية بالمرضى ؛ ولما انضم إلى طائفة الرهبان الفرنسيس ضرب لهم المثل في العمل يقوانين الطائفة والتقيد الشديد بها . وحلما كثيرون من الرهبان حلوه 4 وأنشأ من هوالاء (١٤٠٥) طائفة الفرنسيس الممثلين Obecrvantine Franciscans أى الإخوان اللين يتقيفون تقيداً صارماً بقوانين تلك الطائفة ؛ وخضعت له قبل موته ثلبًائة من الأديرة :

وخلفت طهارة حياته ونبلها على مواعظه بلاغة لا تستطاع مقاومها .
وكان في رومة نفسها ، التي كان أهلها أشد خروجاً على القانون من أهل أية مدينة أخرى في أوربا ، يستدرج الحبرمين إلى الاعراف بجرائمهم ، والمتخاصمين الذين اعتادوا الحصام إلى أن يجنحوا السلم . وأفتح برنردينو رجال رومة ونساءها ، قبل أن يحوق مشرولا الله الحليل في فلورنس بسبعين عاماً ، أن يلقوا يورق اللعب ، والشعر المستمار ، واللمور والكتب البليئة ، وآلاتهم الموسيقية نفسها ، في كومة كبيرة جنازية على الكبتول حيث أشملت فيها النار (١٤٧٤) . وأحرقت بعد ثلاثة أيام من ذلك الممل وفي الميدان نفسه فتاة اتهمت بالسحر ، واحتشات رومة على المكرة أيها للشاهد المنظر (٢٠) . وكان القديس برنردينو نفسه « من أشد الناس اضطهاداً للإلحاد إرضاء لضميره » .

وهكذا اختلط العليب والخبيث ، والحميل والمروع القبيح ، في تيار الحياة المسيحية وفوضاها . وظلت الجاهير الساخجة من أهل إيطاليا قائمة بمالها التي كانت علمها في العصور الوسطى راضية علمها ؛ أما الطبقتان الوسطى والعليا ، وقد كادت تسكرهما خرة الثقافة القديمة التي طال اخترائها في البلاد ، فقد كان أفرادهما يغدون ويروحون تملأ أعطافهم الروح المتحسة النبيلة لخلق النهضة والإنسان الحديث .

الكنائب إيثاني

النهضة الفاورنسية ١٣٧٨ — ١٣٧٨

البابالثالث

نشأة آل ميديتشي

1575 - 1774

الفصيل الأول

مسرح الحوادث

أطلق الإيطاليون على هذا النضوج اسم الرناشينا la Rinascita أى المبدية المداهم بعثا مظفرا للروح القديمة بعد أن وقفت المربرية في سبيلها مدى ألمت عام (٥٠). ذلك أن الإيطاليين كانوا يشعرون بأن الانطام الروماني القدم قد قضت عله غارات الألمان والحون في خلال القين الثالث ، والرابع ، والحامس حين قضت يد القوط الثقيلة على زهرة المن المرافي والحياة الرومانية ، وهي الزهرة التي كانت لاتزال جيلة وإن كانت آخلة في الذبول . وكان الفن والقوطي ، قد كرر هذا الغزو في صورة فن من فنون العارة مزعزع غير مستقر ، غرب الزجوف ، وفي صورة غير المسارمين ، والقديسين صورة عت خضن ، فع ، مكتب ، يمثل الأنبياء الصارمين ، والقديسين والمزيلي الأجسام ، أما الآن فقد كان من نيم الزمان أن امتص المم الإيطائي

⁽ه) كان ثامارى Vasari و كابه الحياة النشيطة لفنون الهارة والتصوير والنحت المبارة والتصوير والنحت المبارة والتصوير والنحت المبارة على المبارة التي صدرت بين مامى ١٩٠١ و ١٧٧٣ هي التي احماست لأول مرة وبسفة قاطمة واضمة لفظ مدارت بين مامى ١٩٠١ و ١٧٧٣ هي التي احماست لأول مرة وبسفة قاطمة واضمة لفظ Renaisanno. الدلالة على الزدمار الآداب والفنون في القرن الرابع مشر ، والله ن المامس عشر ، والله ن المامس عشر ، والله ن المامس

الفالب القوى ، أو لتك القوط الملتحن واللمبادد و الطوال اللحى ، و وبفضل قروثيوس Vitruvius وحرائب السوق الرومانية ، أقيمت من العمد القديمة ، وطيلاتها أضرحة وقصور مهيبة وقورة ، وبفضل بمرارك ومائة غيره من العلماء الطليان أخلت الأداب القديمة التي كشفت كشفه جديداً تعمر الأدب الإيطالي مصطلحات نعر شيشرون الني الحالص ودقته به وموسيقي شعر فرجيل الرخيمة المطربة . وقدر لشمس الروح الإيطالي أن يمترق ضياؤها ضباب الشهال ، وأن يفر الرجال والنساء من الحوف اللمى. محتت فيه أرواحهم أثناء المصور الوسطى ، وأن يعبدوا الجمال على. اختلاف أشكاله ، وأن يماؤوا الحر بهجة المث الحديد ، وأن تعود إيطاليا.

ولقد كان الرجال الذين يتحدثون هذا الحديث قريبن من ذلك الحادث الجلل قربا لا يستطيعون معه أن يبصروا و المولد الحديد ، ق ملابساته التارغية أو يتبنوا عناصره الهتلفة الهيرة . ولكن الهضة كانت تتطلب أكر من إحياء القديم ، كانت تنطلب أولا وقبل كل شيء المال — مال الطبقات الوسطى الرأسمالية العطن المتجمع من مكاسب المديرين ، والعال المنخفضي الأجور ؛ وكانت تتطلب رحلات تكتفها الأحيل للهراد الشرق ، وجهودا مضنية لعبور جبال الآلب لشراء السلم ونعيصة وبيعها ظالية ؛ وتتطلب دقة وعناية في الحساب ، والاستهار ، والأمراء ، والعشيقات ، ما يكني لأن يحول ميكل أنجيلو ، وتيشيان المال والأمراء ، والعشيقات ، ما يكني لأن يحول ميكل أنجيلو ، وتيشيان المال للجمال ، ويعطرا الثراء بيشكي أنفاس الفن . ذلك أن المال أصل كل حضارة . وفي هذه الهيمة باللمات كانت أموال التجارة ، ورجال على المعارفة ، ورجال المعارفة ، والكنيسة ، تودى مها أغان المعطوطات الني أحيت العهد القديم ، على أن هده المتجمة وحواسها ،

بل كان الذي حررهما هو النرعة الزمنية غير الدينية التي انبعث من نشأة. الطبقات الموسطى ؛ وقيام الجامعات ، وانتشار العلم والفلسفة ، وما أثمرته دراسة القانون من تقوية الأذهان وتوجبهها وجهة واقعية ، وما أدى إليه ازدياد العلم بالعالم من انساع أفق العقل وجاله . وارتاب الإيطالى المتعلم في قواعد الكنيسة التعسفية ، ولم يعد يرهبه الحوف من نار الجحج ، ورخاى رجال الدين منهمكين في ملاذ الدنيا انهماك غيرهم من الناس ، فحطم ذلك الإيطالى المتعلم الأغلال العقلية والحلقية ، وتحورت حواسه من تلك القيود ، فابتهجت في غير حياء يمكل ما يمثل الجال في المرأة ، والرجل ، والفن ؛ وجعلت الحديدة الجديدة مبدعا خلاقا خلال قرن ، من الزمان حجيب (١٤٣٤ – ١٩٣٤) . قبل أن يقضى عليه بما انتشر فيه من فرضى أخلاقية ، وارعة فردية المعلالية ، واسترقاق قوى ؛

ترى لم كان شهائى إيطاليا أول الأقالم التى شهدت هذه البقظة المزدهرة ؟ الجواب عن هذا أن العالم الرومانى لم يكن قد قضى عليه فى هذا الجزء قضاء تاما ، بل ظلت البادان محفظة فيه بكيامها القديم وذكريامها القديمة ، وأعدت وقتئذ تجدد قانومها الرومانى . وكان الفن القديم قد بي حيا فى أجريا Agrippa لايزال يتخذ مكانا العبادة ، وإن كان قد مضى عليه أربعة عشر قرنا من الزمان ، وفي السوق العامة يكاد الإنسان يسمع شيشرون وقيصر يتناقشان فى مصر كاتلن Catiline : كذلك كانت اللغة اللائينية لاتزال لغة سيسة ، ليست اللغة الطليانية إلا لهجة مها مرخة ؟ أو قائمة فى صور مسيحية وإيطائية تعترض البحر المتوسط ، وتشرف أو قائمة فى صور مسيحية وإيطائية تعترض البحر المتوسط ، وتشرفه على حوضه المندى قامت فيه الحضارة والتجارة القديمتان . كذلك كانت

شهالى إيطاليا أكثر مدنا وحواضر واشتغلالا بالصناعة من أى إقلم آخر في أوربا إذا استثنينا إقلم فلاندرز ، ولم يعان هذا الإقلم من النظام الإقطاعي الكامل ما عاناه غيره من الأقاليم الأوربية ، بل إنه أخضع أشرافه إلى مدنه وإلى طبقة التجار فيه . وكان هو الطريق الذى تنتقل فيه التجارة بين بِهَية إيطاليا وأوربا الواقعة وراء جبال الألب ، وبنن أوربا الغربية وشرق البحر المتوسط ؛ وقد جعلته تجارته وصناعته أغنى إقليم فى العالم المسيحى قاطبة . وكان تجاره المخاطرون يشاهدون ` كل مكان من أسواق فرنسا إلى أبعد ثغور البحر الأسود ؛ وقد اعتادوا معاملة اليونان ، والعرب ، والبهود ، والمصرين ، والفرس ، والهنود ، والصينين والاختلاط بهم ، ففقدوا حدة عقائدهم التحكية ، ونقلوا إلى الطبقات المتعلمة في إيطاليا ذلك التهاون في العقائد ، الذي نشأ بعدئذ في أوربا خلال القرن التاسع عشر من الانصال المترايد بالأديان الأجنبية . بيد أن حكمة التجار قد اجتمعت مع التقاليد القومية والمزاج والكرياء القومين لإبقاء إيطاليا كاثوليكية حتى في الوقت الذي كانت فيه وثنية . وأخذت الأموال البابوية تنساب إلى رومة من ألف سبيل واردة من عشرات الضياع المسبحية ، وفاضت أموال البابا على جميع أنحاء إيطاليا ؛ وكافأت الكنيسة ولاء إيطاليا بالتسامح الكرىم عن خطايا الجسد والتسامح الطيب زقبل مجلس ترنت الذي عقد في عام ١٥٤٥ مع الفلاسفة الملحدين الذين يمتنعون عن تقويض تْهَى الشعب . ولهذه الأسباب كلها سبقت إيطاليا فى النَّروة والفن ، والنفكير ، بقية أوربا بماثة عام ، ولم تزدهر النهضة في فرنسا ، وألمانيا ، وهوُلندة وإنجلترا ، وأسپانيا إلا في القرن السادس عشر حين أخلت البهضة تزول من إيطاليا . ذلك أن النهضة لم تكن فترة من الزمان ، بل أسلوبا من أساليب الحياة والفكر يسر من إيطاليا إلى سائر أوربا متبعا طرق التجارة ، والحرب، والأفكار.

واتخذت النهضة موطنها الأول في فلونس لنفس الأسياب التي جعلت

مولدها في شهالي إيطاليا : ذلك أن فمور مرسا Fiorenza أي مدينة الأزهار - كانت في القرن الرابع عشر أغنى مدائن شبه الجزيرة الإيطالية حا عدا البندقية ، وذلك بفضل تنظيم صناعتها ، واتساع تطاق تجارتها ، وأعمال رجال المسال فيها . غير أنه بينا كان البنادقة في ذلك الوقت . يبددون جهودهم كلها تقريبا في الجرى وراء اللذة والثروة ، كان الفرنسيون يزدادون حدة في العقل ، وقوة في الذكاء ، وحلمًا في كل فن ، فجعلوا بذلك مدينتهم باعتراف الناس جميعا عاصمة إيطاليا الثقافية . ولعل غظامها الشبه الدمقراطي المضطرب كان من بواعث هذا الرقي . ذلك أن النزاع القائم بن الأحزاب المحتلفة قد رفع حرارة الحياة والتفكير ، فأخذت الأسر المتنافسة ينازع بعضها بعضا في رعاية الأدب كما كانت تتنازع على السلطان . وحدث آخر بواعث هذا الرقى ــ لا أولها ــ حن عرض كوز يحوده ميديتشي Cosimo des Medici مصادر ثروته وغير ها من الأموال والقصور لإيواء مندوبي مجلس فلورنس واستضافتهم (١٤٣٩) . وكان الأحبار والعلماء اليونان الذين جاءوا إلى هذا المجلس لببحثوا في إعادة الوحدة بن المسيحية الشرقية والغربية يعرفون من الأدب اليوناني أكثر عما يعرفه أي رجل في فلورنس في ذلك الوقت : وأخذ بعضهم يحاضر في فلورنس ، وهرعت الصفوة الممتازة من أهل المدينة للاستهاع إلهم . ولما أن سقطت القسطنطينية في أيدي الأتراك غاهرها كثيرون من اليونان ليتخذوا مقامهم في المدينة التي وجدوا فنها حسن الضيافة قبل أربعة عشر عاما من ذلك الوقت . وحمل كثرون معهم المخطوطات القديمة ، وأخذ بعضهم يلتى المحاضرات في اللغة اليونانية أو في شعر اليونان وفلسفتهم . وهكذا نشأت النهضة في فلورنس بعد أن تجمعت فها أسبامها من سسبل كثيرة عظيمة الأثر ، وأضحت هذه المدينة بذلك أثينة إيطاليا .

الفصل لشاني

الأساس المادي

ويقول فحلاني إن مدينة فلورنس نفسها كانت تضم فى عام ١٣٤٣ حوالى موال ١٣٤٨ من الأنفس ؛ وليس للبينا تقدير لسكانها فى سنى النهضة المتأخرة نستطيع أن فتى به كما نثق بتقدير فحلانى ، ولكن فى مقدورنا أن نفترض أن سكانها قد ازدادوا بسبب اتساع لطاق التجارة وازدهار الصناعة . وكان نصف سكان المدينة من المشتغلين بالصناعات ، وكانت صناعات النسيج وحدما تفدم فى القرنالالث عشر ثلاث أن ألفاً من الرجال والنساء يعملون في ما قي

مصنع (۱) ، ونال فردريجو أريتشيلارى Frederigo Oricellarii لقبه هذا لأنه جاء معه من بلاد الشرق بصبغة بنفسجية (أركيلا Orchella) . وقل أحدث استخدامها انقلاباً في صناعة الصباغة ، وكسب من وراثها يعض صناع الأقشة الصوفية مكاسب لو كانت لهم في هذه الأيام لعدوا من أصبحاب الملايين . وتكانت فلورنس قبل أن يحل عام ١٣٠٠ قد وصلت إلى مرحلة الاستثبار الكهر الرأسمالي ، وإيجاد مراكز لإمدادها بالمواد الخلام والآلات ، وتوزيع العمل توزيعاً منظاً ، والإشراف على الإنتاج من قبل أصحاب رعوس الأموال ، وكان الثوب الصوف في عام ١٤٠٧ يمر بثلاثين عمية يقوم بكل منها صانع تحصص فها (١٤٠٧) .

وكانت قلورنس تعمل لترويج منتجاتها يتشجيع تجارها على إنشاء علاقات تجارية مع جميع ثغور البحر المتوسط والثغور القائمة على شاطئ البحر الأدرياوى حتى مدينة بروج . وكان لها قناصل فى إيطالها ، وجزائر المبلار ، ومصر ، وقدرص ، والقسطنطينية ، وبلاد الفرس ، والهند ، والصن لحاية تجارتها وتوسيع نطاقها . وكان لا بد لها من الاستيلاء على يزا لتكون عرجاً لا غبى عنه لبضائع فلورنش المنجهة إلى البحر ، وكانت تستأجر لنقلها سفن جنوى . وكانت المنتجات الأجنبية المنافسة لمصنوعات فلورنس تمنع من دخول أسواق علمه المدينة بفرض الضرائب الحامية عليا من حكومة يديرها النجار وأصحاب المالى .

وكانت بيوت فلورنس المصرفية البالغ عددها ثمانين بيعاً ــ وأشهرها بيوت باردى Bardi ، وبنانيشي ــ بيوت باردى Bardi ، وبنانيشي ــ كانت هذه البيوت تستشمر ملخوات عملائها المودعين أموالهم فيها ، وكانت تقيض الصحكوك (Polizze) ، وتصدر خطابات الاثنان الاثنان (Lettere di باردهان المتاجر كا تتبادل الاثنان (٥) ، وتحد الحكومات الأموال التي تحتاجها لشتون السلم والحرب ، وقد أقرضت بعض البيوت

المالية الفلورنسسية إدورد الثالث ملك إنجلترا ١,٣٦٥,٠٠٠ فلورين (٣٤,١٢٥,٠٠٠ ؟ دولار أمريكي) فلما عجز عن الوفاء أفلست هذه البيوت (١٣٤٥) . إلا أن فلورنس أضحت من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر العاصمة المالية لأوربا على الرغم من هذه الكارثة ، فيها تحدد أسعار تبادل النقد بـن مختلف الدول الأوربية(٧) . ونشأ منذ ذلك الزمن البعيد وهو عام ١٣٠٠ نظام للتأمين سهدف إلى حماية بضائع إيطاليا أثناء نقلها بحراً _ وذلك احتياط لم تتبعه إنجلترا حتى عام ١٥٤٣ . وتظهر طريقة القيد المزدوج في إمساك الدفاتر (طريقة الدوبيا) في سجل حسابات فلورنسي يرجع إلى عام ١٣٨٢ ؛ وأكبر الظن أن هذه الطريقة كان قد مضى على وجودها فى فاورنس ، والبندقية ، وچنوى فى ذلك العام قرن كامل من الزمان(١) ؛ وأصدرت حكومة فلورنس في عام ١٣٤٥ قراطيس. مالية قابلة للتحويل ، ويمكن تبديلها ذهباً ، وكانت هذه القراطيس ذات سعر منخفض لا يزيد على خسة في الماثة ، وهذا الانحفاض في حد ذاته دليل على ما كانت تستمتع به المدينة من سمعة طيبة خاصة برخائها وسلامتها التجارية . وليس أدل على هذا من أن إيراد الحكومة فى عام ١٤٠٠ كان أعظم من إبراد حكومة إنجائرا في عهد الملكة إلزبث الزاهر .

وكان رجال المصارف، والتجار، والصناع، وأصحاب المهن ، والعالد الملامون ينتظمون في سبع طواقف ، وكان في فلورنس سبع من هذا النوع . يومف بالطسوائف الكرى (Arti Maggiori) وهي طوائف صانعي الملابس ، وصانعي الصوف ، وصانعي المنسوجات الحريرية ، وتجار الفراء، ورجال المال ، والأطباء ، والمسادلة . أما الطوائف الأربع عشرة الباقة من طوائف فلورنس أو الطوائف الصغرى Arti Minori فكانت طوائف باشي الملابس ، والجوارب ، والقصايين ، والخبازين ، وباتعي الحمور ، وصانعي المدوع ، والحدادين ، وصانعي المدوع ، والحدادين ، وصانعي

الأتفال ، والتجارين ، وأصحاب الفتادق ، والبنائن ، وقاطعي الأحجار ، وخليط مجتمع من بائعي الزيوت ، و حلم الخبرير ، وصانعي الحبال . وكان من واجب كل ناخب أن يكون عضواً في إحدى هذه الطوائف ، واتضم المها النبلاء الذين حرمهم ثورة الطبقة الوسطي في عام ١٩٨٧ من حقوقهم الانتخابات . وكان الباعث على انضامهم إليها أن يكون لهم من جديد صوت في الانتخابات . وكان المياه المهاه المهارات الواحدة والعشرين اثنان وسيعون اتحاداً من المهال الذين لا أصوات لم ، ومن تحت هذه الانحادات آلاف من في قمر مدقع ؟ ومن تحت هولاء أيضاً ب أو قل من فوقهم لأنهم كانوا في فقر مدقع ؟ ومن تحت هولاء أيضاً ب أو قل من فوقهم لأنهم كانوا للمواثف الكرب عدون من الأمان فكانوا يحوثون ه صفار أو هذوى الطمام الحديد » ، أما من بتي من الأمان فكانوا يكونون ه صفار الناس » (Popolo minuto) . وكان تاريخ فلورنس السياسي ، كتاريخ المدول الحديثة ، يتأنف أولا من انتصار طبقة رجال الأهمال على طبقة الأشراف المدام المعادية ، يتأنف أولا من انتصار طبقة رجال الأهمال على طبقة الأشراف المدام المعادية ، يتأنف أولا من انتصار طبقة رجال الأهمال على طبقة الأشراف المنادم المعادية ، المن بي من الأمان المن الأساسي النساسي النساسية النساس المنادم المناد المناد المنادم المناد المنادة المال » الفوز بالساطان السياسي .

وأعدم تشتو برندي Cinto Bradini وتسعة رجال آخرون في عام ۱۳۹۵ لأمم نظموا فقرًاء المال في صناعة الصوف، وجيء بعال أجانب لتحطيم هذه الاتحادات (۱) وحاول و صغار الناس و في عام ۱۳۳۸ أن يقوموا بنورة ، ولكن ثورتهم أخمدت ؛ وبعد عشر سنين من ذلك الوقت حدثت فننة ممشطى المصرف التي جعلت لطبقات المال السيطرة على البلدية فنرة قصيرة عصيبة . وتفصيل ذلك أن عاملا حاق القدمن يدعى ميتشبل دي لاندو مصلا في المنسطين واندفع بهم إلى المهرسيون واندفع بهم إلى Palazzo Vecchio والهادم مكانهم وكتاتورية المهال (۱۳۷۸) . وألفيت حينذ القوانن التي تحرم مكانهم وكتاتورية المهال (۱۳۷۸) . وألفيت حينذ القوانن التي تحرم

إنشاء الاتحادات ، ومنحت الاتحادات الصغرى حق الانتخاب . وأجل أداء ما على الأجراء من ديون مدة اثنتى عشرة سنة ، وخفضت فوالد هذه الديون ليخفف يذلك العبء على الطبقات المدينة . ورد زعماء العها على هذا بأن أغلقوا حوانيتهم ، وأغروا ملاك الأراضى بقطع الطمام عن المدينة . وضايق ذلك الثوار فانقسموا حزبين أحدهما يتألف من أرسنقر اطبة المهال وقوامه الصناع الحاذقون ، وثانهما و جناح يسارى » تدفعه إلى العمل آراء شيوعية ؛ وانتهى الأمر بأن جاء المحافظون برجال أشداء من الريف ، وسلحوهم ، وقلبوا الحكومة المنقسمة على نفسها ، وأعادوا السلطة إلى «ابقة أصحاب الأعمال (١٣٨٧) .

وعدل أصحاب الأعمال المنتصرون اللمتور ليقووا بدلك مركزهم ويحنوا تمار نصرهم . فألفوا السنيوريا Signoria (أو المجلس البلدى المكون من السنيوري Signori (أو المجلس البلدى المكون من السنيوري Signori أو السادة) من ثمانية من زعماء الطوائف priori نكن يحتاروا إلى تلك المناصب . فإذا تم اختيار أولئك المخانبة ، انتخبوا هم واحداً من بيهم ليكون رئيساً السلطة التنفيذية أولئك المخانبة ، انتخبوا هم واحداً من بيهم ليكون رئيساً السلطة التنفيذية وكان لا بد أن يحتار أبعة من الزعماء المحانية من أهده الطوائف المكبرى مع أن هذه الطوائف لم تكن تضم إلا أقلية صغرة من الذكور البالغين . كذلك كان لا بد من وجود هذه النسبة بعيها في مجلسي الشعب الشعب المساس المستشاري كمن يقصد مها إلا أعضاء الطوائف الواحدة والعشرين . أما أعضاء مجلس المسلام المتابات المناوا يختارون من بن أعضاء النقابات هلى اختلاف أنواعها ، ولكن اختصاصه لم يكن يزيد على أن يحتمع حن

ييلحوه مجلس الحكام ، بوأن يقترع بالإيجاب أو الذي على ما يعرضه عليه الزعماء من اقتراحات . وكان الزعماء يدعون في أحوال نادرة برلمان Parlamento يجتمع في ميدان الرياسة بأن يقرعوا الناقوس الكبر المملن في برج قصر فيتشيو . وكانت هذه الجمعة العامة تختار في العادة لجنة من المصلحين Balfa وتمنحها السلطة العليا فترة محددة من الرقت ، م يتفس أجماعها .

ولقد وقع أحد المؤرخين من رجال القرن التاسع عشر في غلطة كريمة سحين خلع في كتابه على فلورنس درجة من الحكم الدمقراطي لم يكن لها قط وجود في هذه الجنة البلوتوقراطية . ونقول إن هذه الدرجة من الدمقراطية لم يكن لها وجود لأن المدن الخاضعة لفلورنس لم يكن لها وأى في اختيار السادة الذين يحكمون المدينة وإن كانت هذه المدن غنية بالعباقرة ، مقصوراً على ٣٢٠٠ من المذكور ، وكان عملو رجال الأعمال في المجلسين مقصوراً على ٣٢٠٠ من الذكور ، وكان عملو رجال الأعمال في المجلسين عليه في أن الجاهير الأمية الجاهلة ، عاجزة عن أن تصدر حكماً محيحاً عليه على في أن الجاهير الأمية الجاهلة ، عاجزة عن أن تصدر حكماً محيحاً عليه لقد كان الفلورنسيون بحيون الحربة ، عاجزة عن أن تصدر حكماً محيحاً لقد كان الفلورنسيون بحيون الحربة ، ولكن كان معني الحربة عند الفقراء حربهم السادة الفلورنسيون بحيون الحربة ، ولكن كان معني الحربة عند الفقراء . حربة السادة الفلورنسيون يحتون الحربة ، ولكن كان معنيا عند الأغنياء حربهم في أن يحكمو المدينة والبلدان التابعة لما دون أن تقف في سبيلهم عوائق من قبل الإسراطورية ، أو الجابوية ، أو الإقطاع .

وكان من عيوب هذا الدمنور التي لايستطيع أن ينكرها أو يجادل فيا قصر المدة التي يجتفظ فيها الحكام بمناصهم ، وما يحلث في هذا المستور نفسه على الدوام من تغيرات . وقد ترتب على هذين العبين وقيام الأحزاب ، وتدبير الموامرات ، وأعمال العنف ، والاضطراب ، وتقص الكفاية ، وصجر الجمهورية عن أن تضع وتنفد السياسة الثابتة الطويلة الأجل استقرار الأمور في الطويلة الأجل استقرار الأمور في البنافية ولمل زيادة قوتها . أما النتيجة الطبية فكانت خلق جو مكهرب من النزاع والنقاش ، زاد من حيوية الأهلين، وقوة إحساسهم ، وعقلهم ، وذكاتهم وأناد خيالهم ، وجعل فلورنس مدى قرن من الزمان الزعمة المتقافية للعالم الغرف ين

الفصل المالية منابعة المالية

کوزيمو ډ أبو البلاد ۽

كانت السياسة فى فلورنس هى المعراع بين الأسر الغنية بعضها وبعض الريتشى Ricci ، والألب دسى Albizzi ، والم الله ، والألب Ricci ، والألب Ridoffi ، واللاسترتسى Strozzi ، والريشلاى Pazzi ، والألاسترتسى Valori ، والكوب Capponi ، والشالورى Valori ، والكبونى Saderini ، والسو دريى Saderini - لسيطرة على الحكم ، وقد احتفظت أسرة الألبقسى بسلطانها الأعلى فى الدولة فيا بين عاى ١٩٨١ و ١٤٣٤ ، إذا استثنينا بعض فرات غنافة ، وحمت بشجاعها أغنياء المدينة من فقرائها .

وفى وسعنا أن نتابع تاريخ آل ميديتشى من عام ١٧٠١ ، حين كان كيارسيمو ده ميديتشى البلدى من كان Chiarissimo de'Medici كيارسيمو ده ميديتشى المبلدية المستقلة . وكان أفرار دوده ميدتشى Averado de'Medici جداً كرزيمو هو الذي أفاء على الأسرة ثراءها المظم بأعماله التنجارية الجريئة والمالية الحكيمة ، ولذلك اختبر حامل شمار المدينة في عام ١٣١٤ . واختبر سلمسترو د ميديتشى Salvestro de'Mepici ابن أبن أخمى أفرارهو حامل لشمار المدينة في عام ١٣٧٨ ، وهو الذي جم قلوب أهلها على حب

⁽a) ولا يزال أصل امم هذه الأحرة يكتنفه الدوض ؟ وليس تمة ما يثبت أنهم كالو! أطباء ؟ وإن لم يكن بعيداً أنهم الفسوا أن يوم من الأيام إلى إساس الطوائف الطبقة حممه الطوائف الطبقة حممه الطويقة التي كالمت حيثة ظورفس. و لبستا نعرفه من كلف من شامل الأحرة والمتابق المستبد المكون من ست كرات حراء مرسومة على أرضية من اللهب. ولقد أصبحت عند الكرات بعد أن مخفض علدها إلى ثلاث ومن مقرضي التقوض على روون بعد ذلك الرقت .

تلك الأسرة بمناصرته قضية الفقراء الثاثرين . وعمل جيوفي دى يتشى ده ميديتشى المسترو ، ميديتشى المسترو ، ميديتشى المسترو ، المنتق المسترو ، المنتق المسترو ، المستر شعار المدينة في المدينة المسترية سنوية قدرها 4٪ على الدخل قدرت بسبعة في المائة من رأس مال الممول (١٤٢٧) ، وإن كانت هذه الفسريبة عبدًا باهظًا عليه . فلما فعل ذلك أقسم الأغنياء ، ألذين كانوا يؤدون فرضة الرءوس بالقدر الذي يؤديه الفقراء ، أن يثاروا لأنفسهم من آل عيدينشي .

وتوفى جيوقى دى ميديتشى فى عام ١٤٢٨ وترك لابنه كوزيمو اسماً رفيماً وأكر ثروة فى بلاد تسكانيا — ١٤٧٨ فلورينا (٢٥,٠٥٠) ؟ وكان كوزيمو قد بلغ وقتلد الناسعة والثلاثين من عمره ، واصبح خليقاً بأن يواصل مقامرات المؤسسة الواسعة النطاق . ولم تكن هذه الأعمال مقصورة على الشئون المصرفية ، بل كانت تشمل إدارة ضباع واسعة ، ونسج الحرير والصوف ، والقيام بتجارة متنوعة تربط الروسيا بأسهانيا واسكتلندة ببلاد الشام ، والإسلام والمسجية . ولم يكن كوزيمو وهو بشيد الكتائس فى فلورنس يرى شيئاً من الإثم فى عقد الاتفاقات النجارية ، وتبادل الهدايا الغالية ، مع سلاطين الأتراك . وكانت الشركة تحرص بنوع خاص على أن تستورد من بلاد الشرق السلم الصغيرة الحجم للكبرة القيمة كالتوابل ، واللوز ، والسكر ، وتبيعها هى وغيرها من الغلات فى عشرات من الغورية .

وكان كوزيمو يدير هــذه الأهمال بمهارة وهدوء ، ويجد بعد ذلك مشمراً من الرقت للاشتفال بالسياسة ، فكان عضواً في الريشي أو مجلس المسمرة الحربي ، وقاد فاورنس من نصر إلى نصر ضد لوكا Lucca ، وكان بوصفه من رجال المصارف إلمالية يقرض الحكومة الأموال المطائلة لقويل المحرب . وأثار الثناف قلوب الشعب حوله حسد عدره من كبراء فلورنس

له ، فاتهمه رينلدو دجلى ألبيتسى Rinaldo degli Atbizzi وعام Rinaldo degli المنتسى Rinaldo degli المنتسى Rinaldo degli المنتسورية والانفراد بمحمها حكماً دكتاتورياً ، وأتمع رينلدو برناردو جواديني Bernardo Guadagni ، وكان وقتلد حامل شعار المدينة ، أن يأمر بالقبض على كوزيمو ؛ فأسلم كوزيمو نفسه واعتقل المالمتنسو . ولما كان رينلدو يسيطر بأتباعه المسلحين على البارلمتنو المنتقد في ميدان دلاسفيورى ، فقد بندا أن حكم الإعدام وشيك الصدور من هذه الهيئة . ولكن كوزيمو استطاع أن ينفح برناردو بألف دوقة من الملك (، ، ، ، ه دولار ؟) أصبح بعدها على حين غفلة أكثر رهة وإنساتية ، ورضى أن يكتني بنني كوزيمو أولاده ، وكبار أنصاره من المدينة مدة عرس سنين (١١) . وأقام كوزيمو في مدينة البندقة واكتسب فها بفضل تواضعه وثرائه كثيرين من الأصدقاء ، وسرعان ما أخلت حكومة البندقية تسخطم نفوذها للعمل على عودته إلى بلده . وكان مجلس حكام المؤونس المذى انخب في عام ١٤٣٤ يميل إلى استدعائه ، فأصدر حكم يالغاء قرار النه ، وهاد كوزيمو ظافراً ، وفر رينلدو وأبناؤه من المدينة م

واختار المجلس حكومة جديدة ومنحها السلطة العليا في المدينة . وحدم كوزيمو ثلاث دورات قصرة ثم تخلي بعدها عن جميع المناصب السياسية . وقال في ذلك : « إن اختيار الإنسان المناصب كثيراً ما يضر بالجسم وبالنفس مماً ١٠٥١) ، وإذ كان أعداوه قد خادروا المدينة فإن أصدقاءه لم يجدوا أية صعوبة في السيطرة على الحكومة ، وأفلح هو بقوة الحجة أو بالمال أن يستبقى أصدقاءه في مناصبهم إلى آخر حياته دون أن تنزعزع أشكال الحكم الحمهورى ، ذلك أنه نال تأييد الأسر ذات النفوذ القوى ، أو أرغها على تأييده بما كان يمنحها من القروض ، وأن عطاياه السخبة لرجال الدين ضمنت له تحصمهم في مساعدته ، وأعماله الحديث العامة التي لم يكن لها من قبل مثيل في اتساع تطاقها وسخائها جمعت قلوب المواطنين في غير صعوبة على الرضا يحكمه . وكان من أسباب رضاهم ما تبينوه من أن

دستور الجمهورية لا يحسيم من أهل النراء ، وقد انطبع هذا اللدس انطباعاً قوياً في ذاكرة الشعب بعد هزيمة الكيومهي . فإذا كان لا يد للجاهير من أن تحتار بين آل ألبتسي الذين يناصرون الأغنياء وآل ميديتشي المناصرين للطبقات الوسطى والفقراء ، فإنه لم يطل ترددها في هذا الاتحتيار . من التحزب والانقسام ، رحب بالدكتاتورية في فلورنس عام ١٤٣٤ ، وفي يووجيا عام ١٣٨٩ ، وفي يولونيا عام ١٤٠١ ، وفي سينا عام ١٤٧٧ ، وفي رومة على ١٩٣٧ ، ويقول فلافي إن ﴿ آل ميديتشي استطاعوا أن يحرزوا السيطرة على المدينة باسم الحرية ، ويتأبيد أعضاء طوائف الحرق الجواهير ١٧٠٩ .

واستخدم كوريمو سلطانه باعتدال ودهاء يمرّج بهما العنف في بعض الأحيان . ومن أمثلة هذا العنف أنه لما ارتاب أصدقاؤه في أن بلداتشيو دنجياري Baldaccio d' Anghiari كان يجبك موامرة القضاء على سلطان كوريمو ، ألق هولاء الأصدقاء ببلداتشيو من نافذة عالية علوا يكفي القضاء عليه ، ولم يجد كوريمو في هذا العمل صباً الشكاية ، فقد كان من أقواله الساخرة أن و الدول لا تحكم بالأدعية والصلوات ع . وقد استبدل بضريبة اللخل الموحدة ضريبة تصاعدية على رأس المال ، واتهم بأنه قد حدد مقادير هذه الضريبة ليمز بنلك أصدقاءه ، ويلق العبء على أعدائه . وقد بلغ بحموع هذه الأعياء ، ، رو١٨٨ فلورين (، ١٠٠٥ ١٩٨٠ ١٢١ من سيطرة كوريمو . وكان الذين ياولون التملص مها يزجون في السجون على الغور . وغادر المدينة كثيرون من الأشراف ، وعاشوا في الريف معيشة نبلاء العصور الوسطى ، وقبل كوريمو خروجهم مها بهده و واطمئنان ، وقال إن أشرافا جدداً يمكن خطقهم بيضعة أشبار من القائل الأرجواني (١٠) (١٠)

وتبسم الناس من قوله هذا ووافقوا عليه لأنهم أدركوا أن هذه الأعباء

قد خصصت الإدارة فلورنسا وتزييبها ، وأن كوزيمو تقسه قد اعتمد من ماله ٥٠٠ر ١٠٠٠ فلورين (١٠٠٠ر ١٠٠٠ ؟ دولار م للأعمال العامة والصدقات الخاصة(٩٨)، ويكاد هذا يعادل ضعفي المبلغ الذي تركه لورثته(١١٠). وظل كوزيمو يعمل بلا انقطاع إلى آخر سنى حياته البالغة سبعا وفسنن سنة في إدارة أملاكه الخاصة وشئون الدولة ؛ ولما أن طلب إليه إدورد الرابع ملك إنجترا فرضا كبيراً ، أجابه كوزيمو إلى ما طلب وغض النظر عن غدر إدورد الثالث ، ورد إليه الملك هذا القرض نفدا وعونا سياسيا : ولما أن احتاج بارنتوتشيلي Parentucell أسقف بولونيا إلى المال وسأل كوزيمر العون بادر إلى معونته ، ولما أن جلس بارنتوتشيلي على كرسي البابوية باسم نقولاس الخامس ، عهد إلى كوزيمو بالإشراف على جميع · شئون البابوية المالية . وكان يحرص على أن تظل نواحي نشاطه المختلفة منتظمة لا يتسرب إلها الارتباك ، فلذلك كان يستيقظ مبكراً ، ويذهب ف كل يوم تقريبا إلى مكتبه ، كما يفعل الأمريكي صاحب الملابن . وكان حين يعود إلى منزله يشذب أشجار حديقته ، ويعني بكرومه . وكان بسيطًا في ثيايه ، معتدلًا في طعامه وشرايه : وعاش (بعد أن ولد له ابن غير شرعى من أمة) عيشة هادئة عائلية منتظمة . وكان الذبن يسمح لهم بالدخول إلى بيته يدهشون من الفرق الكبير بين طعامه البسيط على مائدته الحاصة والمآدب الفخمة الني يقيمها للكتراء الأجانب استجلابا لصداقتهم ورغبة فى توطيد السلم بينه وبينهم . وكان فى الأحوال العادية رحما ، حلما ، غفورا للذنب ، قليل الكلام وإن اشهر بنكاته اللاذعة ، وكان جوادًا ،بالمال على الفقراء ، يؤدى ديون أصدقائه المعوزين ، ويخنى صدقاته فيمنحها دون أن يعرف مانحها ، كما كان يستخدم سلطانه دون أن يعرف النَّاس أنه يستخدمه . ولقد أجاد بتيتشلي Botticelli ، ويلتورمو Pontormo ، ويندسو أأجتسولي Benozzo Gsozzali تصويره لنا فعرفنا أأنه متوسط طول القامة ، زيتوني لون الوجه ، ذا شعر أشمط مرتد عن مقدم رأسه ، وأنف حاد طويل ، ووجه وقور يَم عن الرأفة والحنان .. وينطق بالحكمة والقوة الهادئة .

وكانت سياسته الحارجية كلها تهدف إلى تنظيم السلم ، ذلك أنه وقد استحوذ على السلطة بعد أن خاض في سبيلها ماسلة من المعارك المخربة عرف أن الحرب ، أو خطر قيام الحرب ، تعوق سير التجارة . ومن أعماله. ف هذه السبيل أنه لمسا انهار حكم الڤيكونتي في ميلان وسادتها الفوضي بعد موت فلهوماريا Filippo Maria وهددت البندقية بالاستيلاء على الدوقية والسيطرة على شهالي إيطاليا بأجمعه حتى أبواب فلورنس نفسها ، يعث كوزيمو فرانتشكو سفوردسا Francesco Sforza يما يلزمه من المال لتوطيد سلطته في ميلان ووقف تقدم البنادقة . ولما أن تحالفت البندقية ونايل على فلورنس ، طالب كوزيمو بكثير من القروض التي كانت له عند أهل المدينتين ، فاضطرت حكومتاهما إلى عقد الصلح (٢٠) . ووقفت ميلان وفلورنس من ذلك الوقت ضد البندقية ونايلي ، وأصبحت القوتان بعدثذ متوازنتين توازنا لمتجرؤ معه إحداهما بأن تخاطر بالتورط في حرب لا تعلم عاقبتها . وكانت هذه السياسة _ سياسة توازن القوى _ التي ابتكرها كوزيمو وسار علمها لورند سو وهي التي أفاءت على إيطاليا عشرات السنين من السلم والنظام امتلت من ١٤٥٠ إلى ١٤٩٢ ، أثرت في خلالها مدائلها إثراء أمكنها من أن تمد بالمال بداية عصر الهضة .

وكان من حمن حفظ إبطاليا والإنسانية جماء أن كوزيمو كان يمنى بالثروة والملطان. ولقد بالأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والفن بقدر ما يعنى بالثروة والملطان. ولقد كان هو نفسه ذا تربية عالية وذوق راق ، وكان يتفن اللغة اللاتينية ، ويعرف قليلا من اليونانية والعبرية ، والعربية : وقد أوتى من سعة الأفق ما جمله يقدر تقوى الراهب أنهلكو وتصويره ، وخسة فلهولي الجذابة ما جمله يقدر تقوى الراهب أنهلكو وتصويره ، وخسة فلهولي الجذابة الممتمة ، والطراز القدم لتقوش جبرتى Oheberti البازة ، والايتكار

الحرىء الذي عمد إليه دو ناتلو Donatello في نحنه ، والكنائس الفخمة التي خططها برونيلسكو Brunellesco ، والقوة غير الجامحة التي تشاهد في أ عمائر متشيلتسو Michelozzo والأفلاطونية الوثنية التي تتصف مها أعمال حستوس بيثو Gemitus P.etho ، والأفلاطونية النم ينطبع بها تفكير پيكو Pico وفيتشينو Ficino ، ورقة ألبرتى ، وفظاعة بجير Poggio للمتعمدة ، وإسراف نيقولو ده نيقولى فى تعظم الكتاب المقدس ؛ وكان هولاء جميعاً ينالون رفده . وقد اســـتدعى جوانس أرچىروبولوس Joannes Argyroboulos إلى فلورنس ليعلم شبامها لغنى اليونان ورومة وآدامهما ، وظل اثنتي عشرة سنة يدرس مع فيتشينو آداب بلاد اليونان ورومة . وانفق قدراً كبراً من ماله في جمع النصوص الأدبية القديمة حتى كان أثمن ما تحمله سفائته في كثير من الأحيان المخطوطات التي تأتى مها من بلاد اليونان أو الإسكندرية . ولما أن أفلس نيقولو ده نقولى لكثرة ما أنفقه في ابتياع المخطوطات القديمة ، فتح له كوزيمو اعبَّادا لا حد له في مصرف آل میدیتشی ، ومده بالعون حتی مماته . وکان یستخدم خمسة وأربعين نساخا يشرف عليهم الكتبي المتحمس فسبازيا نو دا بستشي Vespasiaeo da Bisticci لكي ينسخوا له ما لا بستطيع شراءه من المخطوطات . وكان يضع كل هذه ١ القطرات الثمينة ، في حجرات بدير القديس ماركو ، أو بدير فيسولي Fiesole أو في مكتبته هو . ولمــــا توفي نيقولي (١٤٣٧) وترك وراءه ثمانمائة مخطوط تقدر تيمتها بستة آلاف فلورين (١٥٠٠ ٠٠٠ دولار) وكان مثقلا بالديون ، واختار ستة عشر وصيا يعهد إلىهم التصرف في كتبه ، عرض كوزيمو أن يتحمل هو الديون كلها إذا ما سمح له أن يعن الأمكنة التي توضع فيها هذه المجلدات. فلما اتفق على هذا قسم كوزيمو مجموعة الكتب بين مكتبة دير القديس ماركو ومكتبته . وكانت هذه الحجموعات كلها في متناول المدرسين والطلاب من

غير أجر ; وفى ذلك يقول ڤاركى Varchi المؤرخ الفلورنسى مع المخالاة التى تدفعه إليها وطنيته :

إذا كانت الآداب اليونانية لم يجر علمها النسيان التام ذيله فتصاب الإنسانية من جراء هسلما النسيان بخسارة فادحة ، وإذا كانت الآداب اللانينية قد بعثت بعثا جديداً فجى الناس من وراء ذلك فوائد لا حد لها ولا تقدر قيمتها ، فإن إيطاليا كلها ، بل والعالم بأجمعه ، مدينان بذلك إلى حكمة آل ميدينشي ، وعطفهم ، وحهم ، لا لأحد سواهم(٢٧).

وما من شك في أن عملية البعث العظيمة كانت بدايتها أهمال المرجمين العظاء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وأعمال الشراح العرب ، وكتابات بترارك وبوكاتشيو ؛ ثم واصل هسلما العمل العلاء وجامعو المخطوطات أمثال سالوتارى Salutari ، وبرونى Bruni ، وفلا Valia كا وكرايو . كذلك واصل هذه الأعمال نقولى وبجيو ، وفيليلغو Filelio ، وألفنسو الأفخيم ملك تابلي ، ومائة غيرهم من معاصرى كوزيمو ، بل واصلها أيضاً منافسه بلا استرتسى في منفاه وواصلوها كامهم مستقلن عن كوزيمو . ولكننا إذا لم نقصر حكمنا في كرزيمو أفي المهلا بل مددناه حتى شمل أبناءه لورندسو الأفخيم ، ولي العاشر ، وكلمنت السابع لم يسعنا إلا أن نعترف بأن الم ميديتشي لم ولي العاشر ع، أن الم ميديتشي لم ولي العاشرة المعروف بأجمه .

الفيلارابع

الإنسانيون

لقد كان حكم آل مديشي أو كان زمانهم هو العهد الذي استعوذ فيه الإنسانيون على عقل إيطاليا واستأثروا به ، وحولوه من الدين إلى القلسفة ، ومن السهاء إلى الأرض ، وكشفوا فيه قلجل المندهش المنشعل عن ثراء الفكر الوثني والقن الوثني ؛ ولقد أطلق على هوالاء الناس الذين جنوا بالعلم جنوناً منذ أيام أريستو CYYArioslo البعيدة اسم الإنسانيات umanisti أو الوتراب الوكر إنسانية كانوا يسمون درامة الثقافة القديمة الونسانيات للمساقية والمشاقية بالبشر في أيامهم هي الإنسان نفسه بكل ما يكمن في جسمه من قوة وجمال ، وما في حواسه ومشاعره من يكل ما يكمن في جسمه من قوة وجمال ، وما في حواسه ومشاعره من أما تظهر موقورة كاملة إلى أبعد حد في آداب اليونان والرومان وقنونهم القديمة . هذه هي الإنسانيات .

لقد كانت الكتب اللاتينية كلها تقريباً ، وكثير من الكتب اليونانية الموجودة عندنا في هذه الآيام ، معروفة عند علماء العصور الوسطى المنتشرين في بقاع عندلقة من أوربا ، وكان أهل القرن الثالث عشر يعرفون أكابر الفلاسفة الوثنين . ولكن ذلك القرن قد غفل أوكاد عن الشعر اليوناني ، وكانت طائفة كبيرة من الكتب القديمة القيمة التي نجلها الآن مهملة في مكتبات الأديرة أو الكنائس الكبرى . وكانت هذه الأركان المنسبة أكثر الأماكن طلقي عثر فيها يتراوك ومن جاموا بعده على الكتب القديمة ه المقدودة ، ، وارتاع يسمها ه السجينة الظريفة الأسيرة في أيدى السجانين الهمج ، . وارتاع

بوكاتشيو حنن زار مونتي كسينو Monte Cossina ووجد المخطوطات النمينة تبلى فى التراب . أو تقطع لتكتب علمها المزامير أو تتخذ تمائم . ولما زار بجيو Poggio دير القديس جول St. Qall في سويسرا وجد كتاب الوَظمر: لكونتايان Quntilian في جب قلر مظلم ، وأحس وهو يستنقذ هذا الملف كأن المعلم القديم يمد يديه متوسلا إليه أن ينقذه من ١ المرابرة ١ ؛ فقد كان هذا هو الاسم الذي يطلقه الإيطالـون المعنزون بثقافتهم على الفاتحين الغلاظ المقيمين وراء جبال الألب ، كما كان يطلقه علمهم اليونان والرومان من قبل . وكان يجيو وحده هو الذي أخرج من هذه القبور نصوص لكريشيوس ، وكولو ملا Columella ، وفر تثينوس Frontinus ، وقتر وڤيوس Vritruviue، وڤلىريوس فلاكرس Valerius Flaccus ، وترتليان ، ويلوتوس ، ويترونيوس وأميانس مرسلينس ، وعدد غبر قليل من خطب شيشرون الكبرى . واستخرج كولوتشيو سليوتاتى Colucto Salutati في ڤرتشيلي Vercelli كثيراً من رسائل شيشرون إلى أسرته (١٣٨٩) . وعثر جولدو لندرياني Oheraldo Landriazi على رسائل شيشرون في علم البيان موضوعة في صندوق قديم في لدفي Lodfi (١٤٢٢) ، وأنقذ أسروجيو تراڤرساري Ambrogio Traversari كرنليوس نيپوس من النسيان في يدوا (١٤٣٤) ، وكشفت كتب ثاستس Taecitus وهي Germania ، Agricola ، و Dialogi (الزارع والألمانية ، والحوار) في ألمانيا (١٤٥٥) ، واستردت الكتب الستة الأولى من حوليات تاستس ومخطوط كامل من رسائل پلني الأصغر من دير كورڤي Corvey (١٥٠٨) وأضحت من أكثر ممتلكات لبو العاشر قيمة .

وكان أكثر من عشرة من الإنسانيين يدرسون أو يطوفون ببلاد البونان فى نصف القرن السابق على فتح الأنراك للقسطنطينية ، وأعاد واحد مهم هو جيوفني أورسها Giovanni Aurlspa إلى إيطاليا ۲۳۸ مخطوطا تشمل فيا تشمله مسرحيات إيسكلس Aeschytus من القسطنطينية (جهل آخو يدى فرانتشسكو فيليلفو Francesco Filelio من القسطنطينية (١٤٢٧) نصوص هيرودوت ، وتوكيديدس ، وپولييوس ، ودمستين ، وايسكنيس نصوص هيرودوت ، وتوكيديدس ، وپولييوس ، ودمستين ، ولما عاد هوالاء الرواد وأسئالهم إلى إيطاليا بما كشفوه من الذخائر ، كانوا يقابلون كما يقابل قواد الحرب المنتصرون ، وكان الأهراء ورجال الدين يؤدون أغلى الأثمان البعض هذا الليء . وأدى سقوط القسطنطينية إلى ضياع كثير من الكتب المندية التي أثبت الكتاب البيزنطيون وجودها في مكتبات تلك المدينة ، غير أن آلانا أمرافة منها قد أنقلت ، وجيء بمعظمها إلى إيطاليا ، ولا تزال غير أن آلان أمرافة منها قد أنقلت ، وجيء بمعظمها إلى إيطاليا ، ولا تزال قرون من أيام پترارك إلى تاسو Taso يجمعون المخطوطات بجاسة وحب كرب الآياء للأيناء ، وقد انفن نيقولو دى نقولى أكثر من ثروته في هذا الممل ؛ وكان أندريولو دى أوكيس Andreolo de Ochis على يضيف شيئاً إلى مكتبه ، وكان نجمودة من المكال ينفن على غير الكتب .

وأعقبت ذلك ثورة فى نشر الكتب ، فقد شرع الناس يدرسون هذه النصرص المكتففة ، ويفاضلون بينها ، ويصححونها ، ويشرحونها ، وقانت من أجل ذلك حملة امتلت من أورندسو ثلا Lorenzo Valla فى نلدن ، وإذ كانت هذه نابل إلى سيرتومس مور Sir Thomas More فى نلدن ، وإذ كانت هذه الجمود تنطلب فى كثير من الأحيان علماً باللغة اليونانية ، فقد أرسلت إيطاليا كانة اليونانية ، وتعلم أورسها ، وإنجائرا ، وألمانها تستدعى مدرسين للغة اليونانية ، وتعلم أورسها ، وفيليافو تلك اللغة فى بلاد اليونان نفسها ، وفا جاء مانيول كريسلوراس Manuel Chrysoloas إلى إيطاليا (١٣٩٧) مبعوناً إليها من بيزنطية ، وأفعته جامعة ظورنس بالانضام إلى أساندتها

ليكون أستاذاً للغة اليونانية وآدامها ؛ وكان من بين تلاميده في هذه الجامعة. وبدأ يجيو ، وبلا استروتسي ، ومرسوبيني Marsupini ومانتي Manetti . وبدأ ليوناردو بروني Leonardo Bruni بلدراسة القانون ولكنه تركه بتأثير كريسلوراس وشرع يدرس اللغة اليونانية ؛ وبحدثنا هو عن ذلك فيقول : و وألقيت بنفسي في تبار تدريسه بحاسة بلغ منها أن استلأت أحلامي بالليل بما كنت أتلقاه منه بالنهار ١٣٦٠ . ترى هل يتصور أحد في هذه الأيام أن النحو اليوناني كان في وقت ما يستحوذ على الألباب استحواذ قصص المغامرات والروايات الغراهية في هذه الأيام ؟

والتتي اليونان والإيطاليون عام ١٤٣٩ في مجلس فلورنس ، وكانت الدروس التي يبادلونها معاً في اللغة أبلغ أثراً من نقاشهم المجهد في شئون. الدين . وهناك ألتي حستس بليثو Gemistus Pletho محاضراته الذائعة. الصيت التي كانت ختام سيادة أرسطو على الفلسفة الأوربية وجلوس أفلاطون على عرش هذه الفلسفة جلوس الآلهة . ولما انفض اجتماع المجلس. بتي في إيطاليا يؤانس بساريون Joannes Bessarion وكان قد جاء إلها. بوصفه أسقف نيقية ؛ وقضى جزءاً من وقته يعلم اللغة اليوثانية . والمتدت. حي الدرس إلى غير فلورنس من المدن ، فجاء مها بساريون إلى رومة ؛ وعلم ثيودورس جازا Theodorus Gaza اللغة اليونانية في پروجيا (١٤٥٠) ، وپدوا ، وفلورنس ، وميلان (١٤٩٢ ـــ ١٥١١ أونحو ذلك الوقت) ويؤائش أرجروپولس فی پلوا (۱۶۶۱) وفلورنس (۱۶۵۳ ـــ ۱۶۷۱) ، ورومه (١٤٧١ – ١٤٨٦) ؛ وقد جاء هوالاء كلهم إلى إيطاليا قبل سقوط القسطنطينية. (١٤٥٣) ؛ ولهذا فإن هذه الحادثة لم يكن لها إلا شأن قليل في انتقال اللغة اليونانية من بنزنطية إلى إيطاليا . غير أن استيلاء الأتراك على الأراضي المحيطة بالقسطنطينية شيئاً فشيئاً بعد عام ١٣٥٦ كان من العوامل التي حملت العلماء اليونان على الانتقال نحو الغرب . وكان من الذين فروا من العاصمة الشرقية عند مقوطها قسطنطين لسكارس Constantine Lascaris ، وقد. جاء ليعلم اللغة اليونانية في ميلان (١٤٦٠ ــ ١٤٦٥) ، ونابلي ، ومسينا (١٤٦٦ - ١٥٠١) ، وكان كتابه في النحو أول كتاب يوناني طبع في إيطاليا في عهد النهضة .

ولم يمض إلا وقت قليل على وجود هؤلاء العلماء جميعاً ، وتلاميذهم ، ونشاطهم الحاسي في إيطاليا ، حتى ترجمت كتب الأدب اليوناني والفلسفة اليونانية إلى اللغة اللاتينية ترجمة أكمل ، وأدق ، وأبلغ ممسا ترجم منها في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وترجم جوارينو Quarino أجراء من كتب استر ابون وأفلوطرخس ؛ وترجم ترافرسارى ديوچين ليرنيوس ؛ وترجم ڤلا هيرودوت وتوكيديلس ، والإلياذة ؛ وترجم پيرٽي Peroti پولبيوس ؛ وترجم فيتشينو أفلاطون وأفلوطين ؛ وكان أفلاطون بنوع خاص أعظم من أدهش الإنسانيين وأمتعهم . ذلك أنهم كانوا يبهجون بجمال أسلوبه وسلاسته ، ويجدون في الحاورات مسرحية أكثر وضــوحاً وحيوية ومواممة لروح العصر اأذى يعيشون فيه مما يجدونه في جميع مسرحيات إيسكلس ، أو سفكلمز أو يورپديز . وكانوا يحسدون اليونان في عصر سفكليز على ما كان لهم من حرية واسعة فى مناقشة أهم مشاكل الدين والسياسة وأكثرها دقة ، ويدهشون من هذه الحرية ؛ وكانوا يظنون أنهم واجدون فى آراء أفلاطون ــ التى جعلها صاحبها معاة غامضة ــ فلسفة صوفية خفية تمكنهم من الاحتفاظ بمسيحية لم يعودوا يؤمنون بها ، واكنهم لم ينقطعوا عن حمها . وتأثر كوزيمو ببلاغة حستس بليثو Oemistus Pletho وتحمس تلاميذه في فلورنس فأنشأ في المدينة مجمعاً علمياً أفلاطونياً (١٤٤٥). للدراسة أفلاطون ، وأمد مرسيليو فيتشينو Marsilio Ficino بالكثير من المال الذي أمكنه من أن يخصص نصف حياته لترجمة موالفات أفلاطون. وشرحها . ومن ذلك الحن فقدت الفلسفة المدرسية (الكلامية) سيطرتها

فى الغرب بعد أن دامت لها هذه السيطرة أربعائة عام ؛ وحل الحوار والقالة محل المجرل الممرسى فأصبحا هما الصورة التي اتخذها العرض الفلسي ؛ ودخلت روح أفلاطون المطربة المهجة فى جسم التفكير الأورف الناشئ دخول الحمرة المنعشة فى العجنن .

لكن هذه الصورة قد أعقبها شيء من رد الفعل . ذلك أنه كلما زاد ما كشفته إيطاليا من ترائبا الأدى القديم غلب على إعجاب الإنسانيين بيلاد اليونان فخرهم بأدب رومة القديمة وفها ، ولهذا أحبوا اللغة اللاتينية واتخذوها أداة لأدب حي ، فجعلوا أسماءهم لاتينية ، وجعلوا مصطلحات عباداتهم وحياتهم المسيحيتين رومانية : فصار اسم الله يوپتر luppiter ، واسم العناية الإلهية فاتوم Fatum ، والقديسن ديني Divi ، والراهبات vestales والبابا ينتفكس مكسيموس (الحبر الأعظم Pontifex maximus)؟ وصاغوا أسلوب نثرهم على غرار أساوب شيشرون ، وشعرهم على غرار شعر ڤرچيل وهوراس ، وبلغ بعضهم مثل فيليانهو ، وڤلا ، وپوليتيان بأسلوبهم درجة من الرشاقة تكاد تعادل رشاقة الأقلمين . وهكذا أخلت النهضة تعود أدراجها من اللغة اليونانية إلى اللغة اللاتينية ، ومن أثينة إلى رومة ؛ وبدا كأن خسة عشر قرنا من الزمان قد أخذت تطوى طيا ، وكأن عصر شيشرون ، وهوراس ، وأوڤد ، وسنكا ، قد ولد من جديد . وأصبح الأسلوب وقتئذ أعظم شأنا من المعنى ، وغلبت الصورة على المادة ، وترددت أصداء خطب العصر الماضي المجيد مرة أخرى في أمهاء الأمراء والمعلمين . ولعله كان من الحير لو أن الإنسانيين استخدموا اللغة الإيطالية بدل اللاتينية ، ولكنهم كانوا يحتقرون لغة المسالى والمغانى ويرونها لاتينية فاسدة منحطة ﴿ وَفِي الحَقِّ أَمَّا تَكَادَ تَكُونَ كَذَلَكَ ﴾ ، ويأسفون لأن دانتي آثر اللغة الدارجة . وقد جوزى الإنسانيون على فعلمهم هذه بأن فقدوا اتصالم بمصادر الأدب الحية ؛ وترك الشعب موالفات الإنسانين إلى الأشراف وآثر عليها القصص المرحة التي كان يكتبها له ساكتي Sacchetti ، وبنديلو Bandello ، أو الروايات الغرابية التي تمزج المحرب بالحب والتي كانت تترجم أو تقتيس باللغة الإيطالية من القرنسة . يبد أن هذا الافتتان العابر بلغة ميتة وأدب وخالاه قد أعان الموافقين الإيطاليين على أن يستردوا ماكان لهم من شغف بفنون العارة ، والنحت الايطاليين على أن يستردوا ماكان لهم من شغف بفنون العارة ، والنحت اللقة لقومية إلى صورتها الأدبية ووضعت للفن هدفا ومستوى . وإذا انقلنا إلى إلى الناريخ وجدنا أن الإنسانيين هم الملين أبوا عهد الإخباريين السلم والمليئة بالفوضي ، وأحلوا على طريقهم تمحيص المصادر والتوفيق السلم والمليئة بالفوضي ، وأحلوا على طريقهم تمحيص المصادر والتوفيق بينها ، وحرض مادتها عرضا منتظا واضحا ، وبعث الحيوية والإنسانية في الماضي بمزج السبر بالتاريخ ، والارتفاع بقصهم إلى مستوى فلسي يتموس علل الحوادث ، وتباراتها ، ونتاتجهها ، ودراسة ما في دروس المتاريخ من انتظام واتساق ،

وانتشرت الحركة الإنسانية في جميع أنحاء إيطاليا ، ولكن زعماهما تكليم تقريباً من مواطني فلورنس أو خريجها للى أن جلس رجل من آل ميديتشي على كرمي البابوية . وكان كولوتشيو سلوتاى Coluccio ميديتشي على كرمي البابوية . وكان كولوتشيو سلوتاى Salutari الانصال بين بتراوك ويوكاتشيو من جهة وكوزيمو من جهة أخرى ، وكان يعرف ثلاثتهم ويحهم جميعاً . وكانت الوثائق العامة التي كتمها عادج عالية من اللغة اللاتينية القصحي ، وكانت هي المثل الذي حاول الموظفون الممموميون في البندقية ، وميلان ، ونابلى ، ورومة أن يحنلووه ؛ وقال جياكيليسو Giangaleaxzo أمير ميلان إن سالوتاري قد أضر أسلوبه الممتاز أكثر عما يستطيع أن يضره جيش من الجنود المرتزقين (٢٤٠) . وكان اشتهاره بجمع المحلوطات ؛ وكان

بروق يسميد درقيب اللسان اللاتيني و وكان يفعل ما يفعله غيره من المؤلفين فيعرض ما يكتبه على نقولى ليصححه قبل أن ينشره. وكان نقولى ليصححه قبل أن ينشره . وكان نقولى يملأ بيته بالقديم من كتب الأدب ، والنمائيل ، والنموش ، وللزهريات، وقطع النقلب ، والجواهر ، وقد امتنع عن الزواج خشبة أن يلهبه زواجه عن كتبه ، ولكنه وجد لديه متسعاً من الوقت يقضيه مع حظية سرقها من فراش أخيه (٣٠) . وقد فتح أبواب مكتبته لكل معنى بالدراسة فها ، وحث شبان فلورتس على أن بهجروا الرف ويستبدلوا به الأدب . وأبصر مرة شابا ثرياً يقضي يومه بلا عمل فسأله : وما هي غايتك في الحياة ؟ ، مأجبه في صراحة : و غايبي أن أستمتع بوقي ، ، فسأله نيقولى مرة أخرى : « فإذا انقضي عهد شابك فاذا يكون شأنك ؟ و٣٠٧ وأدرك الشاب ما ينطوى عليه هذا القول من معنى ، ووضع نفسه من ذلك الوقت عمد سلطات نيقولى وإرشاده .

وترجم ليونادو برونى ، الذي كان أميناً لأربعة بابوات ثم صار فها بن عامى ١٤٢٧ و ١٤٤٤ أميناً لمجلس السيادة فى فاونس ، طائفة من عاورات أفلاطون إلى لغة لاتينة بمنازة كشفت لإطالبا لأول مرة عن روحة أسلوب أفلاطون ، وألف ليونادو باللغة الدتينية تاريحاً لمدينة فاونس كان سبباً فى أن أعفته الجمهورية هو وأبناءه من الفهراث ، وكانوا بوازنون بين خطبه وخطب پركليز ، ولما توفى أقام له كبار المدينة جنازة عامة ثما كان يقام للأفلمن ، ودفن فى كنيسة سانتا كروتشى (الصليب المقلمين كان يقام للأفلمن ، ودفن فى كنيسة سانتا كروتشى (الصليب المقلمين روسلينو قدراً عظيا فخا يستريح فيه .

وولد كارلو مارسيني Corio Marsuppini في أرتسو كما ولد فيها برونى وخلفه في أمانة مجلس السيادة ، وقد روع أهل زمانه بأن كان يحفظ نصف الآداب اليونانية والرومانية عن ظهر قلب . ولم يكد يترك موافقاً قديماً لم يقتبس من أقواله في خطابه الأول حين عبن أستاذاً للآدب في جامعة فلورنس. وقد بلغ من إعجابه بالوثنية القديمة أن كان يشعر بأن من واجبه أن ينبذ الدين المسيحي (۲۷٪ ؛ ولكنه رخم هذا كان وقتاً ما أميناً رسولياً للكرمي البابوى في رومة ؛ وقد دفن هو أيضاً في كنيسة ساننا كرتشي ورئاه جيانتسو مانتي Giannozzo Manetti بمرثية رائعة ، واختط له هزديريو دا ستيانو Giannozzo Manetti عبر المناقب مرثية رائعة ، واختط له وان قبل إنه مات دون أن يسي بتلتي القربان المقدس (۲۵٪). وكان مانتي الذي رفي هذا الملحد رجلا لا تقل قواه عن طلمه ، وقد ظل تسع سنين لا يكاد يغادر في أثنائها بيته وحديقته ، مكباً على دراسة الآداب القديمة ، لا يكاد يغادر في أثنائها بيته وحديقته ، مكباً على دراسة الآداب القديمة ، وتما اللغة العمرية واللغين اليونانية واللاتينية . ولما عن سفراً لدى رومة ، وكليا صداقة أهالها لحكومة بفضل فقافته ، وسخائه ، وكسب في هذه المدن

وكان هولاء الرجال على بكرة أبهم ما عدا سالرنارى من أعضاء الندوة التي تجتمع في بيت كوزيمو بالمدينة أو في بيته الربق ، وكانوا يترعمون الحركة العلمية أثناء سلطانه . وكان لكوزيمو صديق آخر لا يكاد يقل عنه مسخاء على العلم والعلماء ، ذلك هو أسروجيو ترافرسسارى Camaldulit كان يعيش في صومعة في دير سانتا ماريا دجلي أنجيلي القريب من فلورنس . كان يعيش في صومعة في دير سانتا ماريا دجلي أنجيلي القريب من فلورنس . القديمة ؛ وكان يأي أن يقتبس شيئاً منها في كتاباته ، ولكنه كشف هن أثرها فيه بأسلوبه اللاتيني الذي كانت عباراته الإصلاحية التقية بما يرتاع له الجريجوريون المشهورون جميعاً لو أنهم أطلعوا عليها . ولكنه كوزيمو ، الذي يعرف كيف يوفق بن الآداب القديمية وأساليب المالية العليا من جهة أطعولى ، وغيرهم يتخلون صومعته نلوة أدبية لهم , واللدين المسيحى من جهة أخرى ، ويحب أن يزور ترافرسارى ؛ كما كان

وكان أعظم الكتاب الإنسانيين نشاطأ وأكترهم سببآ للمثاعب هو يجيو براتشيوليي Poggie Braccielini . وقد ولد الأبوين فقرين بالقرب من أرتسو (١٣٨٠ / ، وتاثي تعليمه في فلورنس ، ودرس اللغة اليونانية على مانيول كريسلوراس Manuel Chrysoloras ، وكان يكسب عيشه ينسخ المخطوطات ، وصادقه سالوناري وعطف عليه ، وعن في الرابعة والعشرين من عمره كاتباً في المحكمة البابوية في رومة ؛ وقضى السنين الحمسين التالية يعمل في البلاط البابوي ، ولم ينل في خلال هذه المدة كلها شيئاً من الرتب الدينية حتى أصغرها ، ولكنه كان يرتدى النياب الكهنوتية . وقدر له القائمون على البلاط نشاطه فأرسلوه في أكثر من عشر بعثات ؛ وكثيرًا ما كان يحيد عن عمله فيها ليبحث غن المحطوطات القديمة ، وقد يسر له منصبه في الأمانة البابوية الوصول إلى الكنوز المخبوءة في المكتبات التي كان يحرص علها أشد الحرص أو كانت تهمل أشد الإهمال في أديرة القديس جول St. Oalls ولانجر Langers ، وڤينجارتن Weingarten وريتشنو وقد بلغت غنائمه من هذه المكتبة حداً من الثراء جعل بروبي وغيره من الكتاب الإنسانيين يحيونه أعظم تحية وبرون أن أعماله كانت من المعالم اللباوزة فى تاريخ ذلك العصر . ولما عاد يجيو إلى رومة كتب لمارتن الحامس Martin V دفاعاً عبيداً عن عقائد الكنيسة ، مع أنه كان في المجتمعات الخاصة بسخر مع غيره من موظني البلاط البابوي من العقائد المسيحية(٢٩) . وقد كتب عدة محاورات ورسائل بلغة لاتينية غىر مصقولة ولكنها منعشة مطربة ، يندد فيها برذائل رجال الدين ، بينا كان هو يرتكب تلك الرذائل اللي أقصى حد تمكنه منه موارده . ولما أن عاب عليه الكردنال سانتا أنجيلو وجود أبناء له ، وهو ما لا يليق برجل يرتدى الثباب الكهنوتية ، وأن له هشيقة ، وهو أمر لا يليق حتى برجل من غير رجال الدين ، رد يجيو على خلاك بقحته المعهودة : ٥ إن لى أبناء وذلك أمر يليق بغير رجال الدين ، وإن لى عشيقة وتلك إحدى عادات رجال الدين القديمة(٣٠) . ولمسا بلغ الحامسة والحمسين من عمره هجر عشيقته التي ولدت له أربعة عشر طفلا ، وتزوج بفتاة في سن الرابعة عشرة . وكاد في هذه الأثناء أن يكون هُو مؤسس علم الآثار الحديث، لأنه جد في جمع القديم من النقود، والنقوش، والتماثيل ، وعنى بوصف ما كان باقياً من الآثار الرومانية القديمة بدقة العلماء المبرزين . وقد صحب البابا أوچنيوس الرابع Eugenius V بجلس فلورنس وتنازع مع فرانتشسكو فيللفو ، وتبادل معه السباب بأقبح الألفاظ ، ولم يتوزع عن أن يُتهمه بالسرقة ، والكفر بالله ، واللواط . ولقد سره كل السرور وهو في رومة أن يعمل لنقولا الخامس البابا الإنساني ﴿ وَكَتْبُ وَهُو فى سن السبعين كتاب الفلاهات الذائع للصيت ، وهو مجموعة من القصص ، والهجاء ، والبذاءات . ولمسا انضم لورندسو ڤلا لملى هيئة الأمناء البابوية هاجمه يجبو بسلسلة جديدة من المطاعي اتهمه فها باللصوصية والتزوير ، والحيانة ، والإلحاد ، والسكر ، وفساد الأخلاق . ورد ڤلا على هذا بأن سخر من لغة بجيو اللاتينية ، وذكر أخطاءه في النحو والتراكيب ، وقال إنه لا يعني به لأنه أبله سهلني ذهبت سنه بعقله(٢١) . ولم يعبأ أحد سهذا الآمهام الأدبى غير الضحية التي وجه إليها ، ذلك أن هذه المطاعن كانت مباريات في الكتابة اللاتينية ؛ ولقد أعلن يجيو فعلا في إحدى هذه المقالات أنه سوف يثبت أن في مقدور اللغة اللاتينية الفصحي أنه تعمر عن أحدث الآراء وأخص الشئون ؛ وقد برع فى فن اختيار الألفاظ ُ البذينة "براعة جعلت : العالم كله يخشاه ۽ على حد قول ڤسپازيانو^(٣٢) . وقد كان قلمه ، كما كان قلم أرتيني Aretine من بعده ، أداة لابتزاز أموال الناس . من ذلك أنه لما توانى ألفنسو ملك ناپلي عن الكتابة إلى يجيو معترفاً بوصول الترجمة اللاتينية لكتاب فيروسيريا تأليف أكسانوفون Xanophon كتب الإنساق الحانق يقول : إن في مقدور القلم الطيب أن يطعن أي ملك من الملوك ؛ فما كان من ألفنسو إلا أن بادر بإرسال ٥٠٠ دوقة ليقطع بها لسانه . وألف يحيو بعد أن استمتم بكل شهوة وغريزة رسالة فى شقاء أهوالى البشر قال فيها إن شرور الحياة ترجع مباهيجها ، واختيتمها بقول صولون Solon إن أسعد النساس حظاً من لا يولدون (٢٦٠٠) . وعاد إلى فلورنس حين بلغ الثانية والسيعين من عره وعين أمينا للحاكم العام ، ثم اختير فى آخر الأمر حاكماً للمدينة . وقد عبر عن تقديره لهذا الاختيار بكتابة تاريخ لفلورنس على طريقة الأقدمين حجم فيه بين أشيار السياسة والحرب والحطب الخيالية ، ولما أن واقته المنية أخيراً وهو فى سن التاسعة والسبعين تنفس غيره من الإنسانيين الصعداء (١٩٥٩) . ودفن هو أيضاً فى كتيسة الصليب لمقدس عالم وحدث فى أثناء الارتباك الناشئ من بعض العنيرات أن وضع ذلك المثال وحدث فى أثناء الارتباك الناشئ من بعض العنيرات أن وضع ذلك المثال فى داخل الكنيسة ؛

ولا جدال في أن المسيحية قد فقلت قبل ذلك الوقت من الداحيتين الإيطاليين الإيطاليين الإيطاليين الإيطاليين وبما كانت هي الكثرة الفالية مهم . نعم إن طائفة مهم أمثال ترافراسارى ، وبروفي ، وماتي في فلورنس ، وقتورينو دا فلترى Guarino da Verona في فرارا ، وجوارينو دا فرونا Guarino da Verona في فرارا ، وملاثيو بيوندو Biondo أق فروا أقل وما قد بقوا أوفياء مخلصين لديمم ؛ إلا أن الشافة اليونانية التي تكشفت للكثيرين غيرهم والتي دامت ألف عام كالمة ، وبلغت اللمووة العليا في الأدب ، والفلسفة ، والتي مستقلة تمام الاستقلال عن المودية والمسيحية ، نقول إلا أن هذه النقافة كانت ضربة قاضية على إعمام بالعقيدة المدينية التي علمها القديس بولس ، وبالعقيدة القائلة أن هذه لا نجاة خارج الكنيسة » . وأصبح سقراط وأفلاطون في نظر هولاء فليسين من غير رجال الدين ؛ وبدت لهم أسرة الفلاسفة اليونان أعلى درجة

من آباء الكنيسة اليونان واللاتين ، كما أن نثر سقراط وشيشرون كان يبعث الحديد ومن اللغة اللاتبلية التي ترجمه بها چيروم . كذلك خيل إلى هؤلاء أن رومة الإمراطورية أعظم نبلا وكرامة من انزواء المسيحين المؤمنين في صوامع الأديرة ، كما أن الحرية التي اتسم بها تفكير اليونان في أيام بركلير والرومان في عهد أغسطس قد أفعمت عقول كشرين من الإنسانين بالحسد الذى حطم فى فلومهم العقائد المسيحية التى تحث عَلى التذلل ، والإيمان بالدار الآخرة ، والعفة ؛ وأخذوا يتساءلون عما يدعوهم إلى إخضاع أجسامهم ، وعقولم ، وأرواحهم إلى قواعد رجال الكنيسة الذين انقلبوا وقتئذ رجالا دنيويين ، وأخذوا هم أنفسهم يمرحون ويطربون . وكانت العشرة القرون التي انقضت بن قسطنطين او دائتي في نظر هوالاء الإنسانين ، غلطة يوسف لها أشـــد الأسف ، وخروجاً ، كالحروج الذي يصفه دانتي نفسه ، عن الصراط المستقيم . ولقد عفت من ذاكرة هؤلاء الكتاب ما كان في عقول من قبلهم من الأقاصيص المحببة عن العلمواء والقديسين ، لتفسح مكانها إلى . تحولات أوفد Ovid's Metamorphoses وأغانى هوراس الفاسقة الفاجرة بم وبدت الكنائس الكبرى وقتئذ دليلا على الهمجية ، وفقدت تماثيلها الهزيلة روعتها في الأعن التي رأت تمثال أيلو بلقدير Apollo Belvedere والأصابع التي لمسته .

وهكذا كان مسلك الكثرة الفالة من الإنسانيين مسلك من يرون أن السيحية أسطورة تنى بحاجات خيال العامة وأخلاقهم ، ولكنها يجب الا تأخفها العقول المتحررة مأخذ الحد ؛ ولهذا كانوا يؤيدونها فيا ينطقون به أمام الجهاهر ، ويقولون إنهم يستمسكون بأصول الدين التى تنجيهم من العذاب ، ويبذلون غاية جهدهم للتوفيق بين العقائد المسيحية والفلسفة من العذاب ، ويبذلون غاية جهدهم للتوفيق بين العقائد المسيحية والفلسفة . لكن هذه الجهود نفسها قد كشفت عما يضمرون ، فقد كانوا

يعترفون اعترافا صمنيا بأن العقل هو الحكم الأعلى في كل شيء ، وكانوا المعظمون عاورات أفلاطون بالقدر الذي يعظمون به العهد الحديد ، وسهدا عملوا ما عمله السوفسطائيون السابقون على عهد مقراط في بلاد اليونان فحطموا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة العقائد الدينية عند من كانه المستعون لهم ، سواء كان ذلك عن قصد أو غير قصد . وكانت حباتهم تمم عن عقيدتهم الحقيقية ، فقد كان الكثيرون يتخلقون بالأخلاق الوثئية في ناحيها الرواقية ، ولم يكونوا يومنون بالخاود إلا كان هو الحلود النادي الوثية أو كان هو الحلود النادي الوثية المستعين الأعمال العظيمة ، وهو الحلود الذي الاسبه الله بل مبه أقلامهم ، والذي يودي بالناس إما إلى المجد السرمدي أو العار اللهن والأدب ، وقد الشورة المعنوا بعد جيل من أيام كوزيمو أن يقتسموا هذه أو العار الصروح الفخمة التي تخلو أماء الأسخياء الواهبين . وكانث رغبة أو المهار في أن ينالوا هذا الخلود الدنيوي إحدى القوى الحلاقة فن النهفة وأفيها .

وظل تأثير الكتاب الإنسانيين القرة المسيطرة على الحياة المقلية في أوربة الغربية نحو مائة عام . فقد كانوا هم الذين قووا إدراك الكتاب لجال الشكل والتركيب ، وعلموهم أساليب البسلاغة ، وزخرف القول ، وما للأساطير القديمة من سمر وفتنة ، وما للاقتياس من الكتاب الاقتدمين من قوة ؛ وعلموهم التضحية بالمنى في سبيل سلامة العبارة وجمال الأسلوب . وكان افتتاجم باللغة اللاتينية هو الذي عاق تطور الشعر والنثر الإيطاليين مدى قرن كامل (١٤٠٠ – ١٩٠٠) ؛ وهم الذين حرروا العلم من سلطان الذين ، ولكنهم أخروا تقدمه بعبادتهم الماضى ، وباهها مهم الشديد بالكم في العام بدل الملاحظة الموضوعية والتفكير الابتكارى . وهن أغرب الأشياء أن أقل ما لهولاء الكتاب من نفوذ هو الذي كان في الجامات ؛

وسبب ذلك أن هذه الجامعات كانت في أيامهم قد تقادم عهدها في إيطاليا ، وأن كليات الحقوق ، والطب ، والدين ، ﴿ والفنون ۚ ﴿ أَنَّ اللَّهُ ، والأدب ، والبيان والفلسفة ــ القائمة في بولونيا ، ويدوا ، وينزا ، پیاتتشندسا ، وپاثیا ، وناپلی ، وسینا ، وأرتسو ، ولوكا ، نفول كاتت. الكليات القائمة في هذه المدن قد استحوذت علما عادات العصور الوسطى استحواذا يرد عنها كل توكيد جديد للثقافات القديمة . وكان أكثر ما فعلته أنها أنشأت في أماكن متفرقة كرسيا للبيان عينت فيه أحد هؤلاء الإنسانين : أما ما كان \$ لإحياء الآداب \$ من أثر فقد جاء أكثره عن طريق المجامع العلمية التي أنشأها أنصار الأدب من الأمراء في فلورنس، ونايل ، والبناقية . وفرارا ، ومانتوا . وملان ورومة . فقد كان الإنسانون في تلك المدن يملون ما يريدون مناقشته من النصوص القديمة باللغة اليونائية ما يتصل لهذه النصوص من مظاهر النحو ، والصرف ، والبيان . والسبر ، والحغرافية ، والأدب: وكان طلابهم يدونون ما يملونه علمهم من النصوص ويثبتون في هوامش الصفحات كثراً من الحواشي والتعليقات ؛ ومهذه الطريقة تضاعفت نسخ الآداب القديمة كما تضاعفت شروحها وانتشرت فى أنحاء العالم . ومن أجل ذلك كان عهد كوزيمو عهد الانهماك فى التعليم لا الانهماك في الأدب المبتكر الحلاق ، فانحصرت أمجاد ذلك العصر الأدبية فى النحو ، والمعاجم اللغوية ، وعلم الآثار القديمة ، والبيان ، والمراجعة الانتقادية للنصوص القديمة . وهكذا استقرت طريقة التبحر الحديث في العلم ، وأداته ، ومادته ، ومهه الطريق الذي سار فيه تراث اليونان ورومة حتى وصل إلى عقول المحدثين .

ولم يبلغ العلماء منذ عهد السوفسطائين مثل ما بلغوه وقتلذ من المنزلة العالمية * المجتمع وفى الشئون السياسية ؛ ذلك أن الكتاب الإنسانيين صاروا أمناء ومستشارين لمجالس الشيوخ ، والأمراء ، والأدواق ، والبابوات ؛

وكانوا يردون هذا العطف بالمديح المصوغ باللغة اللاتينية الفصيحة ، كما يردون على الصد عنهم والاستهزاء بهم بالمجاء اللاذع القاتل ؛ وقد بدلوا المثل الأعلى القديم للرجل الكامل المهذب من رجل شاكي السلاح لابس الزرد إلى إنسان كامل النماء بلغ أعلى درجات الحكمة والمنزلة الأدبية باستيماب التراث الثقافي للجنس البشرى . وقد غزت شهرتهم العلمية وبلاغتهم الساحرة ما وراء جبال الألب من أوربا حين كانت جيوش فرنسا . وألمانيا ، وأسبانيا تحتشد للاستيلاء على إيطاليا ؛ فأخلت هذه الثقافة تتسرب إليها قطرا بعد قطر ، وتنتتل مها من صبغة العصور الوسطى إني الصبغة الحديثة ، فكان القرن الذي شهد كشف أمريكا هو بعينه الذي شهد إعادة كشف بلاد اليونان ورومة ، وكان التحول الأدبى والفلسني الذي تم في ذلك الوقت أبلغ أثراً في الروح البشرية من الطواف حول الكرة الأرضية وارتياد مجاهلها . ذلك أن الإنسانيين لا الملاحين هم الذين حرروا عقول البشر من العقائد التعسفية ، وعلموهم أن يحبواً الحياة بدلا من التفكير النكد في الموت ، وأطلقوا العقل الأوربي من عقاله . وكان الفن آخر ما تأثر بالنزعة الإنسانية ، لأن هذه النزعة كانت أكثر تجاوبا مع العقل منها إلى الحواس . ولذلك ظلت الكنيسة حتى ذلك الوقت أكبر نصير للفنون ، كما كان أهم أغراض الفن هو نقل قصة والطفل؛ وآلام المسيح وصلبه؛ وبني الرسل، وآباء الكنيسة، والقديسون، الموضوءات التي لا غني عنها لفني النحت والتصوير ، بل والفنون الصغرى كذلك . بيد أن الإنسانين أخذوا يعلمون الإيطالين شيئاً فشيئاً معنى المجال أكبر شهوانية من ذي قبل ، علموهم الإعجاب الصريح بجال الجسم الآدى ــ ذكراً كان أو أنثى وخاصة إذا كأن عاريا ــ وتغلغل هذا الإعجاب في نفوس الطبقات المتعلمة ؛ وكان اهتمام أدب النهضة بالحياة وتوكيدها ، بدل التفكير في الدار الآخرة بما أكسب الفن نزعة دنيوية خفية ؛ وأدخل مصورو عصر لورتلمس وما تلاه من العصور عناصر وثنية في الفن المسيحى ، وذلك حين جاءوا بالحسان الإيطاليات يتخذونهن نماذج لتصوير العلمراء ، وبالشبان الوسيمين الأقوياء ليكونوا نماذج للقديسين . ولما أخف الأمراء الزمنيون ينافسون رجال الكنيسة في السخاء على الفنيين وإمدادهم بالمال أثناء القرن السادس عشر تحدت فينوس (الزهرة) وأدرياني ، ودافي ، وديانا ، وربات الشعر والأقدار ، تحدت هذه سلطان الملراء ؛ لكن مريم الأم ظلت محتفظة بسيطرتها الصالحة إلى آخر أيام فن النهضة .

الفيرالخامس

العارة: عصر برونيلسكو

نادى أنطونيو فيلاريق Antonio Filaret في عام 120، يقول: ولمن الرجل الذى ابتدع العارة القوطية التمسة ! ولم يكن في وسع أحد أن يدخلها إلى إيطاليا إلا شعب همجي ، (٢٠٠ خلك أن هذه الحدران المقامة من الرجاج لا تواثم شمس إيطاليا الساطعة ، وبدت الدعامات الأققية العالمة (وإن كانت قد أغذت في كنيسة نوتر دام ده بارى صورة جميلة فكانت كناما ماه في نافورة نجمد أثناء مسيله) في أعين أهل الجنوب كأنها عالات قبيحة للنظر تركها وراهم البناءون الذين عجزوا عن أن يكسبوا يناهم المتقرارا من تلقاء نفسه . لقد كان الطراز القوطي ذو العقد المستدق والقبة في الحقول إلى سلوى السهاء ؛ غير أن الرجال الذين وهبوا من ههد قويب الراء والراحة أضحوا يرغبون في تجميل الحياة لا أن يفروا مها ويقدحوا فها ؛ فكانوا يرغبون في تجميل الحياة لا أن يفروا مها أنفسهم أربايا .

ولم تكن عمارة النهضة الإيطالية في أساسها ثورة على العارة المقوطية ، لأن هذه العارة القوطية لم تكن لها الغلبة على إيطاليا في يوم من الأيام ؛ فقد كان كل طراز وكل تأثير بمثلين بشيء ما في تجارب القرنين الرابع عشر والحامس عشر : كانت فها العمد المتقيلة ، والعقود المستديرة المآخوذة، من الطراز الرومانسي اللمباردي ، والعمليب اليونافي الذي كانت تخطط على صورته المنافى السفل ، والقبة والعارضة المثلثة بين عقودها المتعامدة ، وأبراح النواقيس في الكنافس التي أقيمت على منوالها مآذن المساجد الإسلامية ،

والعمد الرفيعة في الأدبرة التسكانية التي تذكر الناظر إلها بعمد المساجد أو الأروقة الرومانية واليونانية القديمة ، والسقف ذات الكتل الحشية في إنجلترا وألمانيا ، والقبة المضلعة والعقد القوطي والشبابيك القوطية ؛ والفخامة المتناسقة في الواجهات الرومانية ، وفوق هذا كله المتانة اليسيطة في صحن الباسلقا الذي يكتنفه من الجانبين جناحان يدعمانه . لقد كانت هذه العناصر كلها تمنزج في إيطاليا امتزاجاً مثمراً حين أخذ الكتاب الإنسانيون يوجهون العارة نحو خرائب رومة . وبدت وقتئذ العمد المحطمة في السوق الرومانية ، التي كانت تتراءى من خلال ضباب العصور الوسطى لأعن الإيطالين أعظم جمالًا من طرز البندقية الغريبة ، أو فخامة تشارتر الكثيبة ، أو جسارة بوقيه الهشة ، أو امتدادات قبة أمن الحفية الغامضة ؛ وأضحت الرغبة في العودة من جديد إلى استخدام العمد الملتفة الحميلة ، الغائرة في قواعد ضخمة ، والمتوجة بتيجان جميلة في صورة الأزهار ، والمرتبطة بطيلات رصينة مهيبة المنظر ، نقول أضحت الرغبة في استخدام هذه العمد ، حن أخذ الماضي القديم المدفون الحي يتلمس طريقه إلى الظهور ، هي الحلم الذي يراود خيال رجال من طراز بروند لسكو ، وألىرتى ، وميكلتسو Michelozzo ، ومكل أنجلو ، ورفائيل .

وكتب فاسارى الوطنى الصميم عن بروند لسكو يقول : و أما فلهو بروند لسكو فيمكننا أن نقول عنه إن الله قد وهبه القدرة على أن يكسب المهارة أشكالا جديدة بعد أن ضلت السبيل قروناً كثيرة على المراحة المتعالم على صائعا شأن كثير بن من فنانى عصر النهضة الإيطالين، ثم درس فن النحت وظل وقتاً ما ينافس دو ناتلو منافسة الصديق لصديقه ، ونازعه هو وجبرتى مهمة نقش الأبواب المرنزية لمكان التعميد فى فلورنس . و لما أبصر الرسوم التي وضعها دو ناتلو غادر فلورنس ليدرس فن المنظور والتخطيط فى دومة ؛ فلم جاءها افتن عا رآه فها من الهائر القديمة وعمائر العصور الوسطى ، فالم جيميع عناصرها ، وكان أعظم ما أثار دهشته وشمرع يقيس المبانى الكبرى مجميع عناصرها ، وكان أعظم ما أثار دهشته

قبة هيكل مجمع الآلهة الذي أقامه أجريا ، البالغ عرضها ١٤٢ قدماً ؛ ولاح له أن يتوج بقبة مثلها كتدرائية سانتا ماريا دل فيورى التي لم تكن قد تم بناؤها ، في مسقط رأسه . وعاد إلى فلورنس في الوقت الذي أمكنه فيه أن يشرك في مؤتمر من المهندسن معاريان وغير معاريان ليبحثوا مشكلة سقف موضع المرنمين المشمن الأضلاع في هذه الكتدرائية والبالغ حرضه ماثة وثماني وثلاثين قلماً ونصف قلم . واقترح فلهو أن تقام فوقه قبة ؛ ولكن الضغط إلى الخارج الذي سوف تحدثه هذه القبة الضخمة على الجدران التي لاتسندها دعامات من خارجها أو كتل خشبية من الداخل بدا لهولاء المهندسين عقبة لا يمكن التغلب عليها . والعالم كله يعلم قصة البيضة التي نطق مها برونلسكو : وكيف تحدى الفنانين المجتمعين أن يجعلوا البيضة تقف على أحد طرفها ، فلما عجزوا جميعاً نجح هو في هذا العمل بأن ضغط الطرف الغليظ الفَّادغ. على المنضدة . ولما احتجوا عليه بقولهم إنه كان فى وسعهم أن يفعلوا ما فعله هو ، قال إنهم سوف يدعون مثل هسله الدعوى بعير أن تتم إقامة فبة الكتدراثية . وكلف هو بالعمل ، وظل أربعة عشر عاماً (١٤٣٠ ـ ١٤٣٠) بلا انقطاع يكانح في القيام بهذا الواجب، ويقاوم ألف محنة ومحنة حتى رفع القبة المزعومة بمقدار ١٣٣ قدماً فوق حافة الجدران التي تسستند إلىها ، وانتهى من العمل آخر الأمر ، وقامت القبة ثابتة قوية . وابتهجت المدينة كالها لتمامها وعدته أول الأعمال المعارية الكبرى في عصر النهضة ، وأجرأ هذه الأعمال كلها عدا عملا واحداً لا غير . ولما صمم ميكل أنجيلو بعد. قرن من الزمان قبة كنيسة الرسول بطرس ، وقبل له إنه قد أتبحت له الفرصة للتفوق على برونلسكو رد على ذلك بةوله : ﴿ سَأَقَمُ قَبَّةً مثلها وأحنا لها ، أكبر منها ، ولكنها لا تفوقها في الحال ،(٢٧) . ولا تزال هذه القبة الفخمة الزاهية تشرف على ما حولها من مناظر تمتد عدة فراسخ من مدينة قلورنس ذات السقف الحمراء التي ترقد كأنها حوض من الورد في أحضان تلال تسكانها

وقد أخذ فليو فكرته عن هبكل مجمع الآلهة ، ولكنه وفق أحسن. التوفيق بينها وبين الطراز القوطي التسكاني الذي يتمثل في كتدراثية فلورنس، وذلك بأن جعل استدارة قبته على طراز العقد المستدق الفوطي . لكنه حين سمح له بتخطيط مبان في الطابق الأرضى جمل الانقلاب إلى الطراز القدم أتم وأوضح . وكان في عام ١٤١٩ قد بدأ يشيد لوالد كوزيمو كبنيسة سان لورندسو ؛ ولم يتم منها إلا ﴿ غرفة المقدسات ﴾ ؛ لكنه اختار لها طراز الباساتها ، والبواكي ؛ والرواق المعمد ، والعقد الرومانسكي ، فجعلها هي العناصر التي بني علمها تصميمه ؛ وبني لأسرة پاتسي Pazzi فى أديرة سانتاكروتشي (الصليب المقدس) معبدًا جميلًا يعيد إلى الذاكرة قبة هيكل مجمع الآلهة في أثينه ورواقه المعمد ، ثم اختط في هذه الأديرة نفسها مدخلا مستطيل الشكل ــ من عمد ذات حزوز ؛ وتيجان على شكل أزهار ، وطيلات ذات ثماثيل ، وحليات هلالية منقوشة ــ كان هو الطراز الذي صنع على نمطه مائة ألف باب والذي بني حتى الآن في كل مكان في أوربا الغربية وأمريكا . ثم بدأ ينشئ على الطراز القديم كنيسة سانتو اسبريتو Santo Spirito ، ثم مات ولما يكد البناء يعلو على الأرض . في عام ١٤٤٦ كان جثمان هذا الفنَّان المولع بفنه سجى في الكندراثية محوطا بمظاهر العظمة ونحت القبة التي أقامها ، وأقبل عليه سكان فلورنس من كوزيمو إلى أصغر عامل كان يكدح في ذلك المكان ، أقبلوا عليه جميعا ، وقلد المتلأت قلوبهم أسى وحسرة على أن يكون الموت مآل العباقرة العظام . ويقول فيه ڤاسارى: لقد عاش كما يعيش المسيحي الصالح ، وخلف في العالم آثار صلاحه وتقواه ولم يجله المزمان من عهد اليونان والرومان . القدامي إلى يومنا هذا برجل أعظم منه ، لقد كان بحق منقطع النظير (٣٨) . . وكان برونلسكو في أيام حماسته المهارية قد وضع لكوزيمو تصميم قصر باغ من السعة والزخرف مبلغاً حل هذا الحاكم المطلق المتواضع على أن يرفض الاستمتاع بمنظره حين يقوم لأنه يخشى حسد الناس له . ولهذا.

كلف ميكلقسو دى يارتدميو Michelezzo di Baptolmmeo كلف ميكلقسو دى يارتدميو أن يشيد له ولأسرته ومكاتبه بدل هذا القصر قصر آل ميديتشي Palazzo Medici أو الريكاردي Riecardil القائم اليوم ، ذا الجدران الحجرية السميكة الحالية من الزخرف ، والتي تنم عما كان في ذلك الوقت من اضطراب اجتماعي ، ومنازعات عائلية ، وخوف دائم من العنف والثورة ، وهي العوامل التي كانت تبعت النشاط والحياة في السياسة الفلونسة . وكان لهذا القصر أبواب ضخمة من الحديد يدخل منها الأصدقاء والديلوماسيون ، والفنانون ، والشعراء إلى فناء مزدان بهائيل من صنع دوناتلو ، ويؤدى إلى حجرات متوسطة الروعة ، ومعبد مزدان بمظلمات فخمة زاهية من صنع بنتسوجوتسولي Benozzo Gozzoli . وأقام آل ميديتشي في هذا القصر إلى عام ١٥٣٨ ، عدا الفترات التي نفوا فيها من المدينة ، ولكنهم كانوا بلا ريب يخرجون من هذه الجدران المكتثبة ليستمتعوا بأشعة الشلمس في البيوت الريفية التي شادها كوزيمو خارج المدينة في كاريجي Careggi ، وكفاجيولو Cafaggiolo ، وعلى منحدرات فيسولى Flesole ; وكانت هذه الملاجئ الريفية هي التي يأوى إليها كوزيمو ولورندسو، وأصدقاوهما، وصنائعهما فراراً من عناء السياسة إلى الاستمتاع بالشعر ، والفلسقة ، والفن ؛ وإلى كاريجي أوى الأب والحفيد ليستقبلا الموت . وكان كوزيو من حين إلى حين يفكر فيها بعد الموت فتبرع بكثير من المال لإقامة دير في فيسولي Fiesole ، وليعيد بناء الدير القديم في سان ماركو ويجعله أوسع رقعة وأكثر متعة . . وخطط ميكلتسو في هذا الدير بواكي مسقوفة رشيقة ، ومكتبة تضم كتب نقولي ، وصومعة ينفرد فمها كوزيمو من حن إلى حن معتزلا أصدقاءه أنفسهم ليقضى يومه في التأمل والصلاة .

وكان ميكاتسو أحب المهندسين إليه في هذه المشروعات ، كما كان هو الصديق الونى الذي صاحبه في منفاه ، وعاد معه بعد النفي . وعهد إليه الأمر يعد عودته بزمن قليل بذلك الواجب الدقيق واجب تقوية قصر فيشهر لمقاومة ماكان يتهدده من خطر الاجهار . وقد جدد بناء كنيسة سانقسها أنندسياتا Santissima Annunziata ، وأنشأ لها معبداً جيلا، وأثبت أله مثل ماهر حين زيها بتمثال القديس يوحنا المعمدان . وشاد لهير Piero ابن كوزيمو معبداً فخإى كنيسة سان منياتو San Miniato القائمة على سفح أحد التلال ، وعاون بمهارته دوناتلو في تصميم «مثير النطاق ، الجميل وحضره في واجهة كندرائية پراتو Prato ؛ ولو أن ميكاتسو كان وقتنال يعيش في غير بلده لكان هو بلا جدال حامل لواء فن المهارة .

وكان أثرياء التجار فى ذلك الوقت يشيدون أجاء مدينة فعنه وقصوراً واثمة . وفى عام ١٩٧٧ ههد مجلس لملدينة إلى بنتشى دى تشيونى Benci di وسيمون دى فرانتشسكو تالتنى المنتفق كون مكاناً بخطب فيه أن يشيدا رواقاً ذا عمد فى مواجهة قصر فيتشيو ليكون مكاناً بخطب فيه الحكام ، وأطلق على هلما الرواق في القرن السادس عشر اسم ف جو حاملي الراماح ، وكان أفخم قصر خاص في فلورنس هو الذى شاده (١٤٥٩) لوكا فانتيشلي للمحدوث في فلورنس هو الذى شاده (١٤٥٩) للمحمول لوكا بتي Luca Pitti من تصميم للم به رونلسكو قبل أن يشرع في بنائه بتسعة عشر عاماً . وكان بتي يضارع كوزيمو في الثراء أو يكاد يضارعه ، ولكنه لم يكن مثله حكيا في يضارع كوزيمو في الثراء أو يكاد يضارعه ، ولكنه لم يكن مثله حكيا في المناحة الل فيا :

إنك تسعى إلى غير غاية ، أما أنا فأسعى إلى غاية محددة ، وأنت تنصب سلكك لى الهواء ، أما أنا فأنصبه على الأرض . . . ويبلو لى أن من العمدل ومن الطبيعى أن أرغب فى أن يفوق بجد بيتى وشهرته شرف بيتك أنت وسمعته ، فلنفعل ذن ما يفعله كلبان كبيران يشم أحدهما الآخر بيتك أنت وسمعته ، فلنفعل ذن ما يفعله كلبان كبيران يشم أحدهما الآخر حِين يلتقيان ، ويكشران عن أنيامهما ، ثم يسه كلاهما في طريقه ، فنعتي . ألتُ يشقونك ، وأعني أنا يشقوني^{(١٠}٠٠ .

وواصل بنى مؤامراته ودمائسه ، ولم ينقطع عها بعد موت كوزيمو ،
يل أخذ يعمل على انتزاع السلطة من يبرو ده ميديتشي Piero de' Medici ،
واقترف في عمله هذا الحريمة الوحيدة التي لا يعفو عنها أحد في عصر
الهضة ــ وهي جريمة الإخفاق ، وأعقها نفيه من بلده ، وخرابه ، وبقي
قصره ناقصاً مدى قرن من الزمان .

الفصلالتادس

النحت

۱ -جبرتی

لقد كانت محاكاة الأشكال اليونانية والرومانية القديمة في النحت أتم منها في العارة ، ذلك أن روية الحرائب الرومانية ودراستها ، والكشف من حين إلى حين عن آية فنية رومانية كانا يبعثان في المثالين الطلبان رغبة قوية في محاكاة هذه المحلفات . وقد يدل على ذلك ماكتبه جرثى عن تمثال هرم أفروديثي Hermaphrodite الملتى على وجهسه الآن في النهو العرغي Borghese Gallery مستديراً بظهره إلى النظارة كأنه غبرعاني مم ، وذلك حين وجد هذا النمثال في كروم سان تشاسو San Celso : إن البيانه ليعجز عن أن يصف ما يكشف عنه هذا التمثال من علم وفن أو يُوَفِّي طرازه الراثع حقه من الثناء » ؛ ويضيف إلى هذا قوله إن ما بلغته هذه الأعمال من الكمال لأعظم من أن تدركه العبن ، ولا يستطاع تقديره إلا بمرور اليد على سطحه ومنحنياته الرخامية(١٠) . ولما زاد عدد هذه الحُلفات المسنخرجة من باطن الأرض وألفالناس رؤيبًها ، اعتاد العقل الإيطالي على مهل مشاهدة النماثيل والصور الفنية العارية ، وأضحت دراسة التشريح مما يعني به في مراسم الفنانين كما يعني به في قاعات الطب، وسرعان ما أخلت النماذج للعارية تستخدم بلاخوف ولا حياء . وكان من أثر هذا الحافز القوى أن خرج فن النحت من سبطرة العارة ومن التقوش على الحجر أو الحص إلى تماثيل العرنز أو الرخام المجسمة .

لكن النقش البارز هو الذي ظفر فيه فن النحت بأشهر انتصاراته

في فلورنس على عهد كوزيمو . ذلك أن بناء التعميد القبيح المنظر المخطط اللذي كان يواجه الكتدرائية لم يكن يزيل قبحه إلا الزخارف التي تضاف إليه . وكان ياقوبو توريثي lacopo Torriti قد زخرف قبلئذ المنصة ، كما زخرف أندريا تافي Andrea Tafi السقف المقبب ينقوش فسيفسائية متزاحمة ؛ كذلك كان أندريا يزانو Andrea Pisano قد صنع للواجهة الجنوبية باباً مزدوجاً من البرنز (٢٣٣٠ – ١٣٣٦) . حدث هذا كله من قبل ، أما الآن (١٤٠١) فإن مجلس السيادة في فلورنس قد اعتمد بالاشتراك مع طائفة تجار الصوف مبلغاً كبراً من المال ينفق في صنع باب من الرنز للواجهة الشالبة ، لعل هذا العمل يرضي عنهم الله فيقضي على وباء الطاعون المنتشر وقتئذ . وأجريت لذلك مباراة ، ودعى جميع الفنانس في إيطاليا لتقديم الرسوم ، وكان أعظمتهم توفيقاً هم برناسكو ، وياقوبو دلا كو يرتشيا Jacopo della Quercia ، وأورتدسو جبرتي ، وعدد قليل آخر من الفنانين ، فعهد إليهم أن يصبوا لوحة تموذجية من البرنز تمثل تضحية إبراهم بإسحق(°) . وعرضت الألواح كاملة بعد عام من ذلك الوقت على القضاة الأربعة والثلاثين ــ من مثالين ، ومصورين ، وصياغ . وأجم المحكمون على أن اللوحة التي صنعها جبرتى كانت أحسبها كلها ، وشرع الشاب الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره من ذلك الوقت يصنع البابين الأولىن من أبوابه الىرنزية الذائعة الصيت .

وليس في وسع إنسان أن يعرف لماذا استغرق العمل في تصميم هذا الباب الشهالي وصبه الحزء الأكبر من السنين الإحدى والعشرين الثائية ، إلامن درس هذا الباب دراسة دقيقة عن كتب . وكان يساعد جبرتى عمله مساعدة كريمة دوناتلو ، وميكلنسو ، وطائفة كبيرة من الأعوان

 ⁽ه) الذي يقول به المسلمون والذي جاء به الفرآن أن الذبيح هو لمماعيل لا إسحق.
 (المترجم)



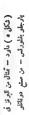
(شكل ٤) أبراب مكان التمبيد بفلورنس تصوير لوزسو جبرتى

كأنهم جميعاً قد عقدوا العزم على أن تكون النقوش المطلوبة أجمل النقوش العرنزية في تاريخ الفن كله ، وأن فلورنس تتطلع إليهم ليجعلوها كذلك ، وقسم جرتى البابن إلى ثمان وعشرين لوحة : منها عشرون تروى حياة المسيح ، وأربع تصور الرسل ، وأربع تمثل علماء القوانين الكفسية ، وصبت ، ووضعت في أماكنها على الباب، لم يستكثر واهبو المال ما أنفقوه عليها وهو ٢٢٠٠٠ فلورين (٢٠٠٠ر ٥٥٠ دولار) ، بل عهدوا إلى جرتى أن يصنع باباً مزدوجاً آخر الناحيــة الشرقية من بناء التعميد (١٤٢٥) : وَكَانَ يَسَاعِدُ حِبْرَتَى فِي هَذَا الْعَمْلِ الثَّانِي الذِّي اسْتَغْرِقَ سَبِعَةً وعشرين عاماً رجال ذاع صيتهم من قبل ، أو بعد قليل من ذلك الوقت : برونلسكو ، وأنطونيوفيلاريتي ، وباولو أتشلو Paolo Uccello وأنطونيو دل پولايولو Antonio del Pollaiuolo وغيرهم . وأصبح مشغله على مرالزمن ماموسة للفن أنجبت أكثر من عشرة من العباقرة . وكان البابان الأولان يشرحان أجزاء من العهد الجديد ، أما هذان البابان فقد مثل فيهما جرتى على عشر لوحات مناظر من العهد القديم ، تبدأ من خلق الإنسان وتنتهي عند مجيء ملكة سبأ إلى سلمان ، وأضاف على جوانهما عشرين شكلا من النقش الكامل أو القريب من الكمال وزخارف متنوعة ــ من حيوان ونبات ــ ذات جمال فائتي رائع . وهنا تلاقت العصور الوسطى وعضر النَّهْمَة تلاقيًّا منسجماً أتم انسجام : فثلت في اللوحة الأولى قصص العصور الوسطى عن خلق آدم ، وإغواء حواء له ، وخروجهما من الجنة ، وقله عولجت هذه الموضوحات وكانت شخصياتها إما مكتسية بأثواب مسترسلة كأثواب اليونان والرومان الأقدمين أو عارية وكثير مها عاركل العرى . وكانت الصورة التي تمثل حواء وهي خارجة من جسم آدم تضارع النقش الهلنسيّ الذي يمثل أفرديتي خارجة من البعير . وقد دهش الناس حين وجلوا في خلفية النقش مناظر تكاد تضارع في دقة مراعاتها لفن المنظور، وفى وفرة التماصيل ما يجلونه فى أحسن الصور الملونة التى رسمت فى ذلك الوقت. ومهم من كان يشكو من أن هذه التقوش تعتدى على فن التصوير أكثر مما يجب، وتتخطى التقاليد الموضوعة لفن النقش البونافى الرومافى القديم. ولسنا ننكر أن هذه الشكوى صادقة من الوجهة العلمية المنظرية المباب الأدوم الكن الأثر الذى تحدثه كان أثراً حياً واضحاً سامياً. وكان هميكا الباب الأدوب ، وكان ميكل الباب المزدوج الثانى بإجماع الآراء أجمل من الباب الأون ، وكان ميكل المجلوبرى أنه و بلغ من الجال حداً يجعله خليقاً بأن يزدان به مدخل المجلوب أنه و بلغ من الجال حداً يجعله خليقاً بأن يزدان به مدخل إلا ق التقوش ، ولهذه عب معاشقه وتقاصياه ، وإنه أجمل آية فنية فى العالم كله عند الأقدمين والمحدثين على السواء (١١) و. وسرت فلورنس من هذا العمل سروراً دفعها إلى أن نختار جرتى لحبلس السيادة فى المدينة ، ووهبته من المال ما يستعن به على الحياة فى شرخوخته .

۲ – دوناتلو

يظن قاسارى أن دوناتلو كان من بين الفنانين الذين اختيروا لكي يعدوا لوحات تجريبية لأبواب بناء التعميد ، ولكن الحقيقة أن دوناتلو كان وقتله خلاماً لا يتجاوز السادسة عشرة من العمر . وقد أطلق عليه أصدةاوه ذلك الاسم المصفر الحبب الذي يعرفه به الخلف ، أما اسمه الحقيق فهو دوناتو دى نقولو دى بتوباردى Betto Bardi أو لم يتعلم في مشفل جرتى إلا بعض فنه ، ولكنه سرعان ما شق طريقه لنفسه وانتقل من رشاقة نقوش جرتى التسوية إلى تماثيل الرجولة المجسمة ، وأحدث في فن النبحت انقلاباً يقوم على إشلاصه للطبيعة وتمسكه بأصولها وقوة شخصيته المبتكرة وطرازه المبدع الموالي من الوزنونية الوانية الوبانية الموانية الموانية الوبانية المتوانية الوبانية والأهداف الوبانية







رسن ۱) مسبب مده من اسب ق کنهد المعليب التدس ق ناورفن (انظر من ۱۷۱)

والرومانية القديمة . لقد كان دونانلو ذا روح مستقلة لا تقل قوة عن ثمثاله العاور أو جرأة عن تمثاله للق*ديس مورج.*

ولم تنضيح عبقريته بالسرعة التي نضجت بها عبقرية جبرتي ، ولكنها كانت أسمى منها وأوسم مجالاً . ولما أن تم نضوجها أخدت تنثر الآيات الفنية الرائعة بلا حَسَاب حتى امتلأت فلورنس بَهَاثيل من صنعه ، ورددت أصداء شهرته أصقاع ما وراء جبال الألب . ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره نافس حرتى بأن صنع لأورسان ميتشيل Or San Michele تمثالا الصرح تمثالا القديس مرقس يلغ من القوة ، والبساطة ، والإخلاص ترجة ؛ يستحيل معها أن يرفض الإنسان الإنجيل الذي يبشر يه مثل هذا الرجل الصريح ، على حد قول ميكل أنجيلو (*) (١٦) وكان دوناتلو وهو في الثالثة والعشرين قد كلف بنحت تمثال واوو ليوضع في الكتدرائية ، ولم يكن هذا إلا وأحداً من عدة تماثيل لداود قام بصنعها ؟ ذلك أن موضوعها كان لا ينفك يطرب خياله . ولعل أجمل أعماله كلها هو تمثال واود المصنوع من العرنز ، والذي كلفه به كوزيمو وصبه في عام ١٤٣٠ وأقم في فناء قصر آل ميديتشي وهو الآن في بارجلو Bargello . وكان هذا التمثال أول تمثال عار مجسم من تماثيل النهضة ظهر في غير حياء أمام الجاهير : كان له جسم أملس متين البناء يطالعك لحمه بنضرة الشباب وقوته ، ووجه لعله أسرف في جعل صورته الجانبية يونانية الملامح ، وخوذة ، لا شك

^(•) أورسان ميشيل هو للمزار الديني الذي أقامه فرانتفسكو ، وصيمون ثالثي ، وبنسي سيوف (١٣٣٧ – ١٠٤٤) المعارئف الكبرى لأرباب الحرث . وكانت كل_{ام}يماالغة من هذه الطوائف عشلها فيه تمثال وضع في كوة في الحدران الحارجية . وقد قام يلمنع هذه التماثيل من الفناذين جبرتى ، وفروتشيو ، وفافى عن بالكر ، وجيان بولوقيا ،

أنها أكثر يونانية من الحدالواجب. ولقد نبذ دوناتلو الواقعية في هذه المرة ، واستسلم الفنان لحياله ، وكان يبلغ في هذا العثال ما بلغه فيما بعد تمثال ميكل أنجيلو الأكثر منه شهرة للملك العمراني .

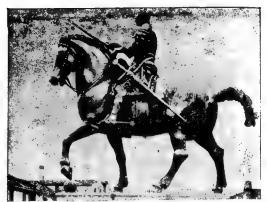
ولكنه لم يلق في تمثال المعمدان ما لقيه من النجاح ؛ ذلك أن هذا الموضوع موضوع شاق غريب على روحه الدنيوية ؛ ولهذا كان تمثالا يوحنا القائمان في بارجلو سخيفين ليس فهما حياة . وأجمل مهما كثيراً رأس طفل سمى لغير سبب معقول سام مبيو فانبئو .. رأى القديس يوحنا الصغير. ومن العاثيل التي تشاهد في معرض دوناتلو أيضاً تمثال القريسي مورج الذى يجمع بن واقعية المسيحية المجاهدة وخطوط الفن اليونانى المقيدة غير الطليقة . ووقفة التمثال قوية تنم عن الثقة بالنفس ، والجسم قوى ناضج ، والرأس بيضي قوطى ولكنه يستبقى رأس يرونسي الروماني الطراز الذي نحته بوانارتي Buonarotti . وضع لواجهة كتدراثية فلورنس تمثالين قويس لإرميا وحبقوق ، وكان ثانيهما أصلع إلى حد جعل دوناتلو يطلق عليه اسم « القرعة الكبيرة » . ولا يزال تمتال يوويث القائم فوق « بواكي الرماحة » والذى صنعه دوناتلو تنفيذاً لأمركوزيمو ، ولايزال هذا الثمثال يلوح بسيفه فوق هولوفرنىر Holofernes . ويرى القائد الذي دس له المخدر في النبيد نائمًا في هدوء قبل أن يقطع رأسه ؛ والفكرة التي أوحت به وطريقة تنفيذها غاية في العراعة ، ولكنَّ الفتاة التي قتلت الطاغية تقبل على عملها مرتدية كامل ثيامها في هدوء لا يتفق مع رهبة الموقف .

ووضم دو لاتلو أثناء رحلة قصيرة إلى رومة (١٤٣٧) تصميم معبد من الرخام قديم الطراز لكنيسة الفديس بطرس القديمة . وأكبر الظن أنه درس وهر في رومة التماثيل التصفية الباقية من عهد الإمبراطورية ؛ وسواء كان ذلك أو لم يكن فقد كان هو الذي عمل أول تمثال نصني ذي شأن في عصر الطين. المنهضة . وكانت خير صوره الفنية كلها تمثاله النصني الذي صنعه من الطين.

المحروق الملون والذي يصور السيامي تقولو دا أنساتو Niccoò de Uzzno وقد سلى نفسه وحبر عنها في هذا الفنال بنرعة واقعية تكشف الرجولة الحقة وإن كانت لا تضيى على صاحبها شيئاً من التجيد والثناء . وفيه كشف دونائلو لنفسه عن الحقيقة القديمة القائلة إن الفن ليس في حاجة دائمة إلى الجرى وراء الجمال ، بل إن عليه أن يُعتار الأشكال ذات القيمة ويرزها الناظرين . وكان كثير من الكراء يعلنون أن تمائيله المنحونة لاتظهر الأشكان على حقيقها ، ولم تكن نتيجة عملهم هذا أحياناً في مصلحتهم . ومن ذلك أن تاجراً من أهل جوى ، لم يرض عن نفسه كما صوره دونائلو فأخل يعلبه دونائلو أقل من الواجب أداؤه . وشكا التاجر من أن الفنان لم يقضى يطلبه دونائلو أقل من الواجب أداؤه . وشكا التاجر من أن الفنان لم يقضى في العمل إلا شهراً واحداً ، ومعيى هذا أن الأجر الذي يطلبه يصل إلى نصف فلورين (١٢٠٥ دولار) في اليوم وهو أكثر مما يجب أن يتقاضاه نصف فلورين (١٢٠٥ دولار) في اليوم وهو أكثر مما يجب أن يتقاضاه نصف فلورين (١٢٠٥ دولار) في اليوم وهو أكثر مما يجب أن يتقاضاه قطعة ، وقال إن هذا الرجل لم يوت من الذكاء إلا القدر الذي يستطيع أن يسلوم به على حيات الفول (١٤).

لكن مدائن إيطالياكانت تقدره تقديراً أحسن من هذا و تتنافس في الانتفاع. بخدماته ، وأغرته كل من سينا ؛ ورومة ، والبندقية بالإقامة فيها وقتاً ما ، ولكن يدوا هي التي صنع فيها روائهه ، فقد نحت لملمح كنيسة القديس. انوني St. Anthony ستاراً من الرخام غطيت به عظام الراهب الفرانسيسي المطلم ، ووضع فوقه تقوشاً متحركة وتمثالا برنزياً لصلب المسيح تم فكرته عن حنان ورقة منقطى النظير . وأقام في الميدان الذي أمام الكنيسة (١٤٥٣) . أول تمثال عظم لفارس في الزمن الحديث ؛ وما من شك في أنه استمد وحى هذا المثمال من تمثال أورابوس الراكب القائم في رومة ، واكن وجهه ومزاجه يستوحيان عصر النهضة دون غيره من العمور . ولم يحمله وجهه ومزاجه يستوحيان عصر النهضة دون غيره من العمور . ولم يحمله المثال مثلاً أعلى الدلك الفيلسوف ، بل صوره رجلا تتمثل فيه طبيعة عصره ، قاساً ، غير هياب ، وقوياً . ذلك هو تمثال جتاميلاتا Gattammelata قائلد مدينة البندقية المشهور باحم (القط المحسول ، ولسنا ننكر أن جسم الجواد الفاضب ، الذى يقلف بالزبد من فيه أكبر من أن يتناسب مع ساقى راكبه ، الفاضب ، الذى يقلف بالزبد من فيه أكبر من أن يتناسب مع ساقى راكبه ، وفأن الحجام يلوث فى كل يوم الرأس الأصلع للزعيم الفاتح المفامر ؛ ولكن الناس للفن قد المتزج هنا مع المرنز المصهور ليكسب تمثال دوناتلو القوة الناس للفن قد المتزج هنا مع المرنز المصهور ليكسب تمثال دوناتلو القوة أفقاده دوناتلو من النسيان والفناء ؛ ووهبت الفنان ١٦٥٠ دوقة ذهبية أقداد دوناتلو من النسيان والفناء ؛ ووهبت الفنان ١٦٥٠ دوقة ذهبية وطالب إليه أهلها أن يتخذ مدينتهم وطناً له ، ولكنه دفض ذلك المرض في نزوه بن نزواته ؛ فقد رأى أن فنه لا يمكن أن يرتى فى پدوا حيث ينى في نزوه بن نزواته ؛ فقد رأى أن فنه لا يمكن أن يرتى فى پدوا حيث ينى جم الناس عليه ، وهذا فإن من واجبه لحير الفن نفسه أن يعود إلى فلور تس حيث ينتقله جميع أهلها .

والحق أنه عاد إلى فلورنس لأن كوزيمو كان في حاجة إليه ، ولأنه كان يحب كوزيمو ، يجبه لأن كوزيمو كان يفهم الفن ، ويعهد إليه بأعمال تدل على الفطنة ، ويجزيه عليا الجزاء الأوف ؛ وقد بلغ الوفاق بيهما حداً يستطيع معه دوناتلو أن ويدرك ما يرغب فيه كوزيمو من أقل إشارة تبدر منه ١٤٤٤ : [وقد أخذ دوناتلو بأياء كوزيمو يجمع القديم من التماثيل ، والثوابيت ، والعمود المجارية ، والعمد ، وتيجابها ، ويضعها كلها في حديقة آل ميديقشي لكي يدرسها الناشون من الفنانين . وأنشأ دوناتلو بمعاونة ميكاتسو استجاية لرغبة كوزيمو قبراً في مكان التعميد للبابا المطرود يوحنا الثالث والعشرين للحريمة إليه . ونحت لكنيسة سان لورندسو كنيسة كوزيمو الحبوبة مندين اللاجئ إيعد



(شکل ۷) جاسیلاتا فی پدر ا من صنع درفاتلو



(تحكل ۸) المنرا، والطفل من الطين المحروق نقش بارز قرق مدخل الباديا بفلورتس – من صنح لوكا دلا ربيا: (انظر ص ۱۷۵)

يصب صواعقه على آل ميديت المتأخوين . وأشأ للمذبح تمثالا نصفياً جيلا من الطن المحروق القديس لورنس ، ثم صنع لغرقة المقدسات القديم ووجين من الأبواب البرنزية وتابوتاً يتسم بالبساطة والجال لأبوى كوزيمو . وتوالت أعماله الأخرى كأنها عبث أطفال : منها نقش بديع على الحجر يمثل المصعود لكنيسة الصليب المقدس ، وصنع للكندرائية تماثيل للغلمان المنتز وهم جماعة من الغلمان المكتنزين يرتلون التراني في حماسة عظيمة المنتز وهم جماعة من الغلمان نصفى من الرنز لشاب كأنه صحة الشياب بحسمة (وهو الآن في المتحف الفي بنيوبورك) ، وتمثال لسانتا تشيتشيليا جداً يكنى لأن يجعله ربة المعناء مسبحية ، ونقش برنزي يمثل صلا المسبح حداً يكنى لأن يجعله المواقعية ، ومنها من راحلو) لا يسمع الناظر إليه إلا أن يعجب بتفاصيله الواقعية ، ومنها صور هذا المنظر تأثيراً في الفس مفرد ضامر من الحشب يعد من أكثر صور هذا المنظر تأثيراً في الفس مرغم ما وجهه إليه بروناسكو من نقد ورصفه إياه بأنه و فلاح مصلوب » .

وتقدمت السن بالفنان ونصره معاً ، وعى كوزيمو بالمثال عناية قلما كان ونتلو معها يفكر في المال . ويقول فاسارى في هذا إنه كان بحنظ بماله في سلة معلقة في سقد مشغله ، وكان يأسر معاونيه وأصدقاءه أن يأسلوا مها ما يشاءون كل بقدر حاجته دون أن يرجعوا إليه في ذلك . ولما حضرت كوزيمو الوفاة (1872) ، أوصى ابنه يهرو بأن يرعى دوناتلو ؛ ووهب يهرو الفنان الشيخ بيتا في الريف ، ولكن دوناتلو لم يلبث أن عاد إلى فلورنس ، لأنه كان يفضل مشغله المعتاد عن شمس الريف وحشراته . وعاش الفنان معيشة بسيطة قانعاً بها حتى بلغ الممانين من عمره . واشترك جميع الفنانين في فلورنس ، بل اشترك أهلها كلهم تقريباً ، في جنازته حتى وورى في مقره الأحير في قبو سان لورندسو بجوار قدر كوزيمو نفسه (1871)

وقد ارتقى دوناتلو بقن النحت رقيا لاحد له ، واسنا ننكر أنه كان من حين إلى حين يصب في مواقف شخصياته أكثر بما يجب من القوة ومن دقة التصمم ، وكثيراً ما كان يعجز عن أن يبلغ الشكل المصقول الحلا الذي يعسلى من قلد أبواب جبرتين . ولكن أخطاءه كان مردها إلى تصميمه على أن يعبر عن الحياة أكثر مما يعبر عن الحمال ، وعن الخكئ المعقد أو المزاج العقل لا عن الجسم القوى الصحيح فحسب . كذلك ارتقى دوناتلو بفن النحت الملون وذلك بتوسيع مداه ، فلم يجعله مقصوراً على الأغراض اللدينية بل جعله يشمل كللك الأغراض اللدينية ، وبما حبا به موضوعاته من تنويع ، وانفرادية ، وقوة لم يسبق لها مثيل ؛ وهو المذي أنشأ أول تمثال الفارس بقى إلينا من عهد النهضة ، وتغلب في هذا العمل وحتى هذا الصعاب الفنية ؛ ولم يتفوق عليه من المثالين غير واحد مهم ، على مائة من الصعاب الفنية ؛ ولم يتفوق عليه من المثالين غير واحد مهم ، وأبدعه ، وطمه غيره . ذلك هو برتلدو Bertolda تلميذ دوناتلو ومعلم ميكل أنجيلو

٣ - لوكا دلاً ربيا

إن الصورة التي ترتسم في عقولنا ، حين نفراً ترجمي فاساري لحياة جبرتي ودوناتلو ؛ لتظهر مشغل المثال في عصر الهضة في صورة مشروع تعاوني تعمل فيه كثير من الأيدى ، ويوجهه عقل واحد ، ولكنه ينقل الفن يوماً بعد يوم من الأستاذ إلى الصلاب المتعلمين جيلا بعد جيل . وتخرج من المشاخل مثالون صغار خلفوا في التاريخ أسماء لا تضارع في شهرتها أجماء أساتذتهم الكبار ، ولكنها ساعدت بالحد الذي وصلت إليه على أن تشكل الجمال الزائل في صورة خالدة . ومن هولاء المثالين الصغار نافي دى بانكو عديم القيمة ؛ ولكنه أحب المنحت ودوناتلو ، وتتلمذ عليه وكان وفيا له عديم القيمة ؛ ولكنه أحب المنحت ودوناتلو ، وتتلمذ عليه وكان وفيا له

حتى استطاع أن ينشئ لنفسه مشغلا مستقلا . وقد عمت عنالا لمائت فليب يوضع فى كوة فى مركز طائفة الحلائين فى أورسان ميشيل كما صنع للكنيسة عنالا القديس لوقا جالسا وبمسكا الإنجيل بيده ، وينظر بالثقة الكاملة التى يعثما فى النفس الإيمان الجديد بإيطاليا فى عهد الهضة التي بدأت وقتنا فقط تداخلها الرية فى الدين :

وجم الأخوان برناردو وانطونيو رسلينو Bernardo & Antonio Resselino حلقهما في العارة والنحت في مشغل آخر ؟ فوضع برناردو تصميما لقدر من الطراز الروماني القديم لليوناردو بروني Leonardo Bruni في كنيسة الصليب المقدس ، ثم انتقل إلى رومة حن جلس نقولاس الخامس على كرسي البابوية ، وأنهمك في الثورة المعارية التي أحدثها البابا العظم : وبلغ أنطونيو ذروة مجده في سن الرابعة والثلاثان (١٤٦١) حن أنشأ قبرا رخاميا في سان منياتو San Miniato بفلورنس لدون چايمي Don Jlayme كردنال العرتغال . ويتمثل في هذا القير انتصار الطراز الروماني القدم في كل شيء ما عدا جناحي الملاك ، وملابس الكردنال ، وتاج حفته ... لأن دون أذِهل العالم بطهارته . وفي أمريكا الآن مثلان جميلان من أعمال أنطونيو ــ هما التمثال النصفي الرخامي الذي يمثل الحسيم الطفل والقائم في مكتبة مورجان Morgan وتمثال الشاب بوهنا المعمدان المحفوظ في المعرض القومي ، وهل يوجد في أي مكان مثل للنحت الملون الواقعي أنبل من الرأس القوى المموج بالأوعية الدموية والأخاديد التي أوجدها **فها التفكير العميق ، والذي يمثل رأس الطبيب چيوڤي دي سان منياتو** Giovanni di San Miniato والمحفوظ في متحف فكتوريا وألىرت؟ وجاء دزدريو دا ستنيانو Desiderlo da Settignano إلى فلورنس من حدينة ستنيائو القريبة منها والتي ينتسب إليها . وانضم إلى من كانوا يعملون مع دوناتلو ، ورأى أن عمل أستاذه لاينقصه إلا الصقل الذي يتطلب الصر الطويل ، وامتازت أعماله بالظرف والبساطة ، والرشاقة ولم يبلغ القبر الذي صنعه لمرسييني القبر الذي أقامه رسلينو لمروني ، ولكن المعبد الذي وضيع تصميمه لكنيسة سان لورنامسو (١٤٦٤) ، قد سر له كل من وقمت عليه عيناه ، وقد زاد من شهرته ما صنعه من تماثيل ملونة وتقوش محقورة ، وإن لم تكن هذه هي أعماله الجوهرية(٥٠ وتوفي في سن السادمية والثلاثين ، ترى ماذا كان يستطيع أن يفعل لو أنه عاش كما عاش أستاذه حتى بلغ سن الثانين ؟

ووهب لوكا دلاربيا من العمر اثنتن و غانن سنة ، استخدمها على خير وجه ؛ فرفع العمل في الطين المحروق إلى مستوى يكاد يضعه في مصاف الفنون الكرى ، وذاحت شهرته أكثر ثما ذاعت شهرة دوناتلو نفسه ، وما من متحف في أوربا لا تعرض فيه الآن تماثيل من صنعه للمدراه ، وتماذج من أعماله في الصلصال الملون الأزرق والأبيض ، وقد ميدان التصوير الصغير جميع دقائق التصمم ، انتقل إلى نقش التماثيل وتحت ميدان التصوير الصغير جميع دقائق التصمم ، انتقل إلى نقش التماثيل وتحت من الأواني الرخامية لمهيد چيتو . ولمل خرز نة الكنيسة لم يخبروا لوكا أن هذه التحدف تفوق أعمال چيتو نفسها ، ولكنهم سرعان ما عهدوا إليه أن يزين شرفة الأرغن بتقش يصور الغابان والفتيات المرتمين والمرتمات في أثناء نشوة الترنيم . ونحت دوناتلو بعد حامين من ذلك الوقت نقشا عائله ، ولايزال هذان النقشان يواجه أحدهما الآخر في معرض تحف الكنيسة في ويرز كلاهما في قوة عظيمة حيوية الطفولة ، وقد أعاد عصر البضة في هذين المنتخدام الأطفال في الفن . ثم عهد إليه سدنة الكنيسة في

 ⁽ ه) أَسْف إلى هذه الأحمال تماثيله النصفية التي صديها لماريتا أستر تسى Marietta Strozzl
 و الحفوظة في مكتبة مرجان بنيويورك وبالمعرض القوى بواشنجن .

هام ١٤٤٦ أن يعد نقوشا لأبواب من البرنز خاصة بمكان المتدسات في إحدى الكنائس الكبرى . ولم تبلغ هذه النقوش ما بلغته نقوش جبرتى ، ولكنها كأنت هي التي أنقذت حياة لوندسو ده ميديتشي أثناء مؤامرة والكنها كأنت هي التي أنقذت حياة لوندسو ده ميديتشي أثناء مؤامرة والعبيا Pazzia ، ونادت فلونس كلها وتتئذ بأن لوكا من الفنانن العظام .

وكان حتى ذلك الوقت قد اتبع االأساليب التقليدية التي يجرى علمها فن المثال ، إلا أنه كان في هذه الأثناء بقوم ببعض التجارب على الصلصال ، تسيجها جمال الرخام نفسه . فكان يشكل الصلصال بالصورة التي يرسمها فى ذهنه ، ثم يغطيه بطبقة زجاجية براقة يستخدم فمها مواد كبميائية مختلفة ، ثم يحرقه في أتون بني لهذا الغرض خاصة . وأعجب مدنة الكنيسة بنتيجة هذه التجارب ، وعهدوا إليه أن يصنع صوراً من الصلصال المحروق. مختل البعث والصعود فوق أبواب أماكن المقدسات في الكنائس الكبرى (١٤٤٣ – ١٤٤٦). وكانت هذه الألواح ذات لون أبيض منفرد به واكتها كان لها تأثير عظيم بفضل مادتها الجديدة ورقة صقلها وجمال قصميمها . وطلب كوزيمو وابنه پىرو أن تصنع نقوش شبهة بها من الصلصال المحروق بزدان مها قصرآل ميديتشي ومعبد يعرو في سان ميناتو San Minate . وقد أضاف لوكا في هذه النقوش اللون الأزرق إلى اللون. الأبيض للغالب علمها . وتوالت عليه وقتئذ الطلبات بكثرة أغرته على الإسراع في عمله والتسامل فيه ، فزين مدخل كنيسة الانبساني Ognissanti ، بصورة من الصلصال الهروق تمثل نتويج العدراء ، كما زين مدخل كنيسة باديا Badia بصورة رقيقة من النوع نفسه تمثل العرراء والطفل يحف سمة ملائكة ، تغريبًا بأن نومن بخلود الساوات . ثم شرع بعمل صورة كبرى

من الصلصال المحروق تمثل الزيارة (⁽⁾ لتوضع فى كنيسة سان چيوقتى فى چستوبا Pistoia ، وقد خرج فى هذا النقش على التقليد المألوف الذى يمثل ملامع اليصابات العجوز ، وسلماچة الفتاة مريم وطهرها وحيائها . وقصارى القول أن لوكا أنشأ بعمله بملكة جديدة للفن ، وأوجد أسرة من آك دلا ربيا ظلت مزدهرة حتى آخر ذلك القرن .

 ⁽ه) زيارة مرم العلواء لإليصابات ، وتحتفل الكنيستان الرومانية واليونانية بذكرى
 حلم الزيارة في اليوم الثان من شهريوايه في كل عام .

الفصالكيابع

التصوير الملون

۱ – مساتشییو

كان الرسم الملون الغلبة على النحت في إيطاليا أثناء القرن الرابع عشر، وكان النحت الفلبة على الرسم الملون في القرن الحامس عشر، ثم عادت الزعامة مرة أخرى للرسم في أثناء القرن السادس عشر، ولم لعبقرية چينو في القرن اللابع عشر، وعبقرية ليونادوو، ورفائيل، وتيشيان في القرن الخامس عشر، تقول لعل لعبقرية أن العبقرية توة من قوى روح عصر من العصور أكثر مها سبباً من أسبابها. ولعل الكشف عن النحت القديم وما بعثه هما الفن من وحي وإلهام لم يكونا قد أصبحا في أيام چيتو حافزاً وموجهاً للمثالين والمصودين كما كان بخبرتي قد أصبحا في أيام چيتو حافزاً وموجهاً للمثالين والمصودين كما كان بخبرتي فلماذا إذن لم يرفع سانسوفينو Sansovino وتشلبي القدن السادس عشر؛ يرفع ميانسوفينو Sansovino وتشلبي والمقار والمائلة عالم ميكل أنجيلو، فوق منزلة المصورين في ذلك العصر والماذا كان ميكل يرفع ميانسوفينو Sansovino وتشلبي يكون مصوراً ؟

فهل كان ذلك لأنه كان على فن البضة واجبات ، وكانت له حاجات ، أوسع وأعمق مما كان لفن النحت ؟ ذلك أن أُلفن ، بعد أن تحرر يفضل. ما نال من مناصرة مصدرها الذكاء والثراء كان يرغب فى أن يشمل جميع ميادين العرض والزخوف ، فإذا شاء أن يفعل جنا عن طريق التماثيل تطلب. منه ذلك وقتاً ، وجهداً مضنياً ، وكلها عقبات لا يستطاع التغلب علمها ؛

أما التصوير فكان أيسر عليه أن يعبر عن جميع الأفكار المسيحية والوثنية فى أوسع نطاقها ، فى هذا العصر الذى يتسم بالسرعة والخصب . وهل كان في وسع مثال أن يصور حياة القديس فرانسس بالسرعة والإتقان اللذين صورها مهما چيتو ؟ يضاف إلى هذا أن الكثرة الغالبة من أهل إطاليا في عهد النهضة كانت مشاعرها وأفكارها لا نزال مصطبغة بصبغة العصور الوسطى ، وحتى الأقلية التي تحررت من هذه الصبغة كانت لا تزال جوانحها تنطوى على أصدِاء وذكريات من الدين القديم ، بآماله ، ومحاوفه ، ورواه الغامضة الخفية ، وما ينطوى عليه من رقة ، وخشوع ، ونزعات روحية ، وقوى تسرى فى نفوسها ؛ وكان لا يد لهذه كلها ، ولما يعبر عنه فن النحت اليوناني والروماني من جمال متعدد الأنواع، ومثل عليا مختلفة ، أن تجد لها فى الفن الإيطالى متنفساً وشكلا ؛ وكان فى وسع التصوير أن يؤدى هذه المهمة أداء إن لم يكن أكثر من النحت إخلاصاً ودقة ، فلا أقل من أن يكون أكثر منه يسراً . وكان النحت قد درس قبلنذ جسم الإنسان دراسة بلغت من الطول والحب مدى يقلل من قدرته على تمثيل ااروح ، وإن كان المثالون القوط قد أفلحوا من حين إلى حين في تمثيل الروح في الحجارة أحسن تمثيل. وكان لابد لفن النهضة أن يصور الجسم والروح والوجه والشعور ؛ وكان عليه أن يكون قوى الإحساس بالمدى الذي تسطيع أن تبلغه التقوى ، والحب ، والانفعال ، والألم ، والتشكك ، والشهوانية ، والكبرياء ، بضرومها المختلفة ، وأن يتأثر مهذا المدى وتلك الضروب وتنطبع فيه . والعبقرية الحِدة الكادحة وحدها هي التي تسطيع أن تمثل هذا في الرخام ، أو المرنز ، أو الصلصال ؛ ولما حاول جبرتى ودوناتلو أن يفعلا هذا كان علهما أن يتقلا إلى فن الحت أساليب الرسم الملون بما ينطله من فن المنظور والتلوج غير المُحسَن ؛ وقد ضحيا من أجل وضوح التعبر ما كان يطلب إلى التماثيل اليونانية في العصر الذهبي أن تلترمه من مثل أعلى في الشكل ، ومن هدوء واطمئنان فى الوقفة والوضع . ونضيف إلى ذاك أخبراً أن الرسام يتحدث إلى الناس بلغة أقرب إلى أذهانهم من لغة النحت ، فهو يتحدث إلىهم بالألوان التي تجتنب العين ، وبالمناظر التي تروى قصصاً عيبة . ولقد وجدت الكنيسة أن التصوير أسرع تأثيراً في الشعب ، وأقرب إلى قلوبه من كل نحت في الرخام البارد أو صب في البرنز القاتم الكنيب . ولهذا فإنه لما تقدم عهد البهضة واتسع أفق الفن وهدفه ، ارتد النحت إلى الوراء ، وخطا التصوير إلى الأمام ، وأصبح بعد أن اتسع مداه ، وتنوعت أشكاله ، وأنبت ما يستطيع أن يبلغه من حلق ومهارة ، هو الفن الأعلى الذي يبرز خصائص ذلك المعصر ، وصار هو وجه البهضة وروحها كما كان المنحت أسمى التعبر الفني عند اليونان .

لكنه في الفترة التي نتحدث عنها كان لا يزال غير ناضع يتحسس طريقه إلى هذا النضوج. فأخذ ياولو أنشيلو Paolo Uccello يدرس فن المنظور حتى لم يعد مهم بشيء آخر غير هذه الدراسة ، وكان الراهب أنجيلكو Fra Angelico هو للثل الأعلى الكامل للمصور الوسطى في الحياة والفن ، ولكن مساتشيو وحده هو اللي أحس بالروح الجاديدة التي انتصرت فها بعد على يد بتيتشيل Botticelli وليوناردو ورفائيل ؟

وكان بعض ذوى المواهب الأصغر من هولاء شأناً قد نقلوا أصول هذا الفن وتقاليده . فقد تتلمذ جدو جدى Gaddo Gaddi على جينو ، وتتلمذ أنجواو جدى . وتتلمذ أنجواو جدى . Angeloo Gaddi على جدو جدى ، وتعلمد أنجواو جدى . الإسلام المائن عام المائن كنيسة سانتا كروتشى بمظلات من طراز مظامات جبتو . وجم تشينين Cennino Cennini تلميذ أنجولو في كتاب الفن Cennino Cennini تشينين (۱۳۲۷) كل ما كان لدى عصره من معلومات في الرسم ، والتركيب ، والفسيقساء ، والصبقات ، والزيوت ، والورنيش ، وغيرها من مستلزمات.

« هنا يبدأ كتاب الفن ، وهو الكتاب الذى وضع وألف دليلا على تعظيمنا لله ولمريم العذراء : : و ولجميع القديسين . . . وإجلالا لجيتو ، وتديو ، وأيجولا بالمنزاء : : و ولجميع القديسين . . . وإجلالا لجيتو ، وتديو ، وأيجولو وأنهولو راهب كمادوليدى Camaldulese يدعى لورندسو موناكو مورة أنجولو راهب كمادوليدى Camaldulese يدايدة في التصوير والتنفيذ في صورة شويج العفراء التي صورها الراهب لورنتشي Lawrence (١٤١٣) على ستار الحراب الفخم في ديره المعروف بدير ه الملائكة) . فقد كانت على ستار الحراب الفخم في ديره المعروف بدير ه الملائكة) . فقد كانت بواجوه في هذه المصورة فردية لا تجرى على الفيط التقليدي ، وكانت الألوان يراقة قوية . لكن تلك الألواح المتنوعة لم يراع فيها في المنظور ، فقد كانت الصورة التي في المؤخرة أطول من التي في المقدمة ، كأنها رموس النظارة حين يطل طبها الإنسان من فوق المسرح . ومنذا الذي علم المصورين النظور ؟

لقد أخذ بروناسكو ، وجعرتى ، ودوناتلو قبل هذا الوقت يحاولونه ويقتربون منه ، وكاد پاولو أتشيلو ينفق فيه حياته كلها ، فكان يقضى الليلة بعد الليلة مكباً حليه انكباباً جعل زوجته تستشيط منه غضباً . وحدث أن قال لها مرة : و ألا ما أجل هذا المنظور وما أعظم فتنته ! آه لينى أستطيع أن أجعلك تفهمينه ! ٤٧٥ ولم يكن شيء يبدو لپاولو أجمل من تقارب الخطين المتوازيين تقارباً مطرداً ثم امتر اجهما آخر الأمر في صورة حقل عمروث . وأخذ پاولو يصوغ قوانن المنظور مستميناً على ذلك بأنطونيو ماني عمروث . وأخذ پاولو يصوغ قوانن المنظور مستميناً على ذلك بأنطونيو ماني عمروث . وأخذ باولو يصوغ قوانن المنظور مستميناً على ذلك بأنطونيو ماني عمروث منظر ما حين تقترب من جزء المصورة الأماى ، وما يحدث من التواء يشوه منظرها حين تقترب من جزء المصورة الأماى ، وما يحدث من التواء في العمد على شكل قوس . وشعر أخراً بأنه قد وصل إلى القواعد المسطرة على هذه الأمور الغامضة العجيبة . وعرف أنه يفضل هذه القواعد يستطيع على هذه الأمور الغامضة العجيبة . وعرف أنه يفضل هذه القواعد يستطيع

يُعدُ واحد أن يحدع العين فنظنه ثلاثة أبعاد ، وأن التصوير يمكن أن يظهر الفضاء والعمق ؛ وخيل إلى باولو أن هذه ثورة لا تقل في عظمتها عن أية ثورة أخرى في تاريخ الفن : وشرح مبادئه هذه فها أخرجه من صور ، ثم زين مقنطرات سانتا ماريا نوڤلا بحظهات أدهشت معاصريه ، ولكنها عدت عليها حوامل التعرية . غير أنه لا يزال باقيا من صوره صورة حية واضحة المعلم لسير جون هوكود Sir John Hawkwood على أحد جلوان الكنيسة (١٤٣٦) ؛ ذلك أن الزعم المفامر الفخور قد تحول من هجومه على فلورنس إلى المدفاع عنها ، فاستحق بغلك أن ينضم في الكنيسة إلى جماعة العلهاء والقديسن .

وكان نمط آخر من أنماط التطور قد بدأ فى هذه الأثناء من البدابة لفسها ووصل إلى الغابة عينها . فقد كان أنطونيو فينيد سيانو Qerado Starnina من أتباع چيتو ، وكان چير اردو استارنينا Veneziano Masolino de Panicale على استارنينا ثم تتلمد عليه هو مسانفيو . وأخد ماسولينو ومساتشيو يدرسان فن المنظور مستقلين عن پاولو ، وكان ماسولينو من الرعيل الأول من الإيطالين الذين صوروا الأجسام العارية ، كما كان مساتشيو أول من طبق مبادئ علم المنظور الجديدة بنجاح استرعى أنظار أهل جيله وبدأ يلك عهداً جديداً في فن التصوير .

وكان اسمه الحقيقي هو توماسو جيدى دى سان چيوڤي Ouidi di San Giovanni ، أما مساتشيو فقد لقب به من قبيل السخرية ومعناه تومس الصغير ، ذلك أن ماسولينو يعني تومس الصغير ، ذلك أن إياهها تلقب جده الألقاب الممزقة لم ، وعمد مساتشيو إلى الفرشاة في سن ميكرة ، والهمك في التصوير الهماكا أهمل معه كل شيء سواه _ ملابسه ، وجسمه ، ودخله ، وديونه ، وعمل

في وقت ما مع جبرتى، ولعله مال في هذه الدار العلمية إلى تلك المدقة في المتشريح التي أضحت فيا بعد من ممزات صوره، ودرس كذاك المظلمات للتي كان يصورها ماسولينو في معبد براتكانشي Brancacci بكنيسة ساتنا ماريا دل كارميني Santa Maria del Carmine و ولاحظ في هبحة عظيمة تجاريا في المنظور وتمثيل الصور أو أجزائها إذا ما اقتربت من الناظر الها ، ثم مثل على عود في كنيسة الدير المعروفة باسم باديا Badia القديس أيشو ثم مثل على عود في كنيسة الدير المعروفة باسم باديا Badia القديس أيشو النظارة أبوا أن يعتقلوا أن قديسا يمكن أن تكون له قلمان هذه الفخامة . وصور في كنيسة ساننا ماريا نوثلا قبوا ذا سقف نصف أسطواني ضمن مظلم يمثل النالوث الأقدس ، وأنقن في هذه الصورة قواعد المنظور وتناقص أجزائها إلى حد خيل إلى المين معه أنها ترى السقف كأنه غائر في حدار الكنيسة .

أما الآية الفنية الرائمة التي كانت من أهم معالم ذلك العهد ، والتي جعلته معلم أجبال ثلاثة ، فهي الأجزاء التي أضافها إلى مظلمات ماسولينو برانكانشي والتي تمثل حياة القديس يطوس (١٤٢٣) . وقد مثل الفنان الشاب حادثة مال الحراج بقوة جديدة في التفكير ، وصدق في التخطيط : فظهر المسيح في نبل صارم ، وبطرس في جلال غاضب ، والحالى في جسم الرباضي الروماني اللدن ، وظهرت ملامح كل واحد من الرسل وثيابه ووقفته مميزة عن غيرها في سائر الرسل . وكانت المبانى ، والتلال التي في خطف الصورة تمثل في المنظور الناشي ؛ وأضحي تاماسو نفسه وقد عكس صورته تمزاه رسولا ملتحياً في هذا الجمم الحاشد . ودشن المبيد بينا كان هو يعمل في هذه المجتموعة ، وأقم فيه حفل وسار فيه موكب جليل ؛ وراقب ماساتشيو هذه المرامم بعن نافذة احتفظت بصورته ، ثم مثله و وراقب ماساتشيو هذه المرامم بعن نافذة احتفظت بصورته ، ثم مثله و منظم بأحد المقطرات . إذا كان برونلسكو ، ودوناتلو ، وماسولينو ،



(شكل ٩) مال القراح ، منقولة من معهد براتكاشيو بفلورنس – تصوير مباتشيو



(شكل ۱۰) البشارة متقولة من كنيسة سان ماركو بفلورنس – من صنع الراهب انجاكو (انظر ص ۱۸۲)

وجيوڤني دى بيتشي ده ميديتشي ، وأنطونيو برنكاتشيو القائم على المعبد قد اشتركوا جميعاً في هذا الموكب ، فقد وجلوا أنفسهم في الصورة .

وحدث لأسباب لا تعرفها أن ترك مساتشيو العمل دون أن يتمه وسافر للى رومة فى عام ١٤٢٥ . ولم نعد نسمع عنه شيئاً بعد ذلك الوقت ، وليس لنا إلا أن نظن مجرد ظن أن حادثاً ما أو مرضاً قد قضي على حياته قبل الأوان . غير أن المعاصرين قد اعترفوا من فورهم بأن مظلمات برنكاتشيو هذه كانت خطوة كبرة في تقدم فن التصوير . ذلك أن هذه الأجسام العارية الجريئة والثيابُ الرشيقة ، وفن المنظور المدهش ، والتمثيل الواقعي للقرب والبعد ، والتفاصيل الدقيقة فى تشريح الجسم ، واستخدام تدرج الضوء والظل لتمثيل العمق ، كل هذا ينبئ بتحول فني جديد يسميه فاسارى الطراز ٥ الحديث » . وأقبل كل مصور طموح يستطيع الوصول إلى فلورنس · Andrea del Gastagno ن وأثدريا دل چستانيو Fra Lippo Lippi وڤىروتشيو Verrocehio ، وجرلندايو Ohirlandaio ويتشيلي ، وپىروجيتو Perugino ، وپيرو دلا فرانتشسكا ، وليونارد ، والراهب برتولوميو ، وأندريا دل سارتو ، وميكل أنجيلو ، ورفائيل ، ولم يُكِن لأحد من الأموات تلاميذ ممتازون كما كان لمساتشيو ؛ ولم يكن لأحد من الفنانين منا. أيام چيتو من التفوق مثل ما كان له ، وإن لم يكن هو عارفاً بتفوذه ، ويقول ليوناردو إن ٥ مساتشيو أظهر بأعماله التي وصلت إلى حد الكمال أن الذين يسترشدون في عملهم بهدى غير هدى الطبيعية ، وهي السيدة العليا ، بدفنون في النزي الفقر الحبدب ١٤٧٦).

٧ - فرا أنجيلكو

. وظل فرا أنچيلكو وسط هذه الأساليب الحديدة المثبرة يسير في هدو. - على طريقته هو طريقة العصور الوسطى . وكان مولده في قرية تسكانية وهي جيلو دي پيترو ، ثم وفه إلى فلورس وهو شاب ، ودرس فن التصوير ، وأكبر الظن أنه درســه مع اورندسو وموناكو . وسرعان ما نضبُّت موهبته الفنية ، وهيئت له جميع السبل التي تمكنه من أن يشغل مكاناً طيباً مريحاً في العالم ؛ ولكن حب السلام وأمله في النجاة حملاه على أن يلتحق بطائفة الرهبان اللمنيك (١٤٠٧). وظل فراچيوڤني (الأخ چوڤني) وهو الاسم الذي أطلق عليه في هذه الفترة ــ يتدرب على نظام الرهبنة زمناً طويلا في عدة مدن مختلفة ، استقر بعدها في ديرسان دمنيكو San Dominico ببلدة فيسولي San Dominico) ، حيث شرع وسط سعادته التي حباه مها احتجابه وخمول ذكره يزين المخطوطات ويرسم صور الكنائس وجماعات الإخوان الدينية . وحدث في عام ١٤٣٦ أن نقل رهبان سان دمنيكو إلى دير سان ماركو الجديد الذي شاده ميكاتسو بأمر كوزيمو ومن ماله . ورسم چيوفنى فى التسع السنين التالية نحو خمسين صورة بالحص على جدران كنيسة الدير ــ تشمل بيت القسيسين ، ومكان نو مهم ، ومطعمهم ، وموضع راحهم ، وطرقات الدير القنطرة المسقوفة ، وصوامع الرهبان ﴿ وَكَانَ فِي خَلَالَ هَذَهِ المَّلَهُ يَقُومُ بِالشَّعَاثِرُ الدَّيِّنَيَّةِ فِي تُواضِّعُ وخشوع حملاً [زملاءه الرهبان على أن يسموه والأخ الملاك، فرا أنبجيلكو Fra Angelico . وقد بلغ من حلمه أن أحداً من الناس لم يره غاضباً قط ، وأن أحداً لم يفلح في أن يغضبه . وكان في وسم تومس أكهس Thomas à Kempis أن يجد الصورة التي رسمها نتثيل محاطة المسيح قد تحققت إلى أكمل حد فيه إذا استثنينا من ذلك التعميم زلة واحدة لايستطيع الإنسان معها أن يحاجز نفسه عن الابتسام : ذلك أن الراهب الملاك الدمنيكي لم يستطع أن يقاوم نزعة من نزعاته فوضع فى صورة من صور يومم الحساب عدداً قليلا من الرهبان الفرنسيس في الجمحم(١٨) .

وكان التصوير عند الآخ چيوڻني عملا دينياً كما كان متعة وانطلاقاً

لحاسة الجحال . كان مزاجه وهو يصور نفسه مزاجه وهو يصلي ، ولم يبدأ قط تصويره دون أن يصلي قبل بدئه . وإذ كان قد تحرر من منافسات الحياة القاسية ، فقد كان ينظر إلى هذه الحياة كأما ترتبمة من الحب الإلمي والتوبة الإلهية . وكانت الصور التي يرسمها دينية على الدوام ــ حياة مرمم والمسيح ؛ والمنعمن في الجنة ، وحياة القديسن وروساء طائفته . وكان غرضه هو أن يبث التي أكثر مما يخلق الجال ؛ وجربا على هذه القاعدة رسم فى البيت الذى يعقد فيه الرهبان اجماعاتهم الصورة التي يظن أنها يجب أن نكون في ذهنهم على الدوام ــ صورة صلب المسيح ، وهي تعبر قوى أظهر فيها أنجيلكو دراسته للأجسام العارية كما أظهر فيها في الوقت هينه الصفة العامة الشاملة للمسيحية . وقد صور فها عند أسفل الصليب مع القديس دمنيك موسسي طوائف الرهبنة المنافسة لطاثفته وهم ــ أوغسطن ، وبندكت ، وفرانسس ، وچون جولىرتو John Qualberte مؤسس طائفة القلمبروزان Vallombosans ، وأكبرت مؤسس طائفة رهبان الكرمل بم كذلك قص أنجيلكو ، في الكوة التي فوق مدخل حجرة الاستقبال التي يطلب إلى الرهبان أن يقدموا فها واجب الضيافة لكل عابر سبيل، قص في هذه الكوة قصة الحاج الذي تبن أنه هو المسيح نفسه ، وكان بهدف بتصويره إلى أن كل حاج يجبأن يعامل على أنه قد يكون هو المسيح . وقد جمعت الآن في حجرة الاستقبال هذه بعض الموضوعات التي صورها أنيجياكمو لهختلف الكنائس والحرف الطائفية : منها عذراء عمال الكتار. وفها جعـــل الصريحة ، ولا تقل صورة النزول عن الصليب جمالا ورقة عن أية واحلة من ألف الصورة التي تمثل هذا المنظر في فن النهصة . أما صورة يوم الحساب فهي مسرفة بعض الإسراف في تناسب أجزائها ، كما أنها مزدحمة بالحيالات. المرعبة المنفرة كأنما العفو من صفات البشر والكره من صفات الله . أما أروع

صور أنچيلكو فتقوم في أعلى الدرج للودية إلى خلوات الرهبان ، تلك هي صورة النشارة ... وهي تصور ملكا في منهي الظرف والرشاقة يظهر الإجلال والتعظيم لمن ستكون أم المسيح ، وتصور مريم تنحى ، وتمسك كلتا يديها بالأخرى مظهرة بذلك حشوعها وعدم تصديقها. وقد وجد الراهب المحب من الوقت ما استطاع به أن يصبسور فى الصوامع الحمسين بمساعدة تلاميله الرهبان صوراً على الحص تذكر الرائي بمنظر ملهم من مظاهر الإنجيل كالتجلى ، واجتماع الرسل حول العشاء الرباني ، ومرحم الحجدلية تمسح قدى المسبح . وصور أنچيلكو في الصومعة المزدوجة التي ترهب فهاكوزيمو صورة لصاب المسيح ، وأخرى لعبادة الملوك ، تظهر فيها الثياب الشرقية الضخمة التي يحتمل أن الفنان قد شاهدها في مجلس مدينة فلورنس . ورسم في صومعته هو صورة تتويج العذراء ، وكان موضوعها هو الموضوع المحبب له الذي صوره المرة بعد المرة ، ويحتوى معرض أفنزى Uffizi على واحدة منقولة عها كما يحتوى مجمع فلورنس العلمي على واحدة أخرى ، ومتحف اللوفر على ثالثة ، وأحسبًا كلها هي التي رسمها أنچيلكو لقاعة النوم في دير سان ماركو ، لأن صورة المسبح ومريم في هذه الصورة من أبدع الصور في تاريخ الفن كله .

وذاعت شهرة هذه الصور الدالة على التي والخشوع وتوالت يسببها على چيوفي مثات الطلبات ، وكان كلما جاء طلب مها رد على صاحبه يقوله إن عليه أولا أن يحصل على موافقة رئيس الدير ، فإذا حصل على هذه الموافقة أجابه إلى ما طلب على الدوام ؛ ولما طلب إليه نقولاس الحامس أن يحضر الحلى رومة غادر صومعته في فلورنس وذهب ليزين معبد البابا بمناظر من حياة القديسين استيفن ولورنس ، ولانزال هذه الصور من أجمل ما تقع عليه العين في الفاتيكان ؛ وبلغ من إعجاب نقولاس بالفنان أن عرض عليه منصب كبير أساقفة فلورنس ؛ ولكن أنبجيلكو اعتلر وأوصى بأن يعين ق هذا المنصب رئيسه المحبوب ؛ وقبل تقولاس هذا العرض ، وبتى الراهب أنطونينو من القديسين حتى بعد أن لبس ثباب كبير الأساقفة .

وليس من بين المصورين جميعاً – إذا استنينا إلمربكو El Greco (الإغربق) – من ابتكر له طرازاً في التصوير خاصاً به كما ابتكر الأخ أنجيلكو ، وفي وسع كل إنسان حتى المبتدئ أن يتبن هذا الطراز فلا يخطئ فيه . وهو يمتاز ببساطة الحط والشكل وهي البساطة في حجموع الألوان ولكنها قلة أثرية مماوية – تشمل الألوان الله في والزبخرى ، والمترمزى ، والأزرق ، والأخضر – وهي تكشف عن روح نرة ، وإيمان هائئ ؛ وصور رسمت في بساطة متناهية ، تكاد تنفل علم التشريح ، ووجوه جميلة ، ظريفة ، ولكنها شاحية شحوباً يمعلها عن الحياة متشامية تشامياً يعث الملل في الرهبان ، والملائكة ، والقديسين ، كا الحياة متشامية تشامياً يعث الملل في الرهبان ، والملائكة ، والقديسين ، كا روح بلغت المثل الأعلى في الحنان والخضوع ، ونقاء المزاج والتفكير المدى عيد إلى المداكزة أجمل لحظات العصور الوسطى ، ولاتستطيع البضة أن تردها . لقد كانت هام آخر صرخة تبعيها المصور الوسطى في الفن .

وظل الأخ چيوقني يعمل ســنة في رومة ، ثم عمل بعض الوقت في أرقيتو Orvreto ، ثم كان مدة ثلاث سنين رئيساً لدير الدمنيك في فيسولي : ودعى مرة أخرى إلى رومة ، حيث توفى في سن الثامنة والستين . وربما كان قلم لورندمو ثلا الضصيح هو الذي كتب قديته .

لست أريد أن يكون ما أمدح به أنى كنت أبلنر آخر ، بل أريد أذ يكون سبب مديحى أنى خرجت عن جميع مكاسى إلى للومنن بك أمها المسيع؛ لأن بعض الاعمال يتوجه مها إلى الأرض وبعضها إلى السهاء . لقد كنت ، أنا جيوفى ، من أيناء فلورنس المدينة التسكانية :

٣ ــ الأخ فليوليي

ولد من اقتران فن أنجياكو الظريف بفن مساتشيو الشهواني فن آخر أخرجه رجل يفضل الحياة عن الخلود . كان قلبو ابن قصاب يلحى توماسو لي Tommaso Lippi . وكان مولاه في شارع من حي فقعر بملينة فلورنس خلف دير رهبان الكرمل . وتيم الطفل وهو في الثامنة من همره ، فكنلته عمة له وهي كارهة حتى بلغ سن الثامنة ، ثم تخلصت منسه بأن الكتب اتى طلب إليه أن يدرسها يرسوم هزلية . ولاحظ رئيس اللير براعته في هله الرسوم فعهد إليه أن يدرسم المظلمات التى فرخ مساتشيو توا براعته في هله الرسوم فعهد إليه أن يرسم المظلمات التى فرخ مساتشيو توا من تصويرها في كنيسة رهبان الكرمل . ومالبث الصبى أن أخذ يرسم المطلمات التى فرخ مساتشيو توا الصور ، ولكن قاسارى يظن أنها لا تقل جودة عن صور مساتشيو تفسه . وهل يلغ فلهو المسادسة والعشرين من عمره (١٤٣٧) ما قدر الدير ، وظل يسمى نفسه و فرا آجها أن الأخ أو الراهب » ، ولكنه كان يعيش في هله المواترة ، وإن لم يكن في وسعنا أن نتين صدقها الرواية المواترة ، وإن لم يكن في وسعنا أن نتين صدقها :

ا يقولون إن فلهتر كان عاشقا منها ، بلغ من حبه النساء أنه كان إذا رأى امرأة أعجبته ، لم يكن يتردد فى أن يخرج عن كل ما يملك لكى ينالها ؟ فإذا لم يفلح فى هذا أطفأ لهبب حبه برسم صورتها . وغلبت عليه هذه النزعة حتى كان إذا انتابته نوية الهيام لم يلتفت ، طلما كانت مستحوذة عليه ، لمل شىء من عمله ، وحدث مرة ، حين كان كوزيمو يستخدمه فى عمل ما ، أن أغلق حليه باب البيت الملتى كان يعمل فيه حتى لا يخرج منه ويفسيع. أن أغلق حليه باب البيت الملتى كان يعمل فيه حتى لا يخرج منه ويفسيع.

غلبته ؛ فرق اللوحة التي كان يعمل في المجتمى ، وتدلى من النافلة ؛ وقضى يومين كاملين في ملذاته . ولما بحث كوزيمو عنه ولم يجده ، أمر بأن يبحث عنه في كل مكان ، وظل البحث جارياً حتى عاد فليو إلى عمله من القاء نفسه : وكان كوزيمو من ذلك الوقت يسمح له بالحروج والعودة من شاء بكامل حريته ، وندم على حبسه السابق في البيت . . . لأن العباقرة ، على حد قوله ، أجسام فورانية مملوية وليست حمر حمل . . . : وجعل همه من ذلك الوقت أن يربط فليو برباط الحب ، وبذلك كان الفنان أكثر من ذلك الوقعة من ذى قبل ؟

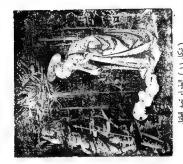
ووصف ا الأخ فلهو ، نفسه في رسالة بعث بها إلى پيرو ده ميديتشي عِأْتُهُ أَفْقَرُ رَاهِبٌ فَى فَلُورَانِسَ ، يَكْفُلُ بِنَاتَ أَخِيهُ اللَّاثِي يَتَقَنَ إِلَى الزَّواج ويعيش معهن(٥٠٠) . وكان العالب كثراً على أعماله ، ولكن يلوح أن ما يتقاضاه عليه كان أقل مما ترغب فيه بنات أخيه . ولسنا نظن أن أخلاقه الشخصية قد بلغت حداً كبراً من السوء، لأنا نجده قد كلف بأن يرسم صوراً لمختلف أديرة النساء . وبينا كان يعمل في دير سانتا مرجريتا ببلدة يراتو Prato إذ وقع في حب لكريتسيا بوتى Lucrezia Boti (إلا إذا كان غاسارى عُمِلناً ، وكانت الرواية المتواترة خاطئة أيضاً ي . وكانت لكريتسيا هذه راهبة أو حارسة للراهبات : وأقنع رئيسة الدير بأن تجعلها تقف أمامه لمرسم على مثالها صورة العذراء ، وسرعان ما فرا معاً . وظلت تعيش مع الفنان على الرغم من تأنيب والدها إياها وإلحاحه علمها بالعودة ؛ وظل يتخلما نموذجاً لصور العذراء على الرغم من غضب والدها وإلحاحه عليها يأن تعود ، وولدت له ابنه فلهينو لي Filippino Lippi اللَّذي ذاع صيته فيها بعد . ولم ير صدئة كنيسة پراتو في هذه المغامرات منقصة كبيرة لفليو ؛ ولمانا عهدوا إليه في عام ١٤٥٦ أن يَزين موضع المرتمين في الكنيسة بمظلمات تصور حياة يوحنا المعمدان والقديس استيفن . وكانت هذه الصور ، التي

والهد كانت أجمل الصور الني رسمها ڤلبو هي صور العذراء(*) ، وذلك

⁽ ه) ومن أمثلة هذه الصور صورة البشارة في كنيسة سان لووندسو في فلورنس فليها ثري فتاة فلاحة في موتف استرحام وتواضع ، وفرى المفراء تعيد الدفار (في بر لين الآن) ،
تتلاق في جلباب المفراء الآزرق وفي فواش الازهار الذي تحت الطفل ، والمدراء المفنوطة
في أفيزي ذات الرجه الافتقر الوقور ، والتقاب المهفهف ، والرداء المساول بطريقة تكبه
حالا فوق جاله ، والممداء التي في معرض بتي ، والمدراء والطفل في قدم آل مهيئتي ، ع
والمفراء والمطفل بين التقيين فرديانو وأو غسطين المفرطة في متحف الوقر ، وتتوبج المفرف ،
الهفوفة في المقاتيكان ، وتتوبج المفراء وما بجانيا من صور الاشغاص التافويين فرى ظرف ،
ورشاقة ، ومجم ظبو فقعه واكم الصلاة ، وقد تاب آغر الأمر ، وهذه الصورة توجه
الإن في أغرى ، وهذه المعرفة المهداء وقد تاب آغر الأمر ، وهذه الصورة توجه



ر سمن ۱۱) تصور السيح متقولة عن معرض أنيزى فى قلورتى من عمل اغدريا دل ڤيروكيو



متعولة عن متحف قيصر و طلم في براين من صنح الراهب قليواپرى (اقطر ص ۱۳۷۷)

بالرغم من مغامراته الجنسية الشاذة ، ولعله كان يسبب حساسيته القوية ووحشقه لحال المرأة . وإن هذه الصورة لتنقصها روحانية صور أنجيلكو للمذراء وما فيها من روحانية أثبرية ، ولكنها مع ذلك تنقل إلى الناظر إحساساً قوياً بالحال "الحال الخافيان الهادئ ، والحنان الذي لا حنان بعده : ولقد أصبحت الأسرة المقنسة في صور الراهب ليو أسرة إبطالية ، تحيط مها حوادث عادية ، وقد خلع فيها على العذراء جالا جهانياً بني باقتراب عهد المهفة الوثني . وقد أضاف فليو إلى هسله المفاتن النسوية فيا أخرجه من صور العمداء بقائية المنات النسوية فيا أخرجه من صور العمداء بقائية المنات النسوية فيا أخرجه من صور العمداء بقائية المنات النسوية فيا أخرجه من

وددته مدينة اسپليتو في عام ١٤٦٦ ليصور قصة العلراء مرة أخرى في قلبا كنيسها . وأخذ يعمل فيها بلمة وأمانة بعد أن سكنت جمى عاطفته النسائية ؛ غير أن قواه كانت هي الأخرى قد ضعفت مع ضعف عاطفته ، ولم يكن في وسعه أن يكرر في هذه الكنيسة الصور الجدارية التي صورها في كنيسة پرانو . وبينا كان يبذل هذه الجمهود إذ مات مسموماً ، ويظن فلسارى أن اللين دسوا له السم هم أقارب فتاة أغواها . وهذه القصة بعيدة الاحتمال ، لأن فلير دفن في كنيسة أسپليتو ، حيث شاد له ابنه بعد سنني قلائل من ذلك الوقت قبراً فخماً عهد إليه به لورندسو ده مبدينتشي .

إن كل إنسان يملق الجال جدير بأن تحيا ذكراه ، واكن من واجبنا الله تحريب Dominico Veneziano وقاتله المزعوم أندريا دل كستانيو Andrea del Castagno . فأما دمنيكو فقد استدعى من پروجيا (١٤٣٩) لمرسم صسوراً على جئيران كنيسة ساننا ماريا نروفا (القديسة مارية الجاديدة Santa Maria Nuova) وكان من مساعديه شاب تلوح عليه أمارات النجابة من أهل برجو سان سباكرو Borgo San Sepotcro يدعى پيرو دلا فراتئسكا . وقد قام في هله الصور التي لم يق مها شيء الآن بتجربة من أول التجارب التي أجربت في

هي صورة امرأة (في متحف برلين) ذات شعر منسدل إلى أغلى ، وحينين تهان عن القلق ، وأنف بارز وصادر متفخ ، ويقول فاسارى إلى أغلى ، وحينين تهان عن القلق ، وأنف بارز وصادر متفخ ، ويقول فاسارى إلى أغلى ، وحينين أندريا دل كستانيو قواعد الفن الجليدة ، وكان هو أيضاً وقتئد يرسم صوراً عندارية في كنيسة سانتا ماريا نوفا ، وربما كان تنافسهما قد أفسد ما بيهما من صداقة لأن أندريا كان رجلا عنيداً سريم الانفعال ، ويصف لنا فاسارى كيف قتل أندريا كان رجلا عنيداً سريم الانفعال ، ويصف لنا فاسارى على قتل أندريا أربع سنن ، وكان اللي أذاع شهرة أندريا هو صورة أفان المنظور كل من رآها حتى زملاءه الفنائين . وتوجد في ديرسانت بولونيا القدم في فلورنس مختفية فيه صوره الحيالية لداني ، ويترارك ، أولونيا القدم في فلورنس مختفية فيه صوره الحيالية لداني ، ويترارك ، وصورة مية واضحة لبيو اسبانا Pippo Spana الجندى المتمجرف ، وصورة عبد واضحة لبيو اسبانا Pippo Spana الجندى المتمجرف ، وصورة طاهماء الوفرت إلى لوناردو بفكرة أو فكرتين

الفصِلالثّامِن

متنوعات أشتات

إذا شئنا أن نشعر بحياة الفن فى فلورنس أيام كوزيمو شعوراً حياً واضحا فإن علينا ألانقتصر على درس حياة أولئك العباقرة الذين مررنا مهم ، بل إن علينا فوق ذلك أن ندخل الشوارع الحانبية والأزقة الضيقة من شوارع الفن وأزقته ، وأن تزور مثلث الحوانيت ومشاغل الفنانين حيث كان صناع الفخار يشكلون الطين ويلونونه ، أو صناع الزجاج ينفخون الزجاج أويقطعونه إلى أشكال من الآنية الهشة الجميلة ، أو الصياغ يشكلون المعادن النفيسة أو الحجارة الكريمة ، ويصنعون منها الحلي ، والمدليات ، والأختام ، وقطع النقود ، وألف قطعة وقطعة من زينة الثياب أو الأشخاص ، أو البيت أو الكنيسة : وعلينا أن نسمع إلى ضجيج الصناع المنكبين على أعمالهم يطرقون الحديد ، أو النحاس ، أو العرنز أو ينقشونها ، ويصنعون منها أسلحة ودروعاً ، وأوعية وآنية وأدوات للعمل والصناعة . وعلينا فوق ذلك أن نلاحظالنجارين صناع الأثاث وهم يصمدورُ ، أو ينحتون الحشب ، أو يرصعونه أو يمسحونه ٤٠ والحفارين ينقشون المعادن ، وغيرهم من العال ينقشون أثاث المعبد ، أو يرسمون على الجلد ، أو ينحتون العاج ، أو يُقرجون للنسوجات الرقيقة ليجعلوا بها الأجسام مغرية ، أو يزينوا بها البيوت . وعلينا كذلك أن نلخل الأديرة ، ونشاهد الرهبان يزينون المخطوطات في صبر وأثناة ، والراهبات الهادئات يطرزن الأقمشة تروى القصص وتزدان بها الجلمران . وعلينا قبل هذا كله أن تتخيل أهل البلاد وقد بلغوا درجة من الرق تكني لفهم الجال ، ومن الحكمة ما يكبي لأن يغمروا أوانك الذين بهبون أنفسهم للفن بأسباب الشرف والعيش ، ويمدوهم بالحوافز القوية لو اصلة هذه الجهود ،

وكان حفر المعادن من مخترعات فلورنس ، ومات مبتدع هذا الفن قي نفس العام الذي مات فيــه كوزيمو . كان توماسو فنجورا Tommaso Finiguerra من صناع النبِّل أي أنه كان يحفر أشكالا مختلفة على المعدن. أو الخشب ، ثم يملأ الفراغ الحادث بمركب أسود مصوع من الفضــة والرصاص . وتقول إحدى القصص اللطيفة إن قطعة من الورق أو القماش سقطت مصادفة على سطح معدتى فرغ هوتوا من تطعيمه ، فلما رفعها وجد صورة السطح المعدني مطبوعة علمها . إن في هذه القصة شواهد على أتها وضعت بعد أن تم اختراع هذا الفن ٤ على أنه مهما يكن من أمرها. فإن فنجور ١١ وغيره من الفنانين قد عملوا إلى أخذ بصات على الورق ليحكموا منها على أثر الرسوم المحفورة .. ويلوح أن باتشيو بلديني Baccio Baldini رحوالي. ١٤٥٠ ﴾ وهو صائع فلورنسي هو أول من أخذ هذه الطوابع من سطوح المعادن المحفورة ، ليتخذها وسيلة لحفظ رسوم للفنانين وتكثيرها . وكان. بتيتشلي ، ومنتنيا Mantegna وغيرهم يمدونه بالرسوم . وبعد جيل من ذلك. الوقث ارتقى ماركنتنيو زيمندى Marcantonio Raimondi بالأصول الجديدة لفن النحت ، واتخذها وسيلة ينشر لها في العالم فن التصوير في عها. النهضة. بجميع مظاهره ما عدا ألوانه .

ولقد استقينا إلى آخر هذا الناب رجلا لا نفرف أى صنف نضعه فيه .
وحير طريقة لفهمه أن نقول إنه جمع كل خصائص زمانه وتجسمت فيه .
لقد جمع ليون باتسا ألرق Leon Battista Alberti كل خصائص القرن الذي عاش قيه عدا ناحيته السياسية . فقد ولد في مدينة الندقة لأب منو من فلورنس ، ثم عاد إلى فلورنس ، حين أعيد إلها كوزيمو ، وشغف حيا بفها ، وموسيقاها ، وندوالها الأهبية والفلسفية . واستم إن فلورنس لحبه هذا بأن خلعت عليه لقب الرجل الكامل الذي ليس بعد كماله كمال خية كمان وسم الوجه ، قوى البنية ، بارعاً في جميع أنواع الرياضة الجسمية ،

ويستطيع وقدماه موثوقتان أن يقفز من فوق رجل واقف ، كما يستطيع وهو وأقف في الكتدرائية الكبرى أن يقاف بقطعة من النقود إلى داخل حلقة فى القبوة ، وكان يسلى نفسه بترويض الحيوان السرى وتسلق الجبال ، وكان إلى هذا مغنياً بارعاً ، وعازفاً قديراً على الأرغن ، ومحدثاً ساحراً ، وخطيبًا مفوهًا ، يقظ الذهن هادئه ، سيدًا رقيقًا مجاملا ، شهمًا كريمًا في معاملة جميع الناس عدا النساء ، فكان لا يثفك مهجوهن هجاء لاذعاً ، وبغضب قد يكون متكلفاً ، وقلما كان يعنى بالمال ، ولهــــذا فقد عهد إلى أصدقائه أن يعنوا بأملاكه ، وكان يقتسم معهم ما تدره عليه من دخل ؛ وكان يقول إن ، في وسع الناس أن يفعلوا كل شيء إذا أرادوا ، ، والحق إنا قلما نجد من كبار الفنانين في النهضة الإيطالية من لم يبرعوا في كثير من الفنون . وكان ألىرتى ، كما كان ليوناردو يعد نصف قون من أيامه ، أستاذاً أو في الفليل ممارساً ماهراً ، في أكثر من عشرة مبادين - في الرياضة والميكانيكا ، والعارة ، والتصوير ، والموسبقي ، والشعر ، والتمثيل ، والفلسفة ، والشرائم المدنية والكنسية . وكان يكتب في هذه الموضاعا كلها تقريباً ، وكان ثما كتبه رسالة في التصوير تأثر بها پدو دلا فرانتشسكو ، ولعالها أثرت أيضاً في ليوناردو وأضاف إلى كتاباته حوارين عن النساء وعن فن الحب ، ومثالا ذائع الصيت عن « العناية بالأسرة » . وكان إذا انتهى من رسم صورة دعا الأطفال وسألم عما يفهمون منها ، فإذا عجزوا وتخيروا فى الإجابة حكم علمها بالإخماق (١٩). وكان من أوائل المصورين الذين أدركوا الفائدة التي ترجى من آلة التصوير المظلمة الصندوق . وإذ كان الرجل مهندساً معارياً قبل كل شيء ، فقد ألحذ يتنقل من مدينة إلى مدينة ليبني واجهات للمباني أو معابد على الطراز الروماني . واشترك وهو في رومة في تخطيط المباني التي كان نقولاس الخامس ، يقلب مها العاصمة ظهراً لبطن ، کما یقول فاساری . وحول فی رمینی Rimini کنیسة سان فرانتشسکو القديمة إلى معبد لايكاد يفترق في شيء عن الهياكل الوثنية . وأقام في

ظهورنس واجهة من الرخام لكنيسة سانتا ماريا نوقلا ، وشاد لأسرة روتشيلاى Rucellaf ، وقصرين Rucellaf ، وقصرين هَخمن ذوى تحفيظ بسيط ؛ وزين في مانتوا Mantua كتدرائية إنكوروتانا lucoronata ومعيدها وأنشأ لكنيسة سانت أندريا واجهة على صسورة عوس نصر روماني .

والن مسلاة أد تدمى فيلووكسوس بلغة لاتينية منقلة بالتراكيب الاصطلاحية إلى حد لم بشك أحسد معه في أنها من تألف كاتب قدم حين قال لهم هو هذا من قبيل السخرية بالجيل الذي كان يعيش فيه . وكان يكتب رسالاته في صورة حوار مهلهل وبلغة إيطالية مهلة خالية من الزخرف يستطيع أن يقرأها رجل الأعمال الكثير المشاغل نفسه . وكان دينه رومانياً أكثر منه مسيحياً ، ولكنه كان يصبح على اللوام مسيحياً حين يسمع القرائم الكفسية . ونظر بعين بصبرته إلى الأمام ، فعمر عن خوفه من أن ضعت العقائد المسيحية سيلتي بالعالم في غمار الفوضي الأخلاقية والفكرية ، وركان يجب إلريف الحيط بفلورنس ، ويأوى إليه كلما استطاع ؛ وأنطق يوجنيو Teogenia ، وهو الشخصية التي صمى مها حواره ، بقوله :

فى وسعى أن أستمتع فى هذا المكان على مهل بصحة الأموات العظاه ؛ قاذا ما آثرت أن أتحدث إلى الحكماء ، أو رجال الحكم ، أو الشعراء فلمظام ، فما على إلا أن ألحاً إلى أرفق كتبى ، فأجد فيها من الصحاب خيراً ممن تستطيع قصوركم أن تحبونى سم على ما فها من موال ومتملقين .

وكان كوزيمو يتفق معه فى رأيه ولا يجد فى شيخوخته سلوى أكمر من بيوته الريفية ، وأصدقائه الأخصاء ، ومجموعاته الفنية ، وكتبه . وكان يعانى آلاماً معرحة من داء الرثية ، وترك فى آخر أيامه مهام الدولة الداخلية إلى لوكا يتى ، فأساء هذا استخدام تلك الفرصة لذيد بها ثورثه . ولم تكن شروة كوزيمو نفسه قد نقصت بسبب ما كان ينفقه فى الصدقات ، وكان يشكو تلك الشكوى الوهمية الفكهة وهي أن الله كان دائماً يسبقه فيعيد إليه ما ينفقه في أوجه الحير ، مضافاً إليه ربحه (٥٠٠). وكان حين يذهب للإقامة في أوجه الحير من كتب أفلاطون ، وتعلمذ في هسله الدراسة على محسوبه ، وتعلمذاً في ذلك على ما نقله أفلاطون عن سقراط لا على أقوال المسيع ، ولما مات (١٤٦٤) حزن على موته أصدقاؤه وأعداره على السواء ، فقد كانوا يخشون أن تضرب الفوضى أطنانها في الحكومة ؛ وخرجت المدينة كلها تقرياً تشيع جثته إلى قبره اللدى كلف دزيديريو دا سستنيانو Desiderio da Settignano أن يعده له في كنيسة سان لورندسو.

وكان الوطنيون من أمثال جوتشيارديثي Guicciardini ، الذين أغضبهم مسلك آل ميديتشي المتأخرين ، يرون فيه ما يرى بزوتس Brutus ق قيصر ^(٩٣) ؛ وكان مكيڤلي يعظمه كما يعظم قيصر ⁽⁴⁰⁾ . لقد قضي كوزيمو على اللمقراطية ، ولكن الحرية التي وقف في سبيلها لم تكن إلا حرية الأغنياء في أن يحكموا الدولة حكماً قائمًا على العنف والتحرب , ولسنا ننكر أنه قد لوث حكمه بأفعال القسوة التي كان يرتكها في بعض الأحيان ، ولكن حكمه كان في معظمه من أكثر العهود ليناً ، وسلاماً ،و نظاماً في تاريخ فلورنس ، وكان المهد الآخر الذي يضارعه هو عهد الحفيد الذي دربه آباؤه : وقالم عرف التاريخ أسراً أوتى ما أوتيه من حكمة في الكرم ، واهتمام حق بتقدم الإنسانية ؛ ويقول فتشينو في هذا : وإنى مدين الأفلاطون بالشيء الكثير، ولكني لست أقل من ذلك ديناً لكوزيمو ، فهوالذي حقق لي الفضائل التي أخذت فكرتها عن أفلاطون ٤٥٠٠. وقد ازدهرت في عهده الحركة الإنسانية الأدبية ، وفي عهده نالت العبقريات المتعددة التي وهمها دوناتلو ، والراهب أنبِولكو ، وليولبي من السيخاء ماكان أكبر مشجع لهـــا ، وفي أيامه هاد أفلاطون إلى تيار الإنسانية الفكرى ، بعد أن ظل يطمس معالمه عهوداً طوالاً . ولما انقضي على موت كوزيمو عام ، وسنحت الزمان الفرصة لأن

يطمس مجده ويكشف عن أخطائه قرر المجلس الأعلى فى فلورنس أن ينقش على قبره أنبل ما يستطيع أن يمنحه من الألفساب وهو د أبو وطنم pater patriae ، والحق أنه كان خليقاً بهذا اللقب ، فقد رفعت الهضة يفضله رأمها عالياً ، ووصلت فى عهد حفيده إلى أننى فروتها ، وفى عهد ابن حفيده فتحت رومة . ألا إن فى وسع المرء أن ينفر لأمثال هذه الأسرة كثيراً من المذوب :

الباب الزابع

المصر التعي

1897 - 1878

الفصل لأول

بيرو ا إلجتوسو ،

ورث پرو بن كوزيمو وهو في سن الخمسين ثروة أبيه ، وسلطانه ، ومداه نه موادا مفاصله . وقد حلي به هذا المرض مرض ذوى اليسار مند أيام صباه ، ولحملنا كان معاصروه يمبزونه من غيره بمن يشهونه في اسمه بأن يلقبوه إلمحتوب و الد و الأخلاق ، أحسن القيام بعدة مهام دبلوماسية عهد مها إليه والده ، حكان مكرماً لأصدقائه ، مناصراً الآداب ، والدين ، والفن ، ولكنه كان يعوزه ذكاء كوزيمو ، وظرفه ، وبشاشته ، وكياسته . وكان كوزيمو قد ضمين لنفسه العون السيامي بأن أقرض ذوى النفوذ من مواطنه مبالغ طائلة ، ولكن يبرو لم يكد يخلف أباه حتى طالب فجاءة مهذه القروض ؛ فما كان من بعض المدينن الذين كانوا يخشون الإفلاس إلا أن نادوا بالئورة ، باسم الحرية التي اتخلوها شعاراً لم ، كما يقول مكيفلي الحكومة وقتاً ما ، يغون با غرضهم ه (۱۱) . واستطاعوا أن يسيطروا على الحكومة وقتاً ما ، ولكن حزب آل ميديشي استردها مهم ، وظل يبرو يحكم المدينة حكماً .

وخلف پيرو ولدين لورندسو ودست سنه حشرين عاماً وجو لياتو Oiuliano وكان في السادسة عشرة من عمره .. ولم تكن فلورنس تصدف بأن هذين الفلامن يصلحان لإدارة أعمال أسرتهما دع عنك شئون اللولة عامة ، وأخذ بعض الأهلن يطالبون بإجادة الحكم الجمهورى في حقيقته وفي مظهره ، وكان كثيرون يحشون أن تضرب الفوضي أطناها في المدينة وتتقد فها نار الحرب الداخلية ، ولكن لورندسو أدهشهم بأن أزال هذا الخداع فجاءة عن عيوبهم .

الفصل لثاني

لم يكن ضعف صمة پيرو خافيا على كوزيمو ، ولهذا بذل كل ما في وسعه ليعد لورندسو للاضطلاع بواجبات الحكم . وكان الغلام قد درس اللغة اليونانية على جوانس أرچيروپولس Jeannes Argyropoulos والفلسفة على فتشينو ، وتعلم وتربى عن غبر قصد بالاسباع إلى حديث الحكام ، والشعراء ، والفنانين ، والكتاب الإنسانيين . وتعلم كذلك فنون الحرب، ونال وهو في التاسعة حشرَة من عمره الجائزة الأولى في مباراة الفروسة قامت بين أبناء الأسر الكبيرة في فلورنس ، بفضل شجاهته لا محاباة ، لأسرته (٢) . وكان منقوشاً على درعه في تلك المباراة شعار فرنسي معناه و سيعود الزمان Le temps revient ؛ وهو شعار يصبح أن يكون شعار النهضة . وكان قد عمد في هذه الأثناء إلى كتابة المقطوعات الفنائية بأسلوب دانثي و پتر ارك ، و إذ كان لا بد له أن يتبع التقاليد السائدة في أيامه فيكتب في الحب ، فقد أخذ يبحث في الأسر الشريفة عن سيدة يتصبب فها بشعره ، حتى وقع اختياره على لكريديسيا دوناتي Lucrezia Donati وأخذ يتغنى بجميع فضائلها ماعدا عفتها التي كانت موضع أسفه فقد يبدو أنها لم تسمح له بأكثر من عواطف قلمه . ورأى يبرو أن الزواج هو العلاج الشافي من داء العشق ، فأقنع الشاب بأن ينزوج كلارتشى أرسيني Clarice Orsini (١٤٦٩) ، وجذا استطاع أن يعقد حلفاً بن آل ميديتشي وبين واحدة من أقوى أسرتين في رومة . وأقام آل ميديتشي سلمه المناسبة ولائم لأهل المدينة كلهم دامت ثلاثة أيام متوالية ، واستهلك فيها خسة آلاف رطل من الحلوي .

وكان كوزيمو قد درب الصبي على ممارسة الشئون العامة بعض التدريب ، -فلما تولى بيرو الأمر وسع دائرة تبعاته المالية والحكومية ، ولما توفى بيرو ، أَلْتِي لُورِنْلُسُو نَفْسُهُ أَغْنَى رَجِلُ فِي فَلُورِنْسُ ، بِلَ رَبَّا كَانَ أُغْنَى رَجِلُ فِي إيطاليا كلها . ولقد كان تصريف شئون ماله وأعماله عبثاً ينوء به كاهله الغض ويثيح الفرصة لأن تعود الجمهورية فتفرض عليه سلطانها ؛ ولكن عملاء آل ميدتشلي ، ومدينهم ، وأصدقاءهم ، ومن ولوهم هم مناصبهم قد بلغوا وقتتا. درجة عظيمة من الكثرة ومن الحرص على أن يدوم سلطان الأسرة ، فلم يمض على وفاة يبرو غير بومين حتى مثل بين يدى لور نلمو في بيته وفد من ذوى المكانة في المدينة ، وطلبوا إليه أن يتولى قيادة سفينة الدولة . ولم يجد الوفد صعوبة في إقناعه بالنزول على مطلبه ؛ ذلك أن مصالح أسرة ميديتشي المالية كانت متصلة بشئون المدينة اتصالا يخشى معه أنَّ تنهار إذا استطاع أعداء هذه الأسرة أو منافسوها أن يستحوذوا على السلطة السياسية . وأراد أن يكم أفواه من يوجهون النقد لصغر سنه ، فعين مجلساً من المواطنين المجربين يستشيرهم في حميم الأمور ذات البال ، وظل طول حياته يستشير هذا المجلس ، ولكنه سرعان ما أظهر من الحصافة وأصالة الرأى ما جعل المجلس يسلم بزعامته فلايعارض آراءه إلا فى القليل النادر . وقد عرض على أخيه الأصغر قسطاً كبراً من السلطة ، ولكن جوليانوا كان يؤثر علمها الموسيقي ، والشعر ، والمثاقفة ، والعشق ؛ وكا**ن** -شديد الإعجاب بلورندسووسره أن يتخلى له عن مشاغل الحكم وما يضفيه على صاحبه من الشرف. ونهج لورندسو في الحكم مهج كوزيمو ويبرو من قبله ، فظل (حتى عام ١٤٩٠) مواطناً عادياً ، ولكنه كان يشير بالحطط السياسية على الغاليا Balia التي كان لأنصار أسرته فها أغلبية مضمونة موثوق مها . وكان لمجلس البنالينا منص الدستور سلطة مطلقة وإن كانت موقتة ؛ وقد أُصبِح في عهد الميديتشيين مجلساً دائماً من سبعين عضواً .

وارتضى أهل المدينة حكمه لأن الرخاء ظل كماكان ؛ ولمـــا زار جاليتسو ماريا اسفوردسا Galeazzo Maria Sforza دوق ميلان مذينة فلورنس في عام ١٤٧١ ذمل حين شهد ما تتمتع به المدينة من ثراء ، وذهل أكُ من هذا نما جمعه كوزيمو ، ويعرو ، ولورندسو من روائع الفن في قصر آل ميديتشي وحدائقهم . فقد كانت المدينة حتى في ذلك الوقت متحفاً حقاً من الفائيل ، والمزهريات ، والجواهر ، والصيور ، والهطوطات المزدانة بالنقوش ، والآنار المعارية . وأكد جاليتسو أنه شاهد في هذه المحموعة وحدها من الصور الجميلة أكثر مما شاهده منها في سائر إيطاليا ؛ ذلك أن فلررنس قد سبقت غرها بمراحل طريلة في هذا الفن الذي يمتاز به عصر النهضة . وزاد آل ميديَّشي ثراء على ثراثهم حين رأس لورندسو (١٤٧١) وفداً من أهل فلورنس قدم إلى رومة لهيُّ سكتس Sixtus الرابع بارتقائه عرش البابوية ؛ ورد سكتس على هذه النهنئة بأن جدد تعين ممثل بيت ميديتشي مديراً للأموال البابوية ؛ وكان يبرو قد حصل قبل خمس سين من ذلك الوقت على حق استغلال المناجم البابوية القريبة من سفيتا فيتشيا وكانت تخرج حجر الشب الثمين المستعمل في صباغة الأقشة وصقلها ؛ وكان استغلال هذه المناجم يدر عليه أموالا طائلة .

وواجه لورندسو بعد قليل من عودته من رومة أولى أزمانه الكدرى التي لم يفلح كل الفلاح في معاجلتها . وتفصيل ذلك أن منجماً من متاجم الشب في ناحية ثلته المتلاك فلورنس ــ قد أجر إلى بعض المنعهدين أكبر الظن أنهم كانوا ذوى صلة بآل ميديتشي . فلما تبنى لأهل فلنبرا أن المنجم يدر ربحاً موفوراً طالبوا بأن يكون البلدية قسط من هذا الربح . فاحتج المتمهدون على هذا الطلب ، ورفعوا أمرهم إلى مجلس فلورنس الأعلى . وزاد المجلس المشكلة تعقيداً حن أمر بأن يلهب الربح بأجمعه إلى بيت مال دولة فلورنس كلها . واحرضت فلترا على هسلما الأمر ؛

وأعلنت استقلالها ، وقتلت عدداً من الأهلمن الذين عارضوا في انفصالها:
عن الهورنس . وتشار توماسو سوديريني Tommaso Soderini بتسوية
الحلاف بالتوفيق بن الطرفين ، ولكن لورندسو وفض ما عرض عليه من .
وسائل التوفيق ، وكانت ججته أن ذلك يشجع الفتن وحركات الانفصال
في أنحاء أخرى من اللمولة ، وأخذ بها الرأى ، وأخمدت الفتنة بالقوة
القاهرة ، وأفلت زمام جنود فلورنس المرتزقين ، وجبوا المدينة الثائرة .
فلم يسع لورندسو إلا أن يعجل بالذهاب إلى فلترا ، ويبلل جهده لإعادة .
النظام وإصلاح ما فسد من الأمور ؛ ولكن ذلك العمل بقي وصمة في سجل حكمه »

ولم يتردد الفلورنسيون في ان يعفروا له فسوته على فلتبرا ، وامتدحوا نشاطه حين أنقذ الملبينة من المجاعة في عام ١٤٧٧ باستراد مقادير موفورة و من الحبوب . وسرهم فوق ذلك جن عقله حلفاً ثلاثياً مع البندقية وميلان لكى يحفظ بالسلم في شمال إيطاليا . غير أن البابا سكتس لم يرض كل الزضا عن هذا العمل ، ذلك أن البابوية لا يمكن أن تعيش مطمئتة على سلطتها الوثنية الضعيفة إذا كانت على أحد جانى الولايات البابوية دولة قوية موحدة في شمال إيطاليا ، ومملكة نابلي القوية تحف مها من الجانب الآخر ولما عرف سكتس أن فلورنس تحاول ابتياع مدينة إيمولا وإقليمها (وهي الواقعة بين بولونيا وراقنا) ارتاب في أن لورندسو يعمل لبسط أملاك عجل بشراء إيمولا البحر الأحرياوى . فا كان من سكتس نفسه إلا أن عبل بشراء إيمولا البابوات من الناحية القانونية ، وإن كانت قل سلسلة المدن الحاضعة لسلطان البابوات من الناحية القانونية ، وإن كانت قل خضمت لم فعلا . وقد استمان في هذا العمل بخدمات شركة ياتسي الاسمونية ويتلد أقوى منافس لآل ميديتشي . مؤلورتس إلى باتسي الاميازات التي تدر المربح الموفور والحاصة ثم نظن من فلوردس إلى باتسي الاميازات التي تدر المربح الموفور والحاصة

يتصريف شنون المالية البابوية ، ولم يكتف بذلك بل عن رجلن من أعماء المدينة سبن – چيرولامو رياريو Girolamo Riaro حاكماً لايمولا وفرانتشكو سلفياتي Francesco Sailviati كبيراً لأساقفة پيزا ، وكانت وتتنا من أملاك فلورنس . ورد لورنسو على ذلك قل ساعة غضبه بعمل عاجل طائش لم يكن كوزيمو لبرضى به : ذلك أنه أتخذ الوسائل المؤدية إلى الهيار شركة پاتسى ، وأمر بيزا أن تمنع سلفياتي من الحلوس على موامرة الاستفية . واستشاط البابا غضباً من هــلما العمل ، ووافق على موامرة أي أن يوافق على اعتبال عدوه الشاب ، ولكن المتآمرين لم يجلسوا في هذا التأنق عقبة عول بيجم وبين غرضهم ، قديروا. أمر قتل لورندسو وجوليانو الثناء القداس الذي سيقام في الكنيسة الكرى في يوم عبد القصيح (٢٦ أبريل من عام ١٤٧٨) ، في اللحظة التي يرفع فها القس القربان للقدس غير ميالين من عام ١٤٧٨) ، في اللحظة التي يرفع فها القس القربان للقدس غير ميالين بمنافة ذلك العمل للأصول الدينية المرعبة . وانفق على أن يستولى سافياتي وجاعة تخرون على البلانسو فيتشيؤ ويطردوا مجلس فلورنس الأعلى

وجاء لو رندسو إلى الكنيسة في اليوم المحدد لا يحمل سلاحاً وليس معه حريا على سنته ، وتأخر جوليانو عن الموحد المضروب ، فلهب إليه فرانتشسكو ده پاتسي وبر ناردو بنديني ، وكانا قد تههدا باغتياله ، وأخلا عرادان معه ، وأفنماه باللهاب إلى الكنيسة ، وفها وبيناكان القس يرفع يده بالقربان المقدس طعنه بنديني جوليانو في صدره ، فسقط على الأرض مدرجاً بلمه ، وانقض عليه فرانتشسكو وأخذ يكيل له الطعنات بعنف أدى إلى جرح ساقه هو . وهاجم أنطونيو دا فلترا الممارات بعنف أدى وقسيس يدعى استفانو لورنامسو يختجرجها ، فاتتى الضربات بلراعيه ، وقسيس يدعى استفانو لورنامسو يختجرجها ، فاتتى الضربات بلراعيه ، وهل يصب إلا يجرح خفيف ، ثم أحاط به أصدقاره وساروا به إلى إحدى غرف المتداون بعد موته إلى قصر آل ميديتشي

وبيناكانت هذه الأحدات تقع في الكنيسة زحف سلڤياتي كبير الأساقفة ، وياقو پو ده پاتسي وماثة من أتباعهما المسلحين نحو اليلاتسا (قصر) ڤيتشيو ، وحاولوا أن يثيروا الشعب ويضموه لهم بصياحهم الشعب! الحرية! ولكن الشعب. التف حول آل ميديتشي في هذه الأزمة ورد عليهم بندائه لخبي السكرات! وهي شارة آل ميديتشي ، ولما دخل سلڤياتي القصر طعنه سنزاري پُٽروتشي حامل الشعار ؛ وشُنق ياقوپو ده مجيو lacopo di Poggio ابن الكاتب الإنساني المعروف في إحدى نوافذ الْقصر ، وقبض كبار الحكام في عزم وشجاعة على عدد آخر من المتآمرين اللمين ارتقوا الدرج ، وألقوا مهم من النوافذ، فنهم من مات من شدة الاصطنام بالأرض ومنهم من أجهز عليه الشعب رجماً بالحجارة : ولما ظهر أمامهم لورندمو ومن حوله عدد كبر من الحراس عبر الشعب عن فرحته بنجاته بغضبه العنيف على كل من ارتاب في أنه كانت له يد في هذه المؤامرة ، واختطف فرنتشسكو ده پانسي من فراشه ، وكان قد خارت قواه من كثرة ما نزف من دمه ، وشنق إلى جانب كبىر الأساقفة ، الذي أخذ يعض كتف فرانتشسكو وهو يعالمج سكرات الموت . . وجرت جثة ياقوپو ده پاتسي كبير الأسرة المبجل هارية في شوارع المدينة وألقيت في نهر الآرنو Arno. وبذل لورندسو كل ما يستطيع أن يبذله لتخفيف حنق العامة وتعطشهم للدماء ، وأنقذ حياة عدد من الذين اتهموا ظلماً بالاشتراك في المؤامرة ؛ ولكن الغرائز لتعبر عن نفسها وهي آمنة وخافية عن الأعنن في زحمة الجاهبر .

وهال سكستس الرابع أن يشنق كبر الأساقفة على هذا النحو ، فأصداقًا قراراً بحرمان لورنددو ، وحامل الشعار ، وكبار الحكام فى فلورنس ، ووقف جميع الحدمات الدينية فى كافة أملاك المدينة ، واحتج عدد من وجال. الدين على قرار الحرمان ، وأصدروا وثيقة ينددون فها بالبابا وملاوها بأشنع الفاظ السباب (٣) ؛ وبعث فرانتي Ferrant أى فرديناند الأول ملك نابل. بناء على طلب البابا وفداً إلى فلورنس يدعو مجلسها الأعلى وأهلها إلى أن يسلموا لرو تنصو إلى البابا أو ينفوه من المدينة على الأقل. ونصح لورندسو المجلس بإجابة طلب فرديناند ، ولكن المجلس رد عليه بأن فلونس مستعدة. لأن تتحمل أية محنة تنزل بها وألا تغدر بزعيمها فتسلمه إلى الأعداء. فما كان من سكتس وفرانتي إلا أن أعلنا الحرب على فلورنس (١٤٧٩) ، وهزم ألفنو ابن الملك جيش فلورنس بالقرب من مجيوبتني Poggiobonsi .

وما لبث أهل قلورنس أن أخذوا يتذهرون من فدح الضرائب اآ فرضت علمهم لأداء نفقات الحرب ، وأدرك لورندسو أنه ما من جماعة: تطول تضحيبًا بنفسها من أجل فرد واحد . فاستقر رأيه في هذه الأزمة الخطيرة من ناريخ حياته على قرار لا يستقر عليه صواه ولم يسبق أن اتخلد. مثله من قبل. ذلك أنه ركب البحر من پنزا إلى نابلي ، وطلب أن يؤخل للى الملك . وأعجب فرانتي بشجاعته ، فقسد كان الرجلان يحتربان ،. ولم يحصل لورندسو على تصريح بضمان حيانه في سنره ، ولم يكن معه سلاح ولا حرس . وأكثر من هذا أن فرانتشسكو پسينيو الزعم الحربي المغامر الذى دعى إلى نابلي لينزل ضيفاً على مليكها قد اغتيل غدراً وخيانة من وقت قريب بأمر من الملك نفسه . واعترف لورندمو يصر احة بالصعاب التي كانت فلونس تواجهها ، ولكنه أوضح شدة الخطر الذي يحيق بنايلي إذا قوى سلطان البابوية بتمزيق أملاك فلورنس ، لأن البابوية إذا تم لها هذا استطاعت أن تصرعلي طلها القديم وهو أن تكون نابلي إقطاعية بابوية تعطى الجزية عن يد وهي صاغرة . يضاف إلى هذا أن الأنراك كانوا يزحفون على الغرب برآ وبحراً ، وأنهم فد يغزون إيطاليا في أى وقت من الأوقات ، ومهاجمون أملاك فرانتي الواقعة على البحر الأدرياوي ، وليس

من مسمحه إيطاليا فى تلك الأزمة أن تنقدم على نفسها وأن تحزقها الأحقاد والحروب الداخلية . ولم يرتبط فرانتى مع لورندسو بشيء ، ولكنه أمر بأن يحجز لورندسو كما يحجز الاسير والضيف الكريم .

وزادت الانتصارات المستمرة التي نالها ألفنسو على جيوش فلورنس وإلحاح سكتش المستمر بأن يرسل لورنلسو إلى رومة أسيراً بابوياً ، زادت هٰله وثلك مهمة لورتدسو صعوبة على صعوبتها . وبتى أمر زعم فلورنس ثلاثة أشهر طوال معلقاً لا يبت فيه ، وكان يدرك أن إخفاقه ` مهمته سيؤدى في أكبر الظن إلى قتله وإلى القضاء على استقلال فلونس . وكان في هذه الأثناء قد كسب صداقة الكثرين بكرمه وسخائه ، ودمائة أخلاقه ، وبشاشته ؛ وكان ممن كسب صداقتهم الكونت كارفا Count Caraffa وزير الدولة ، فأخذ هذا يدافع عن قضيته . وقلو فرانتي أعظم التقدير ثقافة أسره ، ونبل خصاله ؛ فها هو ذا كما يلوح رجل مهذب كريم ، فإذا حقد الصلح مع رجل على شاكلته فإن ذلك سيضمن لنايلي صداقة فاورنس طوال حياة لورندسو على أقل تقدير . ولهذا وقع معه معاهدة ، وأهداه جواداً كريماً ، ومعم له بأن يركب البحر من نابلي . ولما علمت فلورنس أِن لورناسو جاء بالصلح رحبت به ترحيباً فخماً اعترافاً منها بجميله . واستشاط سكتس غضباً ، وأراد أن يواصل الحرب بمفرده ؛ ولكن مجمناً الثاني فاتح القسطنطينيه أنزل جيشاً له في أتر انتو Otranto (١٤٨٠) ؟ وهدد باجتباج إيطاليا ، والاستبلاء على حصن المسيحية اللاتبنية نفسه . · فها كان من سكتس إلا أن دعا أهل فلورنس المفاوضة في شروط الصلح . وقدمت وفودهم إلى البابا ما يجب له من فروض الطاعة ، وأخذ هو يؤنهم أشد التأنيب ، ثم عفا عنهم . وأقنعهم بأن يجهزوا خمس عشرة سفينة لمحاربة الأتراك ، وعقد الصلح معهم وأصبح اورندسو من ذلك الحين سيد تسكانيا . لا ينازعه في ذلك منازع .

القصارات الث لورندسو الأفخم

وشرع الآن يحكم حكماً رحيا أكثر مماكان يمكم في أيام شبابه ؛ وكان وقتئذ قد بدأ العقد الرابع من عمره ، ولكن الناس كاثوا سريعي النضوج فى أيام النهضة ذات الأحداث التي تعجل النضوج. ؛ ولم يكن لورنلسو وسما ؛ فقد كان أنفه الكبر الأفطس يشرف على شفته العليا ، تم يعود فيتجه نحو الخارج اثجاهاً عبَّجيباً . وكان أدكن اللون ، وكانت جهته الصارمة وفكه الثقيل يهان عن غير ما يبدو من دماثة أخلاقه ، ورقة أدبه ومجاملته ، وحلو فكاهته ، وعقله المرهف الشاعرى . وكان طويل القامة ؛ عريض المنكبين، قوى البنية ، أشبه برجال الرياضة منه برجال السياسة والحكم، والحتَّى أنه قلما كان يفوقه أحد في ألعاب القوة . وكان في سبره وجلوسه مهيباً إلى الحد الذي لا غني له عنه في منصبه السامي ، أما في حياته الخاصة فإنه سرعان ما يجعل أصدقاءه يتسون سلطانه وثراءه . وكانكابته ليوالعاشر بلتشي Pulci ، شاعراً مع پولتيان Politian عالماً مع لندينو Landino فيلسوفاً مع فيتشينو Flcino ، يتذوق جمال الفن مع بثيتشلي Botticelli ، موسيقياً مع اسكوار تشيالون Squarcialupi ، مرحاً مع أشد الناس مرحاً ف أيام الأعياد . كتب مرة إلى فيتشينو يقول : 1 إذا ما اضطرب عقلي بكثرة الأعمـــال العامة وصخها ، واستكت مسامعي بصراخ المواطنين المشاكـــن ، فكيف أطيق ذلك الخصام والنز اع إذا لم أجد الراحة وبالعلم ، ؟ – ويقصد بالعلم طلب المعرفة على اختلاف أنواعها(١) :

بيد أن أخلاقه لم تكن مضرب المثل في الكال كما كان عقله ، ذلك أنه

(۱۱ - چ ۱ - مجله ه)

كان ، مثل الكثيرين من معاصريه ، لا يدع عقيدته الدينية تحول بينه. وبن الاستمتاع بالحياة . فكان يكتب ترانيم دينية بإخلاص ظاهر ، ولكنه كان ينقل منها دون تأنيب من ضمر إلى القصائد التي تتغنى بالحب الشهو انى : وبيدو أنه لم يعرف الندم قط إلاعلي ما فاته من الملاذ ؛ ولما أن قبل مكرهاً ولأسباب سياسية زوجة كان يجلها أكثرمما يحها ، أخذ يستمتع بالزنا كعادة أهل زمانه ، ولكنه لم يكن له أبناء غبر شرعيين ، وكانوا يرون في ذلك مزة له على غيره من أمثاله : ولا يزال الجدل حاميًا حول خلقه التجاري. لكن أحداً لم يشك قط في سخاته ؛ والحق أنه كان منالافاً للمال مثل كو زيمو ، لا يستربح له بال حتى يجزى على كل عطية بمطية أكبر منها ؛ وقد أمد بالمال أكثر من عشر منشآت دينية ؛ وأعان عدداً لا يحصى من الفنانين ، والعلماء ، والشعراء ؛ وأقرض الدولة أموالا طائلة . وكان من نتيجة ذلك أنه وجد بعد مؤامرة ياتسي أن ما أنفقه من الأموال على الشئون العامة والخاصة قد تركه غير قادر على أن يوفي بالتر اماته ، فما كان من المجلس ، الحريص على استرضائه ، إلا أن يقرر الوفاء بديونه من مال الدولة (١٤٨٠) . وليس من الواضح كل الوضوح أكان هذا العمل جزاء هادلاً له على خدماته التي أداها لبلاده ، وأمواله الخاصة التي أنفقها في الأغراض العامة(٥) ، أم كان اختلاساً سافراً للأموال العامة(١) . فإذا عرفنا أن هذا العمل لم يقلل من حب الشعب للورندسو مم أنه كان معروفاً له غير خاف عليه ، فإن هذا في حد ذاته يوحي بأن التفسر الهن الرقيق أدنى التفسيرين إلى الصواب . ولقد كان جوده ، وثراره ، وترفه في منزله. كل ما كان يفكر فيه الناس حين لقبوه ب**الأ**فخم Magnifico . 11

وكان من أثر نشاطه الثناق المتعدد النواحى أن اضطره إلى إهمسال. موسساته المالية المترامية الأطراف بعض الإهرال . وقد استغل عماله انشفاله سهده الشئون فاندفعوا في الإسراف والتدايس . ولكنه أنقد ثروة أسرته بأل سحها شيئاً فشيئاً من الأعمال التجارية واستضرها في الأملاك المقارية بالمدينة ، وفي الزراعة الواسعة النطاق ؛ وكان يجد لذة كبرى في الإشراف بنفسه على مزارعه وبساتينه ، ولم يكن علمه بالمحصيات يقل عن علمه بالفلسفة . حي أضحت أرضه القريبة من قصره الربقي في كاريجي Careggi وبجيو أكابانو Poggio a Caiano مضرب المثل في الاقتصاد الزراعي .

وانتعشت حياة فلورنس الاقتصادية تحت حكمه(٢) ، فنقصت فوائد الديون فيها إلى خمسة في الماثة ، وسرعان ما ازدهرت المشروعات التجارية التي كانت تجد المال موفوراً ، ودام هذا الازدهار حتى صارت إنجلترا منافساً لها يخشى بأسه في صادراتها من المنسوجات. وكانت ســـياسة السلم التي النهجها في حكمة وسياسة توازن القوى التي استمسك مها في إيطالياً ف العشر السنين الثانية من هذا الحكم أقوى أثراً من العوامل السابقة نفسها . ذلك أن فلورنس اشتركت مع غبرها من الدول الإيطالية في طرد. الأتراك من إيطاليا ، فلما تم لها ذلك أُقنعُ أورندسو فرنتى ملك ناپلى ،. وجاليتسو اسفور دسا Galsazzo Sforza صاحب ميلان أن يعقدا مع فلورنس. حلفاً للدفاع المتبادل ، ولما أن انضم البابا إنوسات الثامن إلى هذا الحلف ، بادرت كثير من الدول الصغرى إلى الانضهام أيضاً إليه . وتنحت عنه مدينة البنلقية، ولكن خوفها من الحلفاء أرغمها على أن تسلك بإزائه مسلكاً" طيبًا ؛ ودامت السلم في إيطاليا بفضل هذه الوسيلة حتى توفى اورندسو إذا استثينا فترات قصيرة قليلة . . وقد بذل في هذه الأثناء كل ماكان ادبه من كياسة وماله من نفوذ لحماية الدول الضعيفة من القوية ، ولتسوية المصالح المتضاربة والمنازعات ، والتوفيق بينها ، والقضاء على كل سبب من أسباب الحرب قبل استفحاله(^) . وبلغت فلورنس في هذه العشر السنين السعيدة (١٤٨٠ – ١٤٨٠) ذروة مجـــدها في الشنون السياسية والأعمال الفنية والأدبية .

وكان لورندمسو من حيث الشئون الداخلية يحكم عن طريق مجلس السبعين . Consiglio di Settante وكان هذا المجلس يتألف بنص دستور سنة ١٤٨٠ من ثلاثين عضواً يختارهم عجلس سيادة المدينة القائم في ذلك العام ، ومن أربعين عضواً آخرين يختارهم هؤلاء الثلاثون . . وكانت عضويته تدوم ملى الحياة ، وكان ما يحدث فيه من فراغ يملأ باختيار هؤلاء الأعضاء أنفسهم ؛ وبفضل هذا النظام لم يكن مجلس السيادة وحامل العلم أكثر من عمال منفذين لسياسة مجلس السبعين ، واستغنى مهذا عن البرلمان الشعبي وعن الانتخابات العامة . ولم تكن معارضة هذه السياسة بالأمر الهن ، لأن لمورندسو كان يستخدم الحواسيس للوقوف علمها ، وكانت لديه الوسائل الكافية لمضايقة معارضيه من الناحية المالية . وبللك اختفت الأحزاب القديمة إلى حين ، وقضى على الجرائم ، وساد النظام وإن ضعفت الحرية ؛ وفي ذلك يقول أحد الكتاب المعاصرين : وليس لدينا هنا تلصص ، ولا اضطرابات ومشاغبات ليلية ، ولا اغتيالات ؛ بل إن في مقدور كل إنسان أن يصرف شئونه ليلا أو نهاراً وهو آمن كل الأمان »(٩٠). ويقول حِوْتَشْيَارْدِينِي Guiceiardini : ﴿ إِذَا كَانَ لَابِدَ لَفَلُورِنْسَ أَنْ يَكُونَ لَمَا حَاكِمُ مستبد ، فإنها لم يكن في مقدورها أن تجد مستبدا خبرًا منه أو أكثر منه مهجة ٤ . وكان التجار يفضلون الرخاء الاقتصادى على الحرية السياسية ؛ أما صعاليك المدينة فقد شغلوا على الدوام بالأشغال العامة الواسعة النطاق.، وغفروا للورندسو سلطانه المطلق ما دام يمدهم بالحبز والألعاب . وأما الأغنياء هٔ كان يغربهم بألعاب الفروسية ، ويشر مشاعر الطبقات الوسطى بسباق الخيل، والعامة بالحفلات والمواكب.

وكان من عادة أهل فلورنس فى أيام المواكب التنكريــــأن يطوفوا يشوابرع المدينة فى أقنعة زاهية مخيفة ، ينشدون أغانى هجائية أوغرامية ، وأن ينظموا مواكب نصر ـــ ما يسمونه ال**تريفى Trionfi** ـــ وهى استعراض من جموع تسع في أزياء منفوشة أو تبجان من أزهار نمثل شخصيات أو أحداثاً أسطورية أو تاريخية . وكان لورندسو يجب هذه السنة ولكنه يغشى ما تنزع إليه من اضطراب ، ولهذا اعتزم أن يخضمها لسطرته ، وذلك بأن يمنحها موافقة الحكومة وتنظيمها ؛ وسهذا أضحت هذه المذانين في مهده أحب مظاهر الحياة إلى نفوس الفلورنسيين . وقد استخدم الفنانين لتصميم المركبات ، والأعلام ، والأزياء ، ووضع هو وأصدقاره الأغاني التي يتغيى بها من فوق المركبات ، وكانت هذه الأغاني تمثل ما في الأعلاق . وكان أشهر مواكب لورندسو الأعياد التنكرية من تحلل في الأخلاق . وكان أشهر مواكب لورندسو فتيات حساناً وجاءة من الشبان فوى النياب الغالية الجميلة يمتطون جياداً فيهنات عبائدان الفسيح القائم أمام الكنيسة الكبرى ؛ وكانت أصوات متناسقة متعددة النفات تمثل المورد ، تغني قصيدة من نظم لورندسو نفسه لا تنفق بأى حال مع الموضع الذي تغني قيسه أمام كنيسة .

١ – ما أحلى الشباب وما أخلاه من الهموم ! ولكنه يسرع بالفرار فى كل ساعة . أمها الفتيان والفتيات استمتعوا مهلما اليوم لأتكم لا تعرفون شيئاً مما يأتى يه الغد .

٢ ـــ هذا هو باخوس وهذه أدريائى المبتهجة
 المحان الصادقان !

وهما ، على الرغم من سرعة مر الزمان يجد كلاهما ق صاحبه متعاً جديدة على الدوام

٣ ـ. أو لئك الحور العنن وأتباعهن جميعاً

يستمتعن بأعياد متواصلة .

أيها الفتيات والفتيان استمتعوا بهذا اليوم

لأنكم لا تعرفون شيئاً نما يأتى به الغد .

١٤ – أيتها السيدات وأيها العشاق من الشبان !

ليعش باخوس ، ولتحى الشهوات ارقصوا ، والعبوا ، وغنوا ،

وليملأ الحب الحلو صدوركم ناراً.

١٥ ــ ومهما يكن ما يأتى به المستقبل

فاستمتعوا أيها الشبان وأيتها الفتيات بيومكم هذا لأنكم لا تعرفون شيئاً مما يأتى به الغد(١١).

وتوید أمثال هذه القصائد والمواكب بعض التأیید ما الهم به لورندسو من أنه أفسد شباب فلورنس ؛ وأكبر الظن أن هذا الشباب كان ، یفسد من تلقاء نفسه وإن لم یعمل هو علی فساده ؛ ذلك أن الآداب العامة فی البندقیة ، وفرادا ، ومیلان لم تكن خبرا مها فی فلورنس ، بل إن هذه الآداب كانت فی فلورنس علی عهد آل میدیتشی المصرفین خبرا مها فی دومة آیام البابوات المیدیتشین

لقد كانت حاسة الجال المرهفة في لورندسو أقوى من أن تكبيع جماحها آدابه العامة ، وكان الشعر من أهم ما يصبو إليه وينفق فيه ساعات فراغه ، وكانت قصائده تضارع خبر ما قبل من الشعر في أيامه ؛ وبينا كان بوليتان الذي يفرقه في هذا الميدان لا يز ال يتردد بن اللختين اللاتينية والإيطالية ، كانت أشغار لورندسو قد أعادت إلى اللغة الإيطالية القومية الأسبقية الأدبية الى النام المينانيون ؛ وكان يفضل مقطوعات يترارك المنائية على أشعار الحب التي جاءت في الآداب اللاتينية القديمة ، ولم من أغنية ولى كان يسبل عايه أن يقرأ هذه الأشعار في فعها الأصلية ؛ وكم من أغنية

أنشأها كانت خليقة يأن تزدان بها أغانى پترارك نفسه . ولكنه لم يأخذ الحب الشعرى مأخذ الحد فوق ما يجب أن يأخذه . وكان يكتب بإخلاص أكثر وأجمل عن المناظر الريفية ، التي يمرن فيها أطرافه ويستمتع فيها بهدوء عقاه : وكانت خبر قصائله هي التي يتغني فها بما في الربف من الغابات ومجارى المياه ، والأشجار والأزهار ، وقطعان الماشية والرعاة . وكان في بعض الأحيان يكتب قطعاً شعرية فكهة ممت بلغة الفلاحين السادجة ، فأوجدت فيها شعراً حياً بهيجاً ، وكتب في بعض الأوقات هز ليات هجائية متحررة من المبادئ الخلقية تحرر هزليات رابلية Rabelais ، ثم كتب مسرحية دينية لأبنائه ، وترانيم نجد في مواضع متفرقة منها نغمة من التقي الذي تسرى فيه روح الإخلاص ، غبر أن أكثر ما يميزه من القصائد عن غره من الشعراء هي أَعْاني النسكر التي كتبت ليتغنى بها في أوقات الأعياد وفى ساعات اللهو والانشراح ، والتي تعبر عن مشروعية اللَّـة ، وتسخر من احتشام العذاري . وليس ثمة ما نستبن منه أخلاق المبضة الإيطالية وآدامها . وتعقدها ، واختلاف مناخبها ، من صورة أعظم شخصياتها ومحور قطمها يحكم دولة ، ويصرف شئون ثروة ، ويثاقف في أعمال الفروسية ، ويكتب شعراً ممتازاً . ويشمل برعايته النقادة الممزة الفنانين والمؤلفين ، ويختلط في غير تكلف أو تباعد بالعلماء والفلاسفة ، والفلاحين؛ والمهرجين ، ويمشى فى المواكب ويترنم بالأغانى الفاجرة الخليمة ، ويؤلف الأناشيد الرقيقة ، ويداعب العشيقات ، ويلد أحد البابوات ، وتجله أوريا بأجمعها وتعلمه أعظيم الإيطاليان في زمانه وأكثرهم نبلا .

لفصل الرابع

الأدب: عصر پوليتيان

وأفاد أدباء فلورنس من عونه ومثله فأخلوا يزيدون في كل يوم ما يكتبونه باللغة الإيطالية ؛ وأخرجوا على مهل اللغة التسكانية الأدبية التي Varchi أضحت نموذجاً ومثلا تحتّليه شبه الجزيرة كلها . ويصفها فاركى المتحمس لوطنيته : « بأنها ليست أحلى وأغنى لغات إيطاليا وأكثرها ثقافة فحسب ، بل إنها تفوق فى هذا كله جميع اللغات المعروفة فى هذا الايام ١١٧٠ » .

وبيما كان لورندسو يحى الأدب الإبطالى ، كان فى الوقت عينه يواصلى فى جد و هاسة مشروهات جده فيجمع كل ما يستطيع من الكتب الأدبية اليونانية والرومانية القديمة ليفيد مها العلماء فى فلورنس . من ذلك أنه بعث بوليتيان والرومانية القديمة ليفيد مها العلماء فى فلورنس . من ذلك أنه بعث بوليتيان وخارجها لشراء المخطوطات القديمة ، وقد جاء لاسكارس من دير واحد حند جها آتوم Mt. Athos بمالى مخطوط ، منها عشرون لم تكن معروفة لو معمح له بأن ينفق كل ثروته ، بل ويرهن أثاث بيته ليبتاع الكتب . وكان يستأجر النساخين لينسخوا له ما لا يستطيع شراءه من المخطوطات ويحيز فى نظير ذلك لفره من المولمين بجمع الكتب أمثال مائياس كور فينوس ويحز فى نظير ذلك لفره من المولمين بجمع الكتب أمثال مائياس كور فينوس نساخين من عندهم ليعيدرا نسخ ما فى مكتبة آل ميدنشي من عنطوطات . : نطاحية ما المجموعة الأخرى الى نظام ضواعة الأخرى الى

وضعها كوزيمو من قبل في دير سان ماركو ، وكانت المجموعتان تضان في هام ١٤٩٥ تسعة وثلاثين وألف مجلد منها ستون وأربعاثة باللغة اليونانية . وخطط ميكل أنجيلو فيما بعد داراً فخمة لهذه الكتب ، وأطلق علمها الحلف اسم لورندسو فسهاها المكتبة اللورنتيانية Bibliotheca Laurentiana. ولما أنشأ برناردو تشينيني Bernardo Cennini مطبعة في فلورنس (١٤٧١) ، لم يسخرلور ناسو من الفن الجديد ، كما سخر منه صديقه بوليتيان أو فلمريجو دوق أربينو ؛ بل يبدو أنه أدرك ما سوف يتمحض عنه نظام. الحروف المتنقلة من إمكانيات ، واستخدم العلماء لمقابلة النصوص المختلفة حتى تطبع الكتب القديمة بأعظم الدقة المستطاعة في ذلك الوقت وشجع ذلك بارتولوميو دى لرى Bartolommeo di Libri نطبع النسخة الأصلية من مؤلفات هومر (١٤٨٨) برعاية العالم المدقق دمتريوس كلكنديلس Demetrius Chalcondyles ؛ وكذلك أصدر جون لاسكارس النسخة الأصلية من مؤلفات يوريديز (١٤٩٤) ، والمختارات الشعرية اليونانية ، وموالفات لوتشيان Lucian ، وطبع كرستوفورو لندينو Cristofore Landino أشعار هوراس (١٤٨٧) ، وڤرچيل ، وپاني الأكبر ، ودانتي ، وكانت لغة هؤلاء الثلاثة وإشارتهم تحتاج حتى في هــــذا الوقت إلى شيء من الإيضاح . وفى وسعنا أن نستشف روح ذلك العصر إذا عرفنا أن فلورنس كأفات كرستوفورو على أعماله العلمية بأن أهدت إليه بيتاً فخماً ؛

وهرع العلماء إلى فلورنس بعد أن أغراهم بدلك اشهار آل ميديتشي وغيرهم من أهل فلررنس بما يغدقون عليهم من الهبات ، واتخذوا هذه المدينة عاصمة الثقافة الأدبية . وكان من هولاء العلماء فسيازيانو دا بستشي Vespasiano da Bisticci اللى كان يعمل بائماً للكتب وأميناً للمكتبات في فلورتس ، وإربينو، ورمة ، ثم ألف سلسلة بليغة عكمة في سير أعيار، الرمال خطد فها أسماء كتاب ذلك العصر وأنصار العلم فيه . وأراد لورندسو أن

ينمى البراث الذهني للنوع البشرى وينقله إلى الأجيال القادمة فأعاد إلى الوجود الحامعة القديمة في يهزا والمجمع العلمي الأفلاطوني في فلورنس ووسع نظاقهما . ولم يكن مجمع فلورنس العلمي كلية رسمية بل كان هيثة من العلماء المولعين بفلسفة أفلاطون ، يجتمعون في فترات غير منتظمة في قصر لورندسو عدينة فلورنس أو في قصر فتشينو الريقي في كاريجي Careggi ، ويطعمون معا ، ويقرأون بصوت عال محاورة من محاورات أفلاطون أو أجزاء منها ، ثم يتناقشون فها تحتويه من آراء فلسفية . وكان المجمع يحتفل باليوم السابع من نوفمر ، وهو الذى يزعمون أن أفلاطون ولد ومات فيه ، احتفالا لايكاد يقل روعة ومهابة عن الاحتفالات الدينية ، فكانوا يتوجون بالأزهار تمثالا نصفياً يعتقدون أنه تمثال أفلاطون ، ويوقدون أمامه مصباحاً كما توقد المصابيح أمام صور الآلهة . وقد اتخذ كرستوفورو من هذه الاجتماعات أساساً للحديث الحيالي الذي سهاه حدل السكمارولينين Disputationes Camaldulense (١٤٦٨) و ذكرى فيه كيف زار هو وأخوه دير الرهبان الكملدولينين ، والتتى فيه بالشابين لورندسو وجوليانوده ميديتشي ، وليون باتستا ألمرتى وستة آخرين من علية أهل فلورنس ، وكيف كانوا يضطجعون على الكلأ قرب عن ماء جارية ، ويوازنون بن حياة المدينة المسرعة القلقة ، وسكني الريف الصحي الجميل وبين حياة النشاط وحياة التأمل والتفكير ؛ وكيف كان ألمرتى يمتدح حياة التفكير الريني ، بينا كان نورندسو يقول إن العقل الناضج يودى أكمل وظيفته ويجد أعظم ما يرضيه في خدمة الدوولة وفي تجارة العالم(١٢).

وكان بين من يحضرون مناقشات المجمع العلمي الأفلاطوني پوليتيان ، وبيكو دلا مبرندولا Picco della Mirandola ومرسيليو فيتشينو Marsilio وتدكو دلا مبرندولا Ficino مرسيليو للمهمة التي ندبه لها كوزعو أن

خصص حياته كلها تقريبًا لترجمة أفلاطون إلى اللغة اللاتينية ، ولسراسة الأَفلاطونية ، وتعليمها ، والكتابة عنها . وكان في شبابه وسم الحلق إلى درجة جعلت عمارى فلورنس يشغفن به حبًا ، ولكن عنايته بهن كانت أقل من عنايته بكتبه ؛ وقد ضل عن دينه وقتاً ما ، وخيل إليه أن الأفلاطونية أسمى من اللدين قدراً ، وكان يلقب طلابه ، بأحباثه في أفلاطون ، بدل « أحبائه في المسيح ١٤/٤) ، وكان يحرق الشموع أمام تمثال تصني لهذا الفيلسوف ، ويمجده كما يمجد القديسن(١٥) ؛ ولم تكن المسيحية وهو في هذه النشوة تبدو له إلاأنها أحد الأديان الكثيرة التي تمنى كثيرًا من عناصر الحق في طيات عقائدها الحجازية وطقوسها الرمزية ؛ وظل كذلك حتى ردته كتابات القديس أوغسطين ، وشكره لله على شفائه من مرض خطير ، إلى الإيمان بالدين المسيحي ، وبلغ من شدة إيمانه أن أصبح قسيساً حن بلغ سن الأربعين . ولكنه ظل مع ذلك متحمسًا للأفلاطونية . يقول إن سقراط وأفلاطون قد جاءا بعقيدة للتوحيد لاتقل نبلا عما جاء به أنبياء ببي إسرائيل ، وأنهما هما أيضاً قد نزل عليهما الوحى نزولا مصغراً ، كما نزل فى الواقع على جميع الناس الذين يخضعون لحكم العقل . وحذا لورندسو وبعض الكتاب الإنسانيين حذوه فسعوا إلى تفسير الدين المسيحي تفسيرا يقبله الفيلسوف دون أن يعملوا على استبدال دين جديد بهذا الدين . وظلت الكنيسة جيلا من الزمان أو جيلين (١٤٤٧ – ١٥٣٤) تبتسم لهذه الخاطرة وتتسامح مع القائمين بها حتى جاء سقىرولا وشنع بها وقال إنها خداع وتضليل : وكانت الشخصية الساحرة الجذابة التي لايعلو علمها إلا لورندسو نفسه هي شخصية الكونت چيوڤني پيكودلا مرندولا ، وكان مولده في البلدة (القريبة من مُيدونا) التي أذاع اسمه شهرتها ، ثم نلتي العلم في بولونيا وباريس ، وكان يستقبل بأعظم مظاهر التكريم في بلاط الملوك والأمراء في أوربا كلها تقريباً ، حتى أقنعه لورنلمبو آخر الأمر أن يتخذ فلورنس موطناً له 🥫 وكان عقله الحريص على العلم المتحمس له ينتقل من فرع منه

إلى فرع ــ من الشعر ، إلى الفلسفة ، إلى العارة ، إلى الوسيقي ، ــ وقل وصل في كل فرع منها إلى درجة غير قليلة من البراعة . حيى قال عنه بوليتيان إن الطبيعة قد كملته فجمعت فيه كل و إهمها : «كان طويل القاءة ، متناسب الأعضاء `، يشع وجهــه بشيء من النورانية الإلهية » ؛ نافل النظرات ، لا يمل الدرس . قوى الذاكرة إلى حد الإعجاز ، غزير المعرفة في كل فرع من فروع العلم . فصيح اللسان بجيد عدة لغات ، تعجب به النساء وبحبه الفلاسفة ، لا يقل جمال خُلقه عن وساءة خَلَفُه ، بلغ الدرجة العلا في جميع الصفات اللهنية . والاكان عقله مفتوحاً بلحميم الفاء فات والأديان ؛ لا يسعه ولا يوائمه أن يرفض أى لطام أو أى إنسان ؛ ومع أنه نبذ التنجيم في السنن الأخسرة من حياته ، فإنه رحب بالتصوف وبالسحر ولقيا منه من القبول ما لقيه أفلاطون والمسيح. ولم يضن بكلمة طيبة على الفلامفة المدرسين ، الذين رمأهم معظم من عداه من الكتاب الإنسانين بأنهم قوم همج ينطقون بالسخافات والأباطيل . وكان يجد في التفكير العربي(٥٠ والمهودي كثيراً مما يدعو إلى الإعجاب ، وكان من بين أساتذنه وأصدقائه المكرمين عدد كبير من البهود(١٦) . وكان منع بين ما درمـــه أسرار القبله المهودية ، واعترف في غير مماحكة ولا تكلف بما يعزى إليها من قدم ، وجهر بأنه وحد فيها أدلة تقطع بألوهية المسيح .. وإذ كان من ألقابه الإقطاعية أنه « كونت كنكور ديا(* * Count of (*) Concordia فقد أخذ على عاتقه ذلك الواجب السامى واجب التوفيق بين. ديانات الغرب العظمى ـــ المهودية ، والمسيحية ، والإسلام ــ ثم التوفيق بينها وبين أفلاطون ، ثم بين أفلاطون وأرمطو . وكان كل من عرفه يتودد إليه ويتملقه ، ولكنه ظل إلى آخر حياته القصيرة يحتفظ بتواضعه

 ⁽ه) يريد التفكير الإسلام بطبيعة الحال . (المترجم)
 (ه) يشير المؤلف إلى أن چيوڤني يريد أن يحقق ما يدل عليه لقبه وهو «الاتفاق.
 أن التصاب » . (المترجم)

الساحر الفنان الذى لا تضارعه إلا تقته القوية المخلصة بدقة علمه وبقرة العقل الإنساني .

ولما قدم إلى رومة فى الرابعة والعشرين من عمره (١٤٨٦) ، أذهل الفساوسة . والعلماء بأن نشر مجموعة مكونة من تسعائة قضية تشمل المنطق ، وما بعد الطبيعة ، واللاهوت ، وعلم الأخلاق ، والرياضيات ، والطبيعة ، والسحر ، والقبلة ، ونضم قرق ذلك البدعة الدينية السمحة القائلة بأنه ما دامت أعطم خطيئة ارنكمها الإنسان محلمودة غير أبدية ، فإمها لا يمكن أن تستحق العقَّابِ الأبدى ﴿ وجهر پبكو باستعداده للدفاع عن أيَّة قضية من هذه القضايا وعنها جميعاً في أية مناقشة عامة ضد أي إنسان ، وعرض أن يقوم بأداء جميع تفقات السفر لمن يريد أن يتحداه أيا كان البلد اللى يأتى منه . وقد مهد لهذه المباراة الفلسفية المقترحة بإعداد رسالة ذائعة الصيت عرفت فيا بعد باسم : في كرام الانساد De hominis dignitate عبر فيها مجاسة الشباب عن آراء الكتاب الإنسانيين في النوع الإنساني وهي الآراء التي تناقض معظم ما يراه أهل العصور الوسطى . وقد كتب پيكو في ذلك يقول : ٥ من ألاً قوال المألوفة في المدارس أن الإنسان عالم صغير نتبن فيه جسما امتزجت فيه العناصر الأرضية ، بالروح السماوية ، والنفس النباتية بحواس الحيوانات الدنيا والعقل الإنساني ، وعقل الملائكة ، وصورة الإله ١٤٧٦) ؛ ثم قال على لسان الله نفسه تلك العبارة التي قالها لآدم وعدها دليلا من قبل الله على ما للإنسان من إمكانيات لا حد لها : و لقد خلقتك كائناً لست سماوياً ولا أرضياً . . . لكي تكون حراً في أن تشكل تفسك وتتغلب علمها . . . في مقدورك أن تنحط فتكون حيواناً ، أو أن تولد من جديد فى صورة الله a وأضاف پيكو إلى هذا عبارة تنم عن الروح العليا المثلة في البضة الفنية:

و تلك هي العطية الإلهية لا تعلو علمها عطية ما ، تلك هي سعادة

الإنسان العظمى ليس بعدها سعادة . . . وهي أنه يستطيع أن يكون ما يريد أن يكون . إن الحيوانات لتحمل معها من أجسام أمهائها من اللحظة التي تولد فها كل ما هو مقدر لها أن تكونه ؛ والأرواح العليا (الملائكة) هي منذ البداية . : . ما سوف تكونه إلى أبد اللدهر ، ولكن الله أبا الكون قد وهب الإنسان منذ مولده أصول كل الإمكانيات وكل نوع من أنواع الحياة (١٨) .

ولم يجروُ أحد على أن يقبل تحدى بيكو فيناقشه في قضاياه المتعددة الأنواع، ولكن البابا إنوسنت النامن وسم ثلاثًا من هذه القضايا بالإلحاد؛ وإذلم تكن هذه القضايا الثلاث إلا جزءاً صغيراً من مجموع قضاياه ، فإن بيكو كان يسعه أن ينتظر من البابا الرأفة به ، وفي الحق أن إنوسنت لم يقف من هذه المسألة موقف الإصرار والمعاندة ﴿ وَلَكُنْ يِبْكُو أَصَّدَرُ تُصْرِيحًا ۗ رجع قيه عن أقواله فيها وإن يكن رجوعاً تكتنفه الحيطة والحذر : وصافر إلى باريس حيث عرضت عليه جامعتها أن تحميه من البابا ، فلما كان عام ١٤٩٦ أبلنم البابا إسكندر السادس المعروف بظرفه ودماثة خلقه پيكو أنه قد نسى كل شيء ، فعاد پيكو من فوره إلى فلورنس ، وأصبح من أخلص أتباع سقنرولا ، وتخلى عن سعيه وراء التبحر في العلوم عامة ، وأحرق مجالماته الخمسة في الغزل ، وخرج عن ماله لأداء باثنات الفتيات الفقىرات ، وعاش هو نفسه كما يعيش الرهبان . وفكر يوماً ،ا في الانضهام إلى طائفة الرهبان الدمنيكيين ، ولكنه مات قبل أن يكون رأيه في هذا الموضوع ــ وكان عند وفاته لا يزال شاباً في الحادية والثلاثين من عمره . ولم ينمح نفوذه بعد انقضاء حياته القصيرة ؛ وكان هو الملهم ارتشلن Reuchlin أن يو اصل في ألمانيا تلك الدراسات العربة التي كان يشغف ما يمكو طوال حاته .

وكان پوليتيان يعجب بپيكو إعجاباً نبيلا كريماً ، ويصحح شعره بعد

أن يقدم لذلك أجمل اعتذار . على أن نجمه لم يلمع بالقوة والسرعة اللتين لمع سهما نجم پيكو، وإن كان أكثر منه نفاذاً إلى بواطن الأمور، وأعظم منه ثقافة و"هذيباً . واتخذ أنجيلس باسوس Angélus Bassus كما كان يسمى نفسه أول الأمر ــ أو أنجيلو أمروچيني Angelo Ambrogini كما كان يسميه بعضهم - اتحذ اسمه الذي اشتهر به أكثر من غيره من الأسماء من مونتى پوللىسيانو Monte Poliziano ڧ مۇخىرة مدينة فلورنس ، ودرس اللاتينية بعد أن قدم إلى فلور نس على كرستوفورو لندينو Cristoforo Landino كما درس اللغة اليونانية على أندرونكوس سالونيكا Andronicua Salonica والأفلاطونية على فتشينو ، وفلسفة أرسطو على أرجروپولوس Argy:opoulos . وبدأ وهو في السادسة عشرة من عمره يترجم هومبروس إلى لغة يونانية قومة ماينة بالمصطاحات اللغوية إلى حد بدت معه وكأنها من أعمال العهد النمضي للشعر الروماني إن لم تكن من عهده اللـهـي . ولما أتم ترجمة الكتابين الأولين بعث بالترجم إلى لورتنسو ، فشجعه هذا الأمبر ـــ أمبر أنصار الأدب والفن ، اليقظ لكل ما يجده من جودة وامتياز ــ على الاستمرار فى عمله ، وأقامه في بيته واتخذه معلماً خاصاً لابنه پىرو ، وأمده بكل ما يحتاجه . ولما تحرر بوليتيان بفضل هذا العون من كُل عوز أخد ينشر النصوص القديمة ومن بينها فموانين مستنياه وأظهر فها من غزارة العلم وأصالة الحكم ما أكسبه ثناء العالم الأدنىكله . ولما نشر لندينو أشعار هوراس قدم لها يرلية إن بقصيدة تضارع في لغنها اللاتينية ، وتركب جملها ، وأوزابها الشعربة المعقدة قصائد هوراس نفسه . وكان يستمع إلى محاضراته في الأدب النديم آل ميديتشي ، و پيكو دلا معرندولا ، وطلبة من الأجانب روتشلن ، وجروسن Grocyn وغير هما _ بعد أن ترددت فيها وراء الألب أصداء شهرته في العام ، والشعر ، والحطابة بلغات ثلاث . وكان من عادته في كثير من الأحيان أن يباءأ محاضرته بقصيدة لاتينية طويلة يقرضها لتلك المناسبة خاصة ؛ وكان من هذه القصائد قصيدة جزلة جيلة النغم سداسية الأوراد تروى تاريخ الشعر من هو ميروس إلى بوكانشيو ؛ وكشفت هذه القصيدة هي وغيرها من القصائد التي نشرها پوليتيان بعنوان الملفيات عن أسلوب لاتيني سهل ، سلس ، فيلض ، قوى الخيال إلى حد جعل الكتاب الإنساليين بنادون به أميراً عليهم على الرغم من صغر سنه ، وسرهم أن اللغة النبيلة التي كانوا يأملون إعادتها قد علمها بوليتيان تعليا بعث فيها الحياة من جليد ،

وقد جمل پوليتان من نفسه كاتباً لاتينياً من طراز الكتاب اللاتين الأقدمين، غير أنه مع ذلك أصدر في يسر وخصب إنتاج طائفة ستابعة من القصائد باللغة الإيطالية لا تجد لها نظراً في كل ما كتب بين پرارك وأريستو، فلما أن فاز جوليانو أخو لورندسو في مثاقفة أقيمت عام ١٤٧٥ وصف پوليتيان هذه المثاقفة في قصيدة مشمنة الأوتاد، رخيمة النغم، رشيقة المبارة ؛ ثم امتدح في قصيدته سموننا الحساد جال حبيبة جوليانو الأرستقراطي بشمر بليغ حسلب جعل شعر الغزل الإيطالي من ذلك للوقت ينمو تموا جديداً في وقة الشط وقوة الشعور. ويصف پوليتيان على لسان جوليانو خروجه إلى الصيد والتقاءه بسيمونتا وغيرها من الفتيات لم قصن في الحقل فيقول:

وجلت الحورية الحسناء التي ألهبت قلمي بنار الحب ذات مزاج لطيف ، ثتي ، فطين تقف وقفة رشيقة ، يشع مها الحب والأدب ، والقداسة ، والحكمة ، والظرف ، وجهها القدسي حلورقيق .

تفيض منه البهجة وتتمثل في عينها السهاويتين جنات الحلد ؟ وكل ما نتمناه نحن الحلائق الفانين المساكين من نعم • وقد أرسلت من رأسها الملكي وحبيبها الوضاء غدائر ذهبية تساقط مسرسلة في مهجة وحبور ؟ وأخلت الحسناء تسير بين المفنين ، وقد انتظمت خطاها ونسقت على وقيم..الأنغام الشيجية ، وأوسلت إلى من .عينها خلسة. .. وهما لا تكادان ترتفعان عن يساط الجقل. ، شعاعاً قدسياً مختلساً .

وكأن شعرها قد دبت فيه البغيرة مني ،

فسد طريق هذا الشعاع وحجبه عن ناظرى . -

ولكنها ، وهى التي ولدت ونشأت فى السنموات العلى كتثنى عليها الملائكة الكرام ،

> لم تكد ترى هذا الظلم حتى رفعت بأنى يد وأنضعها غدائرها العاصية ، وتبدت لى بطلعها الزقيقة الحلوق ، ثم أرسلت من عيدها نظرة حادة ماهية من نظرات الحب القوية ، وقعت على عينى فألهبها ، حتى لم أدر كيف تجوت من الاحتراق بذاك اللهيب ٢٩٦٤

وأنشأ پرليتيان في حب معشوقته إبوليتا لبونشينا المان المأنغام أغاني غرامية أوقت على الغاية في الرقة والحنان ؛ ثم أطلق الدنان المأنغام التي كان يفيض بها قلبه فأنشأ أغاني مثلها يتخذ منها أصدقاؤه رقى يتخلصون بها من حياتهم . ولم يفته حفظ أقاصيص الفلاحين الشعرية ، فلما حفظها صاغها من جليد في صورة أدبة مصقولة ، ثم انتقلت في صورتها الحديدة إلى الشعب وذاعت بين أفراده ، ولا تزال لها أصداء ترد في تسكانيا إلى يومنا هذا . وقد وصف في قصيدته صبيتي السحراء فناة ريفية حسناء تفسل وجهها وصدرها عند عين ماء ، وتتوج شعرها بالأزهار ٥ وكان ثلياها كورد الربيع ، وشفتاها حراوين كالورد » ؛ وذلك وصف قايم ثلياها كورد الربيع ، وشفتاها حراوين كالورد » ؛ وذلك وصف قايم المثاليا

والشعر ، والموسيق ، والغناء، كما حدث فى مسرح اليونان الديونيسى م فوضع في يومين اثنين ، كما يوكل هو ويقسم ، مسرَحية غنائية في ١٣٤٤ بيتاً غنيت للكردنال فرانتشكو جنزاجا Francesco Gonzaga في منتوا. (۱٤٧٢ م. . وقد سماها قصة أورفيوس وتحسدت فها عن موت. یوریدیس Eurydice زوج أورفیوس ، رکیف مانت من عضهٔ ثعبان ، حسن كانت تحاول المرب من راع هام بحيها وكيف اتخذ أورفيوس البائس. المسكن طريقه إلى الجمعم ؛ وسحر پلوتر بقيثارته فلم يسم إله العالم السفلي إلا أن يعيد له يوريديس على شريطة ألا ينظر إلها حتى بحرج من الجحم كله ؛ ولكنه لم بكد يسير بها بضع خطوات حتى غلبته نشوة الحب فالتفت. لراها ، فاختطفت منه وأعيدت من فورها إلى الحجيم ، وحيلي بينه وبين. تعقب خطاها . وأثر ذلك في أورڤيوس وتمتلكه نوبة من الجنون فكره. النساء كلهن ، وأوصى الرجال بأن يغفلوا النساء، ويشبعوا أنفسهم بالغامات كما أشبعها زيوس بجانيميد . واستشاطت مينادات وأرواح ، الغناب غضباً" من احتقاره النساء ، فالبيان عليه ضرباً حتى فارق الحياة ، وسلمخن جلده ،. ومزقن أأطرافه عن جسمه ، وأخذك بغنين وهني مبتهجات لانتقامهن منه . وقد ضاعت الموسيقي التي كانت نصاحبُ الشعر ، ولكن في وسعنا أن نضع ونحن آمنون مسرحية أورفيوسي بين أولى المسرحبات الى تبشر يظهوور المسرحيات الغنائية الإيطالية .

وكاد پوليتيان أن يصبح من الشعراء العظام ، ولكنه لم يبلغ هذه المرتبة . لأنه تجنب مساقط العواطف الثائوة ، ولم يتمعق أغوار الحياة أو الحب ، فهو ساحر على الدوام غير عميق على الإطلاق ؛ وكان حبه لروندسو أقرى. ما حرف من المشاعر ، وكان يقف إلى جانب راعيه و نصره عند مقتلى جوليانو في الكنيسة ، وكان هوالذي أنقذ حياة اورندسو بإغلاق أبواب غرفة المقدسات وإحكام مزاليجها في وجه المتآمرين ؛ ولما عاد لورندسور

من رحته الحطرة إلى نابلي حياه پوليتيان بأبيات من الشعر تشف عن حب
يكاد يزرى به وبسيده ؛ ولما مات لورندمو حزن عليه پوليتيان حزناً يجل
عن العزاء ، ثم أخذ غصته يلجل شيئاً فشيئاً حتى مات بعد عامين من وقتله
فى ذلك العام المشتوم الذى مات فيه پيكو عام ١٤٩٤ عنسلما كشف
الفرنسيون إيطاليا .

ولم يكن لورنامسو ليبلغ ما بلغه من مرنبة الرجل المكمل ، لولم يكن له يعض الهوى بالفلسفة ، ويعض الشك في الدين ، ويعض الانطلاق في الحب ؛ وكان أسر فلورنس المصرفي يدعو إلى صحبته وماثدته لويجي بالتشي Luigi Pulci وبلذ له سمساع المجاء الفظ في قصيدة صرعبتي الأعظر Morgante maggiore . فقد كانت هذه القصيدة الشهرة التي يعجب سأ بىرون تقزأ للورنيسو وضيوف بيته بصوت عال فقرة فقرة . وكان لويجي رَجلا قوى الفكاهة منطلقاً فها ، هز مشاعر القصر والأمة كلها باستخدام لغة الطبقات الوسطى ، ومصطلحاتها ، وأفكارها ، في قصص القروسية الغرامية . وكانت القصص الخيالية التي تصف مغامرات شارلمان في فرنسا ، وأسيانيا ، وفلسطين قد دخلت إيطاليا في القرن الثاني عشر أو قبله ، ونشرها في شبه الجزيرة المغنون الجوالون ، والشعراء المرتجلون ، فتدخل المهجة والسرور على كافة الطبقات. ولكن الذكور العاديين من بني الإنسان كان يوجد فهم على الدوام نزعة من الواقعية المخادعة ، الفتية ، الساخرة من نفسها ، تصاحب وتكبح جماح الروح الغرامية التي يحبو لها النساء والشباب الأدب والفن . وقد جم بلتشي هذه الصفات كلها وألف من القصص الشعبية الخرافية ، ومن المخطوطات المجفوظة في مكتبة لورندسو ، وثما كان يدورمن الحديث حول ماثدة لورندسو نفسه ... ألف من هذا كله ملحمة تسخر من المردة ، والشياطين ، والوقائع الحربية التي تفعم قصص الفروسية ، وتقص من جايبه قي شعر جدى تارة ، وساخر تارة أخرى ، مغامرات الفارس السيحي

أورلندو والمارد العربي الجبار الذي يكون اسمه نصف اسم القصيدة(٩٠٠ .

وخلاصها أن أورلندو بهاجم مورجتى ، فينقد هذا حياته بأن يعلن فعجاء اعتناقه الدين المسجى ، ويعلمه أورلندو اللاهوت ويقول له إن أهويه اللين قتلا توا يقبان وقتلد في الحجم لأسما من الكفار ، ويهشره بابخة إذا أخلص لدين المسيح ، ولكنه ينذره بأن لا بد له وهو في الجنة أن ينظر إلى أهله اللين يحترقون بشيء من الرحمة . ويقول له الفارس المسيحى : و إن علماء ديننا مجمعون على أنه إذا شعر النعمون في الساء بالرحمة على الأشتياء من أقاربهم ، فإن سعادتهم تنهى إلى لا شيء » . ولا يضطرب مورجتني لهذا ، بل يقول لأورلندو مو كداً : « سنرى هل أحزن على أبنائى ، وهل أرضى يحكم الله ، وأسلك مسلك الملائكة ، أو لا أرضى يحكم الله ، وأسلك مسلك الملائكة ، أو لا أرضى يحكم ولا أسلك مسلكهم سأقطع أيدى أخوى وآخذها إلى أولئك الرهبان الماسالحين حتى يوقنوا بأن عدوبهم قد هلكا » .

ويدخل بلتشى فى المقطوعة الثامنة عشرة مارداً جديداً يدعى مرجوتى Margute ، وهو لص مرح ، وقاتل رقبق ، يعزو إلى نفسه كل رذيلة. إلا الغدر بالصديق . ويسأله مورجتى هل يؤمن بالمسيح أو يؤثر عليه عمداً فيجيه مرجوت بقوله :

إنى لا أومن بالأسود أكثر ثما أومن بالأزرق

وكل ما أومن به هو الديكة السمينة مسلوقة أو قد تُكون محمرة ؛ وأومن أحيانًا بالزيد أيضًا ،

وبالحمة وبالحمر الفطير الذي يطفو على وجهه قطع التفاح الحميص ؛ ... أما الذي أومن به أشد الإيمان فهو النبيذ المعتق ،

 ⁽ه) نشر بلتثنى أو لا المقطوعات التي تشير إلى مورجنتى : وسمرت القصيدة بعد أن كلت مورجنتى يورى Morgenate Maggiore أي مرجنتى الأعظيم .

واعتقد أن الذي يثق به أشد الثقة هو الذي تكتب له النجاة إن الإيمان كالحرب معد ؛ . . .

والإيمان يتشكل بالصورة التى يدركه بها الإنسان ــ هذه أوتلك ه أو غُرها من الصور .

فإذا شئت إذن أن تعلم أى نوع من العقائد أنا مرغم على اعتناقه ! فاعلم أن أمى كانت راهية يوتانية ،

وأن أبى كان بين الأثراك في بروصه ملا(٢١

ويموت مرجوقى من الضحك بعد أن يظل يختال ويستهر في مقطوعته ؛ ولا يضبع بلتشي دمعة واحدة يفرفها عليه ، بل يجتلب من خياله السحرى شيطأناً من الطراز الأول بدعي حشروت هو الذي اشترك العصبان مع إلميس ؛ يستدعيه الساحر ملاجيجي Malagigi ليأقى برينلدو بسرعة من مصر حق رينلدو مايجمل هذا الفارس المسيحي يقترح أن يرجو الله أن يطاق عشروت من المحجم . ولكن الشيطان الفاريف شديد التفقة في الدين ، ومن أجل من المحجم . ولكن الشيطان الفاريف شديد التفقة في الدين ، ومن أجل مرمدياً . ويحجب ملاجيجي من أن الله الذي سبق كل شيء في علمه مراه في ذلك عصبان إبليس واللمنة الأبدية قد خلقه ؛ فيعترف عشروت بأن هذا من الأسرار الحفية التي لايعرف أحد حتى الحكماء أنضهم كمهها(٢٣) والقد كان في الحقيقة شيطأناً عاقلا ، لأن بلتشي وهو يكتب في عام والقد كان في الحقيقة شيطاناً عاقلا ، لأن بلتشي وهو يكتب في عام

والقد كان فى الحقيقة شيطأناً عاقلا ، لأن بلتشى وهو يكتب فى عام ١٤٨٣ ينطقه بأقوال ملحشة يستبق بها كولميس ، فيقول عشروت لرينلدو وهو يشير إلى التحفير القديم القائم عند أعمدة هرقل (جبل طارق) والذى يقال فيه «لاتسر إلى ما يعد هذا ne plus ultra :

> اعلم أن هذه النظرية خاطئة ؛ وأن سفينة الملاح الجرىء ستخوض عباب الأمواج الغربية

وتتوغل فيها إلى مدى بعيد .
والأرض ، وإن بدت سهلا أملس منبسطا ،
قد خلقت في صورة عجلة مستديرة
ولقد كان الإنسان في الأيام الحالية أفظع صورة مما هو ،
إلى أي مدى سينطلن بعد قليل أضعف قالب بحرى
وراء الحدود التي حاول هيئاً أن يضمها له .
سوف يكشف الإنسان بلاشك عن نصف عالم آخر
والأرض المتزنة انزاناً عجيباً بقدرة الله العجيبة الحفية
والأرض المتزنة الزاناً عجيباً بقدرة الله العجيبة الحفية

سنة بين برح بمعيور وفى الجهات المقابلة لنا من الأرض مدن ودول أقطار غاصة بالسكان لم تعرف حقيقتها قبل الآن . وهاهى ذى الشعبس تشق طريقها الغربي مسرعة لتدخيل الهجة على قلوب الأم بما تتوقعه من ضياهـ(٧٢) .

وقد سار بلتشى على سنة ابتداء كل مقطوعة ، مهما يكن فها من السخرية والهربيع ، بتضرع وابتهال إلى الله وإلى الأولياء الصالحين . وكلما زاد ما فى مادته من دنس زادت المقلمة جلاً ووقاراً . وتختم القصيدة بالجهر بإيمانه بأن الأديان كلها خبر وبركة ـ وهو تصريح يغضب بلاشك كل مؤمن حق . ويجيز بلتشى لنفسه بين الفينة والفينة شيئاً من المرفاقة القليلة ، كالذى فعله وهو يقتبس بعض عبارات من الكتاب المقدس ليويد بها قوله إن علم المسيح السابق لم يكن يعدل علم الله الأب ، وحين يجيز لنفسه أن يأمل بأن تنجو جميع الأرواح في آخر الأمر بما فها ووح إبليس نفسه : أن يأمل بأن تنجو جميع الأرواح في آخر الأمر بما فها ووح إبليس نفسه : ولكنه بتي غيره من أفراد الدائرة المنتف لورندسو ، مؤمناً في ظاهر الأمر بكنيمة مرتبطة ارتباطا الملتفة حول لورندسو ، مؤمناً في ظاهر الأمر بكنيمة مرتبطة ارتباطا

لا انفصام له بالحياة الإيطالية . ولم ينخدع رجال الدين بخضوعه هذا . وولائه ؛ ولما توفى (١٤٨٤) لم يسمحوا بأن تدفن جئته فى أرض مكرسة . وإذا كانت جماعة لورندسو قد استطاعت أن تنتج هذه الآداب المتنوعة في جيل واحد ، فإن من حقمنا أن نظن ــ وسنجد في واقع الأمر ــ أن يقظة مثل هذه اليقظة قد وجدت في مدن أخرى غير فلورنس _ في مبلان ، وفرارا ، ونايلي ، ورومة . والحق أن إيطاليا كانت قد أتمت المرحلة الأولى من نهضتها وتجاوزتها إلى المرحلة التالية ؛ فقد أعادت كشف بلاد اليونان القديمة ؛ ووضعت المبادئ الأساسية للدراسات القديمة ، وجعلت اللاتينية مرة أخرى لغة ذات ساء وجلال ، وقوة وعنفوان . ثم فعلت أكثر من هذا : فقد كشفت إيطاليا من جديد في الجيل الذي بن موت كوزيمو . ولو رئدسو لغتما هي وروحها ، وطبقت مقاييس اللفظ والأسلوب على اللغة القومية ، وأنشأت شعراً قديماً في رومة ، ولكنه أصيل ووحديث ؛ في لغته وتفكيره ، متأصل في شئونها ومشاكلها اليومية أو في مناظر الريف وأشخاصه . يضاف إلى هذا أن إيطاليا قد نهضت في جيل واحد ، وبفضل بلتشي، بالمسلاة الفكهة فجعلتها أدباً راقياً ، ومهدت الطريق إلى بورادو Borardo وأريستو Ariosto ، بل إنها قد استبقت بسيات سرڤنتس Cervantes من خيلاء الفروسية وتنظمها وادعاءاتها ؛ وأخذ عهد الدراسة يخنى تدريماً ، وحل الحلق والإبداع محل المحاكاة ؛ وبعث الأدب الإيطالي بعثًا جديدًا بعد أن ذبل على أثر اختيار بقرارك اللغة اللاتينية ليكتب بها ملحمته . ولم يمض بعد هذا الوقت الذي نتحدث عنه زمن طويل حيى كاد إحياء الأدب للقدم أن ينسى في نضرة الثقافة الإيطالية وغزارتها ، وهي الثقافة التي تزعمت العالم في الأدب وغمرته بفيض من الفن .

الفصلالخاميس

العارة والتحت::عصر ڤنزوتشيق

وواصل لورندسو فى حاسة بالغة تقاليدآل ميديتشي القديمة القاضية: بمناصرة الفن ، يشهد بذلك ماكتبه معاصره ڤالورى يقول : 3 لقد بلغ من شدة إعجابه بآثار العهود القديمة أنه لم يكن شيء أحب إليه من هذه الآثار وإن كان من يريدون التقرب إليه وإدخال السرور عليه يجمعون من كل أنحاء العالم مدليات ، ونقوداً ؛ . . . وتماثيل كاملة ونصفية ، وكل ما طبع بطابع اليونان أو رومة القديمة (٢٤) . وأضاف لورنلسو ما جمعه من مخلفات العارة والنحت إلى ما خلفه كوزيمو ويسرو ، ووضعها في حديقة قائمة بن قصر آل میدیتشی و دیر سان مارکو ، وأجاز لکبار الزوار والعلماء الموثوق مهم أن يدخلوها ، وعنن راتباً لمن كان يظهر الجد أو تلوح عليه سمات النجابة من الطلاب ــ وكان من بينهم الشاب ميكل أنچيلو ــ ليعيشوا منه ، كما كان يمنح الجوائز لمن يظهر منهم كفاية ممتازة . وفي ذلك يقول قاسارى : ٥ ومن أهم ما يستلفت النظر أن جميع من كانوا يدرسون في حديقة آل ميديتشي، وكانوا من المقربين للورندسو ، قد أصبحوا من رجال الفن المتازين ، ويرجع الفضل كلِّ الفضل في هذا إلى عظم حكمة هذا الرجل العظم المناصر الفنون . . . الذي لم يكن صادق الحكم على العباقرة فحسب ، بل أوتى فوق ذلك من الإرادة والقوة. ما استطاع به أن يكافتهم على نبوغهم (۲۵) ، و

وكانت أهم الحوادث ذات الشأن العظم في تاريخ الفن في عهد لورندسو هي نشر رسالة فتروثيوس Vitruvius (الدمماء في العمارة. كان De Architectura (التي كتبت في القرن الأول قبل الميلاد) والتي كان

يجيو قد استخرجها من أرض دير سانت جول قبل ذلك الوقت بنحو سبعين عاماً ؛ واستحوذت هذه الرسالة القديمة الجامدة على مشاعر لورندسو ، واستخدم نفوذه في نشر طراز رومة الإمراطورية في العارة ، ولعله في هذه المسألة بالذات قد أساء أكثر مما أحسن ، لأنه أعاق في فن العارة ما كان يمارسه بنجاح مثمر في ناحية الأدب – نعني تنمية الأشكال الوطنية . لكن الروح التي حفزته إلى هذا العمل كانت روحاً كريمة بحق ، فقد ازدانت رومة بفضل تشجيعه ، وبفضل أمواله في كثير من الأحوال ، بطائفة كبيرة من المبانى الرشيقة كانت ملكاً للمدينة أو للأفراد . وكان من هذه الأعمال إتمامه كنيسة سان لورندسو والدير القائم في فيسولي ، واستخدامه جوليانو ده سينجلو Giutiano de Sangallo لتخطيط دير خارج باب سان جلو San Galio هو للذي خلع على هذا المهندس اسمه . وبني له جليانو قصراً ريفياً فخماً في يوجيو أكايانو Poggio a Caiano ويلغ من جماله أن أوصى به لور تدسو فرديناند ملك تاپلي حتن طلب إليه هذا مهندساً يعمل عنده ب ويدلنا على مقدار حب أو لئك الْفنانين للورندسو ما أظهره جو ليانو من الكرم يعدثذ ، فقد أرسل إليه هداياكل مّا متحته إياه فلورنس من هبات ــ وهي تمثال نصفي للإمراطور هدريان وتمثال كيوبد النائم وغيره من التماثيل القديمة ؛ وضم لور ندسو هذه الهبة إلى مجموعاته التي في حديثته ، والتي تكون منها فيما بعد نواة مجموعة التماثيل القائمة في معرض أفنزى Uifizi ب

وكان غيرة من ذوى المال يضارعونه — ومهم من بزه — في فخامة مسكنه . من ذلك أن بينيديتو ده ميانو Benedetto de Malono شاد لفليو المسترتزى الأكدر Filippo Strozzi the Elder قصراً يتجل فيه بأكل صورة ذلك الطراز التسكاني من المبارة اللي أبرزه في قصر يتي Pitti و اللي يتمثل فيه القخامة والنمم من اللماخل تحجيما عن المين واجهة ضخمة من يتمثل فيه الفخيرية و الريفية ، غير المصقولة ، وقد بدأ المهندس بناه بعد أن

رصد له طالعه بأكر عناية ، وبعد أن أقيمت لذلك صلوات دينية في عدة كتائس ، وبعد أن وزعت الصدقات زلقي واستدراراً لدركة . وأنم سيمونى بولايولو Simone Pollaiucio) هذا البناء بعد أن تونى بينيديتو (1247) . وأضاف إليه طنماً جملا على مثال طنف آخر شاهده في رومة . وفي وسعا أن نتصور ما كان ثمة من جمال في داخل هذه الأسوار التي يحيل إلى من يراها أنها سجرن ، بالنظر إلى مواقدها الفخمة ، وهي أروقة ضخمة تستد إلى حمد منحوتة على شكل أزهار تعلوها نقوش بارزة . وظل بجلس السيادة في هذه الألتاء يزيد داره الفلة الجميلة وهي قصر فيتشيو جمالا .

وكان معظم المهندسين المعماريين مثالين أيضاً ، لأن المثالين كانوا أصحاب الشأن الأكبر في زخرفة الأبنية ، ونحت أطنافها ، وقواليها ، وعمدها المروعة ، وتيجانها ، وعمد الأبواب وأثاث المصطلى ، والفقوش البارزة على الجدران ، وأماكن القربان ، ومواقف المرتمين ، والمنابر ، وأجران التعميد . وكان جوليانو دا مايانوا هو الذي تحت مواضع المقدسات في المكتلوائية وفي دير فيسولى . وكان أخو بينيديتو هو الذي أتفن فن تليس المخشر به إلى حد جعل ماتيوس كورڤينوس Matthius Corvinus ملك الحبريطال إليه صنع صندوقين من الخشب الملبس ويدعوه إلى بلاطه ولي بينيديتو الدعوة ، وعمل على أن يرسل الصندوقان بعد دهابه ؛ فلم وصل الصندوقان وأخرجا من غلافهما أمام الملك صقطت منهما القطع وصل الصديوقان وأخرجا من غلافهما أمام الملك صقطت منهما القطع بينيديتو في إعادة القطع إلى أماكها ، ولكنه كره صناعة التلبيس ، واتجه من ذلك الوقت إلى فن النحت فنيغ فيه أعظم نبوغ ؛ حتى لا نكاد نجد من من ذلك الوقت إلى فن النحت فنيغ فيه أعظم نبوغ ؛ حتى لا نكاد نجد من من ذلك الوقت إلى فن النحت فنيغ فيه أعظم نبوغ ؛ حتى لا نكاد نجد من من ذلك الوقت إلى فن النحت فنيغ فيه أعظم نبوغ ؛ حتى لا نكاد نجد من من ذلك الوقت إلى فن النحت فنيغ فيه أعظم نبوغ ؛ حتى لا نكاد نجد من عمد كما المؤليل العذراء ما هو أجل من تمثال ماونا الحياة على العرس ، ولا من

^(*) وقدلقب الكرو ناكا Il Cronnen نسبة إلى السجل الحي الذي كتبه عن أسفاره و دراساته

التماثيل النصفية ما يفوق تمثال فلبو استرتسى الذى الذّر فيه أمانة التصوير وكشف فيه عن خصائص صاحب ، وقل أن نجد فى القابر ما يضارع فى جماله قبر استرتسى هذا الذى أنشأه له فى سانتا ماريا توقلا ، ولا فى المنابر ما هو أعظم رشاقة فى نحته من المنبر الذى صنعه بينيديتو لكنيسة الصليب ما هو أقرب إلى الكمال المقدس Santa Cioce ، وقل أن نجد فى المحاريب ما هو أقرب إلى الكمال . من عراب سسانتا فينا Santa Fina القائم فى كنيسة سان جمنيانو Sand Cioce المجهدية (**).

وكان النحت والهارة يوجدان عادة في أمر بعينها - كأسر دلا ربيا و Grasilini ، وبولا يولو . Sangalli ، وبولا يولو . وقد تعلم أنطونيو بولا يولو عم سيموني دقة التصميم ورقته حين كان صائغاً بقد تعلم أنطونيو بولا يولو عم سيموني دقة التصميم ورقته حين كان صائغاً جملته تشيليي Cellini رمانه ، والصديق المفضل للورندسو ، وللكتائس ، وعلم السيادة في فلورنس ، وطوائف الحرف . ولاحظ أنطونيو أن هذه والمحتف السيفرة قلما تحفظ باسم صائعها ، وكان يتوق كما يتوق رجال المنهنة إلى تخليد شهرته ، فائجه نحو النحت وصب من المرتز تمثالين فخمين المبرق كما يتوق رجال لمرقول عليه المنافقة المعلية . ولما انتقل بعد الله المروى في تمثال وقومها عن تمثال والمرابع بالكل ألجيلو وعن تعلق مورة أباو ووافني وضارع سخف مائة من الفنائين بأن أظهر كيف يستطيع القديس سبستيان أن يتا وعو هادئ السهام التي يرميه بها الرماة من أقراسهم على مهل ، فلا توثر في جسمه قط . وعاد أنطونيو في سنيه من الأسهم ملى مهل ، فلا توثر في جسمه قط . وعاد أنطونيو في سنيه من الأشير ، وصب كنيسة القديس بطرس القديمة في رومه من الأخيرة إلى صنع العائيل ، وصب كنيسة القديس بطرس القديمة في رومه الأخيرة إلى صنع العائيل ، وصب كنيسة القديس بطرس القديمة في رومة من ورمة المواتيل ، وصب الكنيسة القديس بطرس القديمة في رومة الأخيرة إلى صنع العائيل ، وصب كنيسة القديس بطرس القديمة في رومة على رومة في المنائيل ، وصب الكنيسة القديس بطرس القديمة في رومة المناشل ، وصب الكنيسة القديس بطرس القديمة في رومة المناشون المنافق المناشون المناس القديمة في رومة المناشون المناس القديمة في ورومة المناس القديمة والمناس القديمة في ورومة المناس القديم المناس القديمة في رومة المناس ال

 ⁽ه) الكنيسة للمهدية هي التي تقام على بعد قليل من كتدرائية والتي يقيم فيها طائفة من التساوسة بعيشون فيها جاعة . (المترجم)

نصبين فخمين لقبرى سكتس الرابع وإنوسنت الثامن أظهر فيهما من قوة: النحت ودقة العلم با لتشريح ما يبشر مرة أخرى بىراعة ميكل أنجيار المقبلة .

ولم يكن مينو دا فيسولي Mino da Fisole يضارع أنطونيو هذا في تعدد كفاياته أو في شاءة انفعاله ؛ فقد قنع بأخذ فن النحث عن دزيدربو دا سننيانو Desiderio da Settigonano ، ولما مات أستاذه اكتفى بالسعر، على ماكان له من تقاليد في الرشاقة السهلة اللينة . ولقد بلغ من تأثر مينو عوت در بديريو ، إذا جاز لنا أن تصدق فاسارى ، أنه لم يجد بعدالل شيئاً من السعادة في فلورنس ، وأخذ يطلب مناظر جديدة في رومة . وفها أذاعت شهرته ثلاث تحف فنية هي : قبرا فرنتشسكو ترنابؤوني Prancesco Tornabuoni والبايا بولسالثاني ، ورواق من الرخام للكردنال ده استوت قبل Cardinal d'Stouteville ، فلما عادت إليه الثقة ونجا من الإفلاس عاد إلى فلورنس وزين بمحاريب بديعة كنائس سانت أمبروجيو Sant Ambregio وسانتا كروتشي (الصليب المقدس) ، ومكان التعميد ، وأنشأ في كتدرائية فيسولى موطنه الأول قبراً مزخرفاً على الطراز الرومانى القديم للأسقف سالوتاتي Salutati وصنع لدير فيسولي تصبا آخر شيبها به ، أقل منه إمعاناً في الزخرف ليخلد به ذكري الكونت أوجو Count Ugo مؤسس الدر. ونما تفخر به كندراثية يراتو Prato منىر من صنعه ، وثمة اثنا عشم متحفاً يعرض فيها تمثال نصني أو أكثر من تمثال نصني حفظ فيها صورة أنصاره أكثر مما تملقهم : صـــورة وجه نقولو استرتسي منتفخاً كأنه مصاب. بالنكاف (°) ، وصور ملامح يبرو المصاب بالنقرس وما يبدو فها من هزال ، ورأس ديثيلسيُّ نبروني Dietisalbvi Neroni الجميل ، وعمل نقشاً بارزاً جيلا الماركس أورليوس في شبابه ، وتمثالا نصفياً رائعاً للقديس يوحنا. المعمدان في طفولته ، ونقوشاً بارزة بديعة للعلمواء والطفل ، وتبدو في هذه

⁽ a)؛ النَّهاب الندة التكفية وهو مرض بعد حاد . (المترجم)

النحف كلها الرشاقة النسوية التي أخلها مينو عن دزيديريو؛ فهى تبعثه السرور ولكنها لا تسترعى الانتباه ، وليس فها عمق ؛ فهى لاتئير اهمامنا كا تشره تماثيل أنطونيو بولايولو ، أو أنطونيو روسلينو ؛ وكان منشأ هلما أن مينوقد أفرط فى حب ديزيديرو حتى لم يستطع إغفال التماذج التي وضعها. هذا الأستاذ ، ليبحث فى الطبيعة الحرة الصارمة غير الرحيمة عن حقائق الحياة وما تكشف عنه من معان خفية .

أما فروتشيو Verroechio فقد كانت له وعن حقة ، وأوتى من الشجاعة ما أمكنه به أن يفعل هذا الذي عجز عنه مينو ، وأخرج أعظم آيتين من آيات النحت في عصره . كان أندريا دي ميكيلي تشيوني Andrea di Michele Cioni (لأن هذا هو اسمه الحقيقي) صائعًا ، ومثالا ، وصائع أجراس ؛ ورساماً ، وعالماً بالهندسة النظرية ، وموسيقياً . ويرجع أكبر أسباب شهرته في الرسم إلى أنه علم ليوناردو ، ورنلسو دى كريدي ، وپروجينو Perugino وكان له فيهم أثر كبير . أمّا رسومه هو فأكثر ها جامد ، ميتة ؛ وقل أنْ يوجد في صور.عهد النَّهضة ما هو أبعث على النفور..من صورة تعميد الحسيم الذائعة الصيت ؛ فالمعمد فيها متطهر متزمت ، عنيد ؟ والمسيح وهو على ما يظن في الثلاثين من عمره 'يبدوكأنه شيخ مسن ؛ والملكان اللذان إلى يساره فتَدمَان فدامة نسوية ، ومن هذه الصور صورة المَــَالَـُكُ الَّبِي كَانَ مِن العادة أن تعزى إلى ليوناردو ؛ غير أن صورة طوبياسوم والمراكة الثلاثة صورة ممتازة ؛ وفي صورة الملك الوسطى ما يستبق رشاقة صور بتيتشلي ومزاجه ، كما أن صورة الشاب طوبياس تبلغ من الجال حداً لايسعنا معه إلا أن تقول إنها هي صورة لورتلسو أو أن نقر أن دا فنتشى قد أخذ من طراز ڤيروتشيو في التصوير أكثر مماكنا نظن . وثمة رسم لرأس امرأة محفوظ في كتيسة المسيح Christ Church بأكسفورد يوحى مرة أخرى بالتفكىر السهاوى الغامض الذى يطالعنا فى صور نساء ليوفاردو ، كما أن صور مناظر ڤيروتشيو الطبيعية القائمة تنبيء مقدماً بالصخور القائمة. والمجارى الحفية الغامضة التي نشاهدها في آيات ليوناردو الحيالية الحالمة .

وأكبر الظن أن ثمة كثيراً من الخيال في القصة التي يرومها ڤاساري عن قبروتشيو ويقول فيها إنه لما رأى صورة الملاك التي رسمها ليوناردو في تعميد الحسيح ؛ اعتزم ألا يمسك الفرشاة مرة أخرى ، لأن ليوناردو وهو لا يزال في شرخ الشباب قد يزه في هذه الصورة ع^(٢٦) . ولكنا نعلم أن ڤىروتشيو ، وإن ظل يشتغل بالتصوير بعد ظهوز صورة ^{التعم}يد قفى فى الواقع معظم سنى حياته بعد نضوجه في الاشتغال بالنحت، فعمل بعض الوقت مع دوناتلو وأنطونيو پولايو لو ، وتعلم من كل منهما شيئاً ، ثم نَمَّى هو طرازه الخاص الذي يمثاز بالصرامة وبالزوايا ، وأخذ يشق. طريقه بنفسه فصب من الصلصال المحروق تمثالا نصفياً مبرءاً من الملق للورننسو ... أظهر فيه أنفه ، وقُصَّه (°) ، وجهته التي تُم عن كُثرة القلق . ومهما يكن من أمره فإن المانيفيكو (الأفعنم) قــ سره كثبراً نقشان في البرنز للإسكندر ودارا نقشهما له ڤيروتشيو ؛ فبعث سهما إلى. ماثياس كورڤينوس ملك المجر ، وعهد إلى المثال (١٤٧٢) أن يُخطط في. كنيسة سان لورندنسو قبرأ لأبيه پبرو وعمه چيوڤني . ونحت مبروتشيو الناووس في الحجر السهاقي وزينه بقوائم من البرنز ، وأكاليل في صورة الغلام وهو واقف فى خيلاء وهملوء أمام رأس جالوت المقطوع ؛ وأسجب. به مجلس سيادة فلورنس إعجاباً لم يسعه معه إلا أن يضع التمثال على رأس. الدرج الرئيسية في قصر ڤيتشرو ، وقبل هذا المجاس في ذلك العام نفسه تمثالًا من البرنز يصور غموما يمسك الدلفين ويتخذه بزبزاً لعن ماء في. فسقية قائمة فى فناء القصر ، وصم لهروتشيو وهوفى عنفوان مجده وصب.

⁽١) النصة ، بالغم : شعر الناصية . (المرجع)

من البرنز فجوة فى جدار أور سان ميتشيل من الحارج ومجموعة من تمائيل. والمسيح وتوصى الثالث (١٤٨٣) . وصورة المسيح تتم عن النبالة الفلمسية ، كما أن تومس قد صور بعطف وإدراك ، وقد صقلت بداه صقلا بلغ من الكمال حداً قلما يرى له نظير فى التماثيل؛ وتمثل الأثواب انتصار فن النحت، والمجموعة كلها تطالعك بواقعية حية يخيل إليك أنها تنحرك .

وقد بلغ تفوق ڤمروتشيو في صناعة التمَّاثيل والنقوش البرنزية من الوضوح حدًا لم يسع مجلس شيوخ البندقية معه إلا أن يدعوه (١٤٧٩) إلى تلك المدينة ليصب لها تمثالا لمرتولوميوكليوني Bartolomeo Colleon! ، المحارب المغامر الذي كسب النصر لدولة الجزيرة في عدة وقائع . ولمي أندريا الدعوة ، وعمل نموذجاً للجواد ، وكان يتأهب لصبه من البرنز حين علم أن مجلس الشيوخ يفكر في أن من الحبر أن يقصر عمله على صنع تمثال الجواد. وحده ، وأن يترك تمثـــال راكبه إلى ڤيلانو Vellano من أهل پدوا . فما كان من أندريا ، كما يقول ڤاسارى إلا أن حطم رأس النموذج وسيقاته وعاد إلى فأورنس مغضبًا حالقاً . وأنذره مجاس الشروخ أنه إذا وطات. قدماه أرض البندقية بعدثذ حطم رأسه تحطيها حقيقياً لا مجازياً ، فأجابه بأن ليس له أن ينوقع عودته إلى المدينة لأن الشيوخ لم يونو اكما أوئي المثالون من المهارة ما يستطيعون به أن يعيدوا الرموس المحطمة إلى أصحامها . ثم عاهـ مجلس الشيوخ ففكر في الأمر تفكيراً خيراً من تفكيره الأول ، وعهد إلى قروتشيو بالمهمة كلها مرة أخرى ، وأقنعه بأن يعود إلى عمله نظر أجر يعادل ضعني الأجر الأول ؛ فعاد وأصلح رأس نموذج الجواد وأفلح في صبه ، ولكن المكان الذي كان يعمل فيه ارتفعت حرارته أثناء العمل ارتفاعاً كبراً ، وأصيب ڤيروتشيو بىرد وقشعريرة ، ومات بعد بضعة أبام. وهو في السَّادسة والخمسين من عمره (١٤٨٨) . ولما وضع أمامه في ساعاته الأخبرة صليب خشن الصنع ، طلب إلى من حوله أن يبعدوه عنه وأن يأتوا

إليه بصليب آخر من صنع دونالتو ؛ حتى يموت ٌ، كما كان يعيش ، في حضرة الأشياء الجميلة

وأتم المثال البندق السندرو ليوپاردى Alessandro Leopardi التمثال المنطق . وأخرجه في طراز حي ، وأبرز فيه على خير وجه من الحركة والسيطرة ما نني عن هذا التمثال أية خسارة بموت ثيروتشيو ؛ وأقيم التمثال في كامهو دي سان دسانيويولو Campo di San Zaniopolo - ميدان القديسين يوحنا وبولس ؛ ولا يزال يزهو فيه إلى اليوم ، وهو أجمل ما بني عصر المهضة من تماثيل الفوارس وأعظمها خيلاه .

الفيرالتبارس

الرسيم

١ ـ جر لندايو

وكان مرسم قدروتشيو جامعاً لخصائص النهضة ؛ ذلك أن الفنون جميعها قد وجدت فيه في مشغل واحد ، وكثراً ما اجتمعت كلها في رجل واحد ؟ فكان فى وسعك أن تجد فى مكان واحد فناناً يصمم بناء كنيسة أو قصر ، وآخر يحفر أو يصب تمثالا ، وثالثاً يخطط صورة أو يرسمها بالألوان ، ورابعاً يقطع جوهرة أو يرصع لها ، وآخر يحضر أو يطعم العاج أو الحشب، أو يصهر المعدن أو يطرقه ، أو يصنع الأعلام لموكب في عيد ؛ وكان في وسم رجل مثل ڤىر وتشيو ، أو ليوناردو ، أو ميكل أنچيلو ، أن يقوم مهلم الأعمال كلها . وكانت فلورنس تضم كثيراً من هذه المدارس ، وكان طلاب الفن يسرون فى الشوارع فى غير احتشام(٢٢٧) ، أويعيشون عيشة بوهيمية يسكنون في الطرابق السفلي المستأجرة ، أويصبحون أثرياء بجلهم البابوات والأمراء كأنهم أرواح ملهمة لا تقدر بثمن ، ويعلون على القانون – كماكان شأن تشيليني ۾ وكانت فلورنس تجل الفن والفنانين أكثر مما تجلهما أية مدينة أخرى عدا أثينة وحدها ، وتتحدث عنهم وتقتتل من أجلهم ، وتروى عبم القصص (٢٨) كما نروى نحن قصص المثلان والمثلات . وكانت ظورنس في عهد النهضة هي التي أوجدت الفكرة الوجدانية للعبقرية **ــ** أى للرجل الملهم بروح قدسية مستكتة فيه .

وخليق بالذكر أن مدرس فبروتشيو لم يترك وراءه مثلًا علماً عدا لليوناردو (الذى لم يكن مثالاً تعالصاً بل جم إلى عظمته ف فن النحت. (١٦ – بر ١ – بحد ه) عظمة أخرى في غيره من الفنون) يستطيع أن يواصل العمل المعتاز الذي. بلغه هذا الأستاذ ؛ ولكنه علم رسامين نابغين ــ هما ليوناردو وپروچينو. وآخر أمل مسهما كفاية وإن كان أيضاً من ذوى الكفايات الملحوظة ، ونعني به لورندسو دي كريدي Lorenzo di Credi . وكان سبب ذلك أن الرسم أخذ يحل تدريجاً محل النحت بوصفه الفن المحبب إلى قلوبالناس ؛ وأكبر ظننا أنه قد كان من الحبر أن الرسامين لم يفيدوا من الرسوم الجدارية القديمة المفقودة ، ولم يخضعوا لها ويتقيدوا مها . لقدكانوا يعرفون أن قد وجد من قبل رجال مثل أيلنز Apelies وبروتچننز Protogenes ، ولكن قل منهم من شاهد بقايا الرسوم القديمة في الإسكندرية أو يميي ؛ لهذا لم يكن ثمة إحياء للقديم في هذا الفن ؛ وكان الانصال بن العصور الوسطى والنَّهِضة في هذه الناحية واضحاً لا خفاء فيه : ققد كان خط السر من الرسامين البيزنطيين الموتشيو Duceio ثم إلى چيتو فالراهب أنهيلكو فليوناردو . فرفائيل فتيشيان ، نقول إن هذا الحط كان منحرفاً معوجاً ، ولكنه كان واضحاً لا خفاء فيه ، ومن أجل هذا كان على الرسامين ، أن يضعوا بتجاربهم وأخطأتهم قراعد فنهم وطرازه ، ولم يكن هذا شأن المثالن. لقد فرض عامهم الابتكار وفرضت علمهم النجارب فرضاً ، فكانوا يكلحون لإظهار دقائق تشريح الإنسان ، والحيوان ، والنبات ؛ وجربوا أتواعاً من التوليف الدائري ، والمثاثي وغيرهما من الأشكال ؛ وكشفوا عن حيل المنظور ، وخداع النطايل لكي يعطوا لخلفيات الصور أعماناً ؛ ولأشكالهم أجساماً ؛ وكانوا يجوبون الشوارع بحثاً من الرسل والعذارى ، ورسموا من نماذح عارية أو مكسوة، وانتقلوا من التصوير على الحص إلى التصوير الزلالي ، ثم انتقاوا مرة أخرى من هذا إلى ذك ، واستخدموا القواعد الحديدة للرسم بالزيت التي جاء بها إلى شمالي إطاليا روچيبر فان در فيسلن Rogier van der Weyden وأنطونيو دا ميستينا Antonio da Méssina ، وكانواكلا ازدادوا مهارة وشجاعة ، وكثر عدد مناصر مهم

من غير رجال الدين ، أضافوا إلى الموضوعات الدينية القديمة قصصاً من الأساطىر اليونانية والرومانية ، وأنماطاً من النمجيد الوثني للجسم . وجاموا بالطبيعة إلى مَرْ سُمَيهم ، واند مجوا هم في الطبيعة ، فلم يكن شيء في بني الإنسان أو في الطبيعة يبدو في نظرهم غريباً على الفن ، ولم يكن ثمة وجه مهما بلغ من القبح لايستطيع الفن أن يكشف عما فيه من معني خنى وضاء . لقد كانوا يسجلون العالم ؛ ولما أن جعلت الحرب والسياسة إيطاليا سجنا ويبابا ، ترك الرسامون وراءهم خطوط النهضة وألوانها وحياتها وعواطفها الحائشة ، وأخذ الرجال الموهوبون الذين كونتهم هذه الدراسات والذين ورثوا تقاليد مطردة الثراء من الأساليب، والمواد، والأفكار ــ أخذ هؤالاء الرجال يرسمون خيرا مما كان يرسمة العباقرة منذ قرن من الزمان . ويقول ڤاسارى في لحظة من لحظات فظاظته إن بينتسو جتسولي Benozzo Gozzoli ، لم يكن من الأفذاذ للمتازين . . . ولكنه بز كل من كان في مثل سنه بمثابرته ، لأن بن أعماله الحمة عدداً منها لا يسع الإنسان إلا أن يقول إنها طيبة ع٢٩٦٠ . وقد بدأ الرجل حياته الفنية تلميذاً من. تلاميذ الراهب أنجلكو ، وتبعه إلى رومة وأرڤيتو ليكون مساعداً له في عمله : ثم استدعاه پدرو المريض بالنقرس إلى فلورنس ، وطلب إايه أن يصور على جدران المعبد في قصر آل ميديتشي رحلة المجوس من الشرق. إلى بيت لحم . وهذه الصور هي أروع آبات بينتسو التي صورها في الحص ، وهي تتكون من موكب فخم ولكنه •وكب حي من الملوك والفرسان في. ثياب فخمة ، ومن الأتباع والحدم ، والملائكة ، والصائدين ، والعلماء ، والأرقاء ، والحيل ، والفهود ، والكلاب ، ومن نحوستة من آل ميدبتشي. ـــ ومن بينٽسو نفسه ، وقد أدخل بحيلة ماكرة إلى هذا الاستعراض ؛ و•ن. وراء كل هذا في الصورة خلفيات ومناظر طبيعية جميلة تشر الدهشة . وامنلأ قلب بينتسو زهواً مهذا الظفر العظم فسافر ألى سان جمنيانو San Gimignano وزين مكان المرنمين في سانت أچستينو Sant' Agostino بسبعة عشر منطرآ'

مستمدة من حياة القديس شفيعها . وظل بعدتذ سبعة عشر عاماً يكلح في كمبو اسانتو Campo Santo فيهزا يغطى مساحات كبيرة من جدراتها بواحد وعشرين منظراً من أسفار العهد القديم تبدأ من آدم إلى عهد ملكة سبأ ، كان بعضها مثل منظر برجج بابل من أكبر مظلمات عهد البضة . وكانت العجلة التي انسمت بها أعمال بينقسو سبباً في الحط بعض الشيء من جودة أعماله ، فقد كان قليل العناية برسومه ، وجعل كنبراً من صوره على وتبرة واحدة باعثة على السامة ، وحشد فيها طائفة جة مربكة من الأشخاص والتفاصيل ، ولكنها كان يسرى فها دم الحياة وسهجها ، وكان يحب ما فيها من مناظر قرية ومن تحجيد العظاء ؛ وإن ما في ألو أنه من روعة ، وفي خصب إنتاجه من جاسة ليكاد ينسينا ما في خطوطه من نقص وهيوب :

وانقل ما كان الراهب أنجلكو من أثر حميد إلى أليسو بالدوفينق وانقل ما كان الراهب أنجلكو من أثر حميد إلى أليسو بالدوفينق من طريق إلسو إلى رسام من كبار الرسامين في عهد النهضة ألا وهو دمنيكو جرائدايو Domenico Charlandai . وكان والد دمنيكو صائغا أطلق عليه من قبيل التهكم القب جرائدايو أخداً من الأكاليل المصنوعة من الذهب والفضة التي صاغها المروس انطيفة في فلورنس . ودرس دمنيكو على هذا الأب وعلى بالموقيني ، وأظهر في دراسته كثيراً من الغيرة والحاسة ، وكان يقضى الساعات الطوال يتأمل مظالت مساتشيو Masaccio في الكرال سيدلا في الكرميني المساعوت الطوال يتأمل مظالت مساتشيو و تحديل سيدلا في الكرميني و كان يوسم كل إلى نفسه ، فنون المنظور ، وتمثيل الأشكال البارزة أمام الناظر بحيث يتمثل فيها هذا الدوز ، وعمل الماذج ، وتأليف الأجزاء ، و و لا كان يرسم كل إنسان يمر أمام مشغله ، كما يقول فاسارى و بحيث تبدو صورته مشامهة شمية ويا عجبياً لشخصه بعد نظرة خاطفة سريعة يلقها عليه . ولم يكلد يبلغ الحلوية والعشرين من عمره حتى عصيد إليه أن يصور قصة سانتا فينا فينا

Santa Fina فى معيدها بكتدرائية سان جنيانو . و لما بلغ الحادية والثلاثين (١٤٨٠) فاز بلقب أستاذ بفضل أربعة مُطَلَّمات صورها فى كنيسة آل أنسانتو The Ognissanti ومطعمها فى فلورنس - وتمثل هذه المظلمات الفريس جبروم ، والنرول عن الصليب ، وطونا دلا مرركوروبا (وتشمل حسده صورة مهديها أمر يحو فسيوتشى المصددة الله المسلمة الونورة التى الصورة التى المسددة بها ليوناردو بعض الإنهاء

واستدعاه سكتس الرابع إلى رومة فصور له في معبد سستيني Siatine المسيح ينادى بطرس وأنررو من خمينهما وهي الصورة التي تكتسب بعلما ينوع خاص من خلفيتها المكونة من الحيال ، والبحر ، والسهاء . وكان في أثناء إقامته هذه في رومة يدرس ويرسم العقود ، والحامات ، والعمد ، ومجارى المياه العذبة ، والمدرجات الموجودة في المدينة القديمة ، وكان يدرسها ويرسمها بعن اليقظ المدرب ، فكان في وسعه أن يةلمر بلا مسطرة أوفرجار نسب كل الأجزاء كلها بمننهي الدقة . وعهد تاجر من أهل فلورنس مقم في رومة يدعى فرانتشسكو تورنبيونى Francesco Tornabuoni توفيت زوجته إلى جرائندايو أن يرسم مظلمات يخلد مها ذكراها في سانتا ماريا تعلو على صورة منهرقا ؛ ونجح دمنيكو فيما عهد إليه نجاحاً حمل تورنبونى على أن يعيده إلى رومة مزوداً بالمال وبخطاب يشهد بمهارته . وسرعان ما عهد إليه عجلس السادة في فلورنس بزخرفة صالا دل أوروبخيو (مهوا وروبخيو) Sala del Orologio في قصره . وأخذ في السنين الأربع التالية (١٤٨١ – ١٤٨٠) يصور في مصلي ساستي Sassetti في سانتا ترنتا Santa Trinita مناظر مستمدة من حياة القديس فرانسس ؛ وقد استعان في هذه المظلمات بكل ما صل إليه فن الرسم من تقدم ما عدا استخدام الزيت : فقد حوى تناسق التأليف، ودقة الحطوط، وتدرج الضوء، والأمانة في مراعاة فن المنظور،

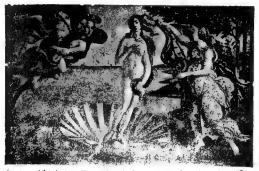
والواقعية فى التصوير (تصوير لورندسو ، ويوليتيان ، وبلتشى ، وبلا ، واسرتسى ، وبلا ، واسرتسى ، وفرانتشسكوساسى) ، وراعى فى الوقت نفسه التقاليد الأنجليه فى المثالة والنقى ؛ وليس بن صورة صفوات الرهاة ألى ترى خلف المحراب والتى تقرب من الكمال وبن صور ليوناردو ورفائيل إلا خطوة وأحدة فى الحيال الأكثر عمّاً والرشاقة الأكثر دقة .

وعرض چيوڨني ترنبيوني رئيس مصرف آل ميديتشي برومة علي جرلندايو في عام ١٤٨٥ ١٢٠٠ دوقة (٣٠ ألف دولار أمريكي) نظير طُلاء معبد في كنيسة سانتا ماريا نوڤلا ، ووعده بمائتي دوقة أخرى إذا حاز عمله رضاه التام . واستعان جرلندايو بعدد من تلاميذه من بينهم ميكل أنجيلو وقضى الحزء الأكبر من الحمس السنين التالية في هذا العمل العظيم من أعمال حياته . وقد رسم في السقف صورة المبشرين الأربعة بالإنجيل ، كما صور على الجدران القديس فرانسس ، وبطرس الشهيد، ويوحنا المعمدان ومشاهد من حياة مريم والمسيح مبتدئة من البشارة إلى تتوبج الفذراء الفخمة . وهنا أيضاً وجد لذة كبيرة في تصوير المعاصرين : لودوڤيكا تورنبيوني ذات الحلال الحليقة بأن تكون ملكة وچنڤرا ده بنتشي Ginevra di Benci الوقحة الحسناء ، وڤيتشينو : ويولنيان ، ولندينو العلماء وبلدوفنتي ، وميناردي Mainardi وجرلندايو نفسه من رجال التصوير : ولما فتح المعبد للجهمور في عام ١٤٩٠ هرع إليه جميع العظاء ورجال الأدب في فلورنس ليفحصوا هذه الرسوم ؛ وأصبحت الصورة الواقعية التي شاهدوها حديث المدينة كلها ، وأعلن تورنبيوني رضاءه التام عنها . غير أنه كان في أزمة مالية وقتتذ ، فرجا دمنيكو أن ينزل له عن الماثتي دوقة الإضافية ، فرد عليه الفنان قائلا إن رضاء نصيره أعز عنده من الذهب مهما عظم .

وكان دمنيكو محبباً إلى القلوب . وقد بلغ من حب إخوانه إياه أن



(شكل ١٣) صورة الكونت ساسَى (؟) وحفيده في متحف الموثر بباريس من تصوير جولنديااو



(شكل ١٤) مريد ثينيس في معييض نيزي بفلو ونس – تصوير ستندور بثيثشل (أنظر ص ٢٤٩)

ه احد منهم هو داڤد كاد يذبح رئيس دير برغيف جاف قديم لأنه جاء إلى دمنيكو ومساعديه في مرسمه بطعام رآه داڤد غير لاثق بعيقرية أخيه ي .وكان جرلندايو يفتح مرسمه لكل من يعني بالعمل أو الدرس فيه ، وانخذ منه ملوسة للفن حقة . وكان يقبل جميع ما يكلف به من الأعمال الفنية كبيرة كانت أو صغيرة ، ويقول في ذلك إنه يجب ألا يحرم أحداً من ه غبته ، وقد ترك العناية بشئون بيته وبماله إلى داڤد ، قال إنه لا يكفيه إلا أن يملأ بالصور جميع جدران فلورنس . وقد أخرج كثيراً من الصور التي لا ترق إلى ما فوق الدرجة الوسطى ، ولكنه أخرج أحياناً بعض المصور الرائعة التي تأسر القلوب وتخلب الألباب ، كصورة الجر ذي الأنف البصلي وهي الصورة الحلابة المحفوظة في متحف اللوڤر ، والصورة الأخرى الحميلة صورة المرأة إحدى صور مجموعة مورجان في نيوبورك ، وهما صورتان تكشفان عن الصفات الخاتمية التي ترسم عاماً بعد عام على وجه الإنسان . غبر أن عظاء النقاد اللبين يضعهم علمهم وتضعهم سمعتهم فوق الشهات لا يُنزلونه إلا منزلة دنيا(٢٠) ، وفي الحق أنه برع في الحطوط لا في الألوان ، وأنه كان يسرع في التصوير أكثر مما يجب ، وأنه زحم صوره بالتفاصيل التي لا علاقة لها بتلك الصور ، ولعله خطا خطوة إلى الوراء في تفضيل الدهان الزلالى يعد أن قام بالموڤنتى بتجاربه فى الرسم بالزيت : غير أنه مع هذا سما بما تجمع من أصول فنه إلى اللروة التي استطاع أن يصل إليها في بلده وفي القرن الذي يعيش فيه ؛ وترك لفلورنس وللعالم كنوزًا يمني النقاد هاماتهم من أجلها شكراً له واعترافاً بفضله .

۲ - بتیتشیلی

ولم يعل عليه فى عبقريته من أهل فلورنس فى جيله إلا رجل واحد ، ذلك هر سندرو بتيتشالي Sandro Botticell الذي كان يختلف عن جرلندايو كما يختلف الحيال الأندرى عني الحقائق المجسدة . وقد عجز مريانا فلهيهى

Mariana Filipepè والد ألسندريو عن أن يقنع والمه أن حياته تكوت مستحيلة إذا لم يعرف القراءة والكتابة و الحساب ، فاضطر أن يعهد به إلى. صائغ ليتدرب عنده على صناعته ، وكان هذا الصائغ يسمى بتيتشيلي ، ولصق هذا الاسم بسندرو نفسه ، إما بسبب حب التلميذ معلمه أو بسبب نزوة من نزوات التاريخ . وانتقل الغلام في السادسة عشرة من عمره من حانوت الصائغ إلى الراهب فليولي Filippo Lippi الذي أحب هذا الغلام القلق الوثاب . وصور ڤلپيتو تلميذُ فلپو فيما بعد سندرو هذا في صورة شخص. متهرم نكد ، ذي عينين غائرتين ، وأنف بارز، وقم لحيم شهواني ، وغداڻي مسترسلة ، وقلنسوة أرجوانية ، وميدعة همراء ، وجورب أخضر (٣١) : ترى منذا الذى كان يستطيع أن يظن أن هذا هو شكل الرجل إذا ما شاهمه الصور الخيالية الرقيقة التي خلفها بتيتشيلي في المتاحف؟ ولعل كل فنان لابد أن يكون شهوانياً قبل أن يستطيع بلوغ المثل الأعلى في التصوير ، أى أنه لا بدأن يعرف الجسم ، ويحبه ، ويرى أنه المصور النهائي لحاسة الجمال والمقياس الذي يقاس به سمو هذه الحاسة . ويصف ڤاساري سندرو بأنه و شخص مرح ، يدبر الحيل لزملائه الفنانين وبلداء الذهن من المواطنين ؟ وما من شك في أنه قد جمع في شخصه كثيرًا من الرجال ، شأنه في ذلك شأننا جميعًا ، وأنه كان يتقمص هذه الشخصية أو تلك حسما تنطلبه الظروف ، أما نفسه الحقيقية فقد استبقاها سراً رهيباً خافية عن العالم .

وأنشأ بتيتشيلي مرسمه الخاص حوالى عام ١٤٦٥ ، وسرعان ما عهد إليه آل ميديتشي ببعض الأعمال ، ويلوح أن لكريدسيا ترنيوني أم لورندسو هي التي كلفته بتصوير فوويث Judith ، ورسم بعدئذ لزوجها يدو جاسو Piero Gottosso صورة مارنا ذات السنجات Piero Gottosso ورسم كذلك ترنيات عبارة المجوسي بالألوان لثلاثة أجيال من آل ميديتشي ، ورسم بتيشيل في صورة مارنا لورندسو وجوليانو كأنهما غلامان أولها ف السادسة عشرة من عمره والثنانى فى النائية عشرة يمسكان كتاباً تسطر فيه المدراء أغنيتها التسييحية الذائعة الصيت ـ وقله استعار هذه الفكرة من الراهب لهو . وفى الصورة الثانية عبارة المجوسي نرى كوزيم راكماً عند قدمى مرم ، ويبرو راكماً أمامهما فى مستوى أوطأ ، ولورندمو ـ وقد بلغ الآن السابعة عشرة ممسكاً بسيف رمزاً إلى أنه قد بلغ وقتئذ السن التي يجيز له فها القانون أن يقتل .

وسار لورندسو وجوليانو على سنة پىرو فظلا يرعيان بتيتشيلي ويناظرانه، وأجمل صوره هما صورة جوليانو ، وصورة محبوبته سيمونيتا ڤسپيوتشي Simonella Vespucc. على أنه لم ينقطع عن رسم الصور اللبينية كصورة القريسي أوغطين القوية ف كنيسة آل أنيسنني ، ولكنه أخذ يتجه تدريجاً في هذه الفترة _ ولعله في ذلك كان متأثراً بنفود دائرة آل ميديتشي _ نحو موضوعات وثنية ، مستمدة في العادة من الأساطير القديمة ، ويفضل الأجسام العارية ، وشاهد ذلك ما يقوله ڤاسارى من أنَّ « بتيتشيلي صور في كثير من البيوت . . . عدداً كبيراً من النسماء العاريات » ، ويتهمه و بالانحرافات الحطيرة في معيشته و(٢٦٠) ، ذلك أن الكتاب الإنسانين ، والأرواح الحبوانية كانوا قد جذبوا سندروا إلى حنن نحو الفلسفة الأبيقورية ويبدو أن لورندسو وجوليانو هما اللذان رسم لما صورة مولد فيئوس (١٤٨٠) . وتبدو في هذه الصورة فتاة عارية تتظاهر بالاحتشام تمخرج من محارة ذهبية في البحر ، ولا تجد في متناول يدها غير غدائرها الطويلة الشقراء تستخدمها استخدام ورقة التين ، وترى عن يمينها هبات النسم المجنحة ندفعها نحو ساحل الأرض ، وعن يسارها فتاة جميلة (لعلها سيمونتا) ترتدى جلباياً أبيض منقوشة عليه الأزهار ، تقدم اللهفة ميدعة تزيدها جمالا على جمالها ﴿ والصورة آية في الرقة والتصميم ، والتأليف فمها هو كل شيء ، واللون في منزلة ثانوية ، والواقعية متغاضى عنها ، وكل شيء فيها •وجه

نحواستثارة الحيال الأثبرى عن طريق ائتلاف الخطوط المنساب المتدفق. وقد استمد بتيتشيلي فكرته من فقرة في قصيدة يوليتيان رميو سترا La Giostra ؟ واستمد بعد ذلك من وصف هذا الكاتب في القصيدة نفسها انتصارات جوليانو في المثاقفة والحب موضوع صورته الوثنية الثانية الحريخ والزهرة· وترى الزهرة (ڤينوس) في هذه الصورة مكسوة غير عارية ، وقد تكون هو المحارب الفظ بل هو شاب ذو جسم لا عيب فيه ، قد يخطئه المرء فيحسبه أفرديتي أخرى . وعبر بتيتشيل أخبراً في صورة الربيع (پريماڤيرا Primavera) عن طبيعة ترنيمة لورندسو لباخوس Bacchus (a من شاء أن يكون سعيداً فليسعد ») : ففها تعود القابلة للظهور ساعة الحوام بردائها المسبل وقدمها اللطيفتن ؛ ويرى إلى اليسار جوليانو (؟) يقتطف تفاحة من شجرة ليقدمها إلى واحدة من ربات الجال الواقفات إلى جائيه نصف عاربات . وإلى اليسار رجل شبق يمسك بفتاة تكتسى غلالة من الضباب ؛ وتشرف سيمونتا في تواضع على المنظركله ، ومن فوقهاكيوپد في الهواء يرسل سهامه التي لم يعد لها نفع . وترمز هذه الصور الثلاث إلى أشياء كثيرة، لأن بتيتشيل كان مولعاً بالرمزية ، ولكنها كانت تمثل ــ وقد يكون ذلك على غير علم منه – انتصار الإنسانيين في الفن ؛ وقضت الكنيسة من ذلك الحين نصف ترن (١٤٨٠ – ١٥٣٤) تكافح لاستعادة سيطرتها على موضوعات التصوير .

وكأنما أراد ستمحميتس أن يكافيح فى هذا الأمركفاح الأشراف ، فدعا بتيتشيلى إلى رومة (١٤٨١) ، وعهد إليه أن يصور ثلاثة مظلمات فى معبد مستينى . ولم تكن هذه المظلمات من خبر آياته الفنية ، لأن مزاجه وقتئد كان بعيداً عن التي والصلاح ؛ ولكنه لما عاد إلى فلورنس (١٤٨٥) وجد المدينة على بكرة أبها تضطرب بمظات سفرولا ، وذهب هو ليستمع

إليها ، وأحدثت ڤيه أثراً عميقاً. ذلك أنه كان على الدوام يضم جوانحه على شيء من الحد والصرامة ، وكان قد فقد ما عسى أن يكون قد أخذه من التشكك عن لورندسو ، وبلتشي ، وبوليتيان في الأعماق الحفية من إيمان شبابه ؛ فلما سمع هذا الحطيب الملتهب حماسة يعظ في كنيسة سان ماركو ﴿ القديس مرقس ﴾ بعث فيه وفي فلورنس كلها ما ينطوي عليه هذا الإيمان من تبعات رهيبة جسام : فالله قد قبل لنفسه أن بهان ، ويجلد ، ويصلب لينقذ البشرية من خطيئة آدام وحواء ؛ ولا شيء غُمر حياة الفضيلة والتوبة الصادقة يمكن أن تستدر بعض الرحة من تلك التضحية التي قدمها الله الله ع وبذلك ينجو المرء من عذاب الجحم الأبدى . وحوالى هذا الوقت وضع بتيتشيلي بالرسم مناظر المس**عرة الواربية** لدانثي فقد وجه فنه من جديد لحدمة الدين ، وأخذ يقص مرة أحرى تلك القصة الرائعة قصة مرم والمسيح، فرسم لكنيسة القديس برنابا مجموعة راثعة تصور العلىراء على عرشها ويحف بها عدد من القديسن ؛ وهي في هذه المجموعة لا تزال العذراء الرقيقة الجديلة التي صورها في مرسم الراهب لهو . ثم رسم بعد قليل من ذلك الوقت سيدة الرمايد The Madonna of the Pomegranate وهي تمثل العذراء يحيط مها الملائكة المنشدون ، والمسيح الطفل يمسك بيده الفاكهة التي ترمز بلورها الكثيرة إلى انتشار الدين المسيحي. وأعاد في عام ١٤٩٠ ملحمة أم المسيح في صورتين هما صورتا البشارة والتنويج ، واكنه كان وقتئذ قد عمر طويلا وفقد ما كان لفنه من جدة ووضوح وظرف ه

وحدث في عام ١٤٩٨ أن شنق سفترولا وأحرق ، وارتاح بتيتميلي من هذا الاغتيال الذي لا يماثله اغتيال آخر في عصر البهضة ، ولعله قد صور بعد قليل من حدوث ثلك المأساة صورته الرمزية المعقدة وهي صورة البهتار, Calumny . وتُدرى في هذه الصورة خلفية من طريق ذي عقود من الطراز التديم ، ويحر بعيد ، وثلاث نساء يمثل الزور ، والخداع ،

والمهتان ـ يقودهن رجل رث ممرق الثياس (الحسد ، يسحن ضحية عارية من شعرها إلى محكمة بجلس فها قاض ركبت فى رأسة أذنا حمار طويلتان ، تقدم له النصح امر آتان تمثلان المربية و الحهل ، ويتأهب المانصياع إلى غصب الحمهور المتعطش لسفك اللماء ، فيحكم بإعدام الرجل الآثم . وإلى اليساو يُرى الندم متشحا بالسواد وبنظر فى أمى وحسرة إلى الحقيقة العاربة ـ وهى هنا ثينوش بتيتشيل مرة أخرى مكتسية بشعرها المتاوى نفسه . ترى على قصد بالضحية أن تمثل سفرولا ؟ وبما كان ذلك ، وإن كانت اللساء الهرايا يروعن الراهب لو أنه رآهن .

وكانت آخر آبات بتبتشيلي الفنية هي صورة الهيلاد المحفوظة بالمعرض الأهلي بلنلذ، وهي صورة مضطربة ولكنها حميلة الألوان تظهر مرة الحرى ما طبع عليه من رشاقة منسقة موتلفة . ويبدو كل شيء في هذه الصورة وكأنه يستنشق السعادة الساوية ، فتعود فها سيدات الريسم في صورة ملائكة ذات أجنحة ترحب بهذا الميلاد المعجز المنقذ ، ويرقصن على فن معاق في القضاء معرضات أنفسين للخطر : ولكن بتبتشيلي كتب على فن معاق ألوائية الموثانية هذه العبارة التي تشتم مها رائحة سفرولا وتعيد في أوج الهضور العصور العصور العصور العصور العصور العصلي :

«رسمت ، أنا ألسندو ، هذه الصورة في آخر عام ١٥٠٠ وقت الضطراب إيطاليا . . . حين وقعت الأحداث التي وردت في (الأصحاح) الحداث عشر من إنجيل يوحنا ، في الجزء الثاني من أجزاء الرؤي ، حين انطاق الشيطان ثلاث سنين ونصف سنة . وسوف يصفد فها بعد ، كما ورد في (الأصحاح) الثاني عشر من إنجيل يوحنا ، وسنراه يداس بالأقدام في هذه الصورة » .

وليس لدينا شيء من تصويره بعد عام ١٥٠٠ ، ولم يكن وقتئذ قد تجاوز السادسة والحمسن ، ولعله كان لا يزال فيه شيء من القدرة الفنية ، ولكنه أخلى مكانه ليوناردو ومبكل أنجيلو وانزوى فى ظلمات الفقر التكد. وقد أعانه آل ميديتشى ، الذين كانوا عماده من قبل ، ببمض الصدقات ، ولكنهم هم أنفسهم كانوا قد ذهبت ريحهم ؛ ومات الرجل وحيداً ، ضعيفاً ، فى السادسة والستين من عمره بينا كان العالم السريع النسيان يجرى فى مجراه المعتاد .

وكان من بين تلاميذه فلينولي ابن معلمه . وكان و ابن المشق هذا ع (*) عبوباً من كل من عرفه : فقد كان رجلا ظريفاً ، دمت الأخلاق ، متواضعاً ، عباملا مودياً ، بلغت و صفاته المعنازة درجة عت و صفا مولده ، إذا كان في مولده و صعة ع كما يقون فالمارى . وقد تعلم على أبيه وعلى ساند و فن التصوير يسرعة بلغ مها أن أخرج وهو في النالثة والعشرين موفي في الفائلة والعشرين مرفي الفرسس برنار The Vision of St Bernard وهي صورة و الاينقصها إلا النطق ع كما يعم فها فاسارى . ولما قرر رهبان الكرمل أن يكلوا المظلمات التي بدئ جما قبل ستين عاماً من ذلك الوقت في معبد بر انكاتشي Brancace والمسمرين . همهادوا بهذه للهمة لمل فليينوا وهو لا يزال في السابعة والعشرين . وقم مبورة الفرسي فولسي فولسي في المحبي شخصية ذات في صورة القديس بولس فخالمب القريس بطرسي في الحبي شخصية ذات في صورة القديس بولس فالمسي علم سيطة بسيطة وقوة هادئة لا تنسى على مر الدهور .

واستدعاه الكردنال كارفا Caraffa في عام ١٤٨٩ إلى رومة بإيماء من لورندسو ليزخرف كنيسة سانتا ماريا بمناظر من حياة القديس تومس الأكويني (أكوناس) . وأبرز الفنان في المظلم الرئيسي هذا الفيلسوف في نشو المظفر ، وتحت قلميه أربوس ، واين رشد ، وغيرهما بن ، غير المؤمنين ، ولعله وهو يرسم تلك الصورة قد استعاد في خياله صورة مماثلة

 ⁽٥) بذل كرو Crowe وكفل كاسل Cavealcaelle جهداً كبيرا في أن ينهتا أن فلهي ابن شرعى ، ولكن حجبهما لا تتسخص إلا عن أمنية شريفة .

لها من عمل أندريا دا فريندسا Andrea da Firenza ، هذا بينا كانتآراء ابن رشد أثناء هذا تتغلب على العقائد الدينية المسيحية في جامعتي بولونيا ، ويدوا . ثم عاد فلبينو بعدثذ إلى فلورنس ، وسجل في معبد فلبواسترتسي فى كنيسة سانتا ماريا نوڤلا سبرة الرسولين فليب ويوحنا فى مظلمات بلغ من واقعينها أن حاول غلام ، كما تقول إحدى القصص ، أن يخيُّ كنرأً سرياً في ثقب مثله فلبينو في صورة جدار . ثم انقطع عن عمله في هذه المجموعة إلى حن ، وحل محل ليوناردو المرجئ المسوف في عمله ، قصور ستار محراب لرهبان اسكوپيتو Scopeto ؛ واختار للزخرفة الموضوع القديم موضوع المجوس يعيدون الطفل ، ولكنه بعث فها الحياة بتصوير المغاربة ، والهنود ؛ وكثيرين من 1 ل ميديتشي ؛ ومن آ ل ميديتشي هؤالاء رجل يعمل منجا وبيديه آلة ۽ الربع، . وتعد صورة هذا المنجم من أعظم. الصور الإنسانية وأكثرها فكاهة في عصر البهضة . ودعى فلبينو آخر الأمر (١٤٩٨) إلى براتو Praio ليرسم صورة للعذراء ، وكأنما أراد الداعون مهذا أن يقولوا إن خطايا أبيه قد غفرت . وأثنى ڤاسارى على هذه الصورة ، ولكن الحرب العالمية الثانية أتلفتها . وعمد وهو في سن الأربعين إلى حياة الاستقرار وتزوج، وعرف بضع سنين قلبلة مسرات الأبوة ومضايقاتها . ووافته المنية فجأة في السابعة والأربعين من عمره على أثر مرض بسيط هو النَّهاب اللوزتين والحلق ؛ وكان ذلك في عام ١٥٠٥ .

الفصال تسابع

وفاة لورندسو

لم يكن اورندسو نفسه من أفراد تلك القلة التي بلغت في تلك القروق. سن الشيخوخة ؛ وقد كان كأبيه يعاني آلام الرَّثية والنقرس مع اضطراب في المعدة كثيراً ١٠ كان يسبب له آلاماً مبرحة توهنه وتهد قواه ، وقد جرب. كثيراً من وسائل العلاج ، فلم يجد خيراً مماكان يتيحه الاستحام بالمياه المعدنية من تخفيف لآلامه لم يكن يلبث أن يزول ؛ ولقد أدرك قبل وفاته بوقت ما أنه وهو الذي كان يبشر بإنجيل المرح والهجة لن يطول به العمر ¢ وتوفيت زوجته فى عام ١٤٨٨ وحزن على فقـــدها حزناً صادقاً وشعر بما فقله من معونتها وإن لم يكن فى أثناء حياتها وفيا لها . وكانت قلم وللت له أبناء كشرين بني منهم سيعة بعد وفائها . وكان يعني على الدوام بالإشراف على تعليمهم وتربيتهم ، وبذل ما في وسعه في السنن الأخرة من حياته كي بهدمهم إلى زيجات تعود بالسعادة على فلورنس وعلمهم هم أيضاً : فخطب ليبرو أكبر أولاده فتاة أورسينية ليكسب بذلك أصدقاء له في رومة ، وتزوج جوليانو أصغرهم إحدى أخوات دوق ساڤوى ، وخلع عليه فرانسس الأول لقب دوق نمور Nemours ، وأعانه ذلك على أن ينشئ جسراً بين فلورنس وفرنسا . أما چيوقني ، ابنه الثاني ، فقــــد وجهه نحو المناصب الكنسية ، وقبل الشاب هذا قبولا حسناً ، وسرالناس جيعاً بجال طبعه ، وحسن خلقه ، وإتقانه اللغة اللاتينية . وأقنع لورندسو البابا إنوستت الثامن. بأن يخرج على كل السوابق فبرسمه كردنالا وهو في سن الرابعة عشرة ؛ وخضع البابا لرأبه لنفس الأسباب التي خضعت من أجلها معظم الزيجات

الملكية وهي ربط حكومة بأخرى برباط الود الناشئ من صلات الدم ،

وننحي لورندمو عن الاشتراك الفعل في حكم فلورنس ، وأخذ يمهد پقسط مترابد من أعماله العامة والخاصة لابنه يعرو ، واللب الراحة النفسه في هدوء الريف وحديث الأصدقاء ؛ ودافع عن مسلكه عذا برسالة تقصيح عن طبيعته الممترة له قال نها :

وهل شيء أحب لذى العقل المنظم من الاستمتاع بالفراغ مع الكرامة ؟ إن هذا هو الذى يرغب في الحصول حليه كل الحبرين من الرجال ، ولكنه لا يناله إلا العظاء مهم . نعم إننا ونحن في خضم الشئون العامة قد يتاح لنا أن نعطلع إلى يوم تستريح فيه من هناء العمل ؛ ولكن الراحة أياكات يجب ألا نحول بيننا حيلولة تامة عن الهناية بما بهم بلدنا . ولست بمستطيم أن أنكر أن الطريق الذى قدر على أن أسلكه كان طريقاً مجهداً وعراً ، مليناً بالأخطار ، عوطاً بالفدر من كل جانب ؛ ولكني يعزيني عن هذا أنني قد أسهمت في العمل على رفاهية بلدى ، الذى يضارع الآن في وخاله أية دولة أخرى مهما بلغ ازدهارها . كذلك لم أهمل قط مصالح أمرتى والعمل على تقدمها ، فقد وضعت نصب عيني على الدوام أن أحلو حلو والعمل على تقدمها ، فقد وضعت نصب عيني على الدوام أن أحلو حلو في هذه عها فو تلك . وإذا كنت قد وصلت الآن إلى الهدف الذى كنت قد وصلت الآن إلى الهدف الذى كنت أعلى له وأعنى به ، فإنى أعتقد أن من حتى أن أستمتع بلذة الراسة ، وأنال تعميني من حسن سمعة مواطى ، وأعتر بالهد الذى ناله وطنى .

ولكنه لم يتح له إلا قليل من الوقت للاستمتاع بالهدوء الذي لم يعتده ؟ ذلك أنه لم يكد ينتقل إلى قصره الريني في كزيجي (Carega) (۲۱ مارس سنة ١٤٢٩) حتى اشتلت عليه آلام المعدة اشتداداً مروعاً . واستدعى الإخصائيون من الأطباء ، فسقوه مزيجاً من الجواهر فساءت حاله على المقور ، واستسلم للموت . وقد أقصح لهرو ويوليتيان قبل وفاته عن حزنه . لأنه لم يطل أجله حتى يتم مجموعة المخطوطات ليستعينا هما جا ويفيدا مها

الطلاب. ولما دنت منيته بعث في طلب قسيس ، وأصر وهو في آخر من أن يغادر سريره لكي يتلي القربان المقلس وهو جاث على ركبتية . وطافت بنداكرته في تلك اللحظة صورة ذلك الواعظ المنيد اللي ندد به ورماه بأنه قضي على الحرية ، وأفسد الشباب ، وتاقت نفسه لأن ينال عفو هذا الرجل قبل أن يموت . ولذلك بعث بصليق يرجو سثمر ولا أن يحضر إليه ليستمع وعرض عليه المغفران بثلاثة شروط ، كما يقول پوليتيان : أن يومن لورندسو إيماناً صادةاً برحمة الله ، وأن يعد بأن يستقيم في ناحياته إذا شي مرضه ، وأن يلي الموت صابرا . وقبل لورندسو الحائز سنتي الموت صابرا . وقبل لورندسو هذه الشروط وغلمر فله ، وبقول ج ، ف . يبكو (وهو غير يبكو الكاتب الإنساني) أحد الكتاب الأولين اللين كتبوا سبرة سفرولا إن الشرط الثالث كان أن يعد لورندسو الأورندسو الموت الموت الموت بيكو إن الموت وقر الموت المو

ولما تراى نبأ احتضاره إلى فلورنس لم يبق في المدينة كلها تقريباً أحد إلا حزن عليه ، وحتى خصوم لورندسو نفسه لم يعرفوا كيف يستطاع حفظ المحدية (٢٠٠٠). واعترفت أوربا بمقدرته الفائقة في شنون الحكم ، وأدركت ما فيه من خصائص الرقت الذي كان يعيش فيه ، فقد كان هو « رجل المهشة ، في كل شيء سوى كرهه العنف. ولقد استطاع بفطته في السياسة وهي الفطتة أتى كسيا على مهل ، ويلاغته في الجدل وهي البلاغة السياسة المقتمة أتى كسيا على مهل ، ويلاغته في الجدل وهي البلاغة السياسة المقتمة رغم سهولها ، وصلابته وشجاعته في الإقدام والعمل ، استطاع مهله المؤليا أن يجعل جميع أهل فلونس إلا القليلين منهم ، ينسون الحرية الى المزايا أن يجعل جميع أهل فلونس إلا القليلين منهم ، ينسون الحرية الى

قضب عليها أسرته ؛ ومن لم ينسوها من أهلها كانوا يلكرون أنها هي الرستفلالية في و دمقراطية إلى السيطرة الإستفلالية في و دمقراطية إلى السيطرة الإستفلالية في و دمقراطية إلى السيطرة بالسيطية الإدلاء بأصوائهم فيها إلا جزء من الثلثن جزءاً من الأهلن: وكان لورندسو يستخدم سلطته في اعتدال ، ويستخدمها لحر الدولة ، وإن أدى ذلك إلى إهمال ثروته الحاصة ، والمحلم أن فلورنس ، لكنه ضرب أحسن الأهلة في الأدب ، وأحاد إلى اللغة الإيطالية بمكانها الأدبية الراقية ، وكان ينافس محاصيه في قرض الشعر؛ ويناصر الفنون بلوق راق نقاد ووضع بذلك مستوى له تسمى أوربا لبلوغه ؛ وإذا ما عد المسلم المتون كان هو خبرهم وأرقهم أخلاقاً ، وقد قال عنه فردينالد ملك نابل : و لقد طال أجل هذا الرجل حتى بلغ بجده ، ولكنه ثم يطل أجله بالقدر المدى تتطلبه إيطالها هام السلم بعد وقاته .

الباباكامس سفنرولا والجهورية

1048 - 1844

الفضيلُ الأولم النسبي

إن الذي يمتاز به الحكم الورائي هو الاستمراراً ، أما نقمته فهي أنه يؤول إلى من لا يعلون على المستوى الأوسط من الحكام و ومصداق ذلك أن يعرو دى لورنلسو Piero di Lorenzo خلف أباه في سلطانه دون حناء ، ولكن سوء خلقه وخطأ أسكامه أفقداه حب الشعب وهو الحب الذي تكان يقوم عليه حكم آل ميديتشي ، فقد كان الرجل حاد الطيع سريع الفضب، متوسط الذكاء ، مزعزع الإرادة ، حسن النية إلى درجة تدهو إلى الإهجاب. ولكنه كان في ذلك أقل بصعرة وكياسة من أبيه . وكان قوى البنية ؛ بارها أن يليق برئيس دولة معرضة للأخطار . وكان من المحتر الذي الدينة ، بارها أنه يليق برئيس دولة معرضة للأخطار . وكان من المحن الكثيرة التي لازمته أن مشروعات لورنلسو وإسرافه قد أفقرا خزائة المدينة ، وأن منافسة المنسوجات الهريطانية كانت تشمر الكساد الاقتصادى في فلونس ، وأن زوجة يعرو الأرسينية كانت تشمخ بأنفها الروماني على الفلورنسين وترميم روجة يعرو الأرسينية كانت تشمخ بأنفها الروماني على الفلورنسين وترميم

المنحدر من لورندسو و الأكر و بدأ يتحدى أيناء كوزيمو وأحفاده ، وترهم حزباً تولى المعارضة باسم الحرية . وكان شر ما منى به يعرو من تعاسة أنه معاصراً لشارل الثامن ملك فرنسا الذي غزا إيطاليا ، ولسفرولا اللك كان يريد استبدال المسيح بالميديتشين ، ولم يكن يعروقد حلق ليتحمل هله الأهياء الثقال .

وانتقلت أسرة سفرولا من بدوا إلى فرارا حوالي عام ١٤٤٠ وذلك حين دعا نقولو الثالث د، ست Niccolo III d'Este ميشيل سفنرولا ليكون طبيب بلاطه . وكان ميشيل هذا رجلا نقياً قل أن يوجد مثله في الأطباء ؛ وكان كثيراً ما يلوم أهل فرارا لأنهم يفضلون القصص الغراسية على الدين(١) . وكان ابنه نقولو متوسط القدرة في الطب ، ولكن إلينا يوناكسي Elena Bonacossi زوجة نقولو كانت امرأة قوية الأخلاق ذات مثل عليا سامية؛ وكان چىرولاما ئالث أبنائهما السبعة، وأعداه هو أيضاً لدراسة الطب، ولكنه رأى أن تومس أكوناس أكثر إمتاعاً من التشريح ، وأن انفراده يكتبه ألذ من عبث الشباب : وراعه ألا يجد في جامعة قدرونا طالباً و بلغ من الفقر درجة تحمله على أن يجل الفضيلة ۽ . وكتب يقول : ١ إذا شئت أن تكون رجلا في هذا المكان ، فعليك أن تلوث فك بأقدر ألفاظ التجديف ، وأكثرها حيوانية ، وأشدها فظاعة . . . وإذا هرست الفلسفة والفنون الطيبة كنت في نظرهم حالما ، وإذا عشت عفيفاً متواضعاً ، فأنت أبله ؛ وإذا كنت تقيآً ، فأنت منافق ؛ وإذا آمنت بالله فأنت مغفل ٢٥٥ ه ولهذا ترك المدرسة وعاد إلى والدته وإلى العزلة ؛ وأضحى رجلا ذا وجدان سلم يشعر بنة اثصه ، وينغص عليه حياته تفكيره في الحجيم وفي خطايا بيي الإنسان . وكانت أولى كتاباته المعروفة قصيدة يندد فها بردائل إيطاليا وفعها البابوات أنفسهم ، وينذر نفسه لإصلاح بلده وكنيسته . وكان يقضى الساعات الطوال في الصلاة والدعاء ، وطال صيامه حتى حزن أبواه مما أصابه من منزال . و وحدث فى عام ١٤٧٤ أن اشتلت تقواه عن ذى قبل
بعد أن استمع إلى العظات التى كان يلقيها الراهب ميشيل Fra Michele
أيام المصوم الكبير ، وسره أن يرى كثيرين من أهل فرارا يأتون بأفنعهم ، وشُمرهم المستعار ، وأوراق اللعب ، والصور البنيثة ، وغيرها من متاع
المنها لياقوما على كومة حريق فى مبدان السوق . وبعدهام من ذلك الوقت
هرب خلسة من بيته ، وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، ودخل ديرآ
للبنكتيين فى بولوليا .

وكتب رسالة رقيقة إلى أبويه يرجوهما أن يغفرا له أنه خيب ما كانا يرجوان له من رق في الشئون الدنيوية ؛ ولما أن ألحا عليه بالمودة رد علمهما منضباً : د أيها الأعميان الماذا نداومان على البكاء والأسى ؟ إنكا تزعجاني وإن كان عليكما أن تبهجا وليس لى ما أقوله إذا داومها على هذا الحزن إلا أنكا ألد أعدائي وأعداء الفضيلة ؟ فإن كان ذلك ، قلت لكما : كونوا كلكم دوني ، يا من ترتكبون الإثم ه⁽⁷⁾ . وأقام في دير بولونيا الأعمال ، ولكن موهبته الحطابية تكشفت في أثناء هذه المدة ، وعهد إليه بالحطابة ؛ ثم نقل إلى سان ماركو في فلورنس عام ١٩٨٨ ، وكلف بالمطابة في كنيسة سان لورتنسو ؛ لكن مواحظه فيها لم ترق الجاهم ؛ لأيها كانت في كنيسة ما ناحية النظرية والتلقيقية أكثر بما تعليقه مدينة عرفت بلاغة المكتاب المستوحان بين طائعة يقل عديبهم أسبوعاً بعد أسبوع ؛ فا كان من رئيس الدير إلا أن خصه بتعلم المستجدين ،

وأكبر الظن أن السنين الحمس التالية هي التي تكونت فيها أخلاقه واتخلت صورتها اللهائية . ولما ازدادت مشاعره وأغراضه قوة ظهرت آثارها على ملاعه ، فتغضنت جهته وتجهمت ، وانقبضت شقتاه العليظتان تبهان عن قوة المزيمة ، وانحى أنفه الضخم إلى الحارج كأنما كان يريد أن يحيط

بِالعَالَمُ أَجْمَ ، ﴿بِدَا وَجَهُهُ مَكْتَئُبًا قَاسِيًّا ، يَتْمَ عَنْ قَدْرَةً لَا حَدْ لَمَا عَلَى الحب والكره ، وجسمه الضئيل تحطمه وتنتابه الروّى ، والآمال الخائبة ، والأعاصر الداخلية المستبطنة ؛ وكتب وقتئذ لأبويه يقول : ﴿ لَا زَلْتَ لَحْمَا ودًا مثلكما ؛ ولا زالت حواسي مستعصية غير خاضعة لعقلي ، ولهذا كان لابد لى أن أناضل بقسوة كي أمنع الشيطان أن يقفز على ظهرى ١٤٥٠ . وعمد إلى السوط وجلد نفسه كي يذلل ما بدا له إنه الفساد المتأصل في الطبيعة البشرية . وإذا كان قد جسد وساوس الجسم والكبرياء فجعلها أصوات الشيطان ، فإنه لم يكن أقل من ذلك استعداداً لأن يجسد نصائح نفسه الحرة وتحذيراتها : وهام وهو بمفرده في صومعته يعلى من شأن وحدته بأن يصور نفسه كأنه ميدان تصطرع فيه الأرواح التي تحوم حوله ليظفر منها الخبيث أو الطيب ، وخيل إليه آخر الأمر أن الملائكة وكبارهم يتحدثون إليه ، وأخذ الفاظهم على أنها وحي إلمي ، وقام فجاءة يتحدث إلى العالم كأنه نبي اختيز ليكون رسولا من عند الله ، وآمن أشد الإيمان بالرومي غير المعترف مها والمعزوة إلى الرسول يوحنا ، وورث فلسفة الأخرويات عن يواقع الفلورى Joachiem of Flora الصوفى، وقال كما قال يواقع إن عهد المسيح اللدجال قد أقبل ، وإن الشيطان قد استحوذ على العالم ، وأنَّ المسيح سيظهر بعد قليل ليبدأ حكمه في الأرض، وأن الانتقام الإلهي سيحل بالطغاة، والزانين، والكافرين ممن خيل إلهم أنهم يسيطرون على إيطاليا

ولما أن أرسله رئيس ديره ليخطب في لمبارديا (١٤٨٦) تنحى سفمرولا عن أسلوبه التعليمي الذي كان يصطنعه في شبابه ، وصاغ عظاته في صورة التشهير بالرذائل الحلقية ، والتنبؤ بيوم الدينونة ، والدعوة إلى التوية . وأصنى إليه آلاف بمن لم يكونوا يستطيعون تتبع حججه الأولى ، وأخلوا يستعمون في وجل إلى البلاغة الجلديلة الثائرة القوية التي ينطق بها رجل خيل إلهم أنه يتحدث عن يقين وتأييد إلى . وسمع بيكر دلا مرتدولا بما أوتيه الله الله من تجاح ، واستأذن لورندسو فى أن يعرض على رئيس الدير أن يأمر بعودة سفترولا إلى فلورنس . وعاد سسفرلا فعلا ؛ (١٤٨٩) ، واختير بعد عامين رئيساً لدير سان ماركو ؛ ووجد فيه لورندسو علوا أصرح وأقوى من أى عدو آخر اعرض سبيله .

ودهشت فلورنس إذ رأت أن الواعظ الأصحم الذي كان من قبل يبعث البأس بحججه في قلومهم ، قد أشغاد الآن يروعهم بالرو ى والخيالات طلبينية ، ويستحوذ على قلومهم بالأوصاف الحية القوية التي يصور ما الوثنية ، والفساد ، والرذائل المتفشية بن جرامهم ، ويسمو بأرواحهم إلى مراقى طلتوبة والأمل ، ويبعث في نفوسهم من جديد قوة الإيمان التي كانت تلهمهم وتروعهم أيلم شبامهم :

و يا أينها النساء يا من تحتلن بزينتكن ، وشعركن ، وأيديكن ، أقول لكن إتكن جميعاً قبيحات ، فهل تردن أن ترين الجال الحق ؟ انظرن إلى المرجل التي أو المرأة التقية ، حيث تسيطر الروح على المادة ؛ انظرن إليه وهو يصلى ، وحين يتلألأ عليه شعاع من الجال الربانى ساعة يختتم صطواته ؛ صترين وقتتذ جمال الله يتلألأ في وجهه ، فتبصرته كأنه وجه ملاك يه(*).

وذهل الناس من شجاعه ؛ فقد كان تنديده بالقساوسة والبابوية أشد من تنديده يغير رجال الدين ، وكانت قسوته على الأمراء أشد منها على الشعب ، وسرى فى قلوب الفقراء تيار فوى من التطرف ؛ انظر إلى قوله:

لا يوجد فى هذه الأيام شىء من نهم الروح القدسى أو هباته لايستطاع شراؤه أو بيعه . أما الفقراء فقد أسخلت كاهلهم الأعباء النقال ، وإذا ما دعوا لأداء مبالغ من المال فوق طاقتهم ، صاح الأغنياء فى وجوههم قاتلن : و أعطونا ما يتى لديكم ، ومن الناس من لا يزيد دخلهم على خسبن . وطورينا فى المام) ، ثم يؤدون ضرائب عن مائة ، على جنن أن الأغنياء لايؤدن إلا القليل ، لأن الفرائب قد نظمت على هواهم . ألا فلتفكروا

جيداً أما الأغنياء ، لأن العذاب سوف يحل بكم . ولن نسمى هذه المدينة . يعد اليوم فلورنس ، يل ستكون معششاً الصوص ، والدناءة ، وسفك . الدماء . فإذا جاء هـــذا الوقت حلت بكم الفاقة . . . وانقلب اسمكم ، أمها القساوسة فصار هو الرعب (٧) .

ثم يأتى بعد القساوسة دور رجال المصارف :

لقسد ابتدعتم وسائل كثيرة تجمعون بها المال ، وتجرون بها همليات كثيرة من التبادل تقولون إنها مشروعة ، ولكنها أبعد ما تكون عن المدالة ، وقد أفسدتم بأعمالكم مناصب المدينة وكبار حكامها . ليس في مقدور أحد أن يقتمكم بأن الربا إثم ، وللملك نراكم تدافعون عنه وتعرضون نفوسكم للهلاك ؛ وليس فيكم من يستحى من إقراض المال بالربا ، بل إن من يفعلون غير فمالكم يرمون بالبلاهة والغفلة إن وجوهكم في وجوه الماهرات قد نفس منها ماء الخياة ، فأنتم تقولون إن الحياة الطبية الساوة هي حياة الكسب ، وللمسيح يقول :

طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات .

ثم يوجه كلمة إلى لورندسو فيقول(٢٠) :

إن الطغاة لا يمكن تقويمهم ، لأمم متكرون ، ولأمم يحيون الملق ، ولن يردوا مكاسهم الحرام . . . وهم لايستمعون الى نداء الفقراء ، ولا يلومون الأغنياء ، . . ويفسلون أخلاق الناخيين ، ويكلون جياية المضرائب إلى الملترمين ليهظوا بذلك كاهل الأهلين(١٠ . . وقد جرت عادة ، الطاغية أن يشغل الناس بالمعارض والأعياد حتى يتصرفوا عن التفكير في أعماله إلى التفكير في ملاههم ، فينشأوا غير ملمين بسير أمور الدولة ، ويتركون الراحة المحكور في بديد(١٠) .

وهر لا يرى أن ذلك الطفيان نما يستطاع تبريره بحجة أنه المال ينفق. على الآداب والفنون . ذلك أن سفرولا يقول إن الآداب والفنون من أعمال الوثميين ؛ وإن قول الإنسانيين إنهم مسيحيون محض اختلاق ، وإن أواشك. المؤلفين الأقدمين اللبين يجدُّون هم في الكشف من آثارهم ونشرها والثناء علمها. غرباء عن المسيح وعن الفضائل المسيحية ، وليس فنهم إلا وثنية وعبادة. لآلهة الكفار ، أو إنها عرض فاجر للعرايا من النساء والرجال .

واصطرب لورندسو لهذا . لقد كان جده هو الذي أنشأ ديرسان ماركو وأغناه ، وكان هو نفسه قد حباه بألمال الكثير ؛ وبدا له أن مما لا يقبله العقل أن يقوم راهب فيقضى من فوق منىر ذلك البيت المقدس الذي أنشأه آل ميديتشي على ذلك التأييد الشعبي الذي قام على أساسه سلطان أسرته ، مع أن هذا الراهب لا يكاد يعرف شيئًا عن صعاب الحكم ؛ ويقدس تلك الحرية التي لم تكن في حقيقتها إلا حرية الأقوياء في استغلال الضعفاء بلا وازع من سلطان القانون . وحاول لورندسو أن يسترضى الراهب، فجاء إلى دير سان ماركو ليحضر القداس ، ونفح الدير سهبات سخية ، ولكن سفنرولا ازدراه وسخُر منه ، وقال في عظة له بعد ذلك إن الكلب الأمين لا يكف عن النباح دفاعاً عن صاحبه إذا ما ألتى إليه عظم . ولما وجد في صَندوق الصدقات قدراً كبيراً من الذهب على خلاف المتاد ظن أنه جاء من لورندسو ، فوهبه إلى ديرآخر وقال إن الفضة تني بحاجات إخوانه الرهبان . وبعث إليه لورندسو خسة من زعماء المدينة ليحاولوا إقناعه بأن عظاته الناربة ستؤدى إلى العنف الذي لا طائل من وراثه ، وأنها قد أخذت تمل بالنظام وتهدد الأمن والسلام في فاورنس . ورد عليهم سفترولابأن عليهم أن بأمروا لورندسو بأن يكفر عن سيآته ، وأغرى راهب فرنسيسي اشتهر ببلاغته أن يلني عظات شعبية مهدف مها إلى إبعاد المستمعين من الزهبان الدمنيكيين عن سڤترولا؛ ولكنّ هذا الرّاهب أخفق في مهمته ، وهرعت إلى سان ماركو جماعات أكبر نما كان بهرع إليه من قبل ، حى لم تعد كنيسة الدبر تتسع المستمعين . ونقل سفيرولا منبره إلى الكنيسة الكبرى ليلقي فيها عظائه في موسم الصوم الكبير من عام ١٤٩١ ؟ وكان هذا الصرح يز دحم بالحاضرين كلما أعلن أن الراهب سيخطب فيه ، مع أنه قد أنشى " لكي

سع أهل مدينة بأكلها . ولم يحاول لورنلسو يعدال ، وكان يقاسي آلام المرض ، أن يتلخل في عظاته .

وكان ضعف برو بعد موت والده لورندسو سبباً في أن أصبح سفترولا أكبر قوة في فلورنس ؛ ووافق البابا الجديد إسكندر السادس على كره على انفصال ديره عن المجموعة اللمباردية (من أديرة الدمنيك) التي كان هذا الديرجزءاً منها . وبهذا نصب سفنرولا نفسه من الوجهة العملية رثيساً حستقلا لأهل ديره . فلما تم له ذلك أصلح نظمه ، ورفع مستوى الرهيان الحاضفين لحكمه من الناحيتين الحلقية والعقلية ؛ فانضم إلى جماعته رهبان جدد ، وأحاطه أعضاء الذير البالغ عددهم ٢٥٠ عضواً بالحب والإخلاص اللذين كانا عوناً قوياً له في جميع ظروف حياته ما عدا محنته الأخبرة . وأصبح سفرولا من أجل ذلك أشد جرأة فيا يوجهه من نقد للفساد الشائع وقتئد يهين رجال الدنيا والدين على السواء . لكنه ورث على غير علم منه آراء الملحدين الولدنسين Waldensian والبتارين Patarine المعارضة لآراء الكنيسة ؛ وكانت مَّاتان الطائفتان لا تز الان تُكمنان في أماكن مختلفة من شيالي إيطاليا ووسط أوريا ، فأخذ يندد بالثراء الدنيوى الذي يستمتع به رجال الدين ، وبما يتجل في الحفلات الكنسية من أمهة وفخامة ، ويشنع على « الأحبار الكبار الذين يضعون على رعوسهم تيجاناً فخمة من الذهب والحجارة الكريمة . . . وعلى ملابسهم الجميلة وأوشحتهم المنسوجــة من الديباج للقصب ، . وأخذ يقارن هذا بما كان عليه ورجال الكنيسة الأولون من بساطة ، ويقول إن هؤلاء « لم تكن لم تيجان ذهبية وأقداح قربان إلا أقل من القليل ؛ وذلك لأن القليل الذي كانوا بملكونه منها قد تحطير ليسد حاجة الفقراء والمعوزين أما أحبارنا فإنهم ينهبون من الفقراء ما لا علكون سواه ليقيموا به أودهم ، ليحصلوا هم به على أقداحهم ،(١٠) . وكان يضيف إلى هذا التشهر نبوءات بسوء المصر ۽ وكان قد تنبأ بأن لورندسو وانو سنت الثامن سيموتان في عام ١٤٩٧ ، ومات كلاهما في ذلك العام بالفعل ، ثم تنبأ في هذا الوقت الذي تتحدث عنه أن الله سيرسل على إيطاليا كارثة ملهمة ينتقم بها للمنوجا وآثام طفاتها ورجال الدين فها ، فإذا انقضت هذه الكارثة فإن المسيح سوف يقود الأمة في سبيل الإصلاح الحبيد ، وأنه هو تفسه ، سفترولا ، سيموت موتاً عنيفاً . ثم تنبأ في بداية عام ١٤٩٤ أن شارل الثامن سيفزو إيطاليا ، ورحب هو جلما الغزو ووصفه بأنه يد الله المطهرة . ويقول أحد معاصرية إن ما كان يلقيه وقتئذ من عظات كانت وملية بالإرهاب ، والفزع ، والصراخ والعويل ، إلى حد جعل كل من سهوا يطوف بالمدينة ذاهلا ، صامتا شبها بالأموات ، ١١٥٠

وتحققت نبوءة سفرولا ، فعبر شارل الثامن جبال الأبنين في عام ١٤٩٤ وانقض على إيطاليا يعتزم ضم مملكة نابلي إلى التاج الفرنسى ، و دخل أملاك وظورنس في شهر أكتوبر من ذلك العام و حاصر حصن سار دسانا Sarzana وظن يبرو أنه يستطيع إنقاذ فلونس من فرنسا ؛ كما أنقلها والله من المهام و بالله المناهاب ينفسه إلى علوه . فقابل شارل في سار دسانا وأجابه إلى ما لفلورنس من حصون في للمنزب على أن تبقى في أيسهم طوال أيام الحرب ، ما لفلورنس من حصون في للمنزب على أن تبقى في أيسهم طوال أيام الحرب ، أمريكي) تساعد مها على تمويل حملة شارل (١٠) : فلما وصل نبأ هذا التسلم من قبل في أمر هذه المفاوضات بعكس ما حدث من قبل في أيام لورندس و عامد المعارضين ليبرو من آل ميديتشي أن من قبل في أيام لورندس و عامد المعارضين ليبرو من آل ميديتشي أن يتفلموه ويعيدوا المحمودية القديمة ؛ فلما عاد ي و من سار دسانا وجد أبواب يتصر فيتشو و مفاقة في وجهه ، وأخذ الناس يهزءون به وهو في طريقه عصر فيتشيو والمعتلة على ومنها وحثي يدو و الاعتداء على حياته على منزله ، والصية يقدفونه بالحجارة . وضشي يدو والاعتداء على حياته على منزله ، والصية يقدفونه بالحجارة . وضشي يدو والاعتداء على حياته على منزله ، والصية يقدفونه بالحجارة . وضشي يدو والاعتداء على حياته على منزله ، والصية يقدفونه بالحجارة . وضشي يدو والاعتداء على حياته

فقر هو وأسرته وإخوته من المدينة ، وبه العامة قصر آل ميديتدي وحداثقهم ، وبيوت عمال يرو على أمواله ؛ وسبت المجموعات الفنة التي تضى آل ميديتشى في جمها أربعة أجيال ، وبعرت ، وباعت الحكومة ما بني مها في مزاد على . وعرض مجلس حكام فلورنس مكافأة قدرها قيد آلاف فلورين لمن يأتهم بيبرو والكردنال جيوڤني ده ميديتشي على سفرولا ، إلى شارل في بزا يطلبون إليه شروطاً للصلح أمحف وطأة من الشروط السالفة الذكر ، وقابلهم شارل بمجاملة سلبية ، فلما غادر الوفد بزا نزع أهلها شارات الأسد والسوس وهي شعار يزا عن منازلم ونادو باستقلالهم . ودخل شارل فلورنس ، ورضى بأن يدخل تعديلا طفيفاً على مطالبه ؛ ودفعه حرصه على الوصول إلى نابل إلى أن بتجه بجيشه نحو الجنوب ، وشرحت فلورنس وقتئذ تقوم بتجرية في اللمقواطية تعد من أروع التجارب في التاريخ :

*الفصل لثا*ئ سفرولا الما_{كم}

دى أهل فلورنس فى اليوم الثانى من ديسمع عام 1494 إلى برلمان و Parlamento ، دعاهم إليه الناقوس العظم المدلق فى برج قدر نينشيو وطلب إليهم مجلس السيادة أن يحولوه سلطة ترشيح عشرين من رجالها ، يعينون هم مجلس سيادة جديد ورشاء جدداً المعوظفين ، وأن يحتفظ هذا الجلس وأولئك الموظفون بمناصهم عاماً واحداً ، محالاً بعده جميع المناصب بطريق القرعة من سجل يحتوى أسماء المتكور المنمتعين بالحقوق السياسية والبالغ عددهم قرابة ثلاثة آلاف. ووافق العرلمان على أن يعهد مهده السلطة الحال عددهم قرابة ثلاثة آلاف. ووافق العرلمان على أن يعهد مهده السلطة الحال عبد عبلس السيادة القدم : . وحل « العشرون » الحيالس والهيئات التي كانت تنظر في الشئون العامة وتديرها أيام آل ميديشي ، ووزعوا المناصب وقامت بيهم التحزبات للأسر فرقهم تمزيقاً ، وأمهارت الأداة الحكومية الجلديدة ، وأوشكت الفوضي أن تضرب أطنامها في المدينة ، وشموع دييب المحسود بالمناصبة في الشوارع ؛ وأقنع بعرو كيوني العمران عالسهم . العشرين ه أن لا سبيل إلى عودة النظام إلا إذا دعي سقرولا إلى مجالسهم .

واستدعاهم الراهب إلى ديره، وعرض عليهم مهاجاً طموحاً من التشريعات السياسية ، والاقتصادية ، والحلقية . ووضع و العشرون ! بزعامته وزعاءة يبترو سديربني Pietro Soderine دستوراً جديداً أغلوا بعض مبادئه من اللستور الذي نجح أيما نجاح في استقرار الحكم في البناقية وينص هذا اللستور على إنشاء مجلس أعلى Maggior Consiglio يتكون من رجال تولوا هم أو أسلافهم من الأجيال الثلاثة السابقة مناصب كبعرة في الدولة ، على أن يختار هؤلاء الأعضاء الأولون ثمانية وعشرين عضواً آخر ينضمون إلىهم فى كل عام . أما الهيئة التنفيذية للحكومة فتبقى فى جوهرها كما كانت فى أيام آل مهديتشى : مجلس للسيادة مكون من ثبانية روساء وحامل الشعار ، يختارهم المجلس الأعلى لملة شهرين ، ومن عدة لجان _ لحنة الأتنى عشر ، والسنة عشر ، والعشرة والثانية _ مهمتها تصريف الشئون الإدارية ، وشئون الضرائب والحرب . وأجل إنشاء اللمقراطية الكاملة بحجة أنها نظام غرعملي في مجتمع لا تزال كثرته من الأمين ، يندفعون وراء العواطف وآلانفعالات ؛ ولكن المجلس الأعلى الذي يكاد أعضاؤه يبلغون ثلاثة آلاف عضوكان يعتبر هيئة تباتية . وإذ لم يكن في قصر ڤيتشيو حجرة تتسع لهذه الجمعية الضخمة ، نقف كلف سيمون پلايو لني - ال كروناكا Simone Palainole - II Cronaca بأن يعيد تخطيط جزء من داخل القصر ليبجعل بهو قاعة الخمسائة Sala del Cinquecento يتسع لعقد جلسات المجلس مجزءاً . وقد كلف ليولناردو دا ڤنتشي وميكل أنبعيلو بعد ثمان سنن من ذلك الوقت أن ينقشا الجدران المتقابلة متنافسين تنافسا ذائع الصيت في التاريخ . ورحبت الجهاهمر سهذا الدستور المقترح ترجيباً كان الفضل فيه لنفوذ سفنروا ، وشرعت الجمهورية الجديدة تباشر أعمالها فى اليوم العاشر من شهر يونية سنة ١٤٩٥ .

وبدأت أعمالها بداية طبية ، فأصدرت صفواً عاماً عن جميع المؤمدين لحكم آل ميدينشي الزائل ، ودلت على كرمها المنبعث عن احترامها لنفسها بأن ألفت جميع الضرائب عدا ضربية قدرها عشرة في المائة من دخل الأملاك المقاربة ، وبذلك أعنى التجار الدين كانوا بسيطرون على الإعسال التجاربة من الضرائب ، وألفوا العبء كله على الأرستقراطية المالكة للأرض ، وعلى الفقراء المتفعين بها . ثم أنشأت الحكومة يإيماز مبشرولا منها الفقروض meute de pieta يقرض المال يفائدة قدرها خمدة في المائة و

وبذلك أنجت الفقراء من الاعماد على المراين الذين كانوا يتقاضون فوائد

تبلغ أحياناً ثلاثين في المائة . ثم حاول المجلس بتحريض الراهب أيضاً أن

يصلح الأخلاق والقوانين : فحرم سباق الحيل ، والأغانى البادينة في الحفلات

المتكرية ، وانتباك الحرمات ، والميسر ؛ وشجع الحدم على أن يبلغوا عن

أسيادهم إذا قامروا ؛ وكان من يمكم علهم من المذنبن يعلبون ؛ كماكان

المجدفون يعاقبون بخرق ألستهم ، ومن يرتكبون اللواط يلقون من العقوبات

الشديدة تمايزرى بهم . ونظ معقم ولا العلمان من جاعته في شرطة أخلاقية

مهمها المساعدة على تنفيذ هذه الإصلاحات . وتعهد هوالاء الغلمان بأن

يداوموا على الذهاب إلى الكنيسة بانتظام ، ويتجنبوا مشاهدة السباق به

على الأدب البذىء ، والألعاب الهلوانية، وصحبة الأرذال الفاسدين، والإطلاح

على الأدب البذىء ، ومشاهدة الرقص ، ومدارس الموسيتي ، كما تعهدوا

الصدقات المكنيسة . وكانت وعصب الأمل ء هذه تجوب الشوارع تطلب

المسادقات المكنيسة . ونشتت الجاعات الى تعتشد العب الميسر ، وتتنزع من

أجسام النساء ما ترى أنه غير لائق من اللياب .

وارتضت المدينة هــذه الإصلاحات إلى حن ، وأيدتها بعض الفسة تأييداً حماساً ، وسلكن مسلكاً مرضياً ، ولبسن ثباباً بسيطة ، وخلعن الحلى به وبدلت الثورة الأخلاقية فلورتسة آل ميديتشي المرحة تبديلا ، وأخد الأهلون يتفنون في الشوارع بالرائم الدينية بدل الأغلق الحديث ، وغصت الكنائس بالمسلمين ، وأخرج الناس الصدقات بمقادير لم يعهد مثلها من قبل ، ورد بعض رجال المصارف والتجار مكاسهم ضهر المشروعة (١٦) . ودعا مشرولا جميع سكان المدينة ، فقرائهم وأغنيائهم على السواء ، أن يتجنوا البطالة ، والرف ، وقال في ذلك : ويجب أن تبــداً إصلاحاتكم بشتون

الروح ، . . وأن تضعوا مغانمكم الدنيوية ف خدمة المصالح الأخلاقية والدينية التي هي أساس هذه المغانم ، وإذا كنم قد سمعم و أن الدول لاتحكم بالصلوات والأدهية ، فاذكروا أن هذا هو حكم الطفاة المستبدين ، وهو حكم لا يعمل لحرية المدينة بل يعمل لظلمها ، فإذا شئم حكاً صالحاً ، وجب حليكم أن تردوا هذا الحكم إلى الله ياداك . وطلب إلى فلورنس أن تعتقد أن لحكومتها ملكا لا تراه العن ه و المسيح نفسه ، وتنا بأن هذه الحكومة الدينية الفاضلة ، . وقال و أى فلورنس ! وإذن مستكونين غنية بثروتك الروحية والزمنية ، وستفوزين بإصلاح رومة ، وإطاليا ، وجميع الأقطار، وستبسطين جناحي عظمتك على العالم كله يادا). وإلحان أن فلورنس لم تسعد في يوم ما قبل ذلك الوقت كما صعدت في تلك والحق أن فلورنس لم تسعد في تاريخ الفضيلة القاتي للضمطرب .

لكن الطبيعة البشرية لا تتفسير ، فالناس ليسوا فضلاء بفطريهم ، والنظام الاجماعي إنما يحافظ على كيانه المزعزع وسط التنازع الحلي والعلى طلقائم بين النفوس والأسر ، والطبقات ، والعناصر ، والمقائد . وكان في المجتمع الفلورنسي عنصر قوى شديد الميل إلى الحانات ، والمواحر ، وأالدية الحقوب بن عنصر نس عنصر قوى شديد الميل إلى الحانات ، والمواحر ، وأارت المقاد يتفسون بها عن غرائزهم ، أويتخلوبها وسيلة إلى الكسب ، وثارت عثرهم من الأعيان الذين أخرجوا بيرو ، حين رأوا أزمة الحكومة تقع في يدى راهب ، وكانت يقية من حزب بيرو لا تزال قائمة تتحين الفرص الي يدى راهب ، وكانت يقية من حزب بيرو لا تزال قائمة تتحين الفرص الي يسطيع بها المودة إلى الحكم وتستعيد بها الثراء . كذلك كان الرهبان الفرنسيس يعملون بكل ما أوتوا من حاسة دينية ضد سفرولا الدميكي ، كما كانت عصبة صغيرة المدد من المتسككين تصب اللعنات على الطائفين . واجتمعت هذه الطوائف المختلفة من أعداء النظام الجديد في تجريح مويديه ووصفهم بالها كين Piagnoni (لأن الكثيرين مهم كانوا يبكون إذا محموا

عظات سفرولا وزوى الرفاب الملتوية Collitorit ، وكان اللين يلقبون بهده ومن بلوكوم الصلوات Masticapternostri فوكان اللين يلقبون بهده الألقاب يسمون أعداءهم الكلاب الكلت المحتفظة الشدة عداء هولاء لم وأفلحت طائفة الأربياتي (الكلاب الكلة) في انتخاب مرشحها فلبو كوربتدي Filippo Corbizzi عاملا لشمار اللولة في بداية عام 1897 ، فلم تم له ذلك عقد في قصر قيتشيو عبلساً من الكهنوت ؟ واستدعي سفرولا اللمثول أمامه ، واتهمه بالتورط في نشاط سياسي لايليق بالرهبان ، وانضم سفرولا نفسه . وكان جواب سفرولا : الآن قد حقت كلات الله : . جرية رئقد حاربي أبناء أي) . . . ليس الاحكم بشتون هذا العالم : . جرية يسمى لنصرة قضية الدين الاتكان يصرح هل كانت عظاته يسعى لنصرة قضية الدين الاتكان ، وطالبوه بأن يصرح هل كانت عظاته موجع بها من عند الله ، ولكنه أني أن يجيب عن هذا السؤال ، وعاد إلى صومعته وهو أشد حزناً مما كان

ولعله كان يستطيع التغلب على أعدائه او أن الظروف الحارجية كانت في صالحه . لكنها لم تكن و ذلك أن الفلورنسيين اللمين يمتدحون الحرية كانو غاضين أشد الغضب على يبرا الأنهم يطالبون بها ، وحتى سفترولا نفسه لم يجرو على الدفاع عن المدينة الثائرة ، وعوقب قس من قساوسة الكنيسة عقاباً صارماً على يد مجلس للسيادة مولف من الباكوي لأنه صرح بأن من أهل بيزا أيضاً أن يكونوا أحراراً . ووحد سفترولا بأن يرد يبزا إلى فلورنس ، واندفع فادعى أن يبزا و قبضة يده ؛ ولكنه كان ، كما وصفه مكيفل ساخراً ، نبياً لا جند له . ودعمت يبزا استقلالها بعد أن طرد شارل مكيفل ساخراً ، نبياً لا جند له . ودعمت يبزا استقلالها بعد أن طرد شارل الأنال من إيطاليا وذلك بتحالفها مع ميلان والمندقية ، وأسف القلورنسيون وثر مرهم دون ضرهم

لم يشتركوا فى ذلك العمل المجيد وهو طرد الفرنسيين من إيطاليا(١٧) . وكان القائدان الفرتسيان للحصنين الفلورنسيين ، وهما حصنا سردسانا وبيترا سانتا Pietra Santa قد باعا أحدهما إلى چنوى ، والآخر إلى لوكا : وقامت حركات تطالب بالتحرر في مونتي يلتشيانو Montepulciano وأرتسو Arezzo ، وقلته Volterra وغيرها من المنائن التابعة لفلورنس اضطربت لها أنحارُها ؛ ولاح أن المدينة التي كانت من قبل قوية مزهوة قد أوشكت أن تخسر ممتلكاتها الخارجة كلها تقريباً ، وأن تخسر كذلك جميع منافذها. التجارية القائمة على نهر الآرنو ، والبحر الأدرياوى، وعلى الطرق المؤدية إلى ميلان ورومة . وكان لهذا أسوأ الأثر في التجارة ، وقل إيراد الضرائب ، وحاول المجلس أن يحصل على المال الذي تتطلبه الحرب ضد بهزا بقروض جَرية من أغنياء المواطنان، وعرض علمهم في مقابل هذه القروض سندات حُكومية ، فلما أن لاحت أمارات الإفلاس انخفضت قيمة هذه السندات إلى تمانين في الماثة ، ثم إلى خسين ، فإلى عشرة في الماثة من قيمتها الاسمية. وأقفرت خزانه الدولة في عام ١٤٩٦ . وحلت الحكومة حلو لورندسو فاقترضت المال من رصيد أوتمنت عليه الدولة لتقدم البائنات العرااس الفقيرات. وفشت الرشوة هي والفساد والعجز وضربت أظنابها في إدارة الأموال الحكومية سواء كان مديروها هم السكلاب الكلبة أو الباكين. واختبر فرانتشسكو قالورى حاملا لشعار الدولة (يناير ١٤٩٧) بأغلبية من الباكين فزادت الكلاب الكلبة جنوناً على جنوبها بأن حرمت علها جميع الوظائف الكرى ومنعت من عضوية المجلس إذا كان أفرادها ممن تهربوا من أداء الضرائب ، ولم يسمح لغير الباكين بالحطابة في المجلس ، وأخرج من فلورنس كل راهب فرنسيسي يرفع عقىرته بالحطابة صد سفترولا . وحدث في خلال عام ١٤٩٦ أن ظل المطّر يُمّمر في كل يوم تقريباً ماة أحد عشر شهراً وأتلف المحصولات في الأراضي الضيقة الرقعة الواقعة في

مؤخر المدينة ؛ وبلغ من شدة القحط أن كان الناس يسقطون موتى من الجلوع على قارعة الطريق . وافتتحت الحكومة محطات للإغاثة لمد الفقراء بالحبوب ، فكانت النساء يتساقطن موتى من شمدة الزحام على طلها . وأخذ حزب آل ميديتشي يدبر المؤامرات لعودة ييرو ؛ وعرفت أسماء خسة من زعمائهم وحكم عليم بالإعدام (١٤٩٧) ، ومنعوا من استثناف الحكم إلى المجلس وهو الحتى الذي يضمنه لمم النستور ، وأعدموا ولما يمض على صدور الحكم إلا ساهات قليلة ؛ وأحذ كثيرون من الفلورنسين يوازنون بين ما هو منتشر في الحكم الحمهوري من تحزب ، وعنف، وقسوة ، وبين ماكان يسود عهد لورندسو من نظام وأمن وسلام . وتكررت مظاهرات الجمعوع الفاضية المعادية أمام دير سفترولا ؛ فكان السكلاب الكلبة والباكوم يْرَاشْقُونَ بِالحَجَارَةُ فِي الشَّارِعِ ؛ ولما أن شرع الراهب يلتي موعظته في يوم الصعود من عام ١٤٩٧ قاطعه جماعة من الغوغاء وحاول أعداؤه في أثناء الشغب أن يقبضوا عليه ولكن أصدقاءه ردوهم على أعقابهم . وعرض حامل الأختام على مجلس السيادة أن ينفي سفنرولا من المدينة لعل ذلك يسكن من غضب الأهلين، ولكن الاقتراح رفض بأغلبية صوت واحد ؛ وكان سفرولا في هذه العاصفة التي انهارت فيها أحلامه انهياراً مربراً يواجه ويتحدى أعظم قوة في إيطاليا .

الفيرل لثالث

سقترولا الشهيد

لم يضطرب البابا اسكندر السادس اضطراباً شديداً بسبب ما وجهه سفرولامن نقد لرجال الدين أو لأخلاق أهل رومة . ذلك أنه سمم مثل هذا النقد من قبل ؛ فقد ظل مثات من رجال الكنيسة قروناً طوالا يشكون من أن القساوسة يحيون حياة تنافى الفضيلة ، ومن أن البابوات يحبون المال والسلطان حباً لا يليق بخلفاء المسيح(١٨) . وكان البابا اسكندر سهلا رضي الطباع ، لا يسوؤه النقد الهن ما دام يحس بأنه آمن فى الكرسي الرسولي . أما الذي كان يسوؤه من سقَّرُ ولا فهو آراء هذا الراهب السياسية ؛ ولسنا تعنى سند الآراء السياسية ما في الدستور الجديد من نزعة شبه دمقراطية . كذلك لم يكن البابا حتم اهماماً خاصاً بالميديتشين ، ولعله كان يؤثر أن تقوم في فلورنس جمهورية ضعيفة عن أن تكون فيها حكومة مستبدة قوية . كذلك كان يخشى أن يغزو الفرنسيون البلاد مرة أخرى ؛ فقد اشترك من قبل في تكوين عصبة من الدول الإيطالية تعمل على طرد شارل الثامن من إيطاليا ، وتحبط أى هجوم ثان يقوم به الفرنسيون ؛ ولم يكن يطبق استمساك فلورنس بتحالفها مع فرنسا ، ويرى أن سفنرولا هو القوة الحفية التي توجه سياسة المدينة هذه الوجهة ، ويرتاب في أنه يراسل في السر الحكومة الفرنسية . وقد كتب سفرولا في واقع الأمر ثلاث برسائل يويد . فها ما اقترحه الكردنال جوليانا دلا روڤىرى Quiliano della Rovere من أن بعقد الملك مجلسًا عاماً من رجال الدين والحكم يصلح الكنيسة ، ويحلم الإ.كندر لأنه وكافر وزنديق ١٩٦٤. وحرض الكردنال أسكانيو اسفوردسا Ascanio Sforza عثل ميلان في اليلاط البابوي ، البايا على أن

يضع حداً لحطب الراهب ونفوذه ؛ فكتب الإسكندر في اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليه عام ١٤٩٥ رسالة موجزة إلى نفترولا قال فها :

إلى ابننا الهيوب بهدى تحياتنا ويركتنا الرسولية . لقد سمعنا ألف أشد العاملين في كرمة الرب غيرة ، فابهجنا للملك أشد الابهاج وهمدنا الله العلى القدير على هذا . وسمعنا كذلك ما توكده من أن تثبواتك لا تصدر منك كل من القلائك . ومن أجل هذا نرغب في أن تتحدث إليك في هذه الأمور كما يقضى علينا بلمك قيامنا على رعاية أبناه هذا الدين ؛ حتى إذا ما زدنا بهذه العلم يقة علم بإرادة الله كنا أقدر على أداء واجبنا ؛ بولها نأمرك بما لنا عليك من حتى الطاعة المقدسة التي أفسمت بالحرص علمها أن تعجل بالمتول بين يدينا ، وسوف تأتي منا الترسيب المشفوع بالحب والحنان (٢٠٠٠) .

وكانت هذه الرسالة نصراً عظيا لأعداء سفرولا ، لأبا وضعته في مأزق لا يسعه معه إلا أن يمتم حيانه بوصفه مصلحا أو أن يسعى أمر البابا علماً. وخشى سفرولا ألا يستطيع العودة إلى فلورنس إذا ألق بنفسه في قبضة البابا ، ولربما قضى يقية أيامه في جب سانت أنجياو Sant' Augelo يغد فإن أنصاره سيقضى عليم لا عالة د لحلا على بنصيحتهم لحرد على الإسكندر قائلا إن مرضه الشديد يحول بينه وبين القدوم إلى رومة : وتكشفت بواعث البابا السياسية إلى هذه الدعوة حين كتب إلى مجلس السيادة في فلورنس في المثامن من سبتمبر محتج على استمرار التحالف بين فلورنس وفرنسا ، وينبه الفلورنسيين إلى أنهم لا يليق مهم أن يوجه إلهم اللرم بالهم وينه أن يوجه إلهم اللرم بالهم عينه أن يحتم عن الخطابة ، وأن يخضع لسلطان الوكيل القام للرهبان المحنيك عينه أن يمتم عن الخطابة ، وأن يخضع لسلطان الوكيل القام للرهبان المحنيك في المباردي ، وأن يرحل إلى أي مكان يأمره هذا الوكيل بالرحيل إليه في المباردي الميا بالرحيل إليه .

 ^(•) وكانت الكنيسة قد أهات أن هذا الإدهاء يه. خروجاً على الدين ، وذلك لكن
 تقف في وجه المنابئين الكذابين.

ورد عليه سفرولا (في التاسع والعشرين من سبتمبر) بأن أتباعه لا يريدون أن يخضعوا إلى الوكيل العام للدمنيك : ولكنه في الوقت عينه سيمتنع عن الحطابة . فرد عليه الإسكندر مرة أخرى رداً يدل على رغبته في التوفيق والمصالحة (١٦ أكتوبر) ، وأعاد في هذا الرد أمره بالامتناع عن الحطابة ، وعمر من أمله في أن يجيء سفرولا إلى رومة حين تسمح له صحته بالهجيء إليا لكي يستقبل مها د بروح المهجة والأخوة عالم ، ثم ترك الإسكندر الأمر حدل الحدملة عام .

وكان حزب سفنرولا في هذه الأثناء قد استرد لنفسه السلطان في المجلس وفي مجلس السيادة ، وزجا مبعوثو حكومة فلورنس في رومة البايا أن يلغي أمره القاضي بمنع الراهب من الحطابة ، قائلين أن فلورنس في حاجة إلى تأثيره القوى أيام الصوم الكبير : ويبدو أنَّ الإسكندر أجامهم إجابة شفوية إلى ما طلبوا ، وعاد سفترولا في السابع عشر من فيراير سسنة ١٤٩٦ إلى الحطابة في الكنيسة الكبرى . وعهد الإسكندر حوالي ذلك الوقت إلى أحد الأساقفة الدمنيكيين المتبحرين في العلم أن يفحص ما تشرمن مواعظ سفنرولا ليتبين ما فيها من حروج على الدين . وكتب الأسقف في تقريره يقول : و أمها الأب الأقدس ؛ إن هذا الراهب لا ينطق بشيء يتعارض مع الحكمة أو الشرف ؛ فهو يتحدث عن بيع المناصب الدينية وعن فساد القساوسة ؛ وهو إن شئت الحقيقة شائع شيوعاً كبراً ؛ وهو يحترم عقائد الكنيسة وسلطانها ؛ وأفضِّل من أجل هذا أن أتحذه لى صديقاً ... ولو تطلب هذا أن تعرض عليه ثياب الكردنال الأرجوانية ، ولم يفارق الإسكناس ظرفه فبعث إلى فلورنس راهباً دمنيكياً يعرض على سفترولا القلنسوة الحمراء ؟ ولم يشعر الراهب بأن في هذا تكريماً له بل كان وقعه عليه أليماً ، لأنه لم ير فيه إلا مثلاً آخر من شراء المناصب . فقال لمبعوث الإسكندر » «رجليك أن تأتى إلى عظتي التالية تعرف ردى على رومة ١٣٦٠) . وكانت عظته الأولى في ذلك العام إيداناً يبده النزاع مع البابا ، وكان هذا النزاع حادثاً عظم الحطر في تاريخ فلورنس ؛ وتاق تصف المدينة المهتاجة إلى سياحه ، ولم تتسع الكندرائية على رحها لكل من أرادوا الدخول ، ولم تابع الكندرائية على رحها لكل من أرادوا الدخول ، وأحاطت بالرئيس جماعة من أصدقائه المسلحين حتى أوصلته إلى الكنيسة . وبدأ عظته بأن شرح سبب انقطاعه الطويل عن المنبر ، وأكد ولاءه النام لتحظيم الكنيسة ، لكن شرح سبب انقطاعه الطويل عن المنبر ، وأكد ولاءه النام لتحظيم الكنيسة ،

إن الرئيس لايستطيع أن يصدر إلى أمرا أيا كان يتعارض مع القواهد التي نسر طبها طائفتي ، ولايستطيع البابا أن يصدر أمرا ما يتعارض مع مقتضيات الر أو أوامر الإنجيل ، ولست أعتقد أن البابا سيحرص يوماً ما على أن يفعل هذا ؛ فإن فعل فسأقول له : وإنك الآن لست براع ، ولست أنت كنيسة رومة ، إنك محطي ، وإذا تبين بوضوح أن أوامر الروساء تتعارض مع أوامراق ، وبخاصة إذا تعارضت مع قواعد البر والخير ، فما من أحد من الناس في هذه الحال ملزم بإطاعتها إذا ما تينت بوضوح أن رحيل عن مدينة ما سيودي إلى هلاك أهلها الروسي والزمي ، فإن لن أطبع إنساناً على ظهر الأرض يامرني بالرحيل عنها والأرمى ، فإن لن أطبع إنساناً على ظهر الأرض يامرني بالرحيل عنها لأن إن أطبع عميت أومر القرائي . . .

وندد فى عظته التى ألقاها فى يوم الأحد الثانى من آحاد الصوم الكبر بأخلاق عاصمة العالم المسيحية بأقسى الألفاظ فقال : وإن ألف عاهر ، وعشرة آلاف عاهر ، وأربعة عشر ألف عاهر عدد قليل لايكنى رومة لأن جميم من فها من رجال ونساء فى العهر سواء ، (٣٠) . وانتشرت هذه العظات فى طول أوربا وحرضها عن طريق الاحتراع الجديد العجيب ونعنى به المطبعة ، وكان الناس يقرأونها فى كل مكان حتى سلطان تركيا نفسه . وأثارت عاصفة من المنشورات والكتيبات فى داخل فلورنس وخارجها ، منها ما أنهم الراهب بالخروج بملى الدين والنظام ومنها ما دافع عنه ووصفعه بأنه نبى وقديس .

وأخذ الإسكنلىر ببحث عن وسيلة غير مباشرة يتمَّى بها الحرب العلنية . ومن أجل هذا أمر في شهر نوفهر من عام ١٤٩٦ أن توحد جميع الأديرة اللمنيكية التسكانية _ لتؤلف عجموعة تسكانية _ رومانية جديدة توضع تحت سلطة يادر چياكومودا تشيتشيليا (الصقلي) Padre Giacomo de Cicilia . وكان پادر چياكومو هذا ممن يعطفون على سفنرولا ، ولكنه في أغلب الظن لايمانع في نقل الراهب إلى بيثة أخرى إذا أشار عليه البابا بذلك . ورفض سفنرولا أن يطيع أمر التوحيد ، وعرض الأمر على الشعب برمته في نشرة سماها : « دفاع من إخوان سان ماركو » . وجاء في هذه النشرة : ه إن هذا الاتحاد مستحيل، وغير معقول، ومضر، ولايمكن إرغام إخوان سان ماركو على قبوله ، لأن الرؤساء لا يحق لهم أن يصدروا أوامر تتعارض مع القواعد التي تسبر علمها الطائفة ، أوتتعارض مع قانون الحبر العام أوسلامة النفوس «٢٦٪ . وإذ نظرنا إلى الأمر من الناحية الرسمية فإن جميع من يؤمون الأديرة يخضعون خضوعاً مباشراً للبابوات ؛ ومن حق البابا أن يضم هؤلاء كلهم ويوحد بينهم رغم إرادتهم ؛ بل إن سفنر ولا نفسه قد وافق في عام ١٤٩٣ على أمر أصدره الإسكندر بضم جماعة الدمنيكيين في دير سانت كثرين بمدينة پيزا إلى جماعة سڤنرولا في دير سان ماركو الذي يرأسه(٢٧) على أن الإسكندر لم يتخذ إجراء عاجلا ، وظل سڤىرولا يخطب وأُصْدر إلى الجمهور سلسلة من الراءائل يدافع فيها عن تحديه للبابا .

ولما اقترب موعد الصوم الكبر من عام ۱٤٩٧ أعد الك**عرب الكلم** عدّسهم للاحتفال بالعيد بإقامة المهرجانات ، والمواكب ، والأغانى بجميع المظاهر التى كانت متبعة في أيام المبديشيين . وأراد مساحد سفر ولا الأمين الراهب مديكو أن يحبط هذه الخطط، فأمر الأطفال من أتباعه أن ينظدوا هم احتفالا يختلف عن الاحتفال السالف الذكر . فأخذ هولاء الأولاد والبنات. في خلال الأسبوع السابق لأيام الصوم يطوفون بالمدينة في جماعات، يدقون الأبواب ، ويرجون أو يطلبون في بعض الأحيان ــ أن يعطوا ما يسمرنه. * الأياطيل ، أو الأشياء الملعونة (أناثيازي Anathemase) - ويقصدون. مها الصِّور التي يرون أنها بذيئة ، وأغانى الغرام ، وأقنعة أعباد المساخر وُمِلابِسُها ، والشعر المستعار ۽ وملابِس التنكر ، وأوراق اللعب ، والبُرد ، والآلات الموسميقية ، ومستحضرات التجميل ، والكتب الحبيثة مثل ويكمرون أو صورجنتي مجبوري . . . ولما حل اليوم الأخير من أيام المساخر وهو اليوم السابع من فمراير ، سار أشد الناس حاسة من أتباع سفيرولا في موكب رهيب وهم ينشدون الأناشيد خلف تمثال للطفل يسوع نحته دوناتلو محمله أربعة أطفال في هيئة ملائكة إلى ميدان مجلس السيادة Piazza della Signoria . وكان قد أعد في ذلك الميدان من المواد القابلة للاشتعال هرم ضخم ارتفاعه ستون قدماً ومحيطه عند قاعدته متنان وأربعون . وصفت على طبقات الهرم السبع أو ألقيت علمها جميع و الأباطيل ، التي جمعت في خلال الأسبوع أو جيء مها وقتئذ لتحرقٌ ، وكان منها غطوطات وتحف فنية عظيمة القيمة ؟ وأشعلت النار في الكومة من أربع نقط، ودقت أجراس قصر ڤيتشيو التعلن هذا أول «حريق للأباطيل يقوم به أتباع سفنرولا^(ه) » .

ونقلت عظات الراهب فى أيام الصوم ميدان الحرب إلى رومة ، ذلك أن الراهب ، وإن قبل المبدأ القائل بأن الكنيسة يجب أن يكون لها قسط تعتمد. عليه من السلطة الزمنية ، قال إن ثروة الكنيسة هى سبب انحطاطها . ولم يكن هجومه علمها وقتلذ يقف عند حد :

و إن الأرض تسفك فها أنهار الدماء ، ولكن القسس لا يعبثون بشيء من هذا ، بل إمهم ينشرون الموت الروحي بين الناس حيماً بما يضربونه

 ⁽ ه) كان حرق الأباطيل جلم الصورة من العادات القديمة التي يقوم بها الرهبان المبشرون .

وكان سفنرولا يتوقع أن بؤدى هذا الهجاء القاذع إلى حرمانه من حظيرة الدين ، وقد رحب فعلا بهذا الحرمان فقال :

يقول الكتبرون منكم إن قرار الحرمان سيصدر ... أما أنا فإنى أتوسل إلك با الله أن يعجل سلما أقرار فليحمل هذا الحرمان إلى على سن حربة ، ولتفتحوا له الأبواب ! وسأرد عله ، وإذا لم يلملكم هذا الرد فقواوا في ما شلم . . . إنى لا أبنى منك يارب إلا صليبك ! فلأ ضطهد ؛ إنى أسألك هذه النمة ؛ لا يمنى في فراشى ، بل دعنى أقدم لك دى ، كا قدمت أنت دمك في (٢٠٠) .

وأوقدت هذه الخطب النارية لهيب الحاسة فى كافة أنحاء إيظاليا ، وهرع الناس من أقصى مدائنها للاستهاع إليها ، وجاء دوق فرارا متخفيًا ،

^(*) إشارة إلى قول البابا إسكندر السادس الصريح عن أبنائه .

وفاضت الجاهير إلى الشوارع من الكنيسة ، وكانت كل عبارة جامعة محكمة تنقل ممن في داخل الكنيسة إلى من في خارجها . أما في رومة فقد انقلب الناس على الراهب انقلاباً كاد يشمل جميع الأهلين وأخلبوا يطالبون بإنزال المقاب به (٢٠) . وحدث في إبريل من عام ١٤٩٧ أن سيظرت الكلاب الكلبة على المجلس وادعوا أن المدينة معرضة لخطر الطاعون ، فحرموا الحطابة تحريماً تاماً في الكنائس بعد اليوم الحامس من شهر مايو . وانصاع الإسكندر إلى محريض الكلبيين فوقع في النالث عشر من مايو قراراً بحرمان الراهب ، ولكنه أذاع في الوقت عينه أنه مستمد لإلغاء هذا القرار إذا استجاب سنمرولا إلى أمره بالقدوم إلى رومة . وأصر الراهب على رفض الدعوة لأنه كان بخشي أن يزج به في السجن ؛ ولكنه لزم الصمت ستة أشهر ؛ فلما محل عبد الميلاد أنشد في سان ماركو نشيد القداس الأكبر (*) ، وقدم العشاء الرباني لرهبان ديره ، وسار على رأسهم في موكب كبير حول الميدان . وروع كثيرون من الناس حن رأوا رجلا محزوماً يحتفل بالقداس ، ولكن الإسكندر لم يعترض على هذا العمل ، بل فعل عكس هذا إذ لمع بأنه مستعد للرجوع فى قرار الحرمان إذا انضمت فلورنس إلى الحلف الذى يقاوم عودة فرنسا لغزو إيطاليا(٣١) . لكن مجلس السيادة رفض هذا الاقتراح ظنا منه أن الفرنسين قد ينتصر ون في هذا الغزو ، وفي الحادي عشر من فعراير عام ١٤٩٨ بلغ عصيان سثنرولا غايته ، فقد خطب في كنيسة سان ماركو فوصف قرار الحرمان بأنه قرار ظلم باطل ، واتهم بالمروق من الذين كل من يؤيد صحته ، وانتهى الأمر بأن أصدر هو قراراً بالحرمان قال فيه :

ومن أجل هذا فلتحل اللمنة Anathema Sit على من يصدر أوامر تتعارض مم الحمر . ولو أن هذا الأمر قد نطق به ملك من السهاء ، بل

 ⁽ه) وهو الذي تصميه الموسيق ، والعقوس ، والمراكب ، والبخور . (المترجم)

تعانت به مرمم العذراء نفسها ، ونطق به جميع القديسيين (وهو مسحيل. پلا ريب / لحلت علمهم اللعنة . . . وإذا ما نطق أى بايا بما يناقض هذا ، فليملن حرمانه(٢٣٥ .

وقرأ سفترولا صلاة القدام في اليوم الذي قبل الصوم الكبر في الميداند. القام أمام كنيسة سان ماركو ، وقدم العشاء الرباني لحمع غضر من الناس ودعا الله جهرة بقوله : والهم إن كنت غير مخلص في أعمالي ، أو إن كانت ألفاظي غير موسى مها منك فأمتني في هذه الساعة ، ، ونظم سفترولا في عصر ذلك اليوم حرقاً ثانيا للإباطيل .

وأبلغ الإسكندر مجلس السيادة أنه سيصدر قراراً مجرمان المدينة إذا لم يستطع هذا المجلس إقناع سفر ولا بأن يكف عن الحطابة ؛ لكن المجلس أن أن يسكته وإن كان في ذلك الوقت شديد المداء له ، وآثر أن يحمل البابا وحده عب، هذا القرار ؛ هذا إلى أن الراهب البليغ قد يكون ذا نفع في مقاومة البابا الذي كان في ذلك الوقت ينظم الولايات البابوية تنظيا يجمل منها قوة عظيمة تقلق بال جبرانها . وواصل سفرولا نحطه ، ولكنه قصرها قد اشتد إلى حد يعرض حياة أهل كل فلورنسي قول إن عداء رومة للبابا ما هدديه من الحرمان فإن جميم التجار الفلورنسين في رومة تقد لا الخضوع ، وأدر إذا نفذ البابا ما هدديه من الحرمان فإن جميم التجار الفلورنسين في رومة تقد يلاي يهم في السجون . ولم يسم مجلس السيادة إلا الخضوع ، وأدر سفرولا أن يكف عن عظاته (١٧ مارس) . وأطاع الراهب الأمر ، منه البدر بدله ، وجعل نفسه الناطق بلسان الراهب ؛ وكتب سفرولا في منه رالدير بدله ، وجعل نفسه الناطق بلسان الراهب ؛ وكتب سفرولا في خلال ذلك إلى ملوك فرنسا ، وأسانيا والمانه ؛ وكتب سفرولا في يدعوا إلى عقد موتمر عام لإصلاح الكنيسة وجاء في رسائته ؛

لقد حان وقت الانتقام ؛ وقد أمرني الله أن أكشف عن أسرار جديدة ،.

وأن أظهر العالم الأخطار التي تهدد سقية القديس بطرس نتيجة لطول إهمالكم . إن الكنيسة غاصة بكل ما هو ممقوت ومردول من قة رأسها الله أخص قدمها ، ومع ذلك فإنكم لا تكتفون بالسكوت عن إصلاح مساوئها بل إنكم تقدمون الولاء والخشوع المتسيين في هذه المزدائل التي تدنسها ، وقد غضب الله من هذا أشد الغضب ، وترك الكنيسة زمناً طويلا من غمر راع ، . . ذلك بأني سها أقر و . . أن الإسكندرها ليس بابا ، ولا يمكن أن يكون بابا ، لأنه يغض إلطرف عن الطيئة المهلكة خطيئة الاتجار أن يكون بابا ، لأنه يغض إلطرف عن الطيئة المهلكة خطيئة الاتجار بالمقاصب الكهنوتية التي ابتاع مها كرسي البابوية ، وهو في كل يوم يبيع المناصب الكفيزية لصاحب أكبر عطاء ؛ وإذا غضضنا النظر عن يوم يبيع المناصب الكفية لصاحب أكبر عطاء ؛ وإذا غضضنا النظر عن مسيحياً ولا يرمن بانقر الم

وأضاف إلى ذلك قواه إنه إذا تقسد الملوك عبلساً فإنه سيمثل أمامه ويرهن على صمة هذه النهم جميعها.. واعترض أحيد عبال ميلان على إحدى هذه الرسائل وبعث ما إلى الإسكندر

قام راهب فرنسيسي في الحامس والعشرين من شهر مارس هام ١٤٩٨ وسلط أضواه المسرحية على نفسه بأن خطب في كنيسة سانتا كروتشي را الصليب المقدس) يتحدى سفرولا ويدعوه إلى التحكيم الإلهي بوساطة النار ؛ وانهم في خطابه الراهب اللمتيكي بأنه خارج على الدين ، ومتني كذاب ، وعرض أن يحوض النار إذا قبل سفرولا أن يحلو حلوه ؛ وقال إنه يتوقع أن يحرق كلاهما ، ولكنه يرجو أن تنجو فلورنس بهذه التضحية من الاضطراب الذي أحدثه فها دمنيكي مزهو يعصي أوامر البابا ، ورفض سفرولا هذا التحدي لكن دمنيكو قبله . واغتم مجلس السيادة هذه القرصة الذي سنحت له لكي يندد بالراهب الذي أصبح في زعمه زعها مهرجاً أثار سنحت له لكي يندد بالراهب الذي أصبح في زعمه زعها مهرجاً أثار في المدينة كثيراً من المتاعب . وارقضي الالتجاء إلى أساليب المصور الوسطي، في المدينة كثيراً من المتاعب . وارقضي الالتجاء إلى أساليب المصور الوسطي،

وأعد العدة لكى يدخل النار الراهب چوليانو رندينلى Giuliano Rondinelli أحد الرهبان الفرنسيس والراهب دمنيكو دا بستشيا Domenico da Pescia في السانسا دلاستمورنا (مهدان مجلس السيادة).

واحتشد في اليوم المحدد جمهور كبر في الميدان العظيم ليستمتع بالنظر إلى معجزة من المعجزات أو إلى عذاب يحل ببني الإنسان ، واحتل النظارة كومتان ميَّاثلتان من الخشب الممزوج بالقار ، والزيت ؛ والراتنج، والبارود تعبّر ضان طريقاً عرضه قدمان ، وتضمنان اشتعال لهب شديد . واتخلم الرهبان الفرنسيس موقفهم في اللوجيا دي لاندسي Loggia dei Lanzi ، وأقبل الرهبان اللمنيك من الاتجاه المقابل لهم ، وكان الراهب دمنيكو يحمل: و قرباناً مقدساً ، بينا كانا سفرولا يحمل الصليب . وشكا الفرنسيس من أن قلنسوة الراهب الدومنيكي الحمراء قد سحرها رئيس الدير حتى أضحت غير قابلة للاحتراق؛ وأصروا على أن يخاهها؛ واحتج الراهب الدومنيكي على هذا الطلب ولكن الجماهر ألحت عليه بالامتثال ففعل . ثم طلب إليه الفرنسيس أن. يخلع أثوباً أخرى ظنوا أنها هي أيضاً قد تكون مسحورة ﴿ وَارْتَضِي دَمَنِكُو هذا ، وسار إلى مجلس السيادة واستبدل بثيابه ثياب راهب آخر . وألح الفرنسيس مرة أخرى أن يحرم عليه الاقتراب من سفرولا ، لثلا يعود إلى التأثر بسحره ؛ وارتضى دمنيكو أن يحيط به الرهبان الفرنسيس ؛ وعارضوا في أن يخوض النار وهو يحمل الصليب أو القربان المقدس ، فأعطاهم الصليب ولكنه أبى أن يعطيهم القربان ، وأعقبت دنما مناقشة فقهية. بن سقير ولا والرهبان الفرنسيس خلاصتها هل يحتر ق المسيح مع ظاهر القربان المقدس أو لا يحترق معه . وظل البطل الفرنسيسي في خلال هذه المدة في ` القصر يرجو مجلس السيادة أن ينقذه بوسيلة ما ؛ وأطال الرهبان الجدل . حتى أقبل الليل وخيم الظلام ، ثم أعلنوا أن التحكيم الإلهي ان يحدث . .

وغضبت الجاهر لهذا الحداع الذي حرمهم روية الدم المسفوك ، وهاجوا القصر لكنهم صدوا ، وحاول بعض الكلاب الكلمة أن يعتقلوا مشرولا ، ولكن حراسه دفعوهم عنه ، وعاد الدمنيك إلى سان ماركر وسط سخرية الجاهير وإن كان من الواضح أن الفرنسيس هم الدين كانوا السبب الأكر في هذا التأخير : وشكا الكثيرون من أن سفرولا قد سمح بأن عناد دمنيكو في التحكيم الإلهي بل أن يواجهه بنفسه ، بعد أن أعان أنه يتله دمنيكو في التحكيم الإلهي بل أن يواجهه بنفسه ، بعد أن أعان أنه يتلق الوسى من الله ، وأن الله سيحميه ، وانتشرت هذه الأفكار في المدينة ، ولم يكد ينقضي الليل حتى تنحى أتباع رئيس الدير عنه .

وكان اليوم التالي هو أحد السعف، وفيه سارت الغوغاء من جماعة. الكلاب الكلبة وغيرهم تريد مهاجمة دير سان ماركو ، وقتلوا فى طريقهم. يعض الباكن من بينهم فر انتشسكو قالورى ؛ ولما أطلت زوجته من النافذة. حين سمعت بصراخه رميت بسهم أرداها قتيلة ، ولهب بيته وحرق ، وقتل أحد أحفاده خنقاً و دق جرس سان ماركو يدعو الباكين إلى النجدة ، ولكنهم لم يلبوا النداء ، واستعد الرهبان للدفاع عن أنفسهم بالسيوف والهراوات ؛ وأمرهم سقترولابأن يضموا أسلحتهم ولكن أوامره ذهبت أدراج الرباح ، ووقف هو نفسه أعزل أمام المحراب ينتظر الموت . واستبسل الرهبان في الكفاح ، وأخذ الراهب إنريكو يضرب بسيفه وهو مبتهج ابتهاج غير رجال اللدين ، ويصرخ عند كل ضربة صرخة مدوية-قائلا : أنج شعبك بارب Salvum fue populum tuum Domine . واكن الجاهير الغاضبة كانت أكثر من أن يطيقها الرهبان ؛ وأقنعهم سفيرولا في آخر الأمر أن يضعوا أسلحتهم . ولما أن جاء الأمر من مجلس السيادة باعتقاله هو ودمنيكو ، استُسلم الرجلان ، وسيقا وسط الجاهير التي أخذت تسخر منهما ، وتضربهما بالأيدى ، وتركلهما بالأقدام ، وتبصق عليما ، وأودعا زنزانتين في قصر ڤيتشيو ، وضم الراهب سلفستر و إلى السجينين في اليوم الثاني ـ

وبعث مجلس السادة إلى اللبا اسكنام بأنباء التحكم الإلهى والقبض على الرهبان ، ورجاه أن يعفو عما وقع على أحد رجال اللبين من عنف ، وطلب إليه أن يأذن بتقديم المسجونين إلى المحاكمة ، وأن يعذبا إذا استدعى الأمر تعذيبهم ، وطلب البابا أن يرسل الرهبان الثلاثة إلى زومة ليحاكمو أمام محكة كنسية ، فرفض مجلس السيادة هذا الطلب ، ولم يسع البابا إلا أن يقنع بأن يشترك مندوبان بابويان في محاكمة المتهمين(٢٦) . وكان مجلس السيادة يصر على إعدام سفترولا ، وذلك لاعتقاده أن حزبه سيبقى قائماً الميادة يصر على إعدام سفترولا ، وذلك لاعتقاده أن حزبه سيبقى قائماً ما دام هو حياً وأن موته هو الذي يرأب الصدع الذي قسم المدينة والحكومة أجنية ، وأضحت فلورنس بسبب ذلك مُحسَّشاً للموامرات الأجنية في الداخل ومعرضة للغزو من الحارج .

وجرى المحققون على الشريعة التى سنتها محكمة التفتيش فأخلوا يعذبون الرهبان الثلاثة عدة مرات بين اليوم الناسم من أبريل واليوم الثانى والعشرين من مايو . وانهار سلفسترو على الفرر ، ولم يتردد فى أن يجيب المحققين إلى كل ما رغبوا فيه حتى كانت اعتر افاته عديمة القيمة بسبب الإفراط فى يسرها . أما دمنيكو فقد ظل يقاوم ؛ حتى الهابة وحتى بعد أن عذب عذاباً كاد يو دى بعد أن عذب عذاباً كاد يو دى بعد أن عذب عذاباً كاد يو دى بعد أن الهار نحت ضغط الى الموت على يجهر بأن سفترو لا قديس لا تشويه شائبة من خداع أو إثم . التعذيب ، وأدلى أمام المحققين بكل ما أوجوا إليه به . فلما أفاق أنكر ما اعترف به ، فعلب وعاد إلى الحضوع . ولما تكرر عذابه للمرة الثالثة تحطمت روحه وأمضى اعترافاً مهوشاً بأنه لم يتاتى وحياً إلمياً ، وأنه ٢ ثم فى عمل تعديد وكريائه وأطاعه ، وأنه حث قوى أجنبية زمنية على أن تعقد مجلساً عاماً للكنيسة ، وأنه دير موامرة لحلم البابا . وأدين الرهبان الثلاثة إيا بهم خمشقون خارجون على الدين ، وأمهم أذاهوا أمرار الاعترافات وادعوله منشون خارجون على الدين ، وأمهم أذاهوا أمرار الاعترافات وادعوله منشقون خارجون على الدين ، وأمهم أذاهوا أمرار الاعترافات وادعوله منشقون خارجون على الدين ، وأمهم أذاهوا أمرار الاعترافات وادعوله منشقون خارجون على الدين ، وأمهم أذاهوا أمرار الاعترافات وادعوله منشقون خارجون على الدين ، وأمهم أذاهوا أمرار الاعترافات وادعوله منشقون خارجون على الدين ، وأمهم أذاهوا أمرار الاعترافات وادعوله والمنات المعترافات وادعوله والمنات المعترافات وادعوله والمنات المعترافية والمعترات وادعوله والمنات المعترات المعترات المعترات وادعوله والمعترات والمعترات والمعترات والمعترات المعترات والمعترات والمعترات

أنها روى وتبوءات وأنهم أشاعوا الفرقة والاضطراب فى الدولة ؛ وحكم حلهم: بالإعدام باتفاق الدولة والكنيسة وتفضل الإسكندر فبعث إلهم بالغفران :

وتفذت الجمهورية العاقة قاتلة أببها فى الثالث والعشرين من شهر مايو حام ١٤٩٨ حكم الإعدام في منشها ورفاته . واقتيدوا حفاة عبردين من عَمَامِم الكهنوتية إلى ميدان مجلس السيادة الذي حرقوا فيه و الأباطيل ا حمرتن، واحتشدت جاهير كثيرة لتشاهد هذا المنظر كما احتشدت من قبل لتشاهد منظر التحكيم الإلهي ، ولكن الحكومة أمدتهم في هذه المرة بحاجبهم حمن الطعام والشراب . وسأل أحد القساوسة سفترولاً « يأى روح تتخلل مهذا الاستشهاد؟» فرد عليه بقوله: «ما أكثر ما تعلب الرب من أجلي [] حوقبل الصليب الذي كان معه ولم ينيس بعد ببنت شفة . وسار الرهبان بيجنان ثابت ليلقوا مصبرهم المحتوم ، وكاد الطرب يستخف دمنيكو فأخذ يتشد تسهيحه الشكر لله اللذى أنعم عليه بنعمة الاستشهاد . وشنق ثلاثبهم حوتركوا معلقين، وضمح للصبيانُ أن يرشقوهم بالحجارة وهم في حشرجة طلوت . وأوقدت تحمّهم نار حامية أحالت جنتهم رماداً ؛ ثم ألني الزماد في أنهر الأرنو لئلا يعبده الناس بوصفه بقايا القديسن. وجاء بعض الباكن يتحدون الإحراق بالنار فركعوا في الميدان وأخلوا ينتحبون ويصلون ؛ وظلت الأزهار تنثر في صباح اليوم التالي للثالث والعشرين من مايو في كل حام حتى عام ١٧٠٣ في البقعة التي سقطت فها دماء الرهبان ساخنة : وترى اليوم لوحة في أرض الميدان المرصوفة تشر إلى أشنع جريمة وقعت في تماريخ فلورنس.

وبعد فقد كان سفنرولا هو العصور الوسطى بعثت حية في عصر اللهضة ، وكانت اللهضة هي التي قضت عليه ، وكان يشهد انحلال إيطالية (19 - ج 1 - علد ،) الأخلاق بفعل الثروة ، كما يشهد اضمحلال العقيدة الديثية ؛ ووقف. مستبسلا ، متعصباً ، ولكنه وقف عبثاً ، في وجه روح العصر المتشككة ، الشهوانية : لقد ورث الرجل ما كان يتصف به القديسون في العصور الوسطى من غبره أخلاقية وسذاجة عقلية ، وبدا أنه لامكان له في عالمي يسبح بحمد بلاد اليونان الوثنية التي عثر علمها من جديد . وأخفق الرجل في هدفه وكان إخفاقه نتيجة قصور عقله وأنانيته التي نستطيع أن نغفرها له ، وإن كانت تضايقنا ؛ وكان يغالى في استنارة عقله وفي كفايته ، ويستخف. استخفاف السذج الطبيي القلوب بما تتطلبه مقاومة سلطان البابوية وغرائق الآدميين من قوة ليست له . ولقد روعته أخلاق الإسكندر ترويعا نستطيم أن نلىرك سببه ، ولكنه كان عنيفاً في اتهاماته عنيداً في سياسته : لقد كان يروتستنتيا قبل أن يجيء لوثر ، ولكن پروتستنتيته لم يكن لها معني إلا أنها الدعوة لإصلاح الكنيسة ؛ ولم يكن يشارك لوثز ق شيء من آرائه الدينية. المخالفة لآراء الكنيسة القائمة ، ولكن ذكراه أصبحت قوة تملأ عقول البروتستنت ؛ ولذلك لقبه لوثر بالقديس وكان أثره في الأدب ضئيلا لأن الأدب كان وقتل في أيدى المتشككين والواقعين أمثال مكيفلي وجولتشار ديني Ouleciardini ، أما أثره في الفن فكان عظيا إلى أبعد حد . وقد كتب الراهب بارتولوميو على صورته يقول : ٥ صورة چىرولاما منى أهل فرارا ، النبي المبعوث من عند الله » . وقد تحول بتيتشيلي من الوثنية إلى التنى والصلاح بتأشر مواعظ سفترولا ، وكثيراً ماكان ميكل أنجيلو يستمع إلى الراهب ويقرأ عظاته في خشوع ، وكانت روح سفنرولا هي التي. حركت الفرشاة في سقف معبد مستيني Sistine ورسمت وراء المحراب صورق يوم الحساب .

أَمَا عظمة سفْنرولا فترجع إلى ما بذله من الجهد لإحداث ثورة أخلاقية.

فى فلورنس ، ولحث الناس على أن يكونوا أشرافاً ، صالحين ، عادلن . ونحن نعرف أن هذه أشق الثورات كلها ، ولا ندهش لأن سفنرولا أخفق فيا أفلح فيه المسبح ، وهو أن يصلح قلة ضئيلة يرقى لها من الحلالق ؛ ولمكننا نعرف أيضاً أن ثورة كهذه هى وحدها التى تؤدى إلى تقدم حق فى شئون الحلق ، وأن تقلبات التاريخ إذا قيست إلها كانت مناظر عارضة مريعة الزوال حديمة الأثر ، إن بدلت شيئاً فلن تبدل الإنسان :

الفضالاابع

الجمهورية والميديتشيون

1045 - 1544

لم يخفف موت سفنرولا من الفوضى التي كادت تجعل البلاد بلا حكومة آيام سلطانه . ذلك أن الفترة القصيرة التي لم تكن تدوم إلا ثلاثة شهور ، وهي التي كان يقضيها أعضاء مجلس السيادة وحامل الأختام في مناصبهم ، كانت تقضى على الاستمرار الواجب في الهيئة التنفيذية ، وتبعث فها قلقاً أشبه بقلق المحموم ، وتؤدى إلى الفساد وعدم الإحساس بالتبعة . وحاول المجلس في عام ١٩٠٢ ؛ وكانت تسيطر عليه وقتئذ أقلية ظافرة من أصحاب المال ، أن يتغلب على بعض هذه الصعوبة بأن يختار حامل الشعار على أن يبتى في منصبه طول حياته حتى يستطيع مواجهة البابوات الحكام الزمنيين على قدم الساواة ، وإن ظل مع ذلك خاضعاً لمجلس السيادة ومجاس الحكام ه وكان أول من حظى مهذا الشرف پيتروسدريني ، وهو من أصدقاء الشعب الأثرياء ، وكان وطنياً أميناً . لم يؤت من قوة العقل والإرادة درجة كبرى تهدد فلورنس باللكتاتورية . واستخدم مكيڤلي فيمن استخدمهم من المستشارين ، وساس البلاد بمكمة وراعي جانب الاقتصاد ، واستعان يأمواله الخاصة على العودة إلى مناصرة الفنون التي انقطع حبلها في عهد سفنرولا . واستبدل مكيفلي بتأييد منه بجنود فلورنس المرتزقة مجندين من أهلها ، اضطروا پنزا آخر الأمر (١٥٠٨) إلى قبول ﴿ الحاية ﴾ الفلورنسية مرة أخرى .

ولكن السياسة الخارجية التي اتبعتها الجمهورية أوقعت البلدة في عام ١٩٥٢ في الكارثة التي تأبي علم الإسكندر السادس . ذلك بأن فلورنس

أصرت على الاستمساك بملفها مع فرنسا طوال المدة الى كان فيها و الحلف المقدس ع المكون من البندقية ، وميلان ، ونابلي ، ورومه يبذل الجهود تلو الجمهود ليطهر إيطاليا من النزاة الفرنسيين . فلما توجت جهود الحلف بالنصر ولى وجهه شطر فلورنس لينتم منها وسير إلها جنوده لكى يستبدلوا الأبحاركية الجمهورية بدكتاتورية ميديتشية . وقاومت فلورنس جنود الحلف، وبلل مكيفلي جهودا جبارة لتنظم وسائل اللغاع عنها . واستولى الغزاة على براتو Prato حصنها الأماى وجبوه ، وولى عساكر مكيفلي الأديار أمام جنود الحلف المرتز قمن المدرين : واستقال سدريي حتى لا يطول سفك اللماء ، ودخل جوليانو ده ميديتشي ابن لورندسو فلورنس ، بعد أن نفح الحلف بعشرة آلاف دوقة (١٠٠، ٢٥ مره دولار) ، في حماية الحدود الأسهانية والجرمانية ، والإيطالية ، وسرعان ما انضم إليه أخوه المكودنال جيوقي ، وألغي دستور سفرولا ، وأعيدت سيادة آل ميديتشي على فلورنس :

وسلك جيوقى وجوليانو مسلك الحكة والاعتدال ، وارتضى الشعب هذا التغيير بعد أن أتخمه طول الاستثارة والاهتياج . ولما أن أصبح جيوقى هو البابا ليو العاشر (١٩٦٣) ، وتين أن جوليانو أرق وأظرف من أن يكون حاكماً نابحة ، أسلم حكم فلورنس إلى ابن أخيه لورندسو، ومات هذا الشاب الطموح بعد ست سنين من حكم الاسهتار ؛ وخلفه الكردنال جويليو ده ميدينشى Pazzi ، فأدار شئون فلورنس يكفاية ممتازة ؛ ولما أن أصبح هو البابا كلمنت السابع (١٩٦١) حكم المدينة وهو جالس على كرسى البابوية ، وانتهزت فلورنس فرصة الكوارث التي حلت به فطردت مها محليله (١٩٧٧) ، وظلت أربع سنين تستمع مرة أخرى بتجارب الحرية .

الخامس ليثأد لأقاربه المطرودين . وزحف جيش من الأسپان والجرمان على فلورنس (١٥٢٩) : وأعاد قصة عام ١٥١٣ ؛ وقاومت المدينة مقاومة الأبطال ولكنها لم تجدها نفعا ، وبدأ ألسندرو ده ميديتشي Alessandro de Medici (١٥٣١) عهداً من الظلم ، والوحشية ، والفجور لم يسبق له مثيل في سجلات أسرته ؛ ومضت بعد ذلك ثلاثة قرون قبل أن تلوق فلورنس طيم الحرية مرة أخرى :

الفيرالخامس

الفن في عهد الجمهورية

إن عصر الاهتياج السياسي يكون في العادة حافزاً قوياً الأدب ؛ وسندرس فيا بعد كاتبين من الطراز الأول _ مكيفلي وجوتسيارديني وسندرس فيا بعد كاتبين من الطراز الأول _ مكيفلي وجوتسيارديني المواقة المشرقة على المواقة الإفلاس ، والتي لاتكاد تخرج من ثورة إلا إلى ثورة ، لا تكون صلحة لماء الفنون _ وهي أقل ما تكون صلاحاً انماء المجارة بوجه خاص به أن يطفوا فوق الفيضان الجارف ، فظلوا يتحدون الحظ العائر بإقامة المتصور . من ذلك أن چيوفي فرانتشيسكو ، وأرسطوطيلي دا سنجلو بناء على تصميم من عمل رفائيل . وخطط ميكل أنجيلو بين عامي ١٥٢٠ ، ١٩٥٤ عرفة مقلسات جديدة Aristotele da Sangallo لكنيسة سان لورنلسو بتكليف من الكرنال جويليو ده ميديتشي— تكون من فناء مربع بسيط ، بتكليف من الكرنال جويليو ده ميديتشي— تكون من فناء مربع بسيط ، مقابر الميديشين .

وكان بين منافسي هذا الفنان الجار المثال بيترو ترجيان ورندسو ،

Torrigiano اللك كان يعمل معه في حديقة التأثيل التي أنشأها لورندسو ،

والذي جدع أنفه ليوئد بلاك حجة له . وغضب لورندسو من هذا العمل المنيف غضبا أضطر ترجيانو من أجله أن يلجأ إلى رومة ويصبح جنديا في خدمة سيراري بورجيا ، وأظهر بسالة عظيمة في كثير من المعارك ،

واتخذ سبيله إلى إنجائرا ، وخطط فيا إحدى آيات الفن الإنجلزية وهي قبر

هـرى السابع فى دير وستمنستر (١٥٠٩). وعمت بعدثلـ(١٠) وهو يطوقتـ
فى أسپانيا طواف القلق المضطرب ، تمثالا جميلا العملراء والطفل كانمه به.
دوق أركوس Arcos ، ولكن الدوق لم يكافئه عليه بمـــا يستحق به
فحط التمثال ، وانتم منه الدوق بأن اتهمه لدى محكة التفتيش بالمروق منه.
الدبن ، وحكم على ترجيانو بعقوبة شديدة ، ولكنه فوت على أعدائه غرضهم.
بأن أضرب عن العلمام حتى مات جوها :

ولم تشهد فلورنس في فترة من تاريخها مثل ذلك العدد الجم من الفنانين. الذي شهدته في عام ١٤٩٧ ؛ ولكن كثيرين مهم فروا مها يسبب ماكانت مُوج به من اضطراب ، وخصوا بشهرتهم أماكن غيرها ؛ فذهب ليونار**دو** إلى ميلان ، وميكل أنچيلو إلى بولونيا ، وأندريا سانسوڤينو Andrea Sansovino إلى لشبونه واتخذ صانسوڤينو لقبه من جبل سان سوڤينو ، وأذاع شهرته إلى حد نسى معه الناس اسمه الحقيقي وهو أندريا دى دمنيكو كنتوتشي Andrea di Domenico Contucci . وكان أندريا ابن هامل فقير ولكنه أولع أشد الولع بالرسم وبعمل نماذج من الصلصال 4 وأرسله رجل رحم من أهل فاورنس إلى مرسم أنطونيو دل بولايولو ؟ وسرعان ما نضيع الغلام فشاد فى كنيسة سانتو أسپريتو معبد القربانة المقدس ، وصنع فيه تماثيل ونقوشا بارزة « بلغت من القوة والجودة ٨ كما يقول فاسارى « درجة لايجد الإنسان معها أى عيب فيها » ، ثم وضع أمام المعبد دريثة مصبعة من البرنز بلغت من الجال حداً لا يسع الإنساف معه إلا أن يحبس أنفاسه عنسد النظر إليها . ورجا چون الثانى ملك البرتغال لورندسو أن يبعث إليه بالفنان الشاب؛ وذهب إليه أندريا وظلى عنده تسع سنين يكدح في النحت والعارة . وعاوده الحنين إلى إيطاليا ، فعاد إلى فلورنس (١٥٠٠) ، ولكنه سرعان ما غادرها إلى چنوى ، ثم انهى به المطاف إلى رومة ، وأنشأ في كنيسة سانتا ماريا دل پوپولو قبرين من الرخام ــ للكردنالين اسفوردسا ــ ويسو دلاروڤىرى Basso della Rovere غالاً أعظم الثناء في مدينة تزدج وقتثا. (١٥٠٥ -- ١٥٠٧) بالعباقرة · وأرسله ليو العاشر إلى لوريتو Loreto حيث زين بين عامى ١٥٢٣ و ١٥٢٨ كنيسة سانتا ماريا بمجموعة من النقوش البارزة مستمدة من حياة العذواء، وبلغت من الجال حداً بدا معه الملك في صورة العِشَارة كأنه و من السهاء لا من الرخام ، ، على حد قول ڤاسارى ، ثم آوى أندريا بعد قليل من ذلك الوقت إلى ضيعة قريبة من موطنه مونتي سان ساڤينو ، وعاش فها عيشة الفلاح المجد حتى توفى في عام ١٥٢٩ في الثامنة والستين من عمره ." وكانت أسرة دلا ربيا dell Robbia في هذه الأثناء تواصل العمل بأمانة ومهارة فى أشغال الصلصال المزجج ؛ وطال عمر أندريا دلاربيا أكثر مما طال عمر عمه الذي بلغ خسة وثمانين عاماً ، وأوتى بللك من الوقت ما مكنه من أن يدرب على فنه ثلاثة من أبنائه هم چيوڤني ، ولوكا ، وجرولو . وقد بلغت أشغال أثنديا في الصلصال المحروق من بربق اللون والرقة حداً يذهل معه زائر المتحف ، فيهر حينه ويمسك قلمه فلا يستطيع التحرك من مكانه . وقد امتلأت حجرة في البرجيلو Bargelio بروائع من صنع يده ، وامتاز مسنسَّقي الميرئين بالزخارف الملالية التي زين مها صورة البشارة . ونافس چيوڤني دلا ربيا أباه أندريا في مهارته المعتازة التي يقبينها الإنسان في البرجيلو واللوڤر ؛ وكاد آل دلا ربيا يقصرون جهودهم على الموضوعات الدينية مدى ثلاثة أجيال كاملة ، وكانوا من أشد أنصار سفرولا وأعظمهم تحمساً لآرائه ، وانضم ثلاثة من أبناء أندريا إلى إخواله ساله ماركو يطلبون النجاة مع الراهب.

وكان الرسامون يحسون أعمق الإحساس بتأثر سشرولا ، وقد أخذ لورندمو ده كريدى Verrocchio ، فته عن قبر تشيو Verrocchio ، وحاكى طراز ليوناردو زميله فى اللدرس ، وأخذ رقة صوره الدينية من التقوى التى بعثها فيه بيان سفترولا ومصيره المفجع ، وقضى تصف عمره يعمل فى تصوير العذراء ، حتى لا يكاد يخلو مكان من هذه الصور ،

طنحن نراها فى رومة ، وفلورنس ، وتورين ، وأقنيون ، وكليفلند : ووجوه هذه الصور غير متقنة ، وأثولها فخمة ، ولربما كانت أحسها كلها حمور البشارة المحفوظة فى متحف أفيزى . ولما بلغ لورندسو الثانية والسبعن من العمر وأحس بأن الوقت قد حان التحلى بمظهر القداسة ، ذهب ليعيش مع رهبان سانتا ماريا نوڤو ؛ ومات فى ذلك المكان بعد ست سنين من ذهابه إليه .

وانخذ بيرو دى كوزيمو Cosimo الله من معلمه كوزيمو روسل Cosimo Rossell لأن و من يدرب الكفايات ، ويزيد من سعادة الإنسان أب بحق لا يقل شأناً عن أنى الإنسان الذى ولده ، (٢٥٠٥ وأيقن كوزيمو أن تلميذه قد بَرَّة ، فلما استدعاه سكستس الرابع لز خرفة معبد مستين صحب بيرو معه ، وهناك رسم بيرو صورة هموك مند فرهوره فى المحر الأصمر وسط مناظر طبيعية مكتئبة من الماء ، والصحر ، والمهاء الملبدة مورتا جوليانو دا سنجلو وفرانتشيسكو دا سنجلو ، ووهب بيرو نفسه كلها للفن ، فقلما كان يعنى بالمجتمعات أو بالمصداقة ؛ وكان يعشق الطبيعة والرحدة ، ويتهمك في الصور والمناظر التي يصورها . ومات الرجل وحيداً دون أن يعترف من بعد أن أخد عنه فنه تلميذان تفوقا على أستاذهما كما تفوق هو على أستاذهما دل سارتو Andrea del Sarto دل سارتو Andrea del Sarto

واتحذ باتشيو دلا پررتا Baccio della Porta لقبه من باب سان پیرو الذی کان یعیش عنده ، فلما انضم إلی طائفة الرهبان سمی الأخ بارتولمیو Fra Bartolommeo ؛ وبعد أن درس الفن مع کوزيمو روسلي ، وپیرو دی کوزيمو اتحذ لنفسه مرسا مع ماريتو البرتنلي ، وشارکه فی رسم عدة صور ، وظل وثيق الصلة به ، صديقاً وفياً له ، حتى فرق بينهما الموث ، وكان بارتوليو شاباً متواضعاً ، حريصاً على طلب الفن ، ينطبع فيه كل تأثير ، ظل فترة من الزمن يسعى للحاق بليوناردو ، والوصول إلى بعض ما وصل إليه ؛ ولما جاء روفائيـــل إلى فلورنس درس معه باتشيو فن المنظور والطرق المثلى لمزج الألوان ؛ ثم زار روفائيل بعلائل في رومة ، ورسم معه صورة فخمة نبيلة هي أسى القريس بطرس ، ثم شغف حباً بطراز ميكل أنجيلو الفخم الرائع ، ولكنه كانت تعوزه الشدة الرهبية التي يعاول تكبر آرائه البسيطة ما كان في صفاته هو من سحر وفتنة ـــ ونعنى بتلك الصفاحات ما كان في ألوانه من غنى وعمن و تظليل رقيق ، وما في تواليفه من تناسب فخم رائع ، وما في موضوعاته من تقوى وعاطفة :

وتأثر أشد التأثر بعظات سفرولا ، وجاء إلى حرق الأباطيل بجميع ما صور من الأجسام العارية ، ولما هاجم أعداء الراهب دير سان ماركو (١٤٩٨) انضم إلى المدافعين عنه ، وأقسم في أثناء ذلك الاشتباك أن ينضم إلى سلك الرهبان إذا نجا من الموت ؛ وبر يقسمه فلمخل دير الرهبان المديك في براتو Prato ، وظل خمى سعن ممتماً عن التصوير ، مهمكاً في ممارسة الشعائر المدينية ؛ ولما انتقل إلى دير سان ماركو رضى أن يضم الراهب أنجيلكو الوردية ، وصور في مطعم هذا الدير صورتين إحداهما الماهبود عورة المقديس سبستيان ؛ ورسم في صومعة سفرولا صورة المقاط المساهومة سفرولا صورة قوية المقاطر متنكراً في زى القديس الشهير يطرس ، وكانت صحورة القديس سبستيان ؛ ورسم في صومعة سفرولا صورة قوية القديمس سبستيان الصورة أولا في كنيسة سان ماركو ، سلك الرهبان ؛ وقد وضعت هذه الصورة أولا في كنيسة سان ماركو ، ولكنها بلفت من الجال حداً اعترفت معه بعض النساء بأنها بعثت في تغومين

أفكاراً خبيثة ، فاكان من الراهب إلا أن باعها إلى رجل من أهل. فلورنس أرسلها إلى ملك فرنسا . وظل الراهب بارتوليو يرسم الصور حتى هام ١٥١٧ حين شل للرض يديه فلم يقو على أن يمسك الفرشاة : ثم مات. في تلك السنة وهو في الخامسة والأربعين من عمره .

وكان منافسه الوحيد على مركز السيادة بين المصوين الإيطاليين في. عصره تلميلاً آخر من تلاميذ پىرو دى كوزيمو ، ذلك هو أندريا دمنزكو دانيولو دى فرانتشيسكو ڤيينوتشي Andrea Domenico d'agnolo.di Andrea del المعروف لنا باسم أندريا دل سارتو Francesco Vennuci Sarto لأن أباه كان خياطاً . ونضج الرجل نضوجاً سريعاً كما ينضج معظم الفنانين في عصر الهضة ، فقد بدأ تدريبه وهو في السابعة من عمره . ودهش پيرو من براعة الشاب في التصميم ، ولاحظ وهو فرحان جذل كيف كان أندريو في أيام العطلة التي يفلق فيها المرسم يقضى وقته في عمل صور فى الرسوم التمهيدية التي كان يصنعها ليوناردو وميكل أنچيلو لقاعة الحمسانة في قصر فيتشيو . ولما أن أصبح پيرو في شيخوخته رجلا شاذًا ً غريب الأطوار ، اتخذ أندريا وفرانشيابجيو Franciabigio زميله في الدرس مرشحًا خاصاً بهما ، وظلا فترة من الزمن يعملان معاً . ويلوح أن أندريا مِدَأُ حِياتِهِ المُستَقَلَةُ بَأْنَ صُورَ في فناء كنيسة البشارة Annunziata (١٥٠٩ ٪ خمسة مناظر مأخوذة من حياة سان فلپوبنتسي San Filippo Benizzi ، وهو نبيل فلورنسي أنشأ طائفة الرهبان الخاومين لعبادة مرسم العلراء خاصة .· وتمتاز هذه المظلمات ، رغم ما أصامها من عوادى الزمان وتعرضها للجو ، براعة التنفيذ، والتأليف، ووضوح القصص، ومزج الألوان المتناسقة الْقُوية حتى أصبح هذا الفناء في هذه الآيام كعبة يحج إليها المولعون بالفن. إذا زاروا فلورنس . وقد اتخذ أنسريا نموذجاً لإحدى صور النساء تلك المرأة: التي أضحت زوجة له أثناء قيامه مهذه الرسوم ــ نعني مها لكريدسيا دل

خيدى Luerezia del Fede وهى سليطة جميلة ظلى وجهها الأسمر ، وشعرها الفاحر يراودان خيال الفنان إلى ما قبل وفاته .

وشرع أندريا وفرانتشيابجيو في عام ١٥١٥ يعملان طائفة من المظلمات في طرقات دير إخوة أسكالبسو Scalzo ، واختارا موضوعاً لما خياة القديس يوحنا المعمدان ؛ ولكن يد أندريا بلاريب هي التي أظهرت خصائصها في طائفة من الصور ؛ فقد رسم صور الأناث بكل ما فيها من كمال الشكل والتركيب . وتلقى في عام ١٥١٨ دعوة من فرانسس الأول الجالجيء إلى فرنسا . فقبل دعوته ورسم صورة الصرفة الملقة في متحف اللوڤر ؛ غير أن زوجته التي تركها في فلورنس رَجْعَهِ أن يعود ؛ وأذن له الملك بالعودة بعد أن تعهد بالرجوع إلى فرنسا ، وأعطاه مبلغاً كبراً من المال ليبتاع له تحفًّا فنتية من إيطاليا . لكن أنصريا أنفى مأل الملك في بناء بيت له ولم يعد قط إلى فرنسا . ولما أوشك على الإقلاس رغم هذا عاد إلى التصوير ورسم لطرقات كنيسة البشارة آية من آياته الفنية يصفها فماسارى بأنها: ﴿ بتصميمها ﴾ وظرفها ، ويراحة ألوانها ، وحيويتها ، ونقوشها ، لا تترك مجالاً للشك في أنه يسمو بمراحل طويلة على جميع من سبقوه ، _ ومهم ليوناردو وروفائل^(٢٦) . وقد تلفت هذه الصورة ، صورة علمواء الكيس ؛ Madonno del socco - وهو اميم سخيف عميت به الأنها تصور مريم ويوسف متكثين على كيس ... ولم تعد تكشف عما كانت عليه من روعة الألوان ومهجها ؛ ولكن تركيبها الذي يبلغ حد الكمال ، وألوامها الرقيقة المتناسقة ، وتمثيلها للأسرة تمثيلاً هادئاً ــ بما فها يوسف ، وقد أصبح فجأة قادراً على القراءة ، فأخذ يقرأ في كتاب ...كُلُّ هذا يضعها في مصاف أعظم الصور ف عصر النضة .

وصور آندریا فی مطعم دیر سلٹی Selvi صسورۃ العُشّاء اللَّهُم (۱۹۲۱) یتحدی بها لیوناردو ، واختار لها نفس الساعة ونفس الموضوع: * سيخونني واحد منكم ، . وكان أنلويا أكثر جرأة من ليورنادو ، إذ أكل في صورته وجه المسيح ؛ ولكنه هو أيضاً قصر عن بلوغ العمق الروحى ، والمرقة والفطئة التي تعهدها في عيسي ، غير أن صور الرسل واضبحة تتميز كل منها عن الأخرى تميزاً يثير المدهنة ، والمعانى التي تبرزها واضبحة ؛ والمعانى ظرير ، هادئ ، كمل ؛ والصورة حين ينظر ألها الإنسان من مدخل قاعة المطعم تخدعه فلا يستطيع أن يحاجز نفسه عن الظن بأنها تمثل منظراً من الأحياء .

وقد بنى موضوع المؤمم العمراء الموضوع المحبب الأندريا ، كا بنى الموضوع المحبب المكثرة المنالية من فنانى عصر الهضة فى إيطاليا ؛ فأخذ يصورها المرة بعد المرة فى دراماته للأمرة المناسسة ، كا نشهد ذلك فى معرض آل بورچيا فى رومة ، أو فى متحف نيوبورك ، وقد صورها فى إحدى الكنوز المحفوظة فى معرض أفيزى فى صورة عدراء المنتقمات (٢٠٠٠) وتعد مذ الصورة أجمل صورة لعدارى لكريامسيا ، وصورة الطفل هى أجمل ما أخرجه الفن الإيطالى ، وتوجد فى معرض بي المنقة الأخرى لهر الآرنو صورة صعود العدراء يظهر فها الرسل ورجال الدين ينظرون فى ذهول وخشوع إلى الملائكة المدخار وهم يرفعون المدراء وهي هنا أيضاً لكرياسيا ، إلى المحادة المدخار تم ملحمة العذراء جاد المصورة المذراء ؛ وهكذا تم

وقلما نجمد شيئاً من السمو في صور أندريا دل سارتوكما لا نجد فيها جلال ميكل أنجيلو، أو التدرج غير المحس الذي لا يسير عمقه والذي تحده في ليوناردو، أو كمال الصقل الذي نراه في رفائيل ، أو مدى القوة التي تشهدها في الفنانين البنادقة العظام غير أنه هو وحده الذي يضارع أولئك البنادقة في جمال اللون ويضارع كريجيو Correggio في الرشاقة ، وإن

^(*) سميت كذلك لوجود صورة المنتقات مثلة على قاعدتها .



(شَكُلُ ١٥) مادنا دل أربي (عذراء المنتقبات) تى مەرض أفيزى بفلورنس سـ تصوير اندريا دل سارتو

براعته في التلوين -- في عمقه ، وتدرجه ، وشفيفه -- أترفع صورة فوق.
صور تيشيان Titian ، وتنتوريتو Tintoretto وفميرونيرى Veonese لما في هذاه من إسراف كثير في التلوين . نهم إن صور أندويا ينقصها التنوع ، فهي تتحرك داخل دائرة من الموضوعات والإحساسات شديدة الضيق ، فهي تتحرك داخل دائرة من الموضوعات والإحساسات شديدة الضيق ، فمور العلم المتواضعة ، الحجية ، المكتفلة بالحلاوة ، ولكن ما من أحد قد فاقه في براعة التكوين ، وقالم بزه أحد في التشريح ، وعمل النماذج ، والتصميم . ويقول. ميكل أنجيلو فيه : « إن في فلورنس إنساناً صغيراً إذا اشتغل بأعمال عظام ميكل أنجيلو فيه : « إن في فلورنس إنساناً صغيراً إذا اشتغل بأعمال عظام بعمل العرق يتصبب من جبينك » (٣٣) .

ولم تطل حياة أندريا نفسه حي يصل إلى درجة النضج الكامل ، ذلك أن الألمان الظافرين استولوا على فلورنس فى عام ١٥٣٠ ، ثم نشروا فها عدوى الطاهون ، وكان أندريا من أوائل ضخاياه ، وتجنبت زوجته حجرته فى تلك الأيام الأخيرة المضطربة ، وكانت مى الى أثارت فيه آلام الفبرة التي تصحب الزواج بالحسان من النساه ، وقضى الفتان الذى معاها حياتة تكاد تعز على الموت ، وليس إلى جانبه أحد ، وهو فى الزابعة والأربعين من عجره .

وبعد فإن من واجبنا أن ننظر إلى الفنائن القلائل الذين ورد ذكرهم في هذا الباب الا على أنهم هم وحدهم الحديرون بأن تسجل أسماؤهم فيه الله على أنهم المطلق المحرمة الحديد والمحرمة على المرة المرة المرة فقد وجد في هذا العصر مثالون ومعهورون غيرهم الا يزال لهم في المتحصد وجود كوجود الأشباح لله نذكر شهم بينديشو دا روفيتسانو Bendetio da وريدلفو جرلندايو Ridolio وفرانشيامجرو Franciabigio وريدلفو جرلندايو Ohirlandaio ومؤات آخرين غيرهم . وعاش في ذلك العصر فنانون في شبه هزلة ، مهم سكان الأديرة وشهم غير رجال اللبين ، كانوا لا يزالون

يمارسون الفن ذا الصلة القوية بهم فن تزيين المخطوطات ، نذكر مهم الراهب يوستاتشيو Eustachio ، وأنطونيو دى چىرولامو ؛ وعاش فيه خطاطون بلغ حظهم من الجال درجة لا يسع الإنسان معها إلا أن يعذر فيدريجو الأربنوي Federigo of Urbino حن يتحسر لاختراع الطباعة ؛ وكان هناك فنانون يتقنون أعمال الفسيفساء ، ويحتقرون التصوير لأنه في رأهم زهو زائل لا يدوم أكثر من يوم ؛ وكان هناك حفارون في الخشب أمثال بتشيو دانيولو Baccio d'Agnolo ازدانت بيوت فلورنس بكراسهم ، وتضدهم ، وصناديقهم ، ذات النقوش المحفورة ؛ وكان هناك من لم يحفظ التاريخ أساءهم من العاملين في الفنون الصغرى . ذلك أن فلورنس قد احتوت ثروة ضخمة من الفنون استطاعت بها أن تتحمل معها انتهاب الغزآة ، ورجال الدين ، وأصحاب الملاين ، من عهد شارل الثامن إلى هذه الأيام ؛ ولا تزال تحتفط بقدر من روائع الصناعة الدقيقة يبلغ من الكثرة حدًا لم يستطع معه إنسان فرد أن يحصى جميع الكنوز التي ادخرت في يملك المدينة وحدها خلال قرنى النهضة ، أستغفر الله بل خلال قرن واحد مُهْمًا ؛ لأن عصر فلورنس العظيم في الفن بدأ حين عاد كوزيمو من منفاه سنة ١٤٣٤ ، واختتم بوفاة أندريا دل سارتو سنة ١٥٣٠ . ذلك أن الشقاق الداخلي : وعهد سفترولا المتزمت ، وما هانته المدينة من حصار ، وهزيمة ، ووباء قد أخمدت كلها روح أيام لورندسو المرحة ، وحطمت قيثارة القن الهشة .

غير أن الأوتار العظيمة كانت قد ضربت ، وتردد صدى موسيقاها في طول شبه الجزيرة وحرضها . فكانت الطلبات تنهال على فنانى فلورنس من سائر المدن الإيطالية ، بل جامها أيضاً من أسبانيا ، وفرنسا ، وبلاد المجر ، وألمانيا ، وتركيا . وهرع إلى فلورنس ألف فنان ليفترفوا من بحر فنها العباب ، ويكون كل واحد مهم طرازه .. بعرو دلا فرانتشسكا

ونقل مائة فنان وفنان إنجيل الفن من فلورنس إلى خسن من للدن الإيطالية وفل مائة فنان وفنان إنجيل الفن من فلورنس إلى خسن من للدن الإيطالية ولى البلاد الأجنية : وفي هذه المدن الحسس كانت روح العصر وفقه ، وسفاء فوى الثراء ، وتراث الفن تعمل كلها متضامتة مع الحافز الفلورنسي ؛ فلم تلبث إيطاليا كلها من جبال الألب إلى كلريا Calabria أن أخلت تمارس فنون التصوير ، والنحت ، والبناء ، والتأليف والغناء ، في سورة من الإيداع والابتكار ، يحيل إلى الإنسان معها أنها ، فها انتابها من حمى المحجلة ، كانت تدرك أن هذه المروة الفسخمة لن تلبث أن تبيد في أنون الحرب العوان ، وأن كبرياء إيطاليا سترول حن يطوها الطافاة الأجانب بالأقدام ، وأن سمون العقائد التعسفية سنطق أبوابها مرة أخرى على عقل إنسان المهضة الحصيب ، الوقير ؛ العجيب .

Bibliographical Guide

to editions referred to in the Notes

Books starred are recommeded for for further study

Abrarhms, Israel, Jowish Life in the Middle Ages, Philadelphia, 1896. Adams, Brooks, The New Empire, New York, 1903.

Addison, Joseph, et al., The Speciator, New York, 1881, 8v.

Addison, Julia D., Arts and Crafts in the Middle Ages, Boston, 1908. Anderson. W. J., Architecture of the Rensissance in Italy, London, 1890.

Aretino, Pietro, Works : Dialogues, New York, 1926.

Ariosto, Lodovico, Orlando furioso, Firenze, n.d. Ascham, Roger, The Scholemaster, London, 1863.

Ashley, W. J., Introduction to English Economic History and Theory, New York, 1894 and 1936, 2v.

Bacon, Francis, Philosophical Works, J. M. Roberton; Londou, 1905.

Baedeker, Karl, Northern Italy, London, 1913-

Balcarres, Lord. Evolution of italian Sculpture, London, 1909.

Bandello, Matico, Novels, ir. Payne, London, 1890, Sv.

Barnes, H. E., History of Western Civilization, New York, 1935, 2v.

Basier, E., Lezardo, Collection des maîtres, Braus, Paris, a.d.

Beard, Miriam, History of the Business Man, New York, 1938.

Beaziley, C.R., The Dawn of Modern Geography, Oxford, 1906, 3v.

Berenson, Bernard, Florentine Painters of the Renaissance, New York, 1912, Berenson, Bernard, North Italian Painters of the Renalssance, New York, TWOY:

Beresson, Bernard, Sindy and Criticism of Italian Art, London, 1901-17, 8v. Berenson, Bernard, Venetian Painters of the Renaissance, New York, 1897. Beuf, Catio, Cesare Borgia, Oxford University Press, 1942.

Bocca :cio, Giovanni, Amorons Fiammetta, New York, 1931.

Boccaccio, Giovanal, Decameron, New York, n.d.

Boissonnade, P., Life and Work in Medieval Europe, New York, 1927.

Brinion, Selwyn, The Gonzaga Lords of Mantua, London, 1927.

Burckhardt, Jacob. The Civilization of the Remissance in Italy, Landon, 1914.

Cambridge Medieval History, New York, 1924f, 8v.

Cambridge Modern History, New York, 1907f, 12v.

Cardan, Jerome. The Book of My Life (De vita propria liber), New York,

Carlyle, R. W., History of Medieval Political Theory in the West, Edinburgh, 1928, 6v.

*Cartwright, Julia, Beatrice d'Este, London, 1928.

*Cartwrighight, Julia, Isabella d'Este, London, 1915, 2v.

"Chrtwright, Julia, Baldassare Castiglione, London, 1908.

*Castiglione, Baldassare, The Coursier, Evertier, Everyman's Library.

Castiglioni, A., History of Medicine, New York, 1941.

*Cellini, Benvencto, Autobiography, tr. J. A. Symons, Garden City, New York, 1948.

*Cubb, Thomas C., Aretino, Scourge of Prince, New York, 1940.

Commines, Philippe De, Memoirs, London, 1900, 2v.

Cornaro, L., Art of Living Long (De vita sobria), Milwaukee, 1903.

Coniton, O. O., Five Centuries of Religion, Cambridge University Press, 1923 f. 4v.

Coniton, O. O., From St. Francis to Dante, a tr. of the Chronicle of Salimbene. London, 1908.

Coulton, O.G., Inquisition and Liberty, London, 1938.

Contton, O. G., Life in the Middle Ages, Cambridge University Press, 1930, 4v.

Coniton, O. G., Medieval Panorams, New York, 1944.

*Craven, Therass, Treasury of Art Masterpleces reised ed , New York, 1952.

*Creighton, Mandell, History of the Papacy during the Reformation, London,

Croce. Benedetto, Ariosto, Shakespeare, and Corneille, New York, 1920.

Crowe, J. A., and Cavalcaselle, G. B., A New History of Painting in Italy, Leudon, 1864, 3v.

Crump, C. G., and Jacob, E. P., The Legacy of the Middle Ages, Oxford, 1926.

Dante, La commedia divina, ed. Paget Toynhec, London, 1900.

Dillon, Edward, Glass, New York, 1907.

Dopsch, Alfons, Economic and Social Foundations of European Civilization, New York, 1937.

Duhem, P., Études sur Léonard de Vinei : Cenx qu'il a les et ceux qui l'ont lu, Paris, 1906 f. 3v.

Einstein, Alfred, The Italian Madrigal, Princeton, 1949, 3v.

Ellis, Havelok, Studies in the Psychology of Sex, Philadelphis, 1911, 67,

Emerion, Ephraim, The Defenser Pacis of Mersiglio of Padus, Harvard University Press, 1920.

Emporium: Rivista mensile d'esta e di cultura, LEXXIX, no. 534 (June, 1939), Begamo,

Encyclopaedia Britaunica, 11th ed. when so specified.

Encyclopaedia Britanica, 14th ed. when up of tion is specified.

*Patierusso, J., Wonders of Italy, Florence, 1' 30.

Fattorusso, J., Florence Album, Florence, 1985. (Part of preceding)

· Faure, Élie, The Spirit of Forms, tr. Walter Pach, New Yor, 1987.

Ferrara, Oresies, The Borgia Pope, Alexaner VI, New York. 1940,

Figgis, J. N., From Gerson to Grotius, Cambridge University Press, 1916.

Foligno, Cesare, The story of Padua, London, 1910.

Freud, Sigmund, Leonardo da Vinci, New York, 1947.

Friedländer, L., Roman Life and Manners under ihe Farly Empire. London, n.d., 4v.

Garrison, F., History of Meddicine, Philadelphia, 1929.

Genoa, Descriptive Booklet, Genoa, 1949.

Gibbon, Edward, Decline and Fall of the Roman Empire, Everyman's Library, 6v.

Gierke, Otto, Political Theories of the Middle Age, Cambridge University Press, 1922.

Gregorovius, Ferdinaud. History of the City of Rome in the Middle Ages, London, 1900, 8v.

Oregorovius, Ferdinand, Lucrezia Bergia, London, 1901,

Gronau, G., Titian, London, 1904,

Orove, Sir George, Dictionary of Music and Musicians, 3rd ed., New York, . 1928, 5v.

*Onicclardini, Francesco, History of the Wars in Ilaiv, London, 1753, 10v. Guizot, François Pierre, History of Erance, London, 1879, 8v.

Hallam, Henry, Introduction to the Liferature of Europe in the 15th, 16th, aud 17th Centuries, New York, 1880 4v. in 2. Hare, A.J.C., Walks in Rome, London, 1913.

Hearnshaw, F.J.C., ed., Medieval Contributions to Modern Civilization New York, 1922.

Hegel, G.W.F., Philosphy of History London, 1888.

Hollway-Calthrop, H. C., Petarch, His Life, and Times, New York, 1907.

Holzknecht, Karl. The Backgrounds of Shakespeare's Plays, New York, 1950.

Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages, London 1948,

Huneker, James, Egoists, New York, 1910.

Hintion, Edward, Givanni Boccaccio, London, 1910.

James, E. E. Coulson, Bologus, London, 1909,

Junerand, J. J., English Wayfuring Life in the Middle Ages, London, 1891.

*Lacroix, Pani, Arts, of the Middle Ages, London, a.d.

Lacroix, Paul, History of Prostitution, New York, 1981.

Lacroix, Pani, Science and Literature in the Middle Ages, a.d.

Laucioni, Redoife, Ancient Rome, Beston, 188.

Lunciant, Rodolfo, The Golden Days of the Remaissance in Rome, Boston, 1304

*Lang, P.H., Music in Western Civilization, New York, 1941.

La Tour P. Imbart De, Les Origines de la Réforme, Paris, 19051, 4v.

Lea, H. C., History of Agricular Confession, Philadelphia, 1896, 3v.

*Les H. C., History of the Inquistion in the Middle Ages, New York, 1888, 3v.

Leonardo Da Vincl, Phaidon ed., London, 1943.

*Leonardo Da Vinci, Note books, arranged, rendered into English, and introduced by Edward Mac Cardy, New York, 1938, 2v.

Lombardia: Vols. Il and Ill of Attraverso l'Italia issuel by Touring Cinb-Italiano, Milan, 1931, 2v.

*Machinvelli, N. Discourses, Modern Library.

Machiavelli Niccolò, History of Florence, London, 1851,

*Machiavelli, Nicolò The Prince, Modern Library.

Mantegna, Andrea, L'oeuver, Paris, 1911.

Mather, F. J., Western Enropean Painting of the Renaissance, New York, 1948.

Maulde LA Clavière, R. DE, The Woman of the Renaissance, New York, 1905.

Michelet, Jules, Histore de France, Paris, n d., 5v.

*Michelet, Jules, History of France New Yorke, 1880, 2v, an English tr. of First two volumes of preceding.

*Milman, H. H., History of Latin Christianity, New York, 1860 8v.

Miniatures Of The Renaissance, Catalogua de l'aposition du 5éme centenaire de la Bibliothèque Vaticane, Rome, 1950.

*Molmenti, Pompeo, Venice, London, 1906, 6v.

Montalembert, Comite, de, The Mouks of the West, Boston, n.d., 2v.

*Moley, C.R., Medieval Art, New York, 1942,

*Müntz, Eugène, Leonardo da Vinci, London, 1898, 2v.

*Muntz, Fugene, Rapheal, London, 1982.

Noyes, Ells, Story of Ferrara, London, 1904.

Noyes, Elia, Story of Milan, London, 1908.

Nussbaum, P.L., History of the Economic Institutions of Moder Europe, New York, 1937.

Oge, Frederic, Source Book of Medieval History, New York, 1907.

Owen, John, Sceptics of the Italian Renaissance, London, 1908.

Oxford History of Music, Introductory Volume, Oxford University Press, 1929.

*Pastor, Ludwig Von, History of the Popes, St. Louis, Missouri, 1898, 14v.. *Pater, Walter, The Renaissance, Modern Library.

Petrarch, Sonnets and Other Poems, Londow, 1904.

Peirarch, Sonnets, tr. Joseph Auslander, New York, 1931.

Pirenne, Henri, Economic and Sacial History of Medieval Europe, New York, n.d.

Podham, A. E., Drawins of Leonardo da Vinci, London, 1947.

Portigliotti, Giuseppe, The Borgia, New York 1928.

**Prescott, W. A, History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, Philadelphia, 1890, 2v.

Butnam, George H., Books, and Their Makers during the Middle Ages, New York, 1898.

Ranke, Leopold Von, History of the Popes, London, 1878, 3v.

Rashdall, Hastings, The Universities of Europe in the Middle Ages, Oxford, 1936, 8v.

Rénan, Ernest, Averroès e. l'averroïsme, Paris, n.d.

Renard, Georges, Guilds in the Middle Ages, London, 1918.

Richter, Jean Paul, Literary Works of Leonardo'da Vinci, London, 1883, 2v.

Robertson, J. M., Short History of Freethought, London, 1914, 2v.

*Robinson, J. H., and Rolf, H.W., Petrarch, New York, 1891.

Roeder, Ralph, The Man of the Rensissance, New York, 1985.
 Rogers, J.E.T., Economic Interpretation of History, London, 1891.

Rogers, J.C.1., Evonomic interpretation of ristory, goneous, 10

*Roscoe, William, Life and Pontificate of Leo X, London, 1858, 2v.

*Roscoe, William, Life of Lorenzo de' Medici, London, 1877.

Raskin, John, Modern Painters, Boston, n.d., 5v.

'Ruskin, John, Stones of Venice, Everyman's Library, 8v.

Sacerdote, Gustavo, Cesare Porgia: La sua vita, la sua famiglia, i suel templ Milan, 1950.

 Sarton, George, Introduction, to the History of Science, Baltimore, 1930f, 3v. in 5.

*Schevill, F., Sicena, New York 1909,

Sismondi, J.C.L., History of the Italian Republics, London, s.d.

Siviero, R., Catalogue of the 2d National Exhibition of the Works of Art Recovered in Germany, Florence, 1950.

Soulier, G., Le Tintoret, Paris, 1928.

Speculum : a Journal of Medieval Studies, Cambridge, Massachusetts.

**Spengler, Otto, Decline of the West, New York, 1928.

Spengler, Otto, Decline of the West, New York, 1921 Stoecklin, Paul de, Le Corrège, Paris, 1928.

*Symonds, J.A., Life of Michelangeio Buonarroti, Modern Library.

**Symonds, J. A., The Renaissance in Italy, New York, 1883 :

Vol. I : The Age of the Despots;

Vol. il : The Revival of Learning ;

Vol. III : The Fine Arts;

Vol. V : Italian Literature, Part II;

Vol. Vi : The Catholic Reaction, Part I, London, 1914;

Vol. VII : The Cathofic Reaction, Part II.

: Symonds, J. A., Sketches and Studies in linky and Gree, London, 1896, 8v. *Tane, H.A., Italy : Plorence and Venice, New York, 1869.

Taine, H.A., Italy : Rome and Naples, New York, 1889.

Taylor, Rachel A., Leonardo the Florentine, New York. 1927.

Thompson, James W., Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages, New York, 1931.

Thorndike, Lynn, History of Magic and Experimental Science, New York, 1929 f. 6v.

Thorndike Lynn, History of Medieval Europe, Boston 1934.

Thorndike, Lynn, Science and Thought in the Fifteenth Century, New York, 1939.

Treitschke, H. Von, Lectures, on Politics, New York, m.d.

Varchi, Benedetto, Storia florentins, Cologne, 1721.

Vasari, Olorgio, Lives of the Most Eminent Painters, Sculptors, and Architects Everyman's Library, 4v.

Same, ed., E.H. & E.W. Biashield, and A. A. Hopkine, New York, 1907; references to Vol. iV are to this edition.

Vasiliev, A.A., History of the Byzantine Empire, Madison, 1921, 2v.

Venture, Lionello, and Skira - Venturi, Rossbianca, Italian Paining; The Creators of the Renaissance, Geneva, 1950.

Villari, Pasquale, Life and Times of Oirolama Savonarola. New York, 1896.
Villari, Pasquale, Life and Time of Niccolò Machiavelli, New York, n.d., 2v.

Villari, Pasquaie, Life and time of Niccolo machiavell, New Yora, n.u., 25.
Villari, Pasquaie, The Two First Centuries of Florestine History, London,
London, 1908.

Walsh, James J., The Popes and Science, New York, 1913.

Whitcomb, M., Literary Source - Book of Italian Rensissance, Philadephia, 1900.

Winckelmann, J., History of Ancient Art, Boston, 1880, 4v. in 2.

Wolf, A, History of Science, Technology, and Philosophy in the 16th and 17th Centuries, New York, 1985.

Wright, Thomas, The Homes of Other Days, London, 1871.

Young, G.F., The Medici, Modern Library.

المراجع مفصلة

أسماء الكعب كاملة توجسه في المراجع الحبسلة ، والأرقام الروءانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رثم المجلد ويتلوها رقم السفسة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدك على رقم « الكتاب » أو الجنزء من النص ويتطوها رقم الفصّل أو الآية في الفرآن أو الكتاب المقدمين.

CHAPTER 1

- Carlyle, R. W., History of Medieval Political Theory. VI, 86-6.
- In Hollway Caithrop. Petrach, His Life and Times, 14.
- Robinson, J. H., and Rolf,
 H. W., Petrarch, 67, 82.
- Marquis de Sade, Mémmoires pour la vie de Petrarque, III, 243, in Prescott, Ferdimand and Isabella, 1, 828n.
- 4. Petrach, Sonnels and Other Poems, sonnet 159.
- Peirarch, Sonnets, tr. Jos. Auslander, 126.
- Epistolae variae, no. 25, in Whitcomb., Literary Source-book of the Italian Renaissance, 13.
- 7. Renan, Avereses, 828.
- 8. Robinson and Rolf, 107.
- 9. Hutton, E., Giovanni Boccaecio, 3-5.
- 10. Ibid., 26, quoting the Filocolo.
- 11. Encycl. Brit , MI, 766b.
- 12. Boccaccio, Filostrolo, ili, 32.
- Gregorovius. F., History of the City of Rome, VI, 245.
- 14. Robinson and Rolf, 426.
- 15. Ibid., 187.
- 16. lbid., 61, 97m.
- 17. Speculum, Apr., 1986, p. 267.
- 18. In Hollway-Calthrop, 21.

- 19. Owen, John, Sceptics of the Italian Renaissance, 110,117.
- 20. Robinson and Rolf, 137,
- 21. Epistolae rerum senilium, 1, 6, in Owen, 191.
- 22. Sismondi, History of the Italian Republics, 383.
- 23. Gregorovius, VI, 246.
- 24. Ibid., 25f. 25. Ibid., 271, 258.
- 26. Robinson and Rolf, 347.
- Oregorovius, VI, 870-3; Sismondi 340-1.
- 28. In Foligno, C., Story of Padua,
- 29. Owes, 180.
- 30. Fattornsto, J., Wonders of the Business Man, 141.
- In Taylor, Rachel A., Leonardo the Florentine, 60.
- 33. Vasari Lives of the Painters, Glotto, L. 66.
- 34. Dante, La commedia divina, Purpatorio, xl. 94.
- 85. Vasari, Taddeo Gaddi, 1, 139.
- Villari, Pasquale, The Two First Centuries of Florentine Ristory, 50.
- 87. Baccaccio, Amorous Flammetia, 39.
- Castiglioni, History of Medicine, 855.

- 39. Coulton, G. O., Black Death, 10-11.
- 40. Cambridge Modern Elstory, I.
- 41. In Schevill, F. Siena, 210.
- 42. Machiavelli, History of Piorence, il, 9.
- 48. Boccaccio, Decameron, 2-7.
- 44, Ibid., Il.
- 45. Ibid., 18.
- 46. Danie, Inferno, xxviii, 22-42,
- 47. Decameron, Introd. to Sixth Day.
- 48. Combridge Medleval Bistory, VII. 756,
- 49. Hollway-Calibrop, 290.
- 50. Rebinson and Rolf, 418.
- 61. Ibid., 119.
- 52. Genoa, a Descriptive Bookles, 6.
- Crump and Jacob, Legacy of the Middle Ages, 448; Cambridge Medieval History, VI, 490.
- 54. In Sismondi, 527.
- 54s, Burckhardt, J., Civilization of the Renaissance in Italy, 79.
- 55. In Methor, F. J., Ventian Painters, 5.
- 56. Hutton, Beccaccie, 201.
- 57. Holiway-Calthrop, 257.
- 68. 1bid., 280.
- 59. Robinson and Rolf, 428.
- 60. Symonds, Age of the Despets,
- 41. Hallway-Calthrop, 123.
- 62, Robinson and Rolf, 4.
 - . CHAPTER U
- Siemondi, 206; Coulton, G. G. Life in the Middle Ages, 1, 205.
 Miman. H.H., History of Latin Christianity, VII, 266.
- 8. Gregorovius, VI. 8.
- 4. Oregiden, M., History of the Papacy During the Reformation,.

- J, 42; Gregorovius, 192.
- 5. Milman, VII, 136.
- 6. Ibid , 187. 7. Cambridge Medieval Bistory.
- VII, 278f; Rogers, J. E. T., Economic Interpretation of Bistory, 75; Pastor, History of the Popes, 1, 98.
- 8. Ibid., 66, 71.
- 8. 1bid., 66, 71 9. Ibid.,
- 10. Ibid., 92.
- 11. Coulton, Life in the Middle-Ages, 1, 205.
- 12. Cambridge Medieval Bistory, VII, 288; Milman, VII, 138s.
- 13. Pastor, I, 107.
- 14. Sarton, O., Introd. to the Historyof Science, Hib, 1084.
- 15. Postor, I, 91.,
- Machiaveili, Bistory Florence;
 i. 6.
- 17. Sismondl, 828.
- 18. Cregorovius, VI, 486.
- 19 Ibid.,
- 20. Sismondi, 489.
- 21, Pastor, i, 100,
- 22. Ibid., 108.
- 28. Sismondi, 489. 24. In Pastor, I, 105.
- 25. Lanciani, F., Golden Doys of the Renaissance in Rome, I,
- Lea, H.C., History of the Inquistion in the Middle Ages, 111, 98-120; Milman, VII, 41-51.
- 27. Benzley, C.R., Dawn of Modern Geography, 111, 181.
- 28. Coulton, O. O., Medieval Panorama, 650.
- 29. Siamondi, 458.
- so, Gregorovins, VI, 592.
- 31. Paster, 1, 289.

32. Coulton, Inquisition and Liberty, 45.

CHAPTER III

- Thampson, James W., Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages. 458.
- 2. Beard, Miriam, Bistory of the Business Man, 184.
- 3. Cellini, B., Autobiography, i, 69,
- 4. Cambridge Medieval Bistory. VI, 487.
- Pirenne, Henri, Economic and Social History of Medival Europe, 216.
- 6. Burckhardt, 76.
- Nussbaum, F. L., Bistory, of the Economic Institutions of Modern Europe. 70.
- 8. Beard, M., 115.
- 9. Sarton, Illa, 125.
- Thompson, Economic and Social Bistory, 406.
- Symonds, Age of the Despots, 197; Sismondi, 573.
- 12. Machiavelli, History, iv, 3.
- 18, Beard, M., 152; Burckhardt, 80,.
- 14. Machiavelli History, iv, 6-7.
- 15. Beard, M., 152.
- Villari, P., Two First Centuries, 358.
- 17. Sismoudi, 568f; Beard, 152.
- 18. Burckhardt, 78.
- 19. Boissonnade, P., Life and work in Medieval Europe 299.
- Roscoe, Wm., Life of Lorenze de Medici, 79.
- 21. Varchi, Benedetto, Storia floren-
- tina, end of book ix.

 22. Ariosto, Satire2, vil, 25.
- 23. Cambridge Modern Bistory, 1, 542.

- Symonds, Revival of Learning, 104.
- 25, Ibid., 243.
- 27. Villaeri, Macbiavelli, 1, 89.
- 28. Pastor, 1, 27.
- Villari, Machiavelli, 83; Symones, Revival of Learnig, 234,
- 30. Villari, 1,c.
- 81. Pestor, 11, 201.
- 32, Symonds, Revival, 237.
- 83. Burckhardt, 508.
- 34, Symonds, Revival, 240.
- In Dopsch, Economic and Social Foundations of European Civilization. 2.
- 36. Vasari, Lives, 11, 270 Andrea da Fiesole.
- 87, Fattorusso 209.
- Vasari, Lives, Il, 299, Baldassare Peruzzi.
- 39. Beard, 153.
- Symonds, Fine Arts, 134; Cumbridge Modern History, 1, 548.
- 41. Vasari, II, 52, The Belli Family. 42. Baedeker, Northern Italy, 567.
- 44, Ibid.
- 45. Sarios, Ilib, 1132.
- 46, Vasari, II, 239, Raphael, 48, Morey, C.R., Midieval Art, 846,
 - 49. Vasari, II. 8, Fra Filippo Lippi.
 - Crowe and Cavalenselle, New History, of painting in Italy, 11, 234.
 - 51. Symonds, Sketches and Studies
 - in Italy and Greece, 21-6.

 52. Machiavelli, History, vil, 1,
- Guicciardini, Fr., History, of the Wars in Italy, 1, 181.
- 54. Machiavelli, Bistory, vii. I.
- 55. In Young, O.F., The Medici, 77

CHAPTER IV

- 1. Machiavelli, History, vii, 2.
- 2. 1bid.
- 8. Cambridge Modern History, 1, 991; Rosoc, Lorenzo, 156-7.
- 4. Roscoe, 169.
- 5. Ibid., 278; Yaung, 220.
- 6. Sismondi, 659; Villari, Life and Times of Savonarola, 45: Beard. 166.
- 7. Machiavelli, vili. 7.
- 8. Guicciardini, 1,5.
- 9. Roscoe, Lorenzo, 285.
- 10. Storia florentina, ch. in, in Villari, Machiavelli, 1, 35.
- 11. Translation by Symonds, Italian Literature, 1, 890.
- 12. Varchi, end af book ix.
- 13. Sellery, G. C., The Renaissance, TRE.
- 14. Pastor, V, 154.
- 15. Villari, Machiavelli. 1, 189.
- 16. Abrahams, 1., Jewish Life in the Middle Ages, 421.
- 17. In Parer, W., The Renaissence, 88
- 18. Translated from the Latin text as gixen in Burckhardt, 354-5.
- 18. Symonds, Sketches, 319-20.

in Owen, 151,

- 20. Pulci, Morganic maggiore, i, 541,
- 21. XVIII, 1151, in Symouds, Italian Literature, I. Appendix V.
- 22. Canto xxv.
- 28. XXY, 229-30, in Prescott, Ferdinand and Isabella, 1, 496.
- 24. la Roscoe, Lorenzo, 311.
- 25. Vasari, Life of Rustick.
- 26. Vasari, II, 98, Andrea Verracchio.
- 27. Müntz, E., Rapbael, 146.

- 28. Berenson, B., Study and Criticism of Italian Art, 2.
- 29. Vasari, Il. 23. Benozzo Gozzoll.
- 30, Berenson, Florentine Painters of the Renaisance, 63; Taine, H. A., Italy : Florence and Venice, 197.
- 31. In The Martyrdom of St. Peter it the Brancacci Chapel.
- 32. Vasari, II. 85. 87. Botticelli.
- 83. Crowe and Cavalcaselle, II, 431-3.
- 84. Von Reumont, Lorenzo, il Magnifico, II, 590, Creighton, III, 298-8, and Roscoe, Lorenzo, 327, accept Politian'z account : Villarl, Savonarola, 168 - 79, prefera Pico's-Politian's third consition seems too innocuous to be historic.
- 35. Machiaveld, Bistory, vili, 7; Quicciardini, I. 10.
- 36. Roscoe, Lorenzo, 334. 1. Noyen, Farraro, 98,

CHAPTER V

- 2. in Roeder, R., The Man of the Renaissance, 6.
- 3, Ibid., 5,
- 4. lbid. 5. Savonarola, 28th Sermon on Ezekiel-
- 6. In Vilfari, Suvenarela, 196.
 - 7. In Roeder, 25.
 - 8. Villati. Savonarola, 129.
- 9. Symonds, Italian Literature, 1. Ritu.
- 10. Villari, 188.
- 11. lbid., 189,
- 12. Guicciardini, ?, 173,
- 13. Villari, 343.
- 14. Roeder, 57.
- 15. Villari, 380.

- 16. lbid., 329.
- 17. Quicciardin, II, 391.
- 18. Cambridge Modern Bistory, 1, 673 and ch. xix,
- 19, Villari, 893.
- 20. ibid., 376.
- 21. Ibid., 390.
- 22. Ibid., 400.
- 23. 1bid., 401.
- 24. Ibid., 406.
- 25. Ibid., 410.
- 26, Ibid., 474.
- 27. Cambridge Modern History, 1, 179.
- 28. Lenten sermons of 1497, no.
 22. in Villari, 516-8.
- 29. Sermon no. 28, in Villari,519-20.
- 80. Villari, 522.
- 81. Cambridge Modern [History, 1, 179,
- 82. Villari, 601.
- 83. Ibid., 645.
- 84. Cambridge Modern History, 1, 182.
- 85. Vasari, Il, 176, Piero di Cosimo.
- 36. Id., III, 319, Lombard Aritists,
- \$7. Crowe, III, 562.

CHAPTER VI

- 1. Beard, 184.
- 3' Boissondude, 326.
- 3. Pastor, V. 126.

- 4. Sismondi, 746; Burckardt, 296.
- 5. Ibld., 297.
- 6. Hollway-Calthrop, 14.
- 7. Thompson, J. W., Economic and Social History, 236,
- 8. Noyes, Milan, 132.
- Thompsoq, 460; calculations made by Schmoller from gaveratal archives.
- Burchkhardt 14; Symonds, Age of the Desp0is, 161.
- Machiavelli, History, vii, 6;
 Sismondi, 620-1.
- 12. Cartwright, J., Beatrice d'Este,
- 13. Müntz, E., Leonardo, dovinci 1,103
- Taylor, R, Leonardo, 104.
 In Cartweight, Beatrice d'Este, 185.
- 16. Cf., eg., Cartwright, 78.
- 17. Sigmondi, 741.
- 17. a lm Noyes, Milan, 165.
- 18. Ibid., 183.
- 19. Cartwright, Isabella d'Esta, I, 151.
- 20. Cartwright, Beatrice & Esis, 370-8.
- 91. Ibid., 141.
- 28. In Symouds, Revival of Learning,
- 28. Ibid., 269.
- 24. Cellini, Autobiography, i 26.

